

المنافذ الثقافية

مجلة ثقافية فصلية محكمة / العدد الثالث والعشرون / صيف / ٢٠١٨

عمر شبلي	الحضارة فعلٌ أخلاقي
د. عزيز طونسي الأشقر	تمثُّلات الذات عند الشعراء السود في الشعر العربي القديم
د. مازن شلق	المتنبي شاعر حبّ وغزل كما هو شاعر مجدٍ وكبرياء
د. رضى عبد الله عليبي	الكرونوتوب في شعر الغزليين
د. كمال منذر	الكواكبي صوتُ النهضة
د. نصر قرحاني	الثقافة والمجتمع
د. خميس غربي حسين	تقييم الدراسات الاستشراقية في القرن العشرين
رنا إبراهيم الحريري	الكناية في سور المئين
د. راما عزيز دراز	التيارات والحركات اليهودية المناهضة للحركة الصهيونية
د. هادي شبلي	الشخصية المحورية بين المغالاة الدينية والقهر السياسي
د. محمود الأظن	"البرج" مركز حكم عكار بين سنة ١٨٠٠م و ١٨٨٦م
أنطوان جورج الفتى	السودان في عهد محمد علي
نجوى فهم كمال الدين	مقارنة المنهج اللبناني مع مناهج البكالوريا الدولية/اقتصاد
د. صلاح عصام أبو شقرا	الهجرات عبر شمال سلسلة جبال لبنان الشرقية وأثرها
د. رفيق العزيز	المشكلة الغذائية في دول العالم الثالث ومسؤولية الدول المتقدمة
د. فواز فرحات	تيمور لنك
حورية عباس الديري	دور الإعلام في توجيه استراتيجيات تمكين الشباب
سعيد الصقلاوي	قالت الأرض
علي شمس الدين	ناي القتل

– موقف "المنافذ الثقافية" –

من قضايا الانتماء الفكري والأدبي والروحي
للأمة العربية والاستجابة الإيجابية للتحدي

المنافذ الثقافية

مجلة ثقافية فصلية محكمة تُعنى بأحوال الثقافة والفكر والأدب

رئيس التحرير
عمر محمد شبلي

الهيئة الثقافية والإدارية

د. خديجة شهاب	د. هالة أبو حمدان	د. درية فرحات
د. نصر قرحاني	د. هبة الحشيمي	د. عيدا زين الدين
د. عماد هاشم	د. ندى الرمح	د. منى دسوقي
د. رضا العليبي (تونس)	د. ماغي عبيد	د. زهور شتوح (الجزائر)
أ. سوزان زعيتر	أ. زينب راضي	أ. حكمت حسن
أ. مروان درويش	أ. إيمان صالح	

اللجنة المحكّمة

د. ديزيره سقال	د. حسن جعفر نور الدين	د. محمد فرحات
د. فؤاد خليل	د. لارا خالد مخول	د. علي حجازي
د. جمال زعيتر	د. مها خير بك ناصر	

المدير المسؤول

علي حمود

إخراج

عبد القادر نجيب كرزي

٧٠/٦٢١٤١٠

تصميم المجلة

عبير سمير نجم

العدد الثالث والعشرون - صيف ٢٠١٨

موقع المجلة الإلكتروني - www.al-manafeth.com
مركز المجلة: ريفيرا سنتر - كورنيش المزرعة - دار العودة - الطابق الخامس
الإشتراكات السنوية:

لبنان - للأفراد ١٥٠ ألف ليرة لبنانية - للمؤسسات ٢٢٥ ألف ليرة لبنانية

باقي الدول العربية:

للأفراد ١٢٥ دولار - للمؤسسات ٢٠٠ دولار

للمراسلات: chebli_omar@hotmail.com

المحتويات

٥	الحضارة فعلٌ ثقافي أخلاقي عمر شبلي
٨	تمثّلات الذات عند الشعراء السّود في الشّعر العربيّ القديم د. عزيز طوني الأشقر
٢٨	«المتنبيّ» شاعر حبّ وغزل.. كما هو شاعر مجد وكبرياء د. مازن شلق
٣٩	الكرونوتوب في شعر الغزليين د. رضى عبدالله عليبي
٥٤	الشّخصيّة المحوريّة بين المغالاة الدّينيّة والقهر السّياسي في روايتي د. هادي شبلي
٧٣	جدليّة اللّذة والألم في شعر حسين فرّان من خلال الواقع العربيّ المأزوم والتّعلّب عليه حسين حسن بلحص
٨٩	الكواكبي: صوت النهضة د. كمال منذر
٩٩	التيارات والحركات اليهودية المناهضة للحركة الصهيونية د. راما عزيز دراز
١٢٧	تقييم الدراسات الاستشراقية الموضوعية في القرن العشرين أ. م. د خميس غربي حسين
١٤٩	البرج مركز حكم عكار بين عام ١٨٠٠-١٨٨٦ م د. محمود الأظن
١٦٧	تيمورلنك د. فواز فرحات
١٧٩	الثقافة والمجتمع د. نصر قرحاني
١٩٢	الهجرات عبر شمال سلسلة جبال لبنان الشرقية وأثرها في تشكل البلدات والقرى في قضاء بعلبك د. صلاح عصام أبوشقرا
٢١٤	السّودان في عهد محمد علي أنطوان جورج الفتى
٢٣٤	صور مدينة التعايش الإسلامي المسيحي والدور الذي لعبه رجال الدين بنجاح هذا التعايش علي مسلماني
٢٤٧	مقارنة المنهج اللبناني مع منهج البكالوريا الدولية في مادة الاقتصاد في المرحلة الثانوية نجوى فهيم كمال الدين
٢٦٨	دور الإعلام في توجيه استراتيجيات تمكين الشباب في دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية أ. حورية عباس الديري
٢٨٢	المشكلة الغذائية في دول العالم الثالث ومسؤولية الدول المتقدمة د. رفيق العزير
٣٠٤	تطور القوانين والنظم الانتخابيّة في لبنان بين ١٩٢٢-٢٠٠٩ غازي زهرالدين

	الكناية في سور المئين
٣١١	رنا إبراهيم الحريري
	المبحث الرابع: مظاهر الخصخصة في الاقتصاد اللبناني (ج٢)
٣١٨	حوراء علي سبيتي
	العنف ضد المرأة
٣٣٩	لبنى صقر
	المرأة بين العادات والحريّة المفرطة نموذج (حكايّتي شرح يطول «حنان الشّيح»)
٣٥٥	ملاك حاتم الطفيلي
	التّفايات في لبنان بين المواطن والبلديات منطقة بنت جبيل أنموذجاً
٣٦٤	زينب حمادة شعيتو & جوسلين أدجيزيان جيرارد
	المقاومة الأهلية في سوريا ضد الانتداب الفرنسي
٣٧٢	رمضان أحمد العمر
	تحليل قصيدة الضمان من الأدب الألماني
٣٩٧	قاسم بزون
	أبعاد مجزرة قانا في الشعر العربي دراسة في التحليل النفسي للأدب
٤٢١	كاتيا أبو هوش
	دعوة ميّت إلى العشاء
٤٢٨	زنوبيا ظاهر
	منتصف ليل الملاك التائه
٤٢٩	فيديل سبيتي
	ناي القتل
٤٣٠	علي شمس الدّين
	قالت الأرض
٤٣١	سعيد الصقلاوي
	قرأت في العدد الثاني والعشرين
٤٣٣	بقلم حكمت حسن
	نشاطات ثقافيّة
٤٣٦	د. درية فرحات/ أ. حكمت حسن
	The impact of job satisfaction and motivation on Lebanese English school
٤٣٨	Joumana Obeid, Diana Malaeb, Bouchra Mouhtadi, Rola Yazigi
	RUNNING HEAD: Servant Leadership Servant Leadership Philosophy
٤٤٦	Yousra Mazeh
	Mirror Stage Confusion and Female Self-destruction in Paul Bowles's The Sheltering Sky
٤٥١	noura jazzar
	The Significance of Academic Resources in University Libraries
٤٦٦	BY - Amenah Majbour - M.A. Ph.D. - 2018
	Six Mismatches between Teachers' Beliefs and Written Feedback Practice:
٤٧٤	Dr. Ziad Hadla
	tique brachylogique]TEACHER QUESTIONNAIRE Le voyage en train: pour une po
٤٩١	MAYA KHALED

الحضارة فعلٌ ثقافي أخلاقي

عمر شبلي

«فإذا ما حدث اضطراب خطير في عواملها الاقتصادية، أو في طرق انتقالها من جيل إلى جيل فقد يكون عاملاً على فنائها» (المصدر نفسه). وقد يستمر عمر الحضارة والمدنيّة أكثر بتوازن عواملها وانسجام حركة التطور فيها، على الرغم من تأكيد الكثيرين على أن للحضارة عمراً ككل ظواهر الطبيعة، ولكنّ هذا العمر يطول بالفعل الإنسانيّ الواعي المتطور، والمستجيب لحركات المادة نفسها، وللنزعة الأخلاقيّة التي هي أقوى دعائم ارتكاز الحضارة وضمان نموّها.

أخلاقية الحضارة فعل تراكميّ لمنع جمودها وانهارها، وذو دلالة عميقة قول الرسول العربيّ «محمد بن عبد الله»: «إنما بُعثت لأتممّ مكارم الأخلاق»، في هذا الكلام يعترف الرسول بأنّ حضارات كبرى سبقت ظهور الإسلام، واللافت في هذا الحديث أنّ الحضارات السابقة كانت تقوم على ارتكاز أخلاقي أقرّه الرسول العربيّ بقوله: «لأتممّ» ولم يقلْ لأستحدث أخلاقاً

كُنْزٌ حاولوا تعريف الحضارة، مؤرخين ومفكرين ومتقنين وفلاسفة، وكانوا جميعاً متقاربين في تعريف الحضارة، وسأخذ رأياً جامعاً، هو رأي ول ديورانت صاحب موسوعة «قصة الحضارة»، حيث يقول: «الحضارة نظام اجتماعي يُعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي، وإنما تتألف الحضارة من عناصر أربعة: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسيّة، والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون. وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق، لأنّه إذا أمن الإنسان من الخوف، تحررت في نفسه دوافع التطلّع وعوامل الإبداع والإنشاء» (قصة الحضارة ص ٣ المجلد الأول). ويقول وليم هاوِلر: «الحضارة هي كل ما يساعد الإنسان على تحقيق إنسانيته». وهي بهذا المعنى الهادف نتاج ثقافيّ ينطلق من الإنسان ليعود إليه إنجازاً فكرياً وروحياً ومادياً.

والحضارة قد تكون معرضة للفناء،

معرفة حين تنقذه هذه المعرفة من بهيميته، وانزلاقاته التي تدمر الأسرة، لبنة البناء الاجتماعي الأول. وبعض القوانين يتحوّل إلى تقاليد، ومنها ما يكون ذا أثر إيجابي. ومنها ما يتحوّل إلى عائق أمام التطور. وللقوانين صفاتٌ بيئية، فما يناسب بيئة قد لا يناسب بيئة أخرى. ولذا فالأخلاق تصبح متناسبة مع الحاجات المختلفة للمجتمعات، في الجغرافية والزمن. وما هو اليوم رذيلة ربما كان فضيلةً يوماً ما. والأخلاق في حقيقتها هي المنفعة الإيجابية للفرد والمجتمع على السواء. وتفقد المنفعة معناها الأخلاقي حين تؤذي، وتُستغل باسم القانون. فالمنفعة بمعناها الحقيقي هي إنجاز عادل للفرد والمجموع تحت حماية القانون ومراقبته.

بهذا المفهوم تغدو الحكومات تحت إمرة القانون حكماً، وحين تخترقه بذرائع كثيرة فإنها تفتقر إلى العنصر الأخلاقي الذي هي مشرفة عليه باسم القانون، ويصبح العمل السياسي خطيراً بسبب شموليته واتساع صلاحياته القانونية، يقول الشاعر الإنكليزي «شيللي»: «أكبر جرم ارتكب في تاريخ العالم هو فصل علم السياسة عن الأخلاق».

ولا بدّ من تأكيد حقيقة دور الفنون في صيانة الأخلاق على مستوى الفرد والجماعة في آن. لأن الفنون أكثر التصاقاً

جديدة، هناك بناء خلقي متراكم، كان موجوداً، حتى ولو لم يكن إسلامياً، والحديث يؤكد ذلك. وهذا يعني الاتكاء على الموروث الأخلاقي والفكري والفني والعلمي الذي لا يناقض التطور والتجاوز المستمر إلى الأمام، والقائم على الإنجاز والإلغاء، إنجاز المتطور، وإلغاء ما تجاوزته الضرورة. وبسبب هذا المعنى التراكمي المعرفي الناتج من خبرات مفكرين وعلماء وفلاسفة وأدباء ومثقفين يقول الفيلسوف «كنت»: «إن الأموات يحكمون الأحياء» وهو يقصد الأموات الذين قضوا، وتركوا وراءهم أنواراً ساطعة. ورأى كثير من الباحثين أنّ المكتبة «هي بيت يعيش فيه الموتى مع الأحياء» لأنّ المكتبة تحوي أفكار مفكرين يعيشون في كتبهم، وما زالوا أحياء، ولم يموتوا يوم ماتوا.

والأخلاق في حقيقتها هي نظمٌ اجتماعية، وقوانين مستنبطة من إقرار الضرورة وحتميتها التي يخلقها الواقع الاجتماعي السليم المتجدد، وليس المفتعل. القانون يحمي النظام، والقانون ليس ثابتاً، لأنّ الحياة نفسها ليست ثابتة، وهو ابن الحياة في حقيقته. ولذلك تغدو عقوبة مخالف في القانون عملاً أخلاقياً، والقانون يأخذ صفته الأخلاقية بمقدار ما يساعد على تنمية إنسانية الإنسان. والمعرفة بمعناها الحقيقي ثقافة وقانون، والفعل الجنسي

والقوة تصبح عديمة الجدوى حين تخلع
الأخلاق في معاركها، والتاريخ مملوء
بأخبار مآل القوة الظالمة التي يتحوّل
نصرها إلى هزائم أخلاقية، وما أروع قول
بدوي الجبل:

لقطافِ العلا شمائلُ كالنا
سِ فنصرٌ وغدٌ ونصرٌ نبيلٌ

وتأثيراً في النفس البشريّة، والقدرة
الانفعاليّة العالية التي تمتلكها الإنجازات
الفنيّة تهب لها حضوراً مؤثراً أكثر من
القانون أحياناً كثيرة. قد ينسى المرء نصاً
قانونياً، ولكن هل هناك من لا يردد قول
أحمد شوقي:

وإنما الأمم الأخلاقُ ما بقيتْ
فإن همّ نهبتْ أخلاقهم ذهبوا

وكان شيللي يقول: «الشعراء مُشرّعو
العالم غير المعترف بهم»، ولذا كان
«كونفوشيوس» الحكيم الصيني يقول: «لا
يهمني من يكتب قوانين الصين ما دمتُ
أكتب أغانيها» طبعاً كان يدرك أي أثر
تتركه الأغنية في النفس الإنسانية.

تمثّلات الذات عند الشعراء السّود في الشّعر العربيّ القديم

د. عزيز طوني الأشقر^(*)

وبالعودة إلى بعض المؤلّفات والدراسات التي طاولت علاقات السّود بالعرب، ككتاب «فخر السّودان على البيضان» للجاحظ، أو كتاب «الأغاني» للأصفهاني أو كتاب «الشّعراء السّود وخصائصهم» لعبده بدوي نلحظ تلك السّلبية المتبادلة بينهما، فالعرب رأوا في السّود رقاً وعبداً ليس لهم نسب يتباهون بأصالته، ولا رابط يجمعهم بالعرب الأحرار حتّى وإن كانوا أفراداً يعيشون ضمن قبائلهم أو مجتمعاتهم، فهم «كريهو الرّائحة، ناقصون جسداً وعقلاً، بحيث ينطبق المثل

لقد كان للصّورة النمطيّة التي تمثّلت في أذهان العرب عن ذوي البشرة السّوداء، عبداً كانوا أم أسياداً، شعراء أو محاربين، طوال عصور مختلفة، عظيم الأثر في نفوس هؤلاء السّود، فانعكست في نظرهم إلى العرب من جهة وإلى ذاتهم من جهة ثانية، إذ تشكّل لديهم مفهوم للذات مبني على نظرة الآخر لهم، وبالتالي لم تتشكّل رؤيتهم لذاتهم انطلاقاً من «الأنا العمليّة» التي تتألّف من مجموع ما يمتلك الإنسان من صفات أو ما يستطيع أن يقول إنه يمتلكه كالجسم والسّمات والقدرات^(١).

(*) دكتوراه دولة في اللّغة العربيّة وآدابها.

- (١) لقد حدّد وليم جيمس نمطين لدراسة الذات هما: الذات العارفة التي تشمل وظائف التفكير والإدراك ولا قيمة لها في فهم السلوك، والذات كموضوع والتي يعتبرها الذات التجريبيّة العمليّة، وتشتمل على:
- الذات المادية: وتشير إلى جسم الفرد، أسرته، ممتلكاته.
 - الذات الاجتماعيّة: تشير إلى كلّ ما تتضمّنه وجهة نظر الآخرين نحو الفرد (وقد كانت الأكثر تأثيراً في الشعراء موضوع الدراسة).
 - الذات الروحيّة: تتمثّل بالانفعالات ورغبات الأفراد.
- أنظر: قحطان أحمد الظاهر: مفهوم الذات، دار وائل للطباعة والنشر، ط ١، ٢٠٠٤، ص ١٧.

النمطيّة المتوارثة عنهم، أمّ أنّهم حاولوا تحدّي الواقع وفرض صورة جديدة عن ذاتهم؟

لقد ألم هذا الواقع الشعراء السّود، فانقسموا في نظرتهم إلى ذاتهم إلى قسمين، فمنهم من حاول استبطان الاحتقار والتعامل معه، وأصبحوا يرون ذواتهم من خلال انعكاسها العربي (القسم الأول)، ومنهم من رفض الواقع وحاول مقاومته وتحديّيه سواء من خلال كسر هذه الصّورة التي تتمحور حول بشاعة اللون الأسود وقباحة عنصره، فعمدوا إلى تعداد مآثر السّود وخصائصهم الجسديّة والقتاليّة، أمّ من خلال التّغنيّ بالفضائل الأخلاقيّة والإنسانيّة التي يتحلّون بها والتي تجعلهم «بيضاً» بنفوسهم وتصرفاتهم (القسم الثاني).

والجدير بالذكر أنّ استسلام الشّاعر إلى الأحكام التي أسقطت عليه ورافقتة أو عدم استسلامه، لم يرتبط بشاعر معيّن دون سواه، إنّما ارتبط بالسياق الطّرفي لشعره وبحالته النفسيّة، لذلك قد تراه تارة غاضباً ثائراً وطوراً منهزماً منكفئاً، وعليه فقد كان لا بدّ من الاستعانة في هذه الدراسة بالمنهج النّفسي^(٣)، الذي يستمدّ آلياته

العربي عليهم: الرّنجي إذا جاع سرق وإذا شبع زنا»^(١)، فوجد السّود أنفسهم فئة مضطهدة تعيسة مستعبدة قد تُعامل بلطف حيناً وقسوة أحياناً من غير أن تُصبح جزءاً من نسيج المجتمع، لا بل رافقتها المسمّيات والنعوت الجارحة كلقب «ابن السّوداء» الذي التصق بعنتره حتّى بعد عودته منتصراً من المعركة، في حين أنّ ألقاباً أخرى لم تقترن بلون البشرة فحسب، إنّما تعدّتها إلى الصفات الجسديّة أو الخلقية، كلقب الشنفرى الذي يشير إلى شفّته الكثيفتين.

إذا فقد اختلفت أشكال النّظرة إلى الشعراء السّود، ولكنّها التقت على دونيّتهم ونقصهم، فابن خلدون يرى أنّ السّود معروفون بالهزل والطّيش والعاطفيّة الزائدة وأنّهم يتّصفون بالغباء أينما وُجدوا، رافضاً أسطورة العهد القديم التي تبناها بعض العرب أمثال الشاعر الأموي جرير القائلة بأنّ السّود هم أبناء حام الذي عوقب بلونه لارتكابه خطأ، إنّما حاول التوصل إلى تفسير علمي قائم على حرارة الشمس وأثرها في سلوكهم^(٢).

إزاء هذا الواقع، كيف نظر الشعراء السّود في مختلف العصور العربيّة القديمة إلى ذاتهم؟ أرضخوا لتلك الصورة العربيّة

(١) عبده بدوي: الشعراء السّود وخصائصهم في الشعر العربي، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، ١٩٨٨، ص ٨٤.

(٢) ابن خلدون: المقدّمة، دار الفكر للطباعة والنّشر والتوزيع، ٢٠٠٧، ص ١٠١.

(٣) يوسف وغليسي: مناهج النّقد الأدبي، جسر للنّشر والتوزيع، الجزائر، ط ١، ٢٠٠٧، ص ٢٢.

وأثر عدم المواجهة، بل إلى التواؤم مع هذه النظرة الدونية، التي أنكرت نسبهم وحققت عنصرهم، وربطت الجلد الأسود بالرق والعبودية، وشبّهتهم ببعض الحيوانات الكريهة، فترى الشعراء السّود أنفسهم يكرّرون هذه الصّور في أشعارهم، لكنّها أمست جزءاً من واقعهم الثقافي ومن رؤيتهم الذاتية.

١ - اقتران السّواد بالعبوديّة والهجانة

ذكر معظم الشعراء السّود لونهم في غير موضع في أشعارهم بطريقة تصريحية مباشرة قائمة على استخدام لفظ «أسود» ومشتقاته، مع ما يرمز إليه من دونيّة وانتقاص من قدرهم، ونرى عنتره بن شدّاد يصرّ في شعره على الدلالة السلبية لهذا اللون الذي يراه مرضاً لا براء منه^(٣):

لَئِن أَكُّ أَسْوَدًا فَالْمِسْكُ لَوْنِي

وَمَا لِسَوَادٍ جِلْدِي مِنْ دَوَاءٍ

كما نلاحظ استخدام ألفاظ عديدة مرادفة للفظ أسود في مدلولها النفسي والاجتماعي مثل أدهم، فاحم، أسحم، أدعج، حالك، أحوى، حيث عبّر الشّاعر الأموي نصيب بن رباح عن سلبية لونه، مستوحياً أبياته من

النقدية من نظرية التّحليل النفسي، حيث يعتبر أنّ النّص الأدبي مرتبط بلاوعي صاحبه، وكذلك الاستعانة بالمنهج التّاريخي الذي يعوّل على دور البيئة والتّاريخ في الأدب والشّعر^(١)، بالإضافة إلى المنهج الوصفي التّحليلي الذي يصف الظواهر والأحداث التي أحاطت بهؤلاء الشعراء في تطورها ويحلّها^(٢).

ويبقى أن نشير أخيراً إلى أنّ مفهوم تحديّ المجتمع ومقاومته ينطلق من الشّعور بالدونية والنقص والرغبة في الثورة على الواقع وتغييره، وبالتالي فإنّ المنطلقات النفسية لجميع الشعراء، أكان ثورةً ومقاومة أم استسلاماً، إنما هي واحدة، مردّها ذلك المجتمع العربي الذي لم ينصفهم، فبقوا فيه مكسوري الجناح مهضومي الحقوق، مهما علت مراكزهم أو مقدراتهم، فلا ننسى كافوراً الذي حكم مصر في القرن العاشر قد عُير بسواده، وهُجّي بأصله ونسبه ولونه.

أولاً: استبطان الاحتقار والشّعور بالدونية

في ظلّ واقع اجتماعي يفرض صورة نمطية واحدة لذوي الجلد السّوداء، ذهب العديد منهم إلى تقبّل هذا المجتمع وتحامله،

(١) عبد الرّحمن بدوي: مناهج البحث العلمي، وكالة المطبوعات، الكويت، ط١، ١٩٧٧، ص١٤٠.

(٢) المرجع نفسه، ص٧٨.

(٣) عنتره بن شدّاد: ديوانه، تحقيق الخطيب التبريزي، دار الكتاب العربي، ط١، ١٩٩٢، ص٢٢٢.

شعر عنترة، مُستخدِماً لفظ حالك عوضاً عن أسود، يقول^(١):

لَئِنْ أَكَّ حَالِكًا فَالْمِسْكَ أَحْوَى

وَمَا لِسَوَادِ جِلْدِي مِنْ دَوَاءٍ

وكذلك يذهب الحيقطان، وهو شاعر أمويّ أسود، من أهل اليمامة إلى استخدام صفة فاحم، يقول^(٢):

لَئِنْ كُنْتُ جَعَدَ الرَّأْسِ وَالْجِلْدُ فَاحِمٌ

فَإِنِّي لِبَسِطِ الْكَفِّ وَالْعَرَضِ أَزْهَرُ

وفي بيت آخر، نسبه جواد علي إلى الفضل بن عباس بن عتبة اللّهي وهو شاعر هاشمي قرشيّ إلاّ أنّه كان شديد السّمة لأنّ جدّته لأمّه كانت حبشيّة، فكان نسبه هذا مغمزاً عيّره به الشعراء وهجوه به، فنرى الأخير يلجأ إلى لفظ أخضر للدلالة على صفة السّواد، عملاً بما جرت عليه العرب، يقول^(٣):

فَأَنَا الْأَخْضَرُ مَنْ يَعْرِفُنِي

أَخْضَرُ الْجِلْدَةِ مِنْ بَيْتِ الْعَرَبِ

وإذا كانت الرّوح الجاهليّة قد ربطت

أصحاب الجلدة السّوداء بالرقّ والعبوديّة ربطاً حتمياً، فإنّ الإسلام لم يصنّفهم عبيداً حكماً، كما أنّه لم يصنّفهم عبيداً دون سواهم من سائر الشّعوب، فأسواق الرقّ قد شملت إلى جانب الأحباش والنوبيين الأتراك والفرس والبيزنطيّين على سبيل المثال، غير أنّ هذا الواقع لم يجنّبهم عبر العصور من أن يشكّلوا الغالبية العظمى من الرقّ والعبيد، ما جعل تلازماً حتمياً بين لفظي أسود وعبد، لا بل أصبحا مترادفيّن، على الرّغم من وضوح الحديث الشّريف (لا فرق لعربيّ على أعجميّ ولا لعجميّ على عربيّ ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلاّ بالتقوى)^(٤)، وخير شاهد على هذا الحديث أنّ مؤذن الرسول «بلال بن رباح» كان أسود، ناهيك عن ورود حديث آخر عن النّبي محمّد ﷺ ذكره ابن رشد في مؤلّفه جاء فيه: «ولذلك قال ﷺ في السّوداء إذ أخبرته أنّ الله في السماء (اعتقها فإنّها مؤمنة)^(٥)».

وتكثر الأمثلة على ترادف المعنّيين في

(١) نُصيب بن رباح: ديوانه، تحقيق داوود سلوم، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٦٧، ص ٥٨.

(٢) شهاب الدّين الأبشيهي: المستطرف في كلّ فنّ مستطرف، تحقيق عبدالله أنيس الطّباع، شركة دار الأرقم، لبنان، لات، ص ٢٧١.

(٣) جواد علي: المفضل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار السّاقبي، ط ٤، ٢٠٠١، ج ٧، ص ٣١٠.

(٤) رواه أحمد في صحيحه، حديث رقم ٢٣٥٣٦.

(٥) ابن رشد: كتاب فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتّصال، تحقيق وسام عبدو اللّحام، دار الكتب العلميّة، ١٩٧١، ص ١١٤.

الشعر العربي، بحيث يستخدم عنتره بن شداد في معلقته صفة عبد مترادفاً لحبشي^(١):

صَعَلٌ يَعُودُ بِذِي الْعَشِيرَةِ بِيضُهُ
كَالْعَبْدِ ذِي الْفَرْوِ الطَّوِيلِ الْأَصْلَمِ

وكذلك نرى عنتره، حتى عند افتخاره بذاته وتعداد مآثره وبطولاته، يستخدم لفظ «عبد» الذي أمسى استخدامه اعتيادياً في عصر ربط اللون بالرق، يقول^(٢):

أَنَا الْعَبْدُ الَّذِي سَعْدِي وَجْدِي
يَفُوقُ عَلَى السُّهَى فِي الْارْتِفَاعِ

وفي موضع آخر يصف نفسه بالعبد عند ذكر شجاعته، لكأن هذه الصفة أمست تعبر عن هويته وتعرف عنه^(٣):

أَنَا الْعَبْدُ الَّذِي حُبَّرَتْ عَنْهُ
يُلاقِي فِي الْكَرْبَةِ أَلْفَ حُرٍّ

وكذلك حال الشاعر الجاهلي سحيم عبد بني الحسحاس الذي يستعيد في أبياته كلاماً قالته إحدى نساء قبيلته، مستخدماً لفظ أسود دلالةً على العبودية، لا سيما أنه استخدم بعده فعل «يملك» بما يرمز من

استيلاء عليه والقدرة على التصرف فيه بما تريد^(٤):

أَشَارَتْ بِمَدْرَاهَا وَقَالَتْ لِتَرْبِهَا
أَعْبُدُ بَنِي الْحَسْحَاسِ يُزْجِي الْقَوَافِيَا
رَأَتْ قَتَباً رَثّاً وَسَحَقَ عَبَاءِ
وَأَسْوَدَ مِمَّا يَمْلِكُ النَّاسُ عَارِيَا

ونستشف من خلال هذين البيتين المهانة التي طاولت الشاعر حيث وُصف بالعباءة السوداء، بما في هذا الوصف من احتقار وتصغير، لا سيما أن ذكر العباءة يتكرر في الشعر بوصفها من لباس الفقراء من دون الأغنياء، وكونها من لباس الأعراب لا الحضر^(٥).

وإلى جانب لفظي أسود وعبد، نلاحظ استخدام صفة الهجانة عند هؤلاء الشعراء والتي تشير إلى لون البشرة وإلى تمازج الأجناس في آن، وتحديداً ما بين العرب والأحباش، مع ما يستتبع ذلك من دونية اجتماعية للهجين، الناتج من علاقة بين عربي حر وأمة سوداء، إذ عرف ابن منظور الهجين بالعربي ابن الأمة، وهو الولد العربي من غير العربية لأن الغالب على

(١) الحسين بن أحمد الزوزني: شرح المعلقات السبع، مكتبة المعارف، بيروت، ط ١، ٢٠٠٤، ص ٨٤.

(٢) عنتره بن شداد: ديوانه، ص ٩٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ٨٦.

(٤) سحيم عبد بني الحسحاس: ديوانه، تحقيق عبد العزيز الميمني، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٠، ص ٢٥.

(٥) يحيى الجبوري: الملابس العربية في الشعر الجاهلي، دار الغرب الإسلامي، ط ١، ١٩٨٩، ص ١٠٣.

ألوان العرب الأدمة^(١). وقد أقرّ عنتره في شعره أنه هجين، كإقراره بسواد لونه^(٢):

أَنَا الْهَجِينُ عَنْتَرَهُ
كُلُّ امْرِئٍ يَخْمِي حِرَّهُ
أَسْوَدُهُ وَأَحْمَرُهُ
وَالشُّعْرَاتِ الْمُشْعَرَهُ
وَالْوَارِدَاتِ مَشْفَرَهُ
ويكرّر القول عينه في موضع آخر^(٣):

إِنِّي أَنَا عَنْتَرَةُ الْهَجِينِ
فَجُ الْآتَانِ قَدْ عَلَا الْأَنْبِيْنَ

أمّا الشنفرى فيصف نفسه بالهجين في قصيدة موجّهة إلى فتاة لطمته إذ ناداها يا أختي، يقول^(٤):

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي وَالتَّلْهُفُ ضَلَّةٌ
بِمَا ضَرَبْتَ كَفُّ الْفَتَاةِ هَجِينَهَا
وَلَوْ عَلِمْتَ قُعْسُوسُ أَنْسَابِ وَالِدِي
وَوَالِدِهَا ظَلَّتْ تَقَاصِرُ دُونَهَا
أَبِي ابْنِ خِيَارِ الْحَجْرِ بَيْتاً وَمَنْصِباً
وَأُمِّي ابْنَةُ الْأَحْرَارِ لَوْ تَعْرِفِينَهَا
فالشاعر هنا، إذ يذكر أنه هجين، لا

يتوانى عن ذكر أصالة نسبه، أكان لجهة أبيه أم أمّه، مُظهراً تساويه بجميع أفراد القبيلة، وهو الذي نشأ في كنف قبيلة بني سلامان بعد أن تمّ أسرّه وهو غلام، فعاش فرداً من أفراد تلك القبيلة، إلى أن نازعته ابنة الرجل الذي كان في حجره، إذ يُروى قول الشنفرى لها «أغسلي شعري يا أختية» فأنكرت أن يكون أخاها، ما جعله يُقسم على قتل مئة منهم بما استعبدوه^(٥).

أمّا شبيب بن البرصاء، الشاعر الأموي العربي البدوي الذي كان من أشرف قومه، فقد استخدم صفة «هجان» للدلالة على البياض لا السّواد، ذلك أنّ أمّه لم تكن برصاء، إنّما لُقِّبت به لبياضها، فجاء استخدام صفة هجين بمعرض المديح لا الذمّ، ما يقودنا إلى القول إنّ العرب قد استخدموا هذه الصّفة في وصفهم ذاتهم بمدلول مغاير لوصفهم الرّنج، يقول^(٦):

أَنَا ابْنُ بَرْصَاءَ بِهَا أُجِيبُ
هَلْ مِنْ هَجَانِ اللَّوْنِ مَا تَعِيبُ
يتبيّن معنا من كلّ ما ورد أعلاه أنّ

(١) ابن منظور: لسان العرب، بيروت: مط دار صادر ودار بيروت، لا.ت. باب هجن. الأدمة: السّمرة.

(٢) عنتره بن شداد: ديوانه، ص ٧٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٩٣.

(٤) أبو فرج الأصفهاني: الأغاني، تحقيق سمير جابر، دار الفكر، بيروت، ط ٢، ج ١٠، ص ١٨٦.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٨٨.

(٦) ابن سلام الجُمحي: طبقات الشعراء، تحقيق عمر فاروق الطباع، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط ١، ١٩٩٧، ص ٢٣٧.

الشّعراء السّود أنفسهم قد نظروا إلى ذاتهم بانتقاص ودونيّة، وعبروا عن حالهم بألفاظ استخدمها العرب في وصفهم، فباتوا يرون صورة ذاتهم كما هي ماثلة في مخيِّلة العرب الذين لم يألوا جهداً لإشعارهم بدونيّة عنصرهم وخضوعه لهم.

٢ - التشبّه بالحيوان بغرض المذمة

لقد شُبّه الشعراء السّود بالغراب وتشبّهوا به في أشعارهم، فكانت العبارة الشهيرة «أغربة العرب» للدلالة على بعض الشعراء السّود في العصر الجاهليّ، فدُعي كلٌّ من عنتر بن شدّاد وخُفاف بن ثدبة السّلمي والسّليّك بن السّلكة بذلك، لأنّ أمهاتهم سود، لا بل نرى عنتر بن شدّاد نفسه قد استخدم هذه الصّورة في وصفه أمّه الغرابيّة، يقول^(١):

فَإِنْ نَكَ أُمِّي غُرَابِيَّةً
مِنْ أِبْنَاءِ حَامٍ بِهَا عِبْتَنِي

وللتشبه بالغراب دلالات عديدة، أكان لجهة الاشتراك باللون الواحد بينهما، أم لجهة كون الغراب نذير شؤم في المعتقدات العربيّة، ما يذكر بسوء طالع هؤلاء الشعراء في المجتمعات العربيّة آنذاك التي كانت تعيّرهم بسواد لونهم، وتخضعهم لكلِّ

أشكال الرّق والعبوديّة والقهر النفسي كما الجسديّ، وتحول دون تطوّرهم في المجتمع. ونرى هذا المفهوم العقائدي المرتبط بالغراب راسخاً في وجدان عنتر، مقتنعاً به، بحيث ينطلق من هذه الصّورة المتشائمة للغراب ليعلن عن رحيل حبيبته عبلة^(٢):

غُرَابَ الْبَيْنِ مَا لَكَ كُلَّ يَوْمٍ
تُعَانِدُنِي وَقَدْ أَشْغَلْتَ بَالِي
كَأَنِّي قَدْ ذَبَحْتُ بِحَدِّ سَيْفِي
فِرَاخَكَ أَوْ قَنَصْتُكَ بِالْحِبَالِ

وكذلك نراه في قصيدة أخرى يذكر الغراب متشائماً، فهو نذير الفرقة، كما أنّه يُنذر بسوء أو بمصيبة في كلّ مناسبة، يقول^(٣):

أَلَا يَا غُرَابَ الْبَيْنِ فِي الطَّيْرَانِ
أَعَزَّنِي جَنَاحاً قَدْ عَدَمْتُ بِنَانِي

وبذلك نرى هؤلاء الشعراء قد تشبّهوا تارةً بما يُعدُّ مهانة لهم ومذلّة، وتناولوا صوراً كانت العرب تطلقها عليهم وتراهم من خلالها، فتسمّوا بمسمّيات عصرهم، وشاهدوا أنفسهم بعيون أسيادهم، كما نراهم تارةً أخرى يرجعون إلى الموروثات الاجتماعيّة الشعبيّة وينطلقون منها على

(١) عنتر بن شدّاد: ديوانه، ص ٢٠١.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٣٠.

(٣) عنتر بن شدّاد: ديوانه، ص ٢٠٠.

للنَّعام، ثمَّ شبَّه هذا الفرو الطويل بجناحي النَّعام، وشبَّه العبد بسواده^(٢).

وكذلك نرى عنتره في قصيدة أخرى يشبَّه أمه بالنَّعام، ما يؤكِّد على كثرة استخدام هذه الصُّورة في أشعار الرنَّج والتشبيُّه بها^(٣):

السَّاقُ مِنْهَا مِثْلُ سَاقِ نَعَامَةٍ
وَالشَّعْرُ مِنْهَا مِثْلُ حَبِّ الْفُلْفُلِ

وهنا يُثار التَّساؤلُ حول الغاية من هذا التشبيهِ، فهل يعدو كونه مجرد صورة شعريَّة اعتمدها بعض الشعراء الجاهليِّين، ومن ثمَّ سار عليها باقي الشعراء على سبيل التقليد، أم أنَّه اعتُمِدَ لكون النَّعام من دون أذنين كحال العبيد الذين كانت تُقطع آذانهم، لا سيَّما أنَّ الأعراب كانوا يعتقدون بقصَّة خرافيَّة مفادها أنَّ النَّعامه ذهبت تطلب قرنين فقطعوا أذنيها فجاءت بلا أذنين، وانتهت هيما^(٤) كذلك نلاحظ صوراً أخرى اعتمدها الشعراء السُّود، فيها حظٌّ من قدرهم واستسلام للواقع المرير، على غرار سُحيم الذي يصف في أبياته نساء شبَّهنه بالكلب، يقول^(٥):

أَتَيْتُ نِسَاءَ الْحَارِثِيِّينَ غَدُوَّةً
بِوَجْهِ يَرَاهُ اللهُ غَيْرَ جَمِيلِ

غرار العرب أنفسهم، معتمدين الصُّور نفسها والمدلولات نفسها، ما يؤكِّد اندماجهم في محيطهم، واعتمادهم المفاهيم الاجتماعيَّة التي اعتقد بها العرب، فأُمسَّت هويَّتُهم الذاتيَّة تائهة ما بين نظرة العرب إليهم ونظرتهم إلى ذاتهم المنبثقة من هويَّتُهم الثقافيَّة، الأمر الذي أوجدهم أمام أزمة هويَّة ومشكلة وجوديَّة. إلى جانب التشبيُّه بالغراب فقد تشبَّهوا بالنَّعام، يقول عنتره في معلَّته حين يصف ناقة حبيبتة عبلة^(١):

وَكأنَّمَا نَطِسُ الْإِكَامَ عَشِيَّةً
بِقَرِيبٍ بَيْنَ الْمَنَسَمِيْنَ مُصَلِّمِ
تَأْوِي لَهُ لَهُ قُلُوصُ النَّعَامِ كَمَا أَوَتْ
حِرْقُ يَمَانِيَّةً لِأَعْجَمِ طَمْطِمِ
يَنْبَغْنَ قُلَّةَ رَأْسِهِ وَكَأنَّهُ
حَرَجٌ عَلَى نَعَشٍ لَهُنَّ مُحَيِّمِ
صَعْلٍ يَغُودُ بِذِي الْعُشَيْرَةِ بِيضَةً
كَالْعَبْدِ ذِي الْفَرُو الطَّوِيلِ الْأَصْلَمِ

لقد شبَّه الشاعر في هذه الأبيات النَّعام في سواده براع حبشيٍّ أسود، كما شبَّه صغائر النَّعام بإبل يمانية لأنَّ السُّود في إبل اليمانيِّين أكثر، ومن ثمَّ شبَّه النَّعام بعبد لبس فرواً طويلاً ولا أذن له إذ لا أذن

(٤) ابن منظور: لسان العرب، مادة نعم.

(٥) سُحيم عبد بني الحسحاس: ديوانه، ص ٦٩.

(١) الرُّوزني: شرح المعلَّقات السَّبع، ص ٨٣-٨٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ٨٤.

(٣) عنتره بن شدَّاد: ديوانه، ص ١٣٥.

فَشَبَّهَنِي كَلْبًا وَلَسْتُ بِفَوْقَهُ
وَلَا دُونَهُ إِنْ كَانَ غَيْرَ قَلِيلِ
وبذلك يظهر جلياً قبول الشعراء السود
واقعهم، وتقبل قباحتهم والاعتراف بها
تماهياً مع النظرة العامة السائدة حولهم،
ويذهب إلى أبعد من ذلك الشاعر العباسي
أبو دلامة إذ يهجو نفسه فيتشبه بالقرد
حيناً وبالخنزير حيناً آخر، يقول^(١):

إِذَا لَبَسَ الْعِمَامَةَ كَانَ قَرْدًا
وَخَنْزِيرًا إِذَا نَزَعَ الْعِمَامَةَ
ومن هنا يمكن القول إن من الشعراء
السود مَنْ تَدَجَّنَ وخضع لتأثيرات عصره،
ورأى نفسه بعيون العرب، فكان شعره مرآة
لثقافة عصره التي جرّده من حقوقه
الإنسانية والاجتماعية، وإذعاناً لشريعة
حَكَمَتْ عليه بالذلّ والهوان، ولم ترقّ به إلى
منزلة الحيوان.

٣ - المواءمة بين النسب والسلاح

لقد أكثر عنتره بن شدّاد من استخدام
صورة السلاح في أشعاره في سبيله إلى
تحديد هويته الهجينة، ذلك أنّ لفظي «بيّض»
و«سمر» يرمزان إلى اللّون، كما قد يرمزان
إلى دلالة أخرى كالسيف والرمح، وهو ما
نراه في هذين البيتين لعنتره^(٢):

فَإِنْ تَكُ أُمِّي غُرَابِيَّةً
مِنْ ابْنَاءِ حَامٍ بِهَا عِبْتَنِي
فَإِنِّي لَطَيْفٌ بَبِيضِ الطُّبَى
وَسُمْرِ الْعَوَالِي إِذَا جِئْتَنِي

فإذا كان المقصود بالبيّض والسمر
السلاح حتماً، فإن براغماتيّة عنتره تحيلنا
إلى الألوان، لا سيّما أنه قد أوردّها بُعيد
كلامه على لون أمّه الذي عابه به، وعلى
أصولها من أبناء حام. وكذلك نراه في
قصيدة أخرى يستخدم البيّض والسمر في
الدلالة عليها يقول^(٣):

وَبَوَارِقِ الْبَيْضِ الرَّقَاقِ لَوَامِعِ
فِي عَارِضِ مِثْلِ الْعِمَامِ الْمَرْعِدِ
وَذَوَابِلِ السُّمْرِ الدَّقَاقِ كَأَنَّهَا
تَحْتِ الْقِتَامِ نَجُومٌ لَيْلِ أَسْوَدِ

وفي السّياق نفسه، نرى عنتره دائماً ما
يذكر أصالة نسبه، بيد أنّه يختزله بسلاحين
اثنين: سيفه هو عمّه ورمحه هو خاله،
فالأول يرمز إلى البيّض والثاني إلى السمر
تمثلاً بروابطه الأسريّة لعرق أبيه العربي
من جهة وأمّه السوداء من جهة ثانية^(٤):

وَمَنْ قَالَ إِنِّي سَيِّدٌ وَابْنُ سَيِّدِ
فَسَيِّفِي وَهَذَا الرَّمْحُ عَمِّي وَخَالِيَا

(١) أبو دلامة الأسدي: ديوانه، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٨٥، ص٦٤.

(٢) عنتره بن شدّاد: ديوانه، ص٢٠١.

(٣) عنتره بن شدّاد: ديوانه، ص٦٣.

(٤) المصدر نفسه، ص٢١٦.

لقد ذهب عنتره في معظم أشعاره إلى ما يبرز شجاعته وتفوقه القتالي، لكنّه عكس في الوقت عينه نزعتة الدّفينّة إلى نسب يشرفه ويرفع من قدره في مجتمع عنصرّي، وأيّ مجد أشرف من الشّجاعة في القتال وأصالة النّسب في آن، يقول^(١):

إِنِّي امرؤٌ مِنْ خَيْرِ عَبْسٍ مَنْصِباً
شَطْرِي وَأَحْمِي سَأْطِرِي بِالْمِنْصَلِ
وَإِذَا الْكُتَيْبَةُ أُحْجِمَتْ وَتَلَاخِظَتْ
أَلْفَيْتُ خَيْراً مِنْ مَعَمٍّ وَمُحُولِ

ومن ثمّ، فإننا نراه في موضع يستنجد بالسّلاح عند التحدّث عن نسبه، ولكنّه لا يذكر أعمامه وأخواله هذه المرّة، إنّما أباه وأمه^(٢):

أَنَا الْحَصْنُ الْمَشِيدُ لِأَلِ عَبْسٍ
إِذَا مَا شَادَتْ الْأَبْطَالُ حُصْنَا
جَوَادِي نِسْبَتِي وَأَبِي وَأُمِّي
حُسَامِي وَالسَّنَانُ إِذَا انْتَسَبْنَا

وبذا نرى أنّ نسب الشّاعر يرتبط بشجاعته، فالسّيف هو أبوه وأمه الرّمح وهما خير نسب يعوّضه ما يلاقي من استحقار عربيّ، وبالتالي فإنّ هذا النّسب الذي به يعتزّ، إنّما ينقذه من الواقع الذي يأبى الاعتراف لعنتره بأصالة نسبه أو

حتّى إعطائه أبسط حقوق الإنسان في ذلك الزمان، لا بل استصغر شأنه لوضاعة نسبه. وكذلك نرى عنتره في قصيدة أخرى يتفاخر بسواد لونه وهو ما لم نعهده عند هؤلاء الشّعراء، كما ينسب نفسه إلى السّيف والرّمح مجدداً^(٣):

وَأَنَا الْأَسْوَدُ الْعَبْدُ الَّذِي
يَقْصِدُ الْخَيْلُ إِذَا النَّقْعُ ارْتَفَعُ
نِسْبَتِي سَيْفِي وَرَمْحِي وَهُمَا
يُؤْنِسَانِي كُلَّمَا اشْتَدَّ الْفَرْعُ

ومن ثمّ، فإنّ شاعرنا يستفيض في التفاخر بلونه الأسود، فإذا كان يُعاب لسواد لونه ولوضاعة نسبه في آن، فإنّه يفخر بسواده الذي أمسى هو نسبه، فقوّته الجسديّة وقدراته القتاليّة إنّما ناتجة من أصله الحبشي الذي أورثه صفاته الجسمانيّة، يقول^(٤):

لِئِنْ يُعَيَّبُوا سَوَادِي فَهُوَ لِي نَسَبٌ
يَوْمَ النَّزَالِ إِذَا مَا فَاتَنِي النَّسَبُ

وبذلك تبدو جليّة رغبة الشّاعر في نسب يشرفه ويدفع عنه ظلم بني عصره، فتراه يتخلّى عن نسبه الأصليّ لما استجلبه من ذلّ وهوان، ويبحث عن نسب جديد يقدم له ما لم يقدم النّسب الأول، فكان السّلاح رمزاً إلى قيمة الشّجاعة المعظّمة في العصر

(٣) عنتره بن شدّاد: ديوانه، ص ٩٣.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٥.

(١) المصدر نفسه، ص ١٢٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٩٥.

الجاهلي، ونسباً يعتد به الشاعر ويتفوق فيه على أبناء زمانه.

ثانياً: مناهضة الواقع وتحدي المجتمع

لقد عانى أبناء الجلدة السوداء من الاضطهاد والاستعباد طويلاً، فكان لونهم ملازماً لصفة العبودية، وكان تعامل العرب معهم مبنياً على أساس لونهم، غير أن نشوءهم في البيئة العربية وحضارتها، وتطبعهم بأهوائها وكذلك بروز نفر منهم ينطق الشعر ويجيده، جعلهم يؤثرون إظهار رفض هذه الطبقة الاجتماعية ومواجهتها، فجاهروا برفضهم نظرة العرب إليهم، ولكن بدرجات متفاوتة، وبطرق مختلفة، فمنهم من امتدح نفسه ونسبه ومنهم من أثر تعداد شمائله الأخلاقية والإنسانية، من غير امتداح الذات والعنصر الأسود عموماً، ولكن في الحاليتين لم يذهبوا في إثبات ذاتهم إلى حدّ التناول على العادات والقيم العربية، أو إلى تحقير المفاهيم الاجتماعية السائدة التي هي نفسها جعلتهم في مرتبة دونية، إنما لجأوا إلى التشبه بالمسك وبكل ما له من منزلة في الذهنية العربية من قيم ومثل عليا وعادات.

١ - التشبه بالمسك

لقد أكثر الشعراء في الجمع ما بين

البشرة السوداء ورائحة المسك، إذ تكاد لا تجد قصيدة لشاعر أسود تخلو من هذه الصورة، وقد وردت معنا سابقاً في أبيات لعنترة بن شداد ونصيب بن رباح وسُحيم فيها ذكر للمسك، وكذلك الأمر فقد استخدمها الشعراء العرب من جهة أخرى في مدحهم أشرافاً وملوكاً ذوي بشرة سوداء.

وإذا كان وجه الشبه بين لون المسك ولون الشاعر واضحاً، فإن الصورة المقصودة حكماً هي التشبه برائحة المسك وفراحتها من جهة، والتمثل بندرته من جهة ثانية بحيث كان يُستورد من الصين والتبوت وثمانه مرتفعاً، وأخيراً لمنافعه الطبية، ما يجعل للون الأسود قيمة مرتفعة وأهمية عالية.

وفي نظرة فاحصة أكثر عمقاً، يمكن القول إن الشعراء كانوا يقارنون جانبهم المظلم الأسود، الذي لطالما انعكس على نفسيّتهم وبالتالي على نمط حياتهم، بأعلى العطور وأفضلها في جزيرة العرب، مع تلميح للون الأسود والإعلاء من شأنه وقيمه، يقول عنترة^(١):

لئن أك أسوداً فالمسك لوني

وما لسواد جليدي من دواء

(١) عنترة بن شداد: ديوانه، ص ٢٢.

وكذلك الشّريك الأساس والشّاهد على الانتصارات والهزائم، ما جعله يحتلّ المركز الأعلى والأسمى في جميع المجتمعات البدويّة، الأمر الذي يقودنا إلى التّساؤل حول ما الذي يجعل الحصان الأسود على وجه التحديد استثنائياً بالنسبة إلى عنتره، بحيث كثيراً ما يذكره في شعره؟

قد تكون الإجابة أنّ عنتره يعمد في شعره إلى التّخفيف من الدلالات السلبية التي ترتبط باللّون الأسود من خلال محاولته المتعمّدة حرمان البياض من جميع امتيازاته الاجتماعيّة المتأصّلة، وبذلك يضحى اختياره اللّون الأسود للجماذ أو للحيوان دليلاً على التّفوق والفخر بدلاً من إلصاق صفة الدونيّة والنقص به كما كان متعارفاً عليه لزمّن طويل، لا سيّما إذا كان الموصوف هو الحصان الذي أولاه العرب في جاهليّتهم وما بعدها عناية خاصة، بحيث كان «الرجل منهم يبيت طاوياً ويشبع فرسه ويؤثره على نفسه وولده»^(٢)، لا بل يذهب صاحب العمدة إلى القول إنه «كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنّأتها وصنعت الأطعمة، وكانوا لا يهنّئون إلاّ بغلام يولد أو شاعر ينبغ أو فرس تنتج»^(٣). من هنا يمكن أن نستدلّ

ومن خلال هذا البيت يمكن أن نستدلّ على حقيقة ما يجول في ذات الشّاعر، الذي يحاول فرض تفوّق السّواد في مجتمع عنصريّ صارخ، فيبدو معنا أنّ المرسله في هذا البيت تعطي مصداقيّة للاستخدام البراغماتي للألوان في شعر عنتره، الهادف إلى إثبات تفوّقه وإبراز قيمته المفقودة في الواقع. وكذلك يذهب نُصيب بن رباح إلى مثل هذا القول^(١):

وَمَا ضَرَّ أَثْوَابِي سَوَادِي وَإِنِّي
لَكَالْمِسْكِ لَا يَسْلُو عَنِ الْمِسْكِ ذَائِقُهُ

وبذلك تتبدّى لنا أهميّة هذه الصّورة بالنسبة إلى هؤلاء الشّعراء الذين حاولوا أن يبرزوا أناقتهم وقيمتهم الحقيقيّة من خلال التشبّه بأعلى أنواع العطور، وهو ما يعكس صورة عن الذات مغايرة لتلك التي بحثناها في القسم الأول، بحيث يحاول الشاعر كسر الصورة النمطيّة السائدة عن الرّنج كونهم ذوي رائحة كريهة، وبأنهم لا يصلحون إلاّ للرّق والعبودية.

٢ - التشبّه بالحيوان بغرض امتداح الذات

ظلّ الحصان العربي على مرّ العصور أقرب رفيق للبدوي في السّلم والحرب،

(١) نُصيب بن رباح: ديوانه، ص ١١٥.

(٢) محمود شكري الألويسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، دار الكتاب العربي، ط ٣، ١٩٢٤، ج ٢، ص ٩٤.

(٣) ابن رشيق القيرواني: العمدة في صناعة الشّعر ونقده، دار الكتب العلميّة، بيروت، ص ٥٠.

على مكانة الحصان عند العربي بحيث أصبح قريناً للشاعر والولد، فذكره الشاعر كثيراً مستخدماً صفة الأدهم، يقول عنتره في معلقته^(١):

يَدْعُونَ عَنْتَرَ وَالرَّمَا حَ كَأَنَّهَا
أَشْطَانُ بِنْرِ فِي لَبَانِ الْأَدْهَمِ

فالأدهم لغةً هو السّواد، وتغلب الصّفة على الخيل الدّهْم^(٢)، وبذلك تتجلى البراعة في اختيار الألفاظ الدالّة على المعاني الدّفيئة الكامنة في ذات الشّاعر، وتكثيف هذه المعاني بدقّة وإيجاز، بحيث أضحى الأدهم يرمز إلى الحصان الذي يمثّل فخر القبيلة، وأثمن ما قد يمتلكه المرء، ويمثّل السّواد في أن، ما أعطى قيمة لهذا السّواد، وألصقه بأثمن ما قد يملكه عربيّ ذلك العصر. وكذلك ينشد عنتره في قصيدة أخرى واقفاً على المدلول عينه الذي ذهب إليه في البيت السّابق^(٣):

خَضْتُ الْغُبَارَ وَمُهْرِي أَدْهَمَ حَلِكُ
فَعَادَ مُخْتَضِبًا بِالِدَمِّ وَالْجِيْفِ

وفي السّياق ذاته، وللأسباب عينها التي أوردناها حول أهميّة الخيل وقيّمته

الاجتماعيّة، نرى عنتره يفضّل النّاقة السّوداء على سواها من النّوق التي كانت تحظى بمكانة عالية عند الجاهليّين بشكل خاص، حيث أنه لعظم قيمتها وأهميّة دورها، وامتلاك ناصيتها في ذلك الزّمن كان الناس يعتزّون بها، ويستكثرون منها بكلّ ما يستطيعون، ومن ثمّ كانت من أسباب الغارات طمعاً في أخذها، لهذا كانت الإبل تُحاط بدفاع قويّ متين^(٤)، لذلك عندما أراد عنتره التّطرّق إلى النّاقة في شعره، لمكانتها وعظمتها، فقد أثار النّاقة السّوداء لما بينهما من تشابه في اللّون، يقول في معلقته^(٥):

مَا رَاعَنِي إِلَّا حَمُولَةٌ أَهْلِيهَا
وَسَطَ الدِّيَارِ تَسْفُ حَبِّ الْخَمْخَمِ
فِيهَا اثْنَتَانِ وَأَرْبَعُونَ حَلُوبَةً
سُوداً كَخَافِيَةِ الْغُرَابِ الْأَسْحَمِ

إذاً، إنّ اختيار عنتره النّاقة السّوداء، وتفضيلها على سواها، يقوم على أسس اجتماعيّة، ذلك أنّها «الأكثر قيمة والأغلى ثمناً وفرادة في جميع المجتمعات البدويّة»^(٦). وعلى النّقيض من التفسيرات

(١) الزّوزني: شرح المعلقات السّبع، ص ٩٣.

(٢) ابن منظور: لسان العرب، مادة دهم.

(٣) عنتره بن شدّاد: ديوانه، ص ١٠٣.

(٤) علي الجندي: شعر الحرب في العصر الجاهليّ، مطبعة دار الطليعة، بيروت، ط ٢، ١٩٨٠، ص ١٢٥.

(٥) الزّوزني: شرح المعلقات السّبع، ص ٧٩.

(٦) أبو زيد القرشي: جمهرة أشعار العرب، تحقيق علي محمّد الجاوي، دار النّهضة، مصر، ١٩٨١، ص ٣٢٩.

هذا الأساس رماه العرب بهذه الصّفة، فكان شاعرنا واحداً من أغربة العرب.

بالتالي، فإنه من الواجب الفصل الصارم هنا، بين المعنى التعييني المباشر للصّورة الشعريّة التي قد يُوردها الشّاعر والمعنى التّضميني لها، بحيث أنّ المعنى المتعمّد للسّواد (الحصان، الإبل، الغربان) لا يمكن فهمه تماماً ما لم تتمّ مقارنته من خلال السياق الاجتماعي الذي ورد فيه الشّعر، والذي من شأنه أن يحدّد ما إذا كان استخدام بعض الألفاظ ناجماً عن شعور بالدونيّة والنّقص أو تمرّداً على الواقع بعيداً من هويّة الشّاعر وظروف نشأته عموماً، ومن ثمّ فإنّ عنتره وسواه من الشّعراء، تراهم تارّة في حالة انكسار واستسلام وطوراً في حالة تمرّد ومقاومة، ومردّد ذلك إلى الحالة النفسيّة التي يعيشها الشّاعر، والظروف التي تحيط به، ولا تعود إلى شخصيّة الشّاعر أو شجاعته بحدّ ذاتها.

غير أنه يمكن القول إجمالاً، إنّ عنتره في شعره هذا، قد كسر قالب النّمطي الذي كان يُرى من خلاله، وحاول التمرّد على واقع لم يره فيه سوى «ابن سوداء»، مهما كبرت انجازاته وعلا شأنه، فتراه يُشبّه بني جلدته بكلّ ما هو غالٍ وثمين، علّه يستعيد جزءاً من كبريائه الجريح.

السّابقة لدلالات الصّور المتعلّقة بالسّواد في الشّعر، فإنّ الأبيات المذكورة تقدّم دليلاً ملموساً على أنّ ذكر السّواد هنا لا يُعزى إلى القمع، أو إلى إحساس الشّاعر بالدونيّة والنّقص، إنما على العكس من ذلك، يهدف ضمناً إلى توجيه انتباه شعبه إلى تفوّق العرق الأسود وندرة تميّزه وقيّمته.

وكذلك نلاحظ في البيتين الأخيرين اختيار عنتره الغراب الأسود، وهو ما كان يُشار به إلى العبيد آنذاك، واختياره هذا ليس من قبيل الصدفة، إنما تراه يقابل عمداً الإبل الأسود وهو أكثر أنواع الإبل قيمة في المجتمعات البدويّة بالغرابة السوداء وهو ما كان ينعت به العرب قبل الإسلام العبيد عند التّعامل معهم أو الحديث عنهم.

ونشير هنا إلى أنه على الرغم من الدلالات الاجتماعيّة السلبية العديدة للغراب في جميع المجتمعات العربيّة، إلّا أنّ كثيراً من الأمثال العربيّة يستخدم لفظ غراب للدلالة على القوة والعزم والشّباب كقولهم «شعره أسود كما ريش جناح الغراب». لذلك، فإنّ استخدام الغراب هنا يهدف إلى التّأكيد على سواد الإبل والذي هو بدوره إشارة ضمنيّة إلى ثروتها وقوتها، وإلى محاولة إسقاط نظرة جديدة إلى الغراب الذي به تشبّه الشّاعر، نظرة إيجابية إلى هذا الطّير الذي لطالما كان رمز التشاؤم، وعلى

٣ - ما بين بياض الرّوح وسواد البشرة

لقد مرّت بنا سابقاً صور تشبّه سواد
البشرة بالملابس القاتمة، معتبرةً أنها سمة
خارجية لا تطاول البياض الداخليّ النفسيّ
للشاعر، المتمثّل بصفاته المختلفة من
أخلاق وشجاعة وتصرفات كريمة بشكل
عام. لقد أثار عنتره في شعره هذه الثنائية
المتعارضة القائمة على سواد لونه
الخارجيّ وبياض روحه، متحدّثاً عن بياض
أفعاله منتقداً الأعمال السّوداء التي يقوم به
خصوصه إذ يقول^(١):

يَعْيَبُونَ لَوْنِي بِالسَّوَادِ وَإِنَّمَا
فِعَالُهُمْ بِالْخَبِيثِ أَسْوَدُ مِنْ جِلْدِي

كذلك نراه في موضع آخر يفاخر
بشمائله، مستخدماً اللون الأبيض في
وصفها وتبيان قيمتها العالية، وهو ما
يقودنا إلى القول إنّ عنتره في لوعيه قد
خضع لتأثيرات عصره والصّورة النمطيّة
التي ارتقت بكلّ ما هو أبيض وسمت به،
واحتقرت ما هو أسود، يقول^(٢):

سَوَادِي بِيَاضٌ حِينَ تَبْدُو شَمَائِلِي
وَفِعْلِي عَلَى الْأَنْسَابِ يَزْهُو وَيَفْخَرُ

ونلاحظ الأمر نفسه عند سُحيم عبد بني
الحساس، الذي على الرغم من ثورته على
الواقع ومواجهته المجتمع، نرى مواجهته
تلك قائمة على خلفيّة دونيّة تقوم على
التشبه بالأبيض للإعلاء من قيمته، فالبياض
هو رمز الكمال الذي يصبو إليه الشّاعر
وهو الخلاص من عبوديته التي تقيده^(٣):

إِنْ كُنْتُ عَبْدًا فَفَنَفْسِي حُرَّةٌ كَرُمْتُ
أَوْ أَسْوَدَ اللَّوْنِ إِنِّي أَبْيَضُ الْخُلُقِ

ويبدو من خلال البيتين الأخيرين أنه لم
يكن للشّعراء السّود في الجاهليّة تحديداً من
الجرأة ما يجعلهم يتجاوزون هذا الدفاع
السّلبي إلى ما هو أبعد من ذلك كإثبات أنّ
العنصر الحبشي خير من العنصر العربي
مثلاً، أو الذهاب إلى أنّ الأحباش قد غلبوا
على بلاد العرب وكانوا سادة عليها رداً
من الزمن، فلم يذكروا شيئاً من ذلك بل
كأنهم كانوا يعترفون بضعف أنسابهم
وحقارة عنصرهم^(٤).

وكذلك نلاحظ أنّ سُحيم عبد بني
الحساس الذي لم يلمع نجمه في ميدان
القتال كعنتره، يؤكّد على صفاته الأخلاقيّة
من غير اللّجوء إلى إبراز قدراته في ساحات

(١) عنتره بن شدّاد: ديوانه، ص ٥٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٧٩.

(٣) سُحيم عبد بني الحساس: ديوانه، ص ٥٥.

(٤) عبد المجيد عابدين: بين الحبشة والعرب، دار الفكر العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٤٧، ص ٣٧.

الوغي، ومن غير التفاخر بصفاته الجسديّة
والقتاليّة، إنما نراه يضيء على الجانب
الأخلاقي الذي يتمتّع به^(١):

إِنْ يَكُنْ لِلسَّوَادِ فِي نَصِيبٍ
فَبِأَيِّ الأَخْلَاقِ مِنْهُ نَصِيبِي

وإذا كان عنتره في بيت قد أوردناه
سابقاً يذهب في وصفه إلى تصوير العبد
العاجز عن الكلام «حزق يمانية لأعجم
طمطم» بحيث أراد بالأعجم الحبشي الذي لا
نطق له كحال النعامه، فإن نصيب بن رباح
قد ذهب خلاف ذلك كلياً بحيث يجمع ما
بين لونه وفصاحته، يقول^(٢):

لَيْسَ السَّوَادُ بِنَاقِصِي مَا دَامَ لِي
هَذَا اللِّسَانُ إِلَى فُؤَادِ نَابِتِ
مَنْ كَانَ تَرْفَعُهُ مَنَابِتُ أَصْلِهِ
فَبَيوتُ أَشْعَارِي جَعَلَنَ مَنَابِتِي
كَمْ بَيْنَ أَسْوَدَ نَاطِقٍ بَيَانُهُ
مَاضِي الجِنَانِ وَبَيْنَ أبيضِ صَامِتِ؟
إِنِّي لِيحْسُدُنِي الرَّفِيعُ بِنَاؤُهُ

مَنْ فَضَلِ ذَاكَ وَلَيْسَ بِي مِنْ شَامِتِ
وكذلك يذهب عنتره في إحدى قصائده
إلى استخدام صورة الليل للتعبير عن لونه،
وهو الملقّب بأبي المغلّس، والمغلّس هي
ظلمة آخر الليل، ومن ثم يبرز التعارض

القائم ما بين سواده الخارجي ونقائه
الداخلي فيقول^(٣):

شَبِيهُ اللَّيْلِ لَوْنِي غَيْرَ أَنِّي
بِفِعْلِي مِنْ بَيَاضِ الثَّلْجِ أَسْنَى

فإذا كان الشاعر يتشبه بسواد الليل
لوصف لونه القاتم معتمداً صورة بديهية
قريبة إلى الذهن، إلا أنه يُشبه أفعاله ببياض
الثلج، معتمداً الفكرة النمطية الاعتيادية
السائدة التي تربط كل ما له قيمة أو منزلة
باللون الأبيض من دون سواه، ما يعكس
قبول الشاعر واقعه، وتكراره الصورة التي
كرّسها مجتمعه وسار على نهجها، ويكثر
هذا التشبيه عند هؤلاء الشعراء، فاللون ما
هو إلا رداء يخفي حقيقة الإنسان ومكوناته،
أمّا حقيقته فبيضاء أبداً، يقول سحيم^(٤):

وَمَا ضَرَّ أَتْوَابِي سَوَادِي، وَإِنِّي
لِكَالْمِسْكِ، لَا يَسْلُو عَنِ الْمِسْكِ ذَائِقُهُ
كُسَيْتٌ وَلَمْ أَمْلِكْ سَوَاداً وَتَحْتَهُ
قَمِيصٌ مِنَ القُوْهِ بِيضٌ بِنَائِقُهُ

ومن الملاحظ أيضاً، أنّ من الشعراء
العرب من لجأ إلى استخدام الصورة نفسها
في مدحهم أسياداً لهم ذوي أصول حبشية،
أو نوبية، سود البشرة، كحال المتنبي في
مدح كافور^(٥):

(١) سحيم عبد بني الحسحاس: ديوانه، ص ٥٥.

(٢) نصيب بن رباح: ديوانه، ص ٧٣.

(٣) عنتره بن شداد: ديوانه، ص ١٩٥.

(٤) سحيم عبد بني الحسحاس: ديوانه، ص ٦٩.

(٥) أبو الطيب المتنبي: ديوانه، دار الجيل، لا ط، لا

ت، ص ٤٤٦.

إِنَّمَا الْجِلْدُ مَلْبَسٌ وَابْيَضَاؤُ الدِّ نَفْسٍ خَيْرٌ مِنْ اَبْيَضَاؤِ الْقَبَائِ

وتبقى هذه الصورة غامضة لمجرد استخدامها من شاعر غير أسود، إذ تخفي في طياتها مديحاً للعرق الأبيض، حيث يذهب إلى أنّ اللون الأبيض رمز إلى النبيل والأخلاق، أمّا صاحب اللون الأسود، فعليه أن يبحث عن هذه الصفات تحت رداءه الأسود.

وبذلك يمكن القول إنّ هؤلاء الشعراء قد حاولوا إظهار شمائلهم الداخلية وتعدادها ليتساواوا والعرب في أبسط حقوقهم الإنسانية، وليدافعوا عن وجودهم، إنّما من غير أن يتعرضوا للعرب بعنصرهم ونسبهم بشكل مباشر، إلّا في ما ندر، كما فعل الحيقطان، الشاعر المعاصر لنصيب بن رباح في قصيدة له، حيث ذهب إلى المفاخرة برفعة قومه خلقاً ونسباً، يقول^(١):

لئن كُنْتُ جَعَدَ الرَّأْسِ وَالْجِلْدُ فَاجِمٌ
فإنِّي لبسطِ الكفِّ والعرضِ أزهْرُ
وإنَّ سَوَادَ اللّوْنِ لَيْسَ بِضَائِرِي
إِذَا كُنْتُ يَوْمَ الرَّوْعِ بِالسَّيْفِ أَخْطَرُ

عمد الشاعر من خلال هذه الأبيات إلى الردّ على جرير إذ هجاه وسخر من لونه، فلم يقتصر الحيقطان في رده على تكرار المألوف في الردّ على التّعاض القائم في ثنائيّة أبيض - أسود، بل ذهب إلى حدّ مقارنة نسبه الإفريقي بالنسب العربي ساخرًا من مهنهم وجبنهم في القتال وفقر مناظرهم الطبيعيّة ومحدوديّة خيالهم.

ومن ثمّ ينتقل في قصيدته إلى تذكير العرب بالزّمن الذي كان فيه الأحباش أصحاب القوّة والغلبة، حين كان العرب مجموعة قبائل متناحرة متنافرة مذكراً بجيوش أبرهة الحبشيّ التي كانت تغزو عرب الجنوب، وكادت تغزو مكّة المكرّمة، دلالة على تاريخ الأحباش المجيد وتاريخ العرب الهزيل^(٢):

فإن كُنْتُ تَبَغَى الفَخْرَ فِي غَيْرِ كَنُهِ
فَرَهْطُ النَّجَاشِي مِنْكَ فِي النَّاسِ أَفْخَرُ
وفازَ بِهَا دُونَ المَلُوكِ سَعَادَةٌ
فَدَامَ لَهُ المُلْكُ المَنِيعُ المَوْفَرُ
ولُقْمَانُ مِنْهُمْ وائِنُّهُ وائِنُّ أُمَّه
وَأَبْرَهَةُ المَلِكِ الَّذِي لَيْسَ يُنْكَرُ
غَزَاكُمُ أَبُو يَكْسُومَ فِي أُمَّ دَارِكُمُ
وَأَنْتُمْ كَفَبُضِ الرَّمْلِ أَوْ هُوَ أَكْثَرُ

(١) أبو العباس محمّد بن يزيد، المبرّد: الكامل في اللّغة والأدب، تحقيق محمد أحمد الدالي، مؤسسة الرسالة، ط ٣، ١٩٩٧، ج ٢، ص ٨٦٢.

(٢) نادر كاظم: تمثيلات الآخر، صورة السّود في المتخيّل العربي الوسيط، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت، ط ١، ٢٠٠٤، ص ٥٤٠.

وَأَنْتُمْ كَصِيرِ الْمَاءِ لِمَا هَوَىٰ لَهَا
بِبَلْقَعَةٍ، حَجْنُ الْمَخَالِبِ أَكْذَرُ

وكذلك نرى شاعراً أسوداً آخر، سُنَيْح بن رباح، في معرض رده على هجاء جرير، يفخر بقومه الزنج قائلاً^(١):

وَالزَّنْجُ لَوْ لَاقَيْنَهُمْ فِي صَفِّهِمْ
لَاقَيْتَ ثَمَّ جَحَاجِحاً أَبْطَالاً

ومن ثمّ نراه يفخر بكلّ شاعر أسود ترك أثراً في قومه أو زمنه^(٢):

كَانَ ابْنُ نَدْبَةَ فَيْكُم مِّنْ نَّجْلِنَا
وَخُفَافُ الْمُتَحَمِّلِ الْأَثْقَالَا
وَإِنَّا زَبِيْبَةٌ: عَنَتْرٌ وَهَرَاْسَةٌ
مَا إِنْ تَرَى فَيْكُم لَهُمْ أَمْثَالَا
وَسَلْيِكُ اللَّيْثُ الْهَرْبُرُ إِذَا عَدَا
وَالْقَرْمُ عَبَاسٌ عَلُوْكَ فِعَالَا

وبذلك نلاحظ التشابه في الاستراتيجيات الدفاعية في ما بين الحيقطان وسُنَيْح، وإن شكلاً ظاهرة نادرة غير مألوفة في الميدان الشعري للسود الذين آثروا بمعظمهم عدم مواجهة النظرة العربية إليهم بالمثل، بداعي الرهبة والخوف أو ربما لقبولهم تلك النظرة، فتعاملوا معها باعتبارها من المسلّمات الاجتماعية، وهم، وإن حاولوا التمرد عليها، إلا أنهم تجنبوا عموماً هجاء العرب والذمّ بهم.

خلاصة القول، إنّ الرقّ لم يقتصر على ذوي الجلدة السوداء فحسب، إنما طاول شعوباً أخرى كالفرس والترك والروم وسواهم، غير أنّ نصيب السود من الذلّ والهوان كان الأكبر، لارتباطه بلونهم بشكل مباشر، الأمر الذي قرن اللون الأسود بالعبودية والرقّ.

على الرغم من أنّ هذه الدراسة شملت عصوراً أدبية مختلفة، إلا أنّ النظرة العربية بقيت واحدة تجاه السود، لتفاخر الجاهليين أولاً بصراحة نسبهم وأصالتهم، ومن ثمّ هيمنة الإسلام على الأمم المفتوحة وشعور العرب بالاستعلاء وبقائهم في نهجهم التقليدي في نظرتهن إلى الآخر المختلف على الرغم من أنّ الدين الواحد قد جمع بين الشعوب المختلفة، وبذلك فقد بقيت صورة الذات عند الشعراء السود واحدة على اختلاف العصور وتبدّلها، لا بل بقيت الشعور بالنقص ملازماً لهم حتّى بعد اعتاقهم، انطلاقاً من تفاعلهم مع هويّتهم الذاتية القائمة على نظرة الآخر لهم، وعلى التأثيرات الاجتماعية الراسخة في وجدانهم، كما جرى مع نصيب بن رباح الذي تقدّم ابنه لخطبة فتاة من عائلة مالكيه السابقين، الذين كانوا على استعداد للموافقة عليه، فأمر بجرّ ابنه من رجليه وضربه ضرباً

(١) المبرّد: الكامل في اللغة والأدب، ص ٨٦٢.

(٢) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

شديداً، ثم رأى رجلاً من أصل عربي نبيل فقال لعمّ الفتاة «زوّج بنت أخيك هذا الشاب وسأقوم أنا بدفع المهر»^(١).

وما إيرادنا هذه القصة إلا للدلالة على أنّ الأسود بقي يتملّكه شعور بالدونية والنقص حتّى بعد اعتاقه، لا بل قام بضرب ابنه ليعرف مكانه الصحيح في مجتمع عنصرّي، وأليس هو نفسه القائل للخليفة الأمويّ عبد الملك بن مروان عندما دعاه إلى الانضمام إلى ندمائه: «يا أمير المؤمنين، لوني أسود، وقامتي عوجاء ووجهي دميم، ولست أهلاً لهذا المكان»^(٢).

وكذلك نشير إلى ما كان يُعرف عن نصيب بن رباح أنّه كان له بنات من لونه، فامتنع عن تزويجهنّ للموالي ولم يتزوّجهنّ العرب. فقليل له ما حال بناتك؟ فقال: صببتُ عليهنّ من جلدي فكسدنّ عليّ^(٣). وبذلك نرى أنّ الجلد السّوداء أضحت نقمة لصاحبها، يُعاب بها، تحول دون اقترانه بالعرب، حيث تكثّر الحواجز الاجتماعيّة والنفسيّة.

وكذلك نرى عنتره، ذا الشجاعة والفروسيّة، غير قانع بواقعه، لكنّه يستسلم لقدره، ويظهر الكراهية لأمّه الحبشيّة،

باعتبارها المسؤولة عن سواده، فكان يراها تجسيدا للقبح، ويدعوها بالضّبعة ويشبّه شعرها بالفلفل وساقّيها بالنّعامه كما مرّ معنا سابقاً، وهو ما يؤكّد هذا الإحساس بالدونية الذي رافقهم بشكل دائم، والذي صاحب هؤلاء الشّعراء في كلّ مراحل حياتهم، الذين وإن حاولوا التمرد على المجتمع أحياناً، فقد كانت صورة ذاتهم قاتمة كلونهم، وكانت الدونية متجذّرة في لاوعيهم بفعل المؤثّرات الخارجيّة المتأثّية من المجتمع بالدرجة الأولى، فجاءت ردود فعلهم تجاه الأحداث والظروف تتضمّن اعترافاً بالواقع وعدم قبول به في الوقت نفسه، فعبروا عن ذاتهم بالإذعان والقبول حيناً، والرّفص والتمرد حيناً آخر، محاولين في الحالتيّن التّخفيف من بعض الدلالات الاجتماعيّة الرديئة المرتبطة بالسّواد، من خلال ربط كلّ القيم الثمينة باللون الأسود، ما أدّى إلى استخدام براغماتي للون، يحجب عن البياض أهمّيته وأثره، ويستدعي قراءة نفسيّة معمّقة في أبعاد الألفاظ والمعاني التي استخدموها، وعدم الوقوف عند الدلالات البديهيّة لهذه اللّمعاني والاكتفاء برمزيّتها القتاليّة أو الغزليّة.

(١) أبو فرج الأصفهاني: الأغاني، ج ١، ص ٣١٨.

(٢) أبو فرج الأصفهاني: الأغاني، ج ١، ص ٣٢٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٢٤.

لائحة المصادر والمراجع

- ١ - ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: **المقدمة**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٧.
- ٢ - ابن رشد: **كتاب فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال**، تحقيق وسام عبدو اللحام، دار الكتب العلمية، ١٩٧١.
- ٣ - ابن رشيق القيرواني: **العمدة في صناعة الشعر ونقده**، دار الكتب العلمية، بيروت، لا.ت.
- ٤ - ابن سلام الجمحي: **طبقات الشعراء**، تحقيق عمر فاروق الطباع، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط١، ١٩٩٧.
- ٥ - ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي: **لسان العرب**، بيروت: مط دار صادر ودار بيروت، لا.ت.
- ٦ - أبو دلالة الأسدي: **ديوان أبو دلالة الأسدي**، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٨٥.
- ٧ - أبو الطيب المتنبي: **ديوان أبي الطيب المتنبي**، دار الجيل، لا.ط، لا.ت.
- ٨ - الأبيشي، شهاب الدين: **المستطرف في كل فن مستظرف**، تحقيق عبدالله أنيس الطباع، شركة دار الأرقم، لبنان، لا.ت.
- ٩ - الألوسي، محمود شكري: **بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب**، دار الكتاب العربي، ج٢، ط٣، ١٩٢٤.
- ١٠ - بدوي، عبده: **الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨.
- ١١ - بدوي، عبد الرحمن: **مناهج البحث العلمي**، وكالة المطبوعات، الكويت، ط١، ١٩٧٧.
- ١٢ - الجبوري، يحيى: **الملابس العربية في الشعر الجاهلي**، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٨٩.
- ١٣ - الجندي، علي: **شعر الحرب في العصر الجاهلي**، مطبعة دار الطليعة، بيروت، ط٢، ١٩٨٠.
- ١٤ - الرّوزني، الحسين بن أحمد: **شرح المعلقات السبع**، مكتبة المعارف، بيروت، ط١، ٢٠٠٤.
- ١٥ - سُحيم عبد بني الحساس: **ديوان سُحيم عبد بني الحساس**، تحقيق عبد العزيز الميمني، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٠.
- ١٦ - الأصفهاني، أبو فرج: **الأغاني**، تحقيق سمير جابر، دار الفكر، بيروت، ج١٠، ط٢، لا.ت.
- ١٧ - الظاهر، قحطان أحمد: **مفهوم الذات**، دار وائل للطباعة والنشر، ط١، ٢٠٠٤.
- ١٨ - عابدين، المجيد: **بين الحبشة والعرب**، دار الفكر العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٤٧.
- ١٩ - علي، جواد: **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، دار السّاقى، ج٧، ط٤، ٢٠٠١.
- ٢٠ - عنتر بن شدّاد: **ديوان عنتر بن شدّاد**، تحقيق الخطيب التبريزي، دار الكتاب العربي، ط١، ١٩٩٢.
- ٢١ - القرشي، أبو زيد: **جمهرة أشعار العرب**، تحقيق علي محمد الجاوي، دار النهضة، مصر، ١٩٨١.
- ٢٢ - كاظم، نادر: **تمثيلات الآخر، صورة السود في المتخيل العربي الوسيط**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٤.
- ٢٣ - المبرّد، أبو العباس محمد بن يزيد: **الكامل في اللغة والأدب**، تحقيق محمد أحمد الدالي، مؤسسة الرسالة، ج٢، ط٣، ١٩٩٧.
- ٢٤ - نُصيب بن رباح: **ديوان نُصيب بن رباح**، تحقيق داوود سلوم، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٦٧.
- ٢٥ - وغيلسي يوسف: **مناهج النقد الأدبي**، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، ط١، ٢٠٠٧.

«المتنبّي»

شاعر حبّ وغزل.. كما هو شاعر مجد وكبرياء

د.مازن شلق

وقد يخفق العاشق في الوصول إلى حبيبته، فيعوّض عن هذا الفشل بسفر، أو بحبّ امرأة أخرى، أو بموضوع يمنحه طاقته كبديل عمّن امتنع وغاب، وربما صعّد الفاشل حبّه، ليدور في فلك الله صوفياً، أو في كلّ ما هو مقدّس ومتعال^(٢). فأين أبو الطيّب المتنبّي من هذا المضمار الحيويّ؟

ذهب بعض الدارسين إلى الاعتقاد أنّ حياة المتنبّي العاطفيّة كانت تدور، عادة، في محيط خاصّ، وليس لها صدى في إنتاجه الأدبيّ. والنساء المثيرات اللآئي يطلبن راغبات شفاهه، سوف ينتهي بهنّ الأمر إلى تقبيل جبهته احتراماً. لقد أغمض عينيه دون الحبّ. وإنّ غايات أكثر سموّاً تشدّه إليها! فهو إذاً «شاعر بلا عاطفة بلا حبّ»^(٣). وذاك أنّه قال [الطويل]:

الغزل موضوع يتّصل بمادّة الحياة الوجوديّة، وأصل اللفظ في العربيّة ما دلّ على النّشاط والاستدارة في زمن الحركة، وفي دائريّة الأرض، و«منه الغزاة التي هي الشّمس لاستدارتها، وتدافع جريها في الفلك»^(١)، وجدة توهّجها، ومن هذا القبيل غزاة البادية لنشاطها، والمغزل لدورانه وسرعته. وقد أخذ هذا اللفظ للتعبير عن المشاعر بدوران حول المرأة، أو ما هو في موضوع الغريزة ذات المنحى الجنسيّ أو ما صدر عنه من تصعيد، أو تبديل.

وشعر الغزل ينطلق، في الأصل، من فاعليّة الغريزة الجنسيّة، التي تتوقّ مشاعرها للظهور في عبارة يرسمها الفنّان الشّاعر في كلام مموسق غنائيّ، تعبيراً عن عواطفه ومنازعه.

(١) علي شلق: «المتنبّي شاعر تتوهّج ألفاظه فرساناً لتأسر الزّمان»، ص ١٤٨. وانظر: «لسان العرب» لابن منظور. مادة: غزل.

(٢) انظر في المرجع نفسه، ص ١٤٨-١٤٩.

(٣) انظر في كتاب «مع شعراء الأندلس والمتنبّي» للمستشرق إميليو غرسيه غومث، ص ٢٩، ١٩٧٨م.

وَأَسْنَبَ مَعْسُولِ التَّنِيَّاتِ وَاضِحٍ
سَتَرْتُ فَمِي عَنْهُ فَكَبَّلَ مَفْرَقِي
وَأَجْيَادِ غَزْلَانٍ كَجِيدِكَ زُرْنَنِي
فَلَمْ أَتَبَيَّنْ عَاطِلاً مِنْ مُطَوَّقٍ
وَمَا كُلُّ مَنْ يَهْوَى يَعِفُّ إِذَا خَلَا
عَفَافِي وَيُرْضِي الْحَبَّ وَالْخَيْلُ تَلْتَقِي^(١)

فإلى أيّ مدى يصحّ هذا الموقف على
غزل المتنبيّ وحقيقة شعر الحبّ لديه؟ وهل
كان المتنبيّ فعلاً مجرد شاعر تقليديّ ينمّق
مطالع قصائده بأبيات غزليّة هي وليدة
خياله المبدع ومن خزين موروثه التّقافيّ؟
وأنت شاعر منشغل أولاً وأخيراً بمطامحه
العليا ولا تجاريب له في مضامير الحبّ
ومناخات العاشقين؟

بالوقوف ملياً على ديوان الشّاعر وإنعام
النّظر فيه؛ نقع على شواهد شعريّة ساطعة
على تجربة الحبّ لدى شاعرنا العملاق،
قالها في مناسبات مختلفة، مؤمناً بها، أو
بمعظمها. كما كان مؤمناً متمسكاً بجلّ
أقواله الشعريّة، ومنها بيت شعريّ قُتل على
أثره حينما ناداه أحدهم، وعدوّه فاتك
الأسديّ يطارده بسبعين من رجاله، قائلاً:
أَوْ لَسْتُ أَنْتَ الْقَائِلُ:

الْخَيْلُ وَاللَّيْلُ وَالْبِيدَاءُ تَعْرِفُنِي
وَالسَّيْفُ وَالرُّمْحُ وَالْقِرطَاسُ وَالْقَلَمُ^(٢)

فأجابه المتنبيّ: قَتَلْتَنِي قَاتَلَكَ اللَّهُ، ثُمَّ
عَادَ إِلَى أَرْضِ الْمَعْرَكَةِ وَقَاتَلَ بِشِدَّةٍ، لَكِنَّهُ
سَقَطَ قَتِيلاً مَعَ غَلَامِهِ مَفْلَحٍ، وَابْنِهِ مَحْسَدٍ
(أَوْ مُحَمَّدٍ) لَتَشْهَدَ مَحَلَّةُ الصَّافِيَةِ، حَيْثُ
مَصْرَعُهُ، عَلَى شِدَّةِ عَنفَوَانِهِ وَنَبْلِ كِبْرِيَاءَتِهِ،
وَصَدَقَهُ مَعَ ذَاتِهِ قَوْلًا وَمَوْقِفًا.

هذا الغزل نجده بأنواع متعدّدة في شعر
المتنبيّ:

النّوع الأوّل: يتجلّى في نطاق حبّه
نفسه نرجسياً، حيث يدخل شعره في ذلك
مداخل الفخر. **والنّوع الثّاني:** يظهر في
حبّه الجنسيّ وهو حبّه المدلّه، المتولّه، الذي
أحاط بكيانه فراققه في زمانه ومكانه، وقد
دار في فلك أخت سيف الدّولة. **أمّا النّوع**
الثّالث: فهو ما ورد في شعره لدى مطالع
قصائده التّفاتاً إلى ما سنّه شعراء المعلّقات.

وبالنّسبة إلى مكانة المرأة في قلبه،
فالمتنبيّ، في نظرنا، محبّ للنساء، بل هو
غريق في تذوّق جمالهنّ، ما ظهر منه وما
استتر، لكنّه، وهو الطّامح عاشق البطولات،
والمغالي في عشق المجد، نجده يفتّش عن
بديل بالشّعور، والسّيوف، والمعارك. وهذا ما
سلب منه جانباً من حبّه الجنسيّ، فهو بذلك
يلتقي في هذا الجوّ بأبي نواس، الذي رأى
في الحبّ خمرة لم تحوها دنان، بل إنّ
الخمرة عنده كانت تارة خطيبة، وتارة

(١) الدّيونان: شرح عبد الرّحمن البرقوقي، ج ٣، ص ٥٠.

(٢) الدّيونان: شرح عبد الرّحمن البرقوقي، ج ٤، ص ٨٥.

زوجة، مثلما كان المتنبي على حبه الجنس
يعشق امرأة من جنس آخر، ولذلك قال
[الطويل]:

وَعَيْرُ فَوَادِي لِلْعَوَانِي رَمِيَّة
وَعَيْرُ بَنَانِي لِلزَّجَاجِ رِكَابُ
تَرَكْنَا لِأَطْرَافِ الْقَنَا كُلِّ شَهْوَةٍ

فليس لنا إلا بهن لعاب

فالمتنبي عاشق متيم، لأنه رجل تسكن
جسده المشتعل شهوة، ولكنه قسّم هذا
السّعار الجنسي بين المرأة المستترة، تلك
التي ولدت له ابنه محسداً، وبين السيوف
والرّماح التي هي من وسائل الحرب
والكفاح، لبلوغ مجد السّيطرة وإشباع
غريزة حبّ التملك والانتصار (الطويل):

وللخود مني ساعة ثم بيننا
فلاة إلى غير اللقاء تجاب

وبعد ذلك، فقد يسترسل المتنبي في
تأملاته، فهو من كبار الطامحين والمتأملين،
والمتأملين، فيرسم العشق بنغم فلسفي
وجودي، عدمي، لقوله عن كل مُجدٍ وطموح
[الطويل]:

وَمَا الْعِشْقُ إِلَّا غِرَّةٌ وَطَمَاعَةٌ
يُعْرِضُ قَلْبُ نَفْسِهِ فَيُصَابُ^(١)

لماذا؟ لأنّ العاقل ساعة يفكر في مصير
كلّ جمال يسلّط عليه الحبّ، يعدل عنه إلى
سواه^(٢)، وربما وصل إلى درجة النّفي
المطلق، إلى ما يراه ضلالاً، ليقرّ بقيم
الصّواب، حيث يرى المصير الحتمي لما هو
جميل ومحبوب (السريع):

نَحْنُ بَنُو الْمَوْتَى فَمَا بَالُنَا
نَعَافُ مَا لَا بُدَّ مِنْ شُرْبِهِ
تَبْخَلُ أَيْدِينَا بِأَزْوَاجِنَا
عَلَى زَمَانٍ هِيَ مِنْ كَسْبِهِ
فَهَذِهِ الْأَزْوَاحُ مِنْ جَوْهٍ
وَهَذِهِ الْأَجْسَامُ مِنْ تُرْبِهِ
لَوْ فَكَّرَ الْعَاشِقُ فِي مَنْتَهَى
حُسْنِ الَّذِي يَسْبِيهِ لَمْ يَسْبِهِ^(٣)

ثمّ يستطرد على مذهب ابن الرومي،
فيقول (الوافر):

أَشَدُّ الْغَمِّ عِنْدِي فِي سُرُورٍ
تَرْقُبُ عَنْهُ صَاحِبُهُ انْتِقَالاً^(٤)

لماذا؟ لأنّ الشّاعر يعلم، بعد التجربة، أنّ
السّعادة زائلة لا محالة، وأنّ فراق الأحبة
حتمي يأتي بغتة فيبدد فرحة الأُنس ويغلف
النفس بالوحشة وألم الحسرة. وهو القائل
قبل رأيه هذا:

(١) الديوان: شرح عبد الرحمن البرقوقي، ج١، ص ٣١٧-٣١٨. والأبيات السابقة من القصيدة ذاتها.

(٢) انظر في كتاب علي شلق. م. س. ص ١٣٥.

(٣) الديوان: شرح البرقوقي، ج١، ص ٣٣٧.

(٤) الديوان: شرح البرقوقي، ج٣، ص ٣٤١.

بِقَائِي شَاءَ لَيْسَ هُمْ اِزْتِحَالًا
 وَحُسْنَ الصَّبْرِ زَمُّوا لَا الْجَمَالَ
 تَوَلَّوْا بَغْتَةً فَكَأَنَّ بَيْنَنَا
 تَهَيَّبَنِي فَفَاجَأَنِي اِغْتِيَالًا...
 بِجِسْمِي مَنْ بَرَّتْهُ فَلَوْ أَصَارَتْ
 وَشَاحِي ثَقَبَ لَوْلُوَّةَ لَجَالًا
 وَلَوْ لَا أَنَّنِي فِي غَيْرِ نَوْمٍ
 لَكُنْتُ أَظُنُّنِي مِنِّي خَيَالًا

وقد يستعيز عن حبهنَّ بحبِّ المجد
 الذي هو بديل وتصعيد (الوافر):

فُؤَادٌ مَا تُسَلِّيهِ الْمُدَامُ
 وَعُمُرٌ مِثْلُ مَا تَهَبُّ اللَّئَامُ
 وَمَنْ حَبَرَ الْغَوَانِي فَالْغَوَانِي
 ضِيَاءٌ فِي بَوَاطِنِهِ ظَلَامٌ^(١)

ثمَّ يروِّي ويترك موقف الرِّفْض،
 والبحث عن البديل، إلى الغوص في
 موضوع خطير وجودي يبلغ به مبلغ
 علماء النفس [الكامل]:

أَرَقُّ عَلَى أَرَقٍ وَمِثْلِي يَأْرُقُ
 وَجَوَى يَزِيدُ وَعَبْرَةٌ تَتْرَقُّرُقُ
 جُهْدُ الصَّبَابَةِ أَنْ تَكُونَ كَمَا أَرَى
 عَيْنٌ مُسَهَّدَةٌ وَقَلْبٌ يَخْفُقُ
 مَا لَاحَ بَرَقٌ أَوْ تَرَنَّمَ طَائِرُ
 إِلَّا ائْتَنَيْتُ وَلِي فُؤَادٌ شَيْقُ

جَرَّبْتُ مِنْ نَارِ الْهَوَى مَا تَنْطَفِي
 نَارُ الْغَضَى وَتَكِلُ عَمَّا تُحْرِقُ
 وَعَدَلْتُ أَهْلَ الْعَشِقِ حَتَّى ذُقْتُهُ
 فَعَجِبْتُ كَيْفَ يَمُوتُ مَنْ لَا يَعشُقُ
 وَعَدَزْتُهُمْ وَعَرَفْتُ ذَنْبِي أَنَّنِي
 عَيْرْتُهُمْ فَلَقِيْتُ مِنْهُ مَا لَقُوا^(٢)

ولعلَّ سبب تبديل موقفه من العشق
 والعشاق يتجلَّى في قوله [البسيط]:

لَوْلَا مُفَارَقَةُ الْأَحْبَابِ مَا وَجَدْتُ
 لَهَا الْمَنَايَا إِلَى أَرْوَاحِنَا سَبِيلًا^(٣)

لقد منح الشَّاعر نفسه فرصة البوح عمَّا
 تعانیه من آلام الفراق وتباريح الحبِّ، إثر
 مفارقة الأحباب، وقد نقض الآن كلَّ ما قدَّمه
 من أحكام على العشق والعاشقين، بعد أن
 جرَّبه «وأصبح عاشقاً يعانِي جهد
 الصَّبَابَةِ»^(٤)، فقد تبدَّلت حاله لتبدل مناخه
 الطَّارئ، فهو إنسان من لحم ودم وعصب،
 في صدره وبين ضلوعه قلب يكره ويحبِّ،
 وإن كان لديه أولويات...

ثمَّ يستفيض شاعر الغزل، عاشق
 البدويَّات، في دورانه المحبَّب حول الجمال
 البدويَّ [البسيط]:

مَا أَوْجَهُ الْحَضْرِ الْمُسْتَحْسَنَاتُ بِهِ
 كَأَوْجِهِ الْبَدَوِيَّاتِ الرَّعَابِيْبِ^(٥)

(١) الدِّيوان: شرح البرقوقي، ج٤، ص ١٩٣.

(٢) الدِّيوان: شرح البرقوقي، ج٣، ص ٧٤.

(٣) الدِّيوان: شرح البرقوقي، ج٣، ص ٢٨٢.

(٤) علي شلق: م.س. ص ١٣٦.

(٥) الدِّيوان: شرح البرقوقي، ج١، ص ٢٩١.

الرعايب: جمع رعبوية، وهي الطويلة الممتلئة.

ولعلّه، وهو المحكوم بالأقيسة العقلية،
جرّب الحبّ، فحكم على العشاق حكماً ذا
شقين [الوافر]:

يُحِبُّ الْعَاقِلُونَ عَلَى التَّصَافِي
وَحُبُّ الْجَاهِلِينَ عَلَى الْوَسَامِ^(١)

فالشاعر هنا قد نضج، واكتهل، وشاب،
فهو يهتمّ للفضيلة وشؤون الخير، أكثر ممّا
يهتمّ لنوازع الجسد، فتطمئن نفسه لسيادة
المحبة بين الناس بعقله وحكمته، أكثر ممّا
يطمئن للعرض الرائل. وهو يرى أنّ الجاهل
يركض وراء الملامح الجميلة، أمّا العالم
المتقّف فهو يحبّ الحبّ عن تناغم روحيين
وتلاقي نفسين.

فالمتنبّي كائن حيّ عاقل له كلّ ما
للأحياء من جسد يأكل ليعيش، يلتفت إلى
الحبّ الذي موضوعه جمال المرأة، فتتناوله
الحكمة بنت التأمّل في الكون، فيقول
[الطويل]:

وَأَعْيِدُ يَهْوَى نَفْسَهُ كُلُّ عَاقِلٍ
عَفِيفٍ، وَيَهْوَى جِسْمَهُ كُلُّ فَاسِقٍ
وما الحُسْنُ في وَجْهِ الْفَتَى شَرَفًا لَهُ
إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي فَعْلِهِ وَالْخَالِئِقِ^(٢)

هذان البيتان صدى اندغام المتنبّي في
محيط النَّاسِ، فهو عندما يُعبّر عن مشاعره،

تحكمه خطرات التأمّل، فيعقد مقارنة بين
جميل الوجه، وجميل العقل والخلق. فجمال
الوجه معشوق لذاته، وجمال الأخلاق
مرصود للآخرين، وأحلى جمال ذلك الذي
يرافقه خُلقٌ حلو جميل.

لذا، نرى أنّ من أكثر النواحي السلبية
في موقف من أنكر شعر الحبّ عند المتنبّي،
إغفاله الجانب الملحوظ بالتجربة، والعمق
في مناخ الحبّ، هذا الموقف الذي يكمل
طريق الشعر، ويحيط بمشاعره ذات النَّبْضِ
الرئان من مناخ القلب، وبراعة الأداء
الشعريّ ونبله.

وإذا كان الحبّ يوحى بالغزل، وفيه
يتماوت المحبّ في عشق المحبوب. فهل
يصدّق عارفو المتنبّي أو الذين جهلوا هذا
الجانب منه كالمستشرق الإسبانيّ النَّابِه
«إميليو غرسيه غومث» الذي أقرّ بعبقريّة
المتنبّي لكنّه جرّده من فضيلة الحبّ،
ونمائق الغزل، رأى أنّ أبا الطيّب كان لشدّة
عفّته وكراهيته للمرأة «أغمض عينيه دون
الحبّ»^(٣)!

إنّ تقصير هذا المستشرق في فهم غزل
المتنبّي، وأثر الحبّ في حياته وشعره،
سببه اقتصار دراسته في هذا الجانب على
بضعة أبيات من شعر أبي الطيّب، ولأنّه لم

(١) الديوان: م. ن. ج ٤، ص ٢٧٤.

(٢) انظر في المرجع نفسه، ص ١٥٥.

(٣) إميليو غرسيه غومث: م. س. ص ٣٣.

يروُّ في حكمه، ولم يعاود بصبر وشموليَّة
قراءة ديوان المتنبي، ليجد اعترافه أن يقول
[الطويل]:

يضاحك في ذا العيدِ كُلُّ حبيبهُ
حذائي وأبكي من أحبِّ وأندبُ^(١)
أليس هو القائل أيضاً في عودة العيد
[البسيط]:

أما الأحبَّةُ فالبيداءُ دونهمُ
فليتَ دونكَ بيذاً دونها بيذاً^(٢)
ثمَّ أليس هو القائل [الكامل]:

وعذلتُ أهلَ العشقِ حتى نُقِئَهُ
فَعَجِبْتُ كيفَ يموتُ من لا يعشُقُ
وعذرتُهُم وعرفتُ نذبي أني
عيرتُهُم فلقيتُ منه ما لقوا^(٣)
والقائل [الخفيف]:

رامياتٍ بأسهمٍ ريشها الهدبُ
تشقُّ القلوبَ قبل الجلودِ
يترشَّفَن من فمي رشفاتٍ
هنَّ فيه أحلى من التوحيدِ^(٤)

فهل يختلف اثنان في تجربة المتنبي
الصَّادقة في العشق وما يعقبه من قلق،
وسهر، ودموع؟ ولنسمع أبا الطَّيب يتماوت
عشقا، ويتهاك دمعاً أن يقول [الكامل]:

قد كان يمنعني الحياءُ من البكا
فاليومَ يَمْنَعُهُ البُكا أن يَمْنَعَا
حتى كَأَنَّ لكلَّ عَظْمٍ رَنَّةً
في جِلْدِهِ ولكلِّ عَرْقٍ مَدْمَعَا^(٥)

وإذا ما التفتنا، في هذا الصدد، إلى
العشاق المشهورين في العالم العربي، نجد
أن المتنبي لا يختلف عنهم التباعاً، وضياًعاً،
وتهاكاً!!

حتى في غزله التقليدي فإنه يفضح
تماسكه، وجبروت تعاليه، ويرسمه إلى
جانب الشعراء العشاق المتماوتين في
العشق، ثم يستفيق لسانحة أو لمصادفة
فيتذكر أستاذه أبا تمام، ويرى كيف وطأ
لابن المعتز وشعراء سيف الدولة، على
طراز كشاجم والصنوبري والسري الرفاء
الذين غرقوا في بحر التشابيه.

يقول المتنبي، متمجناً ومغالبا فئة
التصنييعين [الكامل]:

كشفتُ ثلاثَ ذوائبٍ من شعرها
في ليلةٍ فأرثُ ليالي أربعا
واستقبلتُ قمرَ السماءِ بوجهها
فأرثني القمرين في وقتٍ معاً^(٦)

وهو لم يقف عند التغزل بالحدود
والشفاه والجداول، بل نراه يتغزل محذفاً

(١) الديوان: شرح البرقوقي، ج ١، ص ٣٠٧.

(٢) الديوان: شرح البرقوقي، ج ١ ص ٣٠٧.

(٣) الديوان: شرح البرقوقي، ج ١، ص ١٤٠.

(٤) الديوان: شرح البرقوقي، ج ٢، ص ٤٣٩.

(٥) الديوان: شرح البرقوقي، ج ٣، ص ٣.

(٦) الديوان: شرح البرقوقي، ج ٣، ص ٤.

في الخصر، الذي يكشف عن ضمور البطن
وجمال القدِّ، فترسم العيون حوله نطاقاً
[الوافر]:

وخصرٌ تَثُبَّتْ الأَبْصَارُ فِيهِ

كَأَنَّ عَلَيْهِ مِنْ حَدَقِ نِطَاقاً^(١)

ثمّ انظر كيف يرسم غزله، ويوارى حبه،
ويقدم الأعدار لذلك [الطويل]:

وَمَا كُنْتُ مَمَّنْ يَدْخُلُ الْعِشْقُ قَلْبَهُ
وَلَكِنْ مِنْ يُبْصِرُ جَفُونِكَ يَعْشِقُ
وَمَا كُلُّ مَنْ يَهْوَى يَعْفُ إِذَا خَلَا
عَافِي وَيُرْضِي الْحَبَّ وَالخَيْلُ تَلْتَقِي^(٢)

في هذين البيتين صور المتنبّي نفسه،
ليرينا أنّ بطولة الحرب لا تحول دون بطولة
القلب بالحبِّ. وهذا الحبُّ ينتمي إلى الحبِّ
العذريِّ، والصّوفيِّ^(٣).

فأبو الطيّب إذا كان عاشقاً عفيفاً في
خلوته بالمحبوب، فإنّه يرضي هذا المحبوب
بشجاعته عندما الخيل تلتقي.

ومن قوله الذي يُعَبَّرُ عَنْ كَلْفِهِ بِالْحَبِيبِ
ومخافة البعد والهجران، وأنّه عاش تجربة
الحبِّ فعلاً، هذان البيتان [الطويل]:

وبين الرِّضَا والسُّخْطِ والقُرْبِ والنَّوَى
مَجَالٌ لِدَمْعِ الْمُقْلَةِ الْمُتَرْقِرِ
وأحلى الهوى ما شكَّ في الوصلِ رَبُّهُ
وفي الهجرِ فهو الدَّهْرُ يَرْجُو وَيَتَّقِي^(٤)

والمتنبّي يسجّل مشاعر الحبِّ في
تدفّقها أنّ التقى بمن أحبِّ، وخاف الفراق
بعد اللّقاء، وبالوداع الموت الذي يرسم
صورته أبو الهيجاء سيف الدولة.

ومن تلك الصّور الوداعيّة قوله عن التي
سبق ذكرها [الطويل]:

وَلَمْ أَرَ كَالْأَحَاطِ يَوْمَ رَحِيلِهِمْ
بَعَثَنَ بِكُلِّ الْقَتْلِ مِنْ كُلِّ مُشْفِقٍ
أَدْرَنَ عُيُوناً حَائِرَاتٍ كَأَنَّهَا
مُرْكَبَةٌ أَحْدَاقُهَا فَوْقَ زُنْبُقٍ^(٥)

وقد يعيّن المتنبّي نسبة المرأة التي
لقبها متواصلاً، فينوّه عن هذا اللّقاء بقوله
[المنسرح]:

شَأْمِيَّةٌ طَالَمَا خَلَوْتُ بِهَا
تُبْصِرُ فِي نَاضِرِي مُحَيَّاها
مَا نَفَضْتُ فِي يَدِي عَدَائِرُها
جَعَلْتُهُ فِي الْمُدَامِ أَفْواها^(٦)

(١) الدّيوان: شرح البرقوقي، ج٣، ص ٤١.

(٢) الدّيوان: شرح البرقوقي، ج٣، ص ٤٨ - ٥٠.

(٣) انظر في: «المتنبّي شاعر تنوّهج ألفاظه فرساناً لتأسر الزمان» لعلي شلق، ص ١٥٦.

(٤) الدّيوان: شرح البرقوقي، ج٣، ص ٤٨-٤٩.

(٥) الدّيوان: شرح البرقوقي، ج٣، ص ٥١-٥٢.

(٦) الدّيوان: شرح البرقوقي، ج٤، ص ٤٠٥.

كُلَّمَا عَادَ مَنْ بَعَثَتْ إِلَيْهَا
غَارَ مِنِّي وَخَانَ فِيمَا يَقُولُ
أَفْسَدَتْ بَيْنَنَا الْأَمَانَاتِ عَيْنَا
هَا، وَخَانَتْ قَلُوبَهُنَّ الْعُقُولُ
تَشْتَكِي مَا اشْتَكَيْتُ مِنْ أَلَمِ الشُّوْقِ
قِ إِلَيْهَا وَالشُّوْقُ حَيْثُ النُّحُولُ
وَإِذَا خَامَرَ الْهَوَى قَلْبَ صَبٍّ
فَعَلَيْهِ لِكُلِّ عَيْنٍ دَلِيلُ
رُؤْدِينَا مِنْ حُسْنِ وَجْهِكَ مَا دَا
مَ فَحُسْنُ الْوَجْوهِ حَالٌ تَحُولُ
وَصَلِينَا نَصْلِكَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا
فَإِنَّ الْمُقَامَ فِيهَا قَلِيلٌ^(٢)

ويبلغ المتنبي من العمق أن يرى في
الهُوى سكرًا كسكر الخمرة يسدل الستار
على الواقع المتهم، ويهيم وراء دقات
ناقوس داخلي ليصلي للحب صلاة التوحيد
الذي لا شرك فيه^(٣) [السريع]:

قَالَتْ أَلَا تَصْحُو فَقُلْتُ لَهَا
أَعْلَمْتَنِي أَنَّ الْهَوَى ثَمَلٌ^(٤)

ويوالي المتنبي إرسال فقاقيعه على
سطح بحيرة الحب. ويتقلنا بحكمه التي إن
جازت وسطعت في آفاق التجارب، فإنها

فهو يسجل غرامه، وأخباره، طلقاً خارج
الشَّرع، وزهواً بالرجولة وفحولتها، ثم لا
يقنصر على الخبر بلقاء، ومناغمة، ولكنّه
يرسم حكمة عن تجربة عاناها، والحكمة في
الأصل مثل له أسبابه التي ضاعت عبر
الزَّمن، ليصبح مبدأً عقلياً عاماً [الكامل]:

الْحُبُّ مَا مَنَعَ الْكَلَامَ الْأَلْسُنَا
وَأَلَذُّ شَكْوَى عَاشِقٍ مَا أَعْلَنَا^(١)

جمع هذا البيت في شطره الأول حكمة،
وفي الثاني مثلاً ينم عن خبرة واسعة
وبراعة تأليف.

سقنا هذه الفلذات الغزلة تعبيراً عن
رؤية الشاعر أمور الحب، ورؤياه في
سموه، وغموضه وأعماق صمته.

وقد يجد الباحث في شعر المتنبي لآلئ
في مطالع القصائد ونجوم فلك في الثنايا.
ومن أروع مطالعه وقد جاءه رسول من قبل
سيف الدولة وهو بالكوفة، فبدا له أن يرى
عيني حبيبته في عيني الرسول، فتفيض
كوامن حبه ولواعج سره، بما ينضج
بالحنين اللأهب، والأسى الكامن [الخفيف]:

مَا لَنَا كُنَّا جَوْ يَا رَسُولُ
أَنَا أَهْوَى وَقَلْبُكَ الْمُتَبُولُ

(١) الديوان: شرح البرقوقي، ج ٣، ص ٣٢٧.

(٢) الديوان: شرح البرقوقي، ج ٣، ص ٢٦٧-٢٦٨. والجوى هو الحرقه في القلب من العشق. والمتبول: الذي أسقمه
الحب.

(٣) انظر في المرجع الأسبق، لعلي شلق، ص ١٦٦. وانظر أسلوبه الصوفي في الحب بحسب شوقي ضيف ص ١٩٤.

(٤) الديوان: شرح البرقوقي، ج ٣، ص ٢٧٠.

سخيفة أمام جنون الحب وقداسته
[الكامل]:

إِنْعَمَ وَلَدٌ فَلَأَمُورٍ أَوَاخِرُ
أَبْدَأُ إِذَا كَانَتْ لَهْنٌ أَوَائِلُ
مَا دُمْتُ مِنْ أَرَبِ الْحَسَانِ فَإِنَّمَا
رَوْقُ الشَّبَابِ عَلَيْكَ ظِلُّ زَائِلُ
لِلَّهُوَ أَوْنَةٌ تَمُرُّ كَأَنَّهَا
قَبْلُ يُزَوِّدُهَا حَبِيبٌ رَاجِلُ
جَمَحَ الرِّمَانُ فَمَا لَزِيدُ خَالِصُ
مِمَّا يَشُوبُ وَلَا سُرُورٌ كَامِلٌ^(١)

والمتنبيّ الفارس، والحكيم، هو ذاته
المتدلّ بحبّ الأعرابيّات اللواتي عاش في
مناخهنّ في بادية السّماوة، حيث سطع أمام
عينيه وقلبه حسن البدويّات ذوات النّضرة
الطّبيعيّة في وجوههنّ، والرّشاقة في
سيرهنّ، والحضور السّالب للعقل بلقائهنّ
[البسيط]:

حُسْنُ الْحَضَارَةِ مَجْلُوبٌ بِتَطْرِيَةٍ
وَفِي الْبَدَاوَةِ حُسْنٌ غَيْرٌ مَجْلُوبٍ
أَفْدِي ظِبَاءَ فَلَاحٍ مَا عَرَفْنَ بِهَا
مَضَعُ الْكَلَامِ وَلَا صَبْعُ الْحَوَاجِبِ
وَلَا بَرَزْنَ مِنَ الْحَمَامِ مَائِلَةً
أُورَاكُهُنَّ صَقِيلَاتِ الْعِرَاقِيْبِ

وَمِنْ هَوَى كُلِّ مَنْ لَيْسَتْ مُمَوَّهَةً
تَرْكُنَ لَوْنَ شَيْبِي غَيْرَ مَخْضُوبٍ
وَمِنْ هَوَى الصّدقِ فِي قَوْلِي وَعَادَتِهِ
رَغِبْتُ عَنْ شَعْرِ فِي الرَّأْسِ مَكْذُوبٍ^(٢)

تُقَدِّمُ لَنَا هَذِهِ الْأَبْيَاتِ الْمَشْهُورَةَ صُورَةً
حَسِيَّةً عَفْوِيَّةً يَنْضَحُ بِهَا وَجْدَانُ الْمَتَنَبِيِّ إِزَاءَ
حَبِّهِ لِلْجَمَالِ الْبِدْوِيِّ النَّاشِئِ عَنْ حَبِّهِ
لِلصّدقِ وَكُلِّ مَا هُوَ طَبِيعِيٌّ غَيْرَ مَكْذُوبٍ
وَمُصْطَنَعٍ، «فَإِذَا أَضْفَنَّا إِلَى هَذِهِ الْحَقِيقَةِ،
السِّيَاقِ الْفَنِّيِّ الْعَفْوِيِّ الَّذِي قَدْ أَدَّى بِهِ هَذِهِ
الْحَقِيقَةُ، وَهِيَ مِنْ مَعْطِيَّاتِ حِسِّهِ فِي
الْأَسَاسِ لَا ذَهْنِهِ. كَانَ لَنَا أَنْ نَجْزِمَ بِالصّدقِ
الْأَصِيلِ الَّذِي يَضُوعُ فِي شَعْرِهِ»^(٣). وَهَكَذَا
نَرَى أَنَّ غَزَلَ الْمَتَنَبِيِّ ذِي الْمَوْهَبَةِ، رَبِيبَ
التَّجْرِبَةِ، غَزَلَ صَادِقِ الْمَشَاعِرِ، بِشَبَابِ
يَتَفَجَّرُ إِحْسَاسًا بِالْحَبِّ، وَيَنْدَاحُ شَعُورًا
رَفَاقًا بِجَنَاحِي الرِّغْبَةِ فِي أَفَاقِ الْجَمَالِ.

فهل يعقل أن يكون المتنبيّ - كما
يُقال -: شاعر بلا حبّ، وأنّه كان يكره
المرأة ويعتبرها مجرد وعاء للنّسل^(٤)؟

إنّ هذا الموقف الخاطيء من غزل المتنبيّ
وحبه، يدلّ على تهاون كبير في معالجة هذا

(١) الدّيبان: شرح البرقوقيّ، ج٣، ص ٣٧٠.

(٢) الدّيبان: شرح البرقوقيّ، ج١، ص ٢٩١. ماثلة: بارزة. العراقيب: جمع عرقوب، وهو العصب الغليظ فوق عقب
الرجل.

(٣) رضوان الشّهال: أبو الطيب المتنبي عملاق الواقعية في الشعر العربي، ص ٢٨٣.

(٤) انظر في المرجع الأسبق، لغومث، ص ٢٩-٣٢.

فهرس المصادر والمراجع العربية

أولاً: المصادر:

- البرقوقي، عبد الرحمن بن عبد الرحمن: شرح ديوان المتنبي (١-٤). الطبعة الثانية، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٣٠.
- الجرجاني (القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز المتوفى سنة ٣٩٢هـ/١٠٠٢م): الوساطة بين المتنبي وخصومه. لاط، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وغيره. صيدا - بيروت، ١٩٦٦م.
- ابن سلام الجمحي (أبو عبد الله محمد بن سلام بن عبيد الله، المتوفى سنة ٢٣٢هـ/٨٤٦م): طبقات الشعراء، إعداد اللجنة الجامعية لنشر التراث، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٦٩م.
- ابن سيده (علي بن إسماعيل، المتوفى سنة ٤٥٨هـ/١٠٦٦م): شرح المشكل من شعر المتنبي، تحقيق مصطفى السقا وغيره، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦م.
- المعري (أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان التتوخي، المتوفى سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٧م): شرح ديوان أبي الطيب المتنبي (معجز أحمد)، تحقيق عبد المجيد دياب (١-٤)، دار المعارف، مصر، ذخائر العرب سلسلة ٦٥، ١٩٨٤م.
- ابن منظور (جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم، المتوفى سنة ٧١١هـ/١٣١١م): لسان العرب (١-١٥)، دار صادر، بيروت، ١٩٥٥-١٩٩٢م.

ثانياً: المراجع:

- إسماعيل، عز الدين: الرؤية والفرق في الأدب العباسي، دار النهضة العربية، بيروت، لاط، ١٩٧٥.
- الإمراني، حسن: المتنبي في دراسات المستشرقين الفرنسيين، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٤م.

الجانب عند أبي الطيب، فالمؤلفون الذين كتبوا في هذا المضمار لم يعودوا إلى آثار المتنبي ليتفحصوها بدقة وتأمل، ولم يقفوا، مثلاً، على قصيدة من قصائد الحب وقفة نقدية متروية، يتوافر فيها موقفان جوهريان، وهما: «موقف نعرف منه حالة الشاعر الوجدانية الخاصة ومدى انتصاره في الحب أو إخفاقه ويأسه. وموقف ثان نعرف إلى أي حد تعدد القصيدة نموذجاً أدبياً بديعاً. فهي مثلاً تنمو فيها المشاعر والأحاسيس نمواً عضوياً دقيقاً، بحيث تعد تجربة شعرية تامة، وتكتمل فيها الصياغة الجميلة، بحيث تعد عملاً أدبياً بليغاً»^(١).

فنحن، إذاً، لم نستطع التعرف، من خلال هذا الموقف، إلى مراحل تطور مشاعر المتنبي، ومدى قدرته على تصويرها وتجسيدها في فنّه، للدلالة على أصالتها وسرّ جودته الفنية في نماذجه الأدبية. فهل يصحّ بعد ذلك كله اعتقاد مَنْ رأى، من أدباء عرب ومستشرقين، بأنّ المتنبي لم يكن شاعراً ذا تجربة فعلية في العشق والحب، كما هو غير مفتون بحبّ النساء بشعور تلقائي، وأنّه قد استهلّ بعض قصائده بالنسيب الرائع، الذي يخلو من أية عاطفة حقيقية مهما برع في تجسيد إلهامه فيها؟!

(١) شوقي ضيف: في النقد الأدبي، ص ٦٤.

- المراجع الأجنبية:

BLACHERE (R.)

_ Un poète du IV siècle de l'Hègire: Abu-t-tayyib- al- Mutannabi. Paris 1935.

_ Le poète arabe' al-Mutannabi et l'occident musulman. In R.E.L. VoL.

JAUSS: (H.R.)

Pour une esthétique de la réception. Paris. Gallimard. 1978. Coll. Bibliothéque des idées.

_ Littérature médiévales et théorie des genres in Poétique c, Paris. 1970.

La reception de la Littérature par la ciritique journalistique. Paris. éd. Jean Michel Place. 1980.

KILITO.(A.)

L'auteur et ses doubles. Essais sur la culture arabe classique. Paris. àd Seuil. Col. Poétique. 1985.

LACOULE-LABARTRE: (PH.)

La Fable. In Poétique. N 1 Paris. Seuil.1970. p.51-63.

MASSIGNON: (L.)

Mutanabbi devant le siècle ismaélien de L'Islam. In AL-Mutanabbi: Recueil publié par L'I.F.D. a L'occasion de son millénaire. Beyrouth. 1936.

PELLETIER: (A.M.)

Fonctions Poétique. Paris. Ed. Klincksieck.1977.

PLEKHANOV: (G.)

L'art el la vie sociale. Paris. Ed. Sociales. 1949.

SEBA: (Jean-Renaud):

Ciritique des catégories de L'histoire de la littérature: Tèlèologie et Réalisme chez Lanson in Littérature. N· 16. 1974.

- بلاشير، ريجيس: أبو الطيّب المتنبي دراسة في التاريخ الأدبي، ترجمة إبراهيم الكيلاني، ط ٢، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٥م.

- حسين، طه: - مع المتنبي، ط ١٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٣٦م.

- في الأدب الجاهلي، ط ٣، القاهرة، ١٩٣٣م.

- رومية، وهب أحمد: شعرنا القديم والتقد الجديد، عدد ٢٠٧، نشر المجلس الوطني للثقافة والفنون، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٦٦م.

- ريشار، أندريه: التقد الجمالي، ترجمة هنري زغيب، ط ٢، منشورات عويدات، بيروت-باريس، ١٩٨٩م.

- شعيب، محمد عبد الرحمن: المتنبي بين ناقدية في القديم والحديث، ط ٢، دار المعارف، مصر، ١٩٦٩م.

- شلق، علي: المتنبي شاعر ألفاظه تنوّهج فرساناً تأسر الزّمان، ط ١، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٣٦م.

- الشّهال، رضوان: - أبو الطيّب المتنبي عملاق الواقعية في الشعر العربي، ط ٢، دار الأحد (البحيري إخوان)، بيروت، ١٩٦٢م.

- في الشعر والفنّ والجمال. بيروت، دار الأحد (البحيري إخوان)، لاط، ١٩٦١م.

- ضيف، شوقي: - تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، ط ٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٥م.

- الفنّ ومذاهبه في الشعر العربي، ط ١٠، دار المعارف، القاهرة، لات.

- في التقد الأدبي، ط ٨، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٢م.

- غومث، إميليو: مع شعراء الأندلس والمتنبي، تعريب الطاهر أحمد مكّي، ط ٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٨م.

الكرونوتوب في شعر الغزليين

د. رضى عبدالله عليبي

المقدمة

الزمان) في الشعر عموما وشعر الغزل على التخصيص علامة تفصح عن ضروب شتى من الدلالات تنهض كما سنرى بأبعاد جمالية في مختلف النصوص الشعرية.

وإن اهتمامنا بهذين البعدين المشكلين للفضاء في شعر الغزليين راجع إلى رغبتنا في البحث عن الخصوصيات النوعية في اتجاه من اتجاهات الشعرية المجلية لطريقة في التعامل لدى هؤلاء الشعراء مع الفضاء وكيفية تأثيره فيهم^(٢).

وتركيزنا على شعر الغزل تحديدا عائد إلى ثراء معجم الفضاء فيه من جهة، وإلى

شغل الفضاء الشعراء على اختلاف توجهاتهم^(١) وتملك عقلهم ووجدانهم حتى غدا ركنا أساسيا في قصائدهم لا محيد من الإتيان عليه في مختلف سياقات الشعر. وإن لهذا الحضور لا ريب دلالة قد تتجاوز ما يطفو على سطح المفهوم من إشارات محيلة على مُجرّد المكان بوصفه فضاء للتعايش أو الزمان بوصفه فضاء لوجود الفرد أو إحالة على زواله.

وعلى أساس من ذلك غدا الكرونوتوب^(٢) Chronotope (المكان -

(١) نقصد بالتوجهات ما بات ينعت به النقاد بعض الشعراء بالانتماء إلى هذا الاتجاه أو ذاك سواء كان تخصيصا في المدح أو الهجاء أو الرثاء أو الشكوى لدى شعراء الجاهلية أو غيرهم من اللاحقين.

(٢) أخذنا أصل تسمية اللفظة (Chronotope) عن الناقد الروسي ميخائيل باختين (Mikhaïl Bakhtine) وهو مصطلح أدخله إلى نظرية الأدب وأفرده فصلا في كتابه «علم الجمال ونظرية الأدب». والكلمة بالنسبة إليه مركب يحيل في مورفولوجيته على صفة الالتحام غير القابل للفصل بين الزمان والمكان في الفضاء الواقعي. وقد استطاع باختين بهذه النظرية إعادة التماسك للمفهومين بعدما ساد في محاولات بعض الباحثين توجه يقيم الفصل بين الزمان والمكان.

(٣) يرى هنري ميران (Henri Mitterand) أن هذا المفهوم الكرونوتوب يستحق أن يكون مفهوما سيميائيا بما أنه ليس في كتاب باختين علم الجمال ونظرية الرواية لأنها مرحلة ضرورية في اتجاه دراسة بلاغية وأسلوبية للكيفية التي يصير بها الزمان والمكان معا ملفوظين وقابلين للإدراك. انظر Chronotopes Romanesque Poétique 81 Ed Seuil 1990 p89

Henri Mitterand

والياس والظفر والانتظار وغيرها من الثنائيات.

ولقد بدأ أن الزمان في شعر الغزل الكورتوازي (Courtois) العذري نفسي بامتياز فهو الزمان الخاص بالماضي كما يرى «بيسال» (Pucelle)^(١)، وآلة الرجعة إليه تذكر اللحظات المشرقة سواء لحدث عاشه صاحبه أو لموضع نجعة الحب.

واللأفت للانتباه أن الزمان في شعر العذريين على تعدد أبعاده يظهر بأطراد في دورتي الليل والنهار بصفة خاصة، وتعليل ذلك أن الشاعر الغزل واقع تحت سلطة الحب الذي يعاينه على امتداد دورات الزمان «فنهارة نهار الوالهيين» وليله ليل الهمم والتفكير. وإذا كان نهاره بـ «نهار الناس» أشبه «فإن دجى الليل» موقظ للمضاجع على نحو ما وجدنا في قول قيس بن ذريح^(٢) حيث يقول: [طويل]

يَظَلُّ نَهَارُ الْوَالِهِيْنَ نَهَارَهُ
وَتَهْدِنُهُ فِي النَّائِمِينَ الْمَضَاجِعِ^(٣)

أو قوله كذلك: [طويل]

نَهَارِي نَهَارُ النَّاسِ حَتَّى إِذَا بَدَأَ
لِي اللَّيْلُ هَزَّنْتَنِي إِلَيْكَ الْمَضَاجِعِ^(٤)

تناسل معانيه الجامعة إلى معان صغرى من جهة ثانية، زيادة على ما لقيه مبحث المكان والزمان من اهتمام واسع لدى الباحثين قديما وحديثا، فتعددت المقاربات وتنوعت. فمنها ما كان بنيويا أو أنثروبولوجيا أو سيميائيا أو فلسفيا وغيرها من المداخل.

ولا شك في أن الإتيان على تناول سلطة الزمان والمكان لدى شعراء الغزل تلزمتنا البدء بما ارتضاه بعض النقاد المعاصرين في تصنيفهم الغزل إلى ما هو حسّي إباحي وما هو عفيف عذري، ومن اعتبار عمر بن أبي ربيعة ومجنون ليلي العامري إمامين لهذين الاتجاهين. غير أننا لم نحصر بحثنا في هذين العلمين بل اجتهدنا في تتبع المعنى لدى شعراء آخرين ينتمون إلى هذا الاتجاه أو ذاك.

١ - الكرونوتوب في شعر العذريين

لقد احتفى شعراء الغزل العذري بالفضاء الزماني والمكاني احتفاء واضحا. ومن آيات ذلك أن أداروا ألفاظه على ثنائيات عديدة محيلة عليه كالموت والحياة والأمل

(١) J. Pucelle le temps, presses universitaires de France 1955 p10.

(٢) من قبيلة ليث شاعر غزل اشتهر بقصته مع لبنى مات حوالي ٦٨٧ م. انظر ريجيس بلاشير تاريخ الأدب العربي تعريب إبراهيم الكيلاني، طبعة تونس/الجزائر ١٩٨٨ القسم ٢/٧٤٦.

(٣) ديوان قيس بن ذريح، قدّم له وشرحه صلاح الدين الهواري، ط١، دار ومكتبة الهلال بيروت، ٢٠٠٥ ب ٣٥ ص ٧٥.

(٤) ديوان قيس بن ذريح، ب ٣٩ ص ٧٥.

بينما يقترب ليل وضاح اليمن^(١)
بالسَّهاد وتذراف الدموع لفقده روضة
[كامل]

فَظَلَلْتُ مَعْمُوداً وَبِتُّ مُسَهَّداً

وَدُمُوعُ عَيْنِي فِي الرِّدَاءِ غَوَاشِي^(٢)

ويعدُّ البكاء الحارَّ والسَّهر كمدا من
المعاني المتداولة في شعراء الغزل
العذريين والإباحيين^(٣) على السواء لكونه
يعدُّ من المعاني الأصيلة في الشعر الغزلي
بوجه عام. ويعتبر اللجوء إلى التعبير عن
الانفعالات بكاء وأرقا من «رواسم البداوة»
بعبارة ريجيس بلاشير يذكرنا بالبكاء على
المنازل القفار أو مخاطبة الرفيقيين أو
غيرهما من الرّواسم التي حافظ عليها
الشعراء في قصائدهم الغزلية.

ومن المعاني الفرعية المنبثقة عن الزمان
النفسي شكوى بَيْنَ الظاعنين أو نأيهم في
المكان، فلا يجد الشعراء من وسيلة غير
التّعريب على أمكنة كانت محتضنة للقاءات
مع الحبيبة قد تُمثّل لدى أصحابها لحظة من

لحظات التواصل ماضيا على نحو ما وجدنا
في قول وضاح اليمن [وافر]

تَذَكَّرْتُ المَنَازِلَ مِنْ شَعُوبٍ

وَحيًا أَصْبَحُوا قَطَعُوا شَعُوباً^(٤)

لا يخفى هاهنا أن تواشج الزمان
والمكان بين، بل إن تعيين الزمان في الفضاء
جلي في الجمع بين التذكر والمنازل، بين
الزمان والمكان ولقد أشار باختين إلى أن
تعيين الزمان وتدقيقه في المكان أمر لا
محيد عنه والأمثلة على ذلك عديدة^(٥).

لقد نشأت في نأي الحبيبة قصص كانت
تدار على ألسنة العذريين، حيث يعنّ لهم في
أحيان كثيرة التوسّل بالتمني أسلوبا لطّي
مسافات البعد بين الطرفين، من ذلك قول
جميل ابن معمر [طويل]

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبَيْتَنُّ لَيْلَةً

بِوَادِي القُرَى إِنِّي إِذْنُ لَسَعِيدٌ^(٦)

ويعدُّ نأي الحبّ من أكثر المشاهد
المثيرة لانفعال الشاعر وجدانيا، إذ توقظ
في نفسه الإحساس بعبثيّة وجوده لفقد

(١) هو وضاح بن إسماعيل المشهور بوضاح اليمن شاعر غزل كان الوليد أمر بقتله لشكّه في عشقه زوجته أم البنين . توفي
حوالي ٧٠٥ م . انظر تاريخ الأدب العربي ٧٤٨/٢ .

(٢) شرح ديوان وضاح اليمن ، جمع وتحقيق أنطوان القوّال ، ط ١ ، دار الفكر العربي بيروت ، ٢٠٠٣ ب ٩ ص ٢٨ .

(٣) انظر على سبيل الذكر ديوان عمر بن أبي ربيعة ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ط ٢ ، دار الأندلس ١٩٨٣ ب ٤
ص ١٢٤ وب ١ ص ١١٣ .

(٤) شرح ديوان وضاح اليمن ب ٢ ص ١٧ .

(٥) انظر Chronotopies Romanesque p 91. Henri Mitterrand

(٦) شرح ديوان جميل ب ٢٦ ص ٦٦ . ووادي القرى مكان إقامة بثينة .

الحبيبة ما دام النأي يحيل على الانفصال
مكانا بين الطرفين.

ولا يخفى هنا أنه من خاصية إدراك
الإنسان للزّمان ارتباطها ارتباطا وثيقا
بالوجدان. ولقد أشار عبد الرحمان بدوي
إلى ذلك في سياق تفريقه بين ملكة إدراك
الزّمان «النفسي» والزّمان الوجودي.
ونستدلّ على ما ذكرنا بقول جرّان العود^(١)
[طويل]

أَيَا كَبِدًا كَادَتْ عَشِيَّةَ غُرْبٍ
مِنَ الْبَيْنِ إِتْرَ الظَّاعِنِينَ تَصْدَعُ
عَشِيَّةَ مَالِي حِيلَةً غَيْرَ أَنِّي
بَلَقْتُ الْحَصَى وَالخَطَّ فِي الْأَرْضِ مُوَلِّعٌ^(٢)
ومثله قول وضاح في جعله نأي روضة
صاحبته صنوا للموت ولازما من لوازمه
[خفيف]

إِنْ نَأَتْ كَانَ نَائِيهَا الْمَوْتُ صِرْفًا
أَوْ دَنْتَ لِي فَتَمَّ يَبْدُو حَبَالِي^(٣)
وتأتي الإشارة إلى المكان في أبيات
جران العود ووضاح اليمّين ساكنة أفق
القول الشعري تدرك من الفعل «نأت» ومن

المشتق «البين» وهما من الألفاظ الدائرة
على معجم واحد موصول بالبعد المكاني
مصدر شقوة الشعراء.

ولقد عثرنا في شعر ابن الملوّح على
إشارة جمع فيها بين الفضائين في بيت
عكس الواقع النفسي لصاحبه. فقلوه
[طويل]

أَجِنُّ إِلَى نَجْدٍ وَإِنِّي لِأَيْسَ
طَوَالَ اللَّيَالِي مِنْ قَفُولٍ إِلَى نَجْدٍ^(٤)

يجعل دلالة البيت قائمة على ثنائية الأمل
والياس، أمل يفهم ضمنا من الفعل «أحنّ»
إلى المكان وساكنه، ولكنه سرعان ما يبده
واقع الشاعر البعيد بعدا زمنيا يضاهاه بعده
المكاني من خلال القرينة اللفظية «الليالي»
المحيلة على طول الانفصال مدة لا يرجى
منها العودة إلى الموطن والحبيبة معا،
ويأس ظاهر في قوله «من قفوله إلى نجد».

وعلى أساس من ذلك تكتسب تلك
الفضاءات إلى جانب دلالاتها الاجتماعية^(٥)
دلالة نفسية «مأتاها ربط لواعج النفس
وانفعالاتها بصفات الفضاء وهياتها»^(٦).

(١) اسمه عامر بن الحارث قال عنه كرنكو أنه من الأمويين وعاصر عبد الملك بن مروان. انظر الشعر والشعراء ٢/٦٠٥.

(٢) ديوان جرّان العود النميري، رواية أبي سعيد السّكري، ط ٢، دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٩٥ ب ١-٢ ص ٣١.

(٣) شرح ديوان وضاح اليمّين ب ١٦ ص ٤٦. وانظر في معنى تسوية الشعراء بين قرب الحبيبة وبعدها ودوام صبرهم عن
حبّهم قيس بن ذريح ب ٤ ص ٣٧٩.

(٤) ديوان قيس بن الملوّح ب ١ ص ٧٨.

(٥) نقصد بالدلالة الاجتماعية للفضاء مختلف العلاقات البشرية التي تنشأ على ذلك المعطى الجغرافي.

(٦) راجع نجوى الرياحي القسنطيني، الوصف في الرواية العربية الحديثة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية،
ط ١، تونس ٢٠٠٧ ص ٤٦٤.

وتعدّ «حكايات الموت والحبّ» كما يسميها بلاشير سمة من سمات الغزل العذري، حيث يحرص الشعراء على قرن معنى الموت بالحبّ. فهو الحبّ الذي يقذف بصاحبه في متاهات المعاناة بين الرّجاء والأمل، وهو الحبّ الذي «يسلّ الأجسام» و«ينتحي العظم منه»، وهو الحبّ المورث للداء ذاته عند تخليّ الحبّ عن جميل بن معمر^(١) [خفيف]

إزحميني فقدّ بليت فحسبي
بغض ذا الداء يا بنته حسبي^(٢)

إنّ شكوى العذريين للفضاء الزماني والمكاني بدت كما رأينا رهنا لما هو نفسي بامتياز، مثيرة لانفعالات مشتركة ترى في الزمان خاصة ممثلا في دورتي الليل والنهار «عائقا» (Obstacle) نفسيا لا يسعف الشاعر في قضاء رغبته، وفي حال تمكنه من ذلك، فإنّ «استمناحه» نسبي لا يدوم. فجران العود ينشد

مصوّرا قلقه بعد لقائه حبّه [طويل]
فبتنا قعوداً والقلوب كأنها
قطاً شرع الأشرار ممّا تخوف^(٣)

وليس من شكّ في أنّ إحساس الشعراء بسلطة الزمان المفارقة جعلتهم يشكون قصر اجتماعهم بمن يحبون مقابل استتالة الانفصال، وتلك في تقديرنا خاصية شعر الغزل العذري، فأصحابه يستطيّلون الإحساس بالزمان كلّما كان «فارغا لا نشاط فيه... وتشقى (فيه الذات) بالقلق وتستحضره كلّما غمرتها المسرة والحبور وتمكنت من موضع رغبته»^(٤) ومن آيات ذلك قول جميل [وافر]

يطول اليوم إن شحطت نواها
وحول نلتقى فيه قصير^(٥)

ولقد كان من نتائج ذلك أن تشكلت جملة من المعاني الفرعية اصطبغت بصباغ وجداني وكانت سمتها الأساسية الانفعال

(١) شاعر بني عذرة ولد حوالي ٦٦٠ م أمضى حياته كلّها تقريبا في قبيلته يعدّ من أشهر شعراء الغزل في القرن الأوّل. مات حوالي ٧٠١ م.

(٢) ديوان جميل بثينة، تحقيق إميل بديع يعقوب، بيروت، دار الكتاب العربي ط ١، ١٩٩٦ ب ١ ص ٣٦. وانظر قوله ب ٣-٤ ص ٣٠ من الديوان.

(٣) ديوان جرّان العود النميري ب ٤٧ ص ٢٠.

(٤) انظر الإحساس بالزمان في الشعر العربي ج ١ ص ٢٦١.

(٥) ديوان جميل بثينة ب ٢ ص ٢٣٨. وانظر المعنى نفسه قول ابن الملوّح الديوان ب ١٠ ص ٧٥ [طويل]
نَهَارِي نَهَارٌ طَالَ حَتَّى مَلَأْتُهُ وَلَيْلِي إِذَا مَا جَنَّنِي اللَّيْلُ أَطْوَلُ
وانظر قول قيس بن ذريح الديوان ب ٣٨ ص ٩٠ [طويل]
نَهَارِي نَهَارُ النَّاسِ حَتَّى إِذَا بَدَا لِي اللَّيْلُ هَزَّنِي إِلَيْكَ الْمَصَاجِعُ

لحدث الانفصال^(١) كالتضرّع إلى الله تخفيفاً للحُرْق التي تعتادهم ومن «ليل طويل الحزن غير قصير» أو تضرّع حتى يلين الربّ قلب المعشوقة كقول جميل [طويل]

فِيَا رَبِّ حَبَّبْنِي إِلَيْهَا وَأَعْطِنِي
الْمَوَدَّةَ مِنْهَا أَنْتَ تُعْطِي وَتَمْنَعُ^(٢)

أو قول ابن زريح في المعنى نفسه [طويل]

إِلَى اللَّهِ أَشْكُو مَا أَلَايِي مِنَ الْهَوَى
وَمِنْ حُرْقٍ تَعْتَادُنِي وَرَفِيرُ
وَمِنْ حُرْقٍ لِلْحُبِّ فِي بَاطِنِ الْحَشَى
وَلَيْلٍ طَوِيلٍ الْحَزْنَ غَيْرِ قَصِيرٍ^(٣)

وإذا كان موقف الشاعر الغزل من الزمان كما رأينا متصلًا بالمنحى النفسي خاصة وبمعاناة تطول فتورث بلى الجسم وتضنيه وتقتصر لحظات «الزمان الرقيق» أو «الأنيق» إمّا لكاشح يكيد له وإمّا لزمان حاضر غير مساعف لرغبة العاشقين، فإذا كان ذلك من باب الغنائية الجماعية المشتركة بينهم، فإنّ العشاق العذريين

ليسوا على الدوام تعلوهم نبرة التشكّي، ذلك أنّ موقفهم من الزمان بدأ أكثر إيجابية إذا ما انشد إلى الماضي بلحظاته المشرقة. وهذا الانتقال بين الأزمنة من الحاضر إلى الماضي وأحياناً نحو المستقبل بحثاً عن ملاذ يُريح النفس ممّا تكابده من حرق لا يعدو أن يكون محاولات لأصل واحد. فليست الأزمنة الثلاثة سوى زمن واحد، فالحاضر معمول في الماضي، وهو كذلك مضخّم بين المستقبل حسب لايبنتز^(٤). فلا انفصال إجرائي بين هذه الأزمنة، لذلك قد تكون الرجعة إلى الماضي من باب إيهام النفس، وقفز على الحاضر المعيش بملابساته عبّر التّخنان إلى ما تهفو إليه النفس، أو هو «الرغبة» باصطلاح فرويد «إلى ماضٍ مأسوف عليه...»^(٥). والمتأمل في شعر الغزل يلاحظ أنّ الحنين بوصفه معنى فرعي سليل الفضاء موصول بأمرين: حنين إلى مكان التلاقي مع الحبّ [طويل]

يُذَكِّرُنَا أَيَّامَنَا بِغُؤَيْفَةٍ
وَهَضْبٍ قُسَّاسٍ وَالتَّذْكَرُ يَشْعَفُ^(٦)

(١) لقد أشار علي الغضاوي إلى أنّه من خاصية الزمان النفسي «أنه لا يخضع للمنطق المعقول وإنما له منطقته المستمد من الشعور والانفعال والإرادة وهو زمان كفي لا تنفك فيه الذات عن الموضوع». راجع الإحساس بالزمان ج ١ ص ٢٦١.

(٢) ديوان جميل بثينة ب ١١ ص ١١٢.

(٣) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، طبعة دار الفكر (د ت) ج ٩ ب ٣ - ٤ ص ٢٣٣.

(٤) J. Pucelle le temps p10 والكلام للايبنتز.

(٥) انظر مقال Marie-Claude Lambotte, Nostalgie, universalis corpus 16 p471

(٦) ديوان جبران العود ب ٤ ص ١٣. إن الربط بين الزمان والمكان كان من أسس البحث الفلسفي في العصور الحديثة،

أو تنزيل الحنين في زمن مطلق لجميع
العاشقين كقول ابن ذريح [طويل]
وَلَمْ أَرِ أَيَّاماً كَأَيَّامِنَا الَّتِي
مَرَّرْنَا عَلَيْهَا وَالزَّمَانَ أَنْيَقُ^(١)

وقد يكون الزمان في مواضع الحنين
موصولا بليلة مشرقة ولو على التمني.
فقول جميل [طويل]

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أُبَيَّتَنَّا لَيْلَةً
بِوَادِي الْقَرْيِ إِذْ لَسَعِيدُ^(٢)

يُظهِرُ لَنَا مِنْ جَدِيدٍ ثَنَائِيَةَ الزَّمَانِ
وَالْمَكَانِ فِي شِعْرِ الْعَذْرِيِّينَ مِنْ خِلَالِ لَفْظَتِي
أُبَيَّتَنَّا وَوَادِي الْقَرْيِ، فَكَأَنَّمَا لَا يَحِلُّو حَدِيثَ
لدى الشعراء دون ذكر الزوجين معا على
التصريح عادة كما رأينا من مثال.

إِنَّ الْبَعْدَ عَنِ الْفَضَاءِ كَمَا رَأَيْنَا مَوْلِدَ
لِلْحَنِينِ وَالتَّذْكَرِ وَبَاعَثَ عَلَى إِعْمَالِ
الشَّخْصِيَّةِ خِيَالَهَا فِي اسْتِعَادَتِهِ لِإِعَادَةِ
تركيبه في وجدانها. وعلى هذا الأساس

يتألف الفضاء والشخصية لأنَّ «الفضاء لا
يستقل عن الإنسان فكرا ومشاعر ولا يجهل
الإنسان بدوره ملابسات الفضاء من حوله
وأبعاده»^(٣).

إِنَّ اللَّيْلَ الْمُسَاعَفَ لِلْعِشَاقِ قَلِيلٌ عِنْدَ
العذريين. ولكنَّ الاحتفاء به يتضخَّم ما
دامت لحظات الصفاء مع الحبِّ ليست تدوم.
ويأتي الحديث عن ليالي المغامرة تلك في
سياق الفخر الذاتي^(*) بتذليل بعض
العقبات. فوضَّح اليمين في إحدى مغامراته
المكثَّلة بالنجاح في ليلة صرد مساعفة
يصف ملابسات لقاؤه بروضة [طويل]

سَمَوْتُ إِلَيْهَا بَعْدَمَا نَامَ بَعْلُهَا
وَقَدْ وَسَدَّتْهُ الْكَفَّ فِي لَيْلَةِ الصَّرْدِ
أَشَارَتْ بِطَرْفِ الْعَيْنِ أَهْلًا وَمَرْحَبًا
سَتَّعْطَى الَّذِي تَهْوَى عَلَى رُغْمِ مَنْ حَسَدُ^(٤)

ومثله قول جران العود في قصيدة
مطوَّلة تربو فيها مغامرته الغرامية على
العشرين بيتا [طويل]

حيث يسعى إلى دحض مقولات المدرسة المثالية التي كانت ترى في الزمان سلسلة منقطعة من اللحظات وأن الزمان
والمكان ليسا مادة ولا حدثا ولا علاقة وإنما هما من ضرورات العقل والحواس . وكان من نتائج هذا الدحض أن ظهر
مفهوم التحول في الزمان باعتبار أن «الأشياء لا توجد على أنها انتهت كملت بل هي في طور تحوُّل مستمر». انظر

Poulet Etudes sur le temps Humain p 40.

(١) ديوان قيس بن ذريح ب ٧ ص ٩١ .

(٢) ديوان جميل بثينة ب ٢٦ ص ٦٦ .

(٣) انظر، نجوى الرياحي القسنطيني، الوصف في الرواية العربية الحديثة، ص ٤٥٨ .

(*) يكثر الحديث عن ليل المغامرة كذلك في غزل الإباحيين وخاصة لدى عمر بن أبي ربيعة والعرجي وهو بالفخر أشبه
لدلالته على المقدره على إتيان المعشوقة في الصعب من المواقف .

(٤) شرح ديوان وضَّاح اليمين ب ٤-٥ ص ٢٢ .

وَلَوْ شَهِدْتَنَا أُمَّهَا لَيْلَةَ النَّقَا
وَلَيْلَةَ رُمَحٍ أَرْحَفَتْ حِينَ تَرْحَفُ
فَلَمَّا عَلَانَا اللَّيْلُ أَقْبَلَتْ حُفْيَةً
لِمَوْعِدِهَا أَعْلُوَ الْإِكَامِ وَأُظْلِفُ^(١)

إنَّ قَلَّةَ اللحظات المشرقة في حياة
العاشقين العذريين يصبح الحديث عنها
داخلا في باب التَّأْرِيخِ لها وتوكيدها في
النَّفْسِ، لأنَّها بمثابة المخزون المضيء يرتدُّ
إليه الشاعر كلما أحسَّ بوطأة حاضره، لذلك
يكثر في شعر العذريين ذكر زمن الماضي
زمن تذكُّر الوصال مقابل غياب زمن
الحاضر عمداً بما أنه ممثلاً لزمن الانفصال
من بعد مكان وزمان بين الطرفين.

محصَّل القول إنَّ شكوى الغرَّال
العذريين من الزمان لم تكن ذات حسٍّ فاجع
كالتي تلاحظ لدى شعراء الجاهلية^(٢) رغم
وقوفنا على إشارات وردت تفاريق في
أبيات لابن زريح من بينها نتفة من خمسة
أبيات أظهرت وعي صاحبها بتقلُّب الزمان
حيث يقول [طويل]

فَإِنْ تَكُنِ الدُّنْيَا بِلُبْنَى تَقَلَّبَتْ
عَلَيَّ فَلِدُنْيَا بُطُونٌ وَأُظْهَرُ^(٣)

أو الأبيات ١٤-١٥-١٦-١٧-١٨ من
القصيدة الثانية والعشرين من الديوان
لوضَّاح اليمن، حيث يناسب سياقها الرثائي
(لأخيه) معانيها الدائرة على حتمية الموت
في الحياة. فهي أيام تقضى «وهم يبعثون
فرادى». وينتهي الشاعر القصيدة بدعوة
النَّفْسِ إلى الاصطبار على القضاء لأنَّ كلَّ
«حي من الأحياء سيلقى سكرة الموت
المذوق».

إنَّ النَّفْسِ الغالب على هذه الأبيات
وأبيات ابن زريح تجعل وعيهم بالحسِّ
الفاجع بالزمان ذا طابع إسلامي تظهر آثار
القدريَّة الإسلامية فيه بوضوح.

وإنَّ ما توصلنا إليه من نتائج جزئية عن
علاقة الشعراء الغزاليين بالزمان جعلت
تعاملهم مع الفضاء المكاني ينطبع بطابع
مشترك إذ كثيراً ما وردت الإشارات إلى
المكان سواء بتذكُّر الأيام الخوالي مع الحبِّ
أو على التمني قصد إيهام النفس بالعودة
إلى المكان الموطن أو المكان الحبيبة على
المجاز إن جازت العبارة، وفي تقديرنا لا
يتحقق ذلك إلا بجعل الحديث عن الفضاء

(١) ديوان جران العود ب ٣٥-٣٧ ص ١٨-١٩.

(٢) يغلب على شعر الجاهليين الحسِّ الفاجع بالزمان وترد الإشارات إلى ذلك بصفة صريحة في سياقات الشعر الغنائي
كالرثاء والشكوى. كما ترد ضمناً في قصيدة المدح عند إشارة الشعراء إلى دوافع مدحهم وشدَّ رحلتهم إلى مراكز ذوي
السلطة.

(٣) ديوان قيس بن زريح ب ٣ ص ٥٤. وانظر الاشارة الأخرى ب ٧ ص ٧١ [طويل]
فَلَيْسَ مُجِبُّ دَائِمًا لِحَبِيبِهِ وَلَا ثِقَّةٌ إِلَّا لَهُ الدَّهْرُ فَاجِعٌ

بما يشغله لأن «الفضاء لا يوجد إلا عبر ما يملأه»^(١) أصلا.

وهو ما جعل باشلار (Bachelard) يشبّه الإنسان وذكرياته بجملة من الصور المكانية، لذلك «على كل واحد أن يتكلم عن طريقه ومفترق طريقه... وأن يعد خارطة حقوله المفقودة»^(٢). ولعل السمة الأساسية لتلك الأمكنة «الواقعية» بما أنها كانت مسرحا لمغامرات الشعراء مع من يحبون.

وغدا الفضاء الواقعي قادرا «على كشف أوضاع الشخصية الفكرية وحالاتها السيكولوجية»^(٣). فإذا ما كانت المشاعر متصلة بالزمان بعبارة بيسال، فإن المكان لا يقل شأنًا عن سابقه مادام يشكل علامة تتجاوز أحيانا البعد الواقعي لينغرس في ما هو فني متأسس على جمالية التصوير أو التخيل^(٤).

٢ - هاجس الكرونوتوب في شعر الإباحيين
ليس الإتيان على «المدرستين» من شعر

الغزل منفردتين آية على الاختلاف الجذري بينهما، وإنما قصدنا من النظر إلى كل واحدة على حدة الوقوف على جزئيات دقيقة تميّز العذري عمّا هو إباحي. وإذا ما كانت شكوى الفضاء من المعاني الأصلية المشتركة بين الشعراء، فإنّ الوقوف عند خصوصية كل تجربة للتيارين تسمح للباحث استبيان تفرّد هذا^(٥) عن ذلك.

ولقد بدا لنا أنّ شكوى الزمان لدى الإباحيين لم تكن ذات حسّ فاجع هي الأخرى، إذ كثيرا ما يمتزج الحديث عن الزمان بمعنى الفخر الذاتي، وتعدّ هذه السمة من السمات المطردة لديهم على خلاف ما رأينا لدى شعراء العذريين. فإذا ما كانت لدى جميل ووضّاح وابن ذريح من النُدرة بمكان وعلّلنا ذلك بأنّ الشعراء العذريين معنيّون في شعرهم بتصوير عذابهم النفسي متغنّون بالحرمان وبالمعنى «الأفلاطوني» - فإنّ المعنى - الغزل

(١) Abraham Moles Elisabeth Rohmen Psychologie de l'espace. Gosterman 1978 p 20.

(٢) G. Bachelard Poétique de l'espace PUF Paris 1970 p 30.

(٣) الوصف في الرواية العربية ص ٤٤٨.

(٤) جعل ايف تادبي الزمان سابقا للمكان من جهة أن الزمان يمثل عونا للفكر على تجاوز التشتت. غير أن الباحث يقر من جهة أخرى بقيمة المكان الجمالية بوصفه باعثا على التخيل. انظر Yves Tadié Le récit poétique Gallimard P 33 1994

(٥) لقد لاحظ علي الغضاوي أنّ غزل عمر بما هو زعيم لمدرسة الإباحيين لا يختلف عن السمات والخصائص المميّزة للحب لدى العذريين إلا في جزئيات ألحقها بالأسلوب الفني في مقابل التماثل بين التيارين في السلوك العام. انظر الإحساس بالزمان في الشعر العربي من البداية إلى نهاية القرن الثاني للهجرة، منشورات كلية الآداب منوبة ٢٠٠٠ ج ٢/٤٠٢.

المخالط بالفخر الذاتي - يتضخّم لدى الإباحيين ومردّ الأمر إلى أنّ الفخر بإتيان الصّاحبة رغم الصعوبات الحافة باللقاء يعدّ من ركائز المغامرة لديهم. فكأنّ المغامرة لا تلذّ لصاحبها إلاّ بتلوين المنجز الشعري بصباغ ذاتي مكمل لمشهد البطولة كما سنتبيّن ذلك.

وشكوى الزمان الموصول في منحاه العام بالليل يذكرنا بما رأينا لدى شعراء سابقين. فهم مشتركون في الإحساس به أكثر من شعورهم به ساعات تمرّ وتعدّ، إنّه الليل قرين الألم والمواجع والأشواق في كلّ.

ويقابل عمر بن أبي ربيعة^(١) الزمان الرنق بزمان تقرّ فيه العين. والزمان زمان نعمة إنّه الزمان المساعف للشاعر ممثل في ليل المغامرة الإيجابية والمكّلة بقضاء ما تهفو إليه النفس من وصال، فيقول معبراً عن سعادته [طويل]

فَبِتُّ قَرِيرَ الْعَيْنِ أُعْطِيتُ حَاجَتِي
أُقْبَلُ فَاهَا فِي الْخَلَاءِ وَأُكْتَرُ^(٢)

أو قوله في المعنى نفسه [خفيف]

بِتُّ فِي نِعْمَةٍ وَبَاتَ وَسَادِي
مِعْصَمًا بَيْنَ دُمْلُجٍ وَسَوَارِ^(٣)
إنّ احتفاء عمر بالزمان تصويرا يكاد يقترن كما رأينا بالليل الساتر لمغامراته، وكثيرا ما يقترن بالفضاء المكاني من جهتين: الإطلاق في الأوّل، وقد دلّت على ذلك لفظة «الخلاء»، فالشاعر يبدو حريصا على كتمان السرّ كتمان الليل لتلك العلاقة عموما. أمّا في الثانية فعلى إضمار المعنى يدور والأمثلة على ذلك عديدة كنا قد رأينا مثلا ساطعا على ذلك في فعل «بِتُّ» الدال دلالة مزدوجة على الزمان ليلا والمكان مطلقا ومثله قوله [طويل]

فَلَمَّا فَقدْتُ الصَّوْتِ مِنْهُمْ وَأُطْفِئْتُ
مَصَابِيحُ شَبَّتْ بِالْعِشَاءِ وَأَنْوَرُ^(٤)

فالمتأمل في المعجم الذي بُني عليه البيت تأسره الإشارات الصريحة إلى الزمان، ففقدان الصوت يحيل على انطباق الليل على النهار والذي يتأكد بالقرينتين «أُطْفِئْتُ مَصَابِيحُ» و«العشاء»، مما يجعل دلالة البيت تقفل بالعودة إلى مفتاحها فقدان الصوت المحيل إحالة غير مباشرة على أهل الحبيبة وقبيلتها بشكل عام.

(١) اعتبر من كبار شعراء الغزل ولد حوالي ٦٤٤ م في مكة. انظر تاريخ الأدب العربي ٢ ٧٢٣.

(٢) شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة ب ٣٥ ص ٩٧. وفي مقابل ذلك كثيرا ما يشتكي شعراء الغزل الإباحي تقاصر ليلة المغامرة المكّلة بالنجاح من ذلك قول عمر الديوان ب ٣٦ ص ٩٧. [طويل]

(٣) م ن ب ١٣ ص ١٣٥.

(٤) شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ب ٢٥ ص ٩٦.

ويلجّ الشاعر على تصوير نهاية ليلة
المغامرة بانقضاء الليل وظهور الصباح.

ثُمَّ إِنَّ الصَّبَّاحَ لَاحَ وَلاَحَتْ
أُنْجُمُ الصُّبْحِ مِثْلَ جَزَعِ العَذَارِي (١)

ويفسّر احتفاء عمر بنفسه في شعره
وشهرته بين نظرائه الحجازيين بأسباب
متعددة، لعلّ أحصّاها قيمة الشاعر المتأتية
على الأرجح من ثروته التي منحته نمط
عيش لاه بين أترابه. فأقبل على الحياة إقبالا
يذكرنا «بالبطل البدوي المنتفخ بمجده
المسهب بذكر مغامراته والذي يعتبر غزو
المرأة داخلاً في تعريف الفخر» (٢).

ولا يختلف العرجي شاعر الحجاز عن
سابقه، بل إنّ بعضهم جعله خليفته فيما
رُوي عن حبيبته التي اشتدّ جزعها لما أتاها
موت عمر بن أبي ربيعة. وتفجّعت لذهاب
وصّاف النساء فقيل لها عن خليفة عمر
العرجي (٣).

ويظهر انتفاخ البطل البدوي في مزجه
الفخر الذاتي بسياق الغزل شأن ابن أبي

ربيعة، من ذلك ما ورد في القصيدة
الخمسين من الديوان، حيث ينتقل العرجي
من الغزل إلى الفخر (٤) بفروسيته وبفرسه
وسيلته لبلوغ صاحبه في الموعد المقرّر.
فيقول [طويل]

فَشَدًّا عَلَيْهِ السَّرَجَ ثَمَّ عَلَوْتُهُ
كُمَيْتًا إِذَا مَا مَسَّهُ السُّوْطُ أَهْمَدًا (٥)

إنّ انتشار الفخر في الغزل ملمح يكاد
يختصّ بالشعراء الإباحيين. ونكاد نعلّل ذلك
بما رأينا لدى عمر. ذلك أنّ العرجي من
أولئك الذين لهم بسطة في الرّزق هيأت لهم
منزلة رفيعة في المجتمع صرفتهم إلى
حياة لاهية وإلى الإقبال على هذا الضرب
من الغزل وهو ما جعل عموم شعره ذا
اتجاهين كما بيّن ذلك بلاشير:

اتّجاه أوّل يذكرنا بموعد غرامي أو قصّ
لمغامرة غرامية، وهو ما تبيّناه في المثال
السابق على سبيل الذكر.

واتجاه ثانٍ يعبّر عن القلق الإنساني
الأبدي (٦) إذ ليس الزمان أبداً بمساعف

(١) شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ب ١٤ ص ١٣٥. والعذاري هنا بكسر الراء: جمع عذراء، وهي البكر.

(٢) تاريخ الأدب العربي ٧٣٢/٢.

(٣) انظر الخبر، البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق صلاح الدين المنجد، مكتبة النهضة المصرية (د ت)، ١١٢/٥.

(٤) قد يعتمد الشاعر أثناء الفخر إلى تحديد الإطار الزمني والمكاني تمهيداً لليلة المغامرة. انظر ب ١٨-١٩ ص ١٢٧ من الديوان.

(٥) ديوان العرجي، رواية ابن جنّي، شرحه خضر الطائي ورشيد العبيدي، ط ١، بغداد الشركة الإسلامية للنشر ١٩٥٦ ب ٢٠ ص ١٢٨ وانظر ص ٨٢ وما بعدها في المعنى نفسه وخاصة الأبيات ١٧-١٨.

(٦) انظر تاريخ الأدب العربي ٦٤٦/٢.

للشاعر. ولئن غلبت على الشاعرين مسحة من اللّهُو والصفاء والمرح والسرور والتفاؤل الغالب على غزلهم^(١)، فإنّ الزمان من خلال الليل مطلقا ليس إطارا مانحا للزّهُو والمسرّة فهو الليل السّالِب نوم الشاعر [خفيف]

نَامَ صَحْبِي وَبَاتَ نَوْمِي عَسِيرًا
أَرْقُبُ النُّجْمَ مَوْهِنًا أَنْ يَغُورًا^(٢)

وهو ليل الأرق والهَمّ [طويل]

أَرَقْتُ بِسَلْعٍ إِنَّ ذَا الشُّوقِ يَأْرُقُ
لِبَرْقِ تَبَدَّى آخِرِ اللَّيْلِ يَخْفُقُ^(٣)

وهو الليل القصير لحظة دنوّ الحبيبة، وهو اليوم الطويل إذا ما نأى عن الشاعر.

ومعنى تطاول الهجر وقصر الوصال تَكَرَّرًا لدى شعراء الغزل على السواء^(٤). بل إنّ وعي شعراء الغزل بتقلّب الزمان ينزّل إحساسهم بفساد الزمان المغيّر للذكرى

السعيدة. يقول الأحوص متذمّرًا من زمانه شاكيًا فساده في نتفة تتكون من ستة أبيات [كامل]

هَلْ تَذُكِّرِينَ عَقِيلُ أَوْ أَنْسَاكِهِ
بِعَدِي تَقْلُبُ ذَا الزَّمَانِ الْمُفْسِدِ^(٥)

وهو الزّمان غير المستقرّ على حال يسرّ يوما ويسخط بعد السرور. وهو مولع بتقطيع وصل الخلّة.

إنّ إسناد أفعال سالبة للزمان لدى الأحوص معنى يتنزّل في صميم الإحساس بالغربة عن الوجود يذكرنا بالمعمرين وبرّمهم من واقعهم لعدم الانسجام معه، والإحساس بالغربة معنى فرعي هو الآخر سلسل شكوى الزمان. فالشاعر يشبّه حاله بعد زهاب أحبّته بالمقمور المغلوب في بيتين [كامل]

ذَهَبَ الَّذِينَ أَحْبَبْتَهُمْ فَرَطًا
وَبَقَيْتُ كَالْمَقْمُورِ فِي خَلْفِ^(٦)

(١) للتوسع راجع علي الغضاوي، الإحساس بالزمان في الشعر العربي ج ٢ ص ٣٨٨ وما بعدها.

(٢) شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة ب ١ ص ١٣٦.

(٣) ديوان العرجي ب ١ ص ٣٠. وانظر المعنى نفسه ب ١+٢+٧ ص ٣٢-٣٣. ويرد معنى الغربة على التصريح في ب ٤ ص ٣١ من الديوان في قوله:

لَهُ تَعَتَّرِي الْمَرْءَ الْعَرِيبِ صَبَابَةً وَشَوْقٌ إِلَيَّ أَوْطَانِهِ حِينَ يَبْرُقُ

فكأن قصد الشاعر من إيراد الفضاء ين متلازمين علامة يمهد بها لإظهار غربته المزدوجة عن المكان النائي والزمان على التخصيص ليلا زمان التذكر بامتياز وهو من الأزمنة التي يكثر ترددها لدى شعراء الغزل عموما باعتباره باعثا على الشوق والحنين.

(٤) انظر شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة ب ١٥ ص ١٣٣ وب ٨ ص ١٥٧ وانظر ديوان العرجي ب ٢-٣-٤ ص ٤٣ وب ١ ص ١٥١. وانظر ديوان جميل بثينة المعنى نفسه ب ٢ وب ٦. وانظر ب ٤ ص ١٨٣.

(٥) شعر الأحوص الأنصاري، جمع وتحقيق عادل سليمان جمال، مكتبة الخانجي القاهرة (د ت) ب ٣ ص ١٣٣.

(٦) شعر الأحوص الأنصاري ب ١ ص ٢٠٢.

فيه عند لحظات الأُنس، ومرغوب عنه عند تحوله إلى شاهد عن عذاب الذات وشقاؤها، وهذا التآرجح بين الفرح والشوق، والحنين والغربة يكسب المكان والزمان غنائية ذاتية في شعر شعراء الغزل.

الخاتمة

محصل القول إنَّ شكوى شعراء الغزل الفضاء لم يرتق إلى درجة الإحساس الفاجع كما يلاحظ لدى الجاهلي. فقد بدا لنا رغم بعض الإشارات التي جاءت تفاريق عند الأحوص خاصة أن الأبيات التي تضمّنت معاني الوعي بصروف الزمان وتقلّبه لم تكن في قصائد ذات هياكل واضحة وإنما أغلبها لم تتجاوز الأبيات. وأغلب الظنّ أنها قيلت بدافع انفعال طارئ من ذلك - على سبيل الذكر لا الحصر - القصيدة الواحدة والستين من الديوان، فقد تضمّنت أبياتاً خمسة. وورد معنى الوعي بالزمان المفني للبشر في البيت الأخير.

وتضمّنت القصيدة الخامسة والثلاثون أبياتاً ستة، وورد الحديث عن الزمان المتبدّل في البيت الثالث. ونضيف إلى ذلك مقطّعتين وردتا في سياق الرثاء، الأولى الواحدة بعد المائة واحتوت على أبيات ستة، وقد قيلت

فالذّهر ذو وجهين يسرّ يوماً ولكنه كرها يستنزل الطير من منازلها إلى المنية. فليس شيء بباق أمام سلطة الزمان المفنية للإنسان وبقية الكائنات.

لقد أضحي الزمان في شعر شعراء الغزل الإباحي عوناً للقفز على التثنت النفسى مادام «الزمان منتجا لبنية المكان»^(١)، فبرم الشعراء من الزمان وتقلبه تجلت آثاره في المنجز الشعري وفي حديثهم عن المكان، فهو المكان المشتت لشمّل المحبين في قول عمر بن أبي ربيعة [طويل]

شَكْوَتْ إِلَى بَكْرِ وَقَدْ حَالَ دُونَهَا
مُنِيفٌ مَنَى يُنْصَبُ لَهُ الطَّرْفُ يَحْسُرُ^(٢)
وهو المكان الشاهد على وئد العلاقة الغرامية بين الشاعر وحبيبته كما في قول العرجي [طويل]

وَأَنْفٌ كَحَدِّ السَّيْفِ دَقٌّ وَحَاجِبٌ
وَصَدْرٌ كَفَاتُورِ اللُّجَيْنِ وَمِعْصَمٌ
تُذَكِّرُنِي وَالْحَبْسُ دَارِي وَرَبِّمَا
يَهِيحُ الْجَبَازِي زِكْرَةَ الْمُتَنَّهُمِ^(٣)

وعلى هذا الأساس يكتسب الفضاء المكاني في شعر الغازليين الإباحيين سمتين اثنتين: فهو فضاء المتعة مرغوب

(١) Jean - Yves Tadié Le récit poétique Gallimard 1994 p 83.

(٢) شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة ب ١٦ ص ١٠٥.

(٣) ديوان العرجي ب ٢٠-٢١ ص ٨٩.

أضغاث الأحلام بإيهام النَّفس بذكري مفرحة قد لا تكون وجدت أصلاً. في حين يغلب «التفاؤل» على أصحاب التيار الإباضي. فاتخذوا من سرد مغامراتهم مع النساء موضوعاً لتضخيم الذات والفخر بها. وجعلوا الزمان ممثلاً في الليل عوناً مساعفاً لهم على بلوغ مآربهم. ولقد كيّف الإحساس بسلطة الزمان القصائد لدى شعراء الاتجاهين تكييفاً لوحظ فيه ممارسة الفضاء المكاني لسلطة رمزية بدت من خلال قرن الإطارين معاً تارة وتارة أخرى بالتّمهيد للحديث عن المكان بالزمان^(٥) وأحياناً أخرى تفهم الإشارة إلى الإطارين من المعجم المُوظّف. وهذا التداخل جعل الزمان في أحيان كثيرة «مؤثر في بنية المكان» و«بات المكان «بناء من الدلالات»^(٦) ولعل

في يزيد بن عبد الملك. والثانية الرابعة والخمسون بعد المائة واحتوت أبياتاً ثمانية قالها الأحوص في رثاء أبي سفيان بن حرب. فإسناد وظائف مختلفة للزمان سواء في إفنائه الأمم والحيوان أو في إظهار آثاره على الجسم^(١) أو المكان، جعل شكواه تعبّر عن فجيرة وجزع دائمين لدى أصحاب هذين التيارين. فلقد وقع العذري أسير ماضيه فاشتكى حاضره وعلت نبرة التحنان إلى اللحظات المشرقة المنصرمة يستحضرها حلماً بديلاً عن التفكّر في الواقع^(٢).

وتهيؤ العودة إلى الماضي الإحساس بلذة غير مقتترنة بمدة^(٣). وهو ما فسّره فرويد (Freud) بالقول بأنّ كلّ فعل نابع من الذات يتخطى عتبة الوعي يُرفق ضرورة برغبة^(٤). ورغبة العذري قد لا تتعدى أحياناً

(١) انظر على سبيل الذكر قول ابن ميادة في ذهاب الشّباب، شعر ابن ميادة، جمع وتحقيق حنا جميل حداد، مطبوعات مجمع اللغة العربية دمشق ١٩٨٢ وهو بيت وحيد ص ١٢٨. [كامل] وَرَجَعْتُ مِنْ بَعْدِ الشَّبَابِ وَعَضَّرِهِ شَيْخاً أَرَبْتُ كَأَنَّهُ نَسْرُ وانظر قول عمر بن أبي ربيعة ب ٣- ٤ ص ٣٦٢ وهي نتفة تتكوّن من ٧ أبيات فيها ٦ أبيات في الحديث عن الشباب وذهابه [بسيط]

وَلَيْ الشَّبَابُ حَمِيداً عَيْرَ مُرْتَجَعِ وَأَسْتَبَدَلَ الرَّأْسُ مِنِّي شَرّاً مَا بَدَلَا شَيْبٌ تَفَرَّعَ أَبْكَازِي مَوَاضِحُهُ أَضْحَى وَحَالَ سَوَادُ الرَّأْسِ فَاَنْتَقَلَا وانظر قول الأحوص ب ١ ص ٢١٦.

(٢) Gaston bachelard, la psychanalyse du feu, ed, Gallimard 1949 p 12.

(٣) Louis Massignon. le temps dans la pensée islamique. eranos-jahrbuch. T 20 rhein-verlag zurich 1952 p 146.

(٤) انظر Sigmund Freud, Essais de psychanalyse. bibliothèque, Payot, Paris p9.

(٥) يرى باختين أن علامات الزمان تظهر في المكان وأن المكان بدوره يقاس بالزمان وعلاماته. انظر Mikhail

Bakhtine Esthétique et théorie du roman Ed Gallimard traduit du russe Daria Divier p 235.

(٦) Pulin Limoges Littérature et espace actes de 30 congrès de la société Française de la littérature générale 2001p 85.

الوظيفة النفسية التي رأينا أن تكون من أهم تلك الوظائف على الإطلاق.

المراجع باللّغة العربية

- بلاشير (ريجيس) تاريخ الأدب العربي، تعريب إبراهيم الكيلاني، طبعة تونس/الجزائر ١٩٨٦ في قسمين.
- الغيضاوي (علي) الإحساس بالزمان في الشعر العربي من البداية إلى نهاية القرن الثاني للهجرة، منشورات كلية الآداب منوبة ٢٠٠٠.
- القسنطيني (نجوى الرياحي)، الوصف في الرواية العربية الحديثة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، ط ١، تونس ٢٠٠٧.

المراجع الفرنسية

- Bachelard (Gaston) Poétique de l'espace PUF Paris 1970.
- Bachelard (Gaston) la psychanalyse du feu, Ed, Gallimard.
- Bakhtine (Mikhaïl) Esthétique et théorie du roman Ed Gallimard traduit du Russ Daria Divier..
- Freud (Sigmund) Essais de psychanalyse. bibliothèque, Payot, Paris.
- Lambotte (Marie-Claude) Nostalgie, universalis corpus 16.
- Limoges (Pulin) Littérature et espace actes de 30 congrès de la société Française de la littérature générale 2001.
- Massignon (Louis) le temps dans la pensée Islamique, eranos-jahrbuch T 20 rhein-verlag zurich 1952.
- Mitterand (Henri) Chronotopies Romanesque Poétique 81 Ed Seuil 1990.
- Moles (Abraham) Elisabeth Rohmen Psychologie de l'espace. Gosterman 1978.
- Pucelle (J), le temps. presses universitaires de France 1955.
- Yves -(Jean) Tadié Le récit poétique Gallimard 1994.

المصادر

- ابن ميادة (الرماح) شعر ابن ميادة، جمع وتحقيق حنا جميل حدّاد، طبعة دمشق، مجمع اللغة العربية ١٩٨٢.
- الأصفهاني (أبو الفرج علي بن الحسين) الأغاني، طبعة دار الفكر (د ت).
- جران العود النميري، ديوان جران العود النميري، رواية أبي سعيد السّكري، ط ٢، القاهرة، دار الكتب المصرية ١٩٩٥.
- جميل بثينة، ديوان جميل بثينة، طبعة بيروت، دار صادر (د ت).
- العرجي (عبد الله عمرو بن عثمان بن عفان) ديوان العرجي، رواية ابن جني، شرحه خضر الطائي ورشيد العبيدي، ط ١، بغداد، الشركة الإسلامية للطباعة والنشر ١٩٥٦.
- عمر بن أبي ربيعة، ديوان عمر بن أبي ربيعة، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط ٣، دار الأندلس ١٩٨٣.
- قيس بن الملوح، ديوان قيس بن الملوح، رواية أبي بكر الالبي، ط ١، بيروت، دار الكتب العلمية ١٩٩٩.
- قيس بن ذريح، ديوان قيس بن ذريح، قدم له وشرحه صلاح الدين الهادي، ط ١، دار ومكتبة الهلال بيروت ٢٠٠٥.
- وضاح اليمن، شرح ديوان وضاح اليمن، جمع وتحقيق انطوان القوّال، ط ١، بيروت، دار الفكر العربي ٢٠٠٣.

الشخصية المحورية بين المغالاة الدينية والقهر السياسي في روايتي عندما تمطر السماء حنيئاً وكلام غير مباح لسالم المعوش

د. هادي شبلي

الحكائي للرواية الثانية المعنونة بـ «كلام غير مباح» امتداد للمبنى الحكائي للرواية الأولى، وتأكيداً لأبعادها الغائبة المسكوت عنها.

وإذا كان هذا البحث يتناول الشخصية المحورية في روايتي سالم المعوش، فإنني سأقارب المنهج السردّي، مركزاً فيه على دراسة الشخصية في نقطة وحيدة هي محوريتها في الأداء السردّي، وعلاقتها بمحيطها من زاوية منظور الكاتب إليها، وإلى دورها الفاعل في زمن العولمة التي فيها الشخصية معانية ومكابدة في سبيل إبراز مصائر قضايا كثيرة تهّم المجتمع بأسره كالسياسة والدين والأمن والظلم والثقافة والمواجهات التي تقوم بها الذات قبل تقويض بعض معالمها.

أ - تمهيد

أنجزت السردية الحديثة تقدماً ملحوظاً في مقارباتها النقدية الأدبية، الأمر الذي أظهر عمقاً في النشاط المعرفي المنجز من قبل ثلّة من النقاد والباحثين الذين أسهموا في إرساء دعائم رئيسة في السرد الروائي العربي.

والمقاربة التي يبتغي البحث فيها قراءة النصّ الروائي والحفر في أعماقه المضمرة، تسعى إلى تحديد الشخصية المركزية أو المحورية في رؤيتها إلى المغالاة الدينية والقهر السياسي في روايتي «عندما تمطر السماء حنيئاً»^(١) و«كلام غير مباح»^(٢) للأستاذ الدكتور سالم المعوش. ومرّد هذا الجمع بين روايتين اثنتين هو أنّ المبنى

(١) سالم المعوش، عندما تمطر السماء حنيئاً، بيروت (دار الحداثة) - الجزائر (ذاكرة الناس)، ط ١، ٢٠١٢.

(٢) سالم المعوش، كلام غير مباح، بيروت، دار الفارابي، ط ١، شباط ٢٠١٦.

ب - الكتابة السردية ونظرية الكشف

لئن كانت قراءة المکتوب الأدبي وتقصي دلالته، تهدف إلى تحليل هذا المکتوب أو النص، فإن هذا «التحليل هو أولاً إتقان الإصاغة إلى قوله، واختلاء بهذا النص، أو خلو له. إنّه عملية جدلية لا تستقيم إلا بتفاعل حدّيها: الاكتشاف والمعرفة. الإقبال على النص لاكتشاف أقواله وأسراره، وتهيؤ للقاءه بالمعرفة»^(١). وهذا ما يظهر فاعلية المنهج النقدي المتبع في مقارنة النص الروائي.

لقد انتقلت السردية الحديثة من «نظرية الانعكاس إلى نظرية الانكسار، عبر تركيزها على محورية الأدبية»^(٢). ففي حين رأى اتجاه نقدي أنّ الأدب انعكاس للعالم المرجعي - مادة الرواية، رأى آخر أنّ الأدب انكسار للعالم المرجعي. «فالتعديل الذي يطال المادة المرجعية، ليس تعديلاً جوهرياً يطال هوية هذه المادة بالتبديل والتغيير. التعديل تحريك لمادة الوحدات

السردية المرجعية المشاهدة من جميع الناس على السواء، تقديماً أو تأخيراً، إهمالاً للتفاصيل أو توسعاً بها»^(٣). وهو ما يطرح رؤية مغايرة لهاتين النظريتين: الانعكاس والانكسار، مبنية على اعتقاد أنّ السردية ليست سوى الحضور اللغوي لرؤية الروائي (الكاتب)، ذلك أنّ رؤية الكاتب إلى العالم «رؤية مركبة فهي تتكوّن من ثقافته، مما حصّلتها شخصياً، ومما تناهى إليه من ثقافة الجماعة، ووجهة نظرها في الوجود جزاء تجربتها المستمرة، ومن قناعاته، ومن همومه، واهتماماته، وميوله وانفعاله حيال العالم»^(٤). وهذا كله ما أفرز نظرية الكشف التي تجاوزت نظريتي الانعكاس والانكسار وقالت: «إنّ الأدب هو رؤية شديدة الخصوصية تنفذ إلى عمق من أعماق العالم المرجعي لا تصل إليه أية رؤية أخرى»^(٥)، الأمر الذي يؤكّد فرادة هذه الرؤية وخصوصيتها. والسؤال الذي يطرح نفسه: هل يعبر «النص السردية»^(٦) في روايتي

(١) سامي سويدان، أبحاث في النص الروائي العربي، بيروت، دار الآداب، ط١، ٢٠٠٠، ص١٩-٢٠.

(٢) علي زيتون، أدبية الرواية في ضوء المنهج الثقافي السيميائي، بيروت، دار المواسم للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م، ص٥.

(٣) م. ن، ص٥-٦.

(٤) علي زيتون، في مدار النقد الأدبي: الثقافة - المكان - القص، بيروت، دار الفارابي، ط١، ٢٠١١، ص٢٢.

(٥) علي زيتون، أدبية الرواية في ضوء المنهج الثقافي السيميائي، ص١٤.

(٦) يتكوّن النص السردية من عنصرين متكاملين متداخلين؛ هما الحكاية والخطاب، وبينما تمثّل الحكاية المحتوى أو سلسلة الأحداث (الأفعال والوقائع)، إضافة إلى ما يمكن أن يطلق عليه الموجودات (الشخصيات والفضاء المكاني والزمني)، يمثّل الخطاب التعبير الذي يتكفّل بتقديم المحتوى إلى قارئ أو متلق (مرسل فالح العجمي، الواقع

سالم المعوش عن رؤية خاصة؟ وهل حفرت هذه الرؤية في مادة العالم المرجعي لتكتشف عمقاً خاصاً مختلفاً عن الآخرين؟.

والجدير ذكره هنا أنّ الرواية العربيّة مرّت بأدوار عديدة، واستفادت من التّطوّرات الحاصلة محلياً وعالمياً من النّواحي العديدة، خصوصاً في فنّيها التي تجاوزت الكثير ممّا عُرف في القرنين الماضيين، لاسيّما في استعمال التّقنيّات الروائيّة التي تطوّرت وفق المعطيات الحديثة لتطوّر المناهج النّقديّة، حيث بدت الرواية عموماً، والعربيّة خصوصاً مواكبة هذا التّطوّر الذي حدث في غير صعيد حيوي، وصولاً إلى الربع الأخير من القرن العشرين، حيث بدأت الرواية العربيّة الجديدة^(١) في حلّتها المواكبة تباشير العولمة وبالتالي المجريات الفكرية والعلمية والاجتماعية والنفسية، فتغيّر مفهوم الزمن والمكان، وجرى السّعي لخلق إنسان جديد، الإنسان الكوني في قرينه الكونية.

ويمكن أن تساعد الدّراسات النّقديّة الحديثة حول الرواية القارئ على فهم

الفضاء الرّوائي عند المعوش، والتّقنيّات الروائيّة المستعملة، لاسيّما على الدّخول إلى كنه الشّخصيّات، وتواجدها في زمن أكثر اضطراباً من ذي قبل، في وسط المتغيّرات الدّوليّة والمحليّة وانعكاسها على الشّخصيّة في معمعة تفكّك المجتمعات والجّنوح نحو تضخّم الذات، وهيمنة فكرة التّفنّت والإلغاء، وسيطرة القيم الجديدة المغايرة للكثير ممّا تعارفت عليه المجتمعات العربيّة.

في ضوء ذلك كلّ نفهم شخصيّات العاملين الرّوائيين اللذين نحن بصدهما، وهما الذي أنتجها المؤلف في حقبة التّغيير تلك، حقبة انقلاب أشياء كثيرة، لاسيّما الدّين والسياسة.

ج - مفهوم الشّخصيّة المركزيّة

تشغل الشّخصيّات في النّص الرّوائي حيّزاً محورياً، إذ تُعدّ من عناصر الحكمة الأكثر أهميّة. فالشّخصيّة «كائن له سمات إنسانية ومنخرط في أفعال إنسانية. ممثّل (actor) له صفات إنسانية. ويمكن أن تكون الشّخصيّات رئيسيّة وثانويّة طبقاً لدرجة بروزها النّصي»^(٢). لكنّ البحث سيكتفي

والتّخييل - أبحاث في السّرد: نظيراً وتطبيقاً، سلسلة نوافذ المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، (لا. ط)، (لا. ت)، ص ٢٤.

(١) انظر: سعيد يقطين، قضايا الرواية العربيّة الجديدة: الوجود والحدود، بيروت-الجزائر، الدّار العربيّة للعلوم ناشرون ومنشورات الاختلاف، ط ١، ٢٠١٢. يفضّل المؤلف في هذا الكتاب قضايا الرواية العربيّة الجديدة، ويدرس تطوّر مفاهيم الزّمان والمكان والتّاريخ وقضايا السّرد...

(٢) جيرالد برنس، قاموس السّرديات، تر. السيّد إمام، القاهرة، ميريت للنشر والمعلومات، ط ١، ٢٠٠٣، ص ٣٠.

ببناء الشخصية المركزية في روايتي سالم المعوش بناءً على معايير نصية لن تخوض غمار المصطلحات السردية، مثل الشخصية والشخصية المضادة والعوامل وما إلى ذلك.

وتأسيساً على ما سبق، تتحدّد الشخصية المركزية في الروايتين بناءً على حضورها المكثّف في النصّ ووجود شخصيات ثانوية تعمل على إضائها، والرسم المفصّل للشخصية إضافة إلى غناها الروحي، والاهتمام الخاص الذي تحظى به من قبل الراوي والمتلقّي.

إنّ القراءة المعمّقة للمبنى الحكائي للروايتين، يكشف عن أنّ الشخصية المركزية في رواية «عندما تمطر السماء حنيناً» هي شخصية «حنين» الشاب المسلم القادم من بلدة شارفة المشبعة بالثقافة الإسلامية والأخرى العصرية المنفتحة على الأحزاب والتيارات الفكرية والسياسية، وتحمل أحداث الرواية هذه الشخصية المركزية إلى علاقة عشقٍ صافٍ مع الزاهبة سماء المقيمة في دير القمير. أمّا الشخصية المركزية في رواية «كلام غير مباح»، فهي شخصية «مصباح» الأستاذ الجامعي المثقّف، والتي تحضر بكثافة على امتداد الرواية من بدايتها إلى نهايتها، إذ يقدّم السرد صفات هذه الشخصية وطباعها وأعمالها وكلامها الخارجي والداخلي.

ولئن شكّلت ثيمات الله والوطن والدين والسياسة هاجساً ملحاً في المتن الحكائي للروايتين، إلا أنّ الكاتب، وفق نظرية الكشف، قد اتخذ من مادّة الرواية (الحرب الأهلية - الأحداث - الوقائع - الجماعات الإسلامية...) رؤية خاصة مبنية على ركيزة تبئيرية أعلن من خلالها رؤيته المتفردة إلى العالم بعيني الشخصية المركزية (حنين / مصباح)، فطرح آراءه الذاتية وتصوّراته الخاصة، وتتبع مآل الشخصية الدينية المرتبطة بالفكر المتزمت الذي يرفض الآخر، وكشف زيف السلطة وقهرها السياسي.

الشخصيتان المركزيتان حنين ومصباح شكّلتا محورين رئيسيين لتحريك الأحداث ورصد التّطورات الاجتماعية والسياسية والفكرية والاقتصادية في مجتمعات متعدّدة الانتماءات، تكمل بعضها حيناً وتتنافر حيناً آخر. هذه المحورية أو المركزية في الشخصيتين سمحت للمؤلف بأداء دور جماعي مرّة وانفرادي مرّة أخرى.

هذا السّماح أتاح لهذه المركزية أن تلمّ بأطراف المجتمع وفسيفسائه الفئويّة والطبقية والعقائدية والثقافية، من خلال العلاقات التي كانت الشخصيتان تبنيهما في اتّصالها وتواصلها مع الجميع. لذلك بدا المجتمع يemor بحركة تتركز حول أمور عديدة أبرزها اثنان:

١ - في «عندما تمطر السماء حنيناً» يبدو العنصر السياسي يجمع حوله أقطاب الحركة، يجعلها في صفوف متقابلة، أحزاب تدّعي الوطنيّة وتخترق جدر الصّمت المذهبي لتجيشه وتستعدّ لمغامرة حربيّة هدفها السّيطرة وتهجير النّاس وتدمير بنى الصّف الآخر، ابتداءً من وجوده ومروراً بمؤسّساته ومعتقداته الرّوحيّة والفكريّة، بينما الصّف الآخر يبدو في تاهّب آخر للدّفاع عن وجوده ووجود الأبرياء من الصّف المعادي. تتمثّل المغامرة الحربيّة في القادمين إلى بلدة القمير، وديرها الذي يمثّل رمزاً دينياً مسيحياً يقطنه المؤمنون من الرّهبان، إيمانهم الصّحيح بالله يقود إلى الإيمان النّقي بالوطن ووعي الحقبة التّاريخيّة التي يمرّ بها لبنان ابتداءً من العام ١٩٧٥ وهي المجموعة الدّينيّة التي عاش فيها حنين المسلم طفلاً وصبيّاً وشاباً، وافق وعيه وعيها إذ ترعرع فيها وشرب النّقاء الدّيني والوطني من منابعها، وهي التي لم تجبره على تغيير دينه، ولم تضنّ عليه بالمساعدة الماديّة والرّأفة والحنان والحماية والاعداد التّقافي وتنكّب مهمّة الدّفاع عن التّعایش الوطني والصّمود أمام الأهواء العاصفة التي حملها بعض دعاة الوحدة الوطنيّة الذين دعوا إلى تقسيم الوطن بمعاونة عدوّ الوطن.

ولئن كانت هذه المجموعة المؤمنة

المؤلّفة من رئيس الدّير (الأب يوسف) والرّاهبة سماء والطفلة المعذّبة أنيس هي الأساس في سكّان الدّير، فإنّ شخصيّة حنين قد شكّلت الرباط الرّئيس الذي جمعهم حوله، وجعل شخصيّة مركزيّة عندما كان طفلاً بائساً أثار شفقتهم فالتقطوه من سوق بلدة شارفة التي كان يعمل فيها حمّالاً لأغراض الأهالي إلى بيوتهم، ليصبح عاملاً من عمال الدّير وينضمّ إلى مجموعته الرّئيسة. وهو الذي لفت نظر الجميع بذكائه ونجابته وقيامه بعمله على أكمل وجه، فاحترمه الرّئيس وأحبّه وقربّه منه ليصبح مساعده، وكذلك فعلت سماء فصار سميرها في الخلوات والتّريّض والعمل، كما صار ربيبها التّقافي ومشروعها الوطني. وقد أثر هذا الاقتراب منها في نفسه فتعلّق بها في البداية كما يتعلّق الطّفل بأمه، ثمّ تحوّل هذا التّعلّق إلى حبّ حقيقي تمنّاه أن يتحقّق جسديّاً، فلم بالرّواج منها إلى أن اقتنع بأنّها راهبة ولا تستطيع الرّواج أو اتّباع شهوة الجسد. لذلك بدأ التّحوّل في شخصيّة وأصبح الوطن همّ الرّئيس لديه كما لدى المجموعة المحوريّة نفسها التي جعلته في بلدته مميّزاً يكافح من أجل جدارة الحياة والتّفوّق على أقرانه، وصولاً إلى تمركز الحدث الرّئيس فيه، وهو الذي حسم نتيجة الحرب في المنطقة.

يدلّ على أمور كثيرة: إلى الرّمز الوطني الصّحيح، وإلى الحبّ النّقي، وإلى الدّين البريء من الشّوائب، كما خلقه الله، أن يكون رحمةً بين النّاس، صلة تطهّره من آثام الميول والرّغبات والانحرافات البالية وإحلال القيم الرفيعة الماضية في بناء النّفوس والأوطان.

يظهر الانقسام في الرّواية؛ انقسام طائفي ووطني، شيوخ ورهبان وأتباع مغرّز بهم يتقاسمون المنزلات الرفيعة والأخرى المزيّفة. وحنين بينهم، في وسطهم يقربهم من الإنسانيّة الحقّة، ويصبح بذلك رمزاً وطنياً، قضيتته الكبرى التي حولها يلتفت أصحاب الحرّيّة الحقيقيّة، يختزل زماناً من الحروب الطائفية والمذهبية، حروب شرذمت النّفوس على وهم اسمه حقيقة الدّين التي أرادها البعض ورقة للوصول إلى المصالح الخاصّة، ورقة صفراء لا تحمل إلاّ الموت والدّمار، والدّين الحقيقي منها براء، سواء أكان المسيحيّة أم الإسلام.

٢ - في «كلام غير مباح» يتّسع الخرق الطائفي والمذهبي، ويمتدّ إلى أقطار كثيرة في الوطن العربي. فإذا كان حنين يتحرّك في فضاء الزّمن المبتدئ من سبعينيّات القرن الماضي، ويمتدّ إلى بداية تسعينيّاته، ويجعل فضاءه المكاني لبنان وباريس، فإنّ الزمن في «كلام غير مباح» يبدأ في العام

فقد بدأت هذه المحوريّة لديه عندما شرع العمل بالحماله، ينتظر في السّوق، يسمع أحاديث الحاضرين في ساحة السّوق، وتعليقاتهم حتّى الملل، الأمر الذي جعله ينضج في سنّ مبكرة، يتوافد إليه أمّو السّوق لمساعدتهم.

وهو الذي صمّم على أن ينتسب إلى المدرسة فيفوق أقرانه ويشغل معلّميه ويثير دهشتهم بمعلوماته ونجاحه في الشّهادة الابتدائية، وتحلّق زملائه حوله فيصبح ذكائوه حديث البلدة، حتّى في انتقاله إلى الدّير كان شغل أهل بلده بفرادة سلوكه وحبّ سكان الدّير له، وعودته الأخيرة إلى بلده التي جعل منه متعاطو السياسة والحرب فيها قطباً يممسك قرار الحرب ويقرّر مصير نصرها.

حتّى انتقاله إلى باريس، لم يكن هامشياً، كان في محور الحدث، حيث ظلّت العصابة المنهزمة في الدّير تلاحقه لتنال منه، فقتلت زوجته، لكنّه عاد وقضى على وجودها بمعاونة الشّرطة الفرنسيّة.

وظلّت محوريّته تطلّ من حين إلى آخر، حتّى في نهاية الرّواية ساعة لقائه من جديد بسماء، بعد مرور الزّمن، فقرّر متابعة الكفاح من أجل وحدة الوطن وتعايش أبنائه. محوريّة حنين تعدّت الحدث إلى الفكر، ذلك الذي ينبغي أن يحيا ويبقى محافظاً على الوطن. وفي هذا كلّه يبدو حنين رمزاً

الشَّعبي الذي حصل في لبنان وانعكس جميعه على التَّيارات السَّياسية في البلدة.

في متابعة السَّرد نجد أنَّ مصباح مهياً لدور مركزي ومحوري رئيس، يمسك بأطراف الأحداث حيناً ويتراخى ساعده حيناً آخر، خصوصاً عندما يدركه الإحباط واليأس من الأيدي الخفية التي تعبت بالانجازات البنائية الأيلة إلى تصحيح مسار التَّقدّم في بلده. وميزية هذه الشَّخصية المحورية أنَّها تعيش داخل الحدث، سواء في بلده التي تختزل معاناة وطن، أم في خارج لبنان، فيكتشف أن معالم هذه الأزمة هي نفسها. هذا العيش داخل الحدث ليس غريباً في تشكُّله عن الواقع. فمصباح جزء من النسيج الاجتماعي والثقافي والسَّياسي والعمراني فيها، يحتضن تاريخها ويشارك في تفعيل مراحلها، حتَّى حَسِبَ البعض أنَّ الكاتب يروي بعضاً من سيرته الذاتية التي كان لا بدَّ منها ليكون الحدث واقعيّاً. فغيابه عن اللوحات التي رسمها في الرواية، يُظهر نقصها لأنَّه مشارك فعلي في حوادثها ومناقشاتهما وصوغ تجاربها.

فمصباح الكاتب والأستاذ الجامعي تتمحور الرواية حول الكثير من تجاربه، فيظهر عنصراً رئيساً في اللقاءات العفوية التي تتم على مصاطب البيوت، والتي تجمع الفئات الشَّعبية المختلفة، فيجري النقاش

٢٠٠٥، زمن اغتيال الشَّهيد رفيق الحريري، رئيس الحكومة اللبنانية، وقبله بقليل، ويمتدَّ إلى مشارف العام ٢٠١١، إنَّه زمن التَّمهيد للربيع العربي المزعوم، حيث ضياع الأمن في العالم العربي، والدَّخول في متاهات الحروب المدمِّرة بنى الأقطار العربية ومعالم النفوس التي انحدرت إلى التَّكسُّر وانعدام الرُّؤية وغشاوة العيون التي لم تدرك أبعاد المؤامرات على العرب، فحصل نوع من التَّدبير الذاتي والانتحار البالغ قَمَّة أزمته في الشَّمولية التي عمَّمت الموت وجعلته مطيئها في غير قطر من أقطار العرب.

يبدأ السَّرد في رواية «كلام غير مباح» من هذا التَّكسُّر النَّفسي والزَّمني والمكاني. يبدو فيه مصباح «الأنا» العربية المأزومة على غير صعيد، في داخل وطنه، خصوصاً بلده، وفي خارجه، في مصر والأردن والجزائر... وكأني بالكاتب المعوش قد جعل من مصباح (الشَّخصية الرئيسية) رمزاً، مصباحاً حقيقياً يضيء به على جوانب كثيرة من الوضع العربي المأزوم، ليكتشف الظلمة التي بدأت ترين على الشَّرق الذي مثَّل منبت الشَّمس الدائم المطل على العالم كله.

ومنذ الصَّفحات الأولى ندرك أهميَّة مصباح في الفسيفساء السَّياسية والثقافية لبلده، كما نعلم الكثير عن الاصطفاف

الثقافة قد باعوا أنفسهم لبعض الساسة الذين أوهموا الناس بصحة برامجهم وجدوى وجودهم، لكنهم، في تقديره، قد أخطروا الوطن وأضرّوا بمصالحه المحليّة والقوميّة والعالمية.

وعلى الرغم من تلك الحيادية، نرى مصباح قد طوّرها وأراد النفاذ منها إلى خلق أجواء من المواجهة الصّامته التي تركّزت في طرح البرامج الإصلاحية لإنقاذ بلده من جمودها، ومن ثمّ تفهقها، فالتفت حوله شرائح المجتمع واستطاع أن يجمعها في بوتقة العمل الانمائي، ويخرج من التّنظير إلى الميدان العملي، لكنّ الأيدي الخفية كانت له بالمرصاد، فحاولت قتل بعض مناصيريه من قيادات البلدة السياسية والدينية والثقافية، وأحرقت معملاً للصابون قد أنشأه لتمويل المشاريع الأخرى المنصبة على المدارس والطرق والمياه والكهرباء والمساجد...

تخطّت محورية مصباح حدود وطنه لبنان، ينتقل مكان السرد إلى مصر، إلى العمل في أحد المراكز البحثية الذي تملكه السيدة لبنى التي التقى بها في أحد المؤتمرات الثقافية، تدعوه إلى العمل، ويتسلّم قسماً مهماً في المركز، ويكون الحبّ بينه وبين لبنى وسيلة لتقوية محوريته، فبعد سلسلة من الأحداث تناوب عليها كلٌّ من الاقتراب والابتعاد بينهما،

هيئاً سهلاً مرّة، وحاداً اختلافياً جدلياً مرّة أخرى. وهو المثقف العصري الملمّ بالمخزون التراثي وحقائق الأديان والتيارات السياسية والثقافية والاقتصادية والنفسية والفلسفية والتاريخية، وهو الكاتب في هذه المجالات والمحاضر فيها. وجوده بين الجماعات المختلفة يشكّل حضوراً بيناً ومركزاً استقطابياً ينتظره الجميع للإدلاء بأرائه. وهو الذي يغدو موضوع حديث الكثيرين في خلواتهم، يتناولونه بالمدح حيناً وبالقدح والانتقاد والحقد والحسد حيناً آخر.

ولمقاربة شخصية مصباح المحورية نتوقّف عند السمة الرئيسة التي ميّزه الكاتب بها وهي الحيادية، في زمن لا يُقبل فيه المحايدون، ويبقون مهمّشين ومبعدين من الأضواء لأسباب جدّ جوهرية بالنسبة إلى اللاعبين على مسرح السياسة اللبنانية. فهؤلاء المحايدون لا يسمحون لأنفسهم بأن يكونوا في عداد كمّ الصفوف، لأنّ المهم لديهم هو النوع لا الكمّ، ولأنّ هؤلاء مثقفون حقيقيون لا يُباعون ولا يشرون، ويحسبون أنفسهم فوق الجميع، ولأنّهم مشكوك في ولائهم، لا يطيقون الاعوجاج ولا يتقبّلون اللامنطق والسياسات المراوغة والتّحالف مع الأعداء ضدّ المسلّمات الوطنيّة.

ومن منظور مصباح أنّ كثيراً من مدّعي

تؤول ملكية المركز إليه ويصبح الشخصية الرئيسية التي يلتفت حولها الموظفون فيسعون جميعاً إلى تطوير العمل.

وفي الجزائر يجذر السرد علاقة مصباح بأهالي مدينة قالمة الجزائرية وشخصياتها الثقافية والدينية، ويلفت نظر الجميع إليه: في الجامعة التي ألقى فيها محاضراته، وفي الوسط الديني المتمثل بتطور علاقته الوطيدة بالشيخ عبد العزيز، أمير إحدى الجماعات الإسلامية التي انتشرت في الجزائر على مرّ عدة عقود، يظهر مصباح قطب الرّحى في الأحداث التي تجري، من حين اعتقاله من جماعة الأمير، إلى تحوّل هذا الاعتقال إلى صداقة حميمة تجمع بين أسرتي مصباح وعبد العزيز.

أمّا في الأردن، فإنّ إقامة مصباح لا تطول، وعلى الرغم من ذلك، فإنّ مشهداً واحداً يعلن عن هذه المحورية حين يلتقي في ساعة من ساعات يأسه، بعد إخباره بحرق معمل الصّابون في بلدته، بدورية من الشرطة الأردنية في مكان مظلم مهجور حملته أقدامه إليه لدى سيره من دون هدى، فينقلب موقف الشرطة من مهمتها لاعتقاله، ظناً منها أنّ هذا المكان لا يرتاده إلاّ المجرمون واللصوص، إلى إيجابية كشفت عن أهمية مصباح في عالم الثقافة، من

خلال تعرّف أحد أفراد الشرطة عليه، فيكرّم لنبهاته وشهرته.

في ضوء ذلك كلّه، يفصح السرد عن محوريّات مختلفة أسهمت في تأسيس رؤية الكاتب والكشف عن هواجسها وتطلّعاتها، ومن هذه المحوريّات، تظهر المحورية السياسيّة والدينيّة والثّقافيّة والانمائيّة ومحورية الحبّ، وهو ما سيّضح في متن هذه الدراسة.

د - المغالاة الدينيّة وتفريغ جوهريّة القيم.

لم يكن اختيار الكاتب الشخصية المركزية المثقفة (حنين/مصباح) اعتبارياً. ذلك أنّ الشخصية المثقفة قادرة على الرؤية الصحيحة، وردّة الفعل المرنة، بل هي أكثر قدرةً من غيرها على حمل الرؤية الأيديولوجية الخاصة بالكاتب، والتي أراد أن يمرّرها عبر أصواته السردية. فشخصية حنين في رواية «عندما تمطر السّماء حيناً» الآتية من بيئة فقيرة، لم تركز إلى الخمول الفكري والجهل، بل «أكثرث من المطالعة، وكانت تقرأ كلّ شيء. لا تملّ من أيّ موضوع وتوطّدت صلاتها بأناس مثقّفين ومتعلّمين اقتنوا مكّتبات خاصّة»^(١). وبالرغم من هذا «لم يرتو نهمها إلى القراءة»^(٢). كذلك، فشخصية الدكتور

(١) سالم المعوش، عندما تمطر السّماء حيناً، ص ٣١. (٢) م. ن.

بدل أن تنتج معه أفقاً جديداً أو حواراً مستمراً، يسهم بشكلٍ أو بآخر بتقريب وجهات النظر أو تفهّمها على أقلّ تقدير من دون إلغاء أو إقصاء.

وفي مقارنة نصّ الروايتين، أمكن رصد المغالاة الدينيّة التي بدتْ غارقةً في تخوم الزيف. وعندما تسود المغالاة الدينيّة في ممارسة شعائرَ وطقوس مبتدعة، وتأويل النصّ المقدّس وفاق ميول وأهواء خاصّة، فإنّ هذا كفيلاً أن يفصل الدّين عن التّدين. وفي هذا، «يرى الكاتب أنّ الدّين شيء، والتّدين أو الإيمان شيء آخر. فالدّين من الله جعله ضرورياً، في حين أنّ التّدين أو الإيمان ردّة فعل غالباً ما شوّهتْ حقائق الدّين الجوهرية، فأدخلتْ النّاس في سرايب الصّراعات والتّناحرات، ما جعل بعضهم يرى في بعض الأفكار التّوريّة والأيدولوجيّة البعيدة من التّعصّب الدّيني ملجأً وملاداً يحتمي بهما من فكرة إلغاء الآخر»^(٢). ولئن استخلف الله الإنسان على الأرض لما وهبَ من تبصّرٍ وعقلٍ راجحٍ، فإنّ «أذرعاً مشبوّهة غيرتْ المسار الصّحيح تحت عنوان الدّين والانقسام الطائفي محلياً،

مصباح في رواية «كلام غير مباح» أكاديميّة مثقّفة، كانت محطّ أعجاب شخصيّاتٍ أخرى، «كأبو محمود» الذي يعبر عن إعجابه بمصباح قائلاً: «فهمتُ أنّ هذا الرّجل يكتشف أموراً لا نعرفها جميعاً. يعيش في عالمٍ لا نعلم عنه الكثير. لا نقرأ كتبه وأبحاثه. هو وأمثاله من المثقّفين لا يزالون يحتفظون بحرارة الوطنيّة تسري في عروقهم، وبالنّظر الثّاقبة البعيدة من المطامع والأهواء»^(١). وهذا كلّ ما يُبرز أزمة المثقّف في العالم العربي الذي حوَصِرَ من قادة النّظام من جهةٍ، ومن عنف بعض المتطرّفين من الجّماعات الدينيّة الذين «كسروا شوكته وجعلوه يعيش الرّعب بكلّ أبعاده وعمقه، فصارتْ حياته كلّها ترقّباً وانتظاراً»^(٢).

إنّ تقديم الشّخصيّة المركزيّة المثقّفة في كلتي الروايتين، كفيلاً أن يعكس رؤية هذه الشّخصيّة المختلفة عمّا يراه الآخرون في موضوعاتٍ شتّى؛ كالدين والسياسة... وهي في سيرورتها التّقديميّة المنفتحة على الآخر، ترصد زيف المركزيّة الدينيّة التي تتضخّم فيها الأنا وتقصي الآخر وتلغيه،

(١) سالم المعوش، كلام غير مباح، ص ٥٠.

(٢) سعد حمدون، صورة المثقّف في روايات بشير مفتي، رسالة ماجستير، إشراف الدّكتور لبوخ بوجملين، الجزائر، جامعة مرياح - ورقلة، ٢٠٠٩-٢٠١٠، ص ٨٤.

(٣) علي نسر، «رواية عندما تمطر السّماء حيناً لسالم المعوش: الحبّ طريقٌ إلى الله»، جريدة السّفير، بيروت، ٢٣-١-٢٠١٢، ص ١٨.

«عادتُ إلى ذهني كلماتها: «إنَّك مسلم».. لأوَّل مرَّةٍ أتعمَّق في اللفظة. أدخلها في معجم حياتي: مسلم ومسيحي.. دير ومسجد. ترى من حدَّد كوني مسلماً؟ ما هو الإسلام؟ لماذا أنا مسلم وهي مسيحية؟ لماذا فرَّق الناس أدياناً وشعوباً وطبقاتٍ وفئاتٍ وألواناً؟ ألف لماذا علقتُ في ذهني»^(١).

إنَّ حضور هذه الأسئلة الغامضة، زاد من حساسية الشخصية المركزية حيال هويّتها: الفردية والكونية، ولكنها لم تته في غياهب الظلمة، لأنها «فهمت أنَّ الفروقات بين الأديان هي فروقات واهية.. ليست إلاّ لنشر الإحن والخلافات بين النَّاس.. وعرفتُ أنَّ الله وموسى وعيسى ومحمد أسمى من هذه الفروقات التي ليست من الحقيقة في شيء»^(٧). لذلك ألمحتُ غير مرَّة أن الإنسان قد يكتسب دينه اكتساباً، وخير دليل على ذلك الرّاهبة سماء، إذ «يشير السرد إلى أنّها لقيطة وُجدتُ أمام الدير فتربّت فيه راهبة، فلو عثر عليها مسلمون لكانت مسلمة محمّدية، وأكثر من ذلك ربّما تكون هي ذاتها من أبوين مسلمين»^(٨). وهذا ما يشي

والحضاري عالمياً، ما جعل العقل البشري شبه مخدّر أو معطل»^(١). يقول حنين في حوارهِ مع الشّيخ عارف إمام المسجد الذي «تحلّى بالصدق والإيمان الصّحيح دون تشدّد في الدّين»^(٢): «إنَّ الأديان لخدمة الإنسان سواء أكان مسلماً أم نصرانياً، والصّلاة لله الواحد عند الفريقين»^(٣). ثمّ يستطرد قائلاً: «تبدّى لي أنّ الشرائع والأديان تسعى إلى الحبّ، إلى السعادة أينما وجدوها، أيقنتُ أنّ الأمر لن يختلف وأنَّ الله أكبر من كلّ شيء، أكبر من تفاهات البشر وخلافاتهم، وأنّه وهبنا عقلاً لنفكر، لنرى الأشياء والحقائق بعيوننا وأفهامنا وليس بعيون وعقول الآخرين»^(٤).

ويفصح السرد في رواية «عندما تمطر السماء حنيناً» إبان الحرب الأهلية المشتعلة على مواعد التّعبص الديني الأعمى، عن قصة حبّ روحية تجمع حنين وسماء، إلاّ أنّ هذا الحبّ يصطدم بحائل ديني يمنع هذه العلاقة البريئة، ولاسيّما أنّ سماء راهبة مسيحية «ممنوعٌ عليها الحبّ الفاني مهما حاولت»^(٥). وهو ما جعل الشخصية المركزية تعي ذاتها وتطلق الأسئلة المعقّدة:

(١) م. ن.

(٢) سالم المعوش، عندما تمطر السماء حنيناً، ص ٤١.

(٤) م. ن.

(٦) م. ن، ٧٧.

(٨) علي نسر، «رواية عندما تمطر السماء حنيناً لسالم المعوش: الحبّ طريق إلى الله»، ص ١٨.

بمعنى مضمّر مسكوتٍ عنه، أراد الكاتب أن يمرّره من خلال الشّخصيّة المركزيّة، ليقول: إنّ الظّروف قد تغيّر الانتماء الدّيني الأصلي للإنسان. وبالتالي؛ فما على هذا الإنسان إلا أن يبحث عن إشراق الله في نفسه، وفي أيّة ديانة سماويّة أخرى، لأنّ «الإيمان سيبقى في الصّدور ببقاء الله وديمومته وصحة أديانه. فليجرب الإنسان وليقطع الأرض طولاً وعرضاً فلن يبقى إلاّ هسيس نفسه وحديثه الأزلي إلى الله»^(١).

إنّ هذا الفهم المؤسّس على احتضان الآخر ونبذ الطائفية، جعل غير شخصيّة من شخصيات الرواية تعلن انهزاميّة التّضخّم الدّيني الرّجعي، وانفتاحها على الآخر بغضّ النّظر عن انتمائه ودينه. فهذا الشّيخ عارف إمام مسجد بلدة شارفة «صديق حميم للخوري ناصيف منذ الطفولة. تعلّم سوياً في مدرسة واحدة وعاشا كإخوة إلى الآن»^(٢). كذلك، ردّ هذا الشّيخ على أقاويل المتشدّدين المسيحيين الذين ضخّموا دينهم وحملوه فوق ما يحتمل، وحسبوا أنّهم «امتداداً للعالم الغربي المسيحي بأكمله»^(٣)، فنفى قائلاً: «هذا ليس من المسيحيّة في شيء. إنّ تليفق. إنّ المسيحيّة ترقق قلب

الإنسان، ولو عرفوا المسيحيّة الحقيقيّة لما قالوا هذه الأقوال. المسيحيون عرب قبل كلّ العرب»^(٤).

ترتّب على هذا الوعي الذي أدركته غير شخصيّة من شخوص الرواية؛ أمثال حنين وصديقه سميح، وإمام مسجد شارفة الشّيخ عارف، وسماء الرّاهبة، والكاهن يوسف رئيس الدير... أن ظهر مفهومي المواطنة والانتماء في أصواتهم السردية التي أكّدت غير مرّة أنّ «مسألة الطائفية في لبنان لن يحلّها إلاّ التّعايش الوطني، إلاّ الاعتراف بالإله الواحد. نبني وطناً للجميع. ما من خلاف كان سببه الله. الله لا يسبّب الحروب والدّمار. المصالح الخاصّة هي التي تدمّر كي تبقى القلّة مهيمنة»^(٥).

يستكمل الرّوائي سالم المعوش مشروعه الفكري الأيديولوجي في رواية «كلام غير مباح» ما كان قد بدأ به في روايته الأولى، إذ حسب أنّ الشّخصيّة المركزيّة المثقّفة المتمثّلة في مصباح وحدها القدرة على «صنع ثقافة مغايرة، وطناً مختلفاً، تاريخاً صحيحاً»^(٦)، لأنّها أيقنت أنّ التّضخّم الدّيني الذي أفرغ من مضامينه القيمة المثلى، ودعا إلى التّعصّب

(١) سالم المعوش، عندما تمطر السّماء حيناً، ص ١٩٧.

(٢) م. ن.، ص ١٩٤.

(٣) م. ن.، ص ٩٩.

(٤) م. ن.، ص ٩١.

(٥) م. ن.

(٦) سالم المعوش، كلام غير مباح، ص ١٢.

الأعمى، وإلغاء الآخر، لاسيّما «أولئك الملحقين الذين باتوا يشكّلون قلقاً في حياة مصباح»^(١)، إذ غيّبوه قسرياً في غرفة مزدحمة «بالعباءات البيضاء، واللحى الملصقة بالوجوه، والنظرات القاسية»^(٢)، هو ما جعل ردة فعله أقرب إلى الثورة الداخليّة. يقول: «أيّ مسلمين هؤلاء. أيّ شيء تعلّموه من الإسلام. أيريدون أن يحلّوا محلّ الله فيحاسبوا النّاس بدلاً منه على الأرض، يستعجلوا الحساب. كلاً ليس مسلماً من يقوم بهذا العمل، يستغلّون الإيمان والدين. إنهم لصوص شوّهوا الدين»^(٣). ثمّ تزداد حدّة هذه الثورة الجوانبيّة، فينكر المظاهر التدينيّة القشوريّة المفقدة إلى الجوهر النقي. «من أين استمدّوا سلطتهم؟ أمن الركعتين اللتين يؤدّيانهما لتمكين سلطتهم؟ تباً لكم أيّها الأوغاد. أنا المسلم الحقيقي وأنتم تجار موت»^(٤).

هـ - القهر السياسي واستلاب الوعي

عندما أدرك قائد السّلطة السياسيّة أنّ ثمة منازعاً ينازعه سلطته، توصل إلى الحلّ القائل «باجتذاب تلك السّلطة المعرفيّة إلى مجال السّلطة السياسيّة وإدماجها فيها، بل وجعلها غطاءً أيديولوجياً لها، تضيف عليها الشّرعيّة والصدقيّة. وهذا ما أفرز طائفتين

الأعمى، وإلغاء الآخر، لاسيّما «أولئك الملحقين الذين باتوا يشكّلون قلقاً في حياة مصباح»^(١)، إذ غيّبوه قسرياً في غرفة مزدحمة «بالعباءات البيضاء، واللحى الملصقة بالوجوه، والنظرات القاسية»^(٢)، هو ما جعل ردة فعله أقرب إلى الثورة الداخليّة. يقول: «أيّ مسلمين هؤلاء. أيّ شيء تعلّموه من الإسلام. أيريدون أن يحلّوا محلّ الله فيحاسبوا النّاس بدلاً منه على الأرض، يستعجلوا الحساب. كلاً ليس مسلماً من يقوم بهذا العمل، يستغلّون الإيمان والدين. إنهم لصوص شوّهوا الدين»^(٣). ثمّ تزداد حدّة هذه الثورة الجوانبيّة، فينكر المظاهر التدينيّة القشوريّة المفقدة إلى الجوهر النقي. «من أين استمدّوا سلطتهم؟ أمن الركعتين اللتين يؤدّيانهما لتمكين سلطتهم؟ تباً لكم أيّها الأوغاد. أنا المسلم الحقيقي وأنتم تجار موت»^(٤).

ذلك كلّه يعكس وعي الشّخصيّة المركزيّة وبعدها من الثّبات الفكري المتحرّج، إذ كان لها دورٌ محوري في إرجاع «الحاج واصف» إلى مسار الدين الصّحيح، بعد أن كان قد انحرف في سلوكه

(٢) م. ن، ص ١٩٦.

(٤) م. ن.

(٦) م. ن.

(١) م. ن، ص ١٤٦.

(٣) م. ن، ص ١٩٧.

(٥) م. ن، ص ٢٢٠.

والمعارضة»^(٣)، ذلك أنّ «القادة السياسيين نجحوا في نقل المعارك إلى الشوارع، فانتشر الموت وعمّت الاغتيالات وتفاقت أعمال التفجير»^(٤).

كذلك، فإنّ «حنين» الذي ألمه أنّه «بين نارين. نار الدّير ونار بلدته، كان يؤلمه أنّ معظم سكّان شارفة لم يفهموه»^(٥)، لأنّ كثيراً منهم قد غرق في مستنقعات السياسة، فهي «أقوى من الإيمان، ولم لا، طالما الدّين في خدمتها في هذه الأيام»^(٦). وهذا ما يورث الخسارة، إذ إنّ «الخسارة الحقيقية هي الانجرار وراء مزاعم السياسيين»^(٧) الذين أوقدوا نار الحرب والفتنة على مواقد الانحراف الدّيني ونفّث النّعرات الطائفية.

يؤكد الرّوائي سالم المعوش في رواية «كلام غير مباح» هذه الرؤية بعد مضي ثلاثين سنة على أحداث الرّواية الأولى بقوله على لسان مصباح: «تبّاً لهؤلاء السياسيين. يستعملوننا كأداة لتوصلهم وتزيد سلطانهم. وعندما نكبر وتكبر حاجتنا إليهم يلفظوننا كالتّوأة. يبعدوننا منهم

من رجال الدّين: طائفة استجابت لنداءات رجل السّلطة وإغراءاته وصارت تمثّل دعماً له، وطائفة أخرى أبّت النّخلي عن سلطتها المعرفية ووقفت في مواجهة السّلطة أو فضّلت أن تكون بمعزلٍ عنها»^(٨).

وتأسيساً على هذا الفهم، ارتكز النّص السّردي، لكلّتي الرّوايتين، على رؤية وخطاب نقديين للذهنيّات والسلوكيات السياسيّة السّائدة، من خلال إبراز أشكال الفساد والانتهازيّة والوصوليّة، وكَمّ الأصوات المنطلقة من حناجر الضّعفاء الرّازحين تحت نير الظلم والحرب والفوضى إبّان اشتعال فتيل الحرب الأهلية، كما في رواية «عندما تمطر السّماء حيناً» أم تأجيج شرارة الفتنة إثر استشهاد الرّئيس رفيق الحريري كما في رواية «كلام غير مباح». وفي هذا تقول الشّخصيّة المركزيّة: «ألست ترى أنّ الذي حدث في العام ١٩٧٥ شبيه بالذي جرى في ال ٢٠٠٥ بعد ثلاثين سنة»^(٩)، إذ انقسم «سكّان البلدة (ويقصد بلدته) بين فريقين رئيسيين: ١٤ آذار و٨ آذار، أي الموالاتة

(١) بسمه عبد العزيز، «السلطة والخطاب بين الدّيني والسياسي: سَطوة النّص»، مأخوذ من الموقع الإلكتروني:

<https://www.bidayatmag.com> خريف ٢٠١٦.

(٢) سالم المعوش، كلام غير مباح، ص ١١٩.

(٣) م. ن، ص ٤٣.

(٤) م. ن، ص ٤٦.

(٥) سالم المعوش، عندما تمطر السّماء حيناً، ص ٩٧.

(٦) م. ن، ص ١٩٥.

(٧) م. ن، ص ٩٨.

يندمج فيه. ويكشف الرّوائى من خلاله رياء المجتمع الذّى بقدر ما يتضخّم الدينى في مسار حياته، بقدر ما يتمظهر بالتدّين القشوري الذي لا روح فيه ولا حياة، حيث تغذّي السلطة السّياسيّة بعد أن تفرغه من جوهره لتحقّق مآربَ خاصّة لا رحمة فيها.

وفي خضمّ هذا الصّراع المحتدم بين المغالاة الدّينيّة والقهر السّياسي، يقف المثقّف حائراً، تتقاذفه مغالاة التّنظيمات الدّينيّة تارةً، وتسلّط السّياسي تارةً أخرى، ليطلق في نهاية المطاف صرخة الرفض عبر ثورة داخلية، لتُفرغ فيما بعد في نتاج إبداعي يكتب «أزمة الإبداع التي هي - في جوهرها - أزمة حرّيّة، أزمة صراع بين الكشف والفعل، بين الرّؤية والمواجهة، بين تحرير الإنسان وبطش السّلطان»^(٤)، وبين الفاعليّة واستلاب الوعي.

والذّات التي أمضّها الإنهاك في عالم قاسٍ، أرادت أن تنعتق من هذا الأسر لتحلّق بعيداً في عالم صوفي نوراني لا يعرف الجشع والحرب والموت. وهو ما جعل هذه الذّات تستلهم حالات صوفيّة لتتّصل بأصلها الإلهي الذي انفصلت عنه لحظة الولادة. يقول حنين في رواية «عندما تمطر

ويحاربوننا. لقد احتموا وراء طوائفهم. حوّلوا الدّين إلى ورقة رابحة، يتصالحون في الخفاء وينقسمون ويتشاجرون في العلن»^(١). وهكذا، فبعض السّياسيين، لاسيّما المؤتمرون بالخارج، هم رأس السّبب في زرع قنابل الفتنة تحت إبط البراءة. فعندما عادت الماء إلى مجاريها، وأتحدث بعض شخوص الرّواية (حنين - وأحمد ريشون - والشّيخ طه - والحاج واصف...) لاعلاء شأن البلدة عبر إنشاء معمل للصابون ودار للمسنّين، سعت أياد سياسيّة مشبوهة وأحرقّت ما بُني بشقّ الأنفس، لأنّهم «لا يودّون أن يرتاح مخلوق، أن يشبع، كي يبقوا متسلّطين لا ينبت فينا رأس يرشد النّاس، ولا مشايخ تحبّ الخير والعدل، ولا تائبون يؤوبون إلى الله، ولا متعلّم يضع علمه في خدمة شعبه»^(٢). وما الفاجعة التي ألمّت بالشّخصيّة المركزيّة في نهاية الرّواية إلّا لأنّها على حدّ قول «أبي محمود»: «قالت كلاماً غير مباح ولم تحمه بالقوّة»^(٣).

و - المنفذ الخلاصي: رؤية صوفيّة

ينجلي الخطاب الديني في هاتين الرّوايتين كقناع للخطاب السّياسي الذي

(٢) م. ن، ص ٣٩٧.

(١) سالم المعوش، كلام غير مباح، ٤٩.

(٣) م. ن، ص ٤٠٥.

(٤) طه وادي، الرّواية السّياسيّة، الشّركة المصريّة العالميّة للنشر - لونجمان، (لا. ط)، (لا. ت)، ص ٢٧٨.

القادم من فيض التّجلي الإلهي، وهو ما غسل الرّوح بفيض الحبّ، حتّى سكرت وغابت في النّشوة الكبرى. هكذا، تتجلّى الصّورة الخمرية، برموزها العرفانية لتشكّل «رمزاً خصباً يشي بأحوال السكر والوجد الإلهي»^(٣).

إنّ «عشق الصّوفي الذات الإلهية جعله دائم التّطلع إلى رؤية هذه الذات»^(٤)، والإفصاح عن مقام المحبة الذي هو السبب في إيجاد هذا العالم، وذلك لا يكون إلاّ بالتّجرّد من الحاجات السّفلى «والابتعاد من شهوات الجسد الفانية»^(٥) لبناء التّورة الحقيقية عبر فعل الحبّ «محطّم الحواجز بين بني البشر، والسبيل إلى التّعرف إلى الله»^(٦). وهو في هذه الرؤية يتواشج مع العلامات الصّوفية عامّة، ومدونة «ابن عربي» خاصّة الذي حَسِبَ أنّ «العالم كلّهُ قائمٌ على مبدأ الحبّ»^(٧)، وأنّ «الحبّ دينه وإيمانه»^(٨). وهذا ما استلهمه الكاتب لي طرح

السّماء حيناً: «أحسُّ أنّي طائرٌ أهومّ في الفضاء. دنيا جديدة أدخل إليها. طريقٌ مظلمٌ أقطعه إلى الضّياء، حيث يستحيل الوجود إلى خيالٍ لا يُرى، بل أنساً اغتسلت بفيض روعي، فيه من الحبّ ما يُسكرُ ويُنشِي»^(١)، ثمّ يستفيض في وصف هذه الحالة الشعورية الصّوفية: «تمنيتُ الفناء لأمكث إلى الأبد في لحظاتي، وغمرني شعاعٌ خفيّ لفّ عالمي، نقلني إلى حيث الحبّ. صوتٌ من البعيد كان يهتفُ بي. لا أراه، بل لا أكاد أسمع صوته، وكأنّه يقول: أنا الله»^(٢).

يسهم الحقل المعجمي الصّوفي (الضّياء - اغتسلت - فيض روعي - الحبّ - طريق - يُسكر وينشي - الفناء - أنا الله...) في كشف الحالة الصّوفية التي شعرتُ بها الشّخصية المحورية، حيث تحرّرتُ من ثقل المادة واعتلتُ الفضاء (حلم الطّيران الذي يلازم الذات المتعبة) بعد أن مرّقتُ جلباب الظلمة لتشهد الضّياء والشّعاع الخفيّ

(١) سالم المعوش، عندما تمطر السّماء حيناً، ص ٤٦.

(٢) م. ن، ص ٤٧.

(٣) عاطف جودة نصر، الرّمز الشعري عند الصّوفية، بيروت، دار الأندلس، ط ٣، ١٩٨٣، ص ٥٠٧.

(٤) شعبان أحمد بدير، «الجّمال في الشعر الصّوفي»، مجلّة حوليات التراث، منشورات جامعة مستغانم، الجّزائر، ٢٠٠٨، عدد ٨، ص ٥.

(٥) سالم المعوش، عندما تمطر السّماء حيناً، ص ٨٠.

(٦) علي نسر، «رواية عندما تمطر السّماء حيناً لسالم المعوش: الحبّ طريقٌ إلى الله»، ص ١٨.

(٧) فدّور رحمانى، بنية الخطاب الشعري في الفتوحات المكيّة لابن عربي، أطروحة دكتوراه، إشراف الدّكتور حميدي خميسي، الجّزائر، جامعة الجّزائر، ٢٠٠٥ - ٢٠٠٦، ص ٤٧.

(٨) محيي الدّين ابن عربي، ترجمان الأشواق، بيروت، دار صادر، (لا. ط)، ١٩٦٦، ص ١٦٥.

في ذلك إذا ما توحدت مع ذاتك. اعبد الله كما شئت»^(٥). وما دام «الله واحداً لدى الجميع»^(٦)، «فليعبده كلُّ بطريقته الخاصة»^(٧). «فالله جوهر حق، وهو أصفى وأنقى سواء أكان عابده في مسجد أم كنيسة»^(٨). فما المشكلة لو توحدت السبل على قلب واحد، في وطن «يرتل فيه القرآن على أنغام إنجيلية»^(٩)، الأمر الذي يعمق فعل الحب الصوفي الذي يوحد البشرية جمعاء بعد أن يقودها إلى الله.

س - المحصلة

يبقى أن نجيب عن السؤال الذي طرحه البحث في البداية. هل قدم الكاتب عمقاً من أعماق العالم المرجعي وهو يحول المتن الحكائي للروايتين إلى مبنى حكائي. الجواب منوطٌ بفرادة الرؤية وخصوصيتها «ببصمتها الفريدة»^(١٠) التي قد تتقاطع مع بصمات ورؤى أخرى، ولكنها نتاج ثقافة وتصور خاص رفض فكرة الثابت الديني والسياسي، وقال بالحركية الفاعلة القائمة على الحب الصوفي الذي يولي الإنسان

رؤيته الأيديولوجية على لسان الشخصية المركزية: «الحب الحقيقي هو المترفع عن الشهوات، وأصدق حب هو حب الله والشغف به. وهذا الحب قادرٌ على إماتة رغبات الجسد، على تهميشها أمام الميل العظيم إلى الله»^(١). كذلك، فسماء الراهبة، وغيرها من راهبات الدير، «لا يحببن إلا الله ويذبن فيه وينذرن أنفسهن لخدمته»^(٢). وهذا الميل الصوفي كانت له جذور أولية في نفس حنين، حيث «انتشرت الطريقة الصوفية القادرية في بلدته شارفة»^(٣).

يستكمل الكاتب خطابه الصوفي في رواية «كلام غير مباح»، فيؤكد من خلال مصباح بعداً صوفياً يعتقد أن «الأديان متساوية عند الله، والمسيحية والإسلام شيء واحد، متكاملان»^(٤). وهو ما يتضح بشكل جلي في الحوار الذي دار بين مصباح والطالب الجامعي: «هل وجدت طعم الله مختلفاً في المسيحية عن الإسلام؟ هل جربت أن تعبد الله بعيداً من تأثير أي شخص، سواء أكان مسلماً أم يهودياً أم مسيحياً؟ صدقني أيها الشاب لن تجد فرقاً

- (١) سالم المعوش، عندما تمطر السماء حيناً، ص ٧١.
(٢) م. ن.
(٣) م. ن.
(٤) م. ن، ص ٢١٣ - ٢١٤.
(٥) سالم المعوش، عندما تمطر السماء حيناً، ص ٦٥.
(٦) م. ن، ص ٦٤.
(٧) م. ن، ص ٧٨.
(٨) علي نسر، «رواية عندما تمطر السماء حيناً لسالم المعوش: الحب طريق إلى الله»، ص ١٨.
(٩) علي زيتون، أدبية الرواية في ضوء المنهج الثقافي السيميائي، ص ١٢٠.

أهميّة خاصّة، ويؤكد مركزيّته ووجوده الأصيل، خصوصاً أن مقصد الدّين وغايته المحوريّة هي الإنسانيّة. وهو ما جاء على لسان الشّخصيّة المركزيّة (حنين)، إذ يقول: «هذه الهويّة: الإنسانيّة. أه كم نجهل معنى هذه الكلمة»^(١).

وفي المحصّلة، استطاعت رؤية الكاتب الخاصّة «بتركيبها الرّباعي: الثّقافة، والقناعات، والهموم، والاهتمامات»^(٢) أن تخلق نصّاً سرديّاً ذا بنية عميقة، وتسيّجه بالدلالات والثّمات المضمونيّة قصد تمرير محمولات معرفيّة وأيديولوجيّة إلى المتلقّي، حيث تمكّنت من الكشف عن عمق من أعماق العالم المرجعي الدّيني والسّياسي، ومن الإمساك بغير جانبٍ من جوانبهما، فكشفت عن بعض جوانب الخطاب الدّيني الموظّف لغايات غير دينيّة، وشجبت تزمّته، ونقدت سلطة السّياسي وحملته مسؤوليّات جمّة، لتتّكئ في نهاية المطاف إلى التّجربة الصّوفيّة التي يستحيل الحبّ فيها «سببياً» إلى وحدة المشاعر الإنسانيّة^(٣)، وطريقاً إلى فهم العالم وحلّ مشكلاته، وخلصاً من واقع تجلّبب بالظلاميّة والموت.

وبذلك تغدو الشّخصيّة المحوريّة، في الرّوايتين، متملّكة جوهر القضايا التي يعانيتها الإنسان، وكاشفةً عن المسافة التي تفصل بين الأرض والسّماء، فإذا بسيمياء العنوان في الرّوايتين لافتة رمزيّة تدلّ على تواشج العلاقات الإنسانيّة، فإذا بحنين، هذا الاسم الذي يثير فينا مشاعر خاصّة تقرّبنا من آدميّتنا، هو حنين ممتدّ في أعماقنا، من الصّعب استئصاله، موجّه دائماً إلى الشّفقة والمحبة والتّقارب والتّجمّع على فعل الخير. هو حنين، ولكن إلى أين؟ بالطّبع إلى السّماء، المرموز إليها بالشّخصيّة سماء، مؤدّيّة دور الاعتدال والإيمان والرفقة والتّسامح. هي بدورها رمز إلى الله في أعلى أماكن وجوده. أماكن يحنّ إليها حنين ويرجو منها أن تمطره في صورة محبة وهداية كما هما المسيح ومحمد عليهما السّلام.

بينما يدلّ عنوان الرّواية الثّانية «كلام غير مباح» على الصّمت المفروض إزاء حماقات السّياسة والظلم والإتجار بكرامة الإنسان، وعندما تجرّأت الشّخصيّة المحوريّة (مصباح) على هتك جدر هذا

(١) سالم المعوش، عندما تمطر السّماء حنيناً، ص ٩٨.

(٢) علي زيتون، أدبيّة الرّواية في ضوء المنهج الثّقافي السّيميائي، ص ٦.

(٣) عنوان بحث للأستاذ الدكتور سالم المعوش: التّصوّف سبيل إلى وحدة المشاعر الإنسانيّة، منشورات جامعة أدرار، الملتقى الدّولي الحادي عشر عن التّصوّف في الإسلام والتّحديات المعاصرة، المطبعة العربيّة، ٢٠٠٨ - ٢٠٠٩، عدد ١، ج ٢.

- الصّمت، ونطقتْ بالمسكوت عنه كان عقابها
الدّمار واللقاء في مهاوي اليأس، متلقيةً
تأديباً موجعاً من القوى الظلامية المجهولة
التي يقضّ مضجعها قول الحقيقة.
- وإذا كان الرّواي، في الرّوايتين، متعدّد
الأصوات، منوع المصادر والآراء، إلاّ أنّه
كان يشير إلى أنا الرّواي الأساس الذي
اختزل هذه الأصوات في محوريّة ذاتية غير
اعتدائية، تهيل على النصّ فردانيّتها من دون
تسلّط، ولا انتفاخ، بل بقيت قريبة من الواقع
الذي كان يشهد تعاضماً للأنا وتفرداً غير
مسبوق في التّعامل فيما يجري ويشير إلى
أزمة كبرى تعيشها هذه الدّات، سرعان ما
انفجرت زيفاً في الرّبيع العربي المزعوم.
- ### المصادر والصادر
- ١ - ابن عربي، محيي الدّين. ترجمان الأشواق،
بيروت، دار صادر، (لا. ط)، ١٩٦٦
 - ٢ - بدير، شعبان أحمد. «الجمال في الشّعْر الصّوفي»،
مجلة حوليات التّراث، منشورات جامعة مستغانم،
الجزائر، ٢٠٠٨، عدد ٨.
 - ٣ - برنس، جبرالد. قاموس السّرديات، تر. السيّد
إمام، القاهرة، ميريت للنشر والمعلومات، ط١،
٢٠٠٣.
 - ٤ - حمدون، سعاد. صورة المثقّف في روايات بشير
مفتي، رسالة ماجستير، إشراف الدّكتور لبوخ
بوجمليين، الجزائر، جامعة قاصدي مرباح -
ورقلة، ٢٠٠٩ - ٢٠١٠.
 - ٥ - رحمانني، قدور. بنية الخطاب الشّعري في
الفتوحات المكيّة لابن عربي، أطروحة دكتوراه،
إشراف الدّكتور حميدي خميسي، الجزائر، جامعة
الجزائر، ٢٠٠٥ - ٢٠٠٦.
- ٦ - زيتون، علي:
في مدار التّقد الأدبي: الثقافة - المكان - القصّ،
بيروت، دار الفارابي، ط١، ٢٠١١.
 - ٧ - سويدان، سامي. أبحاث في النصّ الرّوائي العربي،
بيروت، دار الآداب، ط١، ٢٠٠٠.
 - ٨ - العجمي، مرسل فالح. الواقع والتّخييل - أبحاث
في السّرد: نظيراً وتطبيقاً، سلسلة نوافذ المعرفة،
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،
(لا. ط)، (لا. ت).
 - ٩ - المعوش، سالم:
التّصوّف سبيل إلى وحدة المشاعر الإنسانيّة،
منشورات جامعة أدرار، الملتقى الدّولي الحادي
عشر عن التّصوّف في الإسلام والتّحدّيات
المعاصرة، المطبعة العربيّة، ٢٠٠٨ - ٢٠٠٩،
عدد ١، ج ٢.
 - ١٠ - نصر، عطف جودة. الرّمز الشّعري عند الصّوفيّة،
بيروت، دار الأندلس، ط٣، ١٩٨٣.
 - ١١ - وادي، طه. الرّواية السّياسيّة، الشّركة المصريّة
العالميّة للنشر - لونيجمان، (لا. ط)، (لا. ت).
 - ١٢ - يقطين، سعيد. قضايا الرّواية العربيّة الجديدة:
الوجود والحدود، بيروت - الجزائر، الدّار العربيّة
للعلوم ناشرون ومنشورات الاختلاف، ط١،
٢٠١٢.
 - ١٣ - الموقع الإلكتروني: <https://www.bidayatmag.com>
خريف ٢٠١٦.

جدلية اللذة والألم في شعر حسين فرّان من خلال الواقع العربي المأزوم والتغلب عليه

حسين حسن بلحص

الحرية على مدى الأفق العربي، قائلاً: «من أطراف الجزيرة إلى جبهة لبنان تمتد إليك الأيدي مرتعشةً بنزعة الموت، ومن شاطئ الخليج إلى أذيال الصحراء ترتفع نوح الأعين مغمورةً بذوبان الأفئدة»^(٢)، وإذ يتطلع الشعراء إلى فداحة الأزمة القائمة، فإنهم يتساءلون عن بواعثها. يقول السيّاب: «مَنْ جَوَّعَ صِغَارَكَ يَا وَطَنِي، أَشْبَعْتَ الْغَرْبَ وَغَرْبَانَهُ

صَحْرَاءَ مِنَ الدَّمِ تَعْوِي، تَرْجُفُ مَقْرُورَةً
وَمَرَابِطُ حَيْلٍ مَهْجُورَةً
وَمَقَابِرُ يَنْشِجُ مَوْتَاهَا»^(٣)

ولم ينته ألم الشعراء عند حدود المشكلات القائمة، بل أعلنوا تخوفهم من تحقق ما هو أشدّ وأدهى. فهذا الجواهري

إنّ الأزمات التي يمرّ بها الوطن العربي من أقصاه إلى أقصاه جعلت الإنسان العربي يتململ، ويكثر من الشكوى والتذمّر. ولعلّ الأزمات والنكسات السياسيّة، المتمثّلة بالأنظمة غير الديمقراطيّة، والتدخلات الأجنبيّة، هي من أكثر القضايا محلّ الاستياء والتألم لدى المواطن العربي. وقد ترك هذا المشهد المؤلم أثراً بيناً على أقلام الأدباء والشعراء، فعبروا عن توجّعهم وأطلقوا صرخاتهم ناقدين، رافضين هذا الواقع. فهذا الشاعر القرويّ يشير إلى امتداد الأزمة على مساحة الوطن العربي، قائلاً من الكامل:

«فَمِنْ الْعِرَاقِ إِلَى الشَّامِ شِكَايَةٌ
وَمِنْ الشَّامِ إِلَى رُبَى لُبْنَانَ»^(١)
وهذا جبران خليل جبران يُخاطب

(١) الخوري، رشيد سليم. ديوان الشاعر القرويّ. ص: ٥٥٠.

(٢) جبران، جبران خليل. المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران العربيّة. ص: ٢٠٣.

(٣) حاوي، إيليا. بدر شاكر السيّاب. بيروت، دار الكتاب اللبناني، ج ١. البواكير. ط ٣، ١٩٨٣، ص: ٨٧.

يُبدى خوفه من ضياع فلسطين تماماً كما ضاعت الأندلس، بل يخاف من ضياع ما هو أبلغ قداسةً، وهو الإطاحةُ بعمق القداسة العربية، وأهم شعيرة دينية لديها. يقول من البسيط:

«فَاضَتْ جُرُوحُ فِلِسْطِينَ مُذَكَّرَةً
جُرْحاً بِأَنْدَلُسٍ لِأَنَّ مَا التَّمَامَا
سَيُلْجِقُونَ فِلِسْطِينَ بِأَنْدَلُسٍ
وَيُعْطِفُونَ عَلَيْهَا الْبَيْتَ وَالْحَرَمَا»^(١)

وأمام هذا المشهد المظلم أخذ الشعراء يُعبّرون عن آلامهم العميقة، فاضحين الواقع المزري، رافضين هذه المظلومية، ومنتقدين الحكّام العرب. يقول نزار قبّاني:

«مُقْتَلَعُونَ نَحْنُ كَالْأَشْجَارِ مِنْ
مَكَانِنَا...»

مُهَجَّرُونَ مِنْ أَمَانِينَا، وَذِكْرِيَاتِنَا
حُكَّامُنَا إِلَهَةٌ يَجْرِي الدَّمُ الْأَزْرَقُ فِي
عُرُوقِهِمْ
وَنَحْنُ نَسْلُ الْجَارِيَّةِ»^(٢)

وذاك خليل مطران كانت حياته «حكاية

الصّراع الدائب مع الواقع المرير منذ نعومة الأظفار إلى نهاية العمر، سواء تمثّل الواقع في المستعمرين الغاشمين، أو في الحكّام المستبدين»^(٣). هذا، وإذا كانت ردّة فعل الشعراء هي على كثير من المرارة الممزوجة بالخجل جرّاء ما أصاب الأمة من تحوّل من الرّيادة إلى التّبعيّة كما يشي قول نزار:

«وَاحْجَلَةَ الْأَشْرَافِ مِنْ قُرَيْشٍ»^(٤)

فإنّ ردّة فعلهم قد اصطحبت أيضاً بحرارة الثّورة، فدعوا إلى انتفاضة تقلب الواقع، وتُعطي الحقّ لأهله. يقول صلاح لبكي من الطّويل: المتقارب

«أَلَا فَاَنْفُضِي الذُّلَّ عَنْكَ وَقَوْمِي
بِلَادِي عَلَى زَعْرَدَاتِ النَّفِيرِ»^(٥)

وهذا القرويّ يقول، من الطّويل، متفائلاً بثورة قومية عارمة:

«لَنَا كُلُّ يَوْمٍ غَضَبَةٌ مَضْرِيَّةٌ
تُبْرَهُنُ أَنْ الْحَقَّ كَاللَّهِ أَكْبَرُ»^(٦)

وأمام انصراف شريحة من الأمة عن

(١) الجواهري، محمّد مهدي. ديوان الجواهري. ص: ١٥٧.

(٢) قبّاني، نزار. الأعمال السّياسيّة الكاملة. ج٦، ص: ١٠٩.

(٣) عطوي، فوزي. خليل مطران شاعر الأقطار العربيّة. بيروت، دار الفكر العربيّ، ط١، ١٩٨٩. ص: ٣٩.

(٤) قبّاني، نزار. المصدر نفسه. ص: ٤٨٨.

(٥) لبكي، صلاح. الأعمال الكاملة. بيروت، المؤسّسة الجامعيّة للدراسات والنّشر والتّوزيع. ط١، ١٩٨١. ص: ٣٦.

(٦) الخوري، رشيد سليم. ديوان الشّاعر القرويّ. ص: ٤٩٧.

الحرية، مستكينة كما يقول الجواهري من مجزوء الكامل:

«لَمْ يَعْرِفُوا لَوْنَ السَّمَاءِ

لِفَرْطِ مَا انْحَنَتِ الرَّقَابُ»^(١)

فإن ذوات الشعراء قد انصرفت إلى التّعويل على النشء، مُراهنةً عليه للخروج من الأزمة الراهنة. فهذا نزار قبّاني يتحدث عن «الجيل الذي سيهزم الهزيمة»^(٢)، وذلك القروي يلتفت إلى جيل الشباب داعياً إياه إلى الثورة، إذ يقول من مجزوء الكامل:

«ثَبُّ يَا شَبَابَ الْعُرْبِ ثَبُّ

مَشَتْ الشُّعُوبُ وَأَنْتَ نَائِمٌ»^(٣)

وجيال مواقف الشعراء هذه المتراوحة بين الألم جزاء الواقع العربي المأزوم، والمشبعة بالنقد والغضب، والدعوة إلى الثورة والتغيير، والتي راهنت كثيراً على الجيل الناشئ، نسأل: كيف بدت مواقف حسين فرّان أمام المأزق والانتكاسات العربية؟ وكيف نظر إلى الحكام العرب؟ وعلامَ راهن للخلاص من الأزمات المتراكمة؟ وكيف بحث عن الأمل والفكك في أجواء الألم الممتد؟ علماً أن صور مسقط رأس الشاعر، عاشت ما عاشه الوطن العربي من أحداث، وكانت وإياه في دربٍ واحدٍ من مشوار الألم والأمل.

أولاً - ملفوظة التفرّغ من خلال التمرّد على الانتكاسات العربية، ورفض خيارات الصمت

إن الغضب والامتعاض جزاء الواقع العربي المأزوم، قد تسرباً إلى قلب فرّان، فأثاراه ودقاً أعصابه دقاً، فإذا به يرفض، بقوة، انسلاخ الجياد العربية عن الميدان، ويعترض على الرايات القومية المنكّسة، وقد كانت تُنطاح النجوم في شواهدها. فاستمع إليه يُخاطب بدويّ الجبل، شاكياً ما أصاب الأمة العربية من تخاذل وتقهقر طلالا وامتدداً كثيراً، حتى بات مجدها من الماضي الغابر، وأضحى نهارها ليلاً حالكاً؛ فهي تهيم في متاهة الضياع مُنهكة، وطال انتظارها وليس هناك ما يبعث على الأمل بدنو الربيع. يقول من البسيط، والقافية من المتواتر:

«أَبَا الْقَوَافِي أَطَالَ الدَّهْرُ قِصَّتَنَا

وَضَيِّعَ الْعَهْدِ أَحْبَابُ وَخِلَانُ

مَاذَا أَحَدْتُ هَلْ أَنْبِيكَ عَنْ قَمَرٍ

قَدْ شَرَدَتْهُ مَسَافَاتٌ وَأَزْمَانُ

وَعَنْ نُجُومٍ بِهَذَا اللَّيْلِ مُطْفَأَةٌ

وَقَدْ جَفَّتْهَا مَدَارَاتٌ وَأَجْفَانُ

(١) بيضون، حيدر. محمد مهدي الجواهري شاعر العراق الأكبر. بيروت، دار الكتب العلمية. ١٩٩٣. ص: ٧٣.

(٢) قبّاني، نزار. المصدر نفسه. ص: ٤٩٧.

(٣) الخوري، رشيد سليم. ديوان الشاعر القروي. ص: ٤٩٩.

وَعَنْ عُيُونٍ بِهَذَا الْقَفْرِ مُتَعَبَةً
وَقَدْ تَعَرَّتْ مِنَ الْأُورَاقِ أَغْصَانُ؟»^(١)

إِنِّي لِأَسْأَلُ عَنْ قَوْمِي وَعَزْبَتِهِمْ
مَتَى تَفِيْقُ مِنَ الْأَضْغَانِ خِصْيَانُ»^(٢)

فهاتان الصيغتان الإنشائيتان: النداء (أبا القوافي)، والاستفهام (ماذا أحدث هل أنبيك عن قمر...؟)، جاءتا مشبعتين بمشاعر القهر والإحباط اللذين يشيران إلى أن قلب الشاعر يختزن حساً خبيئاً من العزة المتململة التي تبحث عن مخرج لتنفلت منه انفلات السيل وقد أغضبت السدود.

فضمير المتكلم حاضر بشكل ملحوظ في الأبيات أعلاه (رحت، أندب، قومي، عيني...). وهو يفيد عن الحضور الوجداني للشاعر فيها؛ فهو يبدو محترقاً بين نارين: نار الماضي المجيد المنصرم، ونار الواقع المتردي، ويستحيل الشاعر بينهما كالأعمى يمدّ يده بحثاً عن جدار يلوذ إليه من هذا العثار. ثم إن تردّي واقع الأمة العربيّة جعله يعبر عن عاصفة تدور في الأعماق، وتشاء التسرّب من لاوعيه إلى دنيا وعيه وأناه لتكون تعويضاً له عن عقدة النقص التي تنكأ روحه، وتقض مضجعه.

وإن شاعرنا، وفي القصيدة نفسها، يُحدّق في واقع الأمة اليوم، فتسيئه تلك الذلّة التي استبدلت بالسيف الصّقل، والصولات الموفّقة التي كانت تعيشها الأمة العربيّة. وهي إذ أفلت فإنّ المجد قد أفل، مُخلفاً قذّي في العين، وجرحاً في الوجدان، فلا سرور يعلو المحيّا، ولا تيه يملأ الفؤاد، بل ألمٌ مستطير يدفع ذات الشاعر إلى طرّق باب الماضي العربيّ المجيد لعله يستفيق، فتزول كربات الدلّ والاستكانة. يقول:

وهكذا هو فرّان كثير الطرّق على ما يعتقده أساً لحضارة عتيقة نعمت بها الأمة العربيّة رداً من الرّمن، وإنّه يشير، والقلب مجروح، إلى تلك الأيام الغابرة المثقلة بالبطولات الضاربة، والأصل الشّريف؛ فهي أيام مجدٍ منصرف كان العرب فيها ذوي حضارة صائتة، وعلمٍ عريض تشرب الأمم من عصارته، وتبصر على ضوء ناره. يقول من الخفيف، والقافية من المتواتر:

«وَالْيَوْمَ غَابَتْ عَنِ الْجُلَى صَوَارِمُنَا
لَمْ يَبْقَ مِنْهَا لِيَوْمِ الرَّوْعِ مِرَانُ
تَعَرَّبَ الْمَجْدُ عَنْ عَيْنِي وَعَنْ كَبْدِي
وَرُحْتُ أَنْدُبُ مَنْ كَانُوا وَمَنْ بَانُوا
وَبُومَةُ اللَّيْلِ فِي السُّلْطَانِ نَاعِيَةً
مَا عَادَ فَوْقَ السُّرُوجِ الْحُمْرِ عُقْبَانُ

«يَا انْتِخَاءَ السُّرُوجِ أَيَّنَ زَمَانُ
حَمَلَ السَّرْجُ مَا جَدًّا أَوْ أَثِيلاً

(١) فرّان، حسين. الأعمدة. ص: ٢٠-٢٤.

(٢) فرّان، حسين. المصدر نفسه. ص: ٢٤.

يَوْمَ كُنَّا بِكُلِّ أَفْقٍ شِهَاباً

يَمْنَحُ الْحُسْنَ مُبْصِراً أَوْ كَلِيلاً»^(١)

وهذان البيتان يستدعيان قول رشيد سليم الخوري من مجزوء الكامل:

«نَحْنُ الْأَلَى سُدْنَا الشُّعْو

بَ وَنَحْنُ مَدَنَّا الْأَمَمُ»^(٢)

وهذه الرّمزيّة التّصويريّة عند فرّان (سروج، حمل السّرج، شهاباً، كليلاً،...)، تمثّل مغلفاً تتّخذ بواطنُ الشّاعر وسيلةً تخفّ تعبر بواسطته من الطبّقات العميقة إلى صريح الأنا. وإنّ جياد الشّاعر إذ تصل على عتبة القوّة الدّاهية، فذلك من أجل دعوتها إلى التّهوض من نومها الصّفيق في أحضان الماضي. وإنّ هذه الوقفة تفيّد أنّ شاعرنا يقع تحت سحر الهيمنة والجدب اللّذين يأسران كيانه، ويملكان عليه نفسه، ويشيان بأنه يتّخذ من الماضي وسيلة لفضح الواقع العربيّ المتردّي، والنّمرد عليه. وكأنّ وقفة فرّان على أعتاب الماضي العربيّ المنصرم تُحاكي وقفة نزار قبّاني التي تنمّ عن استشعاره الفارق بين ماضي العظيمة والمجد الرّائل، إذ يقول: «أقف على

عظام كبريائي»^(٣). وهي تبقى وقفة تحدّ ترفض الاستسلام والسّكوت وتستبطن نقدّ الواقع.

وكثيراً ما يمتزج الألم والغضب أو يقعان متجاورين جنباً إلى جنب في شعر فرّان، شأنهما شأن تجاور ماضي العزّة والواقع المزري في خلد الشّاعر. ولعلّ في ذلك دلالة صادقة على أنّ الألم هو «الهُوبُ ثورةٍ ورجعٌ صدى»؛ فشاعرنا كان يُمارس ارتداداً إلى الماضي مع كلّ أزمة طارئة كمظهرٍ من مظاهر الرّفص والتأزّم من لدنه. فها هي نكبة بيروت إبّان الاجتياح الإسرائيليّ للبنان وحصارها من قبل القوّة الغازية، تخضّ خاطره، وتبعثُ فيه الغضب والأسى، وتجعله يتململ ساخطاً من تردّي الواقع، فيندفع القهقري صوب ماضي المجد، مُتذكراً إيّاه تذكراً يُشعرك بسخطه. فيقول من الكامل، والقافية من المتواتر:

«ثَمَلْتُ كُؤُوسَ مَنْ دِنَانِ جِرَاحِي

وَأَتَيْتُ أَحْمِلُ غَضْبَتِي وَكِفَاحِي»^(*)

وَتَرَكْتُ فِي بَيْرُوتَ لَيْلاً مُوجِعاً

وَتَرَكْتُ أَهْلاً فِي مَهَبِّ رِيَّاحِ

(١) فرّان، حسين. الأعمدة. ص: ٢٦.

(٢) الخوري، رشيد سليم. ديوان الشّاعر القرويّ. ص: ٥٤٧.

(٣) قبّاني، نزار. الأعمال السّياسيّة الكاملة. الجزء السّادس. ص: ٤٣٣.

(*) ثمالة الكأس: ما بقي في قعرها. دنان: إناء.

بِالْأَمْسِ كَانُوا فَوْقَ كُلِّ مَطِيَّةٍ
لُبْدًا بِعَزْمٍ قَاطِعٍ نَضَّاحٍ (*)
وَالْيَوْمَ يَفْحَمْنَا الْعَدُوُّ بِحَيْلِهِ
لَكَأَنَّنا نَصَبٌ بِأَلَا أَرْوَاحٍ» (١)

فالشاعر يُعبّر بمرارة عن غروب شمس
القوة العربيّة، وتبخّر بطولاتها، وأمحاء
أمارات الغلبة، وتحول دنياها تحوّلًا خطيرًا
من تمام الفلاح إلى تمام السقوط. إنّ هذا
الشّعور المشبع دهشةً واستياءً بسبب
انصراف القوة يُحاكي دهشة فؤاد سليمان،
معبّرًا عن استيائه بسبب انحراف أعمال
النّزال، وتضييع درب البطولة. فهو يقول:

«أَفِي بِلَادِي تَهَانُ بَطُولَةُ الرَّصَاصِ
وَتَعْوِي أَعَانِيهِ عَوَاءٌ
أَفِي غَيْرِ بِلَادِي مِنْ أُمَّمِ الْأَرْضِ تُهْدَرُ
كَرَامَاتِ الرَّصَاصِ؟» (٢)

وهكذا لم يعد للشاعر من الماضي إلا
أطلالٌ يستعيدها من شريط ذاكرة الأمة،
فتنتابه لحظة عاطفيّة يكاد أن يُعبّر عنها
شوقي، مخاطبًا قلبه إذ يقول من الكامل:

«وَالْيَوْمَ تَبَعْتُ فِي حِينِ نَهْرُنِي
مَا يَبَعْتُ النَّاقُوسُ فِي النَّسَاكِ» (٣)

هذا، ويمكن القول إنّ الواقع المؤلم قد

أصبح المحرّض لمكبوتات الشّاعر، وأصبح
الماضي محلّ إشباع مُرتجى لرغبته،
ومفرغاً لألمه، ومهرباً يلوذُ إليه لتخفيف
هذه الشّحنة النّفسيّة المتأجّجة؛ فهو إذ
يُحدّق بالواقع المزري، يرتدّ مباشرة إلى
الماضي المجيد عبر حركةٍ لا شعوريّة
تبتغي تعويض النقص المستشعر بسبب
القصور العربيّ الرّاهن، ورفض الحالة التي
هو عليها، والتعبير عن الإشمئزاز حيالها.

واستمع إلى فرّان شاعرنا، مُعبّرًا عن
انصراف القوة العربيّة وفنون الغلبة
انصرافاً يحمل معه عزّة الأمة، وكريم
فتوحاتها التي أمست مِرْقاً تنوشها الأعداء
الكواسر، وإذا بالعرب يغدون مغمورين لا
ذِكْرَ لهم، ولا مفاعيل لانتصاراتهم العتيقة.
حتّى باتت حالتها المجيدة من حكايا
الماضي، بل باتت في قبضة الموت. وإنّ
هذا التعبير من لدن الشاعر محشوّ بصرخة
المتألّم الذي لا يني يُشير إلى الأذى إشارةً
رافضاً أن يلحس المبرد. يقول من الخفيف،
والقافية من المتواتر:

«قَدْ نَأَى الرَّكْبُ وَأَنْطَوَى الْحَدَثَانُ
لَا تَسْلُهُ، فَلَنْ يُجِيبَ الزَّمَانُ (*)
أَيْنَ ذَاكَ الصَّلِيلِ، تَلْتَهَبُ الْبِيدُ
فَتَرْهُو، وَلَمْ يَضُرْهَا سِنَانُ

(١) فرّان، حسين. الأعمدة. ص: ٥٦-٥٧.

(٢) شوقي، أحمد. ديوان أحمد شوقي. ص: ٣٩١.

قَدْ حَمَلْنَا الْفُتُوحَ فَوْقَ سَيْوِفٍ
 مِنْ مَعَدٍّ وَلَمْ يَفْلَ الطَّعَانُ
 غَيْرَ أَنَّ الْفُتُوحَ أَنْكَرَهَا الْعَدْرُ
 وَغَابَ الصَّهِيلُ وَالْمَيْدَانُ
 فَلِدَاتُ الْفُتُوحِ أَمَسَتْ سَبَايَا
 وَسَبَايَا الْفُتُوحِ هُنَّ الْحَصَانُ (*)
 أُمَّةُ الْفَنْجِ قَدْ طَوَّتْهَا حُنُوفٌ
 هَانَتْ الْخَيْلُ فِي الشَّكِيمِ وَهَانُوا
 وَخَشَةُ الْقَبْرِ مَقْصِدٌ وَرَجَاءٌ
 أَيْنَ ذَاكَ الشُّمُوحُ وَالْعُنْفُوانُ» (١)

إنّ تذرّم الشاعر من ذلّة العرب اليوم يسوقنا إلى قول جبران، مخاطباً الأمة العربيّة: «سيوفكم مغلفةً بالصدأ، ورماحكم مكسورة الحراب، وتروسكم مغروسة في التراب» (٢). وإنّ ألمه الناتج من هذه المفارقة بين ماضي العرب وواقعهم، يكاد يكون صدى لقول الجواهري:

«يَا نَائِمِينَ عَلَى الْأَدَى لَا شَامُكُمْ
 شَامٌ وَلَا بَغْدَانُكُمْ بَغْدَادُ
 أَعَزُّ عَلَى الْأَجْدَادِ وَهِيَ رَمَائِمُ
 أَنَّ لَا تُعَزَّ تَرَاثِمُ الْأَحْفَادُ» (٣)
 ولكنّ فرّان في رحلة الألم هذه يأبى

التّسليم للهزيمة، بل إنّه يبقى متفائلاً، ويرى أنّ هذه الآلام هي أفلة لا محالة، وأنّ ما يجري هو استراحة المحارب الذي سينهض من جديد، وعمّا قريب ليُعيد إنتاج مشهد النّصر الذي سيملاً قلب الشّاعر. إذ يقول، من الخفيف، والقافية من المتواتر، في لامية عنوانها: «أيقظِ الحلم»:

«مَا نَبَا السَّيْفُ نَهْدَةً وَصَلِيلاً
 إِنَّهُ السَّاحُ يَسْتَرِيحُ قَلِيلاً
 إِنَّهُ الْبَدْرُ أَسْقَمْتُهُ اللَّيَالِي
 فَمَحُونًا عَنْ وَجْنَتَيْهِ النُّحُولًا» (٤)

والشّاعر، إذ يرفض النّكسات في الواقع العربي، يؤكّد خيارات التّحدّي في مواجهة خيارات السّفوط عند الألم، ويأبى الاستكانة إلى تجرّع الألم، ويدعو إلى انتفاضة تستبدل الفعل بالقول، وتحفظ إرث المجد العربي. فيقول:

«يَا لَذَلَّ الْفُتُوحِ إِنَّ أُعْمِدَ السَّيْفُ
 وَكَانَ ادُّعَاؤُهُ مَنُحُولًا
 أَنْطِقِ الْقَلْبَ قَدْ حَنَقْنَا شَجَانًا
 وَاجْعَلِ الْقَوْلَ صَارِمًا مَسْلُولًا» (٥)

هذا، وكأنّ الشّاعر يلجأ إلى فعل التّبرير للتّخلّص من عقدة الهزائم؛ فهو يردّ هذه

(*) الحصان: المتزوّجات.

(١) فرّان، حسين. الأعمدة: ص: ١٠٢-١٠٣-١٠٤.

(٢) جبران، جبران خليل. المجموعة الكاملة لمؤلّفات جبران خليل جبران العربيّة. ص: ٤٥٩.

(٣) الجواهري، محمّد مهدي. ديوان الجواهري. ص: ٤٣.

(٤) فرّان، حسين، الأعمدة. ص: ٢٦.

(٥) المصدر نفسه ٢٧.

فالشاعر كلِّما امتلأت نفسه أذى من
مرارة الواقع، يعمل على تفرغها، مُحافظاً
على مشاعر النَّفائل، منعاً للسَّقوط التَّامِّ.
لذلك يرفعُ صوته مُقرِّعاً أولئك الصَّامتين
المتخاذلين من ذوي النَّفوس الضَّعيفة اللّذين
يبعثون الألم في الواقع. ولكنَّ الخلاص آتٍ،
وستأتي معه عزّة الأُمَّة، وذلك لا بسلوك
مسالك الجبناء، بل بأعمال الثَّورة الواعدة.
فيقول:

«أَيُّهَا النَّائِهُونَ فِي زَحْمَةِ الْجُبْنِ
وَدَرْبِ مَعَ الْجَبَانِ يَطُولُ
ذَاكَ قَلْبِي فِي وَخْشَةِ الدَّرْبِ وَعُدَّ
وَشِعَاعَ عَلَى الظَّلَامِ يَجُولُ
صَحْوَةٌ الْعِزِّ فِي الصِّيَالِ سَتَنْمُو
كُلَّمَا ضَجَّ فِي الصِّيَالِ الصَّلِيلُ»^(٣) (*)

وإنَّ ثقةَ الشَّاعر فرَّان بعنديات أمته تمدّه
دوماً بأطيب المعنويّات التي يعتدُّ بها
لمواجهة أمارات الانتكاسات، وصمّت
المتخاذلين. لذلك كثيراً ما يُقابل بين
مُعطيات الألم، ومُعطيات الأمل، ويضعها
جنباً إلى جنب في إخراج لا شعوريّ ينبعث
من أعماق الشَّاعر، ويهدف إلى إزاحة
العذاب المتأثّي من تردّي الواقع عبر شحنة
الأمل المتأثّية من كنوز الأُمَّة المخبوءة في

الهزائم لا إلى ذلّةٍ مُستحكمةٍ في الأُمَّة، بل
إلى جماعة من الأذلاء، وذوي الصَّغار ممَّن
لا يمتلكون ما للأُمَّة من شموخٍ وعنادٍ وإباء،
ويُسقط المسؤولية عليهم، ويحيلها عن أمته
نحو هذه الجماعة. يقول، من الخفيف،
والقافية من المتواتر في قصيدة «صحوّة
العزِّ في الصِّيال ستنمو»:

«لِمَنْ الْمُهْرُ وَالْحُسَامُ الصَّقِيلُ
ضَيَّعَ الْفَتْحَ وَالشُّمُوحَ الدَّلِيلُ
ضَيَّعَ الْفَتْحَ وَالشُّمُوحَ صِغَارُ
لَيْسَ لِلْفَتْحِ مُثْقَلٌ أَوْ عَلِيلُ»^(١)

ثمَّ إنَّ الشَّاعر يُشيع ناظره في الأُمَّة،
فيذا به يجدُ فيها ما يُرَمِّمُ ذاته المكسورة،
يجدُ رجالاً من أهل النَّخوة، والنَّفوس الكبار
قادرين على إحداثِ تحوّلٍ جذريّ في الواقع
العربيّ، وعليهم يقع الرّهان لإنجاز ما
تطمح إليه الأُمَّة وذات الشَّاعر من كرامةٍ
ومِنعةٍ. يقول:

«إِنَّ صَيْدَ الرَّجَالِ فِي زَحْمَةِ اللَّيْلِ
شُعَاعٌ وَمَوْعِدٌ مَأْمُولٌ (*)
أَيُّنَ أَيُّنَ الرَّجَالِ تَنْهَدُ لِلرَّوْعِ
وَيُمْحَى عَنِ السُّيُوفِ الصَّقِيلِ
مَطْلَعُ الْفَجْرِ قَدْ يَخَافُ جَبَانَ
غَيْرَ أَنَّ الشُّجَاعَ حَيْلٌ تَصُولُ»^(٢)

(*) الصيال: السطوة والإقدام.
(٣) المصدر نفسه. ص: ٣٧-٣٨.
(*) الصليل: صوت وقع حديد السيوف.

(١) فرّان، حسين. الأعمدة. ص: ٣٤.
(*) صيد الرجال: الرجال الشامخة الكبار.
(٢) فرّان، حسين. الأعمدة. ص: ٣٥.

قرارة الشّاعر نفسه من شجاعة وإقدام...
وكأنّ ذاته تتحرّك تلقائياً عند استشعار
الأزمة، مُستحضرةً ممّا تُكَنُّهُ من لوازم
القوّة ليكونَ ذلك وسيلةً تماسكٍ لها، ودعامةً
تحولُ دون اعترافها بالهزيمة. فيقول من
الكامل، والقافية من المتدارك في قصيدةٍ
يتوجّه بها إلى شهداء المقاومة في صور
وجبل عامل. عنوانها: «قسماً بيومك»:

«وَلَنَحْنُ رُغَمَ الدَّاهِيَاتِ مُرِيعةً
فِي كُلِّ شَطِّ مَرْفَأٍ وَمَنَارٍ
هَآ نَحْنُ رُغَمَ النَّاكِثِينَ وَخَزِيهِمْ
فِي كُلِّ أَفْقٍ قِبَّةً وَمَرَازٍ
حَتَّى إِذَا حَمِيَ الوَطِيسُ (*) نَبَلَجَتْ
مِنْ خَلْفِ غَاشِيَةِ الجِرَاحِ النَّارُ»^(١)(**)

فالشّاعر يقابل بين عناصر الألم
(الداهيات مريعة، الناكثين، خزيمهم،...)، وبين
عناصر الأمل (مرفاً، منار، في كلّ أفق قبة،
مزار، النار،...)، مُفوّقاً الأمل على الألم في
مسعى تهديمٍ وبناء، غرضه تهديم الألم
ومشاعر الإحباط وعزلها، وتعزيز مشاعر
الأمل. وهذا المسعى هو حيلة تلجأ إليها
ذاتُ الشّاعر كسبيل إلى الممانعة، والاحتماء
من مخاطر الإحباط.

ولمّا كان المأزم النّفسيّ عائداً إلى
التّعارض بين مبدأي: اللّذة والواقع، فإنّ هذا
المأزم النّفسيّ قد أصاب الشّاعر جرّاء

استشعاره التّعارض بين مبدأ اللّذة المركون
في لاوعيه، والذي تجلّى عبر شكل الرّغبة
ببلوغ اللّذة من خلال تفوّق الأمّة، وبين مبدأ
الواقع الذي يُعيق تحقيق هذه اللّذة من
خلال أزمات الواقع المتلاحقة. وقد وجدت
ذات الشّاعر متنفساً لهذه اللّذة من خلال
التّعبير الوجدانيّ الذي سمح لها بتفريغ
هذه الشّحنة النّفسيّة، والتّمرد على
الانتكاسات، ورفض خيارات الصّمت. وقد
كانت ذاتها تتعلّل بالأمل لتحقيق اللّذة
والتّخلّص من الألم المعيق، جاعلةً من بعض
مُعطيات التّفاؤل تعويضاً مُشبعاً لها،
ومُفرغاً لطاقاتها.

يشكو الشّاعر فرّان من تغيّر الزّمان،
وبينما هو ينظر إلى بيارق الأمّة، وهي بين
مُنكسة ومُعفّرة، وإلى عبقرية الجدود، وهي
أثرٌ بعد عين، يكاد يعيش القنوط لولا بقيّة
أمل مركونة في نفسه مانعة إيّاه من مهالك
ذلك. وهي بقيّة تعرف ذات الشّاعر كيف
تتنسّم عطرها، ذلك أنّه دائم الإلحاح على
مواطن القوّة حتّى تستحيل قريبة أكثر في
خلده، بل حاضرة في وعيه. فإذا كان
الإكثار من ذكر معالم القوّة والأمل يشي
بحزنه واستيائه من الواقع العربيّ السيّئ
ورفضه إيّاه، فإنّه من ناحية ثانية يفيد عن
حضورها في باله كسلوان له وأنيس. ولعلّ
في الإلحاح على تذكرها حيلةً نفسيّةً

(**) غاشية: غطاء.

(*) الوطيس: اشتداد الحرب.

(١) فرّان، حسين. الأعمدة. ص: ٤٥.

لاستنبات بعضها في قرارة نفسه تدعيماً لها. وذلك كما يقول صاحب المفكرة الريفية: «يضرب المعول الأرض ألف مرّة، قبل أن تخرج نبتة خضراء»^(١) ثم إن الشاعر كان يلجأ إلى الهدم والبناء؛ يهدم أفق الهزيمة المتمثل بالناكثين والخونة والجبنة...، ويبني صرح منعشي الأمل من الرجال النجباء. وفي هذا مؤشراً إلى رفضه مُهادنة الهزيمة، والاعتراف بها

وهكذا، إذا كان «الأدب هو مرآة الواقع... والكتابة تترجم حقائق زمنها»^(٢)، فإن شعر فران ينطق بتلك الآلام التي تُصيب قومه والوطن العربي، مُرفقاً ذلك بالتذمر. وإنه جبال الواقع العربي المأزوم تتولد لديه رغبة تعويضية تتمظهر بما يشبه أحلام اليقظة؛ إذ يفرّ من الواقع المذكور إلى نبش الماضي العربي المشرق، واستعادة أمجاده من طبقات لا وعيه موطن كبتها ليكون بديلاً يُلبّي رغبتها إلى السلامة.

ثانياً - الموروث القيمي، والأنا الأعلى* في مواجهة جشع الحكام العرب وتخاذلهم

إنّ الأمة العربيّة تكاد تجتمع على رأي يتحدث عن وجود خللٍ سياسيٍ خطيرٍ يبدأ

من رأس الهرم في السّلطات القائمة، وهذا الخللُ يترك أثراً ملموساً في أكثر من اتجاه، وقد تناولته الأقلامُ والمنابر، وطرحته سراً وعلانيةً. وكان للشعراء أزيزُ أقلامهم، وصخب حناجرهم في مقاربة هذا الموضوع. وإذا كان الشاعرُ كالوردة يقلق لأيسر اللّمس، فما بالك والخطب جليلٌ، وهو يبلغ بنتائج شؤون البلاد والعباد، وقضايا المعاش والنّظام؟ ثم إنّ الديكتاتوريات هي نقيض الحرّيات ما يتسبّب باصطفافٍ على طرفي نقيض بين من تُضِرّ الحرّية بمصالحه، وتنسف أنانيته، وبين من الحرّية خبره، والهواء الذي يتنشّقه. وهل الشعرُ غيرُ الكلمة الحرّة التي تخرج على رسلها من الأعماق من دون أن تستأذن أحداً سوى خفيّ الفؤاد وطبقات المشاعر؟

فهذا جبران خليل جبران يقول: «لو ثار قومي على حكّامهم الطّغاة، وماتوا جميعاً لقلتُ إنّ الموت في سبيل الحرّية أشرف من الحياة في ظلّ الاستسلام. ومن يعتنق الأبدية، والسيف في يده كان خالداً بخلود الحق»^(٣). وما أبلغها كلمةً تلك التي قالها

(١) نخلة، أمين. المفكرة الريفية. بيروت، الشركة العالمية للكتاب. لاط، لات. ص: ٨٩.

(٢) أيوب، نبيل. نصّ القارئ المختلف. ص: ٨٠.

(*) الأنا الأعلى: مصطلح نفسيّ يعني الجانب الأكثر عقلانية في شخصية الفرد، وضابطة القيم. وهو الضمير المكتسب من الأوضاع الاجتماعية.

(٣) جبران، جبران خليل. المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران العربية. ص: ٥٠٢.

نزار قبّاني، مُتناولاً الشّعَرَ في حضرة
السّلطان! يقول:

«كَيْفَ، يَا سَادَتِي، يُغْنِي الْمَغْنِي

بَعْدَمَا حَيَّطُوا لَهُ شَفْتَيْهِ؟

هَلْ إِذَا مَاتَ شَاعِرٌ عَرَبِيٌّ

يَجِدُ الْيَوْمَ مَنْ يُصَلِّي عَلَيْهِ؟

لَا يَبُوسُ الْيَدَيْنِ شِعْرِي... وَأُخْرَى

بِالسَّلَاطِينِ أَنْ يَبُوسُوا يَدَيْهِ... (١)

وإنّ حسين فرّان، وتحت تأثير الانتماء القومي، يضع المعيار القيمي فاصلاً للحكم على الحكّام العرب، وإنه معيارٌ جاهزٌ من طويل الزمان، ومكتسب من المنظومة الاجتماعية التي ينضوي تحتها الشّاعر، وفحواه ذات الممنوعات والمسموحات تمنح فرّاناً ضابطةً يقيّم بواسطتها قادة الأُمّة، ويفنّد أفعالهم على طريقته، وقد ساء ما يحيق بالأُمّة من فشل وأذى.

وهذه الضابطة القيميّة، أو الأنا الأعلى، تمارس فاعليّة في سياق المجتمع، فكأنّ ما هو عام بات على مقربةٍ من صميم ذات الشّاعر، وحريراً بالنقد والمساءلة، والموقف الحادّ، وذلك تحت تأثير مفاعيل الانتماء القومي للشّاعر الذي بات والأُمّة على قلب واحد، فإذا به يقوم بدور المراقب؛ يرفض

ما ترفضه القيم، ويقيّم طبق منطوقها العتيق.

فها هو حسين فرّان لا يرضى إلا أن يكون قومياً، فقد ألمه الواقع، فراح يشير إلى الحكّام العرب نازعاً عنهم تلك القشور المطلية بهالة الرّئاسة، مُسمّياً أثمهم بأسمائها؛ فهم غافلون عن أمور الرّعيّة، ولا ينهضون بأعباء الحكم، وواجبات الإدارة، والقيادة الحكيمة، بل إنهم مفرطون بكلّ ما هو محلّ اعتبار وتقدير وتقديس لدى الأُمّة. وهم أولئك الذين يتأمرون على شعوبهم، ولا يُحافظون على النّخب، ولا يدعون راحةً أو استقراراً لأبناء الأُمّة، فضلاً عن أنّهم لا يتّسمون بما ينبغي أن يتّسم به الحاكم من شجاعة وإقدام، بل إنهم ذلك العدو الذي يكيّد لأبناء الوطن العربيّ. فاسمعه يقول من البسيط، والقافية من المتراكب:

«مَاذَا أَحَدَّثَ وَالْعُرْبَانُ غَافِيَةً

وَالْحَاكِمُونَ بَلِيلِ الشُّكِّ وَالرَّيْبِ

الْحَائِنُونَ ذِمَارَ الشُّعْبِ مُذْ وُلِدُوا

الْبَائِعُونَ كِرَامَ النَّاسِ بِالذَّهَبِ (**)

الْقَاحِمُونَ عَلَى الْمَوْتَى قُبُورَهُمْ

الطَّامِعُونَ أَمَامَ الْخَصْمِ بِالْهَرَبِ

السَّارِقُونَ رَغِيفَ الشُّعْبِ فِي قِحَةٍ

الشَّامِتُونَ بِمَنْ قَدْ عَاشَ بِالتَّعَبِ (***)

(١) قبّاني، نزار. الأعمال السّياسيّة الكاملة. الجزء السّادس. ص: ١٠.

(**) ذمار: ما ينبغي حياطته والدّود عنه.

(***) قمة: قلة الحياء.

إِنْ نَسَلِمَ الْيَوْمَ مِنْ غَازٍ نُقَاتِلُهُ
فَمَا سَلِمْنَا مِنَ الْحُكَّامِ وَالْخُطْبِ»^(١)

والشاعر إذ ينتقد الحكام العرب، فإنما ينتقدهم بحدّة واستياء، بل إنّه نقد كثيراً ما يستهدف نواحي ذات صلة بما يؤمن به العربي إيماناً مُحْكَمًا. وكأنّه عندما يُجرّد هؤلاء الحكام من الوفاء والأثرة والشجاعة وحُسن المعاملة، فإنّه يكون بصدد إخراجهم من جلدة العرب، ويسمّمهم بالدّخلاء على جسد الأمة. وهو بإعطائهم صفة الدّخلاء، فإنّه يكون بصفة إيمانيّة قد دعا إلى التّخلّص منهم، والثّورة عليهم حتّى تستريح الأمة من شرورهم. وكلّ ذلك باسم الموروث القيميّ الذي يُشكّل كلمة سواء للأمة العربيّة، وباسم الأنا الأعلى الذي يُمثّل «القيود الأخلاقيّة جميعاً، والنّزوع إلى الكمال، وكلّ ما يمكن تصوّره أنّه جزءٌ أُسمى في الحياة الإنسانيّة»^(٢).

ويستمرّ نقدُ فرّان للحكّام العرب، واصفاً إيّاهم بأنّهم خونة يعتلون العروش، ويتّخذون مراكزهم في سبيل المجون وإشباع غرائزهم، ويتّخذون لأنفسهم ألقاباً فخمةً تناسب تعجرفهم وادّعاءاتهم،

ويُمعنون في نهبِ خيرات الشّعوب، وإذا بطشوا بطشوا جبّارين. وإنّهم بأفعالهم هذه، وسوء أدائهم وظائفهم الخدماتيّة والإداريّة، ينفخون في ثورةٍ تنمو وتنمو إلى أن تستحيل إعصاراً يدكّ عروشهم، ويُعيد الحقّ إلى نصابه. فهذا هو يقول من الكامل، والقافية من المتواتر:

«الْخَائِنُونَ عَلَى الْعُرُوشِ تَسَامَرُوا
وَتَرَأَقُصُوا وَأَزْدَادَتِ الْأَلْقَابُ
شَرِبُوا عَلَى جَدَثِ الشُّعُوبِ وَأُنْخَمُوا
وَتَنَمَّرُوا وَتَبَاهَتِ الْأَنْخَابُ»^(*)
لَكِنَّ غَضَبَةَ جَائِعٍ فِي لَيْلَةٍ
لَنْ يَبْقَى بَعْدَ مَثَارِهَا مُرْتَابٌ»^(٣)

وهذا التّقرّيع والغضبُ يتناغمان وما قاله الشّاعرُ القرويّ بحقّ الحكّام العرب:

«لَكُمْ تَحْمِيكَ يَا وَطَنِي لُصُوصُ
وَكَمْ تَرَعَاكَ يَا شَعْبِي زُنَابٌ»^(٤)

ونحنُ إذ نقرأ هذا التّقرّيع الجارح للحكّام العرب، نستشعرُ رغبةً مخبوءةً عند شاعرنا تذهب نحو التّجلّي ألا وهي مساعي درء الخطر الذي يتهدّد الذات العربيّة؛ فهؤلاء الحكّام، في أفعالهم هذه، يقومون

(١) فرّان، حسين. الأعمدة. ص: ١٣٠-١٣١.

(٢) عباس، فيصل. التّحليل النّفسيّ للذّات الإنسانيّة. ص: ٧٦.

(*) الجذث: القبر.

(٣) فرّان، حسين. الأعمدة. ص: ١٢٥-١٢٦.

(٤) الخوري، رشيد سليم. ديوان الشّاعر القرويّ. ص: ٥٠٧.

بتهديم البيت العربي من داخله. وهذا ما لا ترضى به الشخصية ذات المشاعر القومية. فغضبه يعكس إرادة الدفاع عن الوجود في مواجهة الخطر الآتي من الداخل. وإنه، إذ يرفع راية التحدي، فإنما يمارس مشاعر الانتماء للأمة؛ ذاك أن نبرة الانفعال ذات الوتيرة العالية تعكس حرصاً على سلامة الأمة، وهو حرص يشي أن الشاعر يمارس فعل الممانعة المتوجب على ذي الانتماء للأمة المتماهي بقوميته. وهذا التماهي يؤدي إلى استشعار المهانة التي تتمظهر غضباً عندما يكون جلاّد الأمة من جلدها، وكأن الأمر يصل عندها بذنبه إلى الشاعر نفسه كونه يتحسس تمام الاتصال بأمة فيستحيل جلاّداً ومجلوداً، ما ينشئ مسلكية تبرئة الذات من خلال كثير من الغضب والتمرد والنقد متخذة القيم الموروثة مرجعية ملائمة. وهي التي تسفّه الحكام، وتخونهم، وهذا يؤدي إلى طمانينة الشاعر، وتصالحه مع نفسه قبل أن يؤدي وظيفة النقد اجتماعياً.

وانظر إلى هذين البيتين اللذين يُجرّد فيهما شاعرنا الحكام العرب من دفء القيم، وذخيرة المروءة، مُشيراً إلى أن هيبتهم هي زخرف أجوف المعدن لا وزن له. كيف لا وهم متخاذلون عن صيانة حدود البلاد،

ونائمون في ساعة الواجب، ما يؤدي إلى الخوض في استباحة الأوطان. وهذه أفعال من ليس له باع من معايير الرجولة العربية. يقول من الخفيف، والقافية من المتواتر:

«فَقُصُورُ السُّلْطَانِ لَا عِزَّ فِيهَا
ذَلِكَ الْوَهْجُ - مَا تَرَاهُ - دُخَانُ
جَالَتِ الْخَيْلُ وَالْجَمِيعُ نِيَامُ
لَمْ تَفُقْ مِنْ سُبَاتِهَا الْخِصْيَانُ»^(١)

وإن هذا الطعن بالقيم هو طعن بالغ الأثر، شديد الخطر، قياساً إلى منظومة القيم العربية؛ ذاك أن السقوط والخزي هو أن يكون المرء ذليلاً لا عزيزاً، وأن يمارس فعل الانتفاخ الفارغ في شخصيته، وأن يفرط بالعرض والشرف وقد أوكل إليه حياطتهما بفعل المنصب الذي يشغله كحاكم، فضلاً عن أن التقاليد الموروثة نفسها هي ملزمة لكائن من كان، وواجب عليه القيام برعايتها. ولعلّ التقرّيع يبلغ ذروته إذ يسمّ الشاعر الحكام «بالخصيان»، نازعاً عنهم أمارات الرجولة والفحولة التي تركن عميقاً في قرارة النفوس العربية، ويعتدّ بها العربي أي اعتداده، وإنّ خلافها سببة وشتيمة.

وبهذا الموقف الجريء جبال الحكام العرب يكون الشاعر ممارساً فعلاً التزامياً؛

(١) فرّان، حسين. الأعمدة. ص: ١٠٣.

الأمة بالانسلاخ عن تاريخها العريق، والانفصال عن مواطن القوة النفسية لديها؛ حيث إنّ الإمعان في مزيد من الأذى من شأنه أن يُحرّك مقومات الممانعة. وقد كانت منظومة القيم هي الموكلة هذه المرّة بثنيّ الخطر المنبعث من داخل جسد الأمة، عنيت الحُكّام العرب. وهي قيم العفة والأمانة والوفاء والإخلاص والنزاهة... والتي هي محلّ إجماع قيميّ عربيّ، ما يمنح مواقف فرّان هذه بطاقة عبور إلى ذوات العرب، ويجعلها تلاقى أفئدتهم.

وهكذا، تبين لنا أنّ الشّاعر كان كثير الاستياء والتذمّر بسبب الانتكاسات العربيّة، وتراجع دور أمته هذه، وتدهور شأنها؛ فقد كان الوطن العربيّ في أحسن حال، بل في مقدّمة الأمم، فإذا به يتقلّب اليوم بين المهالك، وتتناوله الاعتداءات التي يتلقاها بصدرة المكشوف، الأمر الذي أفعم قلب الشّاعر غضباً، وأدى به إلى التّعبير عن هذا الغضب، وإلى رفض الاعتراف بهذا السقوط، أو البقاء عنده. لذلك، وتحت وقع الأزمة المذكورة، مارس الشّاعر فعل تفرّغ الاحتقان من خلال إرساله هذا المتأجّج في أعماقه من أشكال الألم وتدايعاته، لعلّ في ذلك تعويضاً عن اللذة المفقودة، وهرباً من الحاضر المأزوم، ومتنفّساً يسمح للشّاعر بإطلاق صرخة رُفّ لها من القوة ما لقلبه من المعاناة التي تجرح كبرياءه القوميّ.

إذ يلتفت نحو قضيّة مهمه من قضايا المجتمع العربيّ، وهي من القضايا الأزمة التي لطالما قضت مضجع الجماهير وآلمتهم. والشّاعر، في هكذا موقفٍ منصوبٍ تحت منظومة قيم الإباء، فيكون مُسترشداً بإيعازات الأنا الأعلى الذي يُمثّل رقيب الأخلاق الضابطة للمسلكيّات. وهو يُلبّي الرغبة الأساس التي تملأ كيانه، ألا وهي رغبة الخلاص من خلل عميقٍ يعتري ذاته، وقد ألمّ به من الحيثيّة القوميّة، من نسيج شخصيّة التي تتألم عند كلّ إثمٍ عربيّ؛ أصدرَ عنها من خلال شخصيّة الخاصة، أم من خلال شخصيّة القوميّة العربيّة.

والشّاعر إذ يعمل على نقد الحُكّام العرب، جرّاء أفعالهم المخالفة صراحةً لما تنشده الأمة من قادة جديرين بإدارة البلاد، ومتحلّين بالقيم المعتمدة، يكون، والحال هذه، يُمارس عملاً تفرّغاً لشحنة الغضب التي تعتمل في وجدانه بسبب الآلام المتأنيّة من شطحات الحُكّام المؤذية للروح القوميّة، والمدمّرة لمقدّرات البلاد والعباد، والمعادية لأمجاد الماضي. فهي مسلكيّاتٌ مُسِفّةٌ تمحو بأوزارها تلك البطولات التي خطّتها أمة الشّاعر في سابق الزّمن، والتي يعتدّ بها اعتداداً يرتفع إلى مستوى استشعاره هويّته القوميّة، وروح الانتماء والكيونة.

وهكذا، يكون الشّاعر، وهو ينتقد الحُكّام العرب، في إطار ممانعة الخطر الذي يتهدّد

وكان يرفع الاتهام عن الأمة عبر إسقاطه على الخائنين والجبناء وصغار النفوس، وينظر بعين التفأول إلى بقية الصحو والقوة عند أمته من خلال الرجال الصيّد...، عسى أن يكون في ذلك بقية بلسم تُطيبُ الشاعر، وتُفرِّج عن أساريره.

ثم إن حسين فرّان قد أبدى كثيراً من التمرّد والسخط على الحكّام العرب، ورأى فيهم أولئك الناهبين لثروات البلاد، والذين يعيشون لذواتهم وأنانيّاتهم، غير مكترثين لأعباء المسؤولية الملقاة على عاتقهم، وإنهم يتسبّبون بتخلّف الأمة العربيّة، ويشكّلون عبئاً ثقيلاً عليها، وحجر عثرة في طريق نهضتها. فالأولى، والحال هذه، هو الإطاحة بهم، لا سيّما وأنهم لا يتمتّعون بتلك القيم الوازنة التي يعتدّ بها العربيّ، وتتوارثها أجياله جيلاً فجيلاً من شهامة وشجاعة وعِفّة وأمانة وغيرها من مقتضيات الهوية العربيّة، ومنظومة التّراث العربيّ القيمية، ومن مستلزمات الرّئاسة والحاكمية. وبهذا يكون الشاعر قد جرّدهم من الهوية العربيّة، وأنزل بحقّهم ما هو بالغ الأثر طبق المعايير الشرقيّة، وجعلهم كدخلاء على الجسم العربيّ، وغرباء عنه، الأمر الذي يستوجب التخلّص منهم.

كما نجد شاعرنا يتسلّح جناناً بما يُبقي صرحه المعنويّ عامراً وذلك عبر نكوصه إلى فردوس الأمّ المكبوت في أعماقه منذ

كان جنينا يحظى بنعيم حياطتها، ويستشعرُ الدّفء والأمن في كنفها. وقد تجلّى هذا الفردوس من خلال النّشء المتأثّي من الرّحم الخصب المعطاء، وهو نشءٌ واعدٌ قد ملأ قلبه أملاً كونه سينهض بأعباء الثّورة النّاجزة الكفيلة برّد الحقوق المهذورة، واستعادة الحياة الكريمة المسلوبة. وتظهر أيضاً النّكوص إلى المرحلة الرّحمية المكنونة في لاوعي الشّاعر من خلال عودته إلى وطنه لبنان، متمثلاً ببيروت العاصمة، وبصور مسقط رأسه، ومن خلال عودته إلى وطنه العربيّ، متمثلاً ببغداد عاصمة العروبة في ذاكرته؛ فقد استحضرها الشّاعر لينهل من معينها الأمن والقوة والطّمأنينة المختزنة لدى هذه المدن-الأمّ؛ فقد وجد فيها الأهلّة والكفاية لهذا الغرض. وكذلك تجلّت رحميّة الأمّ من خلال التّجذّر بالأرض، والالتصاق بها؛ فهي رمز الرّحم الخلاق الباعث للحياة، والذي لا يني يشيع الأمل، ويُدعّم الثّورة ويشدّ عمارتها.

وهكذا نجد ثورة الشّاعر ورفضه، أو ما يمكن تسميته بملفوظة التّفريغ، إلى جانب الموروث القيميّ، قد شكّلت ملاذاً لذاته، ومن خلاله لذوات الجماعة، من أجل بلوغ السّعادة، ولذّة الخلاص، حيال النّكسات اللاحقة بالأمة العربيّة، واستبداد الحكّام وتخاذلهم.

قائمة المصادر والمراجع

- أيّوب، نبيل. نصّ القارئ المختلف. بيروت، مكتبة ناشرون لبنان. ط ١. ٢٠١١.
- بيضون، حيدر. محمّد مهدي الجواهري شاعر العراق الأكبر. بيروت، دار الكتب العلميّة. ط ١. ١٩٩٣.
- جبران، جبران خليل. المجموعة الكاملة لمؤلّفات جبران خليل جبران. بيروت، مكتبة صادر، دار جبران. لا. ط. لات.
- الجواهريّ، محمّد مهدي. ديوان الجواهريّ. بيروت، دار المحجّة البيضاء. ط ١، ٢٠٠٩.
- حاوي، إليّا. بدر شاكر السّياب. بيروت، دار الكتاب اللبنانيّ، ج ١، البواكير. ط ٣. ١٩٨٣.
- الخوري، رشيد سليم. ديوان الشّاعر القرويّ. ٢م. بيروت، دار المسيرة. الطّبعة الكاملة ١٩٧٨.
- سليمان، فؤاد. تمّوزيات. بيروت، الشّركة العالميّة للكتاب. ط ٢، ١٩٩٥.
- شوقي، أحمد. ديوان أحمد شوقي. ديوان أحمد شوقي. بيروت، دار الجيل. ج ١. ط ١، ١٩٩٥.
- عبّاس، فيصل. التّحليل النّفسيّ للذّات الإنسانيّة. بيروت، دار الفكر اللبنانيّ. ط ١. ١٩٩١.
- عطوي، فوزي. خليل مطران شاعر الأقطار العربيّة. بيروت. دار الفكر اللبنانيّ. ط ١. ١٩٨٩.
- فرّان، حسين. الأعمدة. بيروت، دار الفارابي. ط ٢. ٢٠٠٥.
- قبّاتي، نزار. الأعمال السياسيّة الكاملة. ج ٦. بيروت، منشورات نزار قبّاتي. ط ١. ١٩٩٣.
- نخلة، أمين. المفكّرة الرّيفيّة. بيروت، الشّركة العالميّة للكتاب. لا. ط. لات.

الكواكبي: صوت النهضة

د. كمال منذر

والمشكلة التي واجهت العرب أولاً، والفكر العربي آنذاك ثانياً، هي قضية بروز الاستعمار الغربي للمنطقة العربية، بهدف احتلالها، وسرقة خبراتها، مع رغبة الامبراطورية العثمانية في الحفاظ على احتلالها للأرض العربية. عبر هذا السياق من التناقضات الخارجية (أي محاولات الغرب الأوروبي الاستعمارية)، مع تناقضات داخلية (أي رغبة الدولة العثمانية في استمرار هيمنتها)، ظهرت التناقضات في العقل العربي، فالعرب ربما استفادوا، وللمرة الأولى، من الحملة الفرنسية، على الرغم من أنها حملة استعمارية، عبر ما حملته معها من خبرات علمية ومعدات متطورة ومنها العسكرية، بالإضافة إلى الطباعة.

أمام هذا الواقع، كانت صدمة العرب،

مقدمة

يقظة العرب في العصر الحديث تعود إلى عصر النهضة، الذي ظهر خلال عهد حكومة محمد علي في مصر ما بين عامي ١٨٠٥ و١٨٤٩م وإلى حملة نابليون عام ١٧٩٨م^(١). والسؤال الذي يطرح عن معنى النهضة، وتحديد تصور مبدئي لها، حيث نجد:

١ - النهضة على المستوى الفكري تعني انبعاثاً جديداً، أو ولادة جديدة، يتم من خلالها رفض ما هو سائد ومهيمن من فكر، وثقافة وأطر اجتماعية.

٢ - النهضة على المستوى اللغوي، من الفعل نهضَ: «نهضاً، ونهوضاً: قام يقظاً نشيطاً. ويقال: نهض من مكانه إلى كذا وله: قام وتحرك إليه مسرعاً. ونهض إلى العدو: أسرع إلى ملاقاته»^(٢).

(١) إبراهيم مراد، «حول تحديد مفهوم «النهضة» في الفكر العربي، الفكر العربي، السنة ٦، العددان ٣٩-٤٠ (حزيران/يونيو - تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٥) ص ١٠.

(٢) المعجم الوسيط (بيروت: دار أمواج، ١٩٦٨)، ص ٩٥٨.

جمال الدين الأفغاني الذي وجد في مصر المتأثرة بالتقنية الفرنسية، أرضاً خصبة لافكاره التنويرية.

إن فكر النهضة يعكس الواقع العربي آنذاك، وعبر آليته المتكاملة (أي تفاعل الداخل بالخارج) لكن تداعي الامبراطورية العثمانية المستمر من ناحية، ومحاولة الغرب التدخل^(١)، قد عجل في بروز التناقض العربي العثماني.

يضاف إلى ذلك، محاولة الدولة العثمانية اعتماد العنف، بهدف استمرار وجودها، وعبر مظاهر عدة تأخذ صورة الحرب الاقتصادية أو محاولة التتريك أحياناً أخرى أو محاولة كم الأفواه وملاحقة الأحرار، حتى جاءت إعدامات عام ١٩١٦م، لتظهر الوجه العدواني للسلطة العثمانية نحو العرب، لكن العربي، الذي تجرع الألم والمرارة و ظلم آل عثمان، لم يعد بإمكانه المأمن من غيرهم، الأمر الذي دفعه إلى الحذر والتنبه، بل ربما التوقوع حول الذات، ومحاولة رسم طريق الخلاص عبر آلية تفكيره الماضوي^(٢).

هكذا، ومن خلال المعاناة ظهر المفكر النهضوي، عبد الرحمن الكواكبي

وكان لا بد لهذه الصدمة من أن تترك أثرها، الأمر الذي جعل العرب يدركون، أن هناك عالماً متقدماً، وأن الواقع العربي، هو واقع متخلف، وأن الخلاص من التخلف لا بد له من مخرج، وهو ما دفع العقل العربي إلى تلمس طريق النهضة، لكن كيف السبيل إلى ذلك؟ والعربي في تلمسه النهضة قد اتخذ محورين أساسيين وهما:

- المحور الأول: يجد النهضة عبر اللحاق بالغرب، والأخذ بحضارته (أي تقنياته وربما تفكيره).

- المحور الثاني: يجد النهضة عبر الماضي (أي العودة إلى الإسلام والفكر الإسلامي).

وبذلك يبرز التناقض بين هذين التيارين، حول النهضة وكيفيةها، وربما استمر هذا التناقض حتى يومنا هذا، الأمر الذي يدفع إلى طرح السؤال الآتي: هل العرب يعيشون حتى يومنا هذا عصر نهضة؟. المنتبج لفكر النهضة وواقعها يجد أن العرب قد عاشوا، فضلاً عن تأثير الحملة الفرنسية العلمية، ودولة محمد علي، محاولة نهضوية برزت أيضاً من خلال

(١) تبرز هذه الصورة في محاولة الغرب إظهار أنه محب للعرب والإسلام، وأنه المدافع الأمين عن ذلك، وهذه المحاولات تبرز في تاريخ الغرب وعلاقته بالعرب في أكثر من حادثة. بونداريفسكي، الغرب ضد العالم الإسلامي (موسكو: دار التقدم، ١٩٨٥).

(٢) ل. ر - بولنسكا (وآخرون)، الاستشراق والإسلام، ترجمة فالح عبد الجبار (د.م): مركز البحوث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي، ١٩٩١، ص ١٧.

- عمل في حقل التجارة، حتى وصل إلى منصب رئيس غرفة تجار حلب عام ١٨٩٢م^(٥).
 - عمل في المحاماة، فكان مرجعاً للمحاماة في القانون^(٦).
 - دخل السجن أول مرة في حلب عام ١٨٨٦م^(٧)، متهماً بمحاولة اغتيال الوالي التركي، وحكم عليه بالإعدام من القاضي التركي في حلب، ثم برأته محكمة بيروت من تهمة الاتفاق مع دولة أجنبية ضد الدولة العثمانية.
 - قام بالعديد من الرحلات، وزار العديد من البلدان (شرق أفريقيا، وجنوب أفريقيا، وشبه الجزيرة العربية، والهند، وجنوب الصين) وتعرف إلى العديد من المفكرين الغربيين على الرغم من عدم زيارته أوروبا^(٨).
 - مات مسموماً في مصر عام ١٩٠٢م
- (ت ١٩٠٢م)، فمن هو عبد الرحمن الكواكبي؟ وهل يمثل الكواكبي نموذجاً نهضوياً حقيقياً؟ وهل الموضوعات التي طرحها الكواكبي تمثل قضايا نهضوية أم قضايا عسروية؟^(١) أم أنه تنطبق على الكواكبي التصورات الفكرية المعاصرة والقائلة: إن الفكر في البلدان النامية قد يسبق الواقع^(٢). وبذلك يجد الباحث نفسه مندفعاً إلى بحث الكواكبي، عبر المحاور الآتية:

أولاً: حياة الكواكبي

- ولد الكواكبي في مدينة حلب حوالي عام ١٨٥٤ م، ومات مسموماً في القاهرة عام ١٩٠٢ م^(٣). وحياته كانت مليئة بالأعمال، ومن الممكن تلخيصها بما يلي:
- عمل في حقل الصحافة، وله منهجه الخاص، في الكتابة التحريضية مع إلمامه في الفقه والسياسة والقانون^(٤).

(١) مراد، «حول تحديد مفهوم» النهضة» في الفكر العربي ص ١٥.

(٢) طيب تيزيني، حول مشكلات الثورة والثقافة في بلدان العالم الثالث: الوطن العربي نموذجاً ط ٢ (دمشق: دار دمشق، ١٩٧٣)، ص ٢٢٩.

(٣) محمد عمارة، عبد الرحمن الكواكبي: شهيد الحرية ومجدد الإسلام، أعلام، ١ (بيروت: دار الوحدة، ١٩٨٤)، ص ٤١.

(٤) أحمد الجباعي، الكواكبي: هم التأخر العربي وهاجس النهضة «الوحدة» السنة ٧، العدد ٨١ (حزيران / يونيو ١٩٩١) ص ٨٧.

(٥) عمارة، المصدر نفسه ص ٢٤.

(٦) محمد عمارة، مسلمون ثوار، ط ٢ (بيروت: بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٩)، ص ٢٠٩.

(٧) عمارة، عبد الرحمن الكواكبي: شهيد الحرية ومجدد الإسلام، ص ٢٧.

(٨) عمارة، مسلمون ثوار، ص ٢١٣.

والذين يعتبرون أن خير الناس أنفعهم للناس»^(٤).

والكواكبي وجد في الشباب روح التجديد، والتطور، لا سيما وأنهم أعداء الجمود، والخنوع، وحاجة الأمة إلى هؤلاء تأتي في أولوية حاجياتها الحياتية، ولا سيما وأن الشيوخ هم من ألد أعداء التطور والتجديد: «إن الخور... علة معدية تسري من الشيوخ إلى الشباب، ومن الطبقة العليا إلى العامة، وليت الشيوخ والكبراء يرضون بما كتب عليهم من الذلة والمسكنة والخمول وسقوط الهمة والدناءة والاستسلام فيتركون أهل النشأة الجديدة وشأنهم... وما أظنهم بفاعلين إلا أن تتصدى لهم جرائد مخصوصة تقابلهم باللوم والتبكيك، وتسلب عليهم أقلام الأدباء وألسنة الشعراء بوضع أهاجي وأناشيد بعبائر بسيطة محلاة بنكت مضحكة، لكي تنتشر حتى على ألسنة العامة، وبمثل هذا التدبير تثور حرب أدبية الناشئة والواهنة لا تلبث أن تثمر انكسار الفئة الثانية»^(٥).

بعد أن هاجر إليها هرباً من العثمانيين^(١).

– وهكذا يكون الكواكبي قد عاش حياته كلها في العمل، والنضال بهدف خدمة شعبه، على الرغم من أنه كان يمكن أن يعيش حياة الأمراء^(٢). نظراً إلى:

– نسبه الشريف (أي من البيت الهاشمي للإمام علي بن أبي طالب).

– امتلاكه سلطة المال، والكلمة، وبذلك يمكنه أن يكون المثقف النخبوي لو رغب في ذلك.

ثانياً: الكواكبي والشباب والمثقفين

الكواكبي كشخصية نضالية دفعه موقفه إلى تبني الشباب^(٣). والشباب في فكر الكواكبي يعني الكثير، فالشباب هم عماد الأمة، وهم الأمل والمستقبل بقوله: «الذين تعقد الأمة أمالها بأحلامهم... وتتعلق الأوطان بحبال همتهم، والذين يحبون وطنهم حب من يعلم أنه خلق من تراب. الذين يعيشون الإنسانية، ويعلمون أن البشرية هي العلم، والبهيمية هي الجهالة،

(١) عمارة، عبد الرحمن الكواكبي: شهيد الحرية ومجدد الإسلام، ص ٣١.

(٢) العجاعي «الكواكبي»: هم التأخر العربي وهاجس النهضة» ص ٦٧.

(٣) نجد أفلاطون يهتم بالشباب، مما يدفع السلطوية آنذاك ليتوجه تهمة إفساد الشباب لأفلاطون، ونجد إخوان الصفا يهتمون بتنظيم الشباب. انظر: علي نوح، «إشكالية الضياع لدى الشباب العربي، أزمة شباب أم أزمة مجتمع؟» دراسات عربية، السنة ٢٦، العدد ١٢ (تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٠)، ص ٧٧.

(٤) عمارة، عبد الرحمن الكواكبي: شهيد الحرية ومجدد الإسلام، ص ٦٦.

(٥) عمارة، مسلمون ثوار، ص ٢٣٢.

وبذلك يفصح خطاب الكواكبي هذا عن القضايا الآتية:

- الواقع العربي آنذاك هو واقع راكد.
- الشريحة المؤهلة للقيام بالتجديد والتطوير هي شريحة الشباب. الا أن حديث الكواكبي عن الشباب، لا ينسبه الحديث عن المثقف ودوره النهضوي في بناء المجتمع، لا سيما وأن رسالة المثقف هي رسالة نبيلة: «هي كلمات حق، وصيحة في واد...إن زهبت اليوم مع الريح... فلقد تذهب غداً بالأوتاد»^(١) وهو ما يعكس واقعا العربي والأزمة الاقتصادية والثقافية التي نعاني منها اليوم^(٢).

والشعب هو محور اهتمام المثقف والسلطان، وهناك حرب دائمة بين الطرفين، وإذا كان المثقف. «يستطيع تعرية السلطان وفضحه، فالسلطان يرغب في مصادرة كلمات المثقف: يسعى العلماء في نشر العلم ويجتهد الاستبداد في إطفاء نوره»^(٣).

ويعكس هذا الرأي للكواكبي الصورة الظلامية القائمة بين المثقف والسلطان^(٤).

والسلطان العربي لا يخاف العلوم كلها، وخوفه هذا لا يمتد إلى المثقفين كافة، بل يشمل أولئك الذين يقومون بدور تحريضي، وتنويري في المجتمع: «إن المستبد لا يخاف من العلوم كلها، بل من التي توسع العقول، وتعرف الإنسان ما هو الإنسان وما هي حقوقه، وهل هو مغبون؟ وكيف الطب؟ وكيف النوال؟ وكيف الحفظ؟ المستبد عاشق للخيانة والعلماء عوازله..»^(٥).

إن وقوف الكواكبي على تصنيف المثقفين ودورهم في الوعي، وتحريض الجماهير بهدف التجديد والتغيير نحو الأفضل، يجعل الباحث المعاصر يقف أمام محاولة الباحث العربي، وتصنيفه المثقفين^(٦).

وإذا كان ثمة اختلاف بعض الشيء بين التقسيمين فإن محور اللقاء قائم على اعتبار المثقف التنويري والتحريضي هو المطلوب.

(١) عمارة، عبد الرحمن الكواكبي: شهيد الحرية ومجدد الإسلام، ص ١٧١.

(٢) علي نوح، «صورة المثقف العربي في الخطاب العربي المعاصر» دراسات عربية، السنة ٢٧، العدد ٢ (كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٠)، ص ١٠٧.

(٣) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد (بيروت دار النفائس، ١٩٨٦) ص ١٧.

(٤) محمود أمين العالم، في ندوة المعرفة والسلطة في المجتمع العربي (بيروت: معهد الإنماء العربي، ١٩٨٨)، ص ٢٨٩.

(٥) الكواكبي، المصدر نفسه، ص ٥١.

(٦) عبد الله العروي، الأيديولوجية العربية المعاصرة، قدم له مكسيم رودنسون، ترجمة محمد عيتاني، ط ٢ (بيروت: دار الحقيقة ١٩٧٩)، ص ٣١.

لكن المثقف التنويري، أو النهضوي، كي يمارس دوره، لا بد له من الحرية، وهذه الحرية تنعدم في ظل حكومة السلطان المستبد، الذي بدوره يفسد العقل، والدين، والعلم، والمجتمع، إلا أن الكواكبي كمفكر نهضوي نجده دائم البحث في معرفة الواقع، وطريق الخلاص منه بقوله: «... وقائل آخر يقول: الشرق مريض، وسببه فقط التمسك بالدين، ثم يقف مع أنه لو تتبع الأسباب لبلغ إلى الحكم بأن التهاون في الدين ناشئ من الاستبداد، وأن العافية المفقودة هي الحرية السياسية»^(١)

إذاً، لا بد من مخرج لهذه الأزمة، والممثلة بأزمة الواقع، وأزمة المثقف، والكواكبي إذ يدرس الواقع، يجد أن هذه الأزمة قد وجدت الحل لها في البلدان المتقدمة، عبر توسيع هامش الديمقراطية، لا سيما في مجال حرية الخطاب: «لقد أطلقت الأمم الحرة حرية الخطابة والتأليف والمطبوعات، مستثنية القذف فقط، ورأت أن تحمل مضرة الفوضى في ذلك خير من التحدي، لأنه لا ضامن للحكام أن يجعلوا الشعرة من التقييد سلسلة من حديد، يخنقون بها عدوتهم الطبيعية، الحرية»^(٢).

وهذا النص للكواكبي يجعلنا نلاحظ انه لا يزال في مجتمعنا اليوم من يرفض الفكر الآخر ويحظر بعض الكتب فقط لأنها لا تناسب قناعاته التي يريد إقاطعها على المجتمع^(٣). وهكذا يقف الباحث المعاصر أمام الحقائق الآتية:

- مشاكل الأمس (أي عصر النهضة) لا تزال تجد استمراريتها حتى اليوم.
- الكواكبي شخصية ذكية ومبدعة، تمكن من رؤية عصره رؤية صادقة.

ثالثاً: الكواكبي ومسألة العلم والتعليم التجديد الديني

يضعنا حديث الكواكبي عن المثقفين والثقافة وجهاً لوجه أمام موقفه من العلم والتعليم. ما دمنا قد تحدثنا عن أهله، لا سيما وأن مكانة العلم هي مكانة عالية عند الكواكبي، فالعلم هو الذي جعل الشعوب المتقدمة في وضعها الحالي، الأمر الذي يدل على أن الكواكبي، وعلى الرغم من مكانته الدينية نجده يتلمس طريقاً آخر في النهضة، وهو طريق العلم بقوله: «هذه أمم أستراليا، وأمريكا قد هداها العلم لطرائق شتى وأصول راسخة للاتحاد الوطني من دون الديني، والوفاق الجنسي - (أي

(١) عمارة، عبد الرحمن الكواكبي: شهيد الحرية ومجدد الإسلام، ص ٩٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ٨٨.

(٣) بهيج عثمان (وآخرون)، قضايا الثقافة والديمقراطية (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٠)، ص ١٠٢.

القومي) من دون المذهبي، والارتباط السياسي من دون الإداري، فما بالننا نحن لا نفتكر في أن نتبع إحدى تلك الطرق أو شبيها...^(١).

وبذلك يكون الكواكبي قد وضع الإصبع على الجرح، وهذا الجرح النازف حتى يومنا هذا، والذي يجعل من العرب مجتمعاً متخلفاً، لا سيما إذا أخذنا في اعتبارنا أن الأنظمة التربوية المعاصرة تمثل نموذجاً تربوياً قاصراً^(٢). فالتربية العربية لا تزال تعتمد الأسلوب الكلاسيكي، لهذا لا بد من تجديدها، وهذا التجديد كما يراه الكواكبي يعتمد: «الإقناع في التربية، خير من الترغيب... فضلاً عن الترهيب.. والتعليم، مع الحرية بين المعلم والمتعلم، خير من التعليم مع الوقار... والتربية تربية الجسد وحده إلى سنتين، هي وظيفة الأم وحدها. ثم تضاف إليها تربية النفس إلى السابعة، وهي وظيفة الأبوين والعائلة، معاً. ثم تضاف إليها تربية العقل إلى البلوغ، وهي وظيفة المعلمين والمدارس، ولا بد من أن تصحب

التربية بعد البلوغ الظروف المحيطة وتربية الهيئة الاجتماعية، وتربية القانون، أو السير السياسي، وتربية الإنسان نفسه»^(٣)..

يضعنا الكواكبي بذلك أمام رؤية عصرية في تربية الإنسان تشترك فيها الأسرة، والمدرسة، والمجتمع، الأمر الذي يعني تطويع الكواكبي بمبدأ التربية التقليدية التي تجعل التربية من مهمة الأسرة بمفردها، يضاف إلى ذلك إدراكه أهمية تربية الإنسان، الأمر الذي يجعل الكواكبي يقارب برؤيته طروحاًنا العصرية^(٤). إلا أن الكواكبي يظل ابن عصره، لا سيما في تقسيمه المتعلمين والعلماء حيث نجد:

- العامة، ومعلموها أئمة المساجد والجوامع الصغيرة.
- المهذبون: ومعلموهم مدرسو المدارس العمومية، والجوامع الكبيرة.
- العلماء: ومعلموهم مدرسو المدارس المختصة بالعلوم العالية.
- النابغون: ومعلموهم الأفاضل المختصون^(٥).

(١) عمارة، المصدر نفسه، ص ٦٨.

(٢) مسارع حسن الراوي، دور مؤسسات التعليم غير التقليدية في العطاء العلمي، وتكوين العقلية العربية، ورقة قدمت إلى: تهيئة الإنسان العربي للعطاء العلمي: بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية بالتعاون مع مؤسسة عبد الحميد شومان (بيروت، المركز، ١٩٨٥)، ص ٣٣٤.

(٣) عمارة، المصدر نفسه، ص ١٢٩.

(٤) حسن صعب، المقاربة المستقبلية للإنماء العربي (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٩)، ص ٥١.

(٥) عمارة، المصدر نفسه، ص ١٣٤.

التربية، والتي تمثل عائقاً أمام تعليم اللغة، ونقل الفكر، بل ومفاعلة فكر المتعلم بالقضايا التعليمية المطروحة.

والكواكبي على الرغم من مكانته الدينية لا يتردد في الدعوة إلى التجديد الديني، حيث يعلن: «ما أحوج الشرقيين أجمعين، من بوذيين ومسلمين ومسيحيين وإسرائيليين، وغيرهم، إلى حكماء لا يبالون بغوغاء العماء الغفل الأغبياء والرؤساء القساة الجهلاء، يجدون النظر في الدين، فيعيدون النواقص المعطلة ويهذبون من الزوائد الباطلة، مما يطرأ على كل دين يتقادم عهده، فيحتاج إلى مجددين يرجعون إلى أصله المبين»^(٤).

وتلتقي دعوة الكواكبي هذه مع دعوة بعض معاصرنا بالدعوة إلى الاجتهاد، وهذا ما جعل الشيخ الأفغاني (ت ١٨٩٧م) يقول: «ما معنى باب الاجتهاد مسدود؟ وبأي نص سد باب الاجتهاد؟

وأى إمام قال لا ينبغي لأحد من المسلمين بعدي أن يجتهد ليتفقه بالدين؟ أو أن يهتدي بهدى القرآن، وصحيح الحديث، أو أن يجد ويجتهد لتوسيع مفهومه

لكن الكواكبي كإنسان نهضوي، كان ينظر إلى التعليم على أنه قاصر، إذا تناول الرجال وأهمل النساء، لأن المرأة هي التي تربي الرجل، الأمر الذي يعني أن تعليمها سينعكس على الرجل، لا سيما وأن الحياة تتطلب مشاركة المرأة، والرجل، ومخالفة ذلك تكون مسؤولية الحكم والحاكم: هذه القسمة المتفاوتة بين آدم وحواء إلى هذه النسبة المتباعدة، هي قسمة جاء بها الاستبداد السياسي^(١).

ومثل هذا الطرح في تطبيق المساواة بين المرأة والرجل، لا يزال حتى يومنا هذا، ويمثل نموذجاً متقدماً في الرؤية بالنسبة إلى مجتمعنا العربي، بل إن الدعوة إلى تعليم البنات لا تزال قائمة، وبذلك يكون الكواكبي قد تلمس قضية هي على غاية الأهمية بالنسبة إلى مجتمعنا العربي المعاصر^(٢)، لا سيما وأن الكواكبي يرتقي في تفكيره السياسي والاجتماعي إلى مرحلة التفكير المعاصر، عندما يربط قضية الفصل هذه بالسلطوية الحاكمة^(٣). والكواكبي إذ يطرح مثل هذه القضايا لا يغيب عن باله قصور التربية بشكل عام، لا سيما تلك الوسائل التقليدية المعتمدة في

(١) المصدر نفسه، ص ١٣٦.

(٢) محمد زهير مشاركة، في: المجلة العربية للتربية، السنة ٦، العدد ١ (آذار/ مارس ١٩٨٦)، ص ١٢٠.

(٣) أورز ولاشوي، أصل الفروق بين الجنسين، ترجمة بو علي ياسين (بيروت: دار التنوير، ١٩٨٢)، ص ١٥.

ويأخذ بعض معاصرينا عن الكواكبي رؤيته هذه، الأمر الذي يجعلنا نقرأ في خطاب محمد عمارة قوله: «ففي «الدين»... علينا أن نكون سلفيين عقلايين متنيرين... لأن السلفية هنا تعني الموقف الثوري الذي يزيح عن الدين وعلومه ركाम الخرافات والبدع والإضافات التي تراكمت عليه في عصور الانحطاط، الأمر الذي يعود بخ طاقة خلاقة في عالم الإنسان والمجتمع، بعد أن تحول إلى جبرية وقدرية وتواكل على يد علماء ووعاظ السلاطين ودعاة التصوف من المشعوذين»^(٥).

وهذا الانغلاق والجمود يقود الإنسان إلى التصوف برأي الكواكبي: «العادة أن يلجأ ضعيف العلم إلى التصوف، كما يلجأ فاقد المجد إلى الكبر، وكما يلجأ قليل المال إلى زينة اللباس والأثاث»^(٦).

وبذلك يكون الانغلاق الديني هو السبب الأساسي في ظهور التصوف، على حد تعبير الكواكبي: «فبهذا التضيق لا يرى المسلم لنفسه فرجاً إلا بالالتجاء إلى

منهما»^(١). ونجد عند الشيخ محمد عبده (١٩٠٥م) صورة مقاربة لما وجدناه عند الشيخ الأفغاني، والشيخ الكواكبي. لكنه يحاول إعطاء الجمود المسيطر رؤية فلسفية في معرفة أسبابه ومسوغاته، الأمر الذي يعني أن الجمود، وعدم التجديد، كما يراه الشيخ محمد عبده إنما يعود إلى عوامل عدة، وهي^(٢):

- التمهذ السياسي والديني.
- كسل الإنسان وعدم رغبته في البحث العلمي.
- قلة الإطلاع.

وبالبحث، أو المتابع، موضوع التجديد الدين، يجد أن هذا الموضوع لا يزال يجد طروحاته حتى يومنا هذا، وربما يكون أكثر الموضوعات إلحاحاً في واقعنا المعاصر^(٣). والتجديد الديني عند الكواكبي يأخذ صورة إعادة النواقص المعطلة، وإزالة الزوائد الباطلة: «مما يطرأ عادة على كل دين يتقدم عهده فيحتاج إلى مجددين يرجعون به إلى أصله المبين»^(٤).

(١) محمد المخزومي، خاطرات جمال الدين الأفغاني الحسيني، ط ٢ (بيروت: دار الحقيقة، ١٩٨٠) ص ١٦٦.

(٢) محمد عبده، الإسلام دين العلم والمدينة، تحقيق عاطف العراقي (القاهرة: سينا للنشر، ١٩٨٧)، ص ١٥٢، ١٥٤، ١٧١.

(٣) الوحدة، العدد ١٣ (١٩٨٥).

(٤) الكواكبي، طبائع الاستبداد ومضارح الاستعباد، ص ٩٨.

(٥) محمد عمارة، التراث في ضوء العقل (بيروت: دار الوحدة، ١٩٨٠) ص ١٢.

(٦) عمارة، عبدالرحمن الكواكبي: شهيد الحرية ومجدد الإسلام، ص ١٥١.

صوفية الزمان، الذين يهونون عليه كل التهوين»^(١). إذا يبدو لنا الكواكبي اليوم عبر سياق خطابه هذا، وقد أدرك الأمور برؤية عصرية يمكن تلخيصها بالآتي:

- القمع والإرهاب يؤدي إلى لجم العقل.
- التمثهذب والانغلاق يؤدي إلى البعد عن الاجتهاد.
- التصوف بشكل أو بآخر، يعكس واقع المجتمع المتخلف، الأمر الذي يعني أنه تعبيراً عن إجهاض الواقع، وعبر المجالات السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية كافة. وبذلك تبرز حركة التصوف كما يفهمها الخطاب العربي المعاصر للشهيد حسين مروة على أنها تعبير عن واقع سياسي معين، يعيش حالة نكوص وإجهاض^(٢).

(١) المصدر نفسه، ص ١٥١.

(٢) حسين مروة، النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية ٢ ج (بيروت: دار الفارابي، ١٩٨٥)، ج ٢، ص ١٥٠.

التيارات والحركات اليهودية المناهضة للحركة الصهيونية

د. راما عزيز دراز^(*)

في اجتماع عقد في ألمانيا (فرانكفورت) في تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩١١م، وكان هناك نقاش حول استعمال اللغة اليديشية أو اللغات المحلية، والنظرة إلى الحضارة الغربية المعاصرة التي تقبلها الألمان^(٢). وتمّ وضع اللبنة الأساسية لنشوء (أغودات إسرائيل)^(٣) كمنظمة عالمية^(٤).

عملياً، تأسس حزب أغودات إسرائيل، في (كاتوفيتش) في بولندا، كمنظمة دينية يهودية في نهاية أيار (مايو) ١٩١٢م^(٥).

أولاً: حزب (أغودات إسرائيل):

يعتبر حزب أغودات إسرائيل من طليعة الأحزاب الدينية اليهودية المناهضة للصهيونية والرافضة لها، فادّعى هذا الحزب أن القضايا اليهودية تُحل وفقاً للتوراة وروحه.

بدايات أغودات إسرائيل:

شارك ممثلون عن يهود عدة دول أوروبية (ألمانيا، هنغاريا، لتوانيا، بولندا)^(١)

(*) منتدب للتدريس في كلية العلوم الإنسانية جامعة بيروت العربية

(١) أتينغر، شموئيل: أمة وتاريخها - العهد الجديد، ج ٢ (عبري)، ص ٢٠٣.

(٢) الفشطيني، خالد: اليهودية الصهيونية، ص ٧٦٧.

(٣) عبارة عبرية تعني «وحدة أو رابطة إسرائيل»، وهو حزب سياسي ديني اعتبر التوراة كما فسرها المفسرون التقليديون على مر العصور بأنها الرمز الجديد للقانون الملزم لكل من اليهود كأفراد أو اليهود ككل، وهو حزب سياسي يهودي على الطريقة الأرثوذكسية، تأسس عام ١٩١٢م المسييري، عبد الوهاب: موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية، ص ٥٨؛ رابكن، ياكوف: المناهضة اليهودية للصهيونية، ص ٣٢١؛

Patal, Raphael: Encyclopedia of Zionism & Israel, vol. 1, p. 11;

Halperin, Samuel: The Political World of American Zionism, p.67.

(٤) أتينغر، شموئيل: أمة وتاريخها - العهد الجديد، ج ٢ (عبري)، ص ٢٠٣.

(٥) فوند، يوسف: حركة في وسط الخراب (عبري)، ص ٣؛ القشطيني، خالد: اليهودية اللاصهيونية، ص ٧٦٧؛ لندن، إيلاان: موسوعة كارتا (عبري)، ص ١٢؛ فوند، يوسف: الرمزية الصهيونية في رموز أغودات إسرائيل، المجلة

بعد أن انفصل عددٌ من زعماء حركة (مزرachi)^(١)، من المنظمة الصهيونية، عندما تمّ التصويت على وجود عمل تربوي وثقافي لليهود في فلسطين؛ فانسحب المعترضون، وانضمّ إليهم يهود أرثوذكس آخرون، وشكلوا حزب أغودات إسرائيل عام ١٩١٢م^(٢).

عقد المنشقون عن همزراحي مؤتمرهم الأول في (كاتوفيتش)، بحضور (٣٠٠ عضو)،، افتتح الحاخام يعقوب روزنهايم (Jacob Rosenheim)^(٣)، المؤتمر^(٤)، الذي تم في نهايته الإعلان عن تأسيس حزب أغودات إسرائيل، وإقامة (مجلس كبار علماء التوراة)^(٥) كهيئة عليا مشرفة على توجيه

الدورية الصهيونية، ع٢٣ (عبري)، ص٣٥؛ غلاس، شارلز: اليهود الإسرائيليون المعادون للصهيونية، ع٥٣-٥٤، ص٦٣؛ آتينغر، شموئيل: أمة وتاريخها - العهد الجديد، ج٢ (عبري):

Liebman, Charles: Religion & Politics in Israel, p.57; Judiaca, Vol. 2, p.424; Rita Jamesokl: Simon author: Continuity & Change, p.47.

(١) مزج لكلمتي «مركز» و«روحاني»، وهي حركة صهيونية نادت بأن (أرض إسرائيل لشعب إسرائيل، حسب شريعة وتوراة إسرائيل)، عقدت مزرachi أول مؤتمر لها عام ١٩٠٣م، وفي عام ١٩٠٧م، انضمت إلى الحركة الصهيونية، وبعد الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨م)، نُقل مركزها إلى القدس (المسيري، عبد الوهاب: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ج٦، ص٢٨٥؛ تلمي، أفرايم ومناحيم: معجم المصطلحات الصهيونية، ص١٣٥-١٣٦، لندن، إيلان: موسوعة كارتا (عبري)، ص٨١٨).

(٢) القشطيني، خالد: اليهودية اللاصهيونية، ص٧٦٧؛ أبتيبول، ميخائيل، وآخرون: الصهيونية ومعارضوها في الشعب اليهودي (عبري)، ص٣٣؛ رابكن، ياكوف: المناهضة اليهودية للصهيونية، ص٢١٧؛

Liemman, Charle& Others: Religion & Politics in Israel, p.63.

(٣) وُلد عام ١٨٧٠م، وكان من مؤسسي ورئيس حزب أغودات إسرائيل من ١٩١٢م، حتى وفاته عام ١٩٦٥م، وكان مختلفاً عن باقي حاخامات أوروبا الشرقية بمعلوماته الواسعة عن الثقافة العلمانية، رفض قرار التقسيم وتأسيس دولة يهودية. (آتينغر، شموئيل: أمة وتاريخها - العهد الجديد، ج٢ (عبري)، ص٢٠١؛ أبتيبول، ميخائيل وآخرون: الصهيونية ومعارضوها في الشعب اليهودي (عبري)، ص٣٣).

Sofer, Sason: Vanson, Shefer: Zionism and the foundations of Israel diplomacy, p.313-317; Kimmerling, Baruch: The Israeli state and society; boundaries and frontiers, p.183.

(٤) تلمي، أفرايم ومناحيم: معجم المصطلحات الصهيونية، ص١٠؛ سعفان، كامل: اليهود تاريخ وعقيدة، ص٧٣؛ Patal, Raphael: Encyclopedia of Zionism & Israel, Vol.1, p.11.

(٥) هو الهيئة العليا لحزب أغودات إسرائيل، والأعضاء فيه من الحاخامات الكبار، وكان باستطاعة أولئك الحاخامات تقرير مصير وطريق الحزب اعتماداً على الشريعة اليهودية. أسس عام ١٩١٢م، وكان باستطاعة أولئك الحاخامات تقرير مصير وطريق الحزب اعتماداً على الشريعة اليهودية. أسس عام ١٩١٢م، وكان المجلس يُعقد فقط عندما تكون هناك حاجة للبت في القضايا المتعلقة بالحزب، وكانت اجتماعاته تتم بصورة سرية، وتتم المناقشات داخله باللغة اليديشية، (الزرو، صلاح: المتدينون في المجتمع الإسرائيلي، ص٣٤٧-٣٤٨؛ منصور، جوني: الأعلام والمصطلحات الصهيونية والإسرائيلية، ص٤١٥؛ لندن، إيلان: موسوعة كارتا (عبري)، ص٨١٠؛ شتسبرغ، هيلدا: العvisان والتقاليد في أرض إسرائيل فترة الانتداب (عبري)، ص٧٤.

ذلك الحزب، وقد ورد ضمن لائحة الأنظمة المؤقتة التي أصدرها الحزب أن هدف (مجلس كبار علماء التوراة) الرئيس هو حل القضايا المختلفة التي تواجه جموع اليهود في حياتهم اليومية بحسب روح التوراة والفرائض^(١).

وفي الجلسة الافتتاحية لمؤتمر تأسيس حزب أغودات إسرائيل قال الحاخام يعقوب روزنهايم: «إنه ليس في توجهنا خلق منظمة مثل باقي المنظمات، نحن نريد خلق شيء جديد، ونقيم (شعب التوراة) من جديد»^(٢)، وقال يعقوب روزنهايم حول فكرة تأسيس الحزب: «إن فكرة إقامة حزب أغودات إسرائيل تطور بشكل مباشر من اتحاد المتدينين، الذي عُقد في فرانكفورت عام ١٨٨٥م»^(٣). وأدعى أن السلطات العثمانية كانت ستسهل قيام «دولة التوراة»، أما بريطانيا فستساهم في قيام دولة صهيونية

كجزء من إمبراطوريتها العالمية، وأنكر روزنهايم الفكرة الصهيونية التي اعتبرت (أرض إسرائيل)، الأساس لقيام ووجود (الشعب اليهودي)^(٤).

كانت الرغبة المعلنة لأغودات إسرائيل هو مواجهة الصهيونية^(٥)، وسعى الحزب إلى توحيد المجموعات الأرثوذكسية الشرقية والغربية الأوروبية، لتكوّن جبهة موحدة لمواجهة الحركة الصهيونية ومطالبها في إجراء تغييرات في تركيبة ومكونات الحياة اليهودية^(٦)، بهدف إيجاد خيار بديل لكل المنظمات اليهودية الحديثة، بما فيها الحركة الصهيونية، والتي - كما يرونه - خرجت عن القاعدة اليهودية التقليدية^(٧).

يمكن القول، إن إنشاء هذا الحزب كان نتيجة تأثير مباشر من قيام منظمتين، هما

- (١) الزرو، صلاح: المتدينون في المجتمع الإسرائيلي، ص ٣٢٩؛ سغان، كامل: اليهود تاريخ وعقيدة، ص ٧٣؛ تلمي، أفرايم ومناحيم: معجم المصطلحات الصهيونية، ص ١٠؛ فوند، يوسف: حركة في وسط الخراب (عبري)، ص ٣؛ جريس، صبري: تاريخ الصهيونية، ج ١، ص ٢١٥؛ أبيتول، ميخائيل وآخرون: الصهيونية ومعارضوها في الشعب اليهودي (عبري)، ص ٣٣؛ ماضي، عبد الفتاح: الدين والسياسة في إسرائيل، ص ٢٥٥.
- (٢) شتسبرغ، هيلدا: العصيان والتقاليد في أرض إسرائيل فترة الانتداب (عبري)، ص ٧٤؛ جريس، صبري: تاريخ الصهيونية، ج ١، ص ٢١٥.
- (٣) أتينغر، شموئيل: أمة وتاريخها - العهد الجديد، ج ٢، (عبري)، ص ٢٠١.
- (٤) أبيتول، ميخائيل وآخرون: الصهيونية ومعارضها في الشعب اليهودي (عبري)، ص ٣٤.
- (٥) نيوبيرغر، جي: الفرق بين اليهودية والصهيونية، الصهيونية حركة عنصرية، ص ١٩٤.
- (٦) Patal, Raphael: Encyclopedia Zionism & Israel, Vol. 1, p.11.
- (٧) أبيتول، ميخائيل وآخرون: الصهيونية ومعارضوها في الشعب اليهودي (عبري)، ص ٣٣.

اتحاد المتدينين في ألمانيا، والحركة الصهيونية^(١).
يد طائفة أرثوذكسية^(٤)، وفي ذلك العام اعتبر أن معارضة الصهيونية من أحد مبادئه الأساسية^(٥).

انتسب حزب أغودات إسرائيل أيديولوجياً إلى الأفكار اليهودية الأرثوذكسية المتشددة، وانطلق منها في وضع برامجه السياسية^(٢)، واهتم بتشجيع التعليم التوراتي، والأعمال الاقتصادية، والتمثيل السياسي، والتعليم، والرخاء للمجتمع الحر اليهودي المتدين^(٣).
لم يكن أغودات فاعلاً حتى تموز (يوليو) ١٩١٩م، بدأ عمله في فلسطين على

أسس الحزب حركة شبابية أسماها (زاعيري أغودات إسرائيل)^(٦)، وحركة نسائية أسماها (نشي أغودات إسرائيل)^(٧) (Neshei Agudat Israel)^(٨).

أنشأ الحزب فروعاً له في أكثر من مكان بواسطة (الإشكنازية)^(٩) العالمية^(١٠)، وانضم إليه عدد كبير من حاخامات وجماهير اليهود في مختلف أنحاء العالم^(١١).

(١) أتينغر، شموئيل: أمة وتاريخها - العهد الجديد، ج ٢ (عبري)، ص ٢٠٤.

(٢) ماضي، عبد الفتاح: الدين والسياسة في إسرائيل، ص ٢٦٠؛ Encyclopedia Judaica, Vol. 2, p. 421-424.

(٣) أبتيول، ميخائيل وآخرون: الصهيونية ومعارضوها في الشعب اليهودي (عبري)، ص ٣٣؛ فوند، يوسف: الرمزية الصهيونية في رموز أغودات إسرائيل، المجلة الدورية الصهيونية، ع ٢٣ (عبري)، ص ٣٥؛ أتينغر، شموئيل: أمة وتاريخها - العهد الجديد، ج ٢ (عبري)، ص ٢٠٣.

(٤) Encyclopedia Judaica, Vol. 2, p. 424.

(٥) نيوبيرغر، جي: الفرق بين اليهودية والصهيونية، الصهيونية حركة عنصرية، ص ١٩٤؛

Patal, Raphael: Encyclopedia Zionism & Israel, Vol. 1, p.49.

(٦) لم يعثر الباحث على تعريفه.

(٧) لم يعثر الباحث على تعريفه.

(٨) ماضي، عبد الفتاح: الدين والسياسة في إسرائيل، ص ٢٥٥؛ الزرو، صلاح: المتدينون في المجتمع الإسرائيلي، ص ٣٣١؛ القشطيني، خالد: اليهودية اللاصهيونية، ص ٧٦٧؛ منصور، جوني: الأعلام والمصطلحات الصهيونية والإسرائيلية، ص ٤١؛ Encyclopedia Judaica, Vol. 2, p. 421.

(٩) كلمة عبرية الأصل، واصطلاح يرمز إلى تجميع اليهود بشكل متماسك في شمال غربي أوروبا، ثم أصبح يعني يهود شرقي أوروبا (روسيا وبولندا) الذين يتحدثون اليديشية، وهي لغة اليهود الألمان من القرون الوسطى. (الحوت، بيان: فلسطين، ص ٢٤٤؛ الكيالي، عبد الوهاب: موسوعة السياسة، ج ١، ص ٢٠٤؛ صالح، محسن: فلسطين، ص ٢٣٩).

(١٠) ماضي، عبد الفتاح: الدين والسياسة في إسرائيل، ص ٢٥٥؛ الزرو، صلاح: المتدينون في المجتمع الإسرائيلي، ص ٣٣١؛ القشطيني، خالد: اليهودية اللاصهيونية، ص ٧٦٧؛ Encyclopedia Judaica, Vol. 2, p. 421.

(١١) نيوبيرغر، جي: الفرق بين اليهودية والصهيونية، الصهيونية حركة عنصرية، ص ١٩٤.

وفي بدايات الحرب، كان تأثير العناصر الأرتوذكسية واضحاً وحاسماً، ويعود ذلك إلى السوية الاقتصادية العالية، والثقافة العامة، والحياة الاجتماعية التي سادت في وسط وغرب أوروبا^(١).

أسباب مناهضة أغودات إسرائيل للصهيونية:

تعود خلفية معارضة حزب أغودات إسرائيل للصهيونية، من أن الصهيونية تعمل على تغيير شكل وجوهر (إسرائيل)، لأن الحركة الصهيونية بمحاولتها الحصول على دولة لليهود، ناقضت اليمين التي قطعها (شعب إسرائيل) على نفسه أمام الرب وهي: «ألا يتمردوا، وألا يقربوا النهاية»، وبذلك التزموا بعدم القيام بهجرة جماعية منظمة إلى فلسطين (أرض الميعاد)، لأن ذلك تمرد على الوضع القائم، ويقرب النهاية^(٢).

وسبب آخر في معارضة أغودات للحركة الصهيونية باعتبارها حركة علمانية، وحسب مواقف الحزب فإنها تقوم على

مبادئ غير دينية ويحكمها أناس علمانيون، وتطرح دين القومية، ولا تعترف بدين التوراة، فقد ورد في تعريف الصهيوني في المؤتمر الصهيوني الأول الذي عُقد في بازل بسويسرا عام ١٨٩٧م، أنه: «كل شخص يؤمن بمقررات بازل» وليس بالتوراة؛ لذلك قرر حزب أغودات إسرائيل منذ البداية عدم المشاركة في أي من مؤسسات الحركة الصهيونية العلمانية، فالحزب لم يعارض مبدأ القومية اليهودية بحد ذاته، إنما عارض القومية العلمانية، وكان تأكيده منصباً على الدفاع عن الإيمان اليهودي الأرتوذكسي في كل مكان من العالم^(٣).

وبحسب التوجه الحاد في موقف الحزب في كلام الحاخام شلومو برفاير^(٤)، الذي كان واحداً من مؤسسي الحزب في فرانكفورت، فقد قال: «إن كل المسائل المتعلقة بالصهيونية مثل الكفر، لأنها رفعت شعار اليهودية القومية بدون توراة»، وقال: «أنا شخصياً لم أتردد في أن أسمى هذه

(١) Patal, Raphael: Encyclopedia of Zionism & Israel, Vol. 1, p.12.

(٢) شتسبرغ، هيلدا: العصيان والتقاليد في أرض إسرائيل فترة الانتداب (عبري)، ص ٧٦-٧٧.

(٣) شتسبرغ، هيلدا: العصيان والتقاليد في أرض إسرائيل فترة الانتداب (عبري)، ص ٧٨-٧٩؛ جريس، صبري: تاريخ الصهيونية، ج ١، ص ٢١٥-٢١٦؛ فوند، يوسف: حركة في وسط الخراب (عبري)، ص ٣٦؛

Books, Keter: Israel Pocket Library, p.77

Halperin, Samuel: The Political World of American Zionism, p.67-68.

(٤) لم يعثر الباحث على تعريفه.

نشاطات أגودات إسرائيل المناهضة للحركة الصهيونية:

أنشأ أگودات فرعاً له في القدس عام ١٩١٩م، وقد استهل ذلك الفرع نشاطاته بحملة إعلامية قوية ضد الحركة الصهيونية ومشروعها في فلسطين^(٤).

وأحدث أگودات إسرائيل عدد من المدارس في القدس، وتل أبيب، وصفد للتعليم الديني، وكانت إدارة كافة نشاطاته تتم عبر (مجلس كبار علماء التوراة)^(٥).

وكان الحزب غالباً يعارض الصهيونية في شهادتها أمام عصبة الأمم، ويضع نفسه ناطقاً باسم العرب واليهود المعارضين للصهيونية^(٦)، وحاول إنشاء تنظيم يهودي غير سياسي، ليحل محل الحركة الصهيونية^(٧).

وبين عامي ١٩٢٢-١٩٢٤م، نظّم أگودات حملة فاعلة ضد الصهيونية، في الأوساط البريطانية والصحافة العالمية^(٨)،

الحركة «المدنسين»، وقد وافق كثير من أعضاء الحزب على ذلك الموقف حول الحركة الصهيونية واعتبرها خطراً على اليهود^(١).

كانت طروحات الحركة الصهيونية مرفوضة من غودات فيما يتعلق بالوطن (القومي) أو الدولة اليهودية ككيان سياسي؛ لاعتقاده أن عودة اليهود إلى فلسطين ستتحقق بإرادة الله وتحت قيادة (المسيح المنتظر)، وليس الحركة الصهيونية، لذلك يجب انتظار المسيح لينشئ (مملكة إسرائيل)^(٢). فقدم الحزب العديد من الأفكار مثل: إطالة أمد الانتداب، أو إقامة اتحاد يهودي - عربي، أو تقسيم فلسطين إلى (كانتونات) مع منح الطائفة المتدينة حقوق الحكم الذاتي، وغيرها من الاقتراحات، لأي شيء في نظرهم كان أفضل من دولة يهودية تنتهك تعاليم الشريعة^(٣).

(١) أتينغر، شموئيل: أمة وتاريخها - العهد الجديد، ج ٢ (عبري)، ص ٢٠٤.

(٢) الزرو، صلاح: المتدينون في المجتمع الإسرائيلي، ص ٣٤٠.

(٣) السعدي، غازي: الأعياد والمناسبات والطقوس لدى اليهود، ص ١٧.

(٤) ماضي، عبد الفتاح: الدين والسياسة في إسرائيل، ص ٢٥٥؛ الزرو، صلاح: المتدينون في المجتمع الإسرائيلي، ص ٣٣٠-٣٣١.

(٥) لندن، إيلان: موسوعة كارتا (عبري)، ص ١٢؛

Patal, Raphael: Encyclopedia of Zionism & Israel, Vol. 1, p. 12.

Halperin, Samuel: The Political World of American Zionism, p.68. (٦)

(٧) شتسبرغ، هيلدا: العصيان والتقاليد في أرض إسرائيل فترة الانتداب (عبري)، ص ٧٤.

(٨) رابكن، ياكوف: المناهضة اليهودية للصهيونية، ص ١٨٦.

أن يكون لها مغزى سياسي، واستخدم (دي هان) علاقاته لنقل هذا الصراع إلى المجال السياسي الدولي، وتطلع إلى إنشاء منظمة سياسية لمنافسة الحركة الصهيونية التي كانت في خطواتها الأولى، وغير راسخة تماماً، وهذا هو الخطر الذي شكله (ديهان)^(٤).

اعترض أعضاء (أغودات إسرائيل) لدى سلطات الانتداب البريطاني (في العشرينيات من القرن العشرين) على المزاعم الصهيونية بتمثيل اليهود^(٥)، وفي عام ١٩٢٧م، طلب الحزب من عصبة الأمم بشكل رسمي أن تبلغ سلطات الانتداب البريطاني في فلسطين، أن يكون لليهود المتدينين الحق ألا ينضموا للحركة الصهيونية، وأن يكون لهم كيانهم المستقل، وقد قُبلَ طلبهم بشأن عدم

وبلغت حدة التوتر بين الحركة الصهيونية والحزب ذروتها عندما قُتل يعقوب ديهان (١٨٨١-١٩٢٤م) (Jacob De Hahn)^(١)، المتحدث السياسي لأغودات إسرائيل^(٢).

وأوضح أحد منظري الهاغانا دوافع الاغتيال فقال: «اندفعت» أغودات إسرائيل إلى أتون الصراع الدائر بين الجماعة الواحدة. وكانت مستوطنات (البيشوف القديم) (Yishuv)^(٣) تحت السيطرة حتى الحرب العالمية الأولى، وقد كان أعضاؤها يشكلون أكثرية السكان اليهود، ويشعرون كأنهم في منازلهم الذاتية، ورفض مستوطنو «البيشوف القديم» الاستسلام والخضوع للسيطرة الصهيونية، وعندما انفصلوا وأسسوا جماعة قائمة بذاتها ومستقلة لم يعد أحد يزعجهم، ولولا (ديهان) لنظموا جماعتهم الصغيرة من دون

(١) أستاذ قانون دولي ورجل دين يهودي هولندي، أصدر عام ١٩١٨م، كتاباً عن الأئشودة اليهودية، الذي تلفته الدعاية الصهيونية، فهاجر إلى فلسطين باعتباره أول هولندي صهيوني يهاجر إلى هناك عام ١٩١٩م، كان أحد قادة فرع القدس في أغودات إسرائيل، وفي ٣٠ حزيران (يونيو) عام ١٩٢٤م، اغتالته منظمة الهاغانا. ياكوف، رابكن: المناهضة اليهودية للصهيونية، ص ١٨٥، المسيري، عبد الوهاب: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ج ٦، ص ٤٢٤؛ الزرو، صلاح: المتدينون في المجتمع الإسرائيلي، ص ٣٣٠؛ غلاس، شارلز: اليهود الإسرائيليون المعادون للصهيونية، ع ٥٣-٥٤، ص ٦٣؛ Encyclopedia Judaica: Vol. 8, p.163.

(٢) Patal, Raphael: Encyclopedia Zionism & Israel, Vol. 1, p.12.

(٣) كلمة عبرية معناها الاستيطان، وتُطلق في الكتابات الصهيونية على التجمع الاستيطاني اليهودي في فلسطين قبل قيام الكيان الصهيوني، وتقسم الكتابات الصهيونية تاريخ البيشوف إلى مرحلتين، مرحلة ما قبل عام ١٨٨٢م، ومرحلة ما بين ١٨٨٢-١٩٤٨م. (صايغ، أنيس وآخرون: الموسوعة الفلسطينية، ج ٤، ص ٦٦٢؛ المسيري، عبد الوهاب: موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية، ص ٤٤٥؛ الحوت، بيان: فلسطين، ص ٣٨٥).

(٤) ياكوف، رابكن: المناهضة اليهودية للصهيونية، ص ١٨٧.

(٥) غلاس، شارلز: اليهود الإسرائيليون المعادون للصهيونية، ع ٥٣-٥٤، ص ٦٣.

الانضمام، ورفض الشق الخاص بالاستقلال^(١).

أرض إسرائيل المزعومة ورؤية حزب أعودات إسرائيل منها:

رؤية أعودات إلى فلسطين كونها تلجأ للمضطهدين وليس كدولة يهودية محتملة^(٢). يمكن توضيح رؤى المتحفظين من الاستيطان في فلسطين، ليس فقط لأنهم أصحاب توجهات غير صهيونية، ولكن لأن هناك تأثير من أحداث عام ١٩١١م، ففي ذلك العام عُقد المؤتمر الصهيوني العاشر^(٣) في بازل، قبل شهرين من انعقاد اجتماع فرانكفورت، واتخذ المؤتمر العاشر عدة قرارات حول الثقافة والتعليم العبري، وقرر أن تقوم الحركة الصهيونية بإدارة ذلك الموضوع؛ فأثرت قرارات المؤتمر العاشر على اجتماع المتدينين في فرانكفورت في خريف ١٩١١م، وكذلك على المؤتمر التأسيسي للحزب في كاتوفيتش في ربيع ١٩١٢م^(٤).

خلال الاجتماع التأسيسي للحزب الذي عُقد في فرانكفورت عام ١٩١١م، كانت هناك صيغة لا صهيونية، حيث طالب ثلاثة من المشاركين في الاجتماع بعدم التركيز على فلسطين، وقال أحدهم: «إن مسألة الاستيطان في فلسطين ليست أوامر توراتية» وقال الآخر: «يجب ألا نعطي انطباعاً بأن هناك أمراً مشتركاً بين منطقتنا والصهيونية». أما يعقوب روزنهايم فقال: «إن أعودات إسرائيل لم تجعل من موضوع الاستيطان في فلسطين، الموضوع الأساس في عملها، لكنها ستعطي الموضوع الأهمية المناسبة له»^(٥).

ناهض أعودات إسرائيل رؤية الصهاينة المتدينين للاستيطان في (أرض إسرائيل) استغلت من الصهيونية لدفع المتدينين إلى الهجرة إلى فلسطين والاستيطان فيها، وقال: «إن فريضة استيطان فلسطين ليست إلا واحدة من (٦١٣) فريضة تُلزم اليهودية أبناءها بها، ولا يمكن إلغاؤها، بسبب إساءة استعمالها وعدم فهم الصهاينة لها، إننا

(١) ماضي، عبد الفتاح: الدين والسياسة في إسرائيل، ص ٢٥٧؛ نيويورك، جي: الفرق بين اليهودية والصهيونية (الصهيونية حركة عنصرية)، ص ١٩٤؛ المسيري، عبد الهاب: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ج ٦، ص ٤١٧.

(٢) Schiff, Gary: The Religions Parties of Israel, p.78.

(٣) عقد في بازل (٩-١٥ آب (أغسطس) عام ١٩١١م)، وناقش موضوع العمل في فلسطين والقضية العربية وضرورة شرح موضوع الصهيونية بين العرب. (تلمي، أفرايم ومناحيم: معجم المصطلحات الصهيونية، ص ٤٠٦).

(٤) أتينغر، شموئيل: أمة وتاريخها - العهد الجديد، ج ٢ (عبري)، ص ٢٠٣-٢٠٤.

(٥) أتينغر، شموئيل: أمة وتاريخها - العهد الجديد، ج ٢ (عبري)، ص ٢٠٣.

إلزام اليبشوف بأكثر من طاقته، وجعله أساساً وحيداً للديانة اليهودية»^(٤).

كان لأغودات موقف غير معارض تجاه (المستوطنات) التي أنشأت في فلسطين رغم معارضتها للحركة الصهيونية. وكان معظم أعضاء الحزب يعتبرون أن طريقة الحياة والثقافة السائدة تأخذ شكل المستوطنات الحديثة في فلسطين^(٥).

اتصف موقف القرارات بالتردد تجاه الاستيطان في فلسطين، فلم يؤيد الحزب أو يساعد في إنشاء مستوطنات في فلسطين، ما لم تستند على الاحترام الكامل للقانون اليهودي، واعترض الحزب على مفهوم الوطن (القومي) لليهود والدولة اليهودية، التي لا تُقام على القانون اليهودي والتقاليد اليهودية^(٦).

أكد حزب أغودات على ضرورة الوصاية الدينية لاستيطان الأراضي، حتى أن أقلية في الحزب رأت أن بناء الدولة هو مشروع ديني وطني ذو أهمية كبيرة، وهو البعد

نسمح لأنفسنا بأن نشعر بالبعد عن تهمة تقليد الصهيونية، وعندما يقدم التاريخ مناسبة لتأدية تلك الفريضة بشكل دقيق ومتصل، لن نتردد في ذلك، ونحن ملتزمون بتأدية (٦١٣) فريضة، بينما يلتزم الصهاينة بواحدة فقط»^(١). وبعد الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨م)، أبدى الحزب تغييراً في موقفه تجاه فلسطين، من ناحية الإعداد التنظيمي للهجرة إليها^(٢).

احتدم خلاف أغودات إسرائيل مع الحركة الصهيونية عام ١٩١٩م، عندما بدأ الاستيطان في فلسطين، بمراحل التنظيم واتضح أنه لن يقوم على أسس توراتية^(٣).

ناهض أغودات رمزية شعار (أرض إسرائيل) في رؤية (الشعب اليهودي)، الذي تبنته الحركة الصهيونية وقال الحزب: «إن أغودات إسرائيل لا تشجب المهجر، ولكنها لا تحبذه أيضاً، وما دام الخلاص بعيداً والمهجر قائماً، تعترف اليهودية المتدينة الورعة بوجوده ولا تتجاهله، كما أيد الحزب توطين اليهود في فلسطين، ولكنه امتنع عن

(١) جريس، صبري: تاريخ الصهيونية، ج١، ص٢١٦؛ الزرو، صلاح: المتدينون في المجتمع الإسرائيلي، ص٣٢٩-

٣٣٠؛ ماضي، عبد الفتاح: الدين والسياسة في إسرائيل، ص٢٥٥؛

Lieman, Charle& Others: Religion & Politics in Israel, p.65.

(٢) أبيتول، ميخائيل وآخرون: الصهيونية ومعارضوها في الشعب اليهودي (عبري)، ص٣٢.

(٣) أبيتول، ميخائيل وآخرون: الصهيونية ومعارضوها في الشعب اليهودي (عبري)، ص٣٣-٣٤.

(٤) جريس، صبري: تاريخ الصهيونية، ج١، ص٢١٦؛ الزرو، صلاح: المتدينون في المجتمع الإسرائيلي، ص٣٣٠.

(٥) Encyclopedia Judaica, Vol. 2, p. 422.

(٦) Patal, Raphael: Encyclopedia Zionism & Israel, Vol. 1, p.12.

الغائب في تفكير غالبية قادة الحزب، إلا أن المتحمس البارز لمثل ذلك الموقف كان إسحاق بروير^(١).

كان للمهاجرين البولنديين تأثير متزايد على أعودات إسرائيل، ولذلك تم إطلاق حملة جديدة للمشاركة الفعالة في تجمع المستوطنين، ففي أواخر العشرينيات بدأ الحزب بالتعاون مع المؤسسات الشيوعية الرسمية، وخصوصاً من خلال البلديات^(٢). ومع ذلك رفض الحزب خيار (أرض إسرائيل)، كمكان مركزي لليهود حتى سنوات الأربعينيات من القرن العشرين^(٣).

الهجرة إلى فلسطين ورؤية حزب أعودات إسرائيل منها:

لم يكن هناك أي رؤية أو موقف من قبل حزب أعودات إسرائيل حول الهجرة والاستيطان في فلسطين^(٤) عند عقد المؤتمر التأسيسي للحزب في عام ١٩١٢م. ولم يكن من توجهات هذا الحزب

الهجرة إلى فلسطين والاستيطان فيها منذ نشوئها، فأنحصرت الهجرة برغبات فردية، ولم يكن من توجهات الحزب الأيديولوجية لفترة طويلة^(٥). ووضح أعودات إسرائيل أن مؤيديه لم يهاجروا إلى فلسطين، تنفيذاً لتوجهات الحركة الصهيونية، ولكن من أجل إقامة ودعم اليبشوف اليهودي ذي الاستقلال الديني التربوي الذاتي^(٦).

وفي عام ١٩٣٥م، جاء وفد من الحزب من بولندا إلى فلسطين، واعترف بحزب أعودات إسرائيل داخل فلسطين، وأسس وكالة لتتعامل مع أمور الهجرة والتفاوض مع الشخصيات الخارجية، فكانت تلك الوكالة تمثل المهاجرين من بولندا وألمانيا، الذين كانوا أعضاء في الطائفة الأرثوذكسية، وفي العام نفسه جلبت الهجرات معها أعضاء من أعودات إسرائيل من بولندا وألمانيا الذين أرادوا أن يندمجوا اقتصادياً، كما أرادوا الاندماج في الحياة السياسية في (اليشوف الجديد)^(٧)؛ مما أدى إلى تغيير

(١) Lieman, Charles & Others: Religion & Politics in Israel, p.65.

(٢) Encyclopedia Judaica, Vol. 2, p.425.

(٣) شتسبرغ، هيلدا: العصيان والتقاليد في أرض إسرائيل فترة الانتداب (عبري)، ص ٧٤.

(٤) أتينغر، شموئيل: أمة وتاريخها - العهد الجديد، ج ٢ (عبري)، ص ٢٠٥.

(٥) فوند، يوسف: الرمزية الصهيونية في رموز أعودات إسرائيل، المجلة الدورية الصهيونية، ع ٢٣ (عبري)، ص ٣٥.

(٦) السعدي، غازي: الأعياد والمناسبات والطقوس لدى اليهود، ص ١٧.

(٧) وهو الاصطلاح الذي أطلقه الصهاينة على التجمع الاستيطاني الصهيوني ابتداء من عام ١٨٨٢م، إذ كانوا ينظرون إلى أنفسهم على أنهم جماعة قومية ذات برنامج سياسي محدد يتلخص في إنشاء الوطن اليهودي (المسيري، عبد الوهاب: موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية، ص ٤٤٥).

في التركيب والأهداف والنشاطات السياسية للحزب في فلسطين^(١).

ومع وصول عدد كبير من اليهود المتدينين إلى فلسطين لم يستطع زعماء الحزب الاستمرار في معارضتهم الشديدة للاستيطان الجديد، والبقاء ضمن عزلتهم الاجتماعية والسياسية، وألغيت الخلافات في المؤتمر الذي عُقد للحزب في مدينة مرينباد عام ١٩٣٧م^(٢). أما بالنسبة إلى الهجرة اليهودية ذاتها، فكان موقف (أغودات إسرائيل) مانعاً، فقد كان يجاري التعاليم التقليدية، فيرحب بالهجرة والإقامة في فلسطين، ولكن لغرض العبادة والدين، أو على الأقل على أساسها^(٣).

لم تكن بدايات أغودات إسرائيل قائمة على أساس الهجرة إلى فلسطين، كما كان ذلك في التحركات اليهودية التي قامت أوائل القرن التاسع عشر، والتي قامت على أساس النهضة التي قادتها الحركة الصهيونية؛ من أجل التحرك نحو الهجرة إلى فلسطين، ولم تكن الأسس التنظيمية لقيام أغودات

إسرائيل على تلك الخلفية^(٤).

لم يرفض الحزب مبدأ التوطن اليهودي في فلسطين، إنما رفض محاولات الحركة الصهيونية المنظمة لإحياء (القومية) والدولة اليهودية؛ لأن ذلك الأمر بالنسبة لهم لا يؤدي إلى سلام مع الجيران، لذلك أيد الحزب مبدأ التوطن في فلسطين، لكنه صرح منذ البداية أن الهجرة ليست الهدف لوحيد (لشعب إسرائيل)^(٥).

عارض أغودات إسرائيل وجهة النظر الصهيونية في أنه يجب على اليهود التوجه إلى فلسطين والاستيطان فيها، مجتمع يهودي هناك، وتعد المجموعات الأرثوذكسية أن تجميع اليهود في فلسطين قضية لا يمكن فصلها عن المشيخانية، والتي لم يحن وقتها^(٦).

ولذلك لم يكن زعماء أغودات إسرائيل في أوروبا يشجعون أتباعهم على الهجرة إلى فلسطين؛ لاعتقادهم أن ذلك الأمر سيحدث تلقائياً مع (مجيء المسيح المخلص) فقط^(٧).

(١) Encyclopedia Judiaca, Vol. 2, p. 424.

(٢) تلمي، أفرايم ومناحيم: معجم المصطلحات اليهودية، ص ١٠.

(٣) القشطيني، خالد: اليهودية اللاصهيونية، ص ٧٦٨.

(٤) أبيتول، ميخائيل وآخرون: الصهيونية ومعارضوها في الشعب اليهودي (عبري)، ص ٣٢-٣٣.

(٥) شتسبرغ، هيلدا: العصيان والتقاليد في أرض إسرائيل فترة الانتداب (عبري)، ص ٧٧-٧٨؛ أبيتول، ميخائيل

وآخرون: الصهيونية ومعارضوها في الشعب اليهودي (عبري)، ص ٣٣.

(٦) Patal, Raphael: Encyclopedia Zionism & Israel, Vol. 1, p.12.

(٧) الزور، صلاح: المتدينون في المجتمع الإسلامي، ص ٣٣٤؛ Rita, Games, Simon, Author: Continuity &

Change, p. 47.

تلك الفترة، حيث أراد المشاركة في مؤسسات الاستيطان، وتمثيل نفسه في أطر الحركة الصهيونية، وذلك بهدف العمل على حرية اليهود في أوروبا^(٥).

ومع إقامة الدولة الصهيونية (إسرائيل) عام ١٩٤٨م، اندمج حزب أغودات إسرائيل مع الهجرة وشارك فيها، وشارك في (الدولة) ومؤسساتها منذ إقامتها، واتخذ مع أطر دينية صهيونية^(٦).

خلفيات التعاون بين أغودات إسرائيل والحركة الصهيونية:

بالتزامن مع انتهاء الحرب العالمية الأولى في عام ١٩١٨م، أدركت قيادة أغودات أنها غير قادرة على حل كافة قضايا اليهود، أو محاربة الحركة الصهيونية، وأن عليها التعاون مع الحركة الصهيونية من أجل الحفاظ على معسكرها وبقائها، ومن خلال ذلك التحول حاولت بعض قيادات الحزب التواصل مع الحركة الصهيونية، وبعد تدهور الوضع الاقتصادي لليهود في أعقاب الأزمة الاقتصادية العالمية في العشرينيات، تولدت الحاجة لإيجاد ملجأ

أيد حزب (أغودات إسرائيل) التقييد الشديد للهجرة اليهودية، في وقت كان فيه ملايين اليهود فيالعالم بأمس الحاجة إلى مثل ذلك (الملاذ)^(١).

طالب يعقوب روزنهايم، رئيس حزب أغودات إسرائيل ألا يضع الحزب فلسطين كطرح أساسي وحدوي أمام المهاجرين اليهود في أوروبا، وطالب من أغودات إسرائيل طرح الخيارات المفتوحة أمام الهجرة^(٢)، فكان موقفه إيجابياً من الهجرة إلى فلسطين، لأنها ستدعم التوراة في (أرض إسرائيل)^(٣). فقد أظهر الحزب اهتماماً في تحضير وتسهيل هجرة اليهود من أوروبا، ليس على قاعدة الفكر الصهيوني، بل الديني التوراتي^(٤).

ويمكن القول إنّه، وبعد الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥م)، شجّع حزب أغودات إسرائيل الهجرة إلى فلسطين وذلك من خلال منشوراته التي قام بتوزيعها، وظل ذلك الموقف ثابتاً للحزب حتى انتهاء فترة الانتداب عام ١٩٤٨م، وتغيرت سياسة قيادة حزب أغودات إسرائيل في

(١) Schiff, Gary: The Religions Parties of Israel, p.78.

(٢) فوند، يوسف: الرمزية لصهيونية في رموز أغودات إسرائيل، المجلة الدورية الصهيونية، ع ٢٣ (عبري)، ص ٤١-٤٢.

(٣) أيبنتول، ميخائيل وآخرون: الصهيونية ومعارضوها في الشعب اليهودي (عبري)، ص ٤١.

(٤) منصور، جوني: الأعلام والمصطلحات الصهيونية والإسرائيلية، ص ٣٩.

(٥) فوند، يوسف: حركة في وسط الخراب (عبري)، ص ٣.

(٦) فوند، يوسف: الرمزية الصهيونية في رموز أغودات إسرائيل، المجلة الدورية الصهيونية، ع ٢٣ (عبري)، ص ٤٢.

للتعاون مع مؤسسات الاستيطان في المسائل السياسية والأمنية، وإلى زيادة الهجرة في سنوات الثلاثينيات، وتغيرت بشكل تدريجي علاقة الحزب بالحركة الصهيونية ومؤسساتها داخل الاستيطان اليهودي في فلسطين^(٤).

تراجع الحزب عن بعض مواقفه نتيجة الإرهاب والضغط الصهيوني المتصاعد، وعقد في العهد النازي تسويات واتفاقات مع الصهاينة، على الرغم من أن هدفه كان في الأصل هو مكافحة الصهيونية^(٥). وقد دفع ضغط التيار المؤيد للاستيطان والتعاون مع الحركة الصهيونية، والأزمة الاقتصادية إلى توجيه كل نشاطات الحزب نحو العمل في فلسطين^(٦).

تحت تأثير الحالة الاقتصادية السلبية في أوروبا والتقلبات في معسكر المتدينين،

أمن لليهود، وحل قضاياهم الاقتصادية، وعزز ذلك الوضع الجديد التعاون بين حزب أגודات إسرائيل والحركة الصهيونية، فقرر قادة أגودات إسرائيل محاربة سياسة بريطانيا في إغلاق أبواب الهجرة أمام اليهود إلى فلسطين، ومع صعود نجم الحركة الصهيونية والسيطرة على مكانة مركزية سياسياً، اضطر الحزب للتعامل مع موضوع فلسطين رسمياً^(١).

من هنا، أصبح للشخصيات المؤيدة للتوجهات الصهيونية في الحزب ذات نفوذ كبير، وأدت إلى تغيير في توجهات أגودات إسرائيل، وانقلب بذلك الحزب على موضوع (أرض إسرائيل) والاستيطان فيها، وأصبح توجهاً أساسياً في برنامج الحزب^(٢).

أجبرت أحداث حائط البراق الذي يسميه اليهود (حائط المبكى)^(٣) (Wiling Wall) عام ١٩٢٩م، حزب أגودات إسرائيل

(١) فوند، يوسف: حركة في وسط الخراب (عبري)، ص ٣.

(٢) فوند، يوسف: الرمزية الصهيونية في رموز أגودات إسرائيل، المجلة الدورية الصهيونية، عدد ٢٣ (عبري)، ص ٣٥.
(٣) حائط البراق: جزء من حائط الغربي للمسجد الأقصى في القدس، ويعتقد اليهود أن هذا الحائط هو ما تبقى بعد خراب الهيكل، ويتوجهون للصلاة عنده، والبكاء، ويسمونه "حائط المبكى"، وكان المسلمون يسمحون لليهود بزيارة المكان الذي هو وقف إسلامي من باب التسامح الديني، وقد وقع أول تصعيد خطير بشأن حائط البراق في ٢٣ أيلول (سبتمبر) ١٩٢٨م، عندما حاول اليهود تغيير حالة الأمر الواقع، وتحويل المكان إلى ما يشبه الكنيس اليهودي (صايغ، أنيس وآخرون: الموسوعة الفلسطينية، ج ٤، ص ٦٦٢؛ السنوار، زكريا: منظمة الهاغاناة الصهيونية، ص ٨٩؛ صالح، محسن: فلسطين، ص ٢٧٤؛ المسيري، عبد الوهاب: موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية، ص ١٦٤-١٦٥).

(٤) شتسبرغ، هيلدا: العصبان والتقاليد في أرض إسرائيل فترة الانتداب (عبري)، ص ٧٥.

(٥) نيوبيرغر، جي: الفرق بين اليهودية والصهيونية، ص ١٩٥؛ القشطيني، خالد: اليهودية اللاصهيونية، ص ٧٦٩.
(٦) فوند، يوسف: الرمزية لصهيونية في رموز أגودات إسرائيل، المجلة الدورية الصهيونية، ع ٢٣ (عبري)، ص ٣٩.

الحزب نقلة كبيرة في نظرته لفلسطين، وأدى ذلك التغيير أيضاً عن مزيد من التعاون بين الحزب وسلطات اليبشوف في (الدفاع) وفي المسائل السياسية الداخلية، ومع الوكالة اليهودية في مجالات الهجرة والمسائل السياسية الخارجية^(٤).

ومنذ عام ١٩٣٤م، تزايدت الهجرة من بولونيا وألمانيا، وضم القادمون الجدد أعداداً كبيرة من الأرثوذكس البولونيين والألمان الذين مالوا بفعل محنتهم وتجربتهم إلى التعاون مع الوكالة اليهودية التي تولت أمر نقلهم وتوطينهم^(٥).

أدى التفاوض الذي قام به ممثلون عن أغودات مع ممثلين من الحركة الصهيونية من إلى حدوث انشقاق في أغودات، وذلك لأن المعارضين لذلك التقارب وهم الجزء الأكبر من الجالية اليهودية الأرثوذكسية من (الييشوف القديم)، فضلوا الانفصال عن الحزب عام ١٩٣٥م، وقاموا بتشكيل جماعة (ناتوري كارتا)^(٦) (Neturei Karta).

ونبذ المجتمعات الأوروبية لليهود بسبب سلوكياتهم التي أساءت للمجتمعات، والأزمة الاقتصادية العالمية التي بدأت عام ١٩٢٩م، والتطورات السياسية، خاصة وصول الحزب النازي للحكم في ألمانيا عام ١٩٣٣م، ومعاداته لليهود لأسباب عديدة، وغير ذلك، بدأ الحزب بالعمل على توطين اليهود في فلسطين، فقام بإنشاء صندوق لتمويل المستوطنات في فلسطين، وأسس جمعية (من أجل الوطن)، وقام الاستيطان بإنشاء شركة في الولايات المتحدة، وبنى مدرسة زراعية في ألمانيا، وأنشأ جمعيتين في بولندا تدعوان للاستيطان في فلسطين^(١)، لكن المستوطنات الزراعية القليلة التي حاول الحزب تأسيسها انتهت بالفشل^(٢). وقد ألغيت فيما بعد، وأقام حزب أغودات إسرائيلي مدارس ومؤسسات اقتصادية وبدأ بالتعاون مع مؤسسات صهيونية^(٣).

نقل هذا التغيير في توجهات الحزب هذا

(١) القشطيني، خالد: اليهودية اللاصهيونية، ص٧٦٨؛ Patal, Raphael: Encyclopedia of Zionism & Israel, Vol. 1, p. 12; Encyclopedia Judaica, Vol. 2, p.424.

(٢) القشطيني، خالد: اليهودية اللاصهيونية، ص٧٦٨؛ Schiff, Gray: The religious parties of Israel, p.75.

(٣) تلمي، أفرايم ومناحيم: معاجم المصطلحات الصهيونية، ص١١.

(٤) Schiff, Gary: The Religious Parties of Israel, p.75.

(٥) القشطيني، خالد: اليهودية اللاصهيونية، ص٧٦٩.

Rita, Games; Simon, Author: Continuity & Change, p.47.

(٦) (NetureiKarta)، أصل المصطلح آرامي ومعناه حماية المدينة، أو حماية أسوار المدينة، أو حراس المدينة، وهو اسم طائفة دينية يهودية محافظة ومعارضة للحركة الصهيونية وكافة نشاطاتها، والمصطلح يشير إلى أولئك الذين كرسوا

فلسطين، فطالب الحزب في المؤتمر بأن يكون له ممثلون في أية مناقشات تدور حول مصير فلسطين، في حين لم يحضر لتوقيع العرائض الصهيونية التي طالبت بجعل اليهود دولة مستقلة^(٤).

ومع نهاية الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥م، كان مؤيدو أغودات قد انتهوا تماماً، وأصبح مركز ثقله في الولايات المتحدة الأمريكية وفلسطين مع مجموعة صغيرة في بريطانيا^(٥). وأحدثت التطورات التي حدثت بعد الحرب العالمية الثانية تغييرات في سياسة الحزب، حيث انضم الحزب إلى (كنيست إسرائيل)، وشارك في انتخابات الكنيست قبل وبعد قيام الدولة^(٦).

أما الانعطاف الثانية في موقف أغودات

وبذلك بدأ الحزب مرحلة جديدة اتسمت بالميل نحو التعاون مع الحركة الصهيونية، وذلك بعد أن سيطرت العناصر البولندية على الحزب^(١).

كان الداعمون للحزب الذين عاشوا في فلسطين قبل الثلاثينيات وحافظوا على مقاومتهم للصهيونية والاستقلال الذاتي لليهودية، فقد فقدوا السيطرة على الحزب^(٢).

ومع بداية الحرب العالمية الثانية، تزايد التعاون من أغودات والوكالة اليهودية، فيما يتعلق أمور الإنقاذ والهجرة^(٣). وبانتصار الحلفاء في الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥م، شعر الحزب بأنه مكره على اتخاذ إجراءات تضمن مكانه في المحادثات بشأن

أنفسهم لدراسة التوراة كحراس للمدينة، والجماعة من أكثر فئات اليهود أرثوذكسية، فهي لا تعترف بدولة إسرائيل، وتعتبرها ثمرة «الغطرسة الآثمة» لأنها قائمة على يد نفر من الكافرين الذين خرقوا مشيئة الله بعلمهم وتدخلوا في صنعه. وسيتم دراسة جماعة ناتوري كارتا في المبحث القادم (شتسيرغ، هيلدا: لعصيان والتقاليد في أراض إسرائيل فترة الانتداب (عبري)، ص ٧٥؛ لندن، إيلان: موسوعة كارتا (عبري)، ص ٩٥٠؛ المسيري، عبد الوهاب: موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية، ص ٤٠٠؛ تلمي، أفرايم ومناحيم: معجم المصطلحات الصهيونية، ص ٣١٠؛ السعدي، غازي: الأعياد والمناسبات والطقوس لدى اليهود، ص ٢١؛ القشطيني، خالد: اليهودية اللاصهيونية، ص ٧٦٩؛

Encyclopedia Judaica, Vol. 12, p. 1002; Isseroff, Ami: <http://www.zionism-israel.com>; Goldberg, Joseph and Others: An Historical Encyclopedia of the Arab-Israeli Conflict, p.373; Kimmerling, Baruch: The Israeli State and Society, p.128; Rita, James; Simon, author: Continuity and change, p47).

(١) ماضي، عبد الفتاح: الدين والسياسة في إسرائيل، ص ٢٥٦.

(٢) Rita, Games; Simon, Author: Continuity & Change, p.47.

(٣) Schiff, Gary: The religious Parties of Israel, p.78.

(٤) Halperin, Samuel: the political world of American Zionism, p.69p Encyclopedia Judaica, Vol.2, p.425.

(٥) القشطيني، خالد: اليهودية اللاصهيونية، ص ٧٧١.

(٦) لندن، إيلان: موسوعة كارتا (عبري)، ص ١٢.

عام ١٩٤٧م، عند قيام الأمم المتحدة على تعيين لجنة (انسكوب)^(١)، للتحقيق في الأوضاع في فلسطين وهي اللجنة نفسها التي أقرت قرار التقسيم، فقد سارعت الوكالة اليهودية إثر قرار تعيين اللجنة إلى الاتصال بأغودات إسرائيل؛ من أجل إقناعه بانتهاج موقف لا يتناقض مع موقف الوكالة اليهودية أثناء مقابلة مندوبيها لأعضاء اللجنة^(٢).

رؤية (أغودات إسرائيل) من قيام (دولة إسرائيل) عام ١٩٤٨م:

كانت نظرة أغودات إلى الدولة اليهودية بأنها ستقوم برغبة الرب ومشيئته وتحت قيادة الماشيح، ووفقاً لتعاليم التوراة، وكان الحزب يدعو إلى قيام دولة علمانية في فلسطين لا تقتصر على اليهود فقط، بحيث يعيش فيها اليهود كمواطنين عاديين حتى تحقق إرادة الرب، وذلك يعني أن تكون

فلسطين مركزاً روحياً، وليس كياناً سياسياً^(٣).

أوضحت المراجع الصهيونية أن ممثلي أغودات إسرائيل الذين اجتمعوا مع لجنة (انسكوب)، لم يؤيدوا علانية إقامة دولة يهودية، وكن أقصى ما ذهبوا إليه أنهم اتخذوا موقفاً حيادياً^(٤).

وعندما جاءت لجنة (انسكوب) لاستطلاع الأوضاع في فلسطين، سارعت الوكالة اليهودية إلى الحصول على رضا حزب أغودات إسرائيل مقابل رسالة أرسلتها الوكالة في حزيران (يونيو) عام ١٩٤٧م، تتعلق بمكانة الدين في الدولة المزمع إقامتها، وهي الرسالة التي صارت أساساً لما سمي لاحقاً في (إسرائيل) باتفاقية الوضع الراهن (Status Quo)^(٥) التي تنظم العلاقة بين الدين والدولة، وهكذا تحول الحزب المعارض للصهيونية من

(١) هي اللجنة الخاصة للأمم المتحدة بشأن فلسطين، التي قررت الجمعية العامة في ١٥ أيار (مايو) عام ١٩٤٧م تشكيلها، وقد تألفت من ١١ دولة، وكانت مهمتها التحقيق في قضية فلسطين، ورفع تقرير للجمعية العامة، وتقديم الاقتراحات التي تراها ملائمة لذلك (صالح، محسن: فلسطين، ص ٤٣٧).

(٢) الزور، صلاح: المتدينون في المجتمع الإسرائيلي، ص ٣٣٤.

(٣) ماضي، عبد الفتاح: الدين والسياسة في إسرائيل، ص ٢٥٥.

(٤) الزور، صلاح: المتدينون في المجتمع الإسرائيلي، ص ٣٣٥.

(٥) في عام ١٩٢٠م، تم إنشاء نظامين تعليميين منفصلين في الحركة الصهيونية القديمة (اليشوف)، همنا: نظام تعليمي ديني، ونظام تعليمي عام، وكان ذلك هو المبدأ الفكري والتنظيمي الذي أكدته عليه اتفاقية الوضع الراهن، بالإضافة إلى حق أغودات إسرائيل في الحفاظ على نظامه المدرسي المستقل الخاص به، وثمة عنصر آخر من عناوين اتفاقية الوضع الراهن يتعلق بشكل غير مباشر بمبدأ الحرية الدينية. Lieman, Charles & Others: Religion & Politics in Israel, p.33.

موقف العداء المسفر إلى موقف التصالح والتعاون مع الصهيونية، ولكن دون الاعتراف بشرعية الصهيونية أو شرعية الدولة التي تزول مع إقامتها، وبقيام الدولة تحول الحزب إلى حزب سياسي يعمل في إطار مؤسسات الدولة، ولكن دون الإقرار بشرعية دولة إسرائيل ذاتها^(١).

يتضح مما سبق، أن حزب (أغودات إسرائيل) الذي عارض الصهيونية من منظور ديني لم ينجح في الثبات أمام الصهيونية، وأن معارضته لها لم تكن مؤثرة، بل يتضح أن الحزب توافق معها في مواقفها منذ وقت مبكر، وذلك يعني أن معارضته كانت بسيطة، وضعيفة، ولم تمثل عائقاً للحركة الصهيونية في تنفيذ مشروعها على أرض فلسطين.

ثانياً: فئة ناتوري كارتا، ونشاطها المناهض للصهيونية:

بدايات فئة ناتوري كارات:

تعتبر فئة ناتوري كارتا جزءاً من حزب أغودات إسرائيل الذي نشأ في عام

١٩٢٢م، في أوروبا الشرقية في محاولة لتجميع اليهود الأرثوذكس من أجل معارضة الاتجاهات العلمانية، خصوصاً الصهيونية^(٢).

ظهرت فئة ناتوري كارتا في أعقاب التطورات السياسية داخل الحركة الصهيونية في فلسطين في الثلاثينيات من القرن العشرين، عندما زادت المواجهات بين اليميشوف اليهودي وأهل فلسطين، وتصاعدت قوة (النازية)^(٣) في ألمانيا، حيث وصل (هتلر) إلى سدة الحكم عام ١٩٣٣م، فدفعت تلك التطورات حزب (أغودات إسرائيل)، الذي كان حزباً دينياً يهودياً سياسياً معارضاً للصهيونية، للقيام ببعض أشكال التعاون السياسي مع القيادة الصهيونية في فلسطين^(٤).

ومن بداية الثلاثينيات، ارتفعت الأصوات المنادية بجعل (أرض إسرائيل)، موضوعاً أساسياً في سياسة حزب أغودات إسرائيل، وفي تلك الفترة زاد عدد أعضاء أغودات إسرائيل في فلسطين؛ بسبب زيادة الهجرة

(١) ماضي، عبد الفتاح: الدين والسياسة في إسرائيل، ص ٢٥٨؛ الزرو، صلاح: المتدينون في المجتمع الإسرائيلي، ص ٣٣٤-٣٣٥.

(٢) المسيري، عبد الوهاب: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ج ٦، ص ٤١٧.

(٣) كلمة ألمانية، وهي اختصار للمصطلح الي يعبر عن "الوطنية الاشتراكية"، ويعد كارل شميث وروزنبرج هتلر، المفكران الأساسيان للفكر النازي، وقد ظهر الحزب النازي في العشرينيات من القرن العشرين، ولكنه لم يصل إلى الحكم إلا في الثلاثينيات (المسيري، عبد الوهاب: موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية، ص ٣٩١).

(٤) Emmanuel, Sivan: Religions Radicalism and Politics in the Middle East, p.128.

من بولندا وألمانيا، ومع تزايد المطالبة بالعمل الاستيطاني، والتعاون بين حزب أגودات إسرائيل والحركة الصهيونية، ومشاركته في مؤسساتها، انفصلت عام ١٩٣٤م، مجموعة يمينية عن حزب أגودات إسرائيل؛ وذلك لأن الحزب حاول إعاقة طلباتهم لجعل الحالية الأرثوذكسية منفصلة مستقلة، فانفصلوا عن حزب أגودات إسرائيل، وكونوا جمعية باسم حفرات حايميم (صداقة الحياة)^(١)، والتي أصبحت بعد فترة تسمى (ناتوري كارتا)^(٢).

وفي عام ١٩٣٤م، حضر وفد من المؤتمر العالمي المركزي لأغودات إسرائيل، إلى فلسطين، وكسر سيطرة الحركة الصهيونية على أگودات إسرائيل عن طريق إعطائهم تمثيلاً متساوياً في المؤتمر للمهاجرين من بولندا وألمانيا، وبعد إعادة تنظيم أگودات إسرائيل في فلسطين، انشق بعض عناصر اليشوف القديم من الحركة وشكلوا ناتوري كارتا^(٣).

حاول مؤسسو فئّة ناتوري كارتا (أو ناتوري كارتا) إقناع حزب أگودات إسرائيل بإنشاء طائفة يهودية أرثوذكسية في القدس بشكل مستقل ومنفصل عن الحركة الصهيونية، ولكن الأكثرية في الحزب قاومت الطلب؛ فاضطروا إلى تأسيس جماعتهم الخاصة؛ بهدف حراسة المدينة، ومن هنا جاء اسمها (حراس المدينة)^(٤).

وهكذا ظهرت فئّة ناتوري كارتا الدينية التي انشقت عن حزب أگودات إسرائيل عام ١٩٣٥م، وقد حصل ذلك عندما قام ممثلون عن أگودات إسرائيل التي كانت تمثل المعسكر المعادي للصهيونية، بإجراء مفاوضات مع (المجلس الملي اليهودي)^(٥)، الذي كان يخضع لنفوذ الحركة الصهيونية؛ من أجل التوصل إلى اتفاق بشأن، حاخامية رئيسة موحدة في فلسطين من جهة، وإجراء مفاوضات مشابهة مع حزب همزراحي الصهيوني، سعياً للوصول إلى

(١) فوند، يوسف: الرمزية الصهيونية في رموز أگودات إسرائيل، المجلة الدورية الصهيونية، ع ٢٣ (عبري)، ص ٣٩؛ شتسبرغ، هيلدا: العصبان والتقاليد في أرض إسرائيل فترة الانتداب (عبري)، ص ٧٥؛ المسيري، عبد الوهاب، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ص ٤١٧؛ الزرو، صلاح: المتدينون في المجتمع الإسرائيلي، ص ٣٣٢؛ An Historical Encyclopedia of the Arab-Israeli conflict, p.373p Schiff, Gary: The Religious Parties of Israel, p.75.

(٢) فوند، يوسف: الرمزية الصهيونية في رموز أگودات إسرائيل، المجلة الدورية الصهيونية، ع ٢٣ (عبري)، ص ٣٩.

(٣) Patal, Raphael: Encyclopedia of Zionism and Israel, Vol. 1, p.12.

(٤) القشطيني، خالد: اليهودية اللاصهيونية، ص ٧٦٩.

(٥) لم يعثر الباحث على تعريفه.

صيغة عمل مشتركة معه من جهة أخرى^(١). وأطلقت الجماعة على نفسها اسم (ناتوري كارتا) لأول مرة عام ١٩٣٨م^(٢). وقد أكدت بعض المصادر اليهودية أن معظم اتباع تلك الجماعة ينحدرون من أصول هنغارية، وقد استقروا في مدينة القدس في بداية القرن التاسع عشر^(٣). كان غرض ناتوري كارتا أن تخلق مجتمعاً خالياً من التأثير الصهيوني، وكان

من بين الأشياء التي دعت إليها الجماعة، التعليم بالطريقة التقليدية^(٤). كان (أمرام بلاو)^(٥) زعيم فئة ناتوري كارتا، وظل في منصبه حتى وفاته عام ١٩٧٤م^(٦). جاء معظم أعضاء الجماعة من اليبشوف القديم، ولكن انضم إليهم بعض المهاجرين من هنغاريا من أتباع الحاخام (يوتيل تيتيلباوم)^(٧)، والذي أضاف عمقاً أيديولوجياً لمفاهيم ناتوري كارتا^(٨).

(١) الزرو، صلاح: المتدينون في المجتمع الإسرائيلي، ص ٣٨٨؛ لندن، إيلان: موسوعة كارتا (عبري)، ص ٩٥٠؛ نيوبيرغر، جي: الفرق بين اليهودية والصهيونية، ص ١٩٥؛

Encyclopedia Judiaca, Vol. 12, p. 1002; Goldberg, Joseph and others: An Historical encyclopedia of the Arab-Israeli Conflict, p.374.

(٢) Encyclopedia Judiaca, Vol. 12, p. 1002; Goldberg, Joseph and Others: an Historical Encyclopedia of the Arab-Israeli conflict, p.373; خالد: اليهودية اللاصهيونية، ص ٧٦٩-٧٧١.

(٣) عبد المعبود، مصطفى: يهود يرفضون إسرائيل، ص ١٥؛ القشطيني، خالد: اليهودية اللاصهيونية، ص ٧٦٩-٧٧١. Goldberg, Joseph and Others: An Historical Encyclopedia of the Arab-Israeli Conflict, p.373. (٤)

(٥) ولد أمرام بلاو في القدس لأسرة يهودية متدينة عام ١٨٩٤م، ولم يغادر فلسطين قط. وفي أوائل الثلاثينيات، كان عضواً بارزاً في حزب أغودات إسرائيل، ولكنه ترك صفوفه هو وبعض زملائه عام ١٩٣٥م، عندما لاحظوا حدوث تقارب بين الحزب والصهانية، فانفصل عنه وأدان قادته، واتهمهم بالتواطؤ مع المارقين الصهانية من أجل المال والجاه والسلطة، وقد أسس بلاو مع رفاقه تجمّعاً أطلقوا عليه «صداقة الحياة»، التي تدرجت فيما بعد إلى ن وصلت إلى جماعة ناتوري كارتا، ثم أصبح عمرا م بلاو أعظم زعماء جماعة ناتوري كارتا (المسيري، عبد الوهاب: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ج ٦، ص ٤٢٧؛ عيلام، يغال: ألف يهودي في التاريخ الحديث (عبري)، ص ٣٧؛ نيوبيرغر، جي: الفرق بين ليهودية والصهيونية، ص ١٩٥، الزرو، صلاح: المتدينون في المجتمع الإسرائيلي، ص ٣٣٢؛ Encyclopedia Judiaca, Vo. 3, p.742.

(٦) Rita, James; Simon, Author: Continuity & Change, p.47.

(٧) (١٨٨٧-١٩٧٩م) زعيم حاسيدي، وُلد في هنغاريا عام ١٨٨٧م، كان كبير حاخات الفرقة الحسيدية المسماة (ساتمار)، وجماعة ناتوري كارتا، وقد سس مدرسة حاخامية في ساتمار في رومانيا عام ١٩٠٦م، وكان حاخماً في هنغاريا، ولاحقاً في فلسطين، توفي عام ١٩٧٩م (المسيري، عبد الوهاب: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ج ٦، ص ٤٢٥-٤٢٦؛ R. Mintz: Hasidic: Aplace in the New World, p. 27; De Sherman, Moshe: orthodox Judaism in America, p. 209; Neturei Karta: The Rabbis speak out, p. 87).

(٨) Encyclopedia Judiaca, Vol. 12, p. 1002; Goldberg, Joseph and Others: An istorical Encyclopedia of the Arab-Israeli Conflict, p. 373; Kimmerling, Baruch: The Israeli State and Society, p. 129.

أربطة العنق والمعاطف السوداء والقبعات ذات الحواف العريضة، التي كانت شائعة في شرق أوروبا، ولا يشذبون لحاهم أو سوافهم الطويلة، وكانت غالبيتهم من أوائل اليهود الذين انتقلوا خارج أسوار القدس في القرن التاسع عشر^(٣).

كان شرط الحصول على العضوية لفئة ناتوري كارتا هو «تعليم الأبناء والبنات بالطريقة اليهودية التقليدية دون أي تغيير»^(٤).

كان معظم أفراد هذه الفئة يعيشون في فلسطين^(٥)، ويتمركزون في الجزء الشرقي من القدس في حي (مائة شعاريم)^(٦)، أما في (تل أبيب)^(٨) (Tel Aviv)، فكانوا

وكان معظم أعضاء فئة ناتوري مكارتا من أحفاد اليهود الهنغارين الذين استقروا في القدس في أوائل القرن التاسع عشر، من اليهود الأرثوذكس كانت تلك الجماعة قد كرسست أغلب وقتها لدراسة التلمود والنصوص المقدسة الأخرى^(١).

التزمت الفئة بوجهات النظر الأرثوذكسية الصارمة، واتبعت أساليب الحياة التي جلبت إلى فلسطين من أوروبا الشرقية، وتقيدت جماعة ناتوري كارتا بأسلوب الحياة بين يهود اليديشية في بولندا وروسيا^(٢)، وكان رجال ناتوري كارتا يطلقون لحاهم ويضعون حليقات في آذانهم، ويرتدون القمصان البيضاء بدون

(١) Isseroff, Ami: <http://www.zionism-israel.com>.

(٢) المسيري، عبد الوهاب: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ج٦، ص٤١٨؛ Goldberg, Joseph and Others: An Historical Encyclopedia of the Arab-Israeli Conflict, p.374.

(٣) غلاس، شارلز: اليهود الإسرائيليون المعادون للصهيونية، شؤون فلسطينية، ع٥٣-٥٤، ص٦٣؛ المسيري، عبد الوهاب: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ج٦، ص٨١٤؛

Goldberg, Joseph and Others: An historical encyclopedia of the Arab-Israeli Conflict, p.374.

(٤) Encyclopedia Judaica, Vol. 12, p. 1002:

Goldberg, Joseph and others: an historical encyclopedia of the Arab-Israeli Conflict, p.374.

(٥) عباس، محمود: الصهيونية بداية ونهاية، ص١٢٨.

(٦) استمر البيشوف البداية مرتبكة القديم على نطاق واسع بسبب الصدقات الآتية من التشتت، وقد عرض عليها بعض أهل الإحسان في منتصف القرن التاسع عشر ترك المدينة القديمة والإقامة في أحياء صحية وحديثة أكثر، تحمل إحداها اسم "مائة شعاريم" أي "مائة ضعف"، وترجع تلك التسمية إلى حصاد إسحاق: "وزرع إسحاق في تلك لأرض، فأصاب في تلك السنة مئة ضعف وباركه الربط، وترجمة "ميا شياريم" غالباً خطأ بمعنى "مائة باب" (رابكن، ياكوف: المناهضة اليهودية للصهيونية، ص٧٣).

(٧) القشطيني، خالد: اليهودية اللاصهيونية، ص٧٧١؛ منصور، مصطفى: يهود يرفضون إسرائيل، ص١٨.

(٨) مدينة صهيونية مركزية في (إسرائيل) تقع على السهل الساحلي، توسعت على حساب مدينة يافا الفلسطينية، وعلى أنقاض مجموعة من القرى الفلسطينية بعد النكبة، أقيمت تل أبيب بشكل حارة سكنية عرفت باسم (احوزات بايت)

إلى التصفية النازية، وعندما انتهت الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥م، وجدت الجماعة أن قواعدها التي كانت تتمتع بها في أوروبا قد أبيت كليا، وانتقل مركز الثقل إلى الولايات المتحدة، وفلسطين، كما ظلت مجموعة صغيرة في بريطانيا^(٤).

مرت هذه الفئة بالعديد من التطورات، حيث تأثرت - كغيرها من الأحزاب والجماعات الدينية - بموجات الهجرة الصهيونية إلى فلسطين، فبعد أن كان اليشوف القديم يسيطر على فرع القدس، سيطر المهاجرون الصهاينة القادمون من ألمانيا وبولندا - في أعقاب صعود النازية إلى الحكم في ألمانيا - على مقاليد الأمور داخل الجماعة في فلسطين، وأدخلوا العديد من التغييرات في نشاطات الجماعة وأهدافها في فلسطين على نحو صارت معه الجماعة أكثر مرونة تجاه الحركة الصهيونية، وذلك بهدف تحقيق أكبر مكاسب دينية لجمهورها^(٥).

يتواجدون في حي بني براك، وفي الولايات المتحدة الأمريكية، كان أعضاء ناتوري كارتا يقيمون في مدينة نيويورك، وكانوا يتركزون في بروكلين في حي وليامزبرج^(١).

وتطورت هذه الفئة إلى حركة على نطاق العالم كله، وأصبحت تُعرف في بعض الأقطار باسم حركة «أصدقاء القدس»^(٢).

كانت لفئة ناتوري كارتا مجلس إداري يتكون من سبعة رجال لهم القرار في إدارة شؤون الجماعة في الحياة الدنيوية والدينية، وكان من المعضلات الجوهرية التي واجهتها الجماعة أنها عارضت فكرة التنظيم نفسها، ورأت نفسها جماعة دينية، ونظرت إلى فكرة التنظيم السياسي باعتبارها فكرة غريبة، بل معادية لها، على عكس الصهاينة الذين قاموا من البداية بتنظيم أنفسهم تنظيماً دقيقاً، واستغلوا الضغوط الدولية والمناورات السياسية^(٣).

ادعى اليهود الأرثوذكس أنهم تعرضوا

وذلك عام ١٩٠٩م، ثم حملت اسم (تل أبيب) عام ١٩١٠م. أما مصدر الاسم فيعود إلى ترجمة كتاب هرتسل (التنويلاند) (ورد الاسم تل أبيب في سفر حزقيال النبي بأنه اسم لمدينة في بابل سكنها المسييون من اليهود) (منصور، جوني: معجم الأعلام والمصطلحات الصهيونية والإسرائيلية، ص ١٤٢؛ تلمي: أفرايم ومناحيم: معجم المصطلحات الصهيونية، ص ٤٥٣).

(١) المسيري، عبد الوهاب: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ج ٦، ص ٤١٨.

(٢) نيوبيرغب، جي: الفرق بين اليهودية والصهيونية، ص ١٩٥.

(٣) المسيري، عبد الوهاب: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ج ٦، ص ٤١٧-٤١٨.

(٤) القشطيني، خالد: اليهودية اللاصهيونية، ص ٧٧١.

(٥) ماضي، عبد الفتاح: الدين والسياسة في إسرائيل، ص ٢٥٦.

أسباب مناهضة فئة ناتوري كارتا للحركة الصهيونية:

كانت حجة فئة ناتوري كارتا من مناهضتها للصهيونية، أن (الشعب اليهودي) «ولد أثناء تلقي الشريعة على جبل سيناء، وأن شريعتنا تبين لنا كيف يجب أن نتصرف كيهود، فيما بيننا وتجاه الأمم»، ذلك ما أوضحه الحاخام (أهارون كاتسينلجوجن)^(١)، الزعيم الروحي لفئة ناتوري كارتا في القدس، وأضاف قائلاً: «أنها تبين لنا كيف يجب أن نعبد الرب، وأن شريعتنا ليست مسألة طقوس وشعائر»^(٢).

ورفضت فئة ناتوري كارتا الصهيونية لأسباب منها: أن (فقدان) الأرض المقدسة من اليهود قبل ألفي سنة تقريباً كان بسبب الذنوب التي ارتكبتها اليهود، ولن (نعود) إلا من خلال التوبة الكاملة، وأن اليهود سيكونون قادرين على الاستقرار مرة أخرى، عندما يعود المسيح المنتظر، وليس قبل ذلك^(٣).

استطاعت فئة ناتوري كارتا في الإفلات من الحركة الصهيونية، ففضلت الطبقة

التوحيدية داخل العقيدة اليهودية على الطبقة الحلولية التخصصية الوثنية التي تجعل اليهود وحدهم مركز اهتمام الإله^(٤).

تبنت فئة ناتوري كارتا مناهضة قوية من اليهود الأرثوذكس للصهيونية^(٥).

فناهضت فئة ناتوري كارتا الصهيونية ولكن من زاوية دينية، حيث اعتبرت أنها انحرافاً عن التعاليم الروحية اليهودية^(٦). ورأت الجماعة أن الصهيونية لا تمثل استمراراً للتراث الديني اليهودي أو تنفيذاً للتعاليم اليهودية، وإنما رفض لها وانسلاخ عن التراث الديني، بل إن الصهيونية في نظر جماعة ناتوري كارتا هي أخطر المؤتمرات شيطانية ضد اليهودية^(٧).

أوضحت وثيقة صادرة عن فئة ناتوري كارتا: إن الصهيونية لم تكن فقط انحرافاً هرطقياً عن اليهودية... بل كانت أعيناً عمياء ببشاعة إزاء المواطنين في الأرض المقدسة الأصليين. وفي عام ١٨٩٠م، كان أقل من خمسة بالمائة من السكان يهوداً، على الرغم من ذلك تجرأ هرتسل على وصف

(١) لم يعثر الباحث على تعريفه.

(٢) غلاس، شارلز: اليهود الإسرائيليون المعادون للصهيونية، شؤون فلسطينية، ع ٥٣-٥٤، ص ٦٣.

(٣) Mitchell, Bruce: Language politics and language survival, p. 50.

(٤) المسيري، عبد الوهاب: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ج ٦، ص ٤١٧.

(٥) غلاس، شارلز: اليهود الإسرائيليون المعادون للصهيونية، شؤون فلسطينية، ع ٥٣-٥٤، ص ٦٢.

(٦) الحسيني، حاتم: انتقادات يهودية للصهيونية، ص ٢٣٢-٢٣٣.

(٧) المسيري، عبد الوهاب: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ج ٦، ص ٤١٥.

حركته كـ «حركة شعب دون أرض من أجل أرض دون شعب»^(١).

ناضلت جماعة ناتوري كارتا ضد الحركة الصهيونية، واعتبرتها حركة ملحدة لأنها انتهكت العهد الثلاثة، التي قطعها اليهود للرب، قبل خروجهم للمنفى وهي: «أن لا يسببوا الألم (للأغيار) الذين يقيمون بينهم، وألا يحاولوا احتلال (أرض إسرائيل) بالقوة، وألا يستعجلوا الأمور»^(٢).

رأت جماعة ناتوري كارتا أن الالتزام بالقسم القديم على مدار تاريخ اليهود في المنفى، هو الذي أدى إلى الحفاظ على (شعب إسرائيل) وبقائه واستمراره، وأن المخطئين من اليهود الصهاينة، هم الذين دنسوا قرارات وأوامر العزل، وأنهم بذلك قاموا بهدم اليهودية في المنفى ودمارها^(٣).

وحسب آراء ناتوري كارتا، فإن «اليهود تطلعوا عبر جميع الأجيال إلى ملامسة تراب الأرض المقدسة والسكن فيها، ولكن بهدف إقامة الشعائر الدينية بها، والتمتع بقدسيتها، ولم يكن لهم هدف سياسي أو سلطوي فذلك أمر حُرْم علينا، مع الإشارة

إلى آبائنا، وفي هذه الأرض المقدسة عاشوا بجوار الشعب الفلسطيني سكان هذه الأرض، كل يساعد الآخر لمصلحتهم المشتركة»^(٤). وبالحديث عن علاقة اليهودي بأرض الميعاد، نجد فئة ناتوري كارتا ترى أن اليهودي المتدين يتجه بعواطفه وقلبه (لأرض إسرائيل)، لا سيما مدينة القدس، فهم يذكرونها في صلواتهم عدة مرات كل يوم^(٥).

وترى فئة ناتوري كارتا أن الأرض المقدسة مُنحت للشعب الإسرائيلي بشرط تطبيق الشعائر التوراتية، وعندما أخلوا بذلك سُحبت منهم تلك الأحقية وخرجوا إلى الشتات هل الشعب اليهودي متفرق في العالم، ومنذ ذلك الوقت سُلبت منهم وفق ما أوردت التوراة، إقامة مملكة لهم في الأرض المقدسة أو بأي مكان آخر، ويرون أن عليهم فقط أن يكونوا موالين للممالك التي يعيشون تحت سلطتها. إن ذلك الوضع قام منذ ألفي سنة تقريباً، والشعب اليهودي متفرق في كل أنحاء المعمورة، ودائماً حافظ اليهود على مواليتهم للدولة التي عاشوا فيها^(٦).

(١) رابكن، ياكوف: المناهضة اليهودية للصهيونية، ص ١٦٩.

(٢) الزرو، صلاح: المتدينون في المجتمع الإسرائيلي، ص ٣٩٠.

(٣) شتسبرغ، هيلدا: العصيان والتقاليد في أرض إسرائيل فترة الانتداب (عبري)، ص ٧٧.

(٤) www.ukusa.org.

(٥) المسيري، عبد الوهاب: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ج ٦، ص ٤١٦.

(٦) www.ukusa.org.

مربية بسبب عدم وجود سلطة حاخامية مركزية في القدس، واعتبرت الصهيونية حياة جماعة ناتوري كارتا وحياة يهود أرثوذكس متشددين آخرين، بالحياة المخزية، حيث حاولت الجماعة تعليم «المجتمع اليهودي القديم» أن يعتمد على النفس، ويقوم بعمل منتج^(٣).

على الرغم من أن ناتوري كارتا، لم تُعتبر تنظيماً رسمياً، كانت هناك محاولات قاموا بها لكي يتم تنظيم أولئك الذين يتم تعريفهم بوجهات نظر تحمل الأيديولوجية الدينية. وتمت زيادة تلك المحاولات منذ وفاة المؤسسين لجماعة ناتوري كارتا عمرام بلاو وأهارون كاتسينبلوجن^(٤).

فصلت اليهودية الحاخامية العقيدة اليهودية عن الأرض المقدسة، وهو ما يعني عدم حلول الإله في أرض بعينها، فهو مفارق للعالم. وتمسكت اليهودية الحاخامية بمسألة أن اختيار اليهود أمر منوط بتنفيذهم الشريعة، وهو ما يعني أن الذات اليهودية لم تعد مقدسة من خلال الوراثة، وإنما تكتسب القداسة من خلال ما يقوم به

كانت فئة ناتوري كارتا تحمل على الصهاينة العلمانيين اللادينيين العنصريين أعداء السامية حلفاء النازيين، وتقول: «إن الشعب اليهودي أساساً جماعة دينية ظهرت إلى الوجود منذ ثلاثة آلاف عام، يستمد وجوده من ميثاقه مع الخالق، يقوم على خدمته وعلى خدمة الجنس البشري، فهو ليس شعباً بالمعنى السياسي، وليس عنصراً مستقلاً، إنه شعب الله المختار، لأنه أكثر الناس تواضعاً لأنه الشعب المتعجرف، أو جماعة منتصرة، وأمن اليهود يكمن في إمكانية التصالح مع الدول التي يعيشون بين ظهرانيها»^(١).

اعتبرت هذه الفئة أن الصهيونية انسلاخ جذري عن الماضي والتراث اليهودي، وتحريف لحقيقة الشعب اليهودي يشكل «واحداً من أخطر التطورات في تاريخ هذا الشعب»^(٢).

وعارضت الفئة أخلاقيات الصهيونية، وسخرية الصهيونية من طريقة حياة الفئة، فقالوا عنها بأنها «كطفيلي»، الذي لم يجعل هذا الشيء سهلاً عليهم لجمع الأموال في الخارج، وقالت بأن الصهيونية منظمة

(١) سغفان، كامل: اليهود تاريخ وعقيدة، ص ٧٢؛ المسيري، عبد الوهاب: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ج ٦، ص ٤١٥.

(٢) القشطيني، خالد: اليهودية اللاصهيونية، ص ٧٧١.

(٣) Isseroff, Ami: <http://www.zionism-israel.com>

(٤) Emmanuel, Sivan: Religions Radicalism and Politics in teMiddle East, p.128; Kimmerling, Baruch: the Israeli state and society, p.128.

فلسطين، ودعت إلى تعايش جميع الأديان في الأراضي المقدسة ضمن دولة ديمقراطية^(٤) وخلال المعركة الشديدة على القدس المحاصرة في حرب عام ١٩٤٨م، دعت الجماعة إلى تدويل المدينة، وكان من الجماعة من أعلن استعدادها للعيش في ظل الحكم الأردني^(٥).

وشنت فئة ناتوري كارتا حملة على مشروع الدولة، وقام إمرام بلاو بنشاط واسع في ذلك الميدان، فوجه نداء إلى اليهود: «إياكم أن تُساقوا أسرى لقيادة الوكالة الصهيونية التي ترفض ما جاء في التوراة المقدسة، ولا تسمحوا لأبنائكم وبناتكم بأن يموتوا في سبيل تلك الفوضوية، إننا ننادي بالسلام مع العرب، كما أننا نناشد الحكومة الإنجليزية أن تخلصنا من هذه المحنة»^(٦).

وشرح الحاخام (موشيه هيرش)^(٧)

اليهودي من أفعال أخلاقية، فجعلت اليهودية الحاخامية العودة وتأسيس (الدولة) مسألة منوطة بالأمر الإلهي ولا دخل للبشر فيها، وقد أصر جماعة ناتوري كارتا على تلك العناصر كلها، وهو ما يعني أنهم يؤمنون بفصل (الخالق) عن المخلوق^(١).

إقامة دولة إسرائيل ورؤية فئة ناتوري كارتا فيها:

نهضت فئة ناتوري كارتا إنشاء دولة قبل مجيء المسيح^(٢)، ورأوا أن المسيح المنتظر هو وحده القادر على إقامة الدولة، وحين يعود يؤسس مملكة الكهنة والقدسين^(٣).

وقامت فئة ناتوري كارتا بتظاهرات وصلوات وأيام صوم، وبعثت بمذكرة للأمم المتحدة ضد إقامة دولة يهودية في

(١) المسيري، عبد الوهاب: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ج٦، ص٤١٧.

(٢) Isseroff, Ami: <http://www.zionism-israel.com>.

(٣) المسيري، عبد الوهاب: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ج٦، ص٤١٦؛ الشامي، رشاد: القوى الدينية في إسرائيل، ص١٠٦.

(٤) الحسيني، حاتم: انتقادات يهودية للصهيونية، ص٢٣٢-٢٣٣.

(٥) السعدي، غازي: الأعياد والمناسبات والطقوس لدى اليهود، ص٢١؛ تلمي، أفرام ومناحيم: معجم المصطلحات الصهيونية، ص٣١٠؛ المسيري، عبد الوهاب: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ج٦، ص٤١٨؛

Encyclopedia, Judiaca, Vol. 12, p. 1003;

Goldberg, Joseph and Others: An historical Encyclopedia of the Arab-Israeli Conflict, p. 374.

(٦) القشطيني، خالد: اليهودية اللاصهيونية، ص٧٧٢.

(٧) ولد في بروكلين بنيويورك عام ١٩٢٣م، حاخام يهودي أرثوذكسي، كانت شخصية بارزة في جماعة ناتوري كارتا، وناشطاً سياسياً في الطائفة الأرثوذكسية المعادية للصهيونية والتي عارضت وجود دولة ذات سيادة يهودية، بعد دراسته

(Moshe LeibHersh)، مدى مقاومة ناتوري كارتا للصهيونية بقوله: «لن نقبل بدولة صهيونية، حتى ولو قَبِلَ العرب بها»^(١).

رفضت فئة ناتوري مشروع قيام دولة إسرائيل^(٢)، واعتبرت ذلك خطأً وتدنيساً للتوراة، ولأنه يقرب النهاية، حيث أنه ممنوع وجود سلطة يهودية قبل قدوم المخلص^(٣)، فكان تأسيس (دولة إسرائيل) بمثابة فعل تمرد ضد الله، كانوا يعتقدون بأن اليهود ملزمون بانتظار أن يعيد الله تأسيس الدولة اليهودية^(٤).

رأت ناتوري كارتا أن إعلان استقلال إسرائيل نقض أسس قوانين الشريعة، لذلك رفضت الاعتراف بالدولة وقوانينها، وأعلنت أن أعضاءها لن يهبوا للدفاع عن تلك (الدولة) لو تعرضت للاعتداء^(٥). ورأت الجماعة أن دولة إسرائيل، تدمر الحياة اليهودية عن طريق علمنتها^(٦).

فأوضحت هذه الفئة أن إقامة دولة إسرائيل كفر وعمل مرفوض، وتبني الدولة اسم (إسرائيل) يثير فوضى كاملة داخل المجتمع اليهودي، وفي العالم الخارجي لأن ما تمارسه هذه (الدولة) العصبية العلمانية يجري تحت اسم إسرائيل المرتبطة تاريخياً بالشعب اليهودي، وحينما تكون ممارستها مخالفة لتراث اليهود وشريعة التوراة ينتقل وزر ذلك إلى اليهود ككل، وللصهيونية مصلحة مبيتة في تهجير اليهود كافة من الشتات إلى دولة إسرائيل، وبالتالي فإن لها مصلحة في تعريض مواقفهم في البلدان التي يقيمون فيها ويحملون جنسيتها^(٧).

عملياً، كانت دولة إسرائيل في نظر جماعة ناتوري كارتا ثمرة الغطرسة الآتمة، لأنها قامت على يد نفر من الكافرين الذين تمردوا على مشيئة الإله، وهي خيانة للشعب اليهودي الذي تأسس كجماعة دينية في سيناء وليس في أرض الميعاد، ولكل

في المدرسة الدينية اليهودية في ليكوود، هاجر إلى نيوجيرسي، لم يسع هيرش إلى المواطنة في (إسرائيل)، وقد أدت به معارضته لما اعتبره الوجود غير القانوني لإسرائيل في فلسطين إلى أن يصبح حليفاً مقرباً ومستشاراً لرئيس السلطة الفلسطينية ياسر عرفات. توفي بالقدس في ٣ أيار (مايو) عام ٢٠١٠م.

(Hirsch, Moshe: www.britannica.com)

(١) غلاس، شارلز: اليهود الإسرائيليون المعادون للصهيونية، شؤون فلسطينية، ع ٥٣-٥٤، ص ٦٢.

(٢) السعدي، غازي: الأعياد والمناسبات والطقوس لدى اليهود، ص ١١٥.

(٣) لندن، إيلان: موسوعة كارتا (عبري)، ص ٩٥٠.

(٤) Goldbert, Joseph and Others an historical Encyclopedia of the Arab-Israeli Conflict, p. 373.

(٥) الزرو، صلاح: المتدينون في المجتمع الإسرائيلي، ص ٣٩٠.

(٦) غلاس، شارلز: اليهود الإسرائيليون المعادون للصهيونية، شؤون فلسطينية، ع ٥٣-٥٤، ص ٦٣.

(٧) القشطيني، خالد: اليهودية اللاصهيونية، ص ٧٧١؛ Encyclopedia Judaica, Vol. 12, p. 10092.

١٩٤٨م، قامت جماعة ناتوري كارتا بإرسال رفضها قيام دولة إسرائيل إلى الأمم المتحدة^(٣).

ومنذ إعلان قيام (دولة إسرائيل) يصوم أعضاء ناتوري كارتا (يوم استقلال إسرائيل)^(٤) باعتباره يوم حدادٍ عندهم^(٥).

وكان يوثيل تيتيلباوم، قد صلى غالباً من أجل زوال (دولة إسرائيل)، واعتبر (الدولة) تهديداً خطيراً لليهود^(٦).

وبعد إعلان قيام (إسرائيل)، لم تعترف جماعة ناتوري كارتا بشرعيتها، ولا بصحة قوانينها، وعارضت استخدام اللغة العبرية كلغة حديث، واتهمت الصهيونية أنها أقامت مجتمعاً علمانياً لا يعمل بموجب قوانين التوراة والشريعة اليهودية^(٧).

تلك الأسباب كانت جماعة ناتوري كارتا ترفض إقامة دولة إسرائيل وكل مؤسساتها، بل يرفضون زيارة الحائط الغربي حائط المبكى، لأن القدس تم فتحها بالقوة^(١).

ومن أسباب رفضهم لإقامة (دولة إسرائيل) أن تلك الدولة تضطهد اليهود المتدينين، وتعرض حياتهم للخطر من خلال الحرب وتحريض شعوب العالم على العنف ضد اليهود، كما رفضوا دولة إسرائيل باعتبارها ستأتي بالدمار على الشعب اليهودي، وبالتالي كاوا يدعون الله، ويصلون يومياً من أجل أن يدمر الله هذا الكيان العدو لللدود للشعب اليهودي^(٢).

وغداة إعلان قيام (إسرائيل) عام

- (١) المسيري، عبد الوهاب: موسوعة اليهودي واليهودية والصهيونية، ج٦، ص٤١٨؛ الزرو، صلاح: المتدينون في المجتمع الإسرائيلي، ص٣٩٠؛ الشامي، رشاد: القوى الدينية في إسرائيل، ص١٠٦.
- (٢) عباس، محمود: الصهيونية بداية ونهاية، ص١٢٨؛ عيلام، يغال: ألف يهودي في التاريخ الحديث (عبري)، ص٣٧؛ Mitchell, Bruce: Language politics and language survival, p. 50.
- (٣) المسيري، عبد الوهاب: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ج٦، ص٤١٨.
- (٤) يقع في الخامس من أيار العبري من كل عام، وبموجب التقويم الميلادي يصادف الرابع عشر من أيار (مايو)، وكان رئيس مجلس الشعب أو مجلس الدولة المؤقت ديفيد بن غوريون، أعلن في احتفال أقيم في متحف تل أبيب عن إقامة دولة إسرائيل، وتزامن الإعلان بيوم واحد فقط قبل انتهاء الانتداب البريطاني عن فلسطين، وبعد إعلانه "استقلال إسرائيل" قرأ بن غوريون وثيقة "استقلال إسرائيل" وقام الحضور بالتوقيع عليها (منصور، جوني: معجم الأعلام والمصطلحات الصهيونية والإسرائيلية، ص٥٢٧).
- (٥) السعدي، غازي: الأعياد والمناسبات والطقوس لدى اليهود، ص٦٣-٦٤.
- (٦) رابكن، ياكوف: المناهضة اليهودية للصهيونية، ص١٨١.
- (٧) تلمي، أفرايم ومناحيم: معجم المصطلحات الصهيونية، ص٣١٠؛ السعدي، غازي: الأعياد والمناسبات والطقوس لدى اليهود، ص٢١؛ المسيري، عبد الوهاب: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ج٦، ص٤١٨؛ نيوبيرغر، جي: الفرق بين اليهودية والصهيونية، ص١٩٥؛ Mitchell, Bruce: language politics and language survival, p. 50.

رغم تعرض اليهود الأرثوذكس إلى التصفية النازية، وفقدان جماعة ناتوري كارتا عدداً من قواعدها في أوروبا، وانتقالها إلى الولايات المتحدة وفلسطين مع بقاء مجموعة صغيرة في بريطانيا، إلا أنها ظلت صلبة، ولم يؤثر ذلك في مواجهتها للحركة الصهيونية.

ويمكن القول إن فئة ناتوري كانت على خلاف وعداء عظيم للصهيونية، فقاومتها مقاومة شرسة، بل كانوا «متطرفين» في سلوكهم وتعبيراتهم، ولم تعاد الصهيونية فحسب، بل عادت حزب أغودات إسرائيل الذي كان يتعاون مع الصهيونية. ورغم وجودها في فلسطين، أخذت الجماعة تشكل مجتمعا الخاص القائم على «الدين والزهد» من جهة، والقطيعة مع الحركة الصهيونية من جهة أخرى.

تقييم الدراسات الاستشرافية الموضوعية في القرن العشرين

المستشرق (متجمري وات) من خلال كتابه محمد في مكة «أنموذجاً»

أ.م. د خميس غربي حسين (*)

هنا ومن منطلق الموضوعية والعدل وقول الحق، كما شرّع الإسلام لذلك؛ يتوجب علينا أن نذكر المواقف بمسمياتها فننتشدد في نقد عدد من المستشرقين المحرّفين والمضلّلين، ونعترف بجهود آخرين تميزت أبحاثهم بالموضوعية ودرسوا الإسلام بنزاهة وعلمية، وأنصفوا الرسول محمد ﷺ وأعجبوا بسيرته، وأدى الأمر بالبعض منهم إلى اعتناق الإسلام.

إن المواقف الإيجابية في الاستشراق والدراسات الموضوعية عند عدد من المستشرقين موضوع واسع ولا سبيل لحصر كل الآراء التي صدرت لكثرتها، إضافة إلى تعدد أبحاث ودراسات المستشرقين وما تركوه في بنية الفكر العربي الإسلامي من بصمات واضحة أدت بالنتيجة إلى انقسام المثقفين والباحثين

لا شك أن الرسول محمد ﷺ يقف في ضوء التاريخ الساطع، لذلك فإن فئة من المستشرقين قد أعجبوا بالإسلام وسيرة الرسول محمد ﷺ، فظهرت على أيديهم البحوث والدراسات العلمية والموضوعية الرصينة، وكان هدفهم دراسة السيرة النبوية برغبة المعرفة العلمية الصادقة، ومحاولة التعرف على الحقيقة قدر المستطاع وحسب جهدهم في فهم وقائع هذه السيرة، فتميزت كتاباتهم بالروح العلمية النزيهة، والدقة والموضوعية في الأحكام والإنصاف فيها، إذ لم تكن لهم دوافع أخرى غير الوصول إلى الحقيقة، فلم يتعمدوا الدسّ، وجاءت أبحاثهم أقرب إلى الحقّ مما يميزها عن غيرها من كتابات المستشرقين ممن كانت أهدافهم الدسّ والطعن على الإسلام وسيرة نبيه.

(*) العراق/ جامعة تكريت/ كلية الآداب.

العرب إلى فريقين: الأول يرفض الاستشراق جملةً وتفصيلاً، باعتباره أحد الأخطار المُحدقة بالعرب والمسلمين أو أنه من إحدى قوى الشر التي تريد النيل منهم أو أن الاستشراق غزو فكري^(١). أما الفريق الثاني فيرى أن في الاستشراق جوانب إيجابية يجب الأخذ بها.

ونحن لا نرفض هاتين المقولتين لأن فيهما الكثير من الواقعية والمصادقية، والأمر ليس مستغرباً! ذلك أن الاستشراق كان ولم يزل يشكل جزءاً من الصراع الحضاري بين العالم الإسلامي والعالم الغربي، بل يمكن القول: إن الاستشراق يمثل الخلفية الفكرية لهذا الصراع. ولكننا نبتغيه في هذه الدراسة، هو بيان وتقييم الدراسات الموضوعية في الاستشراق، وهذه الموضوعية برأينا هي إحدى مهام الباحث الأكاديمي.

وعلى هذا نقول: إن تقييم الدراسات الاستشراقية الموضوعية في القرن العشرين موضوع واسع يحتاج إلى دراسة مُستفيضة ومطوّلة، قد تخرج بهذه الدراسات بعيداً عن أبعاد وأهداف هذا المؤتمر، لذلك أثرنا النمذجة والاختصار،

وركزنا في دراستنا على كتاب أحد المستشرقين وهو (مونتكمري وات) لما عرف عن هذا المستشرق من مواقف مُنصفة من سيرة الرسول محمد ﷺ، «ويكفي أن وات قدم رؤية متكاملة للسيرة النبوية، بحيث لم يترك شاردة أو واردة إلا وذكرها، مما أكسبه أهمية في هذا المجال»^(٢)، فضلاً عن دراساته الموضوعية عن الإسلام والحضارة الإسلامية بصورة أعم وأشمل.

وفقاً لذلك، يجب أن يرتبط نقدنا للاستشراق بنقد ذاتي، فيجب أن نواجه أنفسنا مواجهة حقيقية بعيوبنا وقصورنا وتقصيرنا، وأن نكون على وعي حقيقي بالمشكلات التي تواجهنا في هذا العالم، لأن الاختلاف في الرأي أمر طبيعي، بل إننا في بعض الحالات نعدّه من بديهيات الحياة.

ينطلق هذا البحث من الرغبة إلى دراسة الموضوع بأليات جديدة كونه من المواضيع التي لم تُطرق إلا لماماً، أو من خلال الهوامش والحواشي التي يغلب عليها المنافحة، أو التهجين، وغياب الأسلوب العلمي والمنهج الموضوعي، وعلى هذا الطرح سنتبنى مقاربات تحاول قدر الإمكان

(١) علي عبد الحليم محمود: الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، نشر جامعة محمد بن سعود، (الرياض/ ١٩٨١م)، ص ١٢ وما بعدها.

(٢) عبدالله محمد الأمين النعيم: الاستشراق في السيرة النبوية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط ١، (د.ب./ ١٩٩٧م)، ص ٣.

أن تعيد النظر فيما هو بديهي، وفي ما هو مسلّم به، وفي ما هو شائع، وهذه هي وظيفة العلم أولاً وأخيراً.

كتب (وات) العديد من الكتب والبحوث والمقالات، وكان طابع الموضوعية والعلمية والإعجاب بشخصية الرسول محمد ﷺ هو السمة السائدة عليها، ظهر كتابه (محمد في مكة) سنة ١٩٥٣م، ثم (محمد في المدينة) سنة ١٩٥٦م، ثم (محمد النبي ورجل الدولة)، فضلاً عن مقالات كان من أهمها (محمد في دائرة المعارف البريطانية)، والفصل الخاص عن الرسول ﷺ في الكتاب المرجعي (تاريخ الإسلام لكمبريدج)، والسمة البارزة في جميع هذه المؤلفات، هي تخليص صورة الإسلام والرسول محمد ﷺ من الشكوك والتشويهاً التي مارسها المستشرقون من القساوسة والرهبان ومستشرقو العقود التي سبقته، كما أبرز القيم والمبادئ الخلقية والإنسانية التي تحلّى بها الرسول محمد ﷺ .

ونحن إذ نأمل باختيارنا لهذا الموضوع أن نتبنى المنهج الذي يقوم على المقارنة بين النصوص وتتبعها في أنساقها التاريخية، والحضارية، مع ضرورة النقد والتمحيص، وعدم الاكتفاء بمجرد الاطلاع والنقل والوصف، بل نتخلص من الأفكار المسبقة، ونفهم النص في الظرف الذي نشأ فيه، بلا إسقاط، ولا تعسف، ولا توظيف،

لعلنا نحقق إضافة موضوعية في هذا المجال.

ولعلّ من طرافة هذه الدراسة أنها تنخرط ضمن المقاربات الحديثة التي تناولت الظاهرة الإيجابية في الدراسات الاستشراقية، لذلك وغيره، كان الموضوع الذي نروم دراسته هو أن نضع النقاط على الحروف، ونُميز بين الغثّ والسمين، ونبتعد عن المواقف العاطفية، وردّة الفعل الغاضبة، التي تحيد دائماً عن معرفة الحق والصواب، وكانت غايتنا من البحث الوقوف على الصورة الحقيقية في عدد من الدراسات الموضوعية في الاستشراق، وكان هدفنا كذلك، أن نقف على بعض الدراسات الاستشراقية التي أنصفت الرسول محمد ﷺ، لأن معرفة ذلك ضرورة تاريخية وفكرية وإنسانية، وهذا برأينا يدعم فرضية البحث العلمي الأكاديمي.

بعد ما تقدم سنسعى إلى تقسيم عملنا هذا على أربعة مباحث، سبقتها مقدمة، ثم انتهى البحث إلى خاتمة، تطرقنا في المقدمة إلى أهمية البحث وإشكاليته وأسباب اختيارنا لهذا الموضوع، مع بيان المنهج الذي سوف ندرس من خلاله هذا الموضوع، اعتنى المبحث الأول بدراسة معنى الاستشراق وماهيته. وخصص المبحث الثاني لدراسة الاستشراق في عيون شرقية وناقشنا فيه آراء وكتابات

الباحثين العرب ونقدمهم للاستشراق، وتضمن المبحث الثالث الذي كان عنوانه موقف (وات) من سيرة وحياة الرسول محمد ﷺ بيان المواقف الموضوعية في كتاب (محمد في مكة)، أما المبحث الرابع فقد تطرقنا فيه إلى موقف (وات) من بعثة الرسول محمد ﷺ وقد ناقشنا آراءه في هذا الجانب وأبرز ما تضمنه مؤلفه من مواقف موضوعية، وفي الخاتمة سجلنا أهم النتائج والاستنتاجات التي توصلنا إليها.

المبحث الأول: في معنى الاستشراق وماهيته

الاستشراق في اللغة مشتق من مادة شرق، يقال شرقت الشمس وشروقاً إذا طلعت، واستشرق طلب علوم الشرق ولغاتهم فقال لمن يُعنى بذلك من علماء الفرنجة، أما اصطلاحاً فهو علم يدرس لغات شعوب الشرق وآدابهم وتراثهم وحضارتهم ومجتمعاتهم وماضيهم وحاضرهم^(١). إن الاستشراق حركةٌ سياسية وظاهرة

فكرية لها دوافع عدة، دينية وسياسية ونفسية واجتماعية وعلمية وفكرية وتاريخية واقتصادية^(٢)، وأخيراً، ونتيجة حتمية لهذه الأسباب، له دافع استعماري تمثل في استثمار الدول الاستعمارية الكبرى لفاعلية المعلومات التي جاء بها الاستشراق من أجل رسم خارطة للولوج إلى الشرق والسيطرة عليه. لذلك فإن الكتابات الاستشراقية لها مدلولاتها السياسية والدينية المرتبطة بالعلاقة بين الشرق والغرب، وكلما ازداد الالتماس بينهما ازدادت المصالح والغايات والأهداف^(٣).

لقد تعددت الآراء في تحديد تاريخ العلاقة بين الشرق والغرب، فذهب عدد من الباحثين إلى الرأي القائل إن تاريخ هذه العلاقة يرجع إلى قدماء علماء اليونان الذين جاؤوا إلى الشرق ودرسوا أحواله الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية^(٤). وأشار آخرون إلى أن نشأة

(١) للمزيد من المعلومات ينظر: شوقي أبو خليل: الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين، دار الفكر المعاصر، ط ٢ (بيروت/ ١٩٩٨م)، ص ٥؛ عبد الكريم السايح: الاستشراق في ميزان نقد الفكر الإسلامي، الدار المصرية اللبنانية، ط ١، (القاهرة/ ١٩٩٦م)، ص ٤٤-٤٥؛ مصطفى السباعي: الاستشراق والمستشرقون، دار الوراق (د. ب/ لا. ت)، ص ٢٠؛ يحيى مراد: معجم أسماء المستشرقين، دار الكتب العلمية، ط ١، (بيروت/ ١٩٩٨م) ص ١٨-٢٧؛ فاروق عمر فوزي: الاستشراق والتاريخ الإسلامي، منشورات المكتبة الأهلية، ط ١ (عمان/ ١٩٩٨م)، ص ٣٠.

(٢) فاروق عمر فوزي: الاستشراق والتاريخ الإسلامي، ص ٣١-٣٨؛ يحيى مراد: معجم أسماء المستشرقين، ص ٣٢؛ مصطفى السباعي: الاستشراق والمستشرقون، ص ٢٥.

(٣) لوكمان زاكيري: تاريخ الاستشراق وسياسته، ترجمة: شريف يونس، دار الشروق، (القاهرة/ ٢٠٠٧م)، ص ١٧٢.

(٤) أحمد سمايلوفتش: فلسفة الاستشراق، دار المعارف، (القاهرة/ ١٩٨٠م)، ص ٧١؛ يحيى مراد: معجم أسماء المستشرقين، ص ٣٨؛ فاروق عمر فوزي: الاستشراق والتاريخ الإسلامي، ص ٣٠.

نصف قرن من سقوط القسطنطينية أُخْرِجَ المسلمون من بلاد الأندلس^(٤)، فكان لذلك كله تداعيات خطيرة انعكست على العلاقة بين الشرق والغرب.

وأياً كانت الأسباب فإن الغرب عانى من الهزائم والانكسارات وفشل في تحقيق المخطط المرسوم للسيطرة على الشرق واستنزاف خيراته، لذلك قرّرت الكنيسة التي تقود الصراع، يساندها في ذلك ملوك وقادة أوروبا، والتحول من المواجهة العسكرية المباشرة إلى الهجوم الفكري^(٥)، والعدول عن السيف إلى الكلمة التي أثبتت التجارب أنها كانت أشد أثراً وأمضى من السيف.

كما أن أبرز مواجهة دينية بين الشرق والغرب نجد التعبير عنها عند بعض المتطرفين من الفقهاء والمتزمّتين من المسلمين^(٦)، من خلال المبدأ المتداول عندهم الذي يحدّد العالم إلى دار الإسلام، ودار الكفر، والمصطلح الأخير موجّه نحو الغرب والمسيحية بالدرجة الأولى^(٧).

الاستشراق تزامنت مع ظهور الإسلام الذي أوقف اندفاع المسيحية في العالم، وقيام المسلمين بالفتوحات الكبرى نحو الشرق والغرب ولاسيما في بلاد الشام التي حرروها من السيطرة البيزنطية^(١) مما دفع الغرب إلى دراسة هذا الدين الجديد، وتجريد الأسلحة المختلفة (الفكرية والعسكرية) لمقاومة هذا الدين^(٢).

وبعد أن حرّر المسلمون بلاد الشام ظلت فكرة السيطرة وإعادة الكرة مرة ثانية لدى الغرب، فكانت الحروب الصليبية التي استمرت نحو قرنين من الزمان (١٠٩٦-١١٩١م) بين كُرّ وقرّ مرة ينتصر المسلمون، ومرة يهزمون، حتى تحرّرت تلك البلاد نهائياً بقيادة المجاهد البطل (صلاح الدين الأيوبي)، ثم تبع هزيمة الصليبيين تمكّن العثمانيين من فتح القسطنطينية سنة (١٤٥٣م) والتي تعدّ المركز الرئيس في قيام الهجمات على الدولة الإسلامية من أوروبا^(٣)، وبعد نحو

- (١) محسن محمد حسين: الاستشراق برؤية شرقية، دار الوراق للنشر، ط١، (بغداد/٢٠١١م)، ص٣٧؛ محمد عمارة: الجديد في المخطط الغربي تجاه المسلمين، نشر دار الوفاء (القاهرة/١٩٩٣م)، ص٧.
- (٢) محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، دار المعارف (القاهرة/١٩٩٧م) ص٢١؛ رشيد عبد الرحمن العبيدي: الحركة الاستشراقية مراميها وأغراضها، مكتبة أنوار دجلة، (بغداد/٢٠٠٣م)، ص١٤.
- (٣) محمد عمارة: الجديد في المخطط الغربي تجاه المسلمين، ص٩.
- (٤) محمد عمارة: الجديد في المخطط الغربي تجاه المسلمين، ص٩.
- (٥) محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص٢١؛ يحيى مراد: معجم أسماء المستشرقين، ص٢٨؛ فاروق عمر فوزي: الاستشراق والتاريخ الإسلامي، ص٣٠.
- (٦) فالح عبد الجبار: الاستشراق والإسلام، دار المدى، ط١، (بيروت/٢٠٠٦م)، ص١٨.
- (٧) فالح عبد الجبار: الاستشراق والإسلام، ص١٨.

إنه من الصعوبة تحديد سنة معينة لنشوءه، بل إننا نميل إلى الرأي القائل إن أية حركة فكرية، أو ظاهرة اجتماعية لا تنضج ولا تتكامل إلا بعد مرور مدة من الزمن^(٢) لذلك كله فإن الاستشراق ظاهرة تاريخية وثقافية معقدة، ومركبة تباينت حولها الآراء والتصورات^(٣).

ويبدو لنا أن استيعاب الإنتاج الاستشراقي حول الإسلام ودراسته دراسة عميقة هو الخطوة الأولى لنقده نقداً صحيحاً، وإثبات ما يتضمنه من تهافت أو زيف، الأمر الذي يجعل المستشرقين المنحرفين عن جادة الصواب يفكرون عدّة مرات قبل أن يُقدموا على مهاجمة الإسلام، تحسباً منهم، لما قد يواجهونه من نقد علمي يعرّيهم ويثبت زيف ادعاءاتهم.

من هنا فقد كانت دراسة معظم الباحثين العرب في نقد الاستشراق تركز على الفكرة القائلة، إن الاستشراق بمجمله ظهر لهدم الإسلام والنيل من شخصية الرسول محمد ﷺ، وتشويه التاريخ والحضارة الإسلامية، ونحن هنا لا ننكر أن في هذا الكلام الكثير من الصحة والصواب، إلا أن

لقد ظهرت الدعوات في الغرب إلى دراسة الشرق من جوانبه المختلفة، لعلهم يستطيعون الإحاطة بسرّ قوتهم ومعرفة سرّ انتصار المسلمين عليهم، لذا كان قرار مجمع (فيينا) الكنسي عام (١٣١٢م) بتأسيس كراسٍ لدراسة اللغات الشرقية، من أجل فهم طبيعة المجتمع الشرقي وكيف يفكر أبنائه، فتمّ تأسيس كراسٍ للغة العربية والعبرية والسريانية في جامعات باريس وأكسفورد وبولونيا وسلامانكا^(١).

هكذا بدأ الاستشراق واستمر عدّة قرون حتى اكتمل بشكله المؤسّساتي في القرن التاسع عشر، وما تزال آثاره تنشر ظلّالها على الواقع الإسلامي على الرغم من المتغيرات التي طرأت على العلاقة بين أوروبا وبلاد المسلمين لاسيما في القرن العشرين، كذلك تغيّر الحال في أوروبا بعد عصر النهضة، حيث تميّز الفكر بتغليب العقل ورفض السلطة الكنسية، مما كان له أثر في حركة الاستشراق، فأخذ يُغيّر من منهجيته في دراسة الشرق.

إن هذه الآراء وغيرها التي تؤسس لتاريخ نشأة الاستشراق تدفعنا إلى القول:

- (١) ادوارد. و. سعيد: الاستشراق، ترجمة: كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، ط١، (بيروت/١٩٨١م) ص ٨٠؛ شوقي أبو خليل: الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين، ص ٦؛ محمود حمدي زقروق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص ١٨.
- (٢) فاروق عمر فوزي: الاستشراق والتاريخ الإسلامي، ص ٣١.
- (٣) فاضل محمد عواد الكبيسي: فليب حتي عصر النبوة والخلافة الراشدة، دار الفرقان، ط١، (عمان/٢٠٠٥م)، ص ٢.

النقد الموضوعي يتطلب إظهار الجوانب السلبية والإيجابية في الاستشراق.

المبحث الثاني:- الاستشراق في عيون شرقية

من المسلم به أن موضوع الاستشراق والمستشرقين من الموضوعات التي حصل بشأنها اختلاف وتباين عند الباحثين العرب والمسلمين يصل في بعض الأحيان إلى درجة التناقض، وهذا راجع حسب اعتقادنا، إلى خلفياتهم الدينية، والثقافية، والمذهبية، وانتماءاتهم الأيديولوجية. ومما يلفت النظر في هذا الموضوع، أن أغلب البحوث والدراسات والمؤلفات في الاستشراق كانت نتاجاً لرجال دين، أو دارسين للعلوم الدينية الإسلامية، أو من يقوم بتدريسها في المعاهد والجامعات العربية.

ويبدو أن انتماءات الباحثين العرب قد ظهرت في مؤلفاتهم، فجاء أغلبها ردود فعل عاطفية، تنبئ عن مذاهب هؤلاء، والتي تصل في بعض الأحيان إلى أن تكون بعيدة عن الموضوعية التاريخية، مما أصاب المتلقي (القارئ) العربي، بالحيرة والشك والريبة من الاستشراق، حتى صار هذا المصطلح رديفاً للاستعمار والغزو والاحتلال، نجد ذلك من خلال وصف أحد

الباحثين العرب أن الاستشراق هو أحد أجنحة المكر الثلاثة التي تريد بالعرب والمسلمين كل شرّ وخديعة^(١)، ومنهم من عمّم ذلك على جميع الدراسات الاستشراقية، عاداً إياها والاستعمار والتبشير قوى متحالفة تريد النيل من العرب والمسلمين^(٢).

وإذا كان الأمر على هذه الحال عند فئة من الباحثين في الاستشراق الذين لا يجدون فيه إلا الوجه السلبي، فإننا نرى أن قسماً آخر منهم قد تبنى الرؤية الإيجابية للاستشراق، ولا سيما عند المستشرقين الذين كتبوا بتجرّد وموضوعية بعيداً من الغمز واللمز والدسّ على الإسلام ونبيه وتاريخه وحضارته، مما دفع عدد من الباحثين العرب إلى عدّ الاستشراق حركة علمية تسعى إلى دراسة الشرق وسبر أغواره الفكرية والعلمية والدينية، وبالتالي فإن في الاستشراق جوانب إيجابية.

وهناك فئة من دارسي الاستشراق كتبت بحوثاً للماجستير أو الدكتوراه، تناولت فيها الاستشراق من اعتقادها المسبق المبني على إسقاطات دينية ومواقف متشددة، فجاءت بحوثهم بآراء شتى، بين مادح،

(١) عبد الرحمن حسن حبكة الميداني: أجنحة المكر الثلاث وخوافيها، دار القلم، ط١، (دمشق/٢٠٠٠م)، ص ١٥٠.

(٢) محمد محمد الدهان: قوى الشر المتحالفة (الاستشراق، التبشير، الاستعمار) دار الوفاء للطباعة، ط٢، (المنصورة/١٩٨٨م)، ص ٦.

وقادح، في الأكثر، تحقيقاً لدوافعهم الدينية أو لتكون متوافقة مع وجهات نظر المؤسسات أو المعاهد التي يعملون فيها.

إن ردود الفعل العاطفية والنابعة من العقيدة الدينية، أو الانتماء القومي والأيدولوجي، لا يمكن أن تضع الوقائع والأحداث التاريخية في مكانها الصحيح، لأن من يريد أن يؤرخ لهذه الوقائع والأحداث، عليه قبل كل شيء أن يتحلّى بالموضوعية، ويتخلّى عن العاطفة الدينية أو القومية لكي تكون استنتاجاته موافقة للنصوص، ومؤيدة للأحداث بما هي. وعلى الرغم من أن هذا المهاد الفكري يقود ضرورة إلى سلسلة من المواقف والأفكار والآراء المتناقضة، إلا أن اتجاهاته الأساسية انعكست بصورة واضحة على نقد الاستشراق.

لقد حشد عدد من الباحثين العرب آراء المستشرقين وكتاباتهم لدعم الفكرة التي آمنوا بها، بحيث أننا نجد من الباحثين من يذم الاستشراق في الصفحات الأولى من كتابه، ثم لا يلبث أن يعود في مكان آخر من الكتاب، ليكيل المديح والإطراء والثناء عليه.

وهناك أمر آخر، تكشف لنا من خلال دراسة بعض آراء الباحثين العرب، وهو

إفراطهم في إيجاد العلل والأسباب للحوادث التي يدرسونها بأسلوب ليس فيه من الواقع شيء إلا إتباع العاطفة والهوى، وهم يغضّون الطّرف عن أمر هام وهو أن للمستشرقين خلفيتهم وبيئتهم الثقافية والدينية والنفسية والاجتماعية، النابعة من البيئة التي يعيشونها، على اعتبار أن لكل بيئة مقاييسها وعاداتها وتقاليدها ونظرتها للحياة، وكان الأجدد بالباحثين العرب أن يسدّوا الهوة التي تفصل بين عقليتهم الشرقية وعقلية من يكتبون عنهم (المستشرقون).

إن المتمعّن في كتابات الباحثين العرب والمسلمين لا يجد صعوبة في إدراك التباين الذي وقعوا فيه، ولا شك أن السبب الرئيس للوقوع في هذا الاختلاف مرجعه للنظرة الأحادية التي تبناها هؤلاء الباحثون. بل إن بعضهم عدّ الاستشراق والعلمانية من إحدى وسائل الحركة الصهيونية من أجل هدم الإسلام^(١). ولا ندري هنا كيف يسوّق هذا الباحث وجهة نظره، عندما يضع الاستشراق والعلمانية على قدم المساواة مع من يريدون هدم الإسلام، متناسياً أن العلمانية ليست كفرة، ولم يكلف نفسه في البحث عن الأوضاع المأساوية التي حلّت بالمسلمين نتيجة الجهل والتخلف، والابتعاد

(١) عبدالله بن عبد الرحمن الرومي: وسائل الاستشراق، لا. مط، (د.ب/١٤٢٤هـ)، ص ٢.

عن قيم الإسلام الحقيقية، والتمسك بالمظاهر الخداعة، عند بعض من اتخذ الإسلام وسيلة لتحقيق مآربه وأهدافه.

ونتيجة للمواقف المتباينة عند الباحثين العرب، يعلّق أحدهم بقوله: «فالحكم المطلق على المستشرقين بأنهم رصدوا أنفسهم لهدم الإسلام والعربية، وتسميم أفكار شبابنا وتحطيم أخلاقه... كالحكم المطلق على المستشرقين بأنهم رصدوا أنفسهم لخدمة الإسلام والعلوم الإسلامية والحضارة العربية، كلا الحكمين مُجانب للصواب مُجاف للواقع، مُناقض لروح العلم والبحث الشريف، ومُناقض كذلك لروح الإسلام الذي أمرنا أن نتبين طريقتنا، وأن نبحت عن الحقيقة وننشد الحق»^(١).

ومع الإقرار بأن الكثير من الدراسات الاستشراقية فيها من الأخطاء المنهجية والتهجّمات الجدلية البذيئة إلا أن ذلك لا يمنع من دراسة الوجه الآخر للاستشراق في كتابات بعض المفكرين الغربيين الموضوعية والمُنصفة والتي أخذت تدرس الشرق دراسة تتّصف بالموضوعية والعمق والشمول، فضّل هؤلاء الانزواء في صوامع

العلم لأجل العلم والمعرفة. وهؤلاء يستحقون منا أن نوليهم اهتماماً ونظهر نتائجهم، لأننا اليوم أحوج ما نكون إلى اتباع الأسلوب العلمي والدرس الأكاديمي والنقاش الهادئ لأن هذا الأمر في صالح الإسلام^(٢).

إن دراسة الاستشراق موضوع حساس ويحتاج إلى كثير من الصبر والتأني وهو موضوع تتناقض الآراء حوله في عالمنا الإسلامي «فهناك من يؤيده ويتحمس له إلى أقصى حد، وهناك من يرفضه جملةً وتفصيلاً ويلعن كل من يشتغل فيه بوصفه عدواً لدوداً للإسلام والمسلمين»^(٣) وهناك بعض الشخصيات الفكرية همّها وشغلها إظهار العداء للغرب وزرع الخوف لدى العامة من أجل الاستحواذ على الساحة الفكرية، والاستشراق في رأيهم لا يعدو أن يكون علماً طال الإسلام عقيدة وثقافة وتاريخاً، وفي الحقيقة، إن الثناء المطلق على الاستشراق والرفض المطلق للأعمال التي قام بها المستشرقون يتنافى مع الدراسة الأكاديمية ومع الحقيقة التاريخية^(٤).

(١) جابر قميحة: آثار التبشير والاستشراق على الشباب المسلم، رابطة العالم الإسلامي، (مكة المكرمة/ ١٩٩١م)، ص ١٦-١٧.

(٢) محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص ٩.

(٣) محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص ١٠.

(٤) مصطفى السباعي: الاستشراق والمستشرقون، ص ١٧.

بالحكم المطلق على المستشرقين بأنهم رصدوا أنفسهم جميعاً لخدمة الإسلام^(٥)، كلا الموقفين بجانب للصواب وبعيد عن الواقع وهما مناقضان لروح البحث العلمي. ويُعمّم أحد الباحثين بقوله: «يُعد الاستشراق من أخطر الظواهر المضادة للإسلام فما عرف التاريخ الإنساني عبر مراحلها المتباينة أن طوائف من أمم مختلفة تنوعت ثقافات وأعرافها التقت كلماتها واتحدت أهدافها حول العكوف على دراسة دين لا تؤمن به، لا تريد من ذلك معرفة الحق من الباطل وإنما تريد العمل دون كلل من أجل تشويه الإسلام وحضارته الإنسانية الرائعة»^(٦).

إن هذا الكلام وإن كان لا يخلو من الصحة فإنه لا يخلو، أيضاً، من مصادرة وإفراط وغلو في التعميم، وهو لا يعدو أن يكون من الآراء المبسترة والسطحية التي انزلق إليها عدد من الباحثين من أصحاب المناهج التاريخية ممن كان همهم تلمس الأشباه والنظائر الخارجية والسطحية البعيدة عن الدراسة الأكاديمية التي تعطي

إن التأثير بالتيارات السياسية والدينية والعرقية والمذهبية تُبعد الباحث عن الحيادية والموضوعية في دراساته، والدعوات الربانية إلى الحوار الهادئ كثيرة، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا^(١)﴾، وقوله جل شأنه: ﴿وَلَا تُجَدِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ^(٢)﴾، ونبينا محمد ﷺ يحثنا إلى التماس الحكمة من أي إناء خرجت «الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهي له»^(٣)، ومفكرون السابقون دعوا إلى الإفادة من تجارب الآخرين وإن اختلفوا في الدين أو العرق، وهذا ما نراه متمثلاً في قول الكندي: «ينبغي لنا أن لا نستحي من استحسان الحق واقتناء الحق من أين أتى وإن أتى من الأجناس القاصية عنا والأمم المباينة لنا. . . وليس ينبغي بحس الحق ولا تصغير قائله ولا الآتي به»^(٤).

إن الحكم المطلق على الاستشراق بأنه أداة لهدم الإسلام وتسميم أفكار شبابنا فيه تجن على الحقيقة التاريخية أو هو شبيهه

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٤٦.

(٣) السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م): المقاصد الحسنة في كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، دار الكتب العلمية، ط ٢، (بيروت/ ٢٠٠٦م)، مج ١، ص ٢٢٣.

(٤) أبو يعقوب اسحق (ت ٢٥٢هـ / ٨٦٦م): رسائل الكندي الفلسفية، (القاهرة/ ١٩٥٠م)، ج ١، ص ٩٧.

(٥) جابر قميحة: آثار التبشير والاستشراق، رابطة العالم الإسلامي، (مكة المكرمة/ ٢٩٩٢م)، ص ١٦.

(٦) محمد فتح الله الزيايدي: ظاهرة انتشار الإسلام، المنشأة العامة للنشر والتوزيع، ط ١، (طرابلس/ ١٩٨٣م)، ص ٨.

كل ذي حق حقه بعيداً عن الهوى والتطرف
ومحاولة ازدراء وتفنييد الرأي الآخر.

بالمقابل هناك بعض الدراسات التي
تناولت الاستشراق بروح من النقد
الموضوعي بعيداً عن الهوى والتعصب
وردود الفعل الآنية ومنها قول أحدهم: «إنه
ليس بالأمر الغريب أن يختلف
المستشرقون معنا - نحن المسلمين - في
الرأي حول الإسلام، وإنما الغريب أن يتفقوا
معنا في الرأي، وذلك لأن منطق تفكيرهم
بالنسبة للإسلام ونييه يختلف عن المنطق
الذي يصدر عنه تفكير المسلمين»^(١) وعلى
هذا الأمر فإن وجهات النظر بين الشرق
والغرب مختلفة، وعلينا أن لا ننتظر منهم أن
يتبنوا جميع الأفكار التي نؤمن بها، لأنهم
إن فعلوا ذلك أصبحوا مسلمين وهذا التحول
سوف يؤدي إلى توقف الاستشراق^(٢)،
بالمقابل كانت فئة من المستشرقين قد
أعجبت بالإسلام وشخصية الرسول
محمد ﷺ فظهرت على أيديهم البحوث
والدراسات العلمية والموضوعية الرصينة،

وكان هدفهم دراسة السيرة النبوية برغبة
المعرفة العلمية الصادقة، ومحاولة التعرف
على الحقيقة قدر المستطاع، وحسب
جهدهم في فهم وقائع السيرة النبوية،
فتميزت كتاباتهم بالروح العلمية النزيهة،
والدقة في الأحكام والإنصاف فيها، إذ لم
تكن لهم دوافع أخرى، فلم يتعمدوا الدسّ،
وجاءت أبحاثهم أقرب إلى الحَقِّ بما يميزها
عن غيرها من كتابات المستشرقين ممن
كانت أهدافهم الدسّ والطعن على الإسلام
وسيرة نبيه.

إن المواقف الانفعالية والجدلية النابعة
من العاطفة التي يردّها عدد من الباحثين
العرب فحواها: إن جميع المستشرقين
يكيّدون للعرب والمسلمين وهم حاقدون
عليهم يدفعهم استعمار غربي^(٣)، حتى أطلق
بعضهم على الاستشراق (أجنحة المكر
الثلاثة)^(٤) أو قوى الشر المتحالفة^(٥)، أو كما
قال أحدهم وهو يعمّم: إن الاستشراق حركة
استعمارية منظمة تحركها هيئات ومنظمات
وفّرت لها الدعم المادي والمعنوي وسخرت

(١) محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص ٨٣.

(٢) محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص ٨٣.

(٣) اغناطوس غويدي: محاضرات في تاريخ اليمن والجزيرة العربية قبل الإسلام، ترجمة: إبراهيم السامرائي، دار
الحدائث، ط ١، (بيروت/١٩٨٦م)، ص ٥.

(٤) عبد الرحمن حسن جبنكة الميداني: أجنحة المكر الثلاثة التبشير الاستشراق الاستعمار، دار القلم، ط ٨، (دمشق/
٢٠٠٠م).

(٥) محمد محمد الدهان: قوى الشر المتحالفة، الاستشراق الاستعمار التبشير، ص ٢٥٠.

شخصياتها بشكل مدروس ومتقن لولوج حياة الشرقيين بكل جوانبها. وكانت كتاباتهم كلها مظنة للدس والتشكيك وتشويه صورة الإسلام أمام الأوروبيين لزرع الأحقاد في نفوسهم ضد العرب والمسلمين^(١). إن هذه المواقف والمسميات من شأنها أن تعود بنتائج سلبية على النهضة الفكرية الإسلامية، وإن سيادة لغة الحوار والتفاهم وخاصة مع المستشرقين المعتدلين والمنصفين يعود بالنفع والفائدة على مفكرينا والباحثين وطلبة العلم وجمهور المثقفين. ومثلما كانت أهداف الاستشراق في بداية ظهوره تتمحور على تنمية المعرفة بالشرق والاستفادة من انجازاته العلمية والفكرية والحضارية، فنحن بلا شك بحاجة إلى تنمية معرفتنا بالغرب، لأن الاقتباس المتبادل بين الحضارات يكاد يكون أمراً حتمياً وطبيعياً، وهذا ما فعله الأوروبيون في عصر النهضة عندما اقتبسوا من الحضارة الإسلامية الكثير من العلوم والمعارف، ومما لاشك فيه أن إحدى مرتكزات النهضة الأوروبية قد اعتمدت على الحضارة العربية.

إن اختلاف الرؤية الاستشراقية لواقع حياتنا كعرب ومسلمين قديماً وحديثاً، ربما

تسببت في قطيعة فكرية تمثلت في بعض جوانبها بسيادة لغة الاستعلاء والغرور مما أوجد نظريات عرقية وعنصرية وهذا كله أدى إلى خلق فجوة تخللتها شواهد عديدة منها الاستعمار والغزو الفكري والثقافي.

من هنا نشير إلى ضرورة اطلاع الباحثين والمفكرين على التجربة الغربية بكل تفاصيلها والاستشراق جزء من هذه التجربة، وأن لا نُغفل الإنجازات العلمية والإدارية والذوقية في الغرب، بحجة التمسك بالعادات لأن المشاكل التي يعاني منها المسلمون والعرب بصورة خاصة مشاكل حادة ومنها تحديد موقعه على خارطة العالم ومن ثم تحديد صلته به والتعاون من أجل بناء إنسان الاستخلاف الذي أراد الله سبحانه وتعالى.

إن سيادة لغة الحوار والتفاهم واحترام الرأي والرأي الآخر من شأنها أن تعود بالفائدة على الجميع، لأن المواقف المتصلبة والرافضة والانتقائية، والتي تمسك نفراً من الباحثين في الفكر الاستشراقي والذين توقعوا بأنه من الممكن العيش بمعزل عن تجارب العالم، غير دقيقة. نقول لهؤلاء إن هذا الأمر لم يعد مسوغاً ولم يعد الأخذ به من مسلمّات المعرفة الفكرية في العصر الراهن.

(١) رشيد عبد الرحمن العبيدي: الحركة الاستشراقية مراميها وأغراضها، ص ١١٣.

والسؤال الذي يظهر لنا هنا؛ هو كيف ندرس الاستشراق؟ وكيف نرسم حدوده واتجاهاته؟ وما هي إشكالية تمثل الوعي العربي لهذا المفهوم؟ وما هي المعالجات لدلالته وطرق البحث فيه؟ يقول الدكتور ماجد فخري وهو يصف حال العرب في الوقت الراهن، مبيناً الأهداف التي يجب أن يرسمها الإنسان العربي والصفات التي يجب أن يتمسك بها «إن الأهداف التي ينبغي أن يرسمها لنفسه في خضم هذا العالم الصاخب لا تنفصل عن تحديد ماهيته وصلته بالعالم... وفي عملية الرسم هذه عليه أن يتحلّى بأرفع صفات التآني والتبصر والإدراك»^(١).

وفي محاولة الإجابة عن السؤال السابق نقول: هل نزهد بأعمال المستشرقين كلها باعتبارها جزءاً من مؤامرة كبرى تستهدف المسلمين؟ وننسى الأعمال الجليلة التي قام بها المستشرقون والتي كان لها أكبر الأثر في خدمة الفكر والحضارة الإسلامية ونشر التراث وتحقيق المخطوطات^(٢).

هذه الأسئلة وغيرها جعلت الباحث يقف حيران أمام هذه الاتجاهات، وإذا كان هذا

الأمر يخص العامة فهم معذرون إلى حد ما، إذا أساءوا الظن بالمستشرقين وانصرفوا عنهم، ذلك أن الجماهير بطبيعتها يسيطر عليها الحذر من كل غريب وجديد، ولكن الباحثين والمفكرين والأكاديميين وقادة الرأي ليسوا معذورين، لأنهم يعلمون أن فئة من المستشرقين قدموا أجلّ الخدمات وعرفوا الناس بخير ما عندنا من علوم ومعارف^(٣).

إن الاستشراق موضوع تتناقض حوله المواقف والرؤى، فمن الباحثين والمفكرين من يؤيده ويتحمس لدراسته، وهناك من يقف بالضد من هذا الاتجاه ويعدّ كل من يتناوله بالبحث والدراسة والتحليل مناهضاً للإسلام وعدواً للمسلمين.

وعلى هذا الأمر فالحكم المطلق على الاستشراق بأنه أداة لهدم الإسلام مثل الحكم المطلق على المستشرقين بأنهم جميعاً قد رصدوا أنفسهم لخدمة الإسلام، كلا الحكمين مناقض للواقع، وبعيد عن روح البحث العلمي الموضوعي وهما كذلك لا ينسجمان مع روح الدين الإسلامي الذي يدعونا إلى أن ننشد الحق من أين جاء أو أتى^(٤).

(١) ماجد فخري: أبعاد التجربة الفلسفية، دار النهار للنشر، (بيروت/١٩٨٠م)، ص ٩.

(٢) نجيب العقيقي: المستشرقون، دار المعارف، ط ٥، (القاهرة/٢٠٠٦م)، ج ٣، ص ٤٢٦.

(٣) حسين مؤنس: كارل بروكلمان، مقالة منشورة في مجلة العربي، إصدار وزارة الأعلام الكويتية، العدد (١٣٩)، يونيو/١٩٧٠م، ص ٣٤.

(٤) جابر قميحة: آثار التبشير والاستشراق، ص ١٦.

إننا نعتقد أن الاستشراق قد تعرّض في كثير من جوانبه إلى التعميم والانتقائية والدراسة السردية التقليدية، وهو لذلك أصبح موضوعاً يثير الشك والريبة لدى الكثير من أبناء الشرق. ونحن مدعوون إلى أن نحدد موقفنا من الاستشراق بعيداً عن التعميم وبروح علمية. فالكتابات الموضوعية نأخذ بها ونستفيد منها ونعتمدها، والدراسات المتحيزة والبعيدة عن الموضوعية والإنصاف نقومها ونضع ما هو بديل عنها. لأنه لا بديل عن مواجهة المشكلة إلا من خلال دراستها وبحثها من جوانبها السلبية والإيجابية بروح النقد والأخذ بنظر الاعتبار الحرية الفكرية وإبداء الرأي فهما برأينا رمز للحركة وحاملان روح الحياة والخلق والإبداع وهما السائران بالفكر الإنساني إلى التقدم.

ومن نافلة القول إن المستشرقين لهم اتجاهاتهم ومواقفهم وهي نتاج ثقافتهم وتكوينهم الفكري وانتمائهم الديني وطرق استخدامهم لأدوات البحث. وهم يستحقون أن نوليهم عنايتنا وإن كنا لا نوافقهم بكل ما جاؤوا به من آراء وأفكار ولا نسايرهم في كل تصوراتهم ومناهجهم، وعلى هذا الأمر فإن الاستشراق سلاح ذو حدين والنتيجة

تتوقف على طريقة معالجته ودراسته واستعماله.

المبحث الثالث: موقف مونتجمري وات من سيرة الرسول محمد ﷺ

إن المتتبع لحركة الاستشراق في دراسة السيرة النبوية، تحقيقاً وجمعاً ونشراً وترجمة سيجد مواقف متباينة، انقسم فيها المستشرقون إلى مذاهب شتى؛ أظهر العدد الأكبر منهم تحاملاً وحقداً على الرسول محمد ﷺ وسيرته العطرة، في حين نجد عدداً آخر - وهم قلة - أبدى احتراماً وإجلالاً وتميزت مؤلفاتهم بالمنهجية والعلمية والموضوعية.

وبما أن الاستشراق، كدائرة في الفكر والخبرة كما هو معلوم، يسير إلى العديد من الميادين المتقاطعة، من بينها العلاقة التاريخية والحضارية بين أوروبا والعالم الإسلامي والنشاط الدؤوب الذي تمثّل بالتدريس في الجامعات الغربية، والذي أتاح في مطلع القرن التاسع عشر إمكانية التخصص في دراسة مختلف الثقافات الشرقية، فضلاً عن ذلك الافتراضات الإيديولوجية، والصور والأخيلة الفانتازية عن منطقة من العالم اسمها الشرق^(١).

(١) ادوارد سعيد: تعقبات على الاستشراق، ترجمة وتحرير: صبحي حديدي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، (بيروت/١٩٩٦م)، ص٣٤.

التاريخية وتقويم الروايات الأصلية من مصادرها القديمة وتخليص صورة الرسول من الشكوك والتشويهاً التي بثها الرهبان والقساوسة ومستشرقو العقود التي سبقته، كما اعتمدت على طريقة نقدية في التحليل التاريخي معتمداً على العوامل الاجتماعية والبيئية لشرح إنجازات الرسول محمد ﷺ، مبرزاً القيم والمبادئ الخلقية والإنسانية التي تحلّى بها رسول الإسلام والتي كانت دافعاً لسياسته^(٤).

لهذا كله؛ يمكننا أن نعدّ كتاب منتجمري وات (محمد في مكة) ضمن الكتب المعتدلة والمنصفة وهو من الدراسات الموضوعية في حياة وسيرة النبي محمد ﷺ إجمالاً، رغم وجود بعض الأخطاء المنهجية لكن هناك الكثير من العبارات التي فيها قدر كبير من الإنصاف والعدل، بل والمدح والثناء، يمكن للقارئ أن يستشعر من خلالها أن (وات) قد أعجب بشخصية الرسول محمد ﷺ بعد أن تعرف عليها من خلال المصادر الأصلية.

هذه المواقف الموضوعية أدت إلى سخط الكثير من المستشرقين والمفكرين في الغرب على (وات) لأنه ركّز في كتابه على إخلاص النبي محمد ﷺ في دعوته،

إن الدراسات الاستشراقية تشكل حيزاً واسعاً في مجال الدراسات الإسلامية، ولهذه الدراسات أهميتها وثقلها في الدوائر العلمية، في الغرب والشرق على حد سواء، بحيث لا تكاد تخلو دراسة علمية من الإشارة إليها^(١)، وقد عملت هذه الدراسات منذ وقت مبكر على تشكيل العقل الغربي، وتحديد موقفه من الإسلام، بحيث يمكن القول: إن الموقف الغربي العدائي في بعض جوانبه، هو في نهاية المطاف، موقف الاستشراق ذاته من الإسلام^(٢).

المبحث الثالث: موقف منتجمري واتمن حياة الرسول محمد ﷺ

كتب المستشرق الاسكتلندي منتجمري وات العديد من الكتب والدراسات والمقالات عن الرسول محمد ﷺ منها، محمد في مكة سنة (١٩٥٣م)، ومحمد في المدينة سنة (١٩٥٦م)، ثم محمد النبي ورجل الدولة سنة (١٩٦١م)، فضلاً عن مقالات ودراسات أخرى مثل مقالة (محمد) في دائرة المعارف البريطانية، وفصل عن محمد ﷺ في الكتاب المرجعي (تاريخ الإسلام لكمبردج)^(٣)، ويعدّ وات من بين المستشرقين الذين ظهروا في القرن العشرين وتميزت كتاباته بمنهجيته

(١ - ٢) عبدالله محمد الأمين النعيم: الاستشراق في السيرة النبوية، ص ١.

(٣ - ٤) فاروق عمر فوزي: الاستشراق والتاريخ الإسلامي، ص ٥٩.

معها بالتجارة، وقام برحلة إلى الشام وأظهر أمانة سرّت بها خديجة رضي الله عنها وبلغ إعجابها بشخصيته أن عرضت عليه الزواج منها، على الرغم من الفارق في العمر بينهما، إذ يقال إنها كانت في الأربعين من العمر، بينما الرسول محمد صلى الله عليه وسلم كان في الخامسة والعشرين ^(٣).

يحلل (وات) بموضوعية وإنصاف العلاقة بين الرسول محمد صلى الله عليه وسلم والسيدة خديجة رضي الله عنها فيقرر أنها قد اكتشفت في شخصية الرسول محمد صلى الله عليه وسلم الكثير من الجوانب الإيجابية والقدرات الروحية، وأنها انجذبت إليها، ويكاد يكون من المؤكد أن خديجة رضي الله عنها قد تأثرت بالصفات الطيبة التي يمتلكها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ^(٤). إن هذا القول والتقارير من المستشرق (منتجمري وات) يكاد يكون متميزاً مقارنة بغيره من المستشرقين إذ أننا نجد الدس والخداع والتلفيق يكاد يكون ديدنهم، لا سيما عند الحديث عن المراحل الأولى من حياة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

لقد تعرض (وات) لأمر غاية في الأهمية وهو اعترافه - أي وات- بنبوة الرسول

وصدقه مع نفسه ومع الناس، وعلى تعبّده ومحاسبته لنفسه، وعلى أخلاقه واستقامته ^(١)، لقد رفض (وات) الاحتقار والإهانة والافتراء والكذب والتشويه الذي أطلقته الكنيسة والكتّاب في العصور الوسطى.

يسرد المستشرق (وات) بروح من الإنصاف والموضوعية سيرة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ويبتدئ من ولادته، ويكاد ينفرد من بين المستشرقين بنقل الروايات الإسلامية، من دون شك أو إضافة أو تلفيق، مبيناً المعاناة والظروف الصعبة والمشاق التي واجهها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، من هنا، تظهر موضوعية (وات) حتى أنه يؤكد أن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم كان له دور طيب ومميز في (حلف الفضول)، وكان هدف الحلف هو إقرار مبادئ العدالة ضد الممارسات الظالمة لبعض القبائل القوية والغنية ^(٢).

يتحدث (وات) عن أمانة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم مبيناً أن السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها لما سمعت عن أمانته وصدق حديثه وكرم أخلاقه، عرضت عليه أن يعمل

(١) مونتجمري وات: محمد في مكة، ترجمة: عبد الرحمن الشيخ، مراجعة: أحمد شلبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة/٢٠٠٢م)، ص ١٢٢.

(٢) مونتجمري وات: محمد في مكة، ص ٩٣.

(٣) مونتجمري وات: محمد في مكة، ص ٩٩.

(٤) مونتجمري وات: محمد في مكة، ص ١٠١.

محمد ﷺ وأنه رسولٌ قد بعثه الله تعالى، وهذا الموقف لا نجده إلا عند المستشرقين المنصفين والموضوعيين وهم ثلة قليلة، فأشار (وات) إلى سورة الضحى بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۖ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۖ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ (١). وبعد هذا يقرر (وات) بقوله: «من هذه الآيات يمكننا أن نتصور أن إحدى مراحل هذا الإعداد كانت معرفة أن يد الله تعينه بالرغم من المحن التي مرت به» (٢).

المبحث الرابع: موقف منتجمري وات من البعثة

إن المتتبع لكتابات (وات) عن البعثة النبوية، مثلاً، لا يجد صعوبة في إدراك المواقف الموضوعية والمُنصفة في دراساته، وهذه المواقف لم ترضِ عدداً من المستشرقين، فقد انتقدوه لاعتقادهم أنه قد تجاوز الحدود التي وصل إليها أسلافه من المستشرقين، وذلك بسبب إعجابه بالرسول محمد ﷺ (٣)، معتقدين خطأً أن هذا الإعجاب قد أعماه عن قول الحقيقة - على حد زعمهم - وجعله قريباً من الصورة الإسلامية للرسول ﷺ مؤكداً - أي وات -

على عصمة الرسول محمد ﷺ (٤).

شرع وات في عرض شخصية النبي محمد ﷺ في عصر النبوة مستعرضاً ظروف نزول الوحي وما صاحبها من أحداث، مبيناً بيقين صادق أن الأعوام التي تلت الزواج من السيدة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا كانت سنين إعداد للمهمة التي تنتظره (٥).

يخالف (وات) الكثير من المستشرقين حين يؤكد أن الله (جل جلاله) بعث النبي محمد ﷺ نبياً في سن الأربعين مما يجعل قوله يتوافق مع الرواية الإسلامية ولهذا القول، بطبيعة الحال مدلولاته، نقلاً من المصادر الإسلامية أن الرسول محمد ﷺ كان يخلو لوحده في غار (حراء) يتفكر في خالق السموات والأرض، وصولاً إلى نزول الوحي عليه بواسطة جبريل ﷺ (٦).

لقد اعتمد (وات) على المصادر المعتمدة عند المسلمين، ورجع إلى أصولها العربية، مثل كتب السنة كالصحيحين والسنن وغيرها (٧)، لذلك نجده يرفض التشكيك بنبوة محمد ﷺ مؤكداً أن بداية النبوة عنده كانت الرؤيا الصادقة وأن هذه الرؤيا تختلف عن الأحلام (٨)، وهذه المقولة التي

(١) الآيات: ٦-٨.

(٢) فاروق عمر فوزي: الاستشراق والتاريخ الإسلامي، ص ٥٩.

(٣) فاروق عمر فوزي: الاستشراق والتاريخ الإسلامي، ص ٦٠.

(٤) منتجمري وات: محمد في مكة، ص ١٠١.

(٥) منتجمري وات: محمد في مكة، ص ١٠٣.

(٦) منتجمري وات: محمد في مكة، ص ١٠٧.

(٧) منتجمري وات: محمد في مكة، ص ١٦-١٧.

جاء به وات تتوافق تماماً مع المنظور الإسلامي، وهكذا تظهر المواقف الموضوعية، والإنصاف في كتابات هذا (وات).

ولبيان صدق نبوة محمد ﷺ حسب أطروحة (وات) الموضوعية، ينقل لنا الحديث الذي دار بين الرسول محمد ﷺ والسيدة خديجة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، بعد أن قص الرسول ﷺ ما حدث له في غار (حراء)، بأن أشارت إلى أمانته وصدق حديثه وتحمله النوائب وحسن معاملته للناس^(١)، وإن (وات) يتبنى هذه الأقوال عن فهم وقناعة.

لقد أظهر (منتجمري وات) إعجاباً بشخصية الرسول محمد ﷺ وهذا برأينا نابع من إدراكه لحقيقة النبوة، فضلاً عن ذلك فإن (وات) قد أبصر بروح من الإنصاف والموضوعية الأحداث التاريخية التي جسدها سيرة المصطفى محمد ﷺ فأدرك أن تلك الأحداث في السيرة يجب أن تنقل إلى القارئ الأوروبي على صورتها الحقيقية، بدون تحريف أو تزييف أو غلو في العداء للرسول محمد ﷺ كما هو شأن معظم المستشرقين الذين كتبوا عن السيرة. وفي موقع آخر أكد (وات) أن الوحي

الذي كان يأتي الرسول محمد ﷺ بواسطة جبريل ﷺ هو الخط العملي للهدى، مناقضاً بذلك تحرّصات المستشرقين الذين أعماهم التعصب، فجاءت بحوثهم ودراساتهم في غاية من الوضاعة واللاموضوعية، حتى أصبحت جزءاً من ثقافة الرأي العام الأوروبي في القرون الوسطى، بل إن أثرها اتسع فامتد إلى عصر النهضة^(٢).

يؤمن (وات) أن نبوة محمد ﷺ حق يجب التسليم به، بحيث أن الإرادة الإلهية كانت تعدّه لتحمل مسؤولية الرسالة، وقد استمر هذا الإعداد لمدة ثلاث سنوات كان الرسول محمد ﷺ يتلقى فيها وحياً من نوع ما، وينقل وات عدداً من الآيات والأحاديث ليؤكد هذه الحقيقة، وقد يتحول الوحي من توجيه الرسول دون تكليفه بإبلاغه، إلى عمومية التوجيه، أي تكليفه بإبلاغه إلى أهل مكة^(٣).

إن أنموذج الدراسات الموضوعية عند (وات) لا تتوقف في كتابه (محمد في مكة) على رؤيته الشخصية، بل هو ينقل آراء الكتاب والمفكرين الأوروبيين المنصفين، فينقل عن (توماس كارليل) ما أشار إليه في

(١) مونتجمري وات: محمد في مكة، ص ١٠٣.

(٢) فاروق عمر فوزي: الاستشراق والتاريخ الإسلامي، ص ٥٣.

(٣) مونتجمري وات: محمد في مكة، ص ١١٧.

موضوعية (وات) أنه لم يقتبس أو ينقل أخباراً متعلقة بسيرة الرسول محمد ﷺ إلا إذا كانت موجودة في المصادر الإسلامية المعتمدة، وبذلك فإنه أثر الرجوع إلى المصادر الإسلامية، وناقش بعلمية ما ورد فيها من أخبار.

هذه مجمل التصورات التي جاء بها (منتجمري وات) حول شخصية النبي محمد ﷺ، وهي وإن جاءت من باحث قد ألف كتابه ليؤشّر الجوانب الحقيقية والواقعية في سيرة وشخصية الرسول محمد ﷺ، إلا أننا نعتقد في مؤلفه هذا نقطة تحول جوهريّة في تاريخ الاستشراق.

الخاتمة

بعد أن أنجزنا هذا البحث نسوق عدداً من النتائج التي توصلنا إليها وهي الآتي:

أولاً: إننا نعتقد أن الاستشراق قد تعرض في كثير من جوانبه إلى التعميم والانتقائية والدراسة السردية التقليدية، وهو لذلك أصبح موضوعاً يثير الشك والريبة لدى الكثير من أبناء الشرق. ونحن مدعوون إلى أن نحدد موقفنا من الاستشراق بعيداً عن التعميم وبروح علمية. فالكتابات الموضوعية نأخذ بها ونستفيد

كتابته (الأبطال) من أقوال موضوعية ومنصفة عن الرسول محمد ﷺ، حتى بين (وات) أنه «أصبح الغرب على وعي بوجود أساس طيب للاعتقاد في إخلاص محمد ﷺ فاستعداده لتحمل الاضطهاد في سبيل معتقداته... وعظمة ما تمخضت عنه جهوده من إنجازات، كل هذا يبرهن على تكامله الأساسي»^(١).

ويضيف (وات) في دراسته الموضوعية إلى أن الرسول محمد ﷺ قد لقي من الغبن والظلم في الغرب ما لم يلقاه أحد من عظماء التاريخ مبيناً أن الكتاب الغربيين متفقون على الاعتقاد في كل أمر يشين إلى الرسول محمد ﷺ^(٢)، وعلى ذلك دعا (وات) إلى فهم شخصية الرسول محمد ﷺ ككل متكامل، وتصحيح الأخطاء التي توارثها المستشرقون عن الماضي وبعد ذلك يجب الإيمان بإخلاص الرسول محمد ﷺ^(٣).

من الجوانب الإيجابية لدراسة (وات) أنه عندما رجع إلى كتابات المستشرقين السابقين له لم يأخذ بحوثهم ودراساتهم كمسلمات نهائية بل أنه أقرّ الدراسات الموضوعية والعلمية منها ورفض وعارض الكثير من التخرصات والأحكام الجائرة التي أوردها الكثير من المستشرقين بحق الرسول محمد ﷺ، ومما يؤشر إلى

(٣) مونجمري وات: محمد في مكة، ص ١٢١-١٢٢.

(٢-١) مونجمري وات: محمد في مكة، ص ١٢١.

فصوّروه بأنه الأداة الطيّعة بيد الاستعمار وكأنه لم يكن للاستشراق بُعد معرفي أو علمي أبداً. وهذا الأمر خلق حاجزاً نفسياً، جعل أكثر المثقفين والباحثين العرب ينفرون من كتابات المستشرقين، مما أدى، والأمر على هذه الحال، إلى ضياع فرصة الحوار والأخذ والعطاء، واحترام الرأي الآخر، وقبول النقد بروح علمية.

رابعاً: مما لا شك فيه أن منتجمي واتقد وقع في العديد من الإخفاقات المنهجية في دراسته لشخصيته الرسول محمد ﷺ وتصوره لسيرته إلا أن ذلك يُعد حالة طبيعية، ليسمن باب إيجاد التبريرات والأعذار على اعتبار أننا نسوق الأفكار وفقاً لفرضية هذا البحث، بل أن أبواب وفصول كتابه (محمد في مكة) تنطق بهذه الحقيقة.

خامساً: ونحن بعد هذا كله لا نبغي نهاية للاستشراق أو توقف جهود رجاله، لأننا نعتقد أن الاستشراق فتح نوافذ علمية فكرية، على الرغم من المغالطات الواضحة فيها، إلا أنها فتحت نوافذ جديدة نطل من خلالها على أفكار وتصورات جديدة، ليست هي نفس الأفكار التي يردّها أبناء الشرق، من هنا يصبح الاطلاع على الكتابات الاستشراقية ونقدها وتحليلها، وإظهار الجوانب السلبية والإيجابية فيها، يمثل خدمة للحركة العلمية والفكرية في البلدان العربية والإسلامية.

منها ونعتمدها، والدراسات المتحيزة والبعيدة عن الموضوعية والإنصاف نقومها ونضع ما هو بديل عنها. لأنه لا بديل عن مواجهة المشكلة إلا من خلال دراستها وبحثها من جوانبها السلبية والإيجابية بروح النقد والأخذ بنظر الاعتبار الحرية الفكرية وإبداء الرأي فهما برأينا رمز للحركة وحاملان روح الحياة والخلق والإبداع وهما السائران بالفكر الإنساني إلى التقدم.

ثانياً: قد يخامر البعض الشك أن هذا البحث هو محاولة للدفاع عن الاستشراق والمستشرقين، ولكننا نقول إنها محاولة متواضعة لإظهار الدراسات الموضوعية، لأن الدراسات والأبحاث التي كتبت في اللغة العربية في الأغلب الأعم قد انصبت على دراسة الجوانب السلبية للاستشراق، لدرجة جعلت بعض الباحثين يضعون كل ما تناوله الاستشراق تحت عنوان الخطر. وأخيراً أمل أن يكون هذا البحث بداية لدراسات تتعرض للجوانب الإيجابية في الفكر الاستشراقي.

ثالثاً: لقد آن الأوان لدراسة الاستشراق دراسة علمية موضوعية متوازنة، نضع قضيته في مكانها المناسب، وهنا سرعان ما تواجهنا الإشكالية التي تتمحور حول الموقف من الاستشراق، والتي جنح أغلب الباحثين العرب إلى الغلو في وصف الصلة بينه وبين الجهات السياسية الأوروبية

ثبت المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .

أولاً: المصادر

- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م).
١ - المقاصد الحسنة في كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، دار الكتب العلمية، ط ٢، (بيروت/ ٢٠٠٦م).
- الكندي، أبو يعقوب اسحق (ت ٢٥٢هـ/ ٨٦٦م).
٢ - رسائل الكندي الفلسفية، لا. مط (القاهرة/ ١٩٥٠م).

ثانياً: المراجع

- أحمد سمايلوفتش
١ - فلسفة الاستشراق، دار المعارف، (القاهرة/ ١٩٨٠م).
- أدوارد. و. سعيد.
٢ - الاستشراق، ترجمة: كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، ط ١، (بيروت/ ١٩٨١م).
٣ - تعقيبات على الاستشراق، ترجمة وتحرير: صبحي حديدي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط ١، (بيروت/ ١٩٩٦م).
- اغناطوس غويدي.
٤ - محاضرات في تاريخ اليمن والجزيرة العربية قبل الإسلام، ترجمة: إبراهيم السامرائي، دار الحدائق، ط ١، (بيروت/ ١٩٨٦م).
- جابر قمبيحة.
٥ - آثار التبشير والاستشراق على الشباب المسلم، رابطة العالم الإسلامي، (مكة المكرمة/ ١٩٩١م).
- رشيد عبد الرحمن العبيدي.
٦ - الحركة الاستشراقية مراميها وأغراضها، مكتبة أنوار دجلة، (بغداد/ ٢٠٠٣م).
- شوقي أبو خليل.
٧ - الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين، دار الفكر المعاصر، ط ٢، (بيروت/ ١٩٩٨م).
- عبد الله بن عبد الرحمن الرومي .
٨ - وسائل الاستشراق، لا. مط، (د. ب/ ١٤٢٤هـ).
- عبدالله محمد الأمين النعيم .
٩- الاستشراق في السيرة النبوية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط ١، (د. ب/ ١٩٩٧م).
- عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني .
٩- أجنحة المكر الثلاثة التبشير الاستشراق الاستعمار، دار القلم، ط ٨، (دمشق/ ٢٠٠٠م).
- عبد الكريم السايح .
١٠- الاستشراق في ميزان نقد الفكر الإسلامي، الدار المصرية اللبنانية، ط ١، (القاهرة/ ١٩٩٦م).
- علي عبد الحلیم محمود .
١١ - الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، نشر جامعة محمد بن سعود، (الرياض/ ١٩٨١م).
- فاروق عمر فوزي .
١٢- الاستشراق والتاريخ الإسلامي، منشورات المكتبة الأهلية، ط ١، (عمان/ ١٩٩٨م).
- فاضل محمد عواد الكبيسي .
١٣- فليب حتي عصر النبوة والخلافة الراشدة، دار الفرقان، ط ١، (عمان/ ٢٠٠٥م).
- فالج عبد الجبار .
١٤- الاستشراق والإسلام، دار المدى، ط ١، (بيروت/ ٢٠٠٦م).
- لويمان زاكيري .
١٥- تاريخ الاستشراق وسياسته، ترجمة: شريف يونس، دار الشروق، (القاهرة/ ٢٠٠٧م).
- ماجد فخري .
١٦- أبعاد التجربة الفلسفية، دار النهار للنشر، (بيروت/ ١٩٨٠م).
- محسن محمد حسين .
١٧- الاستشراق برؤية شرقية، دار الوراق للنشر، ط ١، (بغداد/ ٢٠١١م).
- محمد عمارة .
١٨- الجديد في المخطط الغربي تجاه المسلمين، نشر دار الوفاء (القاهرة/ ١٩٩٣م).
- محمد فتح الله الزياي .
١٩- ظاهرة انتشار الإسلام، المنشأة العامة للنشر والتوزيع، ط ١، (طرابلس/ ١٩٨٣م).

- محمد محمد الدهان .
٢٠- قوى الشر المتحالفة (الاستشراق، التبشير، الاستعمار) دار الوفاء للطباعة، ط٢، (المنصورة/ ١٩٨٨م).
- محمود حمدي زقزوق.
٢١- الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، دار المعارف (القاهرة/١٩٩٧م).
- مصطفى السباعي .
٢٢- الاستشراق والمستشرقون، دار الوراق، (د. ب/ لا. ت).
- منتجمري وات .
٢٣- محمد في مكة، ترجمة: عبد الرحمن الشيخ، مراجعة: أحمد شلبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة/٢٠٠٢م).
- نجيب العقيقي .
٢٤- المستشرقون، دار المعارف، ط٥، (القاهرة/ ٢٠٠٦م).
- يحيى مراد .
٢٥- معجم أسماء المستشرقين، دار الكتب العلمية، ط١، (بيروت/١٩٩٨م).
- ثالثاً:- المقالات والبحوث**
- حسين مؤنس .
١ - كارل بروكلمان، مقالة منشورة في مجلة العربي، إصدار وزارة الإعلام الكويتية، العدد (١٣٩)، يونيو/١٩٧٠م.

البرج مركز حكم عكار بين عام ١٨٠٠- ١٨٨٦ م

د. محمود الأظن

دوراً كبيراً، إضافة إلى بروز العديد من أبنائها على صعيد الوطن، قديماً وحديثاً. ابتداءً من أبنائها: محمد بك الأسعد المرعبي المتسلم طرابلس، ومصطفى بك الأسعد المرعبي متسلم طرابلس وقائد الانكشارية، وعلي باشا الأسعد المرعبي، ملتزم عكار ووالي طرابلس، ومحمد معين بك القدور المرعبي قائمقام يافا، وعبد الكريم القدور المرعبي، وبهيج القدور المرعبي، وصولاً إلى الوزير والنائب معين طارق القدور المرعبي، ممثلين للأمة.

تميّزت البلدة بالنموذج الريفي عبر العصور، وظلت كذلك منذ الفتح الإسلامي، مروراً بالمماليك، وصولاً إلى العهد العثماني. وما ميّزها من غيرها من البلدات العكارية، هو موقعها الجغرافي، وبروز عدد من أبنائها. ولعلّ ذلك ما جعلها رائدة بين أقرانها من البلدات والقرى العكارية،



صورة لسراي البرج

أهمية بلدة «البرج» وموقعها

هي البرج البلدة الرابضة في ثنايا منطقة الجومة العكارية، الكبيرة في دورها السياسي، والاقتصادي، والثقافي، والاجتماعي، قديماً، وحديثاً.

هي «البرج» التي تتمتع بموقع متميز على صعيد منطقة الجومة، وعكار عامة. هذا الموقع الذي دفع أسعد آغا شديد المرعبي إلى اتخاذها مقراً لإقامته. لأنها تتوسط منطقة الجومة التي تتوسط بدورها منطقة عكار^(١).

هذا الموقع المتميز جعل البلدة تؤدي

(١) فاروق حبلص، تاريخ عكار الإداري والاجتماعي والاقتصادي، ١٧٠٠-١٩١٤، دارلحد خاطر، بيروت، ١٩٨٧، ص ٢٥٨.

ومقصد الشعراء والأدباء كالشاعر أمين الجندي، والحاج علي بن السيد بكري الخاني^(١).

إضافة إلى الطامعين بالوصول إلى المناصب الإدارية، الأمر الذي ساهم بالتطور السكاني الذي شهدته البلدة، والبلدات المجاورة لها^(٢). وإلى دورها الإداري، والسياسي، الذي أكسبها مكانةً، وخصوصاً في عهد علي باشا الأسعد المرعبي، ما جعل البلدة في تلك الفترة، والفترات التي تلتها، الركيزة الأساسية لأي تحركات سياسية، وحتى عسكرية، في المنطقة.

تقع البرج في شمال لبنان، وسط عكار من الناحية الجغرافية، بحدود واضحة المعالم، وتحوي البلدة أنقاضاً وأطلال قصر، مردومة تحت التراب، على ربوة تشرف عليها، كانت الملكة هيلانة قد أقامته^(٣). ومساحة البلدة حالياً صغيرة تبلغ حوالي ٤٠ هكتاراً. تبعد عن بيروت ١٢٨ كلم، وعن طرابلس ٤٢ كلم، وعن حلبا

مركز القضاء الحالي ١٦ كلم، ترتفع عن سطح البحر ٦٠٠م، عدد السكان المسجلين نحو ٣٠٠٠ نسمة، وعدد الناخبين حوالي ١١٠٠ ناخب، وعدد المنازل حوالي ٣٠٠ منزل^(٤). يمكن الوصول إليها عبر: حلبا - تكريت - بيت ملات - العيون - البرج. أو: حلبا - زهر نصار - زهر الليسينة - بينو - البرج. أو: منيارة - القنطرة - عدبل - البرج. أي من دون عبور حلبا.

أولاً: البرج مركز حكم عكار:

على الرغم من تمتع البرج بمزايا جغرافية، واقتصادية، كانت تنبئ بوصولها إلى ما كانت عليه من عظمة، إلا أن هناك مجموعة عوامل ومزايا عديدة جعلت البلدة تتفوق على باقي البلدات العكارية، وهذه العوامل تكمن في ثلاث مزايا تحلّى بها سكان البرج، وهي: الصمود، والشجاعة، والحسّ الوطني.

إن هذه المزايا التي تحلّى بها علي باشا الأسعد أحد أبناء البلدة جعلته يتخذ من

(١) سعاد المرعبي، زعماء مراعبة في بلاد الشام، دار مكتبة الإيمان، طرابلس - لبنان، ٢٠١٣، ص ٥٣.

(٢) فرج زخور، تاريخ عكار السياسي والإداري والاقتصادي والاجتماعي، ١٩٠٨-١٩٤٣، دار زخور، ط ٢، حلبا - لبنان، ٢٠٠٠، ص ١٦١.

(٣) الأب نايف أسطفان، تاريخ أبرشية عكار الأرثوذكسية، طباعة ونشر مقدمة مؤسسة فارس، ١٩٩٤، ص ١٨. وهذا ما اتفق وروايات المعمرين في منطقة الجومة، منهم عمر يعقوب المولود سنة ١٩٣٠، نقلاً عن روايات الآباء والأجداد، والذي تمّ سؤاله حول هذا الموضوع، وذلك في ٢٠١٦/٨/٥.

(٤) مقابلة أجريتها مع رئيس بلدية البرج السابق الشيخ خالد الرشيد، مواليد ١٩٤٠، في منزله في ٢٠١٦/٩/٦ الذي سألته حول هذا الموضوع.

١ - أسباب اختيار بلدة البرج مركزاً

لحكم عكار:

توفرت أسباب وظروف عديدة، ساهمت في جعل البرج عاصمة عكار، ولسنوات عديدة، وعلى مدى المراحل الثلاث التي ذكرت سابقاً، أي خلال مرحلة: الحكم العثماني، وخلال الحكم المصري، وكذلك بعد عودة الحكم العثماني وذلك:

- كون علي باشا الأسعد أحد أبناء البلدة، وهو يحمل المزايا العالية في الحنكة السياسية، والزعامة، فقد أعطى بلدته بعداً إقليمياً ومركزاً لزعامته، وعائلته من بعده، ومحط أنظار القادة والشعراء عندما برز كأحد ولاة الشام الأقوياء، وضبط أمور ولاية طرابلس وإمارة جردة الحج^(٤).
 - كانت مركز الإدارة إبان عصور الإقطاع والالتزام^(٥) (*).
 - توسطها لمنطقة الجومة، كما تتوسط البيرة الدريب، وكما تتوسط برقابيل القيطع، الجومة عكار.
- فبذلك يمكن القول إن البرج هي وسط

قريته البرج في منطقة الجومة العكارية، مقرأً لسلطته وقاعدة لحكمه، فعمرت القرية الصغيرة بعد أن بنى فيها الوالي سراياه الكبرى وإلى جانبها المسجد الذي استحصل له على فرمان خاص ببنائه، من السلطنة العثمانية^(١). وبتحول القرية إلى عاصمة قرار، تحولت القرى المجاورة وكل منطقة الجومة إلى منطقة جذب واستقطاب، دفعت الناس، والمؤسسات الدينية والاقتصادية، والعلمية، للنزوح إلى البلدة، والبلدات المجاورة، كتمركز مطرانية الروم الأرثوذكس في بينو لقربها من بلدة البرج حيث مركز الحكم والحكومة^(٢) وكذلك تهافت كل ساعٍ إلى وظيفة أو موقع حكوميين ممن يحسنون القراءة والكتابة. وهكذا أمّ الجومة، والبرج، عائلات متنوعة، عملوا موظفين، أو كتبة، أو محاسبين، سواء في دوائر الحكم أم عند أصحاب الثروة والجاه من بكوات آل مرعب، في سراي الحكم القائمة في بلدة البرج^(٣).

(١) خالد مرعب، الإمارة المرعبية، امتدادها الجغرافي وتطورها السياسي حتى سنة ١٨٤٠، دار بخاري، طرابلس، الجزء الأول ١٩٩٢، ص ٢٣٠.

(٢) الأب نايف أسطفان، مرجع سابق، ص ٧١.

(٣) فرج زخور، تاريخ عكار، مرجع سابق، ص ١٦١.

(٤) سجلات المحكمة الشرعية في طرابلس، سجل ٥٠، ص ١١٢ (١٢٤١-١٢٤٢هـ) (١٨٢٦-١٨٢٧م).

(٥) رفيق التميمي، ومحمد بهجت: ولاية بيروت، دار لحد خاطر، بيروت، ١٩٧٩، ج ٢، ص ٢٤٣.

(* كانت البرج وسراياها مقرّ حكم عكار، ومقرّ إقامة والي طرابلس علي باشا الأسعد المرعبي، والذي جعل من بلدته ذا بعد إقليمي.

عكار، إضافة إلى تمتعها بموقع يسمح بإمكانية الدفاع عنها، نظراً لوعورة مسالكها، وبعدها عن مركز الوالي في طرابلس^(١).

- إن مراكز القيادة والتجمعات البشرية في عكار، كانت منحصرة في حواضر العهدة الثلاث وهي: البرج عاصمة الجومة، البيرة عاصمة الدريب، برقايل عاصمة القيطع^(٢).

- هي إحدى المخافر المتقدمة لحماية مدينة عرقا التاريخية في العهد الصليبي^(٣).

كل هذه العوامل ساهمت بجعل بلدة البرج مركزاً لحكم عكار. ولعلّ السبب المباشر والحقيقي يكمن في شخصية علي باشا أحد أبنائها، حيث يعود الفضل إليه في رفع مستواها على صعيد عكار.

٢ - دور البرج وزعمائها في حل الخلافات العكارية:

كثيراً ما كانت الخلافات تنشب بين الزعامات المحلية لأسباب عديدة، وكثيراً ما كانت هذه الخلافات تنتهي بالتسويات،

والمصالحات. فيما كان رجال الدين يقومون بدور بارز في إعطاء الصفة الشرعية على الأحكام والمصالحات، وتزخر سجلات المحكمة الشرعية في طرابلس خلال القرن الثامن عشر، وفي عكار في ما بعد، بالعديد من هذه الأحكام والمصالحات، والتسويات، تنويجاً لأوامر الزعماء المحليين، وبمشاركة الأئمة والمشايخ^(٤). ويروى أن خلافاً نشب بين زعامة الجومة، وزعامة القيطع، نتيجة تضارب المصالح وتنازع القوى على الغلال، ونقلها إلى مقاصدها، وإلى المنازل الكبرى، كمنزول آل القدور في البرج، (الذي هو منزل علي باشا سابقاً) إضافة إلى منازل الباشوات في برقايل، ومنزول آل شديد بك الأسعد المرعبي في بزبينا، حيث حدث خلاف على أفضلية نقل الغلال إلى منزل بزبينا، ومنزول برقايل. وكاد هذا الخلاف يؤدي إلى حرب ضروس، لولا تدخل مصطفى بك القدور المرعبي في بلدة البرج، زعيم الجومة آنذاك، وكانت له الكلمة المسموعة في فضّ هذا الخلاف بين المتخاصمين^(٥).

(١) فاروق حبلص، مرجع سابق، ص ٢٥٧-٢٥٨.

(٢) خالد مرعب، تاريخ عكار السياسي، ١٨٤٠-١٩٤٣، دار مكتبة الإيمان، طرابلس - لبنان، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص ٢٣٤.

(٣) فرج زخور، تاريخ عكار مرجع سابق، ص ١٥٨. و le guide bleu, liban Hachette, Paris 1975, p170.

(٤) خالد مرعب، نوادر المنازل صفحات من تاريخ عكار الخالدة، دار مكتبة الإيمان، طرابلس لبنان ٢٠٠٤م، ص ١٥٧.

(٥) المرجع نفسه، ص ١٦١.

٣ - البرج ملجأ الفارين من الاضطهاد السياسي، والفكري والديني:

اللجوء هو ترك الإنسان وطنه بسبب الاضطهاد على أنواعه كافة، عرقي، ديني، سياسي، فكري، وحتى إنساني، والإقامة في بلد، أو مكان، تتأمن له فيها هذه الحريات.

لقد طبقت البرج بشخص ابنها علي باشا الأسعد المرعبي هذا التصرف الإنساني مع العديد من الفارين، والمضطهدين، في بلادهم، حيث استقبلتهم البلدة، ووفرت لهم ما ينشدونه من أمان، وحريات.

ذاع صيت بلدة البرج في بلاد الشام، وأصبحت تعد مركزاً هاماً من مراكز القوى الإقليمية في المنطقة، وغدت ملجأ الفارين من الاضطهاد السياسي، والفكري، من سائر المقاطعات^(١).

وقد التجأ إليها أمراء وعظماء وثائرون من مختلف الفئات. وكان من بينهم الأمير بشير الشهابي الثاني أمير الجبل، هو وعائلته وحاشيته، وأمضى فترة طويلة في سراي الباشا، إلى أن تمكّن من العودة إلى بلاده، وأبقى الأمير عند الباشا ابنه خليل، كما استقبل الباشا الأمير حسن الشهابي،

أخو الأمير بشير، وأولاد عمه، الذين أقاموا عنده. والتجأ إليه الشيخ بشير جنبلاط، أثناء فراره من وجه الأمير بشير، واستقبل في سراياه العامرة في البرج الأمراء الإرسلانيين وعدداً من العلماء والأدباء، والشعراء، وأرباب الحاجات^(٢).

لقد وجد العديد من المضطهدين دينياً في البرج الملجأ الأمين لهم ولعقائدهم، فقد وصلها بطرس كرامة بن إبراهيم كرامة الحمصي، الذي كان من أعيان حمص، الذي ارتحل مع والده وعائلته، على أثر الاضطهاد الذي لحق بطائفته، وقصد دار علي باشا الأسعد في البرج، ومكث عنده فترة زمنية مدحه فيها مظهراً امتنانه وتقديره للباشا الذي كان عنوان التسامح الديني^(٣)، وكذلك لجأ الشاعر أمين الجندي، تاركاً حمص بلده مغاضباً أهلها، ومغاضبوه، فنزل البرج قاصداً علي باشا الأسعد، الذي أحسن استقباله.

ومن شعره:

وغدت تقنادني أيدي الوفا
لحمى جومة برج الأسد
فامض بي نقصد عكار الصفا
فلقد حيعل داعي الرشيد

(١) خالد مرعب، الإمارة المرعبية، مرجع سابق، ص ١٧٢.

(٢) طنوس الشدياق، أخبار الأعيان في جبل لبنان، ط ٢، مكتبة العرفان، بيروت، ١٩٥٤، ص ٣١٣.

(٣) فاروق حبص، مرجع سابق، ص ٣٥٦.

وقال أيضاً:

من برج عز طاطأت لعلاه عن
شم الرواسي الراسخات رؤوس
كفت أكف السوء عنه به كما
قد كف عن خبر السما إبليس^(١)

وقال أيضاً:

لقد عفت حمصاً وخلفتها
تقضّ عليّ بنان السيد
وهاجرت منها لبرج العلا
فعوضني الله عن معهدي^(٢)

ثانياً: الوضع السياسي في البرج وعكار خلال
الاحتلال المصري (١٨٣١-١٨٣٩م):

١ - الوضع السياسي المستجد:

فقدت البلدة دورها الريادي على الصعيد
السياسي في عكار، بنقل علي باشا الأسعد
المرعبي إلى عاليا ليكون والياً هناك.
ودخلت عكار والبرج كما بقية بلاد الشام
منعطفاً تاريخياً تجلى بالزحف المصري

على بلاد الشام، في وقت كانت عكار
والبرج تفتقد لزعامات قوية أمثال علي باشا
الأسعد، فقد تولى إخوته، وأبناء إخوته من
بعده الاهتمام بالشؤون السياسية^(٣). وقد
أتى الاحتلال المصري ليخلق واقعاً سياسياً
جديداً. صحيح أن المصريين قد أبقوا على
البرج كمرکز حكم، إلا أنهم رفضوا التعاون
مع السياسيين التقليديين، مما مكّن بعض
رجال العائلة المرعبية والتي كانت تبحث
لها عن دور، من التعاون مع المصريين.
فبعد مسيرة جيوش إبراهيم باشا من
طرابلس إلى عكار، حضر البعض من بكوات
البرج، ومنطقة الجومة، وتراموا على الأمير
خليل - الذي كان لاجئاً في البرج زمن علي
باشا الأسعد المرعبي، حين أتاها هارباً مع
والده وعائلته - فقبلهم الأمير خليل وطمان
خواطرهم، وهم محمود بك، وأخوه إبراهيم
أولاد شديد بك أخ علي باشا الأسعد^(٤).
ولعل الأمير خليل، وجد الفرصة سانحة

(١) خالد مرعب، الإمارة المرعبية، مرجع سابق، ص ٣٤٣-٣٤٥.

(٢) أمين الجندي، ديوان الشعر، طبعه محمد كامل بكداش، مطبعة المعارف، بيروت، ومنشورات وزارة الثقافة في
الجمهورية العربية السورية، دمشق، ١٩٨٨، ص ٨١. وأيضاً، سعاد المرعبي، مرجع سابق، ص ٥٣-٥٤.

(٣) يذكر القس وليام م. تومسون في رحلته الشهيرة من بيروت إلى حلب، مروره بالبرج واستقباله له حاكمها محمد بك
أحد أحفاد علي باشا الأسعد المرعبي. في كتاب لجوزف عبد الله، منتخبات التاريخ منتخبات التواريخ والآثار حول
عكار والجوار، الطبعة الأولى، منشورات المؤلف، القبيات، ٢٠١٠، ص ٩٥، قد يكون المقصود بذلك جده بشكل
مجازي لأن علي باشا لم يعقب وإلا فإن في ذلك خطأ تاريخياً.

(٤) الأمير حيدر أحمد الشهابي، لبنان في عهد الأمراء الشهابيين، الجزء ٣، كتاب الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمان،
عني بطبعه ونشره وتعليق حواشيه ووضع مقدمته وفهارسه أسد رستم، وفؤاد إفرام البستاني، منشورات المكتبة
البوليسية، بيروت ١٩٨٤ ص ٨٤٣.

لردّ جميل حمايته واحتضانه في البرج، فترة هروبه، ذلك أنه لم تذكر المصادر أو المراجع حروباً، أو اعتقالات جرت في البلدة آنذاك.

وحتماً إن هذا التصرف قد أبعد المنطقة والبلدة عن أية عملية تنكيل، جرت في أكثر من منطقة في عكار على يد الجيش المصري، وقد بقي للبلدة دورها الإداري خلال هذه الفترة وما بعدها.

٢ - تأثير الحكم المصري على البرج وعكار:

حكم المصريون بلادنا حكماً مركزياً مباشراً. وقد حاول إبراهيم باشا اتباع سياسة خاصة في التعامل مع السكان من خلال: التعامل مع بعض الزعماء التقليديين كمقدمة للالتفاف عليهم، وإيجاد زعامات بديلة لهم بسبب ميولهم للعثمانيين، واستمالة السواد الأعظم من السكان عبر إصلاحات لها مغزى اجتماعي.

استمرت هذه الطريقة في التعامل حتى ثبت المصريون قواعد حكمهم، وراحوا يفرضون حكماً مباشراً، فيه نوع من المركزية القوية، في عكار، والبرج خاصة، فعينوا قائم مقام مصرياً هو «سليم بك»

الذي اتخذ سراي بلدة البرج مركزاً لحكمه^(١).

إن إدراك المصريين صعوبة التعامل مع الزعماء التقليديين، جعلهم يلجأون للتعامل مع فئة من المراعية غير الزعماء التقليديين، وقد تمكّن بعض المراعية من الإفلات من الغضب المصري، باللجوء إلى التماس العفو، والسماح، والقبول بالسلطة المصرية، ومنهم من سارع إلى كسب ودّ المصريين، والتعامل معهم بذريعة الحفاظ على أنفسهم، ومكتسباتهم ووراثة الزعامة السياسية في الجومة وبلدة البرج، بعدما تمكنوا من الحصول على العفو الخاص^(٢). وإن دلّ ذلك على شيء فإنما يدلّ على مرونة القيادة السياسية للمراعية في البرج خاصة وعكار عامة، بالتعاطي مع مختلف التقلبات، والظروف العامة السائدة في البلاد، هذه المرونة سمحت لهم بامتصاص العديد من الضربات، وتجاوز الكثير من المحن، كان أخطرها الاحتلال المصري، ما سمح ببقاء دور البرج السياسي والإداري طوال فترة الحكم المصري وبعده.

استمرت القيادة المرعبية في عكار عبر طبقة جديدة من الزعماء المتعاونين مع المصريين^(٣) أمثال آل شديد الأسعد في

(١) إبراهيم أبو سمرا غانم، دون مكان طبع، ط ٢، ١٩٥٨، ص ٦٦.

(٢) طنوس الشدياق، مصدر سابق، ص ٤٤٦.

(٣) سجلات المحكمة الشرعية في طرابلس، سجل ٥٢، ص ١٠-٤٥.

بزبينا، وآل عوض الأسعد في البرج. لكن هؤلاء الزعماء لم يتمتعوا بالنفوذ والسطوة كما كان أسلافهم، وقد اضطروا لمساندة المصريين وسارعوا إلى الدخول في المنظومة الإدارية المصرية، وأصبحوا تابعين للهيكلية الإدارية المصرية ساعين إلى إثبات جدارتهم. وقد دخلوا تركيبة الحكم واستوعبوا إجراءاتها كافة^(١) وبقوا على رأس السلطة السياسية والإدارية خلال مرحلة الحكم المصري، وبالتالي ما إن عادت آلة الحكم العثماني حتى كان المراعبة في الواجهة^(٢). في حين بقيت فروع أخرى من العائلة المرعبية تناصب المصريين العدا، وتعتبر أن التعامل معهم بمثابة الخيانة العظمى، فمن تعامل مع المصريين وجد في تعامله الطريقة المثلى للمحافظة على الحضور السياسي للعائلة من خلال التعامل مع قوى الأمر الواقع.

إلا أن الأرجح في هذا التصرف من قبل آل العوض في البرج، والشديد في بزبينا، يشير إلى التنافس داخل الأسرة المرعبية على الزعامة، والذي كان قد ظهر قديماً بين محمد بك الأسعد المرعبي وحسن آغا اليوسف المرعبي الذي استنجد بقوى خارجية ضد ابن عمه محمد بك.

وإن دل هذا الأمر على شيء فإنه يدل على تنافس أو وجود تيارين مختلفين بين المراعبة على الصعيد السياسي، وفي تحديد خيارات التحالف والذي ظهر قديماً في التنافس على عملية الالتزام، مروراً بلجوء حسن آغا اليوسف المرعبي إلى إغراء خليل باشا والي طرابلس على ابن عمه محمد بك الأسعد المرعبي^(٣) ووصولاً حديثاً بانقسام العائلة في العديد من الجولات الانتخابية بين لوائح وتحالفات متباينة كتحالف عبود بك عبد الرزاق مع الكتلة الدستورية في وجه ابن عمه محمد معين بك القذور المرعبي المتحالف مع الكتلة الوطنية عام ١٩٤٣م.

وبعد زوال الحكم المصري عاد المنفيون والهاربون من زعماء العائلة المرعبية وحاولوا استعادة مواقعهم، ما أدى إلى خلط الأوراق من جديد. حيث برز صراع داخل بلدة البرج بين أبناء آل عوض من جهة وأبناء آل قذور من جهة ثانية (ضمن الأسرة المرعبية) إضافة إلى تدخل بعض أبناء الأسرة كمشاركين أو مساهمين في هذا الصراع، الذي أخذ شكلاً سياسياً محضاً تخلله بعض النزاعات الفردية^(٤).

(١) سليمان أبو عز الدين، إبراهيم باشا في سوريا، المطبعة العلمية، بيروت ١٩٢٩، ص ١٣٧.

(٢) أسد رستم، الأصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي باشا، المطبعة الأميركية، بيروت ١٨٣٠م، ص ٥٨.

(٣) الأمير حيدر أحمد الشهابي، مصدر سابق، ص ٨٧١.

(٤) مقابلة مع سليمان العوض مواليد ١٩٢٨، في منزله في ٢٠١٦/٥/٥ الذي سألته حول هذا الموضوع.

ثالثاً: الوضع السياسي في البرج بعد عودة الحكم العثماني

١ - الترتيبات العثمانية الجديدة:

أتت الحملة المصرية على بلاد الشام، لتدفع الدولة العثمانية، إلى إجراء سياسة إصلاحية، تعيد كيان السلطنة المتداعي أمام ضربات إبراهيم باشا، وضغوطات الدول الغربية، ما أوجب تنفيذ سياسة عثمانية جديدة، عرفت بسياسة التنظيمات والتي قامت على أساس «فرمانين» سلطانين، صدر الأول منهما سنة ١٨٣٩ م وهو «خط همايوني شريف كول هانه» والثاني صدر سنة ١٨٥٦ م، وعرف باسم «التنظيمات الخيرية»^(١). لقد تمحور مضمون هذين المرسومين حول نقاط ثلاث:

أ - الاقتباس عن الغرب إدارياً وعسكرياً.

ب - الاتجاه بالمجتمع نحو التنظيم الغربي للدولة والمجتمع.

ج - اعتماد مركزية السلطة.

لقد قضت هذه التنظيمات على النظم الإقطاعية التي كانت سائدة، وحل مكانها نظام الحكم المركزي، ما أدى إلى إعادة

تنظيم الولايات داخل السلطنة العثمانية على أساس المركزية، وجعل في كل ولاية مجلس إداري يتألف من أعضاء منتخبين، بينهم ممثلين للمسيحيين واليهود.

فألغت هذه التنظيمات الجديدة سنة ١٨٦١ م ولايتي طرابلس، وصيدا، فأصبحت البلدان الشامية خارج لبنان ولايتين فقط. ولاية حلب، وولاية دمشق. وشكلت عكار قائمقامية تابعة لسنجق طرابلس، وعلى رأسها قائمقام يتبع مباشرة للمتصرف، حاكم السنجق في طرابلس^(٢).

شملت ولاية سوريا جميع ما سلخ عن لبنان عام ١٨٦١ م، وقسمت إلى سناجق، والسنجق قسم إلى أقضية، والقضاء إلى نواح، وقرى^(٣)، وأصبحت كل من طرابلس وبيروت مركزاً لسنجق، فكان قضاء عكار ملحقاً بطرابلس^(٤)، والجومة ناحية تابعة لقضاء عكار، مركزه بلدة البرج. وبقي قائمقامو قضاء عكار يختارون من المراعبة زعماء البرج، وعكار حتى أواخر عام ١٨٩٥ م، بعدها تولى إدارة القضاء قائمقامون من خارج البلدة، وحتى من خارج القضاء، من آل الملا، وكنعان،

(١) الدستور العثماني، ترجمة نوفل أفندي نعمة الله نوفل، بمراجعة وتدقيق خليل أفندي الخوري، المجلد الأول، المطبعة الأدبية، بيروت، ١٨٤٤ م، خط كلخانة، ص ٢-٤، والإصلاحات ص ٥-١٠، وأيضاً، فؤاد سلوم، عكار ١٨٥٠-١٩٥٠، دراسة في التاريخ الاجتماعي، بيروت، ٢٠٠٠، ص ٤٤.

(٢) فؤاد سلوم، مرجع سابق ص ٤٥. (٣) الدستور العثماني، مصدر سابق، المادة ٣ ص ٣٩٧.

(٤) أسد رستم، مرجع سابق، ص ٨٨.

وكبارة^(١). واستمر مركز قضاء عكار في بلدة البرج حتى نقله عام ١٨٨٦م تاريخ نقله الى بلدة حلبا الساحلية، الواقعة ضمن نطاق منطقة الجومة العكارية.

بذلك يكون قد طويت صفحة مشرقة من تاريخ البرج، ودورها في محيطها العكاري، واللبناني. ففقدان الدور الإداري للبلدة، قلص وأضعف من دورها السياسي، كما أن جعل قائم مقام القضاء موظفاً لدى السلطنة، أفقد الدور السياسي لزعماء البرج، والذي لعبوه على مدى سنوات عديدة، حيث كان لهم الدور البارز في العديد من القضايا السياسية، والعسكرية داخلياً، وإقليمياً، طوال أكثر من قرن، فتطلعوا مرة نحو الإمارة اللبنانية، ومرة نحو ولاية الدولة العثمانية في طرابلس، وصيدا، ودمشق، وحماة.

إن هذه السياسة التي انتهجوها أتاحت لهم بناء دعائم إمارتهم، وإقطاعيتهم، ووطدت أركان حكمهم، وبقيت المساحات الزراعية في السهل، والجرد العكاري، ملكاً لهم. كما استمروا في تأدية الدور السياسي في المنطقة، ولو على نطاق ضيق، حين تكيفوا مع الظروف السياسية الجديدة،

فتخلوا عن إخلاصهم للأتراك وتقربوا من الفرنسيين.

٢ - تأثير الترتيبات العثمانية الجديدة على مركز القضاء البرج:

كانت العودة العثمانية (بتأييد الدول الغربية) شكلاً من الانتصار المزدوج للزعامة السياسية المرعبية في البرج خاصة، وعكار عامة، الموالية للعثمانيين، وتوج نضالاً مريراً في مواجهة الاحتلال المصري، ترجم بالثورات والانتفاضات المختلفة، وكانت التضحيات الغالية التي قدمت، نوعاً من الإرث الكبير، عمل زعماء البرج من المراعاة على استثماره بشكل كبير في ظل عودة العثمانيين^(٢). ولم تشكل هذه العودة عنصر توتر أو اضطراب كما حدث للعائدين في جبل لبنان^(٣)، وذلك لغياب التناقضات السائدة هناك مما أفرزته الممارسة المصرية من عناصر تفرقة وتباغض. فكانت عودة زعماء البرج الموالين للعثمانيين الى عكار سلمية في ظل الاستمرارية في التواجد للمراعاة المتعاملين مع الحكم المصري ما شكل قاعدة هامة سلمية لانتقال السلطة من المصريين الى

(١) مخطوطات كاتب عدل حلبا، السجل رقم (٢) ص ٨٤.

(٢) حكمت بك شريف، تاريخ طرابلس الشام من أقدم أزمانها الى هذه الأيام، حققه وفهرسه وقدم له منى يكن ومارون عيسى الخوري،

دار حكمت شريف ودار الإيمان، طرابلس ١٩٨٤ ص ١٥٠.

(٣) كمال الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، دار النهار للنشر، بيروت، لبنان الطبعة الخامسة ١٩٨٤، ص ٧٧-٧٨.

العثمانيين، أو بمعنى آخر استعادة السلطة للأجيال البرجية من المراعبة العائدة، كما لم يكن من سبب قوي لوقوع خلافات بين أبناء العائلة الواحدة في البرج أو في عكار خصوصاً، بعدما تركه الحكم المصري من مأسٍ وحدت الجميع أمام هول المأساة، وما تركه من ذيول. فلم يحدث ما يمكن تسميته أي تغيير في نمط الحكم السائد على الصعيد السياسي، فبقيت الزعامات البرجية الحاكمة في عكار تتولى شؤون السيادة على مناطق نفوذها التاريخي، وكانت قناعات العائدين أن الذين استمروا في تواجدهم وتعاونوا مع السلطات المصرية كانوا مرغمين على ذلك إلقاءً لشر واقع لا بد منه، ومن التعامل معه حفاظاً على الهوية والاستمرارية، وقد كان الزعماء البرجيين قد تمكنوا سابقاً من استيعاب الصدمة المصرية والتخلص من الضغط المصري إثر تمكنهم من إرضاء الأمير خليل الشهابي الذي عفا عنهم^(١)، فأمنوا بذلك استمرارية الحكم لآل الأسعد في الجومة، ولكن بشخصيات جديدة على الساحة السياسية أمثال آل العوض، وآل القدور، الأسعد المرعبي .

كان علي باشا الأسعد المرعبي قد تمكّن من توحيد زعماء عائلته، وجمعهم تحت سلطته بشتى الوسائل^(٢). لكن بعد نقله إلى عاليا، لم يتمكن شقيقه مصطفى بك الأسعد المرعبي، من الاستمرار في توحيد العائلة المرعبية، ما أدى إلى تراجع الاندفاع المرعبية وزعمائها، ما أثر سلباً على مركز بلدة البرج. ذلك أنه وعلى الرغم من بقاء مركز الحكم في سراياها، إلا أن دور زعمائها السياسي قد ضعف بسبب تحول منصب الحاكم إلى قائمقام يعين كموظف والذي يمكن أن يكون من خارج البلدة وحتى من خارج القضاء، وصولاً إلى نقل مركز الحكم إلى حلبا عام ١٨٨٦م^(٣).

إن هذه الترتيبات العثمانية الجديدة عملت على تنظيم الإدارة والحكم وأبقت على تمركز الإدارات في البرج، حيث لم تؤثر تلك الإصلاحات أو الترتيبات على دور البلدة في محيطها العكاري، بل تضاعف هذا الدور، بحيث أصبحت منطقة الجومة، والبرج خاصة، جاذبة للعديد من الطامحين بنولي المناصب الإدارية، وتمركز مطرانية عكار للروم الأرثوذكس في بينو، نظراً لمجاورتها مركز القرار البرج^(٤).

(١) طنوس الشدياق، أخبار الأعيان، مصدر سابق ج ٢، ص ٤٤٦.

(٢) سليمان حسين، مقال علي باشا الأسعد المرعبي، مجلة تاريخ العرب والعالم، العدد ١٥٥ تاريخ ١٤\٦\١٩٩٥.

(٣) رفيق التميمي ومحمد بهجت، مصدر سابق، ص ٢٤٣.

(٤) فرج زخور، تاريخ عكار...، مرجع سابق، ص ١٥٩-١٦١.

- انتقال مركز الحكم من البرج إلى حلبا:

ساهمت أسباب عدة بنقل مركز الحكم من البرج، إلى حلبا، ذكرها بعض من كتبوا في تاريخ عكار. فقد رُدَّ سبب ذلك إلى التخلص من ضغط البكوات على القائمقام^(١)، في حين اعتُبرت الأسباب الدافعة إلى اختيار البرج - كمركز حكم لعكار - فقدت قيمتها، وأهميتها مع تعديل الإدارة العثمانية، وبعد زوال التنافس بين الملتزمين وإمكانية تصادمهم مع الوالي، إضافة إلى بطلان أسباب تحصنهم في الجبال، ما استوجب إيجاد مكان يتوسط العهدة الثلاث، فاتخذت حلبا مقراً للقائمقامية ودوائرها الرسمية^(٢).

وهناك رأي آخر يشير إلى أن التنافس كان مستمراً بين البلدات العكارية، فدخلت القببات لمزاحمة البيرة في عهد الانتداب، كما حاولت عكار العتيقة استعادة دورها من البرج، إلى أن تمَّ اختيار حلبا كمركز لقضاء عكار، أيام محمد باشا المحمد المرعبي، كما ظهرت محاولات فرنسية

بسلوك طائفي يركز على القببات، وبينو، على حساب الحواضر العكارية^(٣). وفي مناقشة لهذه الأسباب تبين لنا:

أ - أنه من ناحية الموقع، فإن الجومة هي وسط عكار، والبرج وسط الجومة^(٤).

ب- إن أغلبية القائمقاميين كانوا من البكوات، وحتى الذي نقلت في عهده القائمقامية هو من

البكوات، فكيف يمكن أن يكون السبب هو الابتعاد عن ضغط البكوات؟

ج - وفي المسافة والبعد عن طرابلس، فرحلة القس تومسن، من بيروت إلى حلب، لم تمرّ بحلبا، فقد انتقل من عرقا مباشرة إلى جبرائيل، مروراً بالبرج، وعكار العتيقة^(٥) وهذا ما يظهر عدم حضور حلبا كموقع استراتيجي، أو طريق مرور، أو عقدة مواصلات للوصول إلى قرى منطقة الجومة، وحاضرتها البرج.

د - إن الملكة هيلانة عندما أرادت جرّ المياه من منطقة الجومة - الغزيرة بمياه الينابيع والتي توجد فيها أكبر بحيرة جوفية - إلى مدينة عرقة، قامت بحفر قناة ضخمة

(١) المرجع نفسه، ص ١٦.

(٢) سجلات المحكمة الشرعية في حلبا، سجل عام ١٣٠٣هـ، غير مرقم، وأيضاً، رفيق التميمي ومحمد بهجت، مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٤٠.

(٣) خالد مرعب، تاريخ عكار السياسي، مرجع سابق، ص ٢٣٤.

(٤) فاروق حبص، مرجع سابق، ص ٣٤ و ص ٢٥٨.

(٥) جوزف عبد الله، منتخبات التواريخ، مرجع سابق، ص ١٠١.

عبر بلدة جبرائيل، مروراً ببلدة القنطرة، وصولاً إلى عرقة. ولا تزال بقايا القناة في بساتين بلدة جبرائيل، وأيضاً في بلدة القنطرة^(١).

هـ - المخطط التوجيهي للأتوستراد العربي، يتفرع منه وصلتان عند أطراف بلدة برقايل، وصلة إلى منطقة الجرد، ووصلة ثانية إلى منطقة الجومة، هذا بالإضافة إلى مرور هذا المخطط خارج بلدة حلبا^(٢).

و - تعجب بهجت والتميمي أثناء رحلتها في عكار، كيف أصبحت حلبا مركزاً للقضاء؟ وهل ستحتفظ بدورها^(٣)؟ كل هذا يشير إلى عدم أهمية حلبا كعقدة مواصلات بالنسبة لكل مناطق عكار، لا قديماً ولا حديثاً.

والمرجح القول إن أسباب نقل مركز الحكم من بلدة البرج إلى حلبا، هو النمط السياسي الذي وضعه المرعبة، وتحديداً علي باشا الأسعد المرعبي، الممانع للقوى الغربية، الأمر الذي جعل بلدة البرج

مستهدفة لإزالة دورها، وإعطائه لغيرها، فقد كان بالإمكان جعل مركز الحكم حلبا شتاءً والبرج صيفاً، كما جرى ويجري في العديد من المناطق، كما حصل في قضاء حصن الأكراد، حيث اتخذت «قلعة الحصن» مركزاً صيفياً وتل كلخ شتاءً^(٤)، وكذلك في قضاء «صهيون» حيث اتخذت «قلعة صهيون» مركزاً صيفياً و«بابنه» أو «باب حنا» مركزاً شتوياً^(٥).

لقد نجحت الضغوطات الفرنسية في دفع السلطنة المترهلة آنذاك إلى جعل بيروت مركزاً لولاية تحمل اسمها^(٦)، وقد احتضن الفرنسيون هذا المشروع وأخذوا يعملون على تعزيز نفوذهم استعداداً لليوم الذي تسمح فيه ظروفهم أن يبسطوا سيطرتهم وسلطتهم على كامل سوريا، ومن أجل ذلك سعوا إلى تكوين علاقات مع الولاة والقضاء، وقادة الجيش، وقاموا بدراس شخصيات الموظفين العثمانيين. كل هذا يظهر ضلوع السياسة الفرنسية برسم كيان إداري جديد، من أصغر قائمقام حتى

(١) الأب نايف أسطفان، مرجع سابق، ص ١٨.

(٢) مقابلة أجريتها مع النائب والوزير المهندس معين طارق قدور المرعبي، مواليد ١٩٥٢م، الذي سألته حول هذا الموضوع في منزله في البرج، بتاريخ ١٣/١٢/٢٠١٧.

(٣) رفيق التميمي ومحمد بهجت، المصدر السابق، ص ٢٤٢.

(٤) «سالنامه ولاية سوريا» لعام ١٢٩٨، دفعة ١٣، ص ٢٥٦.

(٥) Vital Cuinet, "Syrie, Liban et Palestine", p.175.

(٦) إلياس جريج، المرجع السابق، ص ١٦٣.

أكبر وال، ومن أصغر وظيفة حتى أكبر وظيفة^(١).

خلاصة البحث

تعتبر معركة «حماطورا» عام ١٧١٤م حداً فاصلاً بين مرحلتين من تاريخ عكار، حيث سطع نجم آل مرعب على الساحة العكارية وملاً الفراغ السياسي الذي عاشته عكار بعد نهاية القوة السيفية، فقد تحول آل مرعب من ملتزمين إلى حكام وولادة ورجال دولة أمثال أحد أبناء بلدة البرج علي باشا الأسعد المرعبي الذي سطع نجمه ليس فقط على صعيد عكار فحسب بل على صعيد طرابلس ولبنان، بل والدولة العثمانية، إذ استعانت به في العديد من المهام العسكرية للقضاء على تمرد بربر آغا، ومواجهة خطر العربان الذين غزوا حماة وحمص، وكذلك المهام الدينية كتكليفه بأعمال الجردة السنية.

فعلى الرغم من عدم إنصاف بعض المؤرخين له أو تجاهله، فإنه فرض نفسه على التاريخ ودخله من الباب الواسع، فقد عمل علي باشا على توسيع نفوذه خارج عكار ليشمل طرابلس فأقام علاقات ودّ وصداقة مع العديد من الأمراء والولاة وكان

ومن البديهي القول إنه ليس مصادفة أن يُلقى دور حواضر عكارعامّة، والبرج خاصة، ويعطى هذا الدور لبلدات ومناطق ذات كثافة سكانية من طائفة واحدة فقط، فجعل بينو البلدة المسيحية - والمجاورة لبلدة البرج - مركزاً لناحية الجومة حالياً، ومركزاً لقضاء الجومة مستقبلاً، والقبيات البلدة المسيحية - المجاورة للبيرة - مركزاً لناحية الدريب حالياً، ومركزاً لقضاء الدريب مستقبلاً، وكذلك جعل حلبا ذات الغالبية المسيحية^(٢) يوماً، مركزاً لقضاء عكار حالياً، ومركزاً لمحافظة عكار مستقبلاً، كل ذلك لم يكن على سبيل الصدفة، إنما يأتي ضمن المخطط الغربي، وهو كيد سياسي فرنسي، لتحقيق هدفين.

أولهما: زرع بذور الفتنة الطائفية بين أفراد الوطن الواحد.

ثانيهما: معاقبة البرج على مواقفها السياسية، وخاصة في عهد علي باشا الأسعد المرعبي، الذي كان حجر عثرة في طريق مشاريع الغرب التوسعية^(٣).

(١) المرجع السابق، ص ١٦٣-١٦٤.

(٢) رفيق التميمي ومحمد بهجت، المصدر السابق، ص ٢٤٣.

(٣) سلسلة مقابلات ومشاهدات مع العديد من أبناء عكار من عامة الناس، أجريتها بمختلف المناطق العكارية خلال عام ٢٠١٧.

والتي كانت تقف حجر عثرة في طريق السياسة الغربية.

لقد شاب نظام الالتزام الكثير من الشوائب والسلبيات حيث جعل الدولة العثمانية بمثابة المهتمة فقط بجباية الضرائب وتوفيرها من خلال الملتزمين. فالعمل بنظام الالتزام المعتمد على قوة الملتزم العسكرية، جعل الملتزم يبدو وكأنه الحاكم الفعلي، فكانت السلطة بعيدة من العمل المؤسسي، فارتبط الحكم بشخص الملتزم ومدى قوته، وكان نتيجة ذلك تحجيم دور الطبقة المتوسطة حيث ازداد التباين في المستوى الاجتماعي بين طبقة الحكام البكوات وطبقة الرعية الفلاحين^(١).

لقد كان لنظام الإدارة المصرية ولممارسات الموظفين أثرٌ شامل من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية على مجمل الحياة العامة في عكار عامة والبرج خاصة.

فعلى الرغم من أن الحكم المصري لم يتجاوز عقداً من السنين، إلا أن نتائجه قد أثرت على تطور الحياة السياسية والإدارية، فمن الناحية الإدارية فقد تقلص دور الإقطاعي إلى أن عمل بعد زوال الحكم المصري على استعادة سلطته المفقودة.

محباً للعلم والشعراء مخلصاً لبلاده، وطنياً محباً لوطنه، رفع من شأن بلده البرج، حيث حولها من قرية منسية إلى مركز قرار وحكم، لعكار كافة، الأمر الذي جعلها قبلة العلماء والشعراء والمتعلمين، ومكاناً أميناً للاجئين والمضطهدين السياسيين والدينيين، فشكلت البلدة مركز جذب للأفراد الذين نزحوا إليها، أو هاجروا إليها أو إلى القرى المجاورة لها بهدف تسلم مناصب إدارية في إدارة القضاء، أو تلمس الأمن والأمان.

وقد استمر هذا الدور للبرج حتى بعد وفاة علي باشا الأسعد، ذلك أن الوضع السياسي وتغييره، من تدخلات غربية في قرارات الدولة العثمانية المترهلة، دفع الدولة العثمانية إلى إنشاء ولاية بيروت ما حوّل عكار إلى قضاء ضمن سنجق، وبالتالي إلى نقل مركز الحكم من بلدة البرج إلى بلدة حلبا.

إن هذا الإجراء لم يكن مصادفة، كما لم يكن من أجل مصلحة عكار، أو أية مصلحة عامة. بل هو على ما ظهر تدبير سياسي بامتياز ولعله طائفي، وذلك بسبب مواقف علي باشا الأسعد المرعبي وأسرته الوطنية

(١) فاروق حبص، تاريخ عكار، مرجع سابق، ص ٥٥.

وتحويل المهام الإدارية إلى وظائفية أدت إلى إمكانية تولي المناصب الإدارية من غير أهالي البرج أو حتى عكار، الأمر الذي رفضه أفراد الطبقة المتنفذة، ما عرقل عملية اهتمام الموظفين بوظائفهم.

لقد نجحت السياسة الغربية في رسم الخريطة الإدارية والسياسية لبلادنا مستفيدة من ضعف الدولة العثمانية من جهة، وتعاون بعض الساعين للمراكز أو المتآمرين على الدولة العثمانية من جهة. فقد شلكت نظاماً إدارياً مركزياً من خلال إعلان ولاية بيروت أفقد زعماء البرج استقلاليتهم، وحولهم إلى موظفين ضمن هذه المنظومة الإدارية الجديدة، وصولاً إلى ضربهم من خلال نقل مركز الحكم خارج بلدتهم.

ولئن أبقى الحكم المصري «الإقطاعي» و«الملتزم» على رأس الجهاز الإداري الجديد في عكار والبرج، إلا أن المظالم جعلت الفلاحين في صفوف المعارضة التي قادها البكوات المتضررون من الحكم المصري^(١).

لقد احتوت التنظيمات العثمانية على قوانين نظرية من دون تطبيق كامل لها. فعلى الصعيد الإداري أصبحت عكار جزءاً من كيان دولة موحدة ترتبط بالعديد من الموظفين، على الرغم من بقاء الإدارة بيد الطبقة الإقطاعية التي تسلم أبنائها في إدارة القضاء الوظائف المحترمة، وكذلك لم تتأقلم أجهزة الإدارة الجديدة مع هذه التنظيمات حيث ظهرت عدم كفاءة ونزاهة بعض الموظفين^(٢).

وفي ما يتعلق بالجهاز الإداري فقد ربطت الدولة العثمانية البلاد بالإدارة المركزية في الآستانة، بعد أن أغرقت عكار والبرج (مركز حكمها) بأعداد من الموظفين، فكان الموظف مرتبطاً بروؤوسائه المباشرين، ما زاد من الروتين الإداري وعرقل تنفيذ وإنشاء المشاريع.

(١) سليمان أبو عز الدين، إبراهيم باشا في سوريا في سوريا، المطبعة العلمية في بيروت ١٩٢٩، ص ١٣٧.
(٢) عبد العزيز عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سوريا، ١٨٦٤-١٩٠٤، رسالة ماجستير، جامعة عين شمس، دار المعارف، مصر، القاهرة ١٩٦٩، ص ٢٥.

المصادر والمراجع

١- سجلات المحكمة الشرعية في طرابلس

السجل	٥٠
الصفحة	١١٢
التاريخ	١٢٤١-١٢٤٢هـ / ١٨٢٦-١٨٢٧م
سجل	٥٢
الصفحة	٤٥+١٠
التاريخ	١٢٤١-١٢٤٢هـ / ١٨٢٦-١٨٢٧م

٢ - الوثائق غير المنشورة

أ - سجلات المحكمة الشرعية في حلبا
- سجل عام ١٣٠٣هـ دون ترقيم.

٣ وثائق باللغة التركية:

- سالنامه ولاية سوريا لعام ١٢٩٨هـ دفعة ١٣.

٤ - محفوظات كاتب عدل حلبا:

- سجل رقم ٢

المصادر باللغة العربية:

- ١ - التميمي، رفيق وبهجت، محمد: ولاية بيروت، دار لحد خاطر، بيروت، ١٩٧٩.
- ٢ - الجندي، أمين: ديوان الشعر، طبعه محمد كامل بكداش، مطبعة المعارف، بيروت، ومنشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق، ١٩٨٨.
- ٣ - الشدياق، طنوس: أخبار الأعيان في جبل لبنان، ط٢، مكتبة العرفان، بيروت، ١٩٥٤.
- ٤ - الشهابي، الأمير حيدر أحمد: لبنان في عهد الأمراء الشهابيين، الجزء ٣، كتاب الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمان، عني بطبعه ونشره وتعليق حواشيه ووضع مقدمته وفهارسه أسد رستم، وفؤاد إفرام البستاني، منشورات المكتبة البوليسية، بيروت، ١٩٨٤.
- ٥ - شريف، حكمت بك: تاريخ طرابلس الشام في أقدم أزمانها الى هذه الأيام، حققه وفهرسه وقدم له منى

يكن ومارون عيسى الخوري، دار حكمت شريف ودار الإيمان، طرابلس ١٩٨٧.

المراجع باللغة العربية:

- ١ - اسطفان، الأب نايف: تاريخ أبرشية عكار الأرثوذكسية، قدمت مؤسسة فارس طباعته ونشره، ١٩٩٤.
- ٢ - أبو عز الدين، سليمان: إبراهيم باشا في سوريا، المطبعة العلمية، بيروت ١٩٢٩.
- ٣- حبلص، فاروق: تاريخ عكار الإداري والاجتماعي والاقتصادي، ١٧٠٠-١٩١٤، دار لحد خاطر، بيروت، ١٩٨٧.
- ٤- رستم، أسد: الأصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي باشا، المطبعة الأميركية، بيروت، ١٨٣٠م.
- ٥- زخور، فرج: تاريخ عكار السياسي والإداري والاقتصادي والاجتماعي، ١٩٠٨-١٩٤٣، دار زخور، ط٢، حلبا - لبنان، ٢٠٠٠.
- ٦- سلوم، فؤاد: عكار ١٨٥٠-١٩٥٠، دراسة في التاريخ الاجتماعي، بيروت، ٢٠٠٠.
- ٧- الصليبي، كمال: تاريخ لبنان الحديث، دار النهار للنشر، بيروت الطبعة الرابعة ١٩٧٨.
- ٨- عبد الله، جوزف: منتخبات التواريخ والآثار حول عكار والجوار، الطبعة الأولى، منشورات المؤلف، القبيات، ٢٠١٠.
- ٩- عوض عبد العزيز: الإدارة العثمانية في ولاية سوريا، ١٨٦٤-١٩٠٤، رسالة ماجستير، جامعة عين شمس، دار المعارف، مصر، القاهرة ١٩٦٩، ص ٢٥.
- ١٠ - غانم، إبراهيم أبو سمرا: أبو سمرا غانم، دون مكان الطبع، ط٢، ١٩٥٨.
- ١١- مرعب، خالد: الإمارة المرعبية، امتدادها الجغرافي وتطورها السياسي حتى سنة ١٨٤٠، دار بخاري، طرابلس، الجزء الأول ١٩٩٢.
- ١٢ - تاريخ عكار السياسي الحديث، ١٨٤٠-١٩٤٣، دار مكتبة الإيمان، طرابلس - لبنان، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- ١٣ - نوادر المنازل، صفحات من تراث عكار

المصادر والمراجع باللغة الأجنبية:

- 1) Vital Cuinet, "Syrie, Liban et Palestine.
- 2) Le guide bleu, Liban Hachette, Paris, 1975.

المقابلات الشخصية:

- ١ - رئيس بلدية البرج السابق الشيخ خالد الرشيد مواليد ١٩٤٠م نقلاً عن والده مواليد ١٩٠٠م.
- ٢ - المهندس المساح سليمان العوض مواليد ١٩٢٨م.
- ٣ - مختار بلدة عين يعقوب عمر يعقوب مواليد ١٩٣٠م.
- ٤ - الوزير النائب المهندس معين طارق القدور المرعبي مواليد ١٩٥٢م.
- ٥ - سلسلة مقابلات مع أشخاص من مختلف قرى وبلدات عكار.

الخالد، دار مكتبة الإيمان، طرابلس لبنان ، ٢٠٠٤م.

١٤ - المرعبي، سعاد: زعماء مراعبة في بلاد الشام، دار مكتبة الإيمان، طرابلس - لبنان، ٢٠١٣.

١٥ - التميمي، رفيق وبهجت، محمد: ولاية بيروت، دار لحد خاطر، بيروت، ١٩٧٩.

المصادر والمراجع الأجنبية المعرّبة:

- ١ - الدستور العثماني: ترجمة نوفل أفندي نعمة الله نوفل، مراجعة وتدقيق خليل أفندي الخوري، المجلد الأول، المطبعة الأدبية، بيروت، ١٨٨٤.

الدوريات والنشرات:

- ١ - حسين، سليمان: مقال، علي باشا الأسعد المرعبي، مجلة تاريخ العرب والعالم، العدد ١٥٥.

تيمورلنك

د. فواز فرحات

السبع على شمال بلاد الشام ومدينة دمشق لمعاقبة المماليك لأنهم قاموا بقتل رسله، حيث كان أسلوبه في رسائله للسلطان المملوكي الظاهر برقوق أسلوب التهديد والوعيد، وكان دائماً يكرر طلبه بإقامة الخطبة والسكة باسمه، وبضرورة تسليم حاكم بغداد الذي لجأ إلى دولة المماليك.

ولد من توتر العلاقات بين تيمورلنك والمماليك، قيامهم بقتل رسل تيمورلنك، وعدم الاهتمام بالرسائل التي يحملونها، حيث كان السلطان المملوكي يرد على بعضها ويهمل البعض الآخر. أما السلطان المملوكي الناصر فرج، الذي تولى الحكم بعد وفاة أبيه، فقد كان صغير السن حيث كثرت في عهده الفتن والمؤامرات، ما أدى إلى تشجيع تيمورلنك على بدء حملته على بلاد الشام ومدينة دمشق، واستباحها ونهبها ونكل بسكانها وطمس معالمها.

وقبل الحديث عن سياسة تيمورلنك وتوسعاته، لابد لنا من الحديث عن نسبه وأصله، فليس من السهل على الباحث أن

يعتبر الغزو المغولي من أكثر الحملات العاصفة التي واجهت العالم الإسلامي في العصر الوسيط، واستمرت بالموجات العاصفة على دفعات متوالية لأكثر من قرنين ونصف، بدءاً من عهد جنكيز خان وصولاً إلى حملة تيمورلنك على بلاد الشام والدولة العثمانية في ما بعد.

ونتيجة الصراع داخل الامبراطورية المغولية، ظهر تيمورلنك وهو ابن قبيلة برلاس التركية، وكان قائداً عسكرياً قام بحملات توسعية بشعة، أدت إلى قتل العديد من المدنيين والحصول على غنائم من المدن التي زحف إليها، ويعتبر مؤسس السلالة التيمورية في أواسط آسيا، وأول الحكام في العائلة التيمورية الحاكمة وقد استطاع إعادة وحدة الامبراطورية المغولية، وتوسيع رقعتها، حيث خاض سلسلة من الحروب في الشرق والغرب. فشكل جيشاً ضخماً قوامه الأتراك والقبائل المغولية ذات الأصول التركية، وركز في حملاته العسكرية التي سميت حملات السنوات

أكدت ضرورة إحاطة أبناء علي بن أبي طالب بالرعاية والاحترام، وبالتالي تبرير خطته التوسعية إلى ما وراء النهر.

ولد تيمورلنك في ضواحي مدينة كاش كما ذكر ابن عربشاه الذي انفرد بذكر مكان مولده، والذي هو قرية خواجه أيلغار^(٣)، وكان والده يعمل راعياً، والبعض يقول إسكافياً، وكانت نشأته غير واضحة فالبعض يقول إن الفقر لازمه، بينما ذكر آخرون أنه كان أميراً ووزيراً عند حاكم هيرات الملك حسين كرت، ولذلك نشأ مع أبناء الأمراء والوزراء^(٤). وفي الحديث عن صفاته، فقد كان متفوقاً على أقرانه، وكان قائداً وطفلاً ورجلاً في آن واحد، وكل ذلك كون والده زعيماً لقبيلة برلاس المغولية، ذات النسب التركي.

واكتسب التسمية المغولية بعد الانضمام لجيش جنكيز خان الذي وحد جميع القبائل، وكان تيمورلنك قصير القامة، ممتلئ الجسد، ملتحياناً، وكان مخادعاً وتفكيره

يصل إلى حقيقة أصوله، ذلك أن المؤرخين في ذلك الوقت، كتبوا له التراجم وتحدثوا عن أدق التفاصيل في حياته، عندما أصبح شخصية معروفة، ولم يتم ذكر أي شيء عن نسبه وأصوله إلا معلومات قليلة ويشوبها الغموض^(١)، ففي نقش كتبت باللغة العربية على قبره في سمرقند، ذكر أن نسبه يلتقي مع نسب جنكيز خان عند الجد تومان خان الذي رزق بتوأمين هما: قجولاي وقابول^(٢).

ويعد بركل جد تيمور الذي كان قائداً عسكرياً، شيخاً عابداً أقام تكية في مدينة كاش، وأسس جماعة دينية هناك. ويورد البعض وجود صلة بين تيمورلنك وعلي بن أبي طالب من ناحية النسب، وهذا لا أس له من الصحة، حيث كان يدعي هذا النسب لأمرين:

الأمر الأول: تعزيز مكانته في نظر المسلمين، **والأمر الثاني:** هو عدم الخروج عن تعليم قانون الياسا المغولي، والتي

(١) هارولد لامب: جنكيز خان وجحافل المغول، ترجمة متري أمين، مراجعة زكي محمود، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٢، ص ١٤.

(٢) هارولد لامب: جنكيز خان وجحافل المغول، مرجع سابق، ص ١٤.

(٣) ابن عربشاه، شهاب الدين أحمد بن عبد الله الدمشقي (ت ٨٥٤هـ / ١٤٥٠م): عجائب المقدور في أخبار تيمور، ط ١، القاهرة، مطبعة وادي النيل، ص ٣.

(٤) ابن عربشاه: عجائب المقدور في أخبار تيمور، مرجع سابق، ص ٥-٦؛ ابن حجر، الإمام شهاب الدين أبي الفضل العسقلاني (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٩): إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ، ط ٢، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٦م، ج ١، ص ١٧.

بخامة القصور التي شيدها والبساتين التي أنشأها، حيث بنى أعمدة أطلق على كل واحد منها اسماً من أسماء هذه الدول (حمص، وبغداد، ودمشق، وشيراز)^(٣) وترجع هذه التسميات إلى النوايا المسبقة التي كان تيمورلنك يخبئها، وهي السيطرة على هذه المدن وضمها إلى إمبراطوريته.

كان طموح تيمورلنك طوال فترة حياته هو الوصول إلى السلطة وقد أحزنه ما آلت إليه بلاده إثر الصراع الداخلي، فرأى بعد مشاورة أحد رجال الدين وهو الملا زين الدين أن يذهب إلى الخان ويخبره عن مخاوف الناس بسبب سوء الأوضاع في بلاد ما وراء النهر.

استقبل «الخان تغلق تيمور»: في مقره تيمورلنك، فقدم له الأخير فروض الطاعة والولاء وعرفه بنفسه بقوله إنه قائد رجال البرلاس في المدينة الخضراء وقدم له تيمور الهدايا، فأعجب به الخان واستعان به في توحيد ملكه.

قام تيمورلنك بقتل الأمير حسين وأصبح الطريق ممهداً أمامه كي يعتلي العرش ولم يبق إلا عقبة واحدة، هي قانون

خارقاً، قليل الكلام، لا يحب المزاح أو الهزل. شديد الفطنة^(١)، وكان أعرج بسبب شلل أصاب رجله والبعض يقول إنه بسبب إصابته بها في إحدى المعارك وكان يصلي جميع الصلوات، ويحب لعبة الشطرنج التي برع فيها وكان محباً للعلماء والصلحاء، ويحب الاستماع إلى الأحداث التاريخية ما جعله على ثقافة واسعة على الرغم من أنه نشأ أمياً لا يعرف الكتابة، أتقن تيمورلنك اللغة الفارسية والتركية والمغلية، واعتمد قواعد جنكيز خان كدستور يختص بتنظيم الحياة في مختلف مجالاتها، ما جعل رجال الدين يكفرونه^(٢).

وحسب عادة المغول، أقام تيمورلنك جواسيس في جميع البلاد. سواء كان مسيطراً عليها أم لا، وكان بناءً على المعلومات يجهز جيشه ويستعد للغزو. فتميزت سياسته بالإغارة على البلاد الأخرى بالخدعة، حيث كان يكتب للجواسيس في تلك البلاد بأخذ الحذر والحيلة. ويطمئن الجهة التي يرغب باحتلالها فيأمن أهلها، فإذا سار بجيشه ذات الشمال توجه بهم ذات اليمين، وحرص على جعل مدينته سمرقند مدينة عريقة

(١) ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً، تعليق محمد تاويت الطنجي، قدم له: عبادة كحيلة، القاهرة: سلسلة الذخائر، ٢٠٠٣م، مج ٧، ص ١٢٢٢.

(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مصدر سابق، مج ٧، ص ١٢٢٢.

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر بأبناء العمر، مصدر سابق، ج ٤، ص ٢١٠.

تيمورلنك، وبايعوه^(٢). وهكذا أصبح أميراً على قبائل المغول، واكتفى بلقب الأمير إلى أن توفي الخان الصوري^(٣).

بعد وصوله إلى العرش، عفا عن كل معارضييه وأمر بإعادة بناء وإعمار مدينة سمرقند التي حل بها الخراب نتيجة صراع قبائل المغول، وبدأ عمله كخان للمغول فوضع استراتيجية لإنشاء امبراطورية مغولية كبرى على غرار امبراطورية جنكيز خان^(٤).

حروب تيمورلنك التوسعية

وكان على كرسي الحكم في إقليم خوارزم حسين الصوفي^(٥)، الذي قام بإرسال الهدايا لتيمورلنك فور جلوسه على العرش، حيث رد عليه بهدايا أكثر قيمة وطلب من الصوفي يد ابنته لابنه جهانكير، حتى يستطيع ضم خوارزم من دون قتال، ولكن طلبه قوبل بالرفض^(٦)، فقرر تيمورلنك غزو خوارزم، خصوصاً بعد سجن أحد الوسطاء على يد حسين الصوفي، حين كان هذا الوسيط مرسلًا من قبل تيمورلنك. وبعد فترة وجيزة مرض

جنكيز خان الذي يقضي بأن يكون الخان الأعظم للمغول من نسل جنكيز خان^(١)، إلا أن تيمورلنك استطاع تخطي هذا الشرط حين وضع أحد أحفاد جنكيز خان، كحاكم صوري، ويكون هو حاكماً وأميراً فعلياً، وقد دعا المجلس العام لرؤساء وقبائل المغول المسمى (قوريلتاي) للاجتماع في العاصمة المغولية، فأسرع أعضاء المجلس بالحضور وفيهم علماء وفقهاء وأمراء من شتى دول المغول من الهند وإيران وبخارى، وطالب رؤساء القبائل المغولية بتنفيذ شريعة جنكيز خان وذلك بأن يكون الخان رئيس البلاد من ذريته ويكون تيمورلنك نائباً له، لقي هذا القرار معارضة من رجال الدين واعتبروا ذلك مخالفاً للشريعة، وطالبوا بضرورة تنصيب تيمورلنك فهو الرجل الوحيد القادر على إعادة استقرار البلاد وتوحيدها بعد أن سادت الفوضى والصراعات، وأيد الفرسان والمقاتلون المغول هذا الطرح ورأوا أن لا بديل عن اختيار تيمورلنك سلطاناً عليهم، ووافق الأمراء وشيوخ القبائل على اختيار

(١) منصور عبد الحكيم: تيمورلنك إمبراطور على صهوة جواد، القاهرة، دار الكتاب العربي، ١٩٩٨م، ص ١١٨-١١٩.

(٢) منصور عبد الحكيم: تيمورلنك إمبراطور على صهوة جواد، مرجع سابق، ص ١١٨ - ١١٩.

(٣) هارولد لامب: تيمورلنك، ترجمة متري أمين، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٧م، ص ٣٦.

(٤) منصور عبد الحكيم: تيمورلنك إمبراطور على صهوة جواد، مرجع سابق، ص ١١٩.

(٥) أسد الله صفا: جنكيز خان (الوحشي النابغة)، بيروت، دار النفائس، ١٩٨٨م، ج ١، ط ١، ص ٦٧.

(٦) منصور عبد الحكيم: تيمورلنك إمبراطور على صهوة جواد، مرجع سابق، ص ١٢٤.

وبعد أن انتهى من خوارزم، توجه لغزو بلاد إيران، فاستطاع السيطرة على لوريستان، وهذا ما ساعده في القضاء على دولة الجلائريين حكام الشمال الغربي والإيراني في ما بعد، وبعث حكام لوريستان إلى عاصمة سمرقند، أما السلطان أحمد بن أويس جلائري فقد هرب من تبريز، إلى بغداد بعد احتلال تيمورلنك تبريز.

وبعد أن غادر تيمورلنك مدينة تبريز، توجه نحو جورجيا وقام بغزوها، فكانت أول المدن التي دخلها مدينة نخشفان على ضفاف نهر (أراكس)، وبعد أن أخذ بقراط ملك جورجيا أسيراً، ذهب إلى أذربيجان، حيث قام ملك القبيلة الذهبية المغولية بهجوم رداً على احتلاله لأذربيجان التي كانت ضمن أملاك القبيلة الذهبية فهاجمه تيمورلنك^(٥)، وردة إلى بلاده، وهنا بدأ الصراع بينه وبين إخوانه من القبيلة الذهبية.

ثم قام تيمورلنك بغزو دولة المظفرين حيث رفض حاكمها زين العابدين، طلبه بدخول بلاده، فاعتقل تيمور هذا الحاكم وحدثت مناوشات بين جنوده وسكان مدينة

حسين الصوفي وتوفي فجأة^(١)، وتولى أخوه السلطان يوسف الحكم من بعده، واتصل بتيمورلنك واسترضاه، وعرض أن يزوج ابنة أخيه خان زاده أحد أبناء تيمورلنك، وأن يكون تابعاً له، فوافق تيمورلنك ورجع إلى مقره^(٢)، ولم تمض سنوات حتى اكتشف تيمورلنك أثناء محاكمته الأمير «كيخسرو» بتهمة التآمر عليه أن هناك اتفاقاً سرياً بين كيوخسرو ويوسف الصوفي حاكم خوارزم، فقام بغزو خوارزم، فسارع يوسف الصوفي إلى طلب الأمان منه وشفعت له ابنة أخيه التي تزوجها ابن تيمورلنك فعفا عنه واستبقاه في الحكم^(٣). ولكن يوسف الصوفي عاود التمرد على تيمورلنك حين علم أنه منشغل بقتال القبيلة الذهبية المغولية، وأغار على مدينة بخارى، فأرسل تيمورلنك رسولاً ليستوضح الأمر، ولكن يوسف الصوفي سجنه، فتحرك تيمورلنك إليه وحاصر عاصمة خوارزم لأكثر من ثلاثة عشر شهراً، فسقطت المدينة فأباحها تيمورلنك للسلب والنهب، ودمر أسوارها وأخذ أشرافها أسرى، وأحرق القصور والمباني وقتل الكثير من سكانها، وترك المدينة كخربة تسكنها الأشباح^(٤).

(١) منصور عبد الحكيم، المرجع السابق، ص ١٢٤.

(٢) هارولد لامب، جنكيز خان وجحافل المغول، مرجع سابق، ص ٨٦.

(٣) م. ن، ص ٨٦.

(٤) م. ن، ص ٨٧.

(٥) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٢١٠.

تيمورلنك العراق وزحف إلى تكريت، ونشر جنوده بديار بكر^(٤)، وبعدها توجه إلى بلاد الشام ولكنه غادرها إلى بلاده خائفاً من الملك الظاهر برقوق.

سلطان المماليك برقوق وموقفه من حملة تيمورلنك على بلاد الشام

كانت السلطات المملوكية حريصة على تتبع أخبار تيمورلنك وتحركاته منذ أن بدأ أعماله في إيران والعراق، وعلى الرغم من حالة الفوضى التي تعاني منها الدولة المملوكية إلا أنها كانت تراقب تيمورلنك وانتصاراته. وقد قام السلطان المملوكي بإرسال قوة عسكرية استطلاعية لكشف أخباره، فعادت حاملة انتصاره على التركمان في منطقة الفرات العليا^(٥).

كان تيمورلنك حريصاً على أن يظل مضطرباً بأحوال دولة المماليك، عن طريق شبكات التجسس التي بثها في بلاد الشام، وحتى في القاهرة نفسها.

وتم اكتشاف شبكات تجسس عدة في حلب وغيرها من المدن^(٦)، وقد أشار عدد

أصفهان على الرغم من استسلام أهل المدينة، ما جعله يُقدم على خطوة وحشية تمثلت بقتل سبعين ألفاً من السكان، ونقل كلّ الحرفيين وأصحاب المهن إلى سمرقند^(١)، وبعدها زحف تيمورلنك من أصفهان إلى شيراز، حيث هرب حاكمها من أمامه، وجاء المظفرون إليه يقدمون له فروض الطاعة والولاء. فقبل منهم ذلك، وعاد إلى عاصمته سمرقند، ومعه الكثير من الغنائم والأموال^(٢).

قرر تيمورلنك بعد ذلك الزحف إلى بغداد، فأسرع حاكمها السلطان أحمد بن أويس بإرسال الهدايا إليه، واعتذر عن الحضور شخصياً لمقابلته، كما أبدى انزعاجه من القوة العسكرية الضخمة التي صاحبتة، ولكن تيمورلنك أصر على الدعاء له في خطبة الجمعة في مساجد بغداد، وسك العملة باسمه فاستجاب أحمد بن أويس لهذه الطلبات، ولكن ذلك لم يثنه عن الاستيلاء على العراق، فهاجم بغداد وبسط سيطرته عليها، بينما هرب سلطانها إلى سلطان المماليك برقوق بالقاهرة^(٣). احتل

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٢١٠.

(٢) منصور عبد الحكيم: تيمورلنك إمبراطور على صهوة جواد، مرجع سابق، ص ١٢٩.

(٣) ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات: تاريخ ابن الفرات، مج ١، ج ٢، ص ٢٥٤-٢٥٥.

(٤) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، مصدر سابق، مج ٧، ص ٣٢٤.

(٥) ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم، تاريخ ابن الفرات، حققه وضبطه نصه: قسطنطين رزق، بيروت، (د. ت.)، ج ١، ص ١٠.

(٦) ابن الفرات، المصدر السابق، مج ٩، ج ١، ص ١٢-١٤.

المناصب الرئيسية في بلاد الشام، حيث من الواضح أن السلطان لم يكن على ثقة بكفاءة وإخلاص نوابه في تلك البلاد^(٣).

وإزدادت العلاقات احتداماً وتآزماً بين المماليك وتيمورلنك، عندما لجأ سلطان بغداد أحمد بن أويس الهارب من وجهه إلى السلطان المملوكي الظاهر برقوق الذي رحب به ووعده بتقديم المساعدة لاسترجاع بغداد، وخرج معه على رأس قواته إلى دمشق وأمر نائبه في حلب بالتقدم لرصد قوات تيمورلنك وصولاً إلى ضفاف نهر الفرات^(٤) وخلال اجتماع السلطان برقوق بالأمرء في دمشق، طلب المساعدة من طقتمش خان القبجاق والسلطان العثماني بايزيد للوقوف في وجه تيمورلنك^(٥). بقي السلطان المملوكي برقوق في دمشق حتى تحقق من ابتعاد قوات تيمورلنك عن حدود أملاكه، واستطاع أحمد بن أويس العودة إلى بغداد، وأقام الخطبة باسم السلطان برقوق الذي نجح في ضم بغداد إلى الدولة المملوكية، وبعد

من المؤرخين إلى إرسال سلطات الشام المملوكية إلى القاهرة، رجلاً تركياً يدعى دولات جحا أقرّ بعد ضربه بوجود عدد من الجواسيس في القاهرة يساعده في عمله. فألقي القبض عليهم، وكانوا في ثياب التجار^(١).

وكانت الاحتكاكات بين المماليك وتيمورلنك أغلبها غير مباشرة تقتصر على بعض الإجراءات التي يتخذها السلطان المملوكي أو ولاته في بلاد الشام، رداً على خروقات قوات تيمورلنك في العراق أو إيران. فقد وجه السلطان الظاهر برقوق بعض أمرائه إلى بلاد الشام لاتخاذ الإجراءات الدفاعية، على أثر وصول أخبار تقدم جيش تيمورلنك إلى إيران^(٢).

وبالفعل فقد حدث اشتباك بين قوات تيمورلنك والقوات المملوكية التي أرسلت إلى بلاد الشام فعقد السلطان المملوكي مجلساً حضره الخليفة العباسي وشيخ الإسلام، وتم جمع الأموال لتجهيز الجيوش وعمد السلطان إلى إجراء تغييرات في

(١) المقرئزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، قام بنشره: مصطفى زيادة، ج ١، ص ٢، ج ٣، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٣٦م، ص ٨٠٢.

(٢) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، مصدر سابق، مج ٩، ج ١، ص ١٢.

(٣) ابن إياس، محمد بن أحمد بن إياس الحنفي (ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٤م)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، حققه وكتب له المقدمة: محمد مصطفى، ج ١، ق ١، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج ٣، ص ٢٦٧، ص ٢٦٩.

(٤) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، مصدر سابق، مج ٩، ص ٣٣٦؛ ابن خلدون، مصدر سبق ذكره، مج ٥، ص ١١٧٥.

(٥) ابن صصري، محمد بن خيرى الذهبي، الدرر المعينة في الدولة الظاهرية، دمشق، الهيئة السورية العامة للكتاب، ٢٠٠٨، ص ١٤.

ذلك تحرك السلطان برقوق نحو حلب^(١).

أرسل تيمورلنك رسالاً إلى السلطان برقوق، حيث كان هذا أول احتكاك مباشر بين المماليك وقوات تيمورلنك بغية حل المسائل المختلف عليها. وبعد وصول الوفد التيموري، حصل مشادة كلامية بين أعضاء الوفد وبين نائب الرحبة، وكان قد طلب الوفد التيموري أن تضرب السكة وتكون الخطبة باسم تيمورلنك، فأمر السلطان المملوكي من القاهرة، نائب الرحبة بالقضاء على كامل الوفد التيموري سراً، وأخذ كل ما حملوه من هدايا وإرسالها إلى القاهرة^(٢)، وبالفعل تم قتلهم وهم نيام، وكان عددهم أربعين شخصاً، إلا واحداً أرسل مع الهدايا إلى القاهرة.

وفي حدث آخر، قبض السلطان المملوكي على جواسيس لتيمورلنك في القاهرة حيث جاؤوا على هيئة تجار، وكانوا سبعة^(٣)، فغضب تيمورلنك لقتل جواسيسه، وأرسل للسلطان المملوكي رسالة مليئة بالتهديد والوعيد والانتقام، إلا أن الظاهر برقوق لم يعط أهمية لتلك الرسالة. وبدأ بالتحضير لمواجهة الخطر التيموري. وكان

وضع الدولة المملوكية الاقتصادي صعباً في تلك المرحلة. فكانت الخزائن شبه فارغة، ما اضطر السلطان برقوق لاتخاذ إجراءات تقشفية كفيلة بتأمين المال اللازم للحرب، ففرض على موظفي الدولة والأمرء تقديم المال كل على قدر طاقته ثم استدان من التجار مليون درهم، وأخذ أجره على أوقاف الدولة، وصادر خمسمائة وستين ألف درهم، من أموال الأيتام، ثم جبي المال من الناس بالعصا^(٤)، وكان السلطان برقوق لا يثق بنوايا تيمورلنك، ولا يثق بكلامه وادعائه برغبته في الصلح، خصوصاً بعد الكشف عن شبكات التجسس التابعة له والمنتشرة في حلب ودمشق والقاهرة، لذلك رأى السلطان المملوكي أن اتخاذ موقف عدائي ضد تيمورلنك أفضل من قبوله بسلام غير مضمون^(٥).

خرج السلطان المملوكي الظاهر برقوق على رأس جيش كبير متجهاً نحو دمشق، ومنها إلى حلب، وسعى لطلب التحالف مع جيرانه ضد الخطر التيموري، وعرض على السلطان العثماني أن يتحالف معه لرد هذا الخطر وأخذ يلح في دعوته على اجتماع

(١) ابن حجر، إنباء الغمر بأبناء العمر، مصدر سابق، ج ١، ص ٤٧٦.

(٢) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، مصدر سابق، مج ٩، ج ٢، ص ٣٦٢.

(٣) الصيرفي، تاريخ دول الإسلام، ص ٧٨.

(٤) ابن اياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، مصدر سابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٢٤.

(٥) المقرئ، السلوك، مصدر سابق، ج ٣، ق ٢، ص ٨٠٠.

الكلمة، فلم يلتفت أحد إلى دعوته، حتى أنه تعرض للهجوم من قبل أمراء مصر، ورفضوا القتال تحت إمرته مع إصرارهم أن يدافع كل منهم على انفراد عن بلاده.

استطاعت قوات السلطان برقوق عبور نهر الفرات ليلاً. وهاجمت مقدمة جيش تيمورلنك وألحقت بها الهزيمة، وفي هذه الأثناء قام طقتمش خان القفجاق بالهجوم على منطقة الأبواب عند الحدود بين الدولتين، فما كان من تيمورلنك إلا الانسحاب لمواجهة الخطر الموجود على حدود دولته، وأرجأ الانتقام من المماليك إلى فترة تالية^(١). وفي حادثة أدت لتعجيل الصدام مع تيمورلنك، قيام يوسف التركماني بحملة، فأسر أحد أقرباء تيمورلنك وهو رسوله الأمير أطميش، وتم إرساله إلى مصر، حيث بقي محبوساً هناك، وعندما طلب تيمورلنك الإفراج عنه، رفض السلطان برقوق^(٢) ذلك وطلب من تيمورلنك الإفراج عن المماليك الأسرى عنده.

لم تقم بينهما الحرب بسبب انشغال تيمورلنك بحربه مع القبيلة الذهبية، ولكن السلطان برقوق قام بخطوات عملية لمواجهة الخطر التيموري.

رحل تيمورلنك إلى أرمينيا، وهو عاقد العزم على العودة إلى بلاد الشام حين تسنح له الفرصة، وبعد موت السلطان برقوق، لم يهتم أحد من المماليك بقتاله، وذلك بسبب طغيان المصلحة الشخصية على المصلحة العامة، فالكل كان يسعى للوصول إلى السلطة، وحدثت اضطرابات سياسية في مصر، عندما قام الأمير قاني باي العلائي الظاهري وهو أحد أمراء الطلبخانات بإثارة الفتنة، فطلبه السلطان الناصر فرج وهو ابن السلطان برقوق، فعرض عليه نيابة غزة فامتنع، ما جعل الناصر فرج يأمر بالقبض عليه وتسليمه للأمير آقباي الحاجب، فاصطحبه إلى بيته، وبعد اجتماع السلطان الناصر فرج بالأمراء، وبعد المشاورة، اتفقوا على إبقائه في مكانه ووظيفته، ما أدى إلى انشغال الدولة المملوكية عن مواجهة تيمورلنك^(٣).

ويصف المؤرخون الناصر فرج بأنه قليل الخبرة، ضعيف الإدارة، مستسلم بحكم صغر سنه لمن هم أكبر منه من الأمراء. وتغافل عن شؤون البلاد فكان من الطبيعي أن تزداد حالة الفوضى والفتن والمنازعات بين كبار الأمراء الملتفتين حول

(١) ابن تغري، بردي، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق فهم شلتوت، ج٢، السعودية، جامعة أم القرى، (د. ت.)، ج١، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٩٨م، ص٢٣٧.
(٢) المقرئ، السلوك، مصدر سابق، ج٣، ق٢، ص٨١٤-٨١٥.
(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، مصدر سابق، ج١٢، ص٢١٧.

وطالبهم بالتحرك والوقوف صفاً واحداً لمواجهة، وتحصين المدينة ودعا إلى الوحدة في قتاله. أما نائب حاكم حلب دمرداش فقد رفض هذا الرأي، وأمرهم بعدم الأخذ برأي شيخ الخاصكي^(٤)، ولكن الحاضرين لم يستمعوا إلى رأيه، واتفقوا على الخروج إلى تيمورلنك إطاعة لنائب طرابلس باعتباره رجل ثقة. أما نائب حاكم حلب دمرداش فقد كان جاسوساً لتيمورلنك ويعمل لحسابه. وقد جرى التداول في الإجراءات التي ستنفذ للدفاع عن البلاد في اجتماعات الأمراء.

عندما خرج السلطان الناصر خرج بقواته من غزة، وساروا حتى وصلوا دمشق^(٥)، وكان نائب حاكم حلب دمرداش قد أشار إلى أهلها بإخلائها وطلب منهم الرحيل^(٦) أما الأمير تمران أمير الريدانية فقد استعد للمعركة وجهز الخيول لقتال تيمورلنك، وهكذا نجد أن دولة المماليك أصبحت مهددة بغزوه. وبدأ الزحف التيموري باتجاه بلاد الشام، فاجتمع بحلب

السلطان الناصر فرج^(١)، ولهذا لم يصمد أمام تهديدات تيمورلنك، على عكس أبيه السلطان برقوق. وقد بدأ تيمورلنك غزوه لبلاد الشام بتوجيه رسالة إلى السلطان الناصر فرج كما وصلته رسالة من حلب بأخذ تيمورلنك ملطية^(٢)، ثم وصلت رسالة أخرى تفيد بوصول تيمورلنك إلى مدينة عينتاب. وفي الكتاب: (أدركوا المسلمين وإلا هلكوا)^(٣).

وهنا قرر السلطان الناصر فرج أخذ أموال من التجار للإنفاق على الجيش، ولكن قراره رفض من قبل القضاة، واعتبروا أنه لا يجوز أخذ أموال الناس بالباطل، وقد شهدت تلك الفترة تخاذل وتقاعس بعض الأمراء والنواب المماليك في بلاد الشام وذلك لاختلاف الرأي وعدم الاتفاق على موقف.

وكان قد حذر المؤيد الشيخ الخاصكي نائب طرابلس، مخاطباً الأعيان لرفع معنوياتهم، وحذرهم من الخطر المحيط بهم، ومن قوة تيمورلنك وعدته وعتاده،

(١) ابن حجر، إنباه الغمر بآبناء العمر، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ١٤٣؛ ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، مصدر سبق ذكره، ص ٣٢٨.

(٢) البغدادي، ابن عبد الحق: مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ج ٣، ص ١٣٠.

(٣) ابن عربشاه: عجائب المقدور في أخبار تيمور، مصدر سابق، ص ٨٥.

(٤) ابن عربشاه: عجائب المقدور في أخبار تيمور، مصدر سابق، ص ٤٦.

(٥) نقولا زيادة: أطلس العالم، بيروت، مكتبة لبنان، ١٩٩٦م، ص ٤٦.

(٦) ابن الشحنة، الشيخ محب الدين أبي الوليد محمد، روض المناظر في علم الأوائل والأواخر، ط ١، تحقيق: سيد محمد مهنا، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م، ص ٢١٢.

ويعود السبب في ذلك إلى سياسة الترهيب والتوسع والسيطرة، ومن جهة ثانية عدم استقرار الأمور السياسية في امبراطوريته، وكان يفضل العودة لإخماد المشاكل فيها على بقاءه في المدينة التي وصل إليها.

وكان النصيب الأكبر لشمال بلاد الشام ومدينة دمشق، من حملة تيمورلنك، وقد جرت اتصالات عدة بينه وبين السلطان المملوكي، الذي لم يهتم بتلك المراسلات والاتصالات، ما زاد من استفزاز تيمورلنك، وجعله يصطدم مع المماليك، خصوصاً بعد وفاة الظاهر برقوق، ومجيء السلطان الناصر فرج لحكم الدولة المملوكية بسبب كونه صغير السن، ولكثرة الفتن والمؤامرات التي حدثت بعد وفاة أبيه السلطان برقوق، وهذا سبب من الأسباب التي جعلت تيمورلنك يختار أن يغزو شمال بلاد الشام ودمشق، ليقوم بنهبها ويعيث فيها الخراب.

كل نواب البلاد الشامية، وطلبوا من السلطان الناصر فرج الخروج بقواته من القاهرة إلى بلاد الشام. ثم اجتمع الأمراء والنواب على قتال تيمورلنك بعد أن فقدوا الأمل بمجيء السلطان المملوكي لعلمهم بعدم اجتماع كلمة أصحاب الرأي والقرار في دولة المماليك في مصر، ولأن السلطان المملوكي الناصر فرج كان صغير السن^(١).

وكان عدم خروج السلطان المملوكي الناصر فرج لملاقاة تيمورلنك، يعكس صورة الضعف والهوان، وعدم الاهتمام بالمصلحة العامة، وانعدام ثقة الناس بالسلطان المملوكي الناصر فرج. وبدأ نواب وأمراء الأقاليم في بلاد الشام، يجهزون أنفسهم لقتال تيمورلنك، أما هو فقد وصل بقواته إلى حلب، وحاصر سورها.

خلاصة القول، نجح تيمورلنك في الوصول إلى الحكم، فحكم الامبراطورية المغولية التي أسسها جنكيز خان الزعيم المغولي الأول، فالتفت على القوانين التي تنص على أن يكون حاكم الامبراطورية المغولية من سلالة جنكيز خان وبدأ حكمه بالغزو والتوسع. وكان يكتفي بالإغارة على المدن وتدميرها وأخذ ما يحلو له منها، والحصول على أكبر قدر من الثروة، والخروج منها من دون استقرار فيها،

(١) ابن عربشاه: عجائب المقدور في أخبار تيمور، مصدر سابق، ج ٤، ص ٤٦.

المصادر والمراجع العربية

- ١ - ابن الشحنة، الشيخ محب الدين أبي الوليد محمد بن الشحنة. روض المناظر في علم الأوائل والأواخر. ط١. تحقيق: سيد محمد مهنا. بيروت: دار الكتب العلمية. ١٩٩٧م.
- ٢ - ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات. تاريخ ابن الفرات. حققه وضبط نصه: قسطنطين زريق. المجلد السابع. بيروت. (د. ت).
- ٣ - ابن اياس، محمد بن أحمد بن اياس الحنفي (ت ٩٣٠هـ/١٥٢٤م). بدائع الزهور في وقائع الدهور. حققه وكتب له المقدمة: محمد مصطفى. ج١. ق١. ط٢. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب. ١٩٨٢م.
- ٤ - ابن تعزي بردي. المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي. تحقيق: فهيم شلتوت. ج٢. السعودية: جامعة أم القرى. (د. ت). ج١. القاهرة: دار الكتب المصرية. ١٩٩٨م.
- ٥ - ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة.
- ٦ - ابن حجر، الإمام شهاب الدين أبي الفضل العسقلاني (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٩م). إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ. ط٢. ج١، ج٢. بيروت: دار الكتب العلمية. ١٩٨٦م.
- ٧ - ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً. تعليق: محمد بن تاويت الطنجي. قدم له: عبادة كحيله. القاهرة: سلسلة الذخائر. ٢٠٠٣م.
- ٨ - ابن صصري، محمد بن خيرى الذهبي. الدررة المعنية في الدولة الظاهرية. دمشق: الهيئة السورية العامة للكتاب. ٢٠٠٨م.
- ٩ - ابن عربشاه، شهاب الدين أحمد بن عبد الله الدمشقي. (ت ٨٥٤هـ/١٤٥٠م). عجائب المقدور في أخبار تيمور. ط١. القاهرة: مطبعة وادي النيل. ١٢٨٥م.
- ١٠ - أسد الله، صفا، جنكيز خان (الوحشي النابغة). ج١. ط١. بيروت: دار النفائس، ١٩٨٨م.
- ١١ - البغدادى، ابن عبد الحق، مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع.
- ١٢ - زيادة، نقولا. أطلس العالم. بيروت: مكتبة لبنان. ١٩٩٦م.
- ١٣ - الصيرفي. تاريخ دول الإسلام.
- ١٤ - عبد الحكيم، منصور. تيمورلنك إمبراطور على صهوة جواد، القاهرة: دار الكتاب العربي. ١٩٩٨م.
- ١٥ - المقرئزي. السلوك لمعرفة دول الملوك. قام بنشره: مصطفى زيادة. ج١ و٢ و٣. القاهرة: دار الكتب المصرية. ١٩٣٦م.

المراجع العربيّة

- ١ - لامب، هارولد: تيمورلنك. ترجمة: متري أمين. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية. ١٩٨٧م.
- ٢ - لامب، هارولد: جنكيز خان وجحافل المغول. ترجمة: متري أمين. مراجعة: زكي محمود. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية. ١٩٦٢م.

الثقافة والمجتمع

د. نصر قرحاني

مقدمة

مصطلحات ورموز واختصارات، ما يسهم في تحديث المجتمع والحياة بصورة عامة. كما تناول هذا البحث دور المثل الأعلى الذي أصبح شخصاً وليس فكرة في عملية التنشئة الاجتماعية العربية، بوصفها عملية وثيقة الصلة بمحتوى الثقافة وآلياتها.

منذ ما يزيد على عقد من الزمان، ذهب برهان غليون إلى مظاهر الأزمة التي يعيشها العرب تتجلى في غياب الطمأنينة، والنزوع إلى الانطواء على الذات، والارتكان إلى مواقف سلبية إزاء الواقع. فثمة رفض للذات ورفض للآخر، وضمور للقيم الإيجابية، وتعاضم للتطرف، وشعور باليأس، وذلك ضمن مناخ فكري متدهور^(١). وفي حوار موسع معه نُشر حديثاً، يعود غليون إلى تأكيد هذه المعاني، ذاهباً إلى أن الأزمة التي نعيشها تتجسد في «تحويلنا إلى بلدان عالية على غيرها في كل شيء بما في ذلك أمنها، تجمع بين انعدام

بعيداً عن التفاؤل والتشاؤم، ركزت هذه الدراسة على مبدأ منهجي، وهو أن النظر في الثقافة لا يمكن أن يتم بمعزل عن الأوضاع والظروف التي توجد بها، حيث تبنت التعريف القائل إن الثقافة هي الطريقة التي يرى بها المجتمع نفسه والعالم.

وقد تناول هذا البحث مسألة الشفهية كخاصية تميز الثقافة العربية. والثقافة الشفهية من أهم سماتها اعتماد السماع والتواتر قاعدة ومرجعاً لاكتساب المعرفة، وما لهذه الخاصية من تأثيرات في الحياة والعلاقات الاجتماعية. كما ناقش هذا البحث قضية تحديث اللغة وذلك لمحوريتها حيث ينزع كثير من المفكرين إلى اعتبار أن لغة أية جماعة هي ذاتها، وهويتها، وأنها بحاجة إلى تحديث يجعلها قادرة على استيعاب ما تطوره النظم العلمية والتكنولوجية من

(١) برهان غليون، اغتيال العقل، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٢.

والحروب الأهلية، والانهيال الثقافي، وغياب الحريات، وتزايد الفجوات بين الطبقات والمناطق الحضرية والريفية، والفروق في الحقوق بين الرجل والمرأة، والاعتداء على البيئة^(٣).

وفي أحدث كتاب صدر له، يرى تركي الحمد أن ثمة أزمات تعانها الثقافة العربية والهوية العربية، جراء الأحداث والحروب التي عصفت في العالم العربي وجعلت الفكر العربي عاجزاً أمام تحديات الديمقراطية والتغيير، وأن العرب في حاجة إلى خطاب وثقافة جديدين متحررين من قيد لغة «خشبية» نخرها السوس، حتى يسهموا في صناعة الثقافة البشرية الشاملة الآخذة في التشكل في زمن العولمة^(٤).

وفي حين تشير هذه التحليلات وغيرها إلى أن المجتمع العربي والثقافة العربية يواجهان أزمة عميقة، يذهب البعض الآخر إلى أن الأمر يتعلق بمفترق طرق تقف فيه الثقافة العربية، وهو قول يحاول الاحتفاظ ببعض التفاؤل الذي يخفف من وطأة التشخيصات التي ترى الأفاق مسدودة أمام

الإنجاز وانعدام الأمن والاستقرار وانعدام القانون وانعدام المشاركة السياسية الوطنية وانعدام الإيمان بالحاضر والمستقبل وانعدام الإيمان بالنفس، وسعى كل فرد لوحده إلى حل أموره بوسائله الخاصة، وعلى حساب الأفراد والجماعات الأخرى^(١).

ويحدد غليون ثلاث سمات لمجتمع الأزمة: الأولى؛ هي العنف المنفلت في الحياة السياسية والمدنية، والثانية؛ هي السيطرة البيروقراطية التي تفضي إلى سكون وشلل كلي تطلق عليه السلطة البيروقراطية اسم الاستقرار والاستمرارية، والسمة الثالثة هي هيمنة صيغ إدارية تقتل كل إمكان للإبداع أو التجديد والتفاعل مع العلم والتكنولوجيا^(٢).

وفي بحثه الموسع حول الأحوال والعلاقات في المجتمع العربي المعاصر، يخلص حليم بركات إلى أكثر من نتيجة مفادها أن الشعوب العربية في نهاية القرن العشرين صارت مهددة أكثر مما كانت عليه في السابق بالتبعية، والتجزئة الاجتماعية،

(١) برهان غليون، العرب وتحولات العالم: من سقوط جدار برلين إلى سقوط بغداد، حوار أجراه رضوان زيادة، بيروت: المركز الثقافي العربي، ط١، ٢٠٠٣، صص ١٠٧-١٠٨.

(٢) المرجع نفسه، صص ١١٠-١١١.

(٣) حليم بركات، المجتمع العربي في القرن العشرين: بحث في تغير الأحوال والعلاقات، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٠، ص ٩٥٨.

(٤) تركي الحمد، من هنا يبدأ التغيير، بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٤.

لمدى نزوعها - أي الثقافة - إلى التفاعل مع الثقافات الأخرى.

وسوف نتناول في هذه الدراسة مسألة الشفهية بوصفها خاصية تميز الثقافة العربية، وما لهذه الخاصية من تأثيرات في الحياة والعلاقات الاجتماعية، كما نتناول قضية تحديث اللغة، والمثل الأعلى في عملية التنشئة الاجتماعية العربية، بوصفها عملية وثيقة الصلة بمحتوى الثقافة وآلياتها.

الثقافة الشفهية والجمود الاجتماعي

ثمة علاقة وثيقة، متداخلة ومتشابكة، بين حال الثقافة من جهة، والمواضيع الإنسانية والاجتماعية من جهة أخرى. ويشهد التاريخ على أن كل نقلة من النقلات الحضارية التي عرفتها البشرية قد فتحت آفاقاً جديدة أمام الإنسان، اتسعت مداركه، وازدادت مساحات معرفته بالكون وبنفسه، وتطورت قدراته الإبداعية تطوراً نوعياً. وبقدر ما كانت المجتمعات المختلفة تفيد من الإنجازات الحضارية وتسهم فيها، كانت تحقق شروطاً أفضل لحياة الناس فيها، وتساعدهم على تنمية وعيهم بذاتهم وبالعالم، وتحررهم من عوامل الجمود والتخلف.

ولقد كان ابتكار الأبجدية والكتابة نقطة بداية لتطور حضاري بالغ الأهمية تبلورت في سياقها الثقافة الكتابية التي أمكن في

الثقافة العربية، والحصار مضروباً حولها. وهذا التفاؤل مطلوب على أية حال، ويجب ألا نتخلى عنه، على الرغم من عدم وضوح الموضوعات التي تعزز أو تبرر وجوده.

وبعيداً من التفاؤل والتشاؤم، يهمننا في مطلع هذه الدراسة أن نؤكد مبدأً منهجياً نراه مهماً، وهو أن النظر في الثقافة لا يمكن أن يتم بمعزل عن الأوضاع والظروف التي توجد فيها. فالدراسات والبحوث الأنثروبولوجية والسوسولوجية تؤكد الصلة الوثيقة المتداخلة والمتشابكة بين الثقافة والمجتمع، كما تؤكد الصلة بينهما معاً من ناحية، والمتغيرات الاقتصادية والسياسية والفكرية من ناحية أخرى.

ويتحدد مسعى هذه الدراسة في النظر في بعض جوانب الثقافة العربية، وطبيعة الارتباط بين هذه الجوانب وعوامل ذات طابع مجتمعي وتاريخي. فإذا كان المعنى الشائع لمفهوم «الثقافة» لدى الكثير من علماء الاجتماع هو أنها «أسلوب حياة»، فإنها بصفتها هذه تنطوي على جوانب إدراكية ومعرفية ومادية، تضم في دورها عناصر عدة تتشكل خلال الأجيال، من خلال وسائط معينة مشروطة بظروف حياة الناس وخبراتهم خلال الأزمنة. وبهذا المعنى تتقاطع الثقافة، بمركباتها المختلفة، مع نظم المجتمع، وتكتسب سماتها وفقاً لحركية المجتمع وعلاقات القوة فيه، ووفقاً

ظلمها تععيد الفكر ومنهجته، واسترجاع المعلومات، وإجراء الدرس المقارن ونقد النصوص، وتحقيق التواصل الموثق بين العلماء، والتجريب والمراجعة، إلى غير ذلك من ممارسات مؤسسة على منهج عقلاني يدرك العلاقة بين المتغيرات والأحداث، وهذا ما يمنح الزمن مفهوماً، ويهيئ القدرة على التجريد والتواصل بين الأجيال، وبخاصة بعد اختراع الطباعة التي جعلت للكلمات والنصوص وجودها المستقل خارج الذات، ووضعتها في سياقها الزمني والمكاني.

وإذا كانت مجتمعات الغرب المتقدمة قد شرعت فعلاً في إنجاز قفزة حضارية جديدة تنتقل بها من الثقافة الكتابية إلى ثقافة اللغة الإلكترونية التي ستحقق، بلا جدال، تحولاً نوعياً جديداً تتغير معه صورة الانسان والمجتمع والعلاقات بين الدول والجماعات وتتطور إمكانات التفاعل المعرفي وقدرات الإنسان على التحصيل والتحليل والاستجابة والإنتاج؛ فإن المجتمعات العربية لا تزال رهينة الثقافة الشفهية التي من أهم سماتها اعتماد السماع والتواتر قاعدة ومرجعاً لاكتساب المعرفة. «الثقافة الشفهية هي ثقافة الجرس والكلمة المنظمة والذاكرة والتراث

المحفوظ المتواتر مع مرجعية ومركزية النص وقدسيتها. والكلمة هي الواقع بل هي فعل الواقع وكينونته. وتصوغ الثقافة الشفهية عقلاً ينزع إلى النظرة الكلية المتجزأة.... يأخذ الأحداث إجمالاً واختصاراً... ويلخص الوجود خارج الزمان والمكان في حكمة أو قول مأثور»^(١).

ولما كانت الثقافة الشفهية تقوم على التلقين واستظهار النص، والأخذ عن الفقهاء الذين ينظر إليهم، هم ومن ناظرهم، بوصفهم سدنة النصوص و«عقل الأمة»، فإن المحصلة، على صعيد الثقافة الاجتماعية، هي تعطل دور الذات في التثقيف والنقد والحكم العقلاني والإبداع والتغير، فتصبح هذه الثقافة جبرية ومحافضة ومغلقة ومعادية للابتكار الذي ينظر إليه على أنه خروج عن النص، ومن ثم يشيع النقل على حساب العقل وتترسخ مشاعر الدونية والتبعية لدى العامة، بخاصة مع سيادة الأمية الأبجدية والأمية الثقافية وغلبة الفطرة على العقلانية المنهجية، وقد أفضى هذا التوقع داخل السلفية إلى معضلات تشير إلى جمود حياتنا الاجتماعية والثقافية، وصارت صورتنا السلفية شبحاً يخيف الآخر، ويدفعه إلى اضطهادنا، وبات حجاب المرأة

(١) شوقي جلال، الفكر العربي وسوسولوجيا الفشل، القاهرة: مكتبة مدبولي، ٢٠٠٢، ص ١١٢.

قضية عالمية نحاول أن نختزل فيها مشاكلنا مع هذا الآخر، غير واعين بأن لتلك المشاكل أبعاداً أخرى أهم تتعلق بمصالح واستراتيجيات اقتصادية وسياسية^(١).

إن أخطر تداعيات الثقافة الشفهية يتجلى في مظاهر التعصب والتطرف وجمود الفكر، ذلك لأن الالتزام بالكلمة، التي يوكل أمرها للفقهاء أو المتحدث باسم السلطان، يعني أنك أقرب إلى صاحبها، وكلما ازدادت تطرفاً في الالتزام بها، ازدادت قرباً منه. عليك أن ترفض الكلمة جملة أو تقبلها جملة؛ أي: إما التطرف هنا وإما التطرف هناك. ومن ثم لا محل للحوار أو البحث العقلاني في الأسباب، وتقديم المبررات والبراهين بصورة تحليلية. فالثقافة الشفهية لا تقبل حق الاختلاف. وهكذا، نجد من يؤمن إيماناً كاملاً أعمى بكلمة السلطان، إلى جانب من يكفر بها تماماً. ومن هنا فلا مانع من أن نجد من يكفر الجميع لأنهم لا يؤمنون بكلمته من دون حوار أو إبداء الأسباب^(٢). وفي ظل هذه الأوضاع تتوارى قيمة التسامح، ويتسع نطاق العنف، وتضيق الفرص أمام التفاعل الخلاق القائم على احترام الآراء الأخرى المختلفة.

إن التعصب والجمود، على صعيد الجماعات والمجتمعات القومية العربية، يعكسان نسقاً يطلق عليه ابراهيم غلوم في أحدث مؤلفاته «النسق الاستبدادي»^(٣)، في إشارة إلى أن القوى المهيمنة على البنية الاجتماعية والفضاء الثقافي العربي هي قوى «نسقية» سعت دائماً، وتسعى، إلى تشويه الواقع وتزييف الوعي وإعاقة كل تغيير خلاق. وهذه القوى المهيمنة هي من نتاج ثقافتنا، وتمثل تحدياً لها في الآن نفسه. وهو يختزل هذه القوى النسقية المهيمنة في «التراث» بعناصره كافة^(٤). وبالطبع من بينها اللغة بما اكتسبته من سمات خلال الحقب التاريخية المختلفة. ويتجلى حضور التراث بوصفه قوة مهيمنة متخفية أو حاضرة ومحتوية للثقافة العربية ومعوقة لانفتاحها في كون هذا التراث ذاكرة ثقافية تتخلل مساحات الوعي واللاوعي، وكونه نموذجاً بديلاً يوازي النموذج الغربي الذي مثل هاجساً شديداً الوطاء على المفكرين العرب من حقبة اليقظة إلى حقبة الحداثة، وكذلك في كونه ذاتاً متمركزة نسجت حوله وفي مواجهته- أحياناً خطابات فكرية، قامت

(١) شوقي جلال، الفكر العربي وسوسولوجيا الفشل، القاهرة: مكتبة مدبولي، ٢٠٠٢، ص ١١٢-١١٣.

(٢) المرجع نفسه، ص ١١٣.

(٣) إبراهيم عبد الله غلوم، الثقافة وإنتاج الديمقراطية، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط ٢، ٢٠٠٢، ص ١.

(٤) المرجع نفسه، ص ٢٠.

على الاختلاف أو المصالحة أو التراضي أو التماهي^(١).

وحالتا التعصب والجمود هاتان هما ما لفتتا انتباه هشام شرابي، واتخذهما موضوعاً للتحليل في كثير من دراساته، واستخدم تعبير «البنية البطريركية» للإشارة إليهما^(٢). ومع تغلغل ذلك النسق الاستبدادي وتلك البنية البطريركية في جوانب الحياة، يجرى تهميش أدوار المرأة والشباب، ولا تجد الديمقراطية الحقيقية مكاناً لها في نسيج العلاقات، إن على صعيد السياسة، وإن على صعيد الاجتماع، بل على العكس، تتسع مساحات القهر، وتتكرس النزاعات الطائفية والقبلية، حتى مع غياب الطوائف والقبائل. وتجسد الأمثال الشفهية التي راجت في الثقافة العربية هذه النزعات: «اللي ما عنده كبير يبحث له عن كبير، اللي مالو ظهر ينضرب على ظهره»... إلخ، وحتى مع وجود تنظيمات حديثة، مثل النقابات المهنية أو النوادي الاجتماعية، لا تغيب البطريركية بل هي حاضرة على المستويات كافة. وكل سلطة

أبوية قاهرة فوقها سلطة قاهرة أخرى. ومع هذه البطريركية الأبوية تتأسس أشكال من النفاق الاجتماعي وازدواجية السلوك وتناقضات المواقف والأفعال. وهذه الأشكال تعزز، في دورها، البنية البطريركية^(٣).

وينبغي أن نؤكد هنا أن الحقب الاستعمارية التي عاشت فيها المجتمعات العربية قد أسهمت في تكريس الثقافة الشفهية، وما يرتبط بها من أشكال للسلطة الأبوية، والسلوك التمويهي، وأساليب للتقية والنفاق... إلخ، غير أن سياسات التحديث التي اتبعتها النخب السياسية بعد انحسار الاستعمار وحصول الدول العربية على استقلالها قد فشلت في حصار الثقافة الشفهية وتعميم الثقافة الكتابية، بل ربما وجدت أن استمرار الثقافة الشفهية يعزز من وجودها في مواقع السلطة، على أساس أن هذه الثقافة تحد من نزعة الحرية والتفكير العقلاني الذي هو قرين الوعي الاجتماعي والسياسي المرتبط بالديمقراطية والفاعلية المؤثرة التي تناقض الرغبة في

(١) المرجع نفسه، صص ٢١-٢٢.

(٢) انظر: هشام شرابي، البنية البطريركية: بحث في المجتمع العربي المعاصر، بيروت: دار الطليعة، ١٩٨٧.

(٣) في دراسة تحليلية مهمة كشف الباحث الاجتماعي الجزائري محمد عباس نور الدين عن العلاقة المتداخلة بين ما يسميه «أيدولوجيا السلطة الأبوية» من جهة وأشكال التمويه، أي تحريف الواقع من خلال عملية فكرية، من جهة أخرى، مبنياً تجلي هذه الأشكال في جوانب مختلفة من المجتمع العربي. انظر: محمد عباس نور الدين، التمويه في المجتمع العربي السلطوي: قراءة نفسية اجتماعية للعلاقة بالذات وبالآخر، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٠.

المحافظة على الأوضاع الراهنة لدى أصحاب الإيديولوجيا الأبوية.

من هنا اقترن استمرار الثقافة الشفهية بدعوى ضرورة الحفاظ على ذاتنا الثقافية، وهويتها وخصوصيتنا. وكأن هذه الهوية صندوق مغلق لا يتطور خلال الزمن، ولا يتفاعل مع معطيات العصور المتتابة^(١).

إن «الهوية الثقافية الاجتماعية إما إلى فتح وازدهار بفعل النشاط الاجتماعي الإنتاجي الإبداعي المولّد للمعرفة، وإما إلى انزواء وانحسار ثم تحلل، إذا ما ساد المجتمع الركود وعطالة الإنتاج، وعاش عالة على الآخرين، يستهلك انتاجهم المادي والمعرفي»^(٢).

تحديث اللغة وتحديث المجتمع

اللغة هي بؤرة الثقافة، لأنها ببساطة، التي تربط بين أعضاء المجتمع، وتؤسس لأنماط التفاعل بينهم، وتصوغ الذهنية العامة التي تميّزهم عن غيرهم من المجتمعات الأخرى، وهي رمز يستوعب ويكتف خبرة الأفراد والجماعات التاريخية، وصلتهم بالطبيعة وبالعالم.

وبسبب من محورية اللغة بوصفها محوراً ثقافياً، ينزع كثير من المفكرين إلى عدّ لغة أية جماعة هي ذاتهم^(٣)، وهويتهم، ومن ثم ينظرون إلى إدارة شؤون اللغة بوصفها مسألة حضارية وتنموية تحتاج إلى وضع سياسات وبرامج هدفها تحديث اللغة بصورة تجعلها قادرة على استيعاب ما تطوره النظم العلمية والتكنولوجية من مصطلحات ورموز واختصارات، وهو ما يسهم في تحديث المجتمع والحياة بصورة عامة^(٤).

وفي هذا الصدد، يؤكد أحد المهتمين بالشأن الثقافي العربي أن اللغة العربية تعيش أزمة، تتمثل مظاهرها في تدهور لساني، حيث تزحف العاميات المحلية على الفصحى الجامعة، وتتآكل مفردات الفصحى في هذه العاميات، وتشيع الركافة واللحن في استخدام ما تبقى من الفصحى، سواء في مجال التعليم أو حتى بين أهل القراءة والكتابة في أجهزة الإعلام والصحافة، وإسفاف لغوي يبتدئ في ذلك الهجين من الركافة العربية والركافة الأجنبية وما يصاحبه من ظهور أسماء سيئة الصياغة

(١) يكرر ابن عربي في فتوحاته المكية وصف الثقافة الشفهية التقليدية بأنها منقولة من ميث عن ميث. ولأن الموتى لا يتطورون ولا يتغيرون فإن هويتنا بين يدي الثقافة الشفهية هي هوية هؤلاء الموتى قد ارتدناها.

(٢) شوقي جلال، مرجع سابق، ص ١١٤.

(٣) يذكرنا ذلك بالنظرية الألمانية حول القومية التي تجعل اللغة أساساً مركزياً للحس القومي.

(٤) إبراهيم بدران، أفول الثقافة، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٢، ص ٢٨٣ - ٢٨٧.

الفرانكفونية أو الأنجلوفونية مكتوبة بأحرف عربية وأخطاء إملائية جسمية، وفي مواجهة هذه المظاهر، ليس ثمة وجود لسياسيات لغوية، إن على المستوى القومي، وإن على المستوى القطري^(١)، ولعل بعض الحقائق المتصلة بمسألتى الترجمة والنشر توضح ذلك.

فالت ترجمة من أهم وسائل إدارة شؤون اللغة. وهي في جوهرها «التماس معرفة وفعل حضاري». وتسعى كل البلدان، المتقدمة منها والناهضة، إلى تمثل المعلومات ونقل المعرفة من مصادرها الأصلية عن طريق الترجمة التي يقوم بها الأفراد أو تقوم بها شركات متخصصة (مثل شركة wordbank البريطانية التي يعمل بها وحدها ٥٥٠ مترجماً محترفاً)، أو مؤسسات رسمية. وقد قدر ما انفقته العالم على الترجمة عام ١٩٨٩م بمبلغ ٢٠مليار دولار، ويقدر ما يصدره العالم سنوياً من عناوين مترجمة بأكثر من مائة ألف عنوان.

وربما أشرنا هنا إلى تجربة اليابان التي حرصت، مع مطلع نهضتها في عصر الميجي، على نقل جميع المعارف العلمية والثقافية إلى اليابانية، وأوفدت طلابها

الناهبين في بعثات للغرب المتقدم لتحصيل العلوم والعودة إلى اليابان. وعقدت اتفاقات مع كبرى دور النشر العالمية لإصدار طبعة باللغة اليابانية من إصداراتها العلمية فور صدورها بلغتها الأصلية. ويقدر عدد الصفحات التي تترجمها اليابان سنوياً بحوالي ٣٠ مليون صفحة^(٢). وفي مدينة أوساكا اليابانية أحدث جامعة للغات في العالم، تحولت فيها دراسة اللغات الأجنبية إلى تكنولوجيا، حيث تنقسم دراسة كل لغة أجنبية إلى تخصصات فنية داخل اللغة نفسها. فهناك من يدرس الإنجليزية، مثلاً، في مجال السياسة، ومن يدرسها في مجال الكيمياء، أو الفيزياء أو الرياضيات... إلخ.

وفي البلدان العربية، حالة من الركود والفوضى، حسبما يذهب واحد من الثقات في مجال الترجمة^(٣). فعلى الرغم من ازدياد عدد الكتب المترجمة إلى العربية من حوالي ١٧٥ عنواناً في السنة خلال المدة بين عامي ١٩٧٠ و ١٩٧٥ م إلى ما يقرب من ٣٣٠ كتاباً (وهو خمس ما تترجمه اليونان مثلاً)، فإن الإجمالي التراكمي للكتب المترجمة منذ عصر المأمون حتى الآن يقدر بحوالي عشرة آلاف كتاب، وهو

(١) سليمان العسكري، «أزمة العربية أم أزمة التعريب»، مجلة العربي، العدد ٥٤٥، أبريل، ٢٠٠٤، ص ١٠- ١١.
(٢) برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام ٢٠٠٣، نحو إقامة مجتمع المعرفة، المكتب الإقليمي للدول العربية، ٢٠٠٣، ص ٦٦.
(٣) شوقي جلال، الترجمة في العالم العربي، الواقع والتحدّي، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٩، ص ٨٧.

والبيولوجيا الجزئية فتكاد تكون غير موجودة.

ويذكر تقرير التنمية الاقتصادية العربية أن العلوم الإنسانية والاجتماعية في العالم العربي تشهد مفارقات ملحوظة في أوضاعها. ففي الوقت الذي ساعدت فيه عولمة المعرفة على تبادل المعلومات وسهولة الاتصال، فإن ذلك قد اقترن بتشديد إغلاق الحدود الأمريكية وحدود بعض الدول الأوروبية في وجه المواطنين العرب، ومنهم المفكرون والباحثون وأساتذة الجامعات، وهو ما أفضى إلى تراجع في المعرفة باللغات الأجنبية، خصوصاً لدى شرائح واسعة من طلاب الجامعات وخريجها الذين لا يتابعون دراساتهم في الخارج. وبدأ صنف جديد من أساتذة الجامعات والباحثين من أحاديي اللغة يحل شيئاً فشيئاً محل صنف ثنائي اللغة كان سائداً في أغلب الجامعات ومراكز البحوث العربية. ولذلك كله انعكاسات سلبية تتعلق بموضوع العمل العلمي نفسه، إذ يفضي إلى مزيد من انحصار البحث العربي في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية في الموضوعات المحلية، وهو ما يكرس التمركز حول الذات وسد الآفاق أمام التواصل مع الآخر. ويقول التقرير إن

يوازي ما تترجمه إسبانيا في عام واحد. ويؤكد تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام ٢٠٠٣ م أن ثمة نقصاً واضحاً في ترجمة كتب أساسية في الفلسفة والآداب وعلم الاجتماع وعلوم أخرى، مع توافر عناوين ليست مهمة ولا يؤسس عليها علم نافع، وأنه ليست ثمة سياسات واضحة أو خطط مدروسة تنظم عملية اختيار الكتب للترجمة بحيث تلبي حاجات البحث العلمي في الوطن العربي، وتصبح عنصراً فاعلاً في نهضة معرفية عربية^(١).

ولا يقتصر هذا الوضع المأساوي على مجال الترجمة، بل ينسحب أيضاً على حركة الإنتاج الفكري عموماً، فعلى الرغم من أن النشر العلمي في الوطن العربي قد شهد زيادة ملموسة خلال العقود الثلاثة المنصرمة قدرت بنحو ١٠٪ سنوياً، فإن هذه الزيادة كانت متواضعة إذا قورنت مع تلك التي تحققت في بلدان نامية مثل البرازيل والصين وكوريا. وتشير البيانات المتاحة حول نوعية البحوث المنجزة في البلدان العربية إلى النشاط البحثي العربي لا يزال بعيداً عن عالم الابتكار؛ إذ يقع معظمه في المجال التطبيقي، وقلّة منه تتعلق بالبحث الأساسي. أما البحوث في الميادين المتقدمة مثل تقانة المعلومات

(١) برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام ٢٠٠٣، مصدر سبق ذكره، ص ٦٧.

تقاليد التمحوّر على الذات وسد الأفاق أمام التواصل مع الآخر. ويقول التقرير إن تقاليد التمحوّر على الذات في مجال البحث الإنساني والاجتماعي العربي «ليست مرتبطة بإدارة الباحثين كأفراد، وإنما هي ثقافة كاملة ينتمي إليها الباحث، من ناحية، وهي نتيجة خيار سياسي من ناحية ثانية. ذلك أن المؤسسات التي تهتم بدراسة المجتمعات الأخرى تكاد تنعدم في العالم العربي. وهو أمر لافت في ضوء حجم التحديات الخارجية التي تواجهها البلدان العربية»^(١).

إن ضعف حركة الترجمة إلى العربية، وحركة النشر كذلك، يرتبط بعوامل مجتمعية متعددة، لعل من أهمها نظام التعليم بمستوياته المختلفة. فلا يزال أسلوب التعليم في المدارس والجامعات العربية يغلب عليه الطابع النمطي القائم على التلقين واستظهار المعلومة، بعيداً عن أساليب تشجيع التفكير والتحليل والإبداع^(٢).

حول «المثل الأعلى» في التنشئة الاجتماعية العربية

كان الراحل زكي نجيب محمود قد أهتم،

ضمن مشروعه الفكري، بتجديد الثقافة العربية، وكان مشغولاً بالنظر في عناصر هذه الثقافة ومفرداتها وجذورها والجوانب السلبية فيها. وفي كتابه «عربي بين ثقافتين» يكشف عن الفرق الجوهرية بين ثقافة العربي وثقافة الآخر الحضاري «العربي» المتقدم، ويذهب في هذا الصدد إلى أن هذا الفرق يتمثل في الاختلاف بين معنى كلمة «المثل الأعلى» عندنا، وكلمة «Ideal» عندهم، فالمثل الأعلى عند العربي هو مجموعة من الأشخاص في التراث، أو في الحياة، حيث يكون المطلوب من الفتى الناشئ محاكاتهم، غير أنه، بطبيعة الحال، ولاختلاف العصر ومعطيات الزمن، يفشل. ولكي يتجنب لوم المجتمع له وموقفه السلبي منه، فإنه يلجأ إلى محاكاة هؤلاء الأشخاص ظاهرياً، أما في الخفاء، فإنه يحاول أن يكون نفسه. وهكذا يعيش حياتين ومنظومتين من القيم بينهما تناقض كبير^(٣). إن حالة الانفصام هذه - «الشيزوفرينيا» بلغة التحليل النفسي - تتغلغل في نسيج الحياة الاجتماعية والعلاقات بين الناس. ومن ثم نجد في الثقافة الشفهية من الأمثال الدارجة التي تعزز هذه المحاكاة الزائفة. أن «الولد لخاله»

(١) برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام ٢٠٠٣، مصدر سبق ذكره، ص ٧٥.

(٢) محمد الرميحي، طالت فترة الانتظار العربي على إصلاح التعليم، جريدة الوسط البحرينية، الثلاثاء ٣ فبراير، ٢٠٠٤.

(٣) د. زكي نجيب محمود، «عربي بين ثقافتين»، الطبعة الثانية ١٩٩٣، دار الشروق، القاهرة.

و«ثلثا الولد لخاله» و«البنت لأمها»، أما الشاعر فيقول: «وينشأ ناشئ الفتيان منا على ما كان عوده أبوه».

أما الفتى الناشئ في المجتمعات الغربية المتقدمة، فإن «المثل الأعلى» (Ideal) عنده ينبع من كلمة (Idea) أي (فكرة). فالقيمة فكرة، وهو يسعى إلى تحقيق ما يستطيع تحقيقه منها، ولا يطالبه الناس أو المجتمع بالوصول إليها كلية بالضرورة، لأن إدراك المثل الأعلى أمر محال. ومن ثم يتسامح الناس إزاء تفريط بالضرورة، لأن إدراك المثل الأعلى أمر محال. ومن ثم يتسامح الناس إزاء تفريط الفتى في بعض الفكرة، ويشجعون محاولته الاقتراب بقدر الإمكان من البعض الآخر. ولذلك، فإن حياة الناس تبدو واحدة غالباً، خالية من الانفصام. فالفرد لا يضطر إلى ممارسة شيء في السر، وممارسة نقيضه في العلن. ويشيع هذا الاتساق في مبادئ الحياة عموماً، فالعدل، مثلاً مفهوم مجرد له عناصر وإجراءات قد يعجز معظم الحكام والناس عن تحقيقها، فيجري التفاضل بينهم، أيهم أكثر عدلاً.

إننا عندما نتحدث عن العدل، نقدم النموذج الثقافي المثالي الفارسي، أسطورة كسرى العادل الذي علق جرساً على باب قصره، يشده المظلومون، فيصلون إليه، أو النموذج المتمثل في شخص عمر بن

الخطاب أو عمر بن عبد العزيز، وفي الشجاعة ومواجهة المعتدي يكون المثل هو صلاح الدين. وهكذا، يختفي المفهوم نفسه، ويبقى الأشخاص خلال الأجيال، نستحضرهم دائماً في عملية التنشئة الاجتماعية. فالكرم هو شخص حاتم، والعشق قيس وليلى... إلخ.

إن حالة الازدواجية هذه لها أصداء في عوالمنا الثقافية، فثمة اللغة الفصحى والعامية، والمغاربة يكتبون الأرقام العربية، أما المشاركة فيكتبون الأرقام الهندية. ولم تعد "التقية" مقتصرة على مجال الصراع الديني، بل امتدت إلى الحياة بعامه. فالزوج، اتقاء لشر زوجته، يخفي عنها أشياء، ويعاملها بصورة أخرى، والموظف لا يعمل إلا ما يقيه عقاب الرؤوساء، ولا يحقق ذاته في العمل أو يبدع، أو يمارس هذا العمل بحب ومن أجل الصالح العام. وعلى سعيد الأسرة، ويعامل الطفل الذكر أفضل من أخته الأنثى وتغرس الفوقية، في حين تغرس في أخته الدونية.

هذه الممارسات التي تأخذ شكل العادات، وتصبح تقاليد معترفاً بها ويجري الحفاظ عليها باسم التراث والخصوصية، تؤسس لإيديولوجيا فردية وجماعية هي إيديولوجية المقهورين. ففي ظل البنية البطيريركية وحالة الانفصام تصبح العلاقات قائمة على التقية والثأر من طرف

المقهورين، لكن في الخفاء، بحيث يمكن استخدام العبارة الشهيرة في ألف ليلة وليلة: «كيد النساء غلب كيد الرجال»، وتغييرها لتصبح: «كيد المقهورين غلب كيد القاهرين»، وإذ تأملنا تجلّى ذلك في الحياة السياسية وجدناه يتجسد في خطاب سياسي ظاهره الرحمة وباطنه العذاب.

الخاتمة

من كل ما سبق تتضح خطورة الثقافة بوصفها عنصراً جوهرياً مؤسساً في بنية المجتمع العربي. ثقافتنا أصابتها الشيخوخة، والشيخوخة إن لم تكن تدهوراً في البنية فهي على الأقل توقف النمو والتطور. وما دامت الثقافة هي ماء طينة المجتمع فإن تجمدها يصيب الطينة بالتجمد أيضاً. والتجمد دوران حول النفس في السلفية، وهو لون من ألوان التطرف الوجودي والوجود المتطرف، والتطرف هنا هو الحياة على أطراف العصر في هامشية تستهلك ولا تنتج، وتكرر ولا تبدع، فيترتب على ذلك مجتمعات بائسة تتعمق فيها الفروق الطبقيّة نتيجة تجمد الحراك الاجتماعي، وإذا عدنا إلى التفاؤل الذي يتيح القول إن الثقافة العربية في مفرق طرق، فإنني أنبه كل من يعنيه شأن المستقبل العربي أن يدرك هذا المستقبل في خطر شديد، ليس تحت وطأة الأجنبي

فحسب ولكن تحت وطأة شيخوخة ثقافة انقطع الوعي عن أبنائها بشيخوختها عند تمجيدها بوصفها أثراً من الماضي السحيق المجيد لا يزال حياً، لا يعونه أنه أثر بقدر وعيهم أنه مجيد لا بد أن ندق الأجراس لهذا الشيخ العجوز وهو ثقافتنا لكي يتزلزل ولكي يهتز اهتزازة تُسقط عنه غبار الشيخوخة، وتُنبئُ تجديداً يتجاوز تمجيد الذات السلفية والثقافية إلى تفكيك تلك الذات واستبعاد عناصرها الميتة غير الصالحة، وتبني العناصر الحية في مشروع للمستقبل يتخذ من هذه العناصر الحية جذوراً لبنية إبداعية تحقق حلم المعاصرة والمشاركة في بناء عالم اليوم بالبدء من حيث انتهى الآخرون، ليس لمحاكاة ما انتهى إليه هؤلاء الآخرون وإنما لتجاوز ما انتهوا إليه بمزيد من الإبداع. والنموذج الياباني والكوري الجنوبي آفاق مفتوحة للإفادة منها، وتحقيق حلم التفوق على تقنياتها في خلق التقدم والدخول إلى حلبة صنع التاريخ التي طالما اشتاقت للدور العربي الغائب.

المراجع

- ١ - برهان غليون، اغتيال العقل، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٢.
- ٢ - برهان غليون، العرب وتحولات العالم: من سقوط جدار برلين إلى سقوط بغداد، حوار أجراه رضوان زيادة، بيروت: المركز الثقافي العربي، ط١، ٢٠٠٣، ص١٠٧-١٠٨.
- ٣ - المرجع نفسه، ص١١٠-١١١.
- ٤ - حليم بركات، المجتمع العربي في القرن العشرين: بحث في تغير الأحوال والعلاقات، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٠، ص٩٥٨.
- ٥ - تركي الحمد، من هنا يبدأ التغيير، بيروت: دار الساقى، ٢٠٠٤.
- ٦ - شوقي جلال، الفكر العربي وسوسولوجيا الفشل، القاهرة: مكتبة مدبولي، ٢٠٠٢، ص١١٢.
- ٧ - المرجع نفسه، ص١١٢-١١٣.
- ٨ - المرجع نفسه، ص١١٣.
- ٩ - إبراهيم عبد الله غلوم، الثقافة وإنتاج الديمقراطية، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط٢، ٢٠٠٢، ص١.
- ١٠ - المرجع نفسه، ص٢٠.
- ١١ - المرجع نفسه، ص٢١-٢٢.
- ١٢ - انظر: هشام شرابي، البنية البطريركية: بحث في المجتمع العربي المعاصر، بيروت: دار الطليعة، ١٩٨٧.
- ١٣ - في دراسة تحليلية مهمة كشف الباحث الاجتماعي الجزائري محمد عباس نور الدين عن العلاقة المتداخلة بين ما يسميه «أيدولوجيا السلطة الأبوية» من جهة وأشكال التمويه، أي تحريف الواقع من خلال عملية فكرية، من جهة أخرى، مبيناً تجلي هذه الأشكال في جوانب مختلفة من المجتمع العربي. انظر: محمد عباس نور الدين، التمويه في المجتمع العربي السلطوي: قراءة نفسية اجتماعية للعلاقة بالذات وبالآخر، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٠.
- ١٤ - يكرر ابن عربي في فتوحاته المكية وصف الثقافة الشفوية التقليدية بأنها منقولة من ميث عن ميث. ولأن الموتى لا يتطورون ولا يتغيرون فإن هويتنا بين يدي الثقافة الشفهية هي هوية هؤلاء الموتى قد ارتدبناها.
- ١٥ - شوقي جلال، مرجع سابق، ص١١٤.
- ١٦ - يذكرنا ذلك بالنظرية الألمانية حول القومية التي تجعل اللغة أساساً مركزياً للحس القومي.
- ١٧ - إبراهيم بدران، أفول الثقافة، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٢، ص٢٨٣-٢٨٧.
- ١٨ - سليمان العسكري، «أزمة العربية أم أزمة التعريب»، مجلة العربي، العدد ٥٤٥، أبريل، ٢٠٠٤، ص١٠-١١.
- ١٩ - برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام ٢٠٠٣، نحو إقامة مجتمع المعرفة، المكتب الإقليمي للدول العربية، ٢٠٠٣، ص٦٦.
- ٢٠ - شوقي جلال، الترجمة في العالم العربي، الواقع والتحدي، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٩، ص٨٧.
- ٢١ - برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام ٢٠٠٣، مصدر سبق ذكره، ص٦٧.
- ٢٢ - المصدر نفسه، ص٧٥.
- ٢٣ - محمد الرميحي، طالت فترة الانتظار العربي على إصلاح التعليم، جريدة الوسط البحرينية، الثلاثاء ٣ فبراير، ٢٠٠٤.
- ٢٤ - د. زكي نجيب محمود، «عربي بين ثقافتين»، الطبعة الثانية ١٩٩٣، دار الشروق، القاهرة.

الهجرات عبر شمال سلسلة جبال لبنان الشرقية وأثرها في تشكل البلدات والقرى في قضاء بعلبك

د. صلاح عصام أبوشقرا^(١)

أسبابها. فأنت هذه الدراسة كمحاولة لسد ثغرة في هذا النوع من المواضيع، وخصوصاً مع ندرة المراجع العلمية الموثوقة التي تجد الإجابات على تساؤلات متعددة، عن أصول سكان هذه المنطقة، وأسباب وفودهم إليها.

تهدف هذه الدراسة إلى تحديد الأصول الجغرافية للسكان، وتفسير دوافع هجرتهم إلى السفوح الغربية في الجزء الشمالي لسلسلة جبال لبنان الشرقية، كما تهدف إلى تتبع المعابر والممرات الجبلية عبر سلسلة جبال لبنان الشرقية التي سلكتها المجموعات السكانية المهاجرة المختلفة، فضلاً عن تمدد الرقعة السكانية إلى المنطقة السهلية، وذلك من خلال الزحف العمراني باتجاه الطريق الدولي بعلبك - القاع - حمص في سوريا.

المقدمة

تتناول هذه الدراسة القسم الشرقي من قضاء بعلبك^(٢)، أكبر الأضية في لبنان من حيث المساحة، التي تبلغ ٢٣١٨ كيلومتراً مربعاً، ما يقارب ١٧،٢٢٪ من مجمل مساحة لبنان، وعدد سكانه المقيمين سنة ٢٠٠٤ نحو ١٥٧٠٤٩ نسمة، أي نحو ٥٪ من مجمل سكان لبنان، وهو ثالث أقل الأضية كثافة للسكان في لبنان بعد قضاءي راشيا وجزين، البالغة نحو ٦٨ نسمة في الكيلومتر المربع الواحد^(٣).

إن أكثر ما أثار الاهتمام بهذا النوع من الدراسات هو افتقار منطقة شرق قضاء بعلبك للدراسات السكانية، ولا سيما الهجرات عبر سلسلة لبنان الشرقية من الأراضي السورية باتجاهها وتفسير

(٢) يقع قضاء بعلبك شمال شرق الجمهورية اللبنانية.

(١) أستاذ مساعد في الجامعة اللبنانية.

(٣) فاعور، علي. أطلس لبنان. دار المؤسسة الجغرافية. الطبعة الأولى. بيروت ٢٠٠٧. ص: ١٢٥.

١ - الجغرافيا الطبيعية للجزء الشمالي من سلسلة جبال لبنان الشرقية

تمتد سلسلة جبال لبنان الشرقية من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي من الجمهورية اللبنانية، لمسافة تقارب ١٧٠ كيلومتراً، ويتراوح عرضها بين ١٥٠ كلم شمالاً، و٤٠ كلم جنوباً. وهي شديدة الانحدار باتجاه الغرب، وتنحدر ببطء نحو الشرق. كما أنّ خط تقسيم مياه الأمطار بين السفحين الشرقي والغربي يرسم معظم الحدود السياسية الشرقية بين الجمهوريتين اللبنانية والعربية السورية. بخلاف السلسلة الغربية تتسم السلسلة الشرقية بارتفاعها جنوباً، حيث يصل ارتفاع جبل حرمون (جبل الشيخ) نحو ٢٨١٤ متراً فوق سطح البحر، وانخفاضها شمالاً، لتبلغ نحو ٢٦٢٩ متراً عند قمة طلعة موسى، في جبل زمراني^(١).

أما ما يهم الدراسة هو الجزء الشمالي من هذه السلسلة، أي المناطق المشرفة على قضاء بعلبك. وهي تتسم بسلسلة مرتفعات ممتدة من الشمال الشرقي باتجاه الجنوب الغربي على الشكل التالي: جبل حورتا - رأس بعلبك الشرقي، ضهور الخنزير، رأس شعبة المغارة في أعالي جرود بلدة

عرسال^(٢)، بركة الفختة أعلى قمم شمال السلسلة الشرقية التي ترتفع نحو ٢٣٧٢ متراً فوق سطح البحر، وأرض الحمرة التي يصل ارتفاعها إلى ٢٣٠٠ م، وهما في أعالي جرود بلدة يونين، وجبل نحلة (نحو ٢٠٠٠ م)^(٣)، إضافة إلى جبلي رام الكيش، ورام المرجوحة (ارتفاعه ٢٢٥٠ م)^(٤)، اللذان يفصلان بين بلدي طفيل ومزرعة عين الجوزة شرقاً، وبلدات النبي سباط، حام، ومعربون غرباً.

أما بالنسبة إلى الأودية السيلية التي تنتشر بين المرتفعات المذكورة أعلاه، فتكمن أهميتها أنها شكلت ممرات طبيعية عبر الأزمنة الماضية، تمكنت من خلالها المجموعات السكانية الوافدة من منطقة القلمون السورية من سلوكها، والاستقرار فيها لفترات محددة، قبل أن تستكمل نزولها إلى البلدات الواقعة على السفوح الغربية للسلسلة الشرقية لجهة قضاء بعلبك في لبنان. وما يدعم هذه الفرضية الخرائط المتخصصة، والتي يستنتج بعد قراءة إحداها^(٥)، أن هناك شبه تطابق بين تلك الأودية السيلية، والممرات الترابية عبر السفوح الغربية للسلسلة الشرقية، والتي

(١) نفس المرجع. ص: ١٢.

(٢) خريطة لبنان الطوبوغرافية. إصدار مديرية الشؤون الجغرافية في الجيش اللبناني.

(٣) أبو العينين. حسن سيد أحمد. لبنان، دراسة في الجغرافيا الطبيعية. دار النهضة العربية. بيروت ١٩٨٠. ص: ٤٠٩.

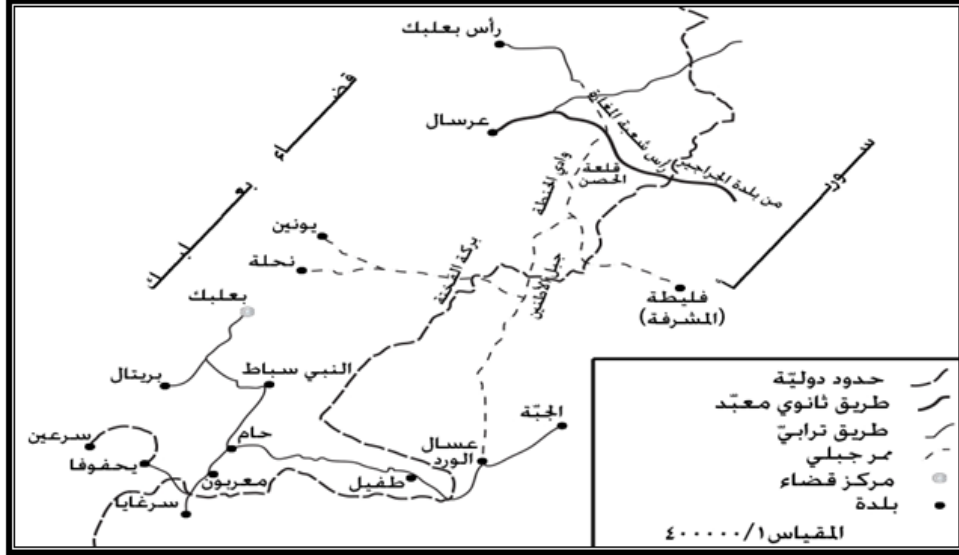
(٤) خريطة لبنان الطوبوغرافية. المرجع السابق. (٥) خريطة لبنان. إصدار جيوبروجيكتس. بيروت.

من جهة ثانية، أظهرت الخرائط المتخصصة أن الطرق الضيقة المعبدة تمر عبر تلك الأودية، وهي طريق عرسال - جراجير المصنف ثانوياً، ويمر بين جبل رأس شعبة المغارة شمالاً، وقلعة الحصن جنوباً. طريق عرسال - قارة، الذي يمر عبر قلد الثعلب، والمصنف ثانوياً أيضاً، وطريق عرسال - فليطة الترابي، إضافة إلى عدد من الممرات الأخرى، التي تتماهى إلى حد كبير مع الأودية السيلية على السفوح الغربية للسلسلة الشرقية (الشكل - ١).

تستكملها الأودية المقابلة على السفوح الشرقية السورية.

أبرز تلك الأودية من الشمال إلى الجنوب: وادي الحنطة^(١)، الذي تتبع روافده من بركة الفخنة وتتجه شمالاً حتى مرتفعات ضهور الخنزير ليستقبل بعض الروافد، ثم ينثني غرباً ليمر ببلدة رأس بعلبك ومنها تنساب مياهه ورواسبه الفيضية فوق أرضية سهل البقاع^(٢)، ويفترض أن الوافدين من قرى القلمون السورية، وتحديداً من فليطة (المشرفة)^(٣) إلى رأس بعلبك قد مروا عبر هذا الوادي.

الخريطة - ١ خريطة طرق الهجرات عبر شمال سلسلة جبال لبنان الشرقية.



(١) تسمية الوادي تدل على استخدامه لنقل الحنطة من سوريا إلى البلدات الجردية في السفوح الغربية.

(٢) أبو العينين. المرجع السابق. ص: ٤٠٧ - ٤٠٨.

(٣) هو إسم آخر لبلدة فليطة، مذكور في خريطة لبنان - جيولوجيكنس، و Damascus and Map of Damascus countryside. Scale 1:500 000. Ministry of Tourism, Syrian Arab Republic.

طريقه عبر منطقة ضعف جيولوجية أدت إلى تشكل ممر جبلي من يحفوا إلى كل من رياق غرباً، وسرغايا في سوريا شرقاً، وعند قراءة الخرائط السالفة الذكر يتضح أن هذا الممر الطبيعي هو نفسه الذي يسلكه خط سكة الحديد رياق - يحفوا - سرغايا. وتجدر الإشارة إلى أن الطرق التي تربط كل من بلدة طفيل اللبنانية ببلدة عسال الورد السورية، وبلدة حام اللبنانية، وكذلك طريق سرغايا - معربون - حام - النبي سباط تتماشى بنسبة كبيرة مع الأودية السيلية.

٢ - الأصول الجغرافية لسكان السفوح الغربية في الجزء الشمالي من السلسلة الشرقية

يركز هذا المبحث من الدراسة على تحديد الأصول الجغرافية للسكان في عدد من البلدات الواقعة على السفوح الغربية للسلسلة الشرقية، والذي اعتمد على المنهج التاريخي لمعالجته، والتوصل إلى تحديد البلدات الطاردة للسكان في السفوح الشرقية.

أ - مدينة بعلبك والقرى والبلدات المجاورة.

دلت الآثار العمرانية، والجلالي

إلى الجنوب من وادي الحنطة، يوجد عدد من الأودية السيلية الأخرى، التي تنبع روافدها من بركة الفخته وأرض الحمرا أيضاً، وهي وادي الفاكهة الذي يمتد ليصل عند بلدة الفاكهة، إضافة إلى وادي البورا، ووادي مار عبود جنوب بلدة يونين^(١)، ويفترض أن تلك الأودية شكلت ممراً للوافدين إلى بلدات الفاكهة، نحلة ويونين من الأراضي السورية، في المقلب الشرقي. ويستنتج من التسمية أن الهجرات المسيحية اتخذت من تلك الأودية ممراً باتجاه بلدة الفاكهة. وكذلك فإن الأودية السيلية المنسابة باتجاه بلدة نحلة، جنوب يونين استخدمت لعبور مرتفعات السلسلة الشرقية من الداخل السوري باتجاه البلدة، وبصورة خاصة من بلدة عسال الورد، عبر وادي الأطنين، الذي ينحدر من مرتفعات السلسلة الشرقية نزولاً إلى عسال الورد إلى الجنوب من مدينة بعلبك يمتد وادي شميس أبو الجبل (هو نفسه وادي جريان حسب خريطة مديرية الشؤون الجغرافية)، الذي ينبع مجراه من جبل نحلة ويصب عند بلدة الطيبة. وكذلك يمتد وادي سباط (وادي الزيتون حسب خريطة جيوبروجيكتس) من منابعه في جبل الشعيبية إلى مصبه قرب بلدة حور تعلا. ووادي يحفوا، الذي يشق

(١) أبو العينين. نفس المكان.

خراباً، ثم نزحوا إلى بلدة بريताल، مع معظم العائلات الحالية لتلك البلدة.

أما إلى الجنوب من هذا النطاق هناك أراضي الشعرة، ويملكها سكان بلدة يحفوفة، إضافة إلى طبشار، الواقعة إلى الشرق من بلدة النبي شيت، والتي كانت مأهولة بالسكان من العائلات الأرثوذكسية، ومنها آل سابا، التي يرجح وفودها من المقلب الشرقي من السلسلة الشرقية، لكنها غادرت البلدة، في القرن السابع عشر، على خلفية النزاع مع الحرافشة، حكام بعلبك آنذاك، متجهين نحو جبل لبنان^(٣)، وتحديداً إلى بلدة بسكنتا في المتن الشمالي، حيث بات آل سابا يعرفون بالطبشراني، نسبة لبلدة طبشار^(٤). وبالتالي فإن تلك البقايا والآثار السكنية والزراعية الأخرى، تدل على سكن تلك المناطق في حقبات سابقة.

من خلال المعطيات، المذكورة آنفاً، يستنتج أن تلك الخرب، الواقعة في السفوح الغربية للسلسلة الشرقية في لبنان، إضافة إلى بعض البلدات الواقعة في السفوح الشرقية للسلسلة الشرقية، التي باتت داخل أراضي الجمهورية العربية السورية، بعد

المحضرة بعناية للعمل الزراعي في جرود السلسلة الشرقية، إلى الشرق من مدينة بعلبك، وقراها الجنوبية، أنها قد كانت مناطق سكنية مهجورة منذ زمن غير بعيد، أبرزها بقدان أو مقدانة، حسب اللفظ العامي، عين البنية، وهي تتبع بلدة بريताल ويملكها آل اسماعيل، خرب الحديد، وهي على مقربة من بقدانة، وقد كانت من القرى المأهولة بالسكان. وكذلك الأمر بالنسبة إلى الشعبية، التابعة لقرية النبي سباط، ويملكها آل طليس، إضافة إلى بيادر الشدورة، التي تفصل بين جرد بريताल وجرود بعلبك، وتملكها عائلات بريताल ولا سيما آل المظلوم وآل حسن، فضلاً عن عين ساعة، وتقع إلى الشرق من بيادر الشدورة^(١).

يستنتج مما تقدم أن سكان بلدة بريताल، المالكين لتلك القرى المهجورة، كانوا قد قدموا منها في حقبة زمنية غير بعيدة ليؤسسوا بلدتهم الحالية، وما يعزز هذه الفرضية، تأكيد آل حمادة أن آل أبو اسماعيل في بريताल قدموا من الجرد الشرقي أيضاً^(٢)، واستقروا في بلدة بقدانة في جرد السلسلة الشرقية، التي باتت

(١) ملكية عائلات بريताल لتلك الأراضي من المعلومات الشائعة، إضافة إلى التأكد منها من خلال مقابلة أجريت مع زكي المظلوم، أحد سكان بلدة بريताल، الذي يملك خبرة واسعة بملكية الأراضي في النطاق المذكور آنفاً.

(٢) حمادة، سعدون. تاريخ الشيعة في لبنان. المجلد الأول. ص: ٢٤٦.

(٣) كان جبل لبنان ينعم بما يشبه الحكم الذاتي ضمن حدود السلطنة العثمانية.

(٤) History of Baskinta and its families - Bishop Boutros Hobeika. Printed in Baskinta, Lebanon. 1946.

تأسيس دولة لبنان الكبير سنة ١٩٢٠م، هي المصدر الرئيسي للهجرات الجماعية والمتفرقة، التي كانت أساساً لنشوء قرى وبلدات جديدة في الجزء الشرقي من قضاء بعلبك، أو حتى امتلاء أخرى بسكان جد مختلفين ثقافياً، ودينياً عن السكان الموجودين سابقاً، كما هو الحال بالنسبة إلى مدينة بعلبك.

من جنوب شرق المدينة، حيث تقع البلدات والقرى السالفة الذكر عند أطراف مدينة بعلبك. وهكذا فإن السكان القادمون إلى مدينة بعلبك من الأطراف الجردية الشرقية والجنوبية الشرقية هم من همدان، وبالتالي هم الذين يعينهم بن واضح اليعقوبي يقوم من اليمن.

في السياق ذاته، ومن باب المزيد من التأكيد على أصول السكان، فقد بينت الدراسات السابقة أن أسرتي الحرفوش والعوطة، كانتا عائلتين من مرتبة المقدمين في بلدة الجبة، الواقعة على السفوح الشرقية للسلسلة الشرقية ضمن الأراضي السورية، وأنهما من جباة الضرائب والمكوس إن في المدينة أو في أطرافها.

كما بينت الدراسات السابقة أن أصول هاتين الأسرتين تعود لبلدتي عسال الورد والجبة السوريتين، الواقعتين على السفوح الشرقية للسلسلة الشرقية، وما يؤكد ذلك، وهو مصدر وحيد، ابن طوق الدمشقي، في يومياته^(٣) التي دونها في أواخر القرن الخامس عشر مطلع القرن السادس عشر

إن ما يؤكد صحة هذه الفرضيات ما كتبه أحمد بن أبي يعقوب بن واضح في إحدى أسفاره إلى مدينة بعلبك في القرن الثالث الهجري، التاسع الميلادي، حيث وصفها بأنها مأهولة بالفرس، وأطرافها مسكونة بقوم من اليمن^(١). وفي السياق نفسه يجزم المهاجر^(٢)، أن أصول سكان النطاق الشرقي لقضاء بعلبك يعود إلى حد كبير لهجرة آل الحرفوش إلى مدينة بعلبك ومحيطها، وينسبهم جميعاً، أي آل الحرفوش والعائلات القادمة معهم، لقبيلة همدان اليمنية، مستنداً إلى إثباتات عدة، منها باب همدان، أحد أبواب مدينة بعلبك قديماً، وتسمية هذا الباب بقيت معتمدة حتى القرن الثامن عشر، وهو يستقبل القادمين

(١) بن واضح، أحمد بن أبي يعقوب (المعروف باليعقوبي) - البلدان - الطبعة الثالثة - منشورات المطبعة الحيدرية - النجف (العراق) ١٣٧٧ هـ ١٩٥٧ م - ص: ٨٣.

(٢) المهاجر، جعفر. شيعة لبنان المنطلق الحقيقي لتاريخه. ط: ١ دار بهاء الدين العاملي للنشر والتوزيع. بعلبك ٢٠١٣.

(٣) بن طوق، شهاب الدين أحمد. التعليق، يوميات شهاب الدين أحمد بن طوق، مذكرات كتبت بدمشق في أواخر العهد المملوكي ١٤٨٠ - ١٥٠٢ م، الجزء الأول ١٤٨٠ - ١٤٨٥. تحقيق الشيخ جعفر المهاجر. المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق. دمشق ٢٠٠٠. ص: ٥٥٥.

الميلاديين، وهي كما يلي: «وعزل الخازندار ابن علوطة وولى ابن الحرفوش وتنازلا بجبة عسال بجمع كثير، خيل ورجال نحو الألف نفس وأقام ابن الحرفوش على معلولا ثلاثة أيام. وقد خربت البلاد، والله الأمر». هذا ما يقود إلى فرضية هجرة عائلات بأسرها مع العائلتين المقدمتين، وهما الحرفوش والعوطة، إذ يكفي أن يصف ابن طوق الدمشقي أن صراع العائلتين جر نحو ألف نفس للقتال، وأن هذا النزاع، الأشبه بالحرب، قد أنزل خراباً شمل البلاد بأسرها، ليستنتج أنهما لم يهاجرا من عسال الورد والجبة بمفردهما بل واكبتهما عائلات من حزبيتهما، وهو ما يعزز فرضية، أن تلك العائلات استوطنت البلدات والقرى في جرود السلسلة الشرقية المذكورة سالفاً.

وفي السياق ذاته يشير المهاجر^(١) أن آل الحرفوش، مع المجموعات السكانية الأخرى، وهم على الأرجح أسلاف العائلات، التي لا تزال في مدينة بعلبك والقرى المجاورة لها إلى يومنا هذا، كانوا قد سلكوا الدروب الجرديّة الملتوية، عبر السلسلة الشرقية، من عسال الورد باتجاه بلدة سرعين على السفوح الغربية للسلسلة

نفسها. كما يفترض أن عائلة علوطة، هي اليوم عائلة العوطة التي تسكن بلدة عمشكي، وهي تلة فوق مدينة بعلبك، والتي يرجح المهاجر أنهم استقروا فيها بعد هجرتهم لبلدتي عسال الورد والجبة.

ومن بعد ذلك نزل الحرافشة من سرعين إلى مدينة بعلبك، التي جعلوا منها قاعدة لإمارتهم، ورافقتهم العديد من العائلات الشيعية، التي هاجرت من السفوح الشرقية للسلسلة الشرقية، والتي سيتم الاكتفاء بأبرزها، وهي ياغي، الوافدين من بلدة طفيل إلى بلدة يونين، ومنها إلى مدينة بعلبك، وكذلك الأمر بالنسبة إلى عائلات عباس، حسن، وطالب، إضافة إلى كل من العريبي، الوافدين إلى المدينة من بلدة معربون الجرديّة، ويبدو أن اسم العائلة منسوب إلى البلدة، التي قدموا منها، وكذلك طفيلي^(٢)، الذين وفدوا من طفيل إلى مدينة بعلبك، وحوش الرافقة القريبة منها، وفي السياق نفسه يؤكد عدد من المسنين في مدينة بعلبك، أن آل رعد أيضاً من العائلات الوافدة من منطقة القلمون، إضافة إلى آل سرور الوافدين من عسال الورد^(٣)، وبالتالي يفترض أنهما من ضمن العائلات التي واكبت الحرافشة.

(١) المهاجر. المرجع السابق. ص: ٨٣.

(٢) حمادة، سعدون. الثورة الشيعية في لبنان ١٦٨٥ - ١٧١٠. دار النهار. ط: الأولى. بيروت ٢٠١٢. ص: ١٠٠.

(٣) يتواجد آل سرور في مدينة بعلبك، وبلدة اللبوة، إضافة إلى بلدة الهرمل.

إليها من بلدة يحفوفوا الجرديّة. ويرجح قدوم العائلات المذكورة آنفاً إلى البلديتين المذكورتين من السفوح الشرقيّة السوريّة في مراحل أقدم.

من جهة أخرى، تجدر الإشارة إلى أن تبدل هوية السكان المذهبية والدينية يشير بدوره إلى صحة فرضية الهجرة من ما وراء سلسلة جبال لبنان الشرقيّة إلى غربيها، وفي هذا المجال تعتبر بلدة معربون الجرديّة، مصدر نزوح بعض العائلات الشيعية إلى القرى والبلدات السهلية في قضاء بعلبك، وأبرزهم آل العريبي، إذ كانت حينها بلدة شيعية^(٤) كباقي بلدات الجرد الشرقي، التي ذكرت سابقاً. أما حالياً فإن سكان بلدة معربون من المسلمين السنة، ومن الأرجح أنهم قدموا من الجوار السوري، حيث تتشابه لهجتهم كثيراً مع لهجة سكان بلدة سرغايا السوريّة المقابلة.

كما أن بلدة طفيل التي تنسب إليها العديد من العائلات الشيعية كالطفيلي، على سبيل المثال لا الحصر، كانت قد شهدت تغيرات ديموغرافية مع نزوح العائلات الشيعية عنها، حيث حلت مكانهم عائلات

وتجدر الإشارة إلى تقاطع هذه الاستنتاجات، مع ما توصل إليه الباحث سعدون حمادة، الذي يعتبر أن هجرة العائلات الشيعية من الجرد الشرقيّة لبعلبك إلى المدينة يرتبط بتولي آل الحرفوش حكم البقاع^(١).

أما بالنسبة إلى العائلات السنية، فقد بينت الدراسة أن معظمها قدم من السفوح الشرقيّة لسلسلة جبال لبنان الشرقيّة كذلك، منها من قدم من الزبداني في سوريا كآل الرفاعي، الشمالي، وخزعل، ومنهم من قدم من جبة عسال كآل الجبي^(٢)، إضافة إلى الوافدين من قرى حمص كآل بيان، والخرفان^(٣). كما يرجح أن آل الشوم، هم فرع من العائلة الأساس الموجودة في طفيل، في الجرد الشرقي، وجذورها من بلدة عسال الورد في القلمون، وكذلك آل غورلي ذوي الأصول التركمانية، قد قدموا من منطقة القلمون السوريّة.

إلى الشمال الشرقي من مدينة بعلبك، استقبلت بلدة يونين، عائلتي درة، والأطرش. كما استقبلت بلدة نحلة عائلة يحفوفي، وقيس، المتفرعة منها، وقد قدموا

(١) حمادة، نفس المكان.

(٢) يفترض أن اسم العائلة منسوب إلى بلدة جبة عسال في سوريا.

(٣) يرجح وفودها إلى مدينة بعلبك نزولاً من الجرد الشرقي شأن العائلات الأخرى القادمة من بلدات القلمون.

(٤) خليفة، عصام. نواحي لبنان في القرن السادس عشر، التقسيمات الإدارية - الديموغرافيا - الأديان والمذاهب (أطلس تاريخي). بيروت ٢٠٠٤. ص: ١٢٥.

الحالي، وما يرجح ذلك هو إجماع كبار السن من أبناء هذه العائلة الذين عاصروا أجدادهم، وقد أكدوا أن خربة وادي الرعيان، وهي عبارة عن آثار وأطلال بلدة مهجورة قابعة في جرود بلدة عرسال، كانت موطن أجدادهم. وكما ورد في المبحث الأول، فإن جرود عرسال تشمل الممرات والطرق المؤدية إلى سوريا من البلدة، وبالمقابل فإن الوجهة الوحيدة للوافدين من سوريا عبر تلك الطرق هي جرود عرسال، وهو ما يرجح فرضية هجرة أبناء هذه العائلة من الأراضي السورية باتجاه جرد عرسال لتأمين الماء والكأ لقطعانهم في فصل الصيف، ومن المرجح أيضاً أن هذه الهجرة الموسمية تحولت إلى دائمة مع توفر مأوى للرعيان والقطعان في فصل الشتاء، فأنشأوا قرية وادي الرعيان التي هجروها لاحقاً متجهين إلى بلدة عرسال الأكثر دفئاً نسبياً من جرودها، وهكذا باتت البلدة خربة بعد أن هجرها سكانها، ذوي النشاط الرعوي، فحملت اسم خربة وادي الرعيان.

أما بالنسبة إلى الأصول الجغرافية لآل الحجيري فهي غير واضحة، وتحتل افتراضات عدة، ولذلك استبعد الخوض في هذا المضمار، مع الاكتفاء بتحديد مكان إقامتهم الأخيرة قبل قدومهم إلى البلدة، وإن كانت أقرب الفرضيات للواقع هي قدومهم من منطقة القلمون السورية.

سنية من عسال الورد في سوريا، وما يدعم هذه الفرضية هو اللهجة العسالية، التي يتحدث بها سكان طفيل الحاليين من ناحية، وتشابه أسماء العائلات، كآل الشوم، وهي أكبر عائلة في بلدة الطفيل من ناحية ثانية، إضافة إلى أن أبناء هذه العائلة تربطهم أواصر القرابة مع آل الشوم في عسال الورد.

وبالتالي فإن الأصول الجغرافية للسكان في هذا النطاق من قضاء بعلبك يعود إلى سوريا، كما هو حال سكان رأس بعلبك، الفاكهة - الجديدة، عرسال، وبعض سكان العين.

ب - الهجرة باتجاه عرسال

بعد الإطلاع على مصادر ومراجع متنوعة، إضافة إلى المقابلات التي أجريت مع عدد من أبناء بلدة عرسال، اتضح أن الأصول الجغرافية للأكثرية الساحقة من سكان بلدة عرسال، تعود للبلدات السورية في المقلب الشرقي للسلسلة الشرقية.

بداية بلدة عرسال، وقد تمت دراسة عائلاتها الأكبر عدداً، وهي الحجيري، الفليطي، وعز الدين، فتبين أن أصول هذه العائلات التي تمثل أكثر من ثلاثة أرباع سكان البلدة هي سورية. وفي السياق نفسه تبين أن أجداد أبناء كبرى عائلات عرسال، آل الحجيري قد قدموا من سوريا، خلال فترة متأخرة من قيام البلدة في موقعها

بناءً على ما تقدم، فإنه من المرجح أن تكون العائلات العرسالية قد سلكت الممرات الجبلية الجردية التي تربط منطقة القلمون السورية ببلدة عرسال، وما الخرائب^(٤)، في جردو البلدة، إلا دليل لتعزيز تلك الفرضية.

ج - الهجرة باتجاه بلدة الفاكهة

تتميز بلدة الفاكهة بتنوعها الطائفي، وارتكازها على مكونين أساسيين، إسلامي سني، ومسيحي كاثوليكي. وقد بينت الدراسة وفودهما في فترات زمنية متباينة، ولأسباب مختلفة إلى البلدة ضمن موجات من الهجرة السورية عبر السلسلة الشرقية.

فالمكون الأول، يتمثل بالعائلات التي قدمت إلى بلدة الفاكهة - الجديدة من بلدة سرغايا السورية كما هو حال عائلات مسلماني، كبار، غنام^(٥)، والعيط، وبلدة سكرة، في محافظة حماة، التي قدم منها آل سكرية^(٦). والمكون الثاني، الذي قدم إلى البلدة ضمن هجرات جماعية أيضاً، شملت

وكذلك فإن الهجرات من الأراضي السورية باتجاه بلدة عرسال قد شملت عائلات أخرى أبرزها آل الفليطي، نسبة لبلدة فليطا في منطقة القلمون السورية^(١)، وحلت الكنية مكان اسم العائلة الحقيقي^(٢).

كما أن آل عزالدين، قد قدموا من منطقة مهين في ريف محافظة حمص، ولا يزال الفرع الآخر للعائلة يقيم في تلك البلدة، ويعمل أبناء هذه العائلة بمعظمهم في رعي الأغنام^(٣). يستنتج مما تقدم أن أسباب هجرة عائلتي الفليطي وعزالدين هو الحاجة لتأمين الماء والكلاً المتوفرين في بلدة عرسال وجرودها.

ويبقى أن نضيف إلى العائلات ذات الأصول السورية في عرسال، وهما عائلتي الجباوي، الذين تكنوا باسم البلدة التي قدموا منها، وهي بلدة الجبة في منطقة القلمون السورية، بالإضافة إلى عائلة عودة، الذين قدموا من بلدة فليطة أيضاً (أنظر الشكل - ٢).

(١) بعلبكي، أحمد. تحولات النظام الرعي - الزراعي في بلدة عرسال. بحث منشور في مجلة العلوم الاجتماعية. العدد الرابع، تشرين الأول ١٩٩٧. ص: ٧٨.

(٢) يجمع المسنون أن آل الفليطي يتحدرون من آل الخطيب في بلدة فليطة السورية، التي لا زالوا يقيمون فيها إلى يومنا هذا، وهم من العائلات الأساسية في البلدة.

(٣) نفس المرجع.

(٤) القرى المهجورة.

(٥) تدل أسماء العائلات غالباً على مصادر قدومها، أو على الحرفة التي كان يتعاطاها أجدادها، وبما أن رعاة المناطق شبه الجافة غالباً يربون الأغنام فإن آل غنام تسمية تنطبق على العائلات الرعية التي وفدت من سوريا، ولا سيما أن الرعاة يتدفقون موسمياً من الأراضي السورية باتجاه البقاع اللبناني وليس العكس، وهذه الظاهرة ما زالت قائمة إلى يومنا هذا.

(٦) المعلوف، عيسى اسكندر. تاريخ الأسر الشرقية. دار رياض الريس. ص: ٤٩١.

كل من آل الكلاس، وآل عون، من بلدة جراجير^(١)، إضافة إلى كل من آل الحداد، آل القسيس، وآل رزق، فضلاً عن آل مراد وآل المعلم من بلدة يبرود السورية. وكذلك قدم آل فرج إلى البلدة من بلدة قارة السورية^(٢).

د - الهجرة باتجاه رأس بعلبك

بينت الدراسة الميدانية أن بلدة رأس بعلبك قد شهدت موجات من الهجرة، من شرق السلسلة الشرقية، وهكذا جازت تسميتها بمحطة عبور من الداخل السوري، والمقصود بشكل أساسي، القرى والبلدات المسيحية في منطقة القلمون، إلى لبنان ولا سيما مدينة زحلة، المدينة الوحيدة ذات الأكثرية الكاثوليكية في لبنان، والتي سمي أحد أحيائها الرئيسية بحي الراسية، نسبة للمهاجرين من بلدة رأس بعلبك.

إن ما يؤكد هذا الواقع السكاني هو تعدد العائلات من جهة، ومغادرة عائلات أخرى كلياً للبلدة. أما بالنسبة إلى الأصول الجغرافية للعائلات الأساسية الحالية في رأس بعلبك، هي روفایل (والتي تشكل خمس سكان البلدة، حسب المعلوف)، أبو مراد، عاصي، فرنسيس، عجوب، وزلزل وهم قدموا إلى البلدة من درعا^(٣)، جنوب

سوريا، لكن من المرجح أنهم قدموا عبر السلسلة الشرقية، شأن الأسر الأخرى التي هاجرت إلى البلدة، لأن قرى وبلدات القلمون المسيحية كانت تشكل ملاذاً آمناً للمسيحيين عموماً، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، إن لم يعبروا السلسلة الشرقية للوصول إلى رأس بعلبك، لكانوا قدموا من درعا مروراً بسهل البقاع، واستقروا مباشرة في زحلة، لأن وجهة العائلات الكاثوليكية كانت مدينة زحلة، وليست رأس بعلبك. وهذا ما ينطبق كذلك على عائلة عطا، التي قدم أجدادها من حوران، وهي التسمية التاريخية وغير الرسمية لمحافظة درعا حالياً.

أما بالنسبة إلى العائلات التي كانت بالأصل مقيمة في القلمون، فهي عائلة العرجا التي قدمت من يبرود، ولا تزال في تلك البلدة عائلة الخوري، التي تتفرع منها الأولى^(٤). وكذلك فإن العائلات التي تم التوصل إلى تحديد مصادرها، هي خلف، القادمون من بلدة النبك، التي لا تزال فيها فروع من العائلة نفسها. إضافة إلى آل منصور، الذين هاجروا من بلدة كرادو، وهي خربة، في محافظة حمص.

إضافة إلى ما تقدم فقد تبين أن باقي

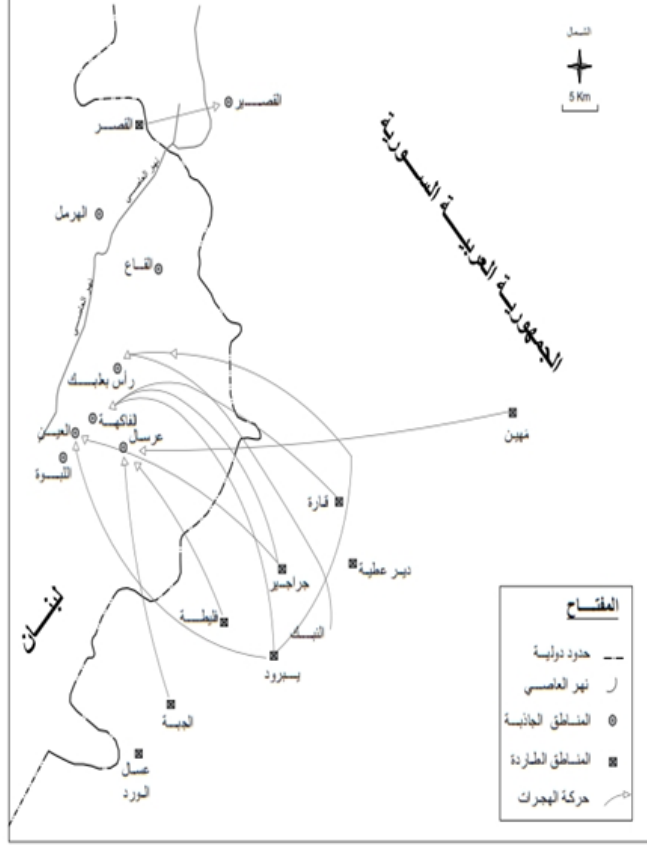
(٢) نفس المرجع . ص : ٤٩١ .

(٤) نفس المرجع - ص : ٥٥٩ .

(١) نفس المرجع . ص : ٥٩٦ .

(٣) المعلوف - ص : ٤٨٦ .

الشكل - ٢: خريطة الهجرات السكانية من سوريا إلى شرق قضاء بعلبك. فرضية مفادها، أن الهجرة إلى رأس بعلبك مصدرها البلدات السورية على السفوح الشرقية للسلسلة الشرقية، فلا بد من الأخذ بالحسبان اللهجة المتشابهة بين سكان البلدات الكاثوليكية من جهة، ولهجة البلدات المسيحية في السفوح الشرقية في الأراضي السورية، والتي لا يزال قسم من سكانها يتكلمون اللغة الآرامية، كصيدنايا ومعلولا، إضافة إلى القرى والبلدات المجاورة لهما، المتأثرة بتلك اللهجة، لإثبات صحة هذه الفرضية. كما أن سكان بلدة عرسال يتكلمون العربية بلهجة شبيهة باللهجات المذكورة سالفاً، وهو ما يحسم مصدر هجرات هذه المجموعات من سكان السفوح الغربية للسلسلة الشرقية المطلة على سهول بعلبك الهرمل.



وتجدر الإشارة إلى أن التشابه بين لهجتي عرسال ورأس بعلبك من جهة، ولهجة بعض بلدات القلمون من جهة ثانية، يطرح فرضية حدائثة وفود سكان هاتين

عائلات رأس بعلبك، والتي لم يشار إليها بالاسم، قد هاجرت جميعها من الأراضي السورية وعن طريق السلسلة الشرقية باتجاه الراس، لكن لم يتم التوصل إلى تحديد البلدات أو المدن السورية التي قدموا منها، أو التي جعلوا منها محطة لهم، قبل قدومهم إلى رأس بعلبك.

إن كانت المعطيات الواردة في هذا المبحث من الدراسة قد عملت على تبرير

البلدتين وبقاء المؤثر الآرامي - السرياني بشكل أكبر من المجموعات السكانية التي وفدت قبلهم.

وكما هو شائع أن اللغتين الآرامية القديمة، والسريانية المشتقة منها، تتضمنان في كثير من مخارجهما الصوتية الأحرف المضمومة، أي فيها لفظ الضم بشكل واضح وأساسي، على سبيل المثال لا الحصر، فإن أي حرف يليه الألف يلفظ مضموماً. وهي لهجة شبيهة بلهجة سكان محافظة الشمال في لبنان، التي يظهر فيها التأثير السرياني.

٣ - دوافع الهجرة إلى السفوح الغربية لسلسلة جبال لبنان الشرقية

إن الهجرة عبر سلسلة جبال لبنان الشرقية قديمة، ومستمرة إلى أيامنا هذه، في حالات استثنائية، أما موجات الهجرة السكانية الجماعية، والواسعة فلها مسبباتها ودوافعها، ومن خلال الدراسة تبين أن الدوافع الرئيسية لتلك الهجرات يمكن اختصارها بأربعة، طبيعية، اقتصادية، سياسية، وطائفية. هذا إلى جانب بعض الدوافع الأقل أهمية، والتي تنطبق على أسر أو عائلات صغيرة محدودة الانتشار.

أ - الدوافع الطبيعية

إن وفرة الأمطار في مرتفعات السلسلة

الشرقية بمعدلات أعلى نسبياً من سفوحها الشرقية، قد أسهم في انجذاب الرعاة إلى تلك المناطق الغنية بحشائش الرعي، وكذلك فإن معدلات الأمطار وإن كانت متدنية في السفوح الغربية للسلسلة الشرقية، إلا أنها أفضل حالاً من السفوح الشرقية، وهو ما شجع أيضاً على استقرار الوافدين، من رعاة ومزارعين.

من جهة أخرى، فإن السفوح الغربية لسلسلة جبال لبنان الشرقية غنية بالينابيع، وهو ما شجع بدوره على نشوء وقيام البلدات والقرى، في مواضعها الحالية، منذ فترات قديمة. أما أبرز الينابيع، التي بررت قيام تلك البلدات هي: عين رأس بعلبك (بلدة رأس بعلبك)، نبع الفاكهة (بلدة الفاكهة)، عين الشعب (بلدة عرسال)، ينابيع بلدة يونين، نبع اللجوج^(١) في جرد نحلة، ونبع عين الشاغور وهو موسمي (بلدة نحلة)، إضافة إلى عين بورضاي (بلدة عين بورضاي)، وعيون المياه الموسمية التالية: برشميس، الكنيسة، الخرازة، وزيدان (في بلدة الخضر). أما بالنسبة إلى البلدات المرتفعة، فهي غنية أيضاً بالينابيع، وأبرزها نبع الدلبة ونبع يسباط (بلدة النبي سباط)، عين البنية وعين الخضر (عين البنية)، وعيون المياه الآتية: الأندر، الحجر، الزاغ

(١) يسهم في تغذية مدينة بعلبك بالمياه.

السوداء، الصفصافة، الشنان، بشر (بلدة حام وجوارها)، عين السباع (بلدة معربون)، عين الجوزة (قرب بلدة طفيل)، ونبع الغيضة (بلدة يحوفوا)^(١).

كذلك فإن الأودية السيلية، التي تم تناولها في المبحث الأول من هذه الدراسة، قد أدت دوراً مهماً في استقطاب السكان نظراً لما تحمله من فتات صخري ومواد عضوية من أعالي السلسلة الشرقية، وهو ما يسهم في تجديد التربة وزيادة خصوبتها، ومن ثم تنشيط العمل الزراعي.

ب - الدوافع الاقتصادية

تبين من خلال المقابلات مع المسنين من أبناء كل من بلدتي عرسال والفاكهة، أن البنية الاجتماعية - الاقتصادية للسكان الأوائل في البلديتين رعوية - زراعية، ودوافع انتقالهم من السفوح الشرقية إلى السفوح الغربية لسلسلة جبال لبنان الشرقية، هي لأغراض الرعي والزراعة بشكل أساسي، وإن كان هناك بعض الاستثناءات. وفي هذا السياق يستنتج أن حركات السكان تصنف ضمن هجرة الرعاة الموسمية الرأسية في هذا النطاق، أي انتقال

القطعان صيفاً من بلدات القلمون في السفوح الدنيا للسلسلة الشرقية، باتجاه السفوح العليا الرطبة، ولا سيما على المقلب الغربي، حيث تتسع مساحة المراعي، فيقيم الرعاة ويخصصون أماكن للقطعان لقضاء فصل الصيف، قبل العودة مجدداً مع بداية الخريف إلى بلداتهم الأصلية. ويفترض أن «الخرب»^(٢) الموزعة في السفوح العليا للسلسلة الشرقية، كانت في حقبات زمنية سابقة تجمعات رعوية تحتوي على «المراحت»^(٣)، على سبيل المثال لا الحصر، خربة وادي الرعيان، وخربة يونين. كما يفترض أنها كانت مأهولة بشكل دائم قبل نشوء بلدة عرسال، إذ يجمع أبناء البلدة، أن أكبر عائلاتها، الحجيري، كانوا قد وفدوا إليها من خربة وادي الرعيان.

وكذلك الأمر بالنسبة إلى باقي العائلات العرسالية، فهي قد انطلقت من الخرائب الحالية، الموجودة في الأودية السيلية، وادي الرعيان، وادي التون، وادي الحنين، باتجاه الموقع الحالي لبلدة عرسال. ومع استمرار التدفق الرعوي من السفوح الشرقية السورية توسعت المراعي، على

(١) مركز الأبحاث في معهد العلوم الاجتماعية - الجامعة اللبنانية، ومشروع تحسين أحوال معيشة الفقراء في لبنان. الخصائص السكانية والواقع الاقتصادي والاجتماعي، أفضية لبنان، بعلبك (محافظة البقاع). ط: ١. بيروت ٢٠٠١. ص: ١٣٢ - ١٣٣.

(٢) جمع خربة، أي قرية مهجورة.

(٣) مصطلح مأخوذ من العامية، ومصدره «استراحة» الرعيان والقطعان.

امتداد مئة وخمسين سنة، باتجاه البلدات المجاورة، تحديداً مراعي بلدتي رأس بعلبك والقاع^(١)، التي باتت عرسالية. وتجدر الإشارة إلى أن التاريخ الذي حدده أحمد بعلبكي هو على الأرجح تاريخ قدوم العائلات العرسالية الحالية من مواطنها الأصلية.

من جهة ثانية، يبدو أن التزايد السريع للسكان في تلك البلدات قد تبعه زيادة في حجم قطعان الأغنام والماعز تلبية للحاجات المتزايدة أيضاً، ومن ثم ضاقت المساحات المخصصة للرعي في بيئة جافة أساساً، كونها تقع شرقي السلسلة الشرقية، في أعظم ارتفاع لها في جزئها الشمالي. وهكذا بدأت فكرة الاستقرار على السفوح الغربية لتلك السلسلة تأخذ طريقها إلى حيز الواقع، حيث تحولت في ما بعد إلى الاستقرار الدائم، ما أفضى إلى تأسيس بلدة عرسال منذ ما يقارب المئة وخمسين سنة^(٢).

أخيراً، إن حركة الرعاة عبر السلسلة الشرقية لا تزال ناشطة^(٣) حتى أيامنا هذه، حيث ينزح الرعاة السوريين بقطعانهم من السفوح الشرقية إلى السفوح الغربية، منذ

نهاية فصل الربيع حتى نهاية فصل الصيف، وهو موسم إنبات حشائش الرعي في المرتفعات، ليقللوا عائدين إلى السفوح الشرقية لقضاء فصلي الخريف والشتاء في قراهم في منطقة القلمون. وكذلك يفعل بعض العراسلة الذين يتعاطون النشاط الرعوي في جرود السلسلة الشرقية، بل ويضمنون أراضٍ جردية في السلسلة الغربية من ملاكيها لرعي قطعانهم، قطعان بعض العشائر في جرد السلسلة الغربية المقابلة.

ج - الدوافع السياسية

إن معظم سكان مدينة بعلبك^(٤)، وبعض القرى المجاورة لها، الذين وفدوا إليها من الشرق، يعود إلى أسباب أبرزها استتباب السيطرة السياسية لآل الحرفوش، الذين نزلوا من سرعين إلى مدينة بعلبك، وجعلوها قاعدة لإمارتهم، ورافقتهم العديد من العائلات، التي هاجرت من السفوح الشرقية للسلسلة الشرقية، خلال الحقبة العثمانية. ويؤيد هذا الرأي الباحث سعدون حمادة، الذي يعتبر أن هجرة العائلات الشيعية من الجرود الشرقية لبعلبك إلى

(١) بعلبكي، أحمد. التنمية المحلية والقطاعية، سجل في المفاهيم والتجارب اللبنانية. منشورات مركز الأبحاث في معهد العلوم الاجتماعية، الجامعة اللبنانية. بيروت ٢٠٠٠. ص: ١٦١.

(٢) مقابلة مع أحد مختير بلدة عرسال عبدالحميد عزالدين سنة ٢٠١٥.

(٣) تعطل هذا النشاط نسبياً بعد الحرب الأهلية السورية التي المندلعة منذ سنة ٢٠١١.

(٤) تحديداً العائلات الشيعية، من غير الوافدين من الغرب.

المدينة يرتبط بتولي آل الحرفوش حكم البقاع^(١).

ولا بد من الإشارة إلى أن الوجود الشيعي كان محصوراً في البلدات الجردية في السفوح الغربية للسلسلة الشرقية، نظراً للاختلاف المذهبي عن السلطنة العثمانية ومن قبلها المماليك^(٢). وقد أدرج هذا السبب ضمن الدوافع السياسية لأن نزول الحرافشة الشيعية والعائلات التي تدور في فلكهم إلى مدينة بعلبك، والمناطق السهلية المجاورة، كان على ما يبدو نتيجة تسوية سياسية بينهم وبين والي دمشق العثماني، الذي لم يجد بداً من مهادنتهم لضبط الأمور، كتأمين الطريق المؤدية إلى حمص عن طريق بعلبك، إضافة إلى تحصيل الضرائب من المكلفين في بلاد بعلبك آنذاك، وليأمن عدم تعاطفهم مع الدولة الصفوية المتماهية معهم مذهبياً.

من جهة أخرى، كان لقيام متصرفية جبل لبنان سنة ١٨٦١م وعلى رأسها كاثوليكي عثماني الجنسية، بعد سنة من الفتنة الشهيرة، أثراً إيجابياً على المسيحيين عموماً، الأمر الذي شجعهم على الهجرة من سفوح جبال القلمون شرقي للسلسلة

الشرقية إلى المناطق المجاورة للمتصرفية، أي إلى بلدات رأس بعلبك، الفاكهة، القاع، وجبولة التي وإن كانت آنذاك خارج جبل لبنان، إلا أن نفوذ السلطنة في تلك الحقبة كان قد بدأ بالتهايوي لمصلحة الدول الأوروبية، راعية مصالح مسيحيي الشرق آنذاك. ومن ثم أسهمت تلك المستجدات السياسية في منح الأمان بشكل أكبر مما هو متوفر في ولاية سوريا العثمانية حينئذ.

د - الدوافع الطائفية

شهدت بلدتا رأس بعلبك والفاكهة موجات من الهجرات القسرية، المرتبطة بالأسباب الدينية والطائفية، التي تظهر جلياً بالهجرات المسيحية الكاثوليكية من البلدات السورية. وقد شكلت تلك الهجرات المتعاقبة ركيزة للانتشار الكاثوليكي في البقاع الشمالي خصوصاً، ومنطقة بعلبك الهرمل عموماً. لقد حصلت تلك التدفقات السكانية على مراحل متفرقة، ولا سيما على أثر الغزوات التي تعرضت لها تلك الأسر في القرن الثامن عشر، والتي قد حدثت لأسباب طائفية^(٣)، على سبيل المثال، لا الحصر ما ذكر المعلوف عن بلدة جرجير كما يلي: «المسيحيين هجروها، قبل أكثر من قرنين،

(١) حمادة، سعدون. الثورة الشيعية في لبنان ١٦٨٥ - ١٧١٠. دار النهار. ط: الأولى. بيروت ٢٠١٢. ص: ١٠٠.
(٢) إن الاختلاف عن مذهب السلطنة كان سبباً وجيهاً لتوغل السكان في المناطق الجردية البعيدة، التي تحجب عنهم خطر جيوشها.
(٣) المعلوف، عيسى اسكندر. تاريخ الأسر الشرقية. دار رياض الريس. ص: ٥٩٦.

ودرعا، مدناً وأريافاً، وهي تحديداً الداخل السوري الذي ذكره الصليبي، باتجاه رأس بعلبك، الفاكهة - الجديدة، العين، جبولة، والقاع في السفوح الغربية لسلسلة جبال لبنان الشرقية وفي سهل البقاع الشمالي، ووجود الموارد على السفوح الشرقية لسلسلة جبال لبنان الغربية في البقاع الشمالي على الجهة المقابلة^(٢).

من ناحية ثانية، تجدر الإشارة إلى الهجرة المعاكسة التي شهدتها بلدة رأس بعلبك، وغيرها من البلدات ذات التواجد المسيحي، حيث أكد كل من شاكر غضبان وجرجس مشرف^(٣) أن عائلات رأس بعلبك قد هجروا من بلدتهم خلال فتنة ١٨٦٠م على يد الحرافشة، كما أحرقت البلدة بعد ذلك، وبعد انتهاء الفتنة عادت تلك العائلات إلى البلدة لتشكل نواة السكان الحاليين.

٤ - البلدات الناشئة على طريق بعلبك - حمص:

يركز هذا المبحث من الدراسة على السكان الوافدين من البلدات الواقعة على السفوح الغربية للسلسلة الشرقية، والذين أنشأوا بلدات هي: تلك المنبثقة عن الفاكهة، إضافة إلى القاع، والبلدات الحديثة الناشئة.

بعد إغارة العرب عليها ونهبها وقتل أبنائها». وفي هذا السياق تجدر الإشارة إلى ارتباط هجرة الكاثوليك بآماكن وجود الموارد، فحيث يحل الموارد يأمّن الكاثوليك للمكان ويستقرون فيه، حيث يتمتع الموارد بالأعداد الكبيرة، التي تدفقت بموجات هجرة من مناطق تركزم الأول في المناطق الجبلية المرتفعة في بشري، إهدن، البترون، باتجاه جبل لبنان الجنوبي حتى بلغوا أقصى الجنوب اللبناني، وكذلك باتجاه قضاء بعلبك، الذي يشكل فيه الكاثوليك حجماً ديموغرافياً وازناً ويؤكد الصليبي^(١) بدوره أن الكاثوليك هاجروا بأعداد كبيرة، من الداخل السوري تحديداً، باتجاه الأراضي اللبنانية لالتحاق بالموارد، الذين نزلوا بين الشيعة في بعلبك وجبل عامل، ابتداءً من القرن السابع عشر وحتى أواخر القرن الثامن عشر. ويستنتج صحة هذا التحليل من خلال تطابق التواريخ المشار إليها.

وما يهم البحث في هذا المجال، هو الربط بين الهجرة الكاثوليكية، من قرى وبلدات يبرود، الجريجير، دير عطية، النبك، وقارة، إضافة إلى القادمين من حمص

(١) Salibi, Kamal. The Modern History of Lebanon. Weidenfeld and Nicolson. London. Third impression. May 1968. p: 20.

(٢) وهي تحديداً بلدة دير الأحمر والقرى المارونية المجاورة لها.

(٣) غضبان، شاكر ومشرف، جرجس. تاريخ رأس بعلبك: رأس بعلبك عريقة في القدم. www.rasbaalbeckonline.com

أ - البلدات المنبثقة عن الفاكهة

توصلت الدراسة إلى أن تعاظم الضغط الديموغرافي والتنوع الديني في بلدة الفاكهة، خلال الفترات الزمنية التي شهدت الهجرة باتجاهها من الأراضي السورية، قد أدى إلى انبثاق أربع بلدات منها، وهي الجديدة، العين، جبولة، والمعلقة^(١).

بداية، بلدة الجديدة، وهي تابعة إدارياً إلى بلدة الفاكهة، تقطنها أكثرية كاثوليكية، من العائلات التي وردت في إطار الحديث عن بلدة الفاكهة. ويطالب سكانها بالاستقلال الإداري عن الفاكهة واستحداث بلدية خاصة بها.

أما بالنسبة إلى بلدة العين، فهي بلدة غنية بالمياه، فيها نبع حمورة، وهو أساسي، ويفترض أنه نواة البلدة، ونبع رأس العين في الأطراف الشمالية للبلدة^(٢)، إضافة إلى بنيتها السهلة المناسبة للزراعة. وهما عاملان رئيسيان للاستقطاب السكاني. وفي السياق نفسه بينت الدراسة أن عائلاتها الإسلامية السنية، والمسيحية الكاثوليكية، قد قدموا إليها من السفوح السورية للسلسلة الشرقية، على الشكل الآتي^(٣): آل حوري، والذين يعرفون أيضاً بالجراجرة، وهو ما يؤكد قدومهم من بلدة

جراجير السورية، أما آل يحيى فيرجع المعلوف مصدر وفودهم إلى العين من حمص، مع عدم تأكده إن كانوا قد وفدوا من مدينة حمص أم من إحدى بلدات المحافظة.

كما أورد المعلوف أن عائلتي المعلم ومراد الموجودتين في بلدتي الفاكهة - الجديدة والعين، تعود جذورهما جميعاً إلى بلدة يبرود السورية. كما يبدو أن ملكية آل مراد للبلدة قد سهل النزوح السكاني من الفاكهة باتجاهها، ولا سيما العائلات المسيحية الكاثوليكية منها والأقلية الأورثوذكسية.

وتبقى جبولة ثالث البلدات المنبثقة عن بلدة الفاكهة، وهي كناية عن ديرين للروم الكاثوليك، الأول مار رومانوس، والثاني دير راهبات سيدة الخدمة الصالحة، ويتبع دير الراهبات مدرسة خاصة شبه مجانية. اقتصر سكان بلدة جبولة منذ بناء الديرين على الرهبان والراهبات. ثم بدأت العائلات الإسلامية الشيعية والسنية، من البلدات المجاورة، ولا سيما بلدة العين، وبنسبة أقل بلدتي الفاكهة واللوبة بالتوافد التدريجي للعمل في أراضي الدير، ومن ثم اكتملت نواة البلدة، وتوسعت دائرة السكن

(٢) مقابلة مع مختار العين.

(١) المعلوف. المرجع السابق. ص: ٤٥١.

(٣) المعلوف. المرجع السابق. ص: ٤٩٠.

والاستقرار فيها حتى باتت تنعم باستقلالية إدارية ومجلس بلدي خاص بها.

تعتبر جبولة بلدة استقطاب سكاني، نظراً لكثرة ينابيع المياه فيها، كما بسبب مرور سواقي مياه نبع اللبوة عبر أراضيها، أبرزها ساقية البجاجة - الدير - جبولة، وساقية تل صبوبا. وكذلك تتميز بمياهها الجوفية القريبة من سطح الأرض، وهو ما جعل المشاريع الزراعية فيها رابحة ومنتجة.

ب - بلدة القاع

وهي بنيت كمحطة للقوافل التجارية العابرة لسهل البقاع من مدينة بعلبك إلى مدينة حمص، واهتم ببنائها الأمير فخر الدين المعني في القرن السابع عشر، بعد عودته من منفاه في توسكانا. أما في التاريخ المعاصر، فقد كانت القاع سنة ١٩١٠ م قرية متواضعة لا يتعدى عدد مساكنها العشرة، ثم أخذت تنمو تباعاً بدءاً من الخمسينات من القرن المنصرم لتصبح بلدة^(١). ولهذا النمو السريع للسكان، الناجم عن الهجرة الوافدة، سببين رئيسيين، الأول موقعها الجغرافي الحدودي، ولا سيما بعد الانفصال الجمركي بين لبنان وسوريا،

وتخصيص مركز للجمارك اللبنانية عند النقطة الحدودية في القاع، ومن ثم نشوء حركة تجارية، وهو ما يكفي للاستقطاب السكاني من البلدات المجاورة. من جهة ثانية، باتت سهول القاع مناطق زراعية بامتياز، لا سيما بعد جر مياه نبع اللبوة إليها، وحفر الآبار الارتوازية فيها. وهو ما أسهم في تأسيس مشاريع القاع الزراعية، التي استقطبت نسبة لا بأس بها من سكان عرسال، كما من العائلات السورية المقيمة بشكل دائم في المشاريع، على الرغم من وقوع البلدة في الزاوية الأكثر جفافاً في لبنان.

يفترض أن سكان البلدة قد وفدوا إليها إما من البلدات المجاورة أو من الأراضي السورية، ويستدل على ذلك من أسماء العائلات المقيمة فيها، على سبيل المثال لا الحصر فرنسيس، نصر الله، الخوري، وبشراوي^(٢) المفترض وفودها من بلدة رأس بعلبك، كذلك فإن عائلتي كلاس، ورزق قد وفدوا إليها من بلدة الفاكهة، وكما هو معلوم فإن الوجود الكاثوليكي في البلدين أقدم من بلدة القاع. أما بالنسبة إلى عائلتي يبرودي والسكاف، يفترض

(١) عاد، يوسف فوج. «القاع في ذكرياتها». مجلة «الجيش». العدد ٢٢٨. حزيران ٢٠٠٤.

(٢) يفترض أنهم من عائلة بشراوي الراسيين، والذين نزحوا إلى رأس بعلبك من بشري، قبل أن يستقر قسم منهم في بلدة القاع.

بسبب موقعها الجغرافي المميز على طريق بعلبك - حمص الدولي، والذي أكسبها أهمية خاصة على الصعيدين التجاري والخدمي. كما أن بنيتها السهلية ووفرة المياه فيها، كعين الفوار، جعلها ملائمة للنشاط الزراعي.

الخاتمة

خلصت الدراسة إلى حقيقة مفادها، أن النسبة الأكبر من سكان مدينة بعلبك وباقي البلدات الواقعة على السفوح الغربية لسلسلة جبال لبنان الشرقية، قد وفدوا إليها من القرى والبلدات الواقعة على السفوح الشرقية لسلسلة جبال لبنان الشرقية، في منطقة القلمون في الجمهورية العربية السورية بشكل أساسي فضلاً عن المحافظات السورية القريبة كحمص وحماة، وبنسبة أقل من محافظة درعا الجنوبية. كما توصلت الدراسة إلى تحديد المعابر والممرات الطبيعية، التي سلكها السكان الوافدون إلى تلك البلدات، وذلك من خلال تتبع اتجاهات الأودية السيلية، المنحدرة من أعالي السلسلة الشرقية باتجاه البلدات والقرى على السفوح الغربية الدنيا، من جهة لبنان، ومثيلاتها من الجهة الشرقية السورية.

وكذلك توصلت الدراسة إلى أن الدوافع المسببة لتلك الهجرات هي طبيعية،

قدومهما من يبرود وقارة على التوالي، والأرجح عبر بلدة رأس بعلبك، التي كما ورد آنفاً كانت محطة للوافدين من الأراضي السورية عبر السلسلة الشرقية.

ج - البلدات الحديثة النشأة

مع توسع الرقعة العمرانية في بلدتي يونين والخضر وامتدادها غرباً نحو طريق بعلبك - حمص الدولي، بدأت تبرز ملامح بلدات جديدة، لها أهمية خاصة في مجالات الزراعة والصناعات الخفيفة، إضافة إلى الخدمات والتجارة، وهما الصوانية والسفري.

الصوانية، وهي بلدة مستجدة، بنيت أول مساكنها سنة ١٩٩٠ م غرب بلدة يونين بالقرب من طريق بعلبك - حمص الدولي، بسبب الضغط الديموغرافي على أراضي البلدة. تتبع الصوانية إدارياً وعقارياً ليونين، وسميت نسبة لآل صوان، الذين أسسوها، وأول من همّ لبنائها. وعلى الرغم من اسمها، إلا أنها بلدة مستقطبة لبعض سكان بلدة يونين.

السفري، وهي بلدة مستجدة، تابعة إدارياً لبلدة الخضر. بنيت إلى الجنوب الغربي من مدينة بعلبك، شكلت نواتها عائلة القاق، النازحة من بلدة الخضر، التي تقع على السفوح الغربية للسلسلة الشرقية، على خلفية النزاعات العائلية في البلدة. وقد باتت بلدة مستقطبة واتسعت رقعة العمران فيها

اقتصادية، سياسية، وطائفية فضلاً عن دوافع أخرى محدودة وأقل أهمية. ويلاحظ أن تعدد أسباب الوفود إلى تلك البلدات والقرى، يرتبط إلى حد كبير بتعدد طوائف سكان المنطقة، إذ بينت الدراسة، أن غالبية الوافدين لأسباب اقتصادية، هي من العائلات السننية، التي أسست بلدتي عرسال، والفاكهة. أما الوافدون لأسباب سياسية، فهي العائلات الشيعية، التي استقرت في مدينة بعلبك، والبلدات والقرى المجاورة، بعد أن نزلت من جرود غرب السلسلة الشرقية، وبعضها قدم من منطقة القلمون. والوافدون لأسباب طائفية، هي العائلات الكاثوليكية التي تشكل أكثرية سكان بلدات رأس بعلبك، القاع، والجديدة، التابعة إدارياً لبلدة الفاكهة.

من جهة ثانية، تتبعت الدراسة الحركات السكانية من البلدات والقرى الجردية باتجاه السهل، وبصورة أدق، طريق بعلبك - القاع - حمص الدولي، وقد تبين أن العاملين الاقتصادي والأمني ساهما بشكل أساسي في حركة نزوح داخلي نتج عنها نشوء بلدات جديدة مستقطبة لمزيد من السكان.

أخيراً، اتضح أن التاريخ أعاد نفسه، ومنذ اندلاع الحرب في سوريا سنة ٢٠١١م، شهدت البلدات والقرى اللبنانية الواقعة على السفوح الغربية للسلسلة الشرقية موجات من المهجرين الوافدين، عبر الممرات الطبيعية، التي سلكها أسلافهم من قبلهم، وأقاموا في تلك البلدات، على سبيل المثال لا الحصر عرسال، التي استضافت على أرضها عشرات الآلاف من المهجرين من بلدات القلمون على السفوح الشرقية للسلسلة الشرقية. وبلدة الفاكهة، التي بلغ عدد اللاجئين فيها سنة ٢٠١٧م نحو ٣٢١٣ لاجئاً سورياً، وقد نحو نصفهم من منطقة القلمون، موزعين على بلدات النبك، الجراجير، قارة، فليطا، السحل، ودير عطية^(١).

من جهة ثانية، تتبعت الدراسة الحركات السكانية من البلدات والقرى الجردية باتجاه السهل، وبصورة أدق، طريق بعلبك - القاع - حمص الدولي، وقد تبين أن العاملين الاقتصادي والأمني ساهما بشكل أساسي في حركة نزوح داخلي نتج عنها نشوء بلدات جديدة مستقطبة لمزيد من السكان.

(١) سكرية، عبدة. اللاجئون السوريون في بلدة الفاكهة (بحث علمي). مجلة المنافذ الثقافية. العدد: ٢١. شتاء ٢٠١٨. ص: ٢٦٥.

المصادر والمراجع العربية

- ١١ - سكرية، عبيدة. اللاجئون السوريون في بلدة الفاكهة (بحث علمي منشور). مجلة المنافذ الثقافية. العدد: ٢١. شتاء ٢٠١٨.
- ١٢ - فاعور، علي. أطلس لبنان. دار المؤسسة الجغرافية. الطبعة الأولى. بيروت ٢٠٠٧.
- ١٣ - خليفة، عصام. نواحي لبنان في القرن السادس عشر، التقسيمات الإدارية - الديموغرافيا - الأديان والمذاهب (أطلس تاريخي). بيروت ٢٠٠٤.
- ١٤ - خريطة لبنان مقياس ١:٢٠٠ ٠٠٠. جيوبروجيكتس. بيروت.
- ١٥ - خريطة لبنان الطوبوغرافية مقياس ١:١٠٠ ٠٠٠. مديرية الشؤون الجغرافية. وزارة الدفاع الوطني. لبنان.

المصادر والمراجع الأجنبية:

- 1 - Map of Damascus and Damascus countryside. Scale 1: 500 000. Ministry of Tourism. Syrian Arab Republic.
- 2 - Salibi, Kamal. A House of many Mansions, the History of Lebanon reconsidered. Published by: University of California Press, Berkley and Los Angelos - California. october 1990.
- 3 - Salibi, Kamal. The Modern History of Lebanon. Weidenfeld and Nicolson. London. Third impression. May 1968.

المجلات:

- عاد، يوسف فرج. «القاع في ذكرياتها». مجلة الجيش. عدد: ٢٢٨. حزيران ٢٠٠٤.

المواقع الالكترونية:

www.rasbaalbeckonline.com

- ١ - أبو العينين، حسن سيد أحمد. لبنان، دراسة في الجغرافيا الطبيعية. دار النهضة العربية. بيروت ١٩٨٠.
- ٢ - بن واضح، أحمد بن أبي يعقوب (المعروف باليعقوبي) - البلدان - الطبعة الثالثة - منشورات المطبعة الحيدرية - النجف (العراق) ١٣٧٧هـ، ١٩٥٧م.
- ٣ - بعلبكي، أحمد. تحولات النظام الرعوي - الزراعي في بلدة عرسال. بحث منشور في مجلة العلوم الاجتماعية. العدد الرابع، تشرين الأول ١٩٩٧.
- ٤ - بعلبكي، أحمد. التنمية المحلية والقطاعية، سجل في المفاهيم والتجارب اللبنانية. منشورات مركز الأبحاث في معهد العلوم الاجتماعية، الجامعة اللبنانية. بيروت ٢٠٠٠.
- ٥ - المهاجر، جعفر. شيعة لبنان المنطلق الحقيقي لتاريخه. ط: ١ دار بهاء الدين العاملي للنشر والتوزيع. بعلبك ٢٠١٣.
- ٦ - بن طوق، شهاب الدين أحمد. التعليق، يوميات شهاب الدين أحمد بن طوق، مذكرات كتبت بدمشق في أواخر العهد المملوكي ١٤٨٠ - ١٥٠٢ م، الجزء الأول ١٤٨٠ - ١٤٨٥. تحقيق الشيخ جعفر المهاجر. المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق. دمشق ٢٠٠٠.
- ٧ - حمادة، سعدون. تاريخ الشيعة في لبنان. المجلد الأول. ط: ٢. دار الخيال.
- ٨ - حمادة، سعدون. الثورة الشيعية في لبنان ١٦٨٥ - ١٧١٠. دار النهار. ط: الأولى. بيروت ٢٠١٢.
- ٩ - المعلوف، عيسى اسكندر. تاريخ الأسر الشريفة. دار رياض الريس.
- ١٠ - مركز الأبحاث في معهد العلوم الاجتماعية - الجامعة اللبنانية، ومشروع تحسين أحوال معيشة الفقراء في لبنان. الخصائص السكانية والواقع الاقتصادي والاجتماعي، أفضية لبنان، بعلبك (محافظة البقاع). ط: ١. بيروت ٢٠٠١.

السودان في عهد محمد علي

أنطوان جورج الفتى

وانسحابها عام ١٨٠١ م، تشجّع المماليك على العودة إلى ساحة الأحداث في مصر، إلا أنهم انقسموا إلى فريقين: أحدهما أيّد القوات العثمانية العائدة إلى مصر بقيادة ابراهيم بك الكبير، والآخر حالف الإنجليز بقيادة محمد بك الألفي. ولم يمض وقت طويل حتى انسحب الإنجليز من مصر وفق معاهدة «أميان» ، ما أفضى إلى فترةٍ من الفوضى نتيجة الصراع بين العثمانيين الراغبين بحكم مصر بشكل مباشر، وبين المماليك الذين رأوا في الاستيلاء على مصر حقاً من حقوقهم.

خلال هذه الفترة من الفوضى، استخدم محمد علي قواته الألبانية للوقوع بين الطرفين، وإيجاد مكانٍ له على مسرح الأحداث، كما تودّد إلى كبار الرجال المصريين وعلمائهم، وأظهر العطف للشعب المصري ما أكسبه ودّ المصريين.

القسم الأوّل : بداية محمد علي

١ - تولية محمد علي ولاية مصر:

ولد محمد علي في مقدونيا في شمال اليونان عام ١٧٦٩ م لأسرة ألبانية، فقد والديه في سنّ صغيرة ونشأ يتيماً. كفله حاكم قولة «الشوربجي اسماعيل» الذي أدرجه في سلك الجنديّة، فأبدى شجاعة وحسن نظر، قرّبه الحاكم من أسرته ثمّ زوّجه من امرأة غنية.

وحيث شنّ نابوليون بوناپرت حملته على مصر، استعان العثمانيون بكتيبةٍ ألبانيةٍ يقودها ابن حاكم قونية، يرافقه محمد علي على رأس ثلاثمائة جنديٍّ. لم تكد تصل كتيبته إلى ميناء أبي قير في ربيع ١٨٠١ م، حتى قرر القائد العودة إلى بلده فحالف الحظّ محمد علي وعيّن قائداً للكتيبة^(١).

بعد فشل الحملة الفرنسية على مصر،

(١) عبد الرحمن الرفاعي، الزعامة الشعبية في السنوات الأولى من حكم محمد علي، ج٣، القاهرة: مطابع الهيئة المصرية العامة، ١٩٨٤، ص١٨.

سنة ١٨٠٥م، اشتعلت الثورة في مصر، فَعُزِلَ الوالي العثماني خورشيد باشا، واختار زعماء الشعب بقيادة عمر مكرم نقيب الأشراف محمد علي ليتولّى الحكم في التاسع من تمّوز ١٨٠٥م، وأمام حكم الأمر الواقع، قبل السلطان العثماني سليم الثالث فرماناً سلطانياً بعزل خورشيد باشا من ولاية مصر، وتولية محمد علي على مصر^(١). «تقلد محمد علي باشا ولاية الحكم بإرادة زعماء الشعب ونزولاً على رأيهم في ١٣ أيار سنة ١٨٠٥ م فالزعامة الشعبية هي التي أبلغته سلطة الحكم، فكان لها أثر فعّال في تثبيت دعائم ملكه وتذليل العقبات التي وضعها في طريقه رجال الأستانة من جهة، والإنكليز وأداتهم المماليك من جهة أخرى، وإحباط الدسائس التي دبروها والمؤامرات التي سعوا فيها إلى اقتلعه عن كرسي الولاية»^(٢).

٢ - موقف أصحاب السّلطة منه

أ - موقف السّلطنة العثمانيّة

كانت سياسة الباب العالي متردّدة غير مستقرّة، ترقب الأحوال لتتبع الخطة التي تراها أكفل لمصلحتها وأوفق لبسط نفوذها

في مصر، ولم تكن نواياها صافيةً تجاه محمد علي باشا، بل كانت ترميه بعين البغض كونه لم يكن من الولاة الذين ترسلهم كل عام إلى مصر وتوليهم وتعزلهم كما تشاء، بل كان «الوالي المختار» من الشعب المصري، فالشعب هو الذي أجلسه على كرسي الولاية، ولم تكن هذه الطريقة في تعيين الولاة تروق للحكومة التركية، صحيح أن حكومة الأستانة قد لبّت نداء الشعب المصري وأصدرت فرمانها بعزل الوالي خورشيد باشا الذي ثار عليه الشعب، وتعيين محمد علي والياً مكانه، وقد أوفدت القاهرة رسولاً يحمل هذا فرمان، لكنّ هذا لم يكن دليلاً على صفاء نيّة تركيا نحو مصر، وهو لا يعدو أن يكون حلاً مؤقتاً تتفادى به ثورة الشعب إلى أن تحين الفرصة فتسترجع سلطتها في البلاد وتضع يدها حيث شاءت، ولو كانت صادقة النية لاكتفت برسولها ذاك يحمل فرمان إسناد الولاية إلى محمد علي، لكنّها أوفدت بعد ذلك قبطان باشا في أسطول حربي ليراقب الحالة في مصر ويجعل عينه على الحوادث، ويتّخذ من القرارات النهائيّة ما يراه موافقاً لمصلحة

(١) سليمان الغنّام، سياسة محمد علي باشا التوسعيّة في الجزيرة العربيّة والسّودان واليونان وسوريّا (١٨١١ - ١٨٤٠)، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٤، ص ٢٣.

(٢) حسن أحمد إبراهيم، «محمد علي باشا في السودان»، دار جامعة الخرطوم للنشر، الطبعة ١، الخرطوم، ١٩٧٣، ص ١٣.

تركيا. ووصلت هذه الحملة إلى أبي قير يوم السابع عشر من شهر تمّوز سنة ١٨٠٥م أي في الوقت الذي كان خورشيد باشا لا يزال معتصماً في القلعة، ولم تعدد تركيا على إرسال مثل هذه القوة الا ذريعة لحدث تحدثه في البلاد، فهذه القوة الحربية لم تأت إلى مصر عبثاً، بل جاءت ليستعين بها قبطان باشا على تنفيذ أغراضه الخفية، وقد خولته الحكومة التركية السلطة المطلقة في تثبيت محمد علي في الولاية أو عزله منها.

وتتبيّن لك مقاصد تركيا من أن قبطان باشا لم يبرح السواحل المصرية بل ظلّ متربصاً يرقب الحالة ليتبع الكفة الراجحة، وقد راسله محمد بك الألفي زعيم المماليك وعرض عليه أن ينحاز بقواته إلى سلحدار خورشيد باشا الذي كان لم يزل في الجيزة يناوئ محمد علي، وأن ينضموا جميعاً إلى الجنود الذين جاء بهم قبطان باشا، ويزحفوا إلى القاهرة لينتزعوها من محمد علي ويطردوا جنوده من البلاد^(١).

ب - موقف السياسة الانكليزية من محمد علي

في بادئ الأمر، تردّد على قبطان باشا رسل الإنكليز أثناء مقامه في أبي قير،

وأيدوا مطالب محمد بك الألفي، وسعوا إلى إقناعه بإسناد ولاية مصر إليه، وشجّعوه على ذلك الأمر زاعمين أنّ المماليك هم وحدهم القادرون على حكمها وإعادة الأمن والنظام إلى ربوعها، وأنّ بقاء محمد علي في كرسي الولاية يجدد الفتن ويستفزّ المماليك ويشجّعهم على استئناف الحرب والقتال والزحف إلى القاهرة لاسترداد سطلتهم القديمة، فيضطرب حبل الأمن، ولم يكتف رسل الإنكليز بتأييد المماليك، بل جاھروا بأن الحكومة الإنكليزية قد تضطر إلى تجريد جيش على مصر لتأييد وجهة نظرها^(٢).

«فالسيسة الإنكليزية كانت ترمي منذ مائة عام ونيف إلى تثبيت قدمها في وادي النيل، بتولية صنائعها من المماليك حكم البلاد، وتتوعدّ بتجريد قواتها لهذا الغرض، وقد جردت هذه القوة فعلا سنة ١٨٠٧م»^(٣).

أما حجّة محمد علي لدى قبطان باشا فهي أنه مؤيد من زعماء الشعب، مرضى عنه منهم، وأنه الكفيل بانتشال البلاد من وهدة الفوضى والفتن التي تردت فيها، وأنه بمقاومته المماليك والإنكليز لا يخدم مصر

(١) عبد الرحمن الرافي، عصر محمد علي، الطبعة الرابعة، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٢ ص ٢٨.

(٢) عبد الرحمن الرافي، عصر محمد علي، المرجع نفسه، ص ٢٩.

(٣) حسن محمد إبراهيم، المرجع نفسه، ص ١٥.

وحدها بل يخدم الباب العالي ويحول دون تحقيق مطامع السياسة الإنكليزية في البلاد.

ج - موقف المماليك من محمد علي وهجومهم على القاهرة (آب من سنة ١٨٠٥م)

دبر المماليك الهجوم على القاهرة ليستولوا عنوة على زمام الحكم، وبادروا إلى تنفيذه في شهر آب من عام ١٨٠٥م، أي بعد شهرين من تولي محمد علي باشا السلطة، وربما كان قصدهم من هذا التعجيل أن يضربوا ضربتهم قبل رحيل قبطان باشا عن مصر ليشهد بعينه قوة المماليك وشدة بأسهم، فينحاز إلى جانبهم ويولي واحداً من زعمائهم حكم مصر، وقد اختاروا لهجومهم يوم الاحتفال بوفاء النيل إذ يكون محمد علي باشا والجمع الحاشد من الجنود والأهالي مشغولين بالاحتفال في مصر القديمة بعيداً عن المدينة.

وقد خيل إليهم أنهم أحكموه، فتأمروا سرّاً مع بعض قادة الجند بأن ينضموا إليهم إذا هم دخلوا المدينة، وتبادلوا وإياهم الرسائل من قبل في هذا الصدد، لكنّ محمد علي علم بسرّ هذه المؤامرة، فاعتزم أن يوقع المماليك في الكيد الذي كادوه، واتفق سرّاً مع بعض رجاله الأمناء على أن

يتصلوا بالمماليك ويتظاهروا لهم بالإخلاص، ويستدرجهم إلى دخول العاصمة، ويزينوا لهم نجاح خطتهم، وهم في الواقع ينفذون خطة محمد علي^(١).

د - سياسة محمد علي تجاه المماليك

تسلّح محمد علي باشا بالدهاء والحيلة إزاء المماليك، فاعتمد سياسة «فرّق تسد» مستخدماً التنافس القديم بين زعمائهم. كان الباشا على علم أنّ الألفي بك مكروهاً من بقية رؤساء المماليك كالبرديسي وابراهيم بك وعثمان بك، وأنهم ينقمون عليه لانفراده بالاتصال بالإنكليز وكتمانه عنهم أسرار مفاوضات معهم، وقد بادر الألفي إلى الرحيل عن الفيوم قاصداً البحيرة وشواطئ الاسكندرية لمقابلة صالح باشا من دون أن يكشف زملاءه بما ينوي فعله بنفسه، فأثار فيهم الحفيظة القديمة التي كانت تظهر بين آنٍ وآخر، وأرسلوا سُعاتهم إلى محمد بك يعرضون عليه الصلح، فانتهزها فرصة ليضعف شوكة الألفي خصمه اللدود، واطمأنّ من جانبهم، فاستخدم حيال الأتراك سلاحاً آخر هو الرشوة، فكان على دراية بما انطوت عليه نفوس الحكّام الأتراك وساستهم من الإذعان للمال والنزول على حكمه، ومما يثبت ذلك قوله عنهم: «إنّي أعرف الترك وأعرف الطريقة التي تنجح

(١) عبد الرحمن الراجعي، عصر محمد علي، المرجع نفسه، ص ٣٠.

معهم، فالرشوة هي وسيلة فعالة مع هؤلاء الناس».

بإخفاق انكلترا وتثبيت حكم محمد علي باشا على مصر^(١).

القسم الثاني: حروب محمد علي قبل فتح السودان

إن حروب مصر في عهد محمد علي باشا هي التي مكنتها من تحقيق استقلالها القومي ولولا تلك الحروب لما تكوّن ذلك الاستقلال، ورجعت البلاد إلى عهد الحكم التركي وبقيت زمنًا لا يمكن تقديره ولاية تحكمها تركيا كما كانت تحكم سائر ولايات السلطنة العثمانية، يتعاقب عليها الولاة كل سنة أو سنتين.

فتلك الحروب التي خاضت مصر غمارها في عهد محمد علي كانت السبيل التي أوصلتها إلى تحقيق استقلالها وتكوين وحدتها وحفظ كيانها وبلوغ مركزها الأقليمي والدولي. من هذا الاعتبار ننظر إلى حروب مصر في عهد محمد علي، فهي من الوجهة القومية سبيل الاستقلال الذي نالته في تاريخها الحديث.

١ - الحملة الإنكليزية سنة ١٨٠٧م

تعتبر الحملة الإنكليزية على مصر سنة ١٨٠٧م الحرب الأولى التي خاضتها مصر دفاعاً عن كيانها، وكانت فاتحة سعيدة لحروب مصر في ذلك العصر، لأنها انتهت

٢ - الحرب الوهابية ١٨١١-١٨١٩م

إن جزيرة العرب هي الميدان الأوّل لحروب مصر الخارجية في عهد محمد علي، وكانت هذه الحرب من أشدّ الحروب التي خاضت غمارها وأطولها مدى ومن أكثرها ضحايا ومتاعب. جرّدت مصر في خلالها حملات عدّة كلفتها الضحايا الكثيرة في الأرواح والأموال، ولقي فيها الجنود الشدائد والأهوال في قطع المراحل البعيدة المترامية في القفار، ونالهم الوهن والمتاعب من وعورة الطرق وشدة القيظ، وإلى ندرة المؤن والمياه وفقدانها في معظم الأحيان، بالإضافة إلى محاربة عدوّ مستبسل دفاعاً عن وطن^(٢).

تحملت مصر في الحرب الوهابية خسائر جسيمة، وإنّ فداحة تلك الخسائر لتدعونا أن نتساءل عن السرّ في اهتمام محمد علي باشا بخوض غمار تلك الحرب الضروس، وبذل ما اقتضته من الجهود والضحايا، وتحمل أعبائها سنوات عدة متوالية بلا هوادة ومن غير أن يتردد في متابعتها أو يثنى عنها ما أصاب جيشه من المخاطر والهزائم والمهلك، بل كان كلما أخفقت حملة جرّد الأخرى حتى بلغ النصر.

(١) سليمان الغنّام، المرجع نفسه، ص ٢٩.

(٢) عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، بيروت دار الجيل، الجزء ٧، ص ١٤٧ - ١٥١.

نتساءل عن ذلك وخاصة أن الحرب الوهابية قد تبدو غير ضرورية لمصلحة مصر، ولم يخض غمارها إلا استجابة لنداء تركيا، فإن حكومة الأستانة ما فتئت في مختلف المناسبات تدعوه إلى تجريد جيوشه لمحاربة الوهابيين.

إن محمد علي لم يكن ليغفل عمّا بينه وبين تركيا من عداة خفيّة متبادل، ولم يغرب عن ذهنه أنّ حكومة الأستانة سعت غير مرّة لتقتلعه عن عرش مصر، وأنّ القوة هي التي رددتها وحالت دون تحقيق مرادها، ولكنّه لبّى أخيراً نداءها في الحملة على الحجاز، لأنه رأى في خوضه غمار الحرب الوهابية تمكيناً لسلطته ورفعاً لشأنه وشأن مصر وأعلى لمكانتها. وقد اعتبر محمد علي أنّه إذا نجح حيث أخفقت تركيا واستطاع بقوة جيشه أن يقضي على دولة الوهابيين، ويخلص منهم الأراضي المقدسة، فلا جرم أن يتوطد مركزه وتسمو مكانته حيال تركيا، فلا تعود تفكر في عزله أو تغييره، ولا تستطيع أن تعامله معاملة سائر الولاة الذين كانت تقوم بعزلهم ونقلهم واستبدالهم من دون أن يغمض لها جفن، بل يدعوها تطوّر الحوادث إلى أن تعامله معاملة الند للند، أو الحليف للحليف، ويتدرّج مركزه من والٍ تابع إلى حاكم مستقل، أضف إلى ذلك أنّه إذا لم يلبّ دعوة

السلطان ويتأهب لمحاربة الوهابيين فإنّ ذلك يكون مبرراً لقيام الباب العالي بخلعه، لذلك كان عليه أن يتقي شرّها حتى تترسّخ دعائم ملكه. فالحرب الوهابية كانت إذاً وسيلة لتوطيد حكم محمد علي، كما أنّها كانت سبباً لرفع شأن مصر وإعلاء مكانتها.

وأغلب الظنّ أنّ فكرة الانفصال عن السلطنة وتحقيق استقلال مصر قد بدأت تتملكه من ذلك العهد، وأنّه أخذ يعمل لها عن طريق الفتوحات والحروب، وليس ثمة حرب ترفع مكانة مصر وتبوءها مركزاً ممتازاً وتكسبها عطف الشرق والعالم الإسلامي مثل الحرب الحجازية، فقد كان الغرض الظاهري منها إنقاذ الحرمين الشريفين من حكم الفرقة الوهابية، وتجديد ما بين الأمم الإسلامية من الصلات الأدبية والاقتصادية، وإعادة مناسك الحجّ وتأمين السبيل للحجاج الذين يأتون كل عام من مشارق الأرض ومغاربها.

فاتسع فعلاً نطاق مصر، وضمت إليها بلاد الحجاز ونجد والعسير وجزءاً من اليمن ثم وصلت سيادتها إلى شاطئ الخليج العربي، أي أن نفوذ مصر قد امتدّ إلى معظم جزيرة العرب، وظل كذلك إلى أن اضطربت الأحوال السياسية سنة ١٨٤٠م، فاضطرت مصر إلى سحب جنودها.

القسم الثالث: فتح السودان ١٨٢٠م

١ - مقدمات الحملة

تدعوهم إلى العودة إلى مصر والإقامة فيها عبر شروط أهمها: ألاّ يستوطنوا المدن المصرية إلاّ بإذنٍ منه، وأن يخفروهم بعض ضباطه عندما يحضرون إلى العاصمة حتى لا ينهبوا شيئاً من القرى والمدن التي يمرون بها في طريقهم إلى القاهرة، وأن يتنازلوا عن امتيازاتهم القديمة ولا يطالبون بما أخذ منهم بعد مذبحة القلعة. كان محمد علي يدرك أنّ المماليك لن يقبلوا بهذه الشروط المهينة والمذلة، وبذلك يجد المسوّغ لتجريد الحملة للقضاء عليهم، وقد رفضوا فعلاً قبولها.

احتشد الجيش في مصر القديمة، حيث أعدّ محمد علي باشا ثلاثة آلاف مركبٍ لنقل الجنود والذخائر والمؤن في طريق النيل، وأمر بإعداد نحو ثلاثة آلاف من الإبل للسّير منها برّاً، وسار في خدمة الحملة ألفان من الأتباع. سحب الحملة ثلاثة من العلماء مهمتهم دعوة الأهليين في البلاد التي يبلغها الجيش إلى الدخول في الطاعة والاعتراف بسلطة الحكومة حقناً للدماء، وهؤلاء العلماء هم الشيخ محمد الأسيوطي الحنفي، والسيد أحمد البقلي الشافعي، والشيخ السلاوي المغربي. ركب الجنود المشاة المراكب فانحدروا في النيل، وسار

اعتزم محمد علي تجريد حملةٍ على السودان عقب انتهائه من حرب الوهابيين، كانت حرب السودان على كثرة ضحاياها أقلّ مشقّةً وأقصر مدّة من حرب الوهابيين، فقد كان الجيش المصري يواجه في جزيرة العرب قوماً مدربين على القتال، اشتهروا بشدّة البأس وعاشوا للكرّ والفرّ، وهم معتزّون بانتصاراتهم على الحملات العثمانية التي جرّدها العثمانيون، أمّا الجيش الذي تحرّك لفتح السودان فلم يلقَ أمامه سوى قوّةٍ مشتتة لا سلاح معها إلاّ الرّماح وما إليها من الأسلحة البدائية، وهي تجهل أساليب القتال وفنونه، ولم يلق الجيش المصري مقاومة تذكر إلاّ في بلاد الشّايقية وفي كردفان التي كانت تابعة لسلطة دارفور، وفي مملكة سنار، أمّا العقبة التي اعترضت الجيش المصري في فتح السودان فكانت الأمراض والأوبئة التي حصدت طوائف الجنود، فكانت أشدّ خطراً على الجيش من القتال وخوض المعارك^(١).

لجأ بقية المماليك بعد مذبحة القلعة إلى جنوبي النوبة، واتّخذوا مديرية دنقلة معقلاً لهم، فأوفد محمد علي إليهم بعض حاشيته

(١) محمد فؤاد شكري، مصر والسودان تاريخ وحدة النيل السياسية في القرن التاسع عشر (١٨٢٠ - ١٨٩٩)، القاهرة، دار المعارف ص ٨.

وإذا كان السودان قد فصل عن مصر في بعض الأزمنة قديماً أو حديثاً فلم يكن ذلك إلا خروجاً على القاعدة التقليدية وهي أنه جزء لا يتجزأ من مصر.

بالإضافة إلى هذا السبب القومي لفتح السودان^(٣)، يحدّد المؤرخون أسباباً عدة أخرى ويمكن تلخيصها بالتالي:

أ - رغبة محمد علي في اكتشاف مناجم الذهب والألماس والحديد والنحاس التي تناقل الناس أنها موجودة في أصقاع السودان، وخاصة في سنار وكردفان. يقول الجبرتي في ذلك: «وفي ٢٧ (١٥ تشرين الثاني سنة ١٨١٩م) حضر الباشا من الصعيد بعد أن وصل في سرحته إلى الشلال، وكان الناس تقولوا على زهابه إلى قبلي أقاويل، منها أنه يريد التجريد على بواقي المصريين الممالك المنقطعين في دنقلة، فانهم استفحل أمرهم، واستكثروا من شراء العبيد، وصنعوا البارود والمدافع وغير ذلك، ومنها أنه يريد التجريد أيضاً وأخذ بلاد دارفور والنوبة ويمهد طريق الوصول إليها، ومنها أنهم قالوا أنه ظهر بتلك البلاد معدن الذهب والفضة

الفرسان ورجال المدفعية في البرّ الغربي، وتقدّمت الجيش طليعة مؤلّفة من خمسمائة فارس، وتحركت الحملة قاصدةً حدود دنقلة.

تحرك اسماعيل وحاشيته في ٢٠ تموز ١٨٢٠ م بعد سفر الحملة بيومين، فبلغوا أسوان، ثمّ التقوا فيها ببقية الجنود الذين سبقوهم إليها وتقدّم الجميع جنوباً^(١).

٢ - أسباب الحملة:

«كان السودان يعتبر جزءاً لا يتجزأ من مصر، والحدود الجغرافية والقومية لمصر تشمل أمصار وادي النيل، فمصر والسودان جزءان لا ينفصلان ضمن وحدة سياسية واقتصادية لا تقبل التجزئة، تربطهما روابط الوطن والتاريخ واللغة والدين، وصلات الدم والنسب والمرافق المشتركة»^(٢).

يعتبر المصريون السودان منذ القرون الغابرة جزءاً من مصر، وقد أثبت المؤرخون أنّ ما بين مصر والسودان روابط تاريخية قديمة، وثبتوا من خلال النقوش الهيروغليفية أنّ الملك تحوتمس الأول توغّل حتى منطقة البحيرات، واحتلّ بعض النقط الحربية التي كانت على النهر،

(١) عبد الرحمن الرفاعي، عصر محمد علي، المرجع نفسه ص ١٦١.

(٢) الأمين عبد اللطيف، العلاقات السودانية المصرية: رؤية مستقبلية، مركز محمد عمر البشير للدراسات السودانية، سوريا، الطبعة ١، ٢٠٠٦، ص ٢٣.

(٣) عبده مختار موسى، مسألة الجنوب ومهددات الوحدة في السودان، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة ١، ٢٠٠٩، ص ٨٤-٨٥.

والطمأنينة والرّخاء أو الانتعاش الاقتصادي^(٣).

د - توسيع ملك مصر في الجنوب، وإيجاد الروابط الاقتصادية بين مصر والسودان، وتوسيع نطاق المعاملات التجارية بينهما، إذ لم يكن يقصد السودان من المشتغلين في التجارة سوى فئة قليلة من التجّار المخاطرين بأنفسهم من سكان الوجه القبلي، وكانت أسفارهم في الغالب عرضة للخطر، وتحوّلت معظم متاجر السودان إلى طريق سواكن ومصوع من ثغور البحر الأحمر، وكاد ينقطع ورودها إلى مصر، فرأى محمد علي أن يبسط نفوذ مصر في السودان لتكون طريقاً لمتاجرها، وأدرك أنّ في توسيع نطاق التجارة بين مصر والسودان فائدة لعمران البلدين، وتنمية لما تجببه الحكومة من المكوس على المتاجر فيزيداد دخلها، ويعوّضها بعض ما فقدته من الأموال والنفقات في الحرب الوهابية^(٤).

هـ - رسالة مصر في السّودان، وفي سبيل توضيح أنّ لمصر رسالة في السّودان لا يمكن التّخلّي عنها إطلاقاً، قام محمد علي عشية تأزّم العلاقات مع الباب

والرصاص والزمرد، وأن زهابه للكشف على ذلك وامتحانه وعمل معدله ومقدار ما يصرف عليها حتى يستخرج صافيه، وبطل كل ما توهموه وخمنوه برجوعه^(١). لكن وبعد أن فتح اسماعيل باشا بلاد «فازوغلي» سار إلى جبل «بني شنقول» جنوبي «فازوغلي» للبحث عن مناجم الذهب فحفر في أماكن عدّة، لكنّه لم يعثر على ضالته فلم يجد سوى قشور من التبر فعاد أدراجه إلى سنار.

ب - القضاء على البقية الباقية من الممالك الذين كانوا لاجئين إلى إقليم دنقلة، وهم على ما بلغوا إليه من الضعف كانوا مصدر قلق لمحمد علي، فاعتزم القضاء عليهم لكي لا يستردّوا قوتهم يوماً ما، ويزحفوا إلى مصر^(٢). محمد علي اتّخذ من الممالك ذريعة لتجريد الحملة، إلا أنّ من الطّبيعي لكلّ حاكم في ظروف ذلك العصر أن يُصنّف خصومه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

ج - مطالبة أهل السّودان أنفسهم بإنشاء حكومة قويّة على يد مصر، تقضي على أسباب الفوضى المنتشرة في بلادهم وتستبدل بها عهداً من الأمن والنّظام

(١) عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار.

(٢) سليمان الغنّام، المرجع نفسه، ص ٦٥. (٣) محمد فوزي شكري، المرجع نفسه ص ٨.

(٤) نعوم شقير، جغرافية وتاريخ السّودان الطبعة الأولى، الخرطوم، دار عزة للنّشر والتّوزيع، ٢٠٠٧.

مياه النيل. فقد عمد حكّام الحبشة والنوبة من الأزمنة القديمة إلى تهديد مصر بقطع مياه النيل عنها، وذلك كلّما ساءت العلاقة بينهم وبين مصر، بأن عملوا على تحويل مجرى النيل بحيث لا تصل مياهه إلى مصر. وفي العصور القريبية، يذكر الرّحالة «جيمس بروس» ما جاء في كتابٍ موجّه من أحد ملوك الحبشة إلى الباشا العثماني في مصر سنة ١٧٠٤م يقول فيه: «في النيل وحده الوسيلة التي تكفي لعقابكم، لأنّ الله جعل منبع هذا النّهر وفيضان مائه تحت سلطاننا. وفي وسعنا التصرف في مياه هذا النّهر بالكيفية التي تلحق الأذى بكم»^(٣). وحتّى عهد محمد علي كان لا يزال الخوف من تحويل مجرى النيل قائماً، ما أثار انتباهه، لذلك أمر بشقّ الطريق إلى حوض النيل الأعلى كذلك قام «الممباشي سليم قبودان» برحلاته الاستكشافية الثلاث في النيل الأبيض لاستكشاف منابع النيل^(٤).

هكذا نجد أنّ محمد علي على ما اشتهر به من بعد نظر، لا بدّ أنّه كان يدرك ما للسودان من أهمية تعود بالخير على مصر، ويدرك أنّ الاستقلال لا يتحقق إلا إذا تملّكت مصر مجرى النيل من منبعه إلى مصبه.

ز - جلب الرقيق لغايات اقتصادية

العالي برحلته الشهيرة إلى السودان سنة ١٨٢٨م ونشر بعد عودته «جرنالاً» لهذه الرّحلة في نيسان ١٨٢٩م. وكان لنشر هذا «الجرنال» أهميّة كبيرة لسببين: أولهما متّصل بالرّسالة التي لمصر في السودان، وثانيهما متّصل بالنظرية التي نادى بها محمد علي لتبرير بقاء السودان متّحداً مع مصر في «نظام سياسي» واحد، ونعني بذلك نظرية «الخلو». في ما يتّصل برسالة مصر في السودان، فقد أوضحت خطابات محمد علي اهتمامه البالغ بتأمين الأهليين على أرواحهم وأرزاقهم، بمنع اعتداءات الأحباش عليهم واعتداءات أهل سلطنة دارفور، ثمّ حتّهم على استغلال موارد بلادهم وتعليم أبنائهم والسّير في ركب الحضارة. إذا نفهم هنا أنّ رسالة محمد علي هي النهوض بالسودان إلى مصاف الدّول المتمدّنة^(١).

لكن يبدو أنّ الرّسالة مبالغٌ فيها قليلاً. فكيف لمن يحمل رسالة النهوض بالبلد أن يعتمد أساليب بربريّة في أثناء الغزو وبعده، وفرض الضرائب الباهظة على السّكان العزّل^(٢)؟

و - ضرورة الاطمئنان إلى توفير ما تحتاج إليه مصر، بل السودان نفسه من

(١) محمد فؤاد شكري، المرجع نفسه، ص ١١ - ١٢.

(٢) شبكة مكّي، مقاومة السودان للغزو والتسلّط، معهد البحوث والدراسات العربيّة، القاهرة ١٩٧٢، ص ٣٢ - ٣٣.

(٣) محمد فؤاد شكري، المرجع نفسه ص ١١. (٤) محمد فؤاد شكري، المرجع نفسه ص ١٢.

باستغلالهم في العمل بالزراعة، أمّا البقيّة فكان يتمّ إرسالهم إلى مصر للاستفادة منهم في الزراعة أو في خدمة البيوت. كذلك اعتمد على الرقيق من السودانيين لتجنيدهم في الجيش المصري النظامي، لما اشتهر به الجنود السودانيون من الصبر والشجاعة والطاعة للرؤساء. فكانت البداية مع اسماعيل باشا حيث أرسل حملاته إلى جنوب النيل الأزرق بالأخص إلى جبل تابا بالقرب من سنار، وهي تتألف من قبائل أفريقية زنجية.

إلا أنّ محمد علي تحت الضغط الأوروبي وخاصة البريطاني اضطر إلى وضع قوانين للقضاء على هذه الآفة الإنسانية، ففي كانون الأول من العام ١٨٣٨م أصدر أوامر رسمية من الخرطوم لإبطال صيد الرقيق، ويعتقد بعض المؤرخين أنّه السبب الأقوى لغزو السودان. فبعد حوالي شهرين من دخول ابنه اسماعيل سنار بعث محمد علي بخطاب إلى الكنخدا في مصر يقول: «علمنا من مكاتبة نجلنا صاحب السعادة الباشا سرّ عسكر السودان الواردة مع بشكيرجيه أنّه أرسل بصحبة سلحدار سليم آغا نحو ألف وتسعمائة زنجي»^(١) وفي خطاب موجّه للدفتردار يقول الباشا: «ونأمل أن تبذلوا

جواهر همّتكم للحصول على العبيد بكثرة، وهذا هو الباعث لتحرير مكاتبة مودّتنا هذه، فخالص أملنا لدى حصول الشرف بوصولها إن شاء الله تعالى أن تصرفوا همّتكم الجليلة على الوجه المحرّر» كما ذيل هذا الخطاب بحاشية يقول فيها: «حيث إنّ الأهمّ، والألزم لنا هو الحصول على العبيد قبل كلّ شيء سواء من كردفان أو موردفان فقد وافيناكم بهذا الإشعار تكراراً لأجل التأكيد»^(٢).

كذلك يؤكّد محمد علي في خطاب آخر للدفتردار هذا الهدف بقوله: «ولمّا كان المقصود من اختيارنا كلّ هذه الجهود والمواد تجشمننا هذه المشاق، وكان ما تعود ضميرنا الانطواء عليه عندما بذلنا الأموال والمهمات، لمّا كانت الغاية المرجوة من هذا كلّّه منحصرة في جلب العبيد بكثرة ووقرة فإنّ مطلوبنا هو أن تدبروا هذا الأمر على الوجه الذي تقتضيه غيرتكم وتستدعيه حميتكم، وتبذلوا مزيد الجهد وقصارى العناية في تحرّي كلّ ما هو ممكن في سبيل جلبهم وإرسالهم مهما بلغ قدره، وأن تنفقوا في تحقيق هذه الغاية ما تصل إليه قدرتكم، وتصرفوا في أدائها على الوجه المرغوب جعبة همّتكم»^(٣).

إلا أنّ محصول صيد العبيد لم يكن

(١) شبكة مكّي، المرجع نفسه، ص ٢٩.

(٢) شبكة مكّي، المرجع نفسه ص ٣١.

(٣) شبكة مكّي، المرجع نفسه ص ٣٠.

بالعدد الكافي الذي يحتاجه الباشا في فترة الغزو الأولى، فبعث بخطابٍ من صورتين واحدة لابنه اسماعيل والأخرى للدفتردار سنة ١٨٢٢ م يستحث في طلب المزيد وقد جاء فيه: «حمداً لله ثم حمداً أن ثكنات أسوان وفرشوط قد اكتسبت نظامها، ولم يبقَ شيءٌ من الأمر إلا ورود العبيد الذين تطلبهم، وقد كنّا فهمنا من كتبكم الواردة أولاً وأخراً أنه ينبغي الصّفح عمّا حدث في العام الماضي والاهتمام بثمرات المساعي في هذه السنّة، وقد انقضى الآن موسم الأمطار وإن زمن الغزو من أجل ذلك، ولا نرتاب في أنكم نفرتم من حيث تقيمون، فقصدتم الموضع الذي عزمتم السّفر إليه للحصول على عدد كبير من العبيد، إلا أنّنا كما كنّا في انتظار ورود العبيد بمقتضى الوقت والحال، أخذنا نذكركم بهذه المسألة في كلّ كتاب أرسلناه إليكم، كما أكّدتنا عليكم قبل أيام بإرسال الأغا خفتا نينا، ولما كانت هذه المسألة لا تقاس على سائر الأمور، وكان الواجب يقضي عليكم أن تغزوا بشجاعة، مهما كلفكم ذلك وتأتوا بعبيد كثير، فقد كتبنا كتابنا هذا خاصة وضمّناه الاستعجال مرّة أخرى وبعثنا به مع جونينا ابراهيم أغا، فإذا جاءكم وعلمتم عن إفادته مفاد إرادتنا فأرني همّتك يا بني واغز

الأماكن التي يرجى فيها وجود العبيد بشجاعة وشهامة ولا تقس هذا الأمر على الأمور الأخرى واعتنِ بالاستيقاظ بكثير من العبيد واسع في إرسال ما تقدر عليه منهم إلينا وابذل جهدك وحميتك في هذا الشّأن كما أرجو منكم»^(١).

يبدو من رسائل محمد علي أنّ جلب العبيد كان هدفة الرئيسي لشنّ حملته على السودان، على الرغم من أنّه لم يحصل على النّتيجة المرجوّة، بسبب عدم قدرة العبيد المجلوبين من التّأقلم في الأجواء الجديدة، وموت الكثير منهم، فيُقدّر عدد العبيد الذين تمّ جمعهم وإرسالهم إلى الثكنات العسكريّة في أسوان حوالى ٢٠٠٠٠، إلا أنّه لم يبق منهم على قيد الحياة سوى ٣٠٠٠ فقط حسب خطاب «سالت» المؤرّخ سنة ١٨٢٤م^(٢).

ح - رغبته في التخلّص من الفرق الباقية من عسكر الأرنأوط في مصر، وقد ظلّوا على ما اعتادوا عليه من النزوع إلى العصيان والتمرد والإخلال بالنظام، فرأى محمد علي أن يتخلّص منهم بإرسالهم إلى السودان، خاصة وأنه شرع وقتئذ في تأسيس الجيش المصري النظامي.

هذه هي الأسباب والبواعث التي يذكرها جمهور المؤرخين لفتح السودان، وكلها كما

(١) شيكة مكّي، المرجع نفسه ص ٣٣ - ٣٤.

(٢) سليمان الغنّام، المرجع نفسه، ص ٦٨.

ذلك معتزّون بانتصاراتهم على الحملات العثمانية من قبل، أما الجيش الذي تحرك لفتح السودان فلم يلق أمامه سوى قوات مشتتة عزّل لا سلاح معها إلا الرماح وما إليها من الأسلحة البائدة، وهي تجهل أساليب القتال وفنونه، ولم يلق الجيش المصري مقاومة تذكر إلا في بلاد الشاذلية، وهم قبائل يسكنون جنوبي دنقلة، وفي كردفان التي كانت تابعة لسلطنة دارفور، وفي مملكة سنار، لكنّ العقبة الأخطر التي اعترضت الجيش المصري في فتح السودان هي الأمراض والأوبئة التي حصدت طوائف الجنود، فكانت أشدّ خطراً على الجيش من القتال وخوض المعارك. فقد قال المسيو كايو الذي صحب الحملة في سنار أنّ الجيش الذي سار به اسماعيل باشا لفتح البلاد الواقعة على النيل الأزرق مات منه لغاية أيلول من سنة ١٨٢١ م ستمائة مقاتل، ثم زاد عددهم إلى ١٥٠٠ في تشرين الأول، وبلغ عدد مرضاه ٢٠٠٠ مريض، وكان عدد المرضى يزداد كل يوم. ولما ساءت حالة الجيش من هذه الناحية أرسل اسماعيل إلى أبيه يشكو اليه سوء الحال، ولم يكن في الجيش أطباء ولا أدوية، فكثرت عدد المرضى، وتفشت العدوى، واشتدت وطأة الأمراض بالجنود في سنار حتى لم يبق لدى اسماعيل باشا من العسكر الصالحين للخدمة سوى خمسمائة، وقد

نرى أسباباً وجيهة، ففتح السودان هو إذاً مزيجٌ من أهداف اقتصادية وعسكرية وسياسية - قومية، والغرض منها السيطرة في المرحلة الأولى على الموارد البشرية (الرقائق) والطبيعية (ذهب والماس ومعادن...)، وفي المرحلة الثانية سياسية - قومية إذ كانت الغاية منها تأليف وحدة وادي النيل، ولا يخفى أنّ مساحة السودان تزيد عن ضعف مساحة مصر، فبفتح السودان اتّسعت رقعة الدولة المصرية فبلغت ثلاثة أضعاف ما كانت عليه، ووصلت إلى معظم حدودها الطبيعية، فلا غلوّ أن نعد فتح السودان من أنفع حروب مصر في عهد محمد علي.

٣ - المشاكل التي واجهها المصريون خلال فتح السودان

اعتزم محمد علي إذاً تجريد الحملة على السودان عقب انتهائه من حرب الوهابيين، وهذا يدل على قوة إرادته وبأس عزيمته ودأبه على توسيع ملك مصر، فهو لم يكد ينتهي من تلك الحرب الشاقة وبسط نفوذ مصر على جزيرة العرب، حتى بادر إلى خوض غمار حرب أخرى أكثر منفعة. كانت حرب السودان على كثرة ضحاياها أقل مشقة وأقصر مدة من حرب الوهابيين، فقد كان الجيش المصري يواجه في جزيرة العرب قوماً مدربين على القتال، اشتهروا بشدة البأس وعاشوا للكر والفر، وهم فوق

بقى متوقفاً عن الزحف، قلقاً على مصير جيشه، إلى أن جاءه ابراهيم باشا بطل الحجاز يصحبه بعض الأطباء لمكافحة الأمراض ومعه المؤونة والملابس للجنود، فانتعش الجيش لقدمه ودبت فيه روح الأمل والشجاعة.

٤ - نتائج الحملة

ذكرنا في مستهلّ البحث أنّ مهما كانت دوافع محمد علي للاستيلاء على السودان وضمّها إلى مصر فنتائج ذلك الاحتلال كانت الأهمّ. لذلك سنعرض في ما يلي لأبرز ما نتج عن الحملة في رأي العديد من المؤرّخين الموالين والمعارضين لفكر محمد علي التوسّعي والإصلاحيّ.

أ - التنظيم الإداري:

جعل محمد علي باشا على السودان حاكماً يُسمى «حكمدار السودان» يجمع في يده السلطة العسكرية والمدنية ويرجع في إدارته إلى ديوان (وزارة) الداخلية في مصر، ولبعد المسافة بين البلدين وصعوبة المواصلات كان لحكمدار السودان سلطة مطلقة في إدارته، وجعل من مدينة الخرطوم التي أنشئت في عهده عاصمة السودان ومقرّ الحاكم العام، ومع الزّمن

قسّمت البلاد إلى مديريّات لكلّ منها مدير يحكمها تحت إدارة حكمدار السودان.

وقسّمت المديريّات إلى أقسام لكلّ قسم ناظر، وكانت الإدارة تتّبع نظام الإدارة المصريّة، وصار عدد المديريّات في أواخر عهد محمد علي سبعة، وهي دنقلة وبربر والخرطوم وكردفان وكسله وسنار وفازوغلي.

وجعل لكل مدير وكيلاً ومعاونين وكتاباً، وبجانبه القاضي والمفتي ومجلس أهلي وضبطية (شرطة)، وأبقى حكام البلاد الأقدمين من الأهليين في مراكزهم كمشايخ النوبة ودنقلة وبربر

والحلفاوية والرصيرص وفازوغلي، وملك «سنار»^(١). وكان المديرّيون ومن لهم من الموظّفين تحت رقابة الحكمدار (الحاكم العام). هكذا نرى أنّ السّودان قد خطت خطواتها الأولى في الإدارة والتنظيم مع محمد علي على الرغم من أنّ الكثير من أولئك الموظّفين كانوا ينزعون إلى الظلم والبطش.

ب - العمران وتأسيس المدن

في الحقيقة أنّ الفضل في حضارة السودان منذ الفتح الأول يرجع إلى الحكم المصري بعكس ما تشيع بعض الكتب بأن

(١) عباس صالح موسى، «مسار الحكم المحليّ في السودان»، مركز محمد عمر بشير للدراسات السّودانيّة، أمدرمان، الطبعة ١، ٢٠٠٧، ص ٥.

الأمبراطورية البريطانية هي التي كانت وراء هذه النهضة. «في المرحلة الأولى أو ما عرف بعهد الفتح الأول أي عهد محمد علي، ضحى المصريون بأرواحهم ودمائهم في سبيل فتح السودان وبسط سلطة الأمن في ربوعه، فقد بلغ عدد من فقدهم الجيش المصري في الفتح الأول سواء ممّن قتلوا في المعارك أو في الرحلات البعيدة الشاقة أو من اجتاحتهم الأمراض نحو ثلاثة آلاف رجل»^(١).

وكانت النتائج باهرة إذ نشر الحكم المصري لواء الحضارة وال عمران في أصقاع السودان وأقام فيها قواعد العمران، فأهتّم بعمرانه كما عنيّ بسائر مديريّات القطر المصري. كذلك كان تأسيس المدن من أول ما قام به الحكم المصري في السودان، فأنشأ مدناً زاهرة صارت مبعث الحضارة والتقدم في انحاءه.

الخرطوم

إنّ المصريين حين فتحوا السودان لم يختاروا مدينة من بلاده القائمة مثل بربر أو سنار أو الأبيض عاصمة له، بل أنشأوا عاصمة جديدة وهي الخرطوم، ولم يكن مكانها قبل الفتح المصري سوى محلة صغيرة للصيادين، ففي سنة ١٨٢٢م تمّ

تأسيس معسكر ثابت للجنود فيها ، وفي سنة ١٨٣٩ م اتخذها خورشيد باشا مقراً له لما لهذا الموقع من أهميّة حيث يلتقي النيل الأزرق بالنيل الابيض، وسُميت «لخرطوم» لأنها ملتقى النيلين بشكل يشبه رأس خرطوم الفيل. وقد أقيمت فيها المباني والعمائر منذ إنشائها^(٢)، وأهمّها السراي الحكومي المبنية بالحجر الطيني الأحمر، والمؤلفة من طابقين، وذات المنظر الفخم، وسراي مديرية الخرطوم،

بالإضافة إلى مسجدين أحدهما كبير بناه خورشيد باشا، والآخر صغير أقيم من بعده، ودار لإحدى البعثات الدينيّة المسيحيّة أنشئت سنة ١٨٤٨ م أي في أواخر عهد محمد علي، كذلك أنشئت فيها ثكنة كبيرة للجنود شرقي المدينة ومستشفى. أيضاً صنعت السفن النيلية التي أخذت تنقل الجنود والمتاجر على النيل، وقد زادت الحدائق التي أنشأها المصريون حولها رونقاً ونضارة. وبعد أن تأسست المدينة صارت ملتقى التجار القادمين من أنحاء السودان وباطن إفريقيا، أو الواردة إليها من مصر والخارج، فازدهر العمران فيها. وصارت محطة من أهم المحطات التجارية في أفريقيا، كما أنها صارت مركزاً

(١) عبد الرحمن الراجعي، «عصر محمد علي»، المرجع نفسه، ص ٢٩.

(٢) نَعُوم شقير، المصدر نفسه ص ٥١٢.

للرحلات والاكتشافات الجغرافية والعلمية، ومرسى للسفن النيلية التي تنتقل في أنحاء النيل الأزرق والنيل الأبيض^(١).

ج - توطيد دعائم الأمن

مهما اختلف المؤرخون في تقديرهم للحكم المصري في السودان على عهد محمد، علي فإنهم مجمعون على امتداحه والاعتراف له بالفضل في بسط الأمن في أصقاعه النائية، كانت الرحلة إليه قبل الفتح المصري محفوفة بالأخطار إذ كانت الطرق مقطوعة، والأمن فيها مضطرب، وسلطة الرؤساء ضعيفة، وكانت قوافل التجار والحجاج تستهدف في كل وقت للسلب والنهب، ولكن الحكم المصري قد قضى على الفوضى الضاربة أطنابها في البلاد وبسط سلطة الأمن فيها^(٢).

د - التعليم:

مع بداية الاحتلال المصري، أقبل الشبان السودانيون على الأزهر يطلبون العلم، وذلك بسبب تطوير شبكة المواصلات بين مصر والسودان وتوطيد الأمن على الطرقات، بالإضافة إلى الثقافة الدينية التقليدية، جرت محاولات عدة خلال الحكم المصري لإدخال الثقافة الحديثة إلى

السودان. بدأت مع زيارة محمد علي إلى السودان ١٨٣٨ - ١٨٣٩م عندما نصح وجهاء السودان بفوائد تحسين معارفهم الزراعية، واقترح عليهم أن يرسلوا إليه بعض أبنائهم لتعليمهم أحدث الطرق الزراعية التي كانت متوفرة في مصر في ذلك الزمن. ويقول الطهطاوي الذي كان مدير مدرسة الألسن في القاهرة: «مجموعة الطلبة السودانيين بعد أن تخرجت من مدرسة الزراعة تحولت إلى مدرسة الألسن». وكان القصد من هذا الانتقال على حد قول الطهطاوي: «أن يتذوقوا طعم المعارف التمدنية لينشروها في بلادهم»^(٣).

هـ - الزراعة

تطورت الزراعة في عهد المصريين إذ أرسلت من مصر طائفة من المزارعين المصريين لتمارين الأهالي على الزراعة، كذلك دخلت إلى السودان الزراعات المصرية كالقمح والخضار، وغرست أشجار الفاكهة المختلفة كالبرتقال والليمون والرمان والعنب، ونسقت الحدائق.

و - الحملات والبعثات الجغرافية

«إن للفتح المصري فضلاً كبيراً على العلم وال عمران فهو الذي شجع العلماء

(١) عبد الرحمن الراجحي، عصر محمد علي، المرجع نفسه، ص ١٧٧.

(٢) م. ن، ص ١٧٩.

(٣) ناصر السيد، التعليم في السودان، بيروت، دار القدس، ١٩٧٥، ص ٤٧.

يلي رأس الخرطوم جنوباً، وبين سنة ١٨٢٨م و١٨٣١م ساح فيه ابراهيم باشا ونزل النيل الأبيض، ووصل إلى بلاد الشلوك والدنكا قريباً من بحر الغزال.

حملات البكباشي سليم بك قبطان

ولمّا ساح محمد علي في السودان كان يعتزم أن ينفذ الحملات والتجريد لاكتشاف منابع النيل الأبيض، فعهد بهذه المهمة إلى البكباشي المصري سليم بك قبطان أحد ضباط البحرية المصرية، وجعل تحت تصرفه قوّة من الجنود وحملة نيلية من المراكب فقام بثلاث حملات متعاقبة كانت موضع إعجاب علماء الجغرافيا ورواد الاكتشاف.

الحملة الأولى: «تحركت الحملة الأولى من الخرطوم يوم ١٦ تشرين الثاني سنة ١٨٣٩م بقيادة سليم بك قبطان، يصحبه سليمان كاشف أحد ضباط الجيش المصري ورجل فرنسي اسمه تيبو، وتتألف قوّة الحملة من ٤٠٠ جندي اختيروا من الجنود المرابطين وقتئذ في سنار، وكانت الحملة مؤلفة كما يقول سليم بك من ثماني سفن مسلحة كل واحدة فيها مدفعان، ومركبين آخرين، و١٥ قارباً، وبها من الذخائر والمؤونة ما يكفي الحملة لمدة

ورواد الاكتشاف والاستطلاع على الرحلات العلمية لاكتشاف أصقاع السودان النائية، وخاصة منابع النيل، وقد كان لمحمد علي عناية كبيرة بتعزيد الاكتشافات، وتشجيع الباحثين والعلماء على الرحلة إليه، وشملهم برعاية الحكومة وعهد إلى جنده حمايتهم في رحلاتهم، ولولا تلك المساعدات لما استطاعوا أن يسيروا خطوة في تلك الجهات، وقد صارت مدينة الخرطوم مركزاً للرحلات الجغرافية التي انطلقت منها لاكتشاف منابع النيل وأواسط أفريقيا، فلا نزاع على أنّ الرحلات في عهد محمد علي قد عبّدت الطريق للمكتشفين، وأنارت لهم السبل وفتحت بلاداً ومناطق لم يكن في مقدورهم أن يجوبوها لو لم يبسط الحكم المصري الأمن في أنحاءها، فالفتح المصري فضلاً عن نتائجه القومية قد ساعد العلم والحضارة مساعدة كبرى من تلك الناحية، وقد كان العامل الأول في الرحلات التي تمّت في عهد محمد علي اتجاه فكره وفكر أبنائه إلى اكتشاف منابعه التي كانت إلى ذلك العهد مجهولة لعلماء الجغرافيا»^(١).

وقد شجّع محمد علي الرحلات الجغرافية في حوض النيل من يوم أن بسط نفوذه في السودان، فساح فيه الرحالتان هاي وهوشت ووصلا سنة ١٨٢٤م إلى ما

(١) عبد الرحمن الراجعي، عصر محمد علي، المرجع نفسه، ص ٣٧.

الفرنسيين دارنو وساباتييه والرّحالة الألماني فرن.

وقد سارت الحملة في النيل الأبيض، ثم مضت في سبيلها حتّى بلغت جزيرة جونكر الواقعة على الخط الخامس من خطوط العرض، فتكون الحملة قد تخطت الحملة الأولى بمراحل شاسعة.

الحملة الثالثة: تحرّكت الحملة الثالثة

من الخرطوم في ٢٧ ايلول من العام ١٨٤١م بقيادة سليم قبطان ولكن سيرها كان بطيئاً لمعاكسة الريح، فأصيب معظم البحّارة والجنود بالأمراض، ومات بعضهم في الطريق، لكنّها تابعت سيرها من دون أن تتخطى النقطة التي وصلت إليها الحملة السابقة، ثمّ ما لبثت أن عادت إلى الخرطوم في ٦ آذار ١٨٤٢م^(٢).

وكان محمد علي ماضياً في تنفيذ فكرته معتزماً أن يستأنف حملات الاستكشاف حتى يصل إلى منابع النيل، ويبسط نفوذ مصر في تلك الأصقاع، ولكنّ المرض الذي انتابه في أواخر عهده بالحكم حال دون إتمام قصده، على أن هذه الحملات الثلاث قد أصابت نتائج عظيمة. إذ اكتشفت هذه الرحلات بلاداً ومناطق كانت إلى ذلك الحين

ثمانية أشهر، وقد وصلت الحملة إلى بلدة العبي جنوبي الخرطوم^(١). ثمّ حالت الموانع في النهر دون تقدّم الحملة، فعادت إلى الخرطوم، وفي عودتها عرجت بنهر السوبات أحد روافد النيل لاكتشافه وانحدرت فيه (١٦ شباط - ٦ آذار من سنة ١٨٤٩م) إلى أن حالت قلّة المياه دون تقدّمها، فرجعت إلى الخرطوم وبلغتها يوم ٣٠ آذار سنة ١٨٤٠م بعد أن دامت رحلتها ١٣٥ يوماً.

وقد وضع البكباشي سليم قبطان رسالة ضمّنها تفاصيل هذه الحملة، وألحق بها جدولاً بالأرصاء الجويّة التي قيدها، فكانت هذه الرسالة أول مرجع رجع إليه العلماء في اكتشاف باطن أفريقيا، وقدمت هذه الرسالة إلى الجمعية الجغرافيّة الفرنسيّة في باريس، ونشرت في المجلة فحازت على إعجاب علماء الجغرافيا في فرنسا.

الحملة الثانية: تحرّكت الحملة الثانية

من الخرطوم يوم ٢٣ تشرين الثاني من سنة ١٨٤٩م بقيادة سليم قبطان، يصحبه أيضاً سليمان كاشف قائد القوة البرية، وصحبة من الأوروبيين أمثال المهندسين

(١) حسن أحمد إبراهيم، «محمد علي باشا في السودان»، ص ٧٦.

(٢) حسن أحمد إبراهيم، «محمد علي باشا في السودان»، دار جامعة الخرطوم للنشر، الخرطوم، الطبعة ١، ١٩٧٣ ص ٧٧.

وأنظمة الامبراطورية الإنكليزية لما وُلِدَ
التنظيم الإداري في السودان، ولما أنشئت
فيه المدن الحديثة والمدارس والمحاكم.

محمد علي وسعيد باشا والخديوي
اسماعيل خطوا بالسودان خطواتٍ سريعة
نحو التمدن. ففي عهدهم لم يعرف هذا البلد
النائي عزلةً حضاريةً كالتّي عرفتها الولايات
العثمانية الأخرى، بل على العكس عرف
انفتاحاً على معالم الحضارة الحديثة فتوطد
فيه الأمن و نشطت التجارة في موانئه،
وقصد مدارس طلاب العلم والمعرفة.

ومن يتّهم محمد علي بالعنصرية لأنّه
رغب بجلب العبيد في بداية حملته، عليه أن
يتعرّف تاريخ السودان جيداً ليتأكّد من أنّ
تجارة الرقّ عادةً ألفها سكّان تلك المنطقة
لقرونٍ عديدةٍ سبقت عهد محمد علي، حتّى
أنّها كانت دعامةً من دعائم الاقتصاد التي
يقوم عليها النظام القبلي في تلك المنطقة،
وحظرها كان سبباً من أسباب قيام الثورة
المهدية. ومن يلومه على الضرائب الباهظة
التي فرضها على السودانيين لا يجب أن
ينكر أنّ للإصلاح ثمناً، والثمن ربّما يكون
باهظاً على جيلٍ ليرتاح جيلٌ آخر...

مجهولة، ولم يطرقها من قبل سائح أو
مكتشف، فدرست جغرافيتها، وعرفت
أحوال سكانها ونباتها وأشجارها ومناخها
وحيواتها، فأفادت الحضارة والعلم بفوائد
جمّة، ثم أنّها بسطت في طريقها نفوذ
مصر، فخفقت الراية المصرية لأول مرة في
تلك الأصقاع النائية، تحمل في طياتها رمز
الحضارة والتقدم، فلا نبالغ إذا قلنا أنّ لهذه
الحملات فضلاً كبيراً من الوجهة القومية،
ولقد مهّدت السبيل للحملات التي نظّمها
الخديوي اسماعيل، فأكمل العمل الذي قام
به محمد علي، ووصل بحدود مصر إلى
منابع النيل.

الخاتمة:

شكلت فترة الحكم المصري بحسب
المؤرخين بداية تاريخ السودان الحديث، إذ
ظهرت خلال هذه الفترة الكينونة السياسيّة
الموحّدة للسودان، فقد أدخل الحكم
المصري مظاهر التحديث إلى تلك البقعة من
قارة كانت فيها حتّى ذلك العصر بقاعٌ
مجهولةٌ لم تطأها قدم إنسانٍ. فلولا
الحملات الاستكشافية التي قام بها
المصريون لما في رأيي فُتحت الأبواب
لاكتشاف ما تبقى من قارة إفريقيا، ولما
زال ربّما السودان حتّى الآن مسرحاً
تتناحر فيه القبائل، وبياع عبيده في أسواق
النّخاسة. فلولا ذلك الرجل المندفع إلى
الإصلاح المتأثر بأفكار الثورة الفرنسيّة

لائحة بالمصادر والمراجع

- السَّيِّد ناصر، التَّعليم في السُّودان، بيروت، دار القدس، ١٩٧٥.
- شقير نعوم، جغرافية وتاريخ السُّودان الطبعة الأولى، الخرطوم، دار عَزَّة للنَّشر والتَّوزيع، ٢٠٠٧.
- الرَّافعي عبد الرحمن ، الزَّعامة الشعبيَّة في السَّنوات الأولى من حكم محمد علي، القاهرة، مطابع الهيئة المصريَّة العامَّة ١٩٨٤ الجزء ٣.
- الغنَّام سليمان، سياسة محمد علي باشا التوسيعيَّة في الجزيرة العربيَّة والسُّودان واليونان وسوريَّا(١٨١١-١٨٤٠)، الدار البضاء، المركز الثَّقافي العربي، ٢٠٠٤.
- عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التَّراجم والأخبار، بيروت، دار الجيل، الجزء ٧.
- الرَّافعي عبد الرحمن ، «عصر محمد علي»، الطبعة الرَّابطة، بيروت، دار المعارف، ١٩٨٢.
- عبد اللَّطيف الأمين، العلاقات السُّودانيَّة المصريَّة: رؤية مستقبلية، الطَّبعة الأولى، سوريَّا، مركز محمد عمر البشير للدراسات السُّودانيَّة، ٢٠٠٦.
- إبراهيم حسن أحمد، محمد علي باشا في السُّودان، الطبعة الأولى، الخرطوم، دار جامعة الخرطوم للنشر، ١٩٧٣.
- موسى عبده مختار، «مسألة الجنوب ومهددات الوحدة في السُّودان»، الطبعة الأولى، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربيَّة، ٢٠٠٩.
- موسى عباس صالح، مسار الحكم المحلي في السُّودان، الطبعة الأولى، أمدرمان، مركز محمد عمر بشير للدراسات السُّودانيَّة، ٢٠٠٧.
- شكري محمد فؤاد، مصر والسُّودان تاريخ وحدة التَّيَل السياسيَّة في القرن التاسع عشر، (١٨٢٠ - ١٨٩٩)، القاهرة، دار المعارف

صور مدينة التعايش الإسلامي المسيحي والدور الذي لعبه رجال الدين بنجاح هذا التعايش

علي مسلماني

المسيحيين (مع تنوع المذاهب داخل الطائفة الواحدة).

حيث يشكل المسلمون « شيعة وسنة» الغالبية العظمى من سكان المدينة حوالي ٧٠٪ من سكان المدينة ٢٤٥٠٠ نسمة عام ١٩٧٥ م في حين يتنوع الوجود المسيحي بين موارنة وكاثوليك وأورثوذكس.

سأحاول في هذه الدراسة الإضاءة على دور رجال الدين «مسلمين ومسيحيين» في عملية التقارب بين أبناء مدينة صور والدور الذي أنتجه هذا التفاهم بينهم وانعكاساته على المدينة بشكل خاص وعلى الوطن بشكل عام.

الإمام السيد عبد الحسين شرف الدين:

مواليد عام ١٨٧٠ م (١٢٩٠ هـ) في الكاظمية (العراق) رقم السجل ١٠٣ حي المنارة - صور.

● دراسته الأولى وحتى إتمامه العلوم الفقهية والدينية والأدبية في النجف

لقد شكلت مدينة صور أنموذجاً فريداً من نوعه من خلال تعايش شرائحه الدينية والمذهبية في جو من التفاهم الكامل بين أطراف المجتمع السوري كافة طوال قرون من الزمن، إذ إن المجتمع السوري بمكوناته شهد تعاوناً كاملاً على الأصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية جميعها وحتى الثقافية، حتى في أشد الفترات قساوة من تاريخ لبنان، إذ شهدت كثير من المناطق اللبنانية اقتتالاً طائفيّاً أو مذهبيّاً منذ العام ١٩٧٥ م وحتى العام ١٩٩٠ م أدى إلى فرز ديمغرافي مقيت.

كانت مدينة صور تزخر بمفاهيم وعلاقات أخوية بين المسلمين والمسيحيين، ولم تشهد المدينة أية حوادث أمنية أو سياسية تذكر يمكن أن تعكر جو المدينة وتآلق أهلها وتعاونهم في المجالات كافة. وقد كانت الحياة الدينية تسير بطريقة عارية لكل مذهب أو طائفة سواء في المساجد عند المسلمين أو في الكنائس عند

الأشرف وسامراء (العراق) كانت على أيدي كبار العلماء والمراجع في الفقه الإسلامي والمذهب الجعفري.

● ثم أخذ يعطي الدروس إلى طلاب العلم والدين، وعمّا اكتنزه من المعارف بشتى المجالات، فاعتمد مدرستين بالتعليم:

١ - المسائل العلمية ٢ - المسائل الاجتماعية

● عام ١٩٠٢م وكان عمره ٣٢ عاماً، عاد إلى جذوره الأولى وموطنه الأصلي «جبل عامل» فاستقرّ بدايةً في بلدة «شحور» وبعد ها انتقل إلى مدينته صور عام ١٩٠٤م.

● كان مناضلاً في مواقفه وأعماله وخدماته الإنسانية والاجتماعية، فواجه منفرداً الاستعمار التركي، والانتداب الأجنبي (العهد الفرنسي)، مع بدايات الاستقلال، وقد تعرّض خلال العهدين (التركي والفرنسي) للمضايقات والاعتداءات المتكررة من قبل أذلامهم حيناً ومنهم مباشرةً حيناً آخر، وتمّ إبعاده مع أهله إلى دمشق ولكنه أثر الرحيل إلى مصر عبر طريق فلسطين، وهناك مكث مع علماء مصر في جامع الأزهر الشريف، ثم قرّر العودة إلى ديار الوطن فاستقرّ ببلدة «علما الشعب» مراقباً المتغيرات عن كثب،

وأثناء تشريده قسرياً أمعن الاحتلال الأجنبي وعملاؤه في غيهم فأشعلوا النار في داره في «شحور» لتصبح دماراً تذرّوه الرياح، وكذلك أيضاً في داره الكبرى «صور» فسلبوا ما فيها.

أما مكتبته الزاخرة بالمراجع والنفائس العلمية والأدبية والفقهية، فقد أحرقوها عمداً، نذكر منها تسعة عشر مؤلفاً من مؤلفاته التي كانت مدوّنة خطياً لنسخة أولى التهمتھا ألسنة النار التي ارتفعت في داره....

مؤلفاته الموجودة:

١ - المراجعات: عام ١٩٥٣م - ترجم إلى الفارسية ثم إلى الإنكليزية وإلى اللغة الأوردية (الهندية) ترجمها الدكتور السيد زيد الهندي.

٢ - الفصول المهمة في تأليف الأمة: عام ١٩٠٧م. ولقد زاد فيه بالطبعة الثانية عام ١٩٢٧م.

٣ - مسائل موسى جار الله: عام ١٩٣٦م.

٤ - الكلمة الغراء في تفصيل الزهراء:

٥ - المجالس الفاخرة في مآتم العترة الطاهرة:

٦ - أبو هريرة: عام ١٩٤٥م.

٧ - بغية الراغبين: «مخطوط» كتاب عائلي يؤرّخ شجرة آل شرف الدين. وقد

أكملهُ ابنه العلامة السيد عبدالله شرف الدين وطبعه.

٨ - فلسفة الميثاق والولاية: عام ١٩٤٠م، وطبعه ثانية عام ١٩٥١م.

٩ - ثبت الإثبات في سلسلة الرواة: يذكر فيه شيوخ وأعلام أهل المذاهب الإسلاميه جميعاً.

١٠ - مسائل خلافية: عن المذاهب الإسلاميه الخمسة ١٩٥٠م.

١١ - رسالة كلامية: حول الرؤية عام ١٩٥١م.

١٢ - كتاب إلى المجمع العلمي العربي بدمشق: عام ١٩٤٩م.

١٣ - الاجتهاد مقابل النص:

كان في النجف الأشرف إماماً في اللغة وعلوم العربية وآدابها، المنطق، التاريخ، الحديث، التفسير، الرجال، الرواية، الأنساب، الفقه، الأصول والكلام. وبالاختصار كان موسوعة عملية دينية أغنت التاريخ الإسلامي بنفائس مؤلفاته.

مرجعيتُهُ الإسلاميّة:

عام ١٩٢٠م حينما ذهب إلى حج بيت الله الحرام في مكة المكرمة «السعودية» وكان أول عالم شيعي أمّ بالجماهير المؤمنة، وهي أول مرّة تقام فيها الصلاة وراء إمام شيعي (جعفري) على هذا النحو العلني. (وهذا، يدلّ على مدى اجتهاده

وصدق مرجعيته وشخصيته الإسلاميّة الفذة والمعروفة آنذاك بالعالم الإسلامي).

مشاريعه العمرانية:

١- في البداية الأولى قام بإنشاء «حسينية» لإحياء المناسبات الدينية فيها عام ١٩٠٧م.

٢ - بنى مسجداً كبيراً عام ١٩٢٤م. ثم أكمله ببناء المئذنة عام ١٩٣٦م، ويقوم في وسطه عمودان ضخمان متبقيّان من الآثار الفينيقية أو الرومانية، (كان على نفقة المغترب علي فرحات)

٣ - أسّس مدرسة الإعدادية الجعفرية للذكور عام ١٩٣٧م.

٤ - بنى مسجداً قرب المدرسة ومقابل الحسبة القديمة، حالياً اسمه مسجد الإمام الصادق عليه السلام عام ١٩٤٠م، ولكن في ما بعد أكمل البناء والتأهيل للمسجد الحاج أسعد أسعد.

٥ - بنى نادي الإمام جعفر الصادق (كما هو حالياً قرب البوابة)، وكان على نفقة ابن صور الحاج حسن الرز عام ١٩٣٨م.

٦ - شيّد صرحاً علمياً وتربوياً أسماه «صرح المهاجر» وهو الكلية الجعفرية (حالياً اسمها الثانوية الجعفرية)، وخاصة لأبناء جبل عامل في نيل العلم والمعرفة، وكان على نفقة المهاجرين السوريين في

بلاد الاغتراب بغرب أفريقيا، بإشراف ولده السيد جعفر شرف الدين منذ عام ١٩٣٨م، ولقد اكتمل بناؤه عام ١٩٥٠م. (من مذكرات السيد شرف الدين).



الإمام السيد عبد الحسين شرف الدين رجل التعايش في لبنان

الإمام المغيب السيد موسى الصدر:

ولد في ٥ آذار ١٩٢٨م واختطف عام ١٩٧٨م.

١ - هو أول من جمع كلمة أبناء صور (حين مجيئه نهائياً من النجف - العراق).

٢ - وهو مؤسس أول مدرسة مهنية في صور والجنوب للفقراء والمحتاجين عام ١٩٦٦م تحت اسم «مؤسسة جبل عامل المهنية».

٣ - كان العراب الأول للحوار الإسلامي - المسيحي عبر لجنة اسمها «هيئة نصرّة الجنوب»، ولقد جسدها ميدانياً وعملياً بلقاءات يومية وزيارات متبادلة، وكان معه البطريرك أنطونيوس خريش في ١/٥/١٩٧٠م.

٤ - إنه مؤسس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى في ٢٦/١٢/١٩٦٧م.

والذي أصبح رئيساً له في ١/٥/١٩٦٩م.

٥ - والمؤسس الأول في وضع حجر أساس أو بناء جوامع وحسينيات في الجنوب والبقاع وبيروت منذ عام ١٩٦١م. وحتى اختطافه.

٦ - ومؤسس أفواج المقاومة اللبنانية (أمل) أطلقها في البداية سرّياً بأواخر أيار من عام ١٩٧٣م، ولكن الانطلاق الحقيقي والعلني كان عام ١٩٧٥م.

٧ - ومؤسس كشافة الرسالة الإسلامية عام ١٩٧٦م.

٨ - والداعم الأول والأساسي لإعطاء جمعية البر والإحسان - صور، ترخيصاً رسمياً بعلم وخبر رقم ١٤٢٦٤ بتاريخ ١٩٦٣م، ثم إعادة تجديدها عبر وزارة الشؤون الاجتماعية كي تكون ذات منفعة عامة بعلم وخبر رقم ٣/٢٠٦٩ بتاريخ ٣٠/١٢/١٩٧٧م.

٩ - وأول رجل دين إسلامي شجع الرياضة في صور ورعى احتفالاتها الرياضية منذ العام ١٩٦٣م (كرة قدم - ملاكمة - كمال أجسام - رفع أثقال).

١٠ - وفي تاريخ ٢٦/٥/١٩٧٠م. أعلن الإضراب الشامل في كل لبنان لأجل دعم الجنوب وعلى أثر ذلك وبناء



خلال لقاءاته مع مطران صور للروم الكاثوليك
(جورج حداد)

المطران حبيب قسطنطين باشا:

من مواليد ٢٤ حزيران ١٩٣١ م. حي
الكاثوليك - صور

١ - هو أول رجل دين من مدينة صور
أصبح مطراناً لبيروت وبلاد جبيل
وعن طائفة الكاثوليك الملكية.

٢ - من عام ١٩٣٦ - ١٩٤١ م، كانت
دراسته الأولى في المرحلة الابتدائية
في المدرسة الأسقفية - صور.

٣ - وفي عام ١٩٤٢ م، دخل في جمعية
رهبانية تابعة للمرسلين البولسيين.

٤ - ومن عام ١٩٤٢ - ١٩٥٦ م، تابع
دراسته التعليمية في مدرسة الآباء
البولسيين «حريصا» ثم المدرسة
الأكلييريكية للآباء البولسيين في
المراحل التكميلية - الثانوية - الفلسفة
- اللاهوتية.

٥ - سُمِّم كاهناً في ٢٩ حزيران ١٩٥٦ م،
ثم عمل أستاذاً لمادة الفلسفة
بالإكلييريكية البولسية «حاريس» حتى
عام ١٩٥٧ م.

لطلبه قامت الحكومة اللبنانية بتأليف
مجلس الجنوب في ٢/٦/١٩٧٠ م.

١١ - بتاريخ ٥/٥/١٩٧٤ م، أطلق صرخة
مدوية عبر مهرجان القسم في صور
«البوابة» مخاطباً فيه مباشرة الحكومة
اللبنانية والمقاومة الفلسطينية والدول
العربية لأجل حماية الجنوب من
الخطر الداهم، وحماية وإنصاف
المحرومين الجنوبيين خاصة
واللبنانيين عامة.

١٢ - وبين عام ١٩٧٥ م و١٩٧٨ م، قام
برحلات مكوكية متواصلة بين الملوك
والرؤساء العرب لإنقاذ لبنان من
الحرب الأهلية، ومنع استباحة
إسرائيل لأرض الجنوب حتى يوم
اختطافه مع رفيقيه الشيخ محمد
يعقوب والصحافي عباس بدر الدين
في ليبيا بين ٢٥ و٣١ آب ١٩٧٨ م.
ولا يزال اختطافه لغزاً محيراً!

١٣ - وبناءً على طلب الإمام شرف الدين
أصبح الإمام موسى الصدر خلفاً له
ومرجعاً للطائفة الشيعية في الجنوب
ولبنان منذ عام ١٩٦٠ م.



الإمام المغيب السيد موسى الصدر

- ٦ - ١٩٥٧-١٩٦٢م، كان مسؤولاً ورئيس دير باكليريكية الآباء البولسية في القدس (أورشليم). وأيضاً أستاذاً في علم الإسلام والفلسفة العربية باكليريكية القديسة حنة في القدس «فلسطين».
- ٧ - دُعي إلى روما لحضور المجتمع المسكوني الرابع للمجلس البابوي الحبري الشرقي في روما.
- ٨ - يحمل الشهادات التالية: بكالوريا لبنانية، فرنسية، ليسانس في اللاهوت وشهادة PATRISTIQUE ORIENTALE عام ١٩٦٨م.
- ٩ - منذ ٣ أيار ١٩٦٨م. تم انتخابه رئيساً عاماً لجمعية المرسلين البولسيين.
- ١٠ - رُسم مطراناً لمدينة بيروت في ١٤ أيلول ١٩٧٥م وهو لا يزال حتى الآن.

نشاطاته ومؤلفاته وأعماله:

- ١ - لقد أيقن أجدادنا أن الرسالة التي أكرموا بها أعلى كثيراً وأهم كثيراً من مصلحتهم الذاتية أو الجماعية... وكان همهم وطموحهم، في كل بقعة من بقاع هذا الشرف، أن يقيموا نموذجاً حضارياً للتعددية ضمن الوحدة والتضامن رغم التباين!... (عظة ميلاد ١٩٨٦م في كنيسة سيدة المعونة الدائمة - فرن الشباك).
- ٢ - لقد أوهمتنا الحرب في لبنان. وقد انسقنا إليها انسياق الأغبياء والسذج، أن باستطاعتنا الاستغناء عن الآخر وتفرد كل طائفة بمزاياها وموارثها الدينية والحضارية، وقد كلفتنا هذه الأوهام ضياع ما لدينا من ميراث مشترك بنيناه عبر السنين بانتهاج نهج التكامل والتفاعل بين الديانتين، واستثمار ما تحمله كل منهما من خصائص وروافد روحية وثقافية
- ٣ - كان محرراً ومعاوناً بمجلة المسرة «حريصاً».
- ٤ - أعد أطروحة بحث ودراسة عن مخطوطة ابن كمونة (مفكر يهودي بغدادي في القرن الثالث عشر)، ثم وضعها في كتاب عنوانه: TANKIN AL ABHATHLIL MILAL AL THALATH

٥ - هذا التلاقي بين الله والإنسان، وبين الإنسان وأخيه، هو سر التاريخ ومادته، ونواة الأديان ونبض الحضارات، به تتقدم البشرية ومن دونه تتقهقر. وكل مرة تشكو البشرية من خلل في مسيرتها، فسبب ذلك غياب الله عن دنيانا، أو انحسار نعمة الأخوة عن حياتنا! (عظة عيد الأبرشية في ٤ شباط ١٩٩٥م).

- «من محفوظات مطرانية صور للكاثوليك».



ابن صور المطران حبيب قسطنطين باشا مطران بيروت وبلاد جبيل للروم الكاثوليك



(راعي مطرانية صور المارونية)

المطران يوسف الخوري

وُلد في ٢٤ تشرين الثاني ١٩١٩م وتوفي عام ١٩٩٢م.

تغني بها الأخرى! (عظة فصح ١٩٩٣م، كنيسة سيدة الانتقال - الأشرافية)

٣ - لا نبكي على أطلال ولا نتوقف عند ذكريات مشؤومة. فما فات مات، والزمن ليس زمن انكفاء على الجروح والأحزان، بل زمن تطلع إلى فوق وامتداد إلى الأمام، لنرجح الحاضر على الماضي، والأمل على اليأس ووثبة العمل على عقم التلبّث في الأنين واجترار السواد! (عظة تدشين كنيسة القديسين بطرس وبولس في الحمراء ٢٥ نيسان ١٩٩٣م).

٤ - إن هذا الوقت والزمن اللذين يضعهما الله بين أدينا، هما ثروة ووديعة، لا نستطيع أن نفرط بها، لأن حياة الإنسان توازي قطرات دم المسيح الذي افتدانا وافتدى الزمن الذي نعيشه، فأصبحت كل دقيقة من حياتنا مفتداة بدم المسيح الثمين. ولا نستطيع أن نفرط بهذه اللحظات التي أعطانا الله أن نعيشها في هذا الزمن. وإنما ليبقى لنا أن نفكر بمستقبل حياتنا، فلا نتغاضى ولا نتعالى عنه، بل تكون لنا بصيرة ثاقبة لكي نعرف أين تتوجه بنا هذه النعمة التي أعطانا الله إياها! (عظة رأس السنة في كنيسة المخلص ١٩٩٤م).

المستشفيات مع إخوانه رجال الدين المسلمين ونزلت دموعه عندما رأى الجرحى وأعرب عن حزنه وتأثره لما حصل للشعب أثناء القصف والعدوان.

وكان المطران مارون صادر ولا يزال يعمل في خدمة صور والجنوب على الصعد كلها التي تضمن للإنسان كرامته وقد وقف إلى جانب صيادي الأسماك في معاناتهم وهو لا يفرق بين مواطن وآخر داخل الشريط الحدودي المحتل أو خارجه ويسعى لأن ينتمي الجميع إلى لبنان الواحد الموحد ويقول: كلنا أبناء لبنان أخوة في محبة الله والوطن...

المرحوم المطران جورج حداد (راعي اسقفية الروم الكاثوليك)

وُلد في ١٤ آذار ١٩٢٤م وتوفي عام ١٩٨٥م

١ - أول رجل دين مسيحي أعطى للكنيسة دورها الفعلي في رعاية شؤون الأهالي على حدٍ سواء من كل الطوائف في صور وقرى القضاء، وخاصةً في حضنه أبناء الفقراء والصيادين بإدخالهم المدرسة الأسقفية للروم الكاثوليك والتي بناها في منطقة جل البحر.

٢ - أحد المشاركين الأوائل في تأسيس هيئة نصره الجنوب مع الإمام المغيب

١ - هو أول رجل دين مسيحي ساهم فعلياً في تأسيس «هيئة نصره الجنوب» مع رفيق دربه الإمام المغيب السيد موسى الصدر.

٢ - أول مطران مكث في رعاية كنيسة صور أول مدة زمنية منذ عام ١٩٦٠م حتى يوم وفاته في ٥ شباط ١٩٩٢م.

٣ - وهو الداعم الأول لجمعية سيدة البحار التي تأسست عام ١٩٥٢م، ثم أعاد تأسيسها عام ١٩٦٢م. وأيضاً جمعية الشبيبة الطالبة المسيحية.... يكمل المطران مارون صادر مسيرة المطران الراحل يوسف الخوري والطريق والنهج الذي سار عليه بعد رحيله وهو الذي كان قد سار معه من الأساس في كل خطواته في صور والجنوب وحمل معه هموم وقضايا الأبرشية والمنطقة على الصعد كلها.

كان نائبه الأسقفي العام لفترة طويلة وكان يشارك في المناسبات والاحتفالات ومع الشخصيات الروحية الفاعلة في المجتمع، وقد ترك بصماته في الحقل التربوي والكنسي والاجتماعي والإنساني والوطني والثقافي وللمطران مارون صادر مواقف المشرفة في أثناء المحن التي مر بها الجنوب وآخرها عملية عناقيد الغضب ومجزرة قانا وقد تفقد الجرحى في

السيد موسى الصدر وتحت عنوان الحوار الإسلامي المسيحي، ولقد قاما معاً بتطبيقها عملياً عبر زيارات ولقاءات متبادلة بينهما.

٣ - أول من ساهم في رعاية الاحتفالات الرياضية طوال فترة الستينات.

٤ - عام ١٩٨٢م خلال الاجتياح الإسرائيلي بقي في صور لأجل خدمة الرعيّة وأبناء صور من الأسرى والمحتاجين.



«من محفوظات مطرانية صور للكاتوليك».

المطران بولس الخوري

راعي مطرانية صور للروم الأرثوذكس.

المواليد عام ١٨٩٦م - الكورة. الوفاة ١٩٩٥م.

- دروسه الابتدائية في قريته بتعبورة، ثم في القريتين المجاورتين لها كفر حاتا وكفتون.

- سنة ١٩٠٦م دخل مدرسة مار يوحنا مارون في كفر حي بقي فيها ثلاث سنوات فدرس مبادئ اللغتين الفرنسية والسريانية بالإضافة إلى العربية، وفي العام نفسه

دخل مدرسة البلمند الإكليريكية لمدة أربع سنوات تعلم خلالها مبادئ اللغة اليونانية والروسية والتركية.

- ١٧ تشرين الثاني ١٩١٢م سامه البطريرك غريغوريوس حداد، اغناطوسياً (مبتدئ) وسماه بولس في دير البلمند

- ١٥ آب ١٩١٦م سامه المطران جراسموس مرّه شماساً إنجيلياً.

- ١٩١٩م سافر إلى أثينا لطلب العلم فدخل مدرسة الرابزاريون الإكليريكية فدرس اللغات اليونانية واللاتينية والعبرانية لمدة ثلاث سنوات.

- حزيران عام ١٩٢٦م أنهى في كلية اللاهوت بجامعة أثينا علومه الجامعية، وبعد يومين من وصوله سامه كاهناً الأسقف إيليا الصليبي (متروبوليتاً لبيروت في ما بعد).

- ١٨ آذار ١٩٢٩م رقي إلى مرتبة أرشمنديت في دير البلمند.

- ١٩٢٩ - ١٩٣٤م أصبح بوظيفة المعتمد البطريركي في أبرشية جبل لبنان.

- ١٩٣٤ - ١٩٣٨م تم تعيينه رئيساً لكنيسة رؤساء الملائكة في القاهرة كان خلالها يعلم اللغة العربية، وحين عودته تم تعيينه رئيساً لكنيسة مارجرجس الكاتدرائية.

- خلال أعماله في بيروت اشترك في التظاهرات ضد الانتداب الفرنسي ١١ - ٢٤ تشرين الثاني ١٩٤٣ م، ودخل إلى الجامع العمري الكبير، مع عدد من كهنة الأرثوذكس، فألقى فيه خطاباً حماسياً ألهم الحضور.

- ٢٦ شباط ١٩٤٨ م انتخبه المجمع الإنطاكي المقدس بالإجماع مطراناً على صور وصيدا وتوابعها وفي ٩ تشرين الأول تسلم أبرشيته رسمياً في مراكزها الخمس (صور - صيدا - مرجعيون - حاصبيا - راشيا الوادي) فقام بترميم وإصلاحات هامة للكنائس بتلك المناطق المذكورة مع بناء مدارس جديدة وإصدار مجلة (الأرثوذكسية) لمدة سبع سنوات.

العلامة الشيخ موسى زهير

الولادة عام ١٨٧٧ - حي المصاروي.

الوفاة عام ١٩٦٥ م - صور.

سيرته:

سماحة الإمام الشيخ موسى بن محمد بن ابراهيم الصوري الأزهري الشافعي، الفقيه والخطيب والشاعر الصوفي. ولد في مدينة صور سنة ١٢٩٧ هـ في حارة المصاروي ومنزله لا يزال قائماً حتى الآن في ملك العائلة، ويسكنه أحد أنسابه. هو ثالث أربعة أبناء، إثنان يكبرانه سنّاً هما ابراهيم وخليل، وواحد يصغره هو أحمد،

إلى شقيقتين تكبرانه أيضاً، وكلهم ولدوا من أب وُلِدَ في صور عام ١٢٣٦ هـ (عام ١٨٢٠ م). كان ميسوراً ومشتهراً بالجود وبسط اليد حتى عُرف بلقب «أبو الغرابة» لأنه كان يؤوي كل عابر سبيل قادم إلى صور، ويهتم بكل من ينزل فيه لحاجة. وقد توفي عن ٩٠ عاماً ١٩١٠ م. منذ نشأته الأولى عُرف الشيخ موسى زهير بالورع والإصلاح وعفة النفس وحب العلم والفقه وأهله، وحينما بلغ السادسة عشرة من عمره سنة ١٨٩٣ م، ترك «صور» مفارقاً الأهل والصحب ميمماً شطر مصر عن طريق البحر. والتحق هناك بالأزهر الشريف طالباً العلم والفقه الإسلامي، وهناك التقى بالشيخ أحمد عمر المحمصاني «البيروتي»، فدرساً معاً ونالاً شهادة «العالمية». وإذ عاد الشيخ المحمصاني إلى بيروت بعد ذلك، فإن الشيخ موسى بقي في مصر قرابة أربعين عاماً أمضاهما في تدريس الفقه واللغة العربية وآدابها في المعاهد الأزهرية والمدارس المصرية أخاً وزميلاً للعلامة المصري الشهيد الشيخ سلامة العزامي رحمه الله، لكنه كان يزور أهله في صور من حين إلى آخر.

العودة إلى صور:

حين عاد الشيخ الإمام إلى مدينته صور عام ١٩٣٤ م من مصر ومعه أسرته للإقامة الدائمة فيها، ازدانت المدينة فرحاً ورحب

بمقدمه أعيان المدينة ورجالها، وكان أشد الناس فرحاً سماحة المرجع الإمام العلامة السيد عبد الحسين شرف الدين. فكانا معاً بغية كل طالب وملاذ كل سائل، وإليهما اجتمعت المدينة وعلى تأخيها وتلاقيهما قام نشء صوري طيب متآخٍ ومتحابٍ لم يعرف التفريق والتمييز، فكان المجتمع السوري على عهدهما من بعدهما مجتمعاً مثالياً فريداً.

بعد عودته من مصر، لم يشأ الشيخ الإمام ترك صور ومغادرتها، على الرغم من المحاولات التي بذلها سماحة مفتي الجمهورية اللبنانية آنذاك العلامة الشيخ محمد توفيق خالد رحمه الله لإقناعه بالإقامة في بيروت. فأقام في مدينته التي أبصر النور فيها بين أهله وصحبه حباً بها وبهم ونزولاً تحت الرغبات الحميمة التي أظهرها رجالات المدينة على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم.

تولى الشيخ الإمام تدريس الفتوى في صور، وكان القيم الأول على أوقافها وإمام مسجدها وخطيبه طوال ٣١ عاماً. ولما تقدّمت به السن وقد بلغ الخامسة والثمانين من عمره ولم يعد يقوى على التنقل في يسر، استشاره صاحب السماحة مفتي الجمهورية اللبنانية العلامة الشيخ محمد علايلي رحمه الله حول إمكان إرسال أحد المبعوثين الأزهريين إلى لبنان لمعاونته في

أمور الخطابة والإمامة والتدريس في مسجد صور، فرحب الشيخ الإمام بالفكرة. طلب سماحة المفتي إلى فضيلة الشيخ العلامة محمد فهيم أبو عبيد، رئيس بعثة الأزهر الشريف في لبنان تسمية أحد العلماء المصريين الأفاضل لهذه المهمة، فكان فضيلة الشيخ محيي الدين حسن الذي قدم إلى صور وظل يقوم بالمهمة الجليلة إلى أن انتهت فترة انتدابه في لبنان، فعاد إلى مصر، وبعد وفاة الشيخ الإمام وسفر فضيلة الشيخ محيي الدين، تولّى مهمة الخطابة والإمامة مبعوث أزهرى آخر هو الشيخ محمد الفاضل ثم الشيخ حسن عسكر، ثم تولّى مهمة الخطابة والإمامة فضيلة الشيخ أحمد الصديق إلى سنوات قليلة خلت بانتظار إعادة ترتيب الأوضاع على هذا الصعيد من جانب دار الفتوى في الجمهورية اللبنانية والمديرية العامة للأوقاف الإسلامية وتوافق المسلمين من أبناء المدينة الأفاضل.

كان منزل الشيخ الإمام أول الأمر في جوار المسجد، بيد أنه في أخريات أيامه انتقل منه إلى منزل آخر، كما أسلفنا، وما يستحق الذكر في المناسبة، أنه بعد انتقال سماحة الإمام المرجع العلامة السيد عبد الحسين شرف الدين إلى جوار ربه وقدم سماحة العلامة الإمام المغيب السيد موسى الصدر إلى صور على ركب وسعة كان

سماحته يحرص على زيارة الإمام الشيخ موسى في منزله. وقد قامت بينهما علاقة وثيقة وحميمة عامرة بالود والمحبة والاحترام، وهي علاقة تجسدت على أرض الواقع عملاً مشتركاً من أجل خدمة المدينة والسهر على خير أبنائها ورعاية مصالحهم العامة وحل ما استعصى من مشاكلهم.

كانت وفاة الإمام الشيخ موسى زهير في منزله في صور يوم الأربعاء في ٢٢ / ٤ / ١٩٦٥ م الساعة الثانية بعد الظهر، وقد دفن في تربة قبر العارف بالله الشيخ عبد الله المغربي الذي أقام في صور وكان في عصره أحد علمائها الأجلاء وتوفي فيها ودفن في باحة المسجد القديم والضريح الذي ضمّ الإمامين الجليلين لا يزال قائماً حتى الآن. ويوم أُعلنت وفاة الشيخ موسى خرجت صور عن بكرة أبيها مواكبة جنازته، وارتفعت المآذن في جميع أنحاء لبنان بالأذان، ونعته دار الفتوى والمديرية العامة للأوقاف الإسلامية، كما نعاها سماحة الإمام المغيب العلامة السيد موسى الصدر الذي أظهر حرصاً على تقبل التعازي فيه بنفسه إجلالاً لمقامه، ويومها ردد على مسامع الناس: لقد فقدت صور شيخها وعالمها، وفقدت أنا شخصياً مرشداً وموجهاً وأخاً أكبر!

الشاعر الصوفي

كان إلى ذلك كله شاعراً مطبوعاً مجيداً، له قصائد طوال في علم الكلام والسيره النبوية الطاهرة، وفي مختلف الفنون، وله معارضات لقصائد شهيرة أبرزها قصيدة «سر الهزار» التي عارض بها قصيدة «بانة سعاد» لـ كعب بن زهير بن سلمى وهي جاءت في نحو ٦٠ بيتاً، لم يبدأها بالغزل كقصيدة كعب، وإنما بالوصف ثم الغزل وصولاً إلى مدح النبي المصطفى ﷺ وسيرته العطرة... وله أيضاً قصيدة عصماء سماها «أم القرى» في العقيدة الصافية والسيره المطهرة تقع في ٢١٢ بيتاً، وله فيها التوسل به عليه الصلاة والسلام شعر كثير، وفي الترسل والوصل شعر قليل. وقد قدر له أن يسجل مولد النبي الكريم شعراً مخمساً في كتيب مطبوع سماه «السراج المنير» بدأه بذكر نسبه الشريف وختمه بقصة المولد. وله أيضاً قصائد في النصح والإرشاد. وكان راويته في كل شعره الرجل الفاضل الحاج حسن نعمة (أبو رشيد).

شعر الشيخ الإمام قريب جزل وسهل، وإن دل على شيء فعلى أنه كان رحمه الله مالكاً زمام اللغة عارفاً بفقها، مدركاً أبعادها ومعانيها، واسع الأفق بمراميها. وإلى ذلك كان له كتاب مخطوط وضعه في فقه الإمام الشافعي جاء بصيغة أسئلة

صلاة من الديان بالنور تسطع
كذاك سلام من سنا الشمس أسطع
على خير مخلوق له الكون يخضع
محمد المختار في الكل يشفع
إذا بعث الأموال تنتظر الحشرا
فمادحه مهما أطل وأطنبا
وأبدع في حسن المديح فأغربا
وواصل ليلاً بالنهار فأطربا
عليه صلاة الله ما هبت الصبا
كذاك سلام نفحه يزدرى العطرا
صلاة وتسليم على خير مرسل
بدين على الأديان يزهو ويعتلي
محمد الممدوح في كل منزل
هو السيد المنعوت بالمتزمل
صفات حبيب الله جاوزت الحصرا

وأجوبة... وقبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى
أوصى بأن يكتب على قبره بيتان من
قصيدته «سرّ الهزار» هما:

من لي أرجيه إن أودعت في جدتي
فوقي الرغام وسوّته المعاويل
سوى جنابك يا ذا الجود يا سندي
فيك الرجاء ومنك العفو مأمول
مختارات من شعره:

هنا مقاطع من كتابه «السراج المنير في
ذكرى ميلاد البشير النذير» سيدنا
محمد ﷺ:

صلاة من الرحمن تترى إلى الأبد
بغير تراخ دونما حصرٍ وعد
كذاك سلام نشره مسك وند
على خير عبد قوله القول الأسد
محمد المحمود ما بدت الزهرا

مقارنة المنهج اللبناني مع منهج البكالوريا الدولية في مادة الاقتصاد في المرحلة الثانوية

نجوى فهيم كمال الدين

المقدمة

بناءً على ذلك، جاءت مناهج التعليم العام الجديدة عام ١٩٩٧م، لتدخل مواداً جديدة على برامج التعليم في مرحلة التعليم الثانوي ومنها مادة الاقتصاد، بهدف تنمية مدارك المتعلم وقدراته وتوسيع آفاقه في هذا الميدان من جهة، ولربط البعد المحلي للحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية بالبعد العالمي من جهة ثانية، ولتمهيد الخوض في غمار الدراسات الاقتصادية في المرحلة الجامعية من جهة ثالثة.

ترمي الأهداف العامة لمادة الاقتصاد إلى تمكين المتعلم من اعتماد السلوك الاقتصادي المعقلن واستعمال المنهجية العلمية والتعرف إلى التداخل بين العلوم الصرفة والعلوم الإنسانية بالإضافة إلى الاطلاع على مشكلات مجتمعه وقضايا وطنه وتحليلها، وتطوير معرفته وتعزيز حسه بأهمية الاستثمار والإنتاج الوطني (الجريدة الرسمية، ٢٦، ١٩٩٧م، ص ٦٧٨). ونظراً لأهمية إضافة مادة الاقتصاد إلى

تسعى معظم المدارس التربوية الحديثة اليوم، إلى هدف واحد ذي وجهين: تكوين جيل واعٍ مدرك لأهمية العلوم من جهة، و متمكن من تطبيقها واستعمالها في تلبية احتياجاته الحياتية من جهة أخرى.

وللمناهج وتنظيمها، وما تنص عليه من أهداف، وما تتضمنه من توجهات، دور أساسي في توجيه العملية التربوية. وبعد جمود دام أكثر من ربع قرن في لبنان، وبهدف تحقيق نهضة تربوية شاملة ولدت خطة «النهوض التربوي في لبنان» التي حددت السياسة التربوية المستقبلية، ولحظت المشاريع المنوي تنفيذها خلال عقد التسعينيات من أجل إنماء المواطن اللبناني وتوجيهه ضمن فلسفة تربوية تنبثق من الدستور اللبناني وتعتمد نص وثيقة الوفاق الوطني وروحه. (خطة النهوض التربوي، ١٩٩٤م، ص ٣).

المناهج التعليمية، لما تحقّقه من أهداف وطنية واجتماعية واقتصادية، بالإضافة إلى الأهداف المعرفية، ونظراً لأنها أصبحت ضرورية لممارسة العديد من المهن في ظل التغييرات الجذرية التي طرأت على بنية سوق العمل وعلى علاقات الإنتاج، وحيث إنّ لجنة التربية النيابية التي صدّقت اقتراح قانون معادلة شهادة البكالوريا الدولية بالبكالوريا اللبنانية، من هنا تأتي أهمية مقارنة منهجي مادة الاقتصاد في كل منهما من حيث: الأهداف، المحتوى، وطرق التدريس والتقييم -.

١ - مشكلة البحث

انبثقت المناهج اللبنانية من «خطة النهوض التربوي»، التي ركّزت في مراميها الرئيسية على الهوية اللبنانية والانصهار الوطني وتزويد النشء بالمعارف والخبرات والمهارات اللازمة مع التشديد على التنشئة الوطنية والقيم اللبنانية الأصيلة، وتحقيق التكامل والملاءمة بين التربية والتعليم من جهة، وحاجات سوق العمل اللبناني والعربي من جهة أخرى، إضافة إلى مواكبة التقدم العلمي والتطور التكنولوجي وتعزيز التفاعل مع الثقافات العالمية وغيرها من الأبعاد والأهداف. (خطة النهوض، ١٩٩٤م، ص ٤)

بينما تعلن البكالوريا الدولية أنها تسعى إلى إعداد المواطن العالمي، إذ إنّ «اعتماد البكالوريا الدولية يمكن الشباب من السعي

للتعلم مدى الحياة بمفردهم وبالتعاون مع الآخرين، وهو يُعدّ مجتمعاً من المتعلمين للانخراط في التحديات العالمية عبر البحث والتساؤل والعمل والتأمل. والهدف من برامج البكالوريا الدولية جميعها هو إعداد أفراد ذوي عقلية دولية يُساهمون في خلق عالم أفضل وأكثر سلاماً، ويدركون أنّهم يشتركون مع الآخرين في الطبيعة الإنسانية وفي تعهد الأرض والوصاية عليها». (ما هو تعليم البكالوريا الدولية، ٢٠١٥م، ص ١-٤).

على الرغم من الإيجابيات الخاصة بكل من المنهجين، ونظراً للدراسات التي تجري حالياً لمعادلة البكالوريا اللبنانية بالبكالوريا الدولية (IB)، يطرح السؤال التالي:

ما مدى تطابق منهج مادة الاقتصاد في كل من منهجي البكالوريا اللبنانية والبكالوريا الدولية في مادة الاقتصاد؟ وما هي أوجه الخلاف؟ وما هو تأثيرهما على المتعلم؟

أولاً - المنهج اللبناني:

تمهيد:

العملية التربوية المدرسية هي تلك العملية المنظمة (بمنهج وبرنامج) الساعية إلى إحداث التعلم عند جمهرة من المتعلمين بواسطة العملية التعليمية. وقد يُعرّفها البعض أنها عملية ضبط وتوجيه للتعلم.

ومنتج في المجتمع الديمقراطي المنتمي إليه، وكمواطن مدني له حقوق وعليه واجبات، ومؤمن بمبادئ ومرتكزات الوطن، وتستجيب هذه المناهج لضرورة بناء مجتمع متطور يتعاون ويتلاحم فيه أبناءه في جو من الحرية والديموقراطية والعدالة والمساواة. واستوتحت هذه المناهج غاياتها من الأبعاد الفكرية والإنسانية والوطنية والاجتماعية الآتية:

أ - الأبعاد الفكرية والإنسانية

ومن بين هذه الأبعاد: الإيمان والالتزام بلبنان وطناً للحرية والعدالة والديموقراطية، الإيمان بالمبادئ التي تحترم حقوق الإنسان، صون وتعزيز التراث الروحي كنموذج للتفاعل والانفتاح الروحي والفكري، الالتزام بالثقافة الوطنية وضرورة الانفتاح على الثقافات العالمية ومستجدات العصر... إلخ

ب - الأبعاد الوطنية

ومن ضمنها: الالتزام بأن لبنان وطن سيد حر مستقل، وهو وطن نهائي لجميع أبنائه... وهو عربي الهوية والانتماء، وعضو مؤسس وعامل في جامعة الدول العربية، ومنظمة الأمم المتحدة وملتمزم موثيقهما...

ج - الأبعاد الاجتماعية

ومن بين هذه الأبعاد: الالتزام بسيادة

ومفهوما الضبط والتوجيه يستلزمان وجود: مرام intentions (غايات fins وكفايات compétences وأهداف objectifs) جيدة التحديد، منهج دراسي ب مواد وأدوات (كتب، وسائل تعليم..)، طرائق تعليم، إدارة لضبط التعلم وتوفير مستلزماته، ومعلمين يعملون من أجل تحقيق المرامي، إضافة إلى التقويم. (قببسي، د. ت، ص ٥). لذا بات من الضروري إلقاء الضوء على المرامي التي يسعى إليها كل من المنهجين اللبناني والدولي.

١ - غايات المناهج التعليمية اللبنانية

تناولت خطة النهوض التربوي، التي أقرتها الحكومة اللبنانية عام ١٩٩٤م، غايات رئيسة متعددة منها: تعزيز الانتماء والانصهار الوطني والانفتاح الروحي والثقافي، وذلك بإعادة النظر في المناهج وتطويرها، والوصول إلى تحقيق التوازن بين التعليم العام الأكاديمي والتعليم المهني والتقني وتوثيق صلتهما بالتعليم العالي، تحقيق الملاءمة والتكامل بين التربوية والتعليم من جهة وحاجات المجتمع وسوق العمل اللبناني والعربي من جهة ثانية، مواكبة التقدم العلمي والتطور التكنولوجي وتعزيز التفاعل مع الثقافات العالمية... (خطة النهوض التربوي، ١٩٩٤م، ص ٤).

كما تتوخى المناهج التعليمية الجديدة تنمية شخصية الفرد اللبناني كعضو صالح

القانون على المواطنين جميعاً تحقيقاً للعدل والمساواة، احترام الحريات الفردية والجماعية التي نص عليها الدستور اللبناني وأكدت عليها شرعة حقوق الانسان، حق المواطن بالمشاركة في العمل الاجتماعي والسياسي... إلخ (خطة النهوض التربوي في لبنان، ١٩٩٤م، ص ٦-٨)

ثانياً: منهج البكالوريا الدولية:

غايات البكالوريا الدولية: تهدف البكالوريا الدولية إلى تطوير الشباب ذوي الذهنية الاستعلامية، المطلعين، المتعاطفين مع الآخرين، والذين يساعدون على خلق عالم أفضل وأكثر سلاماً من خلال التفاهم والاحترام ما بين الثقافات المتنوعة. ولتحقيق هذا الهدف، تعمل المنظمة يداً بيد مع المدارس والحكومات والمنظمات الدولية لتطوير برامج تعليم دولية تتسم بالتحدي، وتتمتع بتقويم دقيق جداً.

تشجع هذه البرامج الطلاب في جميع أنحاء العالم ليصبحوا متعلمين نشيطين ومتعاطفين مع شعور الآخرين، ولكي يستمروا في التعلم مدى الحياة مدركين أن الآخرين قد يكونون على صواب أيضاً. إنَّ الهدف من برامج البكالوريا الدولية كلها هو إعداد أفراد يفكرون بعقلية دولية ويسهمون في خلق عالم أفضل وأكثر سلاماً، من خلال إدراكهم أنَّهم يشتركون مع الآخرين في

الطبيعة الإنسانية وفي تعهد الأرض والوصاية عليها. (ما هو تعليم الكالوريا الدولية؟، ٢٠١٥م)

١ - ملامح المتعلم في البكالوريا الدولية:

يسعى المتعلمون في البكالوريا الدولية، إلى أن يكونوا:

متسائلين: يطورون المهارات اللازمة للأبحاث، ويعرفون كيف يتعلمون بأنفسهم ومع الآخرين وذلك مدى الحياة. **مطلعين:** يكتشفون المعرفة عبر مجموعة من الفروع المعرفية، ويطورون الاستيعاب المبني على المفاهيم، وينخرطون في الأفكار وفي القضايا ذات الأهمية محلياً وعالمياً. **مفكرين:** يستخدمون مهارات التفكير الناقد والإبداعي، وذلك لمعرفة ومقاربة المشكلات المعقدة، ويتخذون المبادرة لاتخاذ قرارات أخلاقية لحلها.

متواصلين: يعبرون عن أنفسهم بثقة وإبداع بأكثر من لغة، ويتعاونون تعاوناً فعلياً ويصغون لوجهات نظر الآخرين. **أصحاب مبادئ:** يتصرفون بنزاهة وأمانة، مع شعور قوي بالإنصاف والعدالة والاحترام تجاه كرامة الإنسان وحقوقه، ويتحملون المسؤولية عن تصرفاتهم وتبعاتها.

منفتحين: يفهمون ويقدرّون ثقافتهم وتاريخهم الشخصي، وقيم الآخرين

وعاداتهم وتقاليدهم، ويسعون للاطلاع على مجموعة من وجهات النظر وتقويمها، وهم مستعدون للتعلم والاستفادة من خلال التجربة. **متوازنين**: يفهمون أهمية التوازن الفكري والجسدي، والعاطفي لتحقيق الرفاهية الشخصية لهم وللآخرين. **متأملين**: يمعنون التفكير في أفكارهم وخبرتهم، ويعملون على فهم نقاط القوة والضعف لديهم بهدف دعم تعلمهم ونموهم الشخصي.

التحليل:

يلاحظ من خلال غايات المناهج اللبنانية والأبعاد الثلاثة لها، أنها تركز على تحقيق الملاءمة والتكامل بين التربية والتعليم من جهة، وحاجات المجتمع وسوق العمل اللبناني والعربي من جهة ثانية، ومواكبة التقدّم العلمي والتطور التكنولوجي وتعزيز التفاعل مع الثقافات العالمية وتنمية شخصية الفرد اللبناني كعضو صالح ومنتج في المجتمع الديمقراطي المنتمي إليه... كما تركز في الأبعاد الفكرية **والإنسانية والوطنية والاجتماعية** على الهوية اللبنانية والانتماءين الوطني والعربي، والمنظومة القيمية للمجتمع اللبناني ومحيطه العربي، بينما تهدف برامج البكالوريا الدولية كلها إلى إعداد أفراد يفكرون بعقلية دولية ويسهمون في خلق عالم أفضل وأكثر سلماً، من خلال إدراكهم أنّهم يشتركون مع الآخرين في

الطبيعة الإنسانية وفي تعهّد الأرض والوصاية عليها، هذا إضافة إلى إكسابهم مهارات ومعارف وقيم ومواقف تم تحديدها في ملامح المتعلم، وعلى الرغم من هذه الإيجابيات، لا بد من طرح السؤال حول مدى تأثير هذا البرنامج على الانتماء الوطني ومفهوم المواطنة بشكل خاص والانتماء العربي بشكل عام.

ثالثاً: تعليم الاقتصاد في المناهج اللبنانية:

انسجماً مع تنوع الاختصاصات في التعليم العالي التي أصبحت تطلّ علوماً ومهارات حديثة تنتمي إلى مجموعة العلوم الاجتماعية والإنسانية، تم إدخال فرع جديد (اجتماع / اقتصاد) في المرحلة الثانوية، من شأنه أن يستجيب لهذه التطورات بشكل أفضل. (الهيكلية الجديدة، ١٩٩٥م، ص ٣١).

تدرّس مادة الاقتصاد في المرحلة الثانوية في المناهج اللبنانية، والحصص المقررة لها هي كالاتي:

تمت الدراسة في المرحلة الثانوية في ثلاثة صفوف: الثانوي الأول وهو جذع مشترك بمعدل ٢٥ حصة سنوياً، الثانوي الثاني (بفرعيه العلمي والانسانيات) وبمعدل ٢٥ حصة سنوياً، والثانوي الثالث فرع الاجتماع والاقتصاد وبمعدل ١٠٠ حصة سنوياً. (توصيف مادة الاقتصاد، ٢٠١٧م).

رابعاً: تعليم الاقتصاد في منهج البكالوريا الدولية

الفروع الأكاديمية في البكالوريا الدولية: هناك ستة فروع أكاديمية في البكالوريا الدولية:

– الأول هو دراسات في اللغة والأدب؛ والثاني هو اكتساب اللغة؛ والثالث يشمل الأفراد والمجتمعات (وهو المجال الذي يتضمن مادة الاقتصاد)، أما الرابع فيتضمن الرياضيات؛ والخامس يشمل العلوم؛ والسادس يتضمن الفنون.

كيفية اختيار الطالب للفرع الدراسي:

يطلب من المتعلم اختيار موضوع واحد من كل من الفروع الأكاديمية الستة، ويمكن أن يختار موضوعاً ثانياً من الفرع نفسه، وهذه المواد يمكن أن يدرسها المتعلم باعتماد أسلوب المستوى الأعلى (-HL Higher Level)، أو المستوى القياسي (Standard Level- SL)، ولكن تجدر الإشارة هنا إلى أنه يتوجب على المتعلم اختيار ثلاثة مواضيع (أو أربعة لا أكثر) من المستوى الأعلى (HL-Higher Level) خلال فترة الدراسة، وتؤخذ المواد الأخرى من المستوى القياسي (-Standard Level SL)، مع الأخذ بالحسبان أن دراسة الموضوعات في (HL) تتم بعمق أكبر واتساع أكثر من (LS)، كما أنهما يختلفان من حيث طبيعة الامتحان والتقييم الداخلي. ويوصي المكتب الدولي بـ ٢٤٠ ساعة

تدريس للمواد التي تدخل ضمن إطار ال (HL)، و١٥٠ ساعة تدريس للمواد التي تدخل ضمن إطار ال (SL) خلال فترة الدراسة الموزعة على سنتين دراسيتين (الحادي عشر والثاني عشر). كما يتم تطوير العديد من المهارات، وخاصة مهارات التفكير النقدي والتحليل في المستويين (LS HL -). ومن الطبيعي أن يتمّ قياس قدرات الطلاب عن طريق التقويم الخارجي. هذا إلى جانب العديد من المواضيع تحتوي على تقارير في مواضيع اقتصادية أو مشروع بحث والتي يتمّ تقويمها من قبل المعلمين في الصف. (Business management guide,2016, p3-7)

التحليل:

يلاحظ مما تقدّم، اختلاف في السنوات الدراسية في المرحلة الثانوية في كل من المنهجين فهي تتوزع على ثلاث سنوات في المناهج اللبنانية بينما تتوزع على سنتين في مناهج البكالوريا الدولية، ويوجد اختلاف أيضاً من حيث عدد الساعات المطلوبة من المتعلم في كل من المنهجين وحسب المجال الذي اختاره المتعلم في البكالوريا الدولية، كذلك الأمر، فالمطلوب من المتعلم في برنامج البكالوريا الدولية اختيار مادة اجتماعية واحدة (يعني ممكن أن يختار إدارة أعمال أو اقتصاد أو اجتماع أو تربية...)، في حين أن كتاب الاقتصاد للصفوف الثانوية اللبنانية يتضمن اقتصاد

وإدارة أعمال وحسابات مالية... كما أن المتعلم في لبنان يتوجب عليه دراسة جميع المواد الاجتماعية لزاماً.

خامساً: مقارنة بين منهجي البكالوريا اللبنانية والبكالوريا الدولية في مادة الإقتصاد:

١ - الأهداف العامة لمادة علم الإقتصاد في كل من المنهجين:
التحليل:

يلاحظ من خلال الجدول رقم (١) أن

الأهداف العامة في كلا المنهجين تتناول الخصائص الثقافية والاجتماعية والسلوكية في المجتمع ومعالجتها بطرق علمية، ولكن يتبين من خلال الجدول أن المنهج اللبناني ركّز في أهدافه العامة على المجتمع الوطني (مشكلات مجتمعه وتعزيز حسه بأهمية الاستثمار والإنتاج الوطني)، بينما وسّع المنهج الدولي دائرة معارف المتعلم من المجتمع المحلي إلى المجتمعات الدولية الأخرى، ولم تتناول أهدافه العامة أهمية الاستثمار والإنتاج على الصعيد الوطني،

جدول رقم (١): مقارنة الأهداف العامة لمادة علم الإقتصاد في المنهجين اللبناني والدولي (IB)

المنهج اللبناني	المنهج الدولي
١- يتمكن المتعلم من تعميق إلمامه بالخصائص الثقافية والسلوكية والإقتصادية لمختلف الفئات الاجتماعية (العمرية، المهنية، الجنسية، الإقتصادية...).	١- يستهدف برنامج البكالوريا الدولية المتعلمين ضمن الفئة العمرية (١٦-١٩ سنة). جميع المواد الداخلة في نطاق الأفراد والمجتمعات تهدف إلى:
٢- يتحسّن المتعلم تداخل المعارف الاجتماعية والإقتصادية والإدارية وأهميّة امتلاكها من أجل مقارنة متعدّدة الأبعاد للظواهر والقضايا الحياتية والمهنية.	١- تشجيع الدراسة الممنهجة والنقدية في ما يخص: الخبرة والسلوك الإنساني، البيئات المادية والإقتصادية والاجتماعية؛ وتاريخ وتطور المؤسسات الاجتماعية والثقافية.
٣- يطلع المتعلم على مشكلات مجتمعه الاجتماعية والإقتصادية، ويتعرّف على قضاياها ويعتاد على منهجية تشخيصها ومعالجتها بموضوعية.	٢- تطوير قدرة الطالب على التحليل الناقد وتقويم النظريات والمفاهيم والحجج حول طبيعة وأنشطة الفرد والمجتمع.
٤- يعمّق المتعلم إدراكه البعد العلمي للمعارف الاجتماعية والإقتصادية والإدارية، وكذلك الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية للمعارف العلمية الصرفة.	٣- تمكين الطالب من جمع ووصف وتحليل البيانات المستخدمة في دراسات المجتمع، واختبار الفرضيات وتفسير البيانات المعقدة والمصادر المختلفة.
٥- يعقلن المتعلم سلوكه الإقتصادي، يطور معرفته، ويعزّز حسه بأهميّة الاستثمار والإنتاج الوطني.	٤- تعزيز التقدير للطريقة التي يكون فيها التعلم ذات صلة بكل من الثقافة التي يعيشها الطالب وثقافة المجتمعات الأخرى.
٦- يطور المتعلم تفاعله، بما يمكنه من الاندماج الاجتماعي، والمشاركة في النشاطات التنموية في محيطه ويعتاد على استعمال المنهجية العلمية عند تعاطيه بالشأنين الإقتصادي والاجتماعي.	٥- تطوير الوعي لدى الطالب بأن المواقف والآراء البشرية هي متنوعة ومختلفة، وان دراسة المجتمع يتطلب التقدير لهذا التنوع.
	٦- تمكين الطالب من إدراك أن محتوى ومنهجيات المواضيع المتعلقة بالأفراد والمجتمعات هي قابلة للنقاش.

المصدر: (الجريدة الرسمية، ٢٦، ١٩٩٧م، ص: ٦٨١-٦٨٦).

وتطرقت الأهداف العامة في المناهج اللبنانية أيضاً إلى الاطلاع على المشكلات ومعالجتها بموضوعية، بينما ركّز المنهج الدولي (IB) على التحليل الناقد واختبار الفرضيات وتفسير البيانات المعقدة.

٢ - الأهداف الخاصة لمادة علم الاقتصاد في كل من المنهجين (اللبناني والدولي).

جدول رقم (٢): مقارنة الأهداف الخاصة لمادة علم الاقتصاد في المنهجين اللبناني والدولي (IB)

المنهج اللبناني	المنهج الدولي
<p>٢- الأهداف الخاصة لكل سنة</p> <p>السنة الأولى الثانوية:</p> <p>أ- مادة الاقتصاد</p> <p>١ - يكتسب المتعلّم المفاهيم الأساسية التي تمكنه من التعرف إلى الأوضاع الاقتصادية للمجتمع .</p> <p>٢ - يستعمل المتعلّم المفاهيم الاقتصادية الأساسية لمقاربة الواقع الاقتصادي المعاش .</p> <p>٣ - يتعرّف المتعلّم إلى المنشآت الاقتصادية من حيث الشكل القانوني والوظائف الاقتصادية والإدارية المختلفة .</p> <p>٤ - يتلمّس المتعلّم المعطيات الماديّة والمالية والإدارية تمهيداً لفهم واقع الحياة الاقتصادية .</p> <p>السنة الثانية الثانوية - فرعاً الإنسانيات والعلوم</p> <p>أ - مادة الاقتصاد .</p> <p>١ - يستوعب المتعلّم المفاهيم العملائية في المجالات الاقتصادية تحقيقاً لفهم أولي لأواليات الأنشطة الاقتصادية .</p> <p>٢ - يتمرّس المتعلّم بالأعمال التطبيقية ويجمع المعطيات من الميدان لتعزيز قدراته ومهاراته الشخصية .</p> <p>٣ - يكتسب المتعلّم أصول القيام ببعض العمليات الأولية في التحليل الاقتصادي والمحاسبي .</p> <p>السنة الثالثة الثانوية - فرع الاجتماع والاقتصاد</p> <p>ب - مادة الاقتصاد:</p> <p>١ - يتعرّف المتعلّم الى التجارب التنموية العالمية لاستخلاص القوانين التي تؤهل البلد المعني للخروج من حال التخلف الى حال التنمية .</p> <p>٢ - يتعرف المتعلّم الى السياسات الاقتصادية الظرفية والبنوية التي تعتمدها الدولة لتنظيم الاقتصاد الوطني وتنميته .</p> <p>٣ - يتعرّف المتعلّم الى مبادئ التحليل الاقتصادي الكمي والنوعي ويتمرّس ببعض الأعمال التطبيقية في المجالات الاقتصادية .</p> <p>٤ - يكتسب المتعلّم بعض مفاهيم علم الادارة وأسسها .</p>	<p>الأهداف في دورتي الإقتصاد وإدارة الأعمال:</p> <p>تهدف دورة الإقتصاد في (HL-LS) إلى ما يلي :</p> <p>١ - تطوير وعي المتعلمين للنظريات والمفاهيم في كل من الإقتصاد الكلي والإقتصاد الجزئي وتطبيقها .</p> <p>٢ - تطوير تقدير المتعلمين للتأثير الذي تعكسه التفاعلات الإقتصادية بين الدول على الأفراد والمجتمعات .</p> <p>٣ - تنمية وعي المتعلمين بقضايا التنمية التي تواجه الدول التي تمر بعملية تغيير .</p> <p>- دورة إدارة الأعمال في (L-LS) تسعى إلى :</p> <p>١ - تشجيع المتعلمين على اعتماد نظرة شمولية لعالم الأعمال .</p> <p>٢ - تمكين المتعلمين من التفكير النقدي والاستراتيجي بالنسبة للسلوك الفردي والتنظيمي .</p> <p>٣ - تعزيز أهمية استكشاف القضايا التجارية من وجهات النظر الثقافية المختلفة .</p> <p>٤ - تمكين المتعلم من تقدير طبيعة وأهمية التغيير في مختلف المستويات المحلية والإقليمية والعالمية .</p> <p>٥ - تعزيز وعي المتعلمين بأهمية العوامل البيئية والاجتماعية والأخلاقية في أعمال الأفراد والمنظمات .</p> <p>٦ - تطوير وعي المتعلمين لأهمية الابتكار في بيئة الأعمال .</p>

(الجريدة الرسمية، ٢٦، ١٩٩٧م، ص: ٦٨١-٦٨٦) و (Business management guide, 2016, p17)

التحليل

أما بالنسبة إلى المضمون فركّزت الأهداف الخاصة في البكالوريا الدولية على التفكير النقدي الاستراتيجي والابتكار، واعتماد النظرة الشمولية في عالم الأعمال وتعزيز وعي المتعلمين بأهمية العوامل البيئية والاجتماعية والأخلاقية في أعمال الأفراد والمنظمات، بينما ركّز المنهج اللبناني على اكتساب المفاهيم المختلفة ومقاربتها بالواقع المعاش، وتطرقت أيضاً إلى التجارب التنموية في بعض البلدان، في حين تناولت بعض الأهداف مواضيع مشتركة بين المنهجين.

٣ - مقارنة المنهجين اللبناني والدولي لمادة علم الاقتصاد من حيث المحتوى.

من حيث الشكل يلاحظ من خلال الجدول رقم (٢) أن الأهداف الخاصة في المناهج اللبنانية تتوزّع على السنوات الدراسية الثلاث، وهي تتضمن أهدافاً لها صلة بالموضوعات الاقتصادية والمحاسبية وأهدافاً لها علاقة بإدارة الأعمال، بينما تم فصل المواضيع الاقتصادية عن المواضيع التي لها علاقة في إدارة الأعمال في مادتين مختلفتين في المنهج الدولي، ويحق للمتعلم اختيار إما دورة في الاقتصاد أو دورة في إدارة الأعمال أو أية دورة تتعلق بالمواد الاجتماعية الأخرى وبالتالي من الممكن عدم تحقيق جميع هذه الأهداف في حال لم يختار المتعلم هذين الموضوعين أو قد يتحقق الجزء المتعلق بإحدى المواد.

جدول رقم (٢): مقارنة المحتوى لمادة علم الاقتصاد في المنهجين اللبناني والدولي (IB)

المنهج اللبناني	المنهج الدولي
<p>المحتوى موزع على ثلاث سنوات دراسية بمعدل:</p> <p>٢٥- حصة للصف الثانوي الأول.</p> <p>٢٥- حصة للثانوي الثاني علوم وإنسانيات.</p> <p>١٠٠- حصة للصف الثانوي الثالث (اقتصاد واجتماع)</p> <p>السنة الثانوية الأولى</p> <p>أ- محتوى مادة الاقتصاد:</p> <p>١ - مواضيع علم الاقتصاد</p> <p>٢ - العمل والقوى العاملة.</p> <p>٣ - الرأسمال.</p> <p>٤ - المنشأة الاقتصادية.</p> <p>٥ - الدخل.</p> <p>٦ - استعمالات الدخل الأسري.</p>	<p>تجدر الإشارة إلى أن هذا المحتوى موزع على سنتين دراستيين (الحادي عشر والثاني عشر) بما يعادل ٢٤٠ ساعة للمستوى المتقدم HL:High Level و ١٥٠ ساعة للمستوى القياسي SL:Standard Level وذلك في كل من دورتي الاقتصاد وإدارة الأعمال:</p> <p>مادة الاقتصاد</p> <p>١ - الإقتصاد الجزئي:</p> <p>- آليات السوق. (البعض من مواضيعه في HL فقط)</p> <p>- المرونة.</p> <p>- نظرية المنشأة. (البعض من مواضيعه في HL فقط) - تدهور السوق. (البعض من مواضيعه في HL فقط) - تدخّل الحكومات. (HL فقط)</p>

<p>٢ - الإقتصاد الكلي:</p> <p>- قياس الدخل الوطني . (أحد مواضيعه في HL فقط) - مدخل إلى التنمية . (أحد مواضيعه في HL فقط) - نماذج الإقتصاد الكلي . (البعض من مواضيعه في HL فقط) - سياسات العرض والطلب . (البعض من مواضيعه في HL فقط) - التضخم المالي والبطالة . - توزيع المداحيل .</p> <p>٣ - الإقتصاد العالمي:</p> <p>- شروط التجارة . (أحد مواضيعه في HL فقط)</p> <p>- سوق المنافسة الحرة/الحمائية . (البعض من مواضيعه في HL فقط) - الإقتصاد المختلط . (البعض من مواضيعه في HL فقط)</p> <p>- منظمة التجارة العالمية . (البعض من مواضيعه في HL فقط)</p> <p>- ميزان المدفوعات . (فقط في HL) - تبادل العملات . - معدّلات التبادل .</p> <p>٤ - التنمية الإقتصادية:</p> <p>- مصادر النمو الإقتصادي و/أو نتائج التنمية على النمو - استراتيجيات النمو والتنمية - تقييم استراتيجيات النمو والتنمية - أدوار المساعدات الخارجية المتعدّدة الأطراف (HL فقط) - دور الديون الدوليّة - التوازن بين الأسواق والتدخّل .</p> <p>إدارة الأعمال</p> <p>١ - تنظيم الإدارة وبيئة الأعمال.</p> <p>- مدخل إلى علم الإدارة - أنواع المنشآت - أهداف المنشآت الإقتصادية - الشركاء - بيئة العمل الخارجية - النمو والتطور - أدوات التنظيم والتخطيط (HL) فقط .</p> <p>٢ - إدارة الموارد البشرية.</p> <p>- وظائف وتطور إدارة الموارد البشرية - الهيكل التنظيمي - الإدارة والقيادة - التحفيز - ثقافة التعاون والتنظيم (HL) فقط - علاقات العمل داخل المنشأة (HL) فقط .</p> <p>٣ - الحسابات المالية.</p> <p>- مصادر التمويل - الإيرادات والنفقات - تحديد عتبة الربحية - حساب النتيجة (HL) فقط - تحليل معدّل الربحية والسيولة - تحليل معدّل الفعالية (HL) فقط - الدفقات المالية - تقييم الاستثمار (HL) فقط - الميزانية . (HL) فقط .</p> <p>٤ - التسويق. - دور التسويق - تخطيط التسويق - المبيعات المتوقّعة (HL) فقط - دراسة السوق . - المنتج والأسعار والأعلان والموقع الجغرافي - المنتج والأسعار والأعلان والموقع الجغرافي والبراهين الماديّة وآلية التسليم والزائن (HL) فقط . - السوق العالمي (HL) فقط - التجارة الالكترونية .</p> <p>٥ - إدارة العمليّات / التشغيل. - دور إدارة العمليّات / التشغيل - طرق الإنتاج - الإنتاج البسيط والإدارة النوعية (HL) فقط - الموقع - خطط الإنتاج - البحث والإنماء (HL) فقط - إدارة الأزمات (HL) فقط .</p>	<p>السنة الثاوية الثانية - فرع</p> <p>الإنسانيات</p> <p>أ - محتوى مادّة الإقتصاد</p> <p>١ - الدارّة الإقتصادية .</p> <p>٢ - المحاسبة الوطنية .</p> <p>٣ - النقود والمصارف .</p> <p>٤ - إواليات السوق .</p> <p>٥ - المبادلات الإقتصادية الخارجية .</p> <p>٦ - المالية العامة .</p> <p>٧ - المحاسبة العامة .</p> <p>السنة الثاوية الثانية - فرع العلوم</p> <p>أ - محتوى مادّة الإقتصاد</p> <p>١ - الدارّة الإقتصادية .</p> <p>٢ - المحاسبة الوطنية .</p> <p>٣ - النقود والمصارف .</p> <p>٤ - إواليات السوق .</p> <p>٥ - المبادلات الإقتصادية الخارجية .</p> <p>٦ - المالية العامة .</p> <p>٧ - المحاسبة العامة .</p> <p>السنة الثالثة الثاوية - فرع الاجتماع والإقتصاد</p> <p>أ - محتوى مادّة الإقتصاد</p> <p>١ - قضايا النمو والتنمية .</p> <p>٢ - الأنظمة الإقتصادية المعاصرة ودور الدولة .</p> <p>٣ - التقلبات والأزمات الإقتصادية .</p> <p>٤ - السياسات الإقتصادية الظرفية والبنوية .</p> <p>٥ - الحسابات الإقتصادية والمالية .</p> <p>٦ - مدخل إلى علم الإدارة (التخطيط، التنظيم - التنسيق .)</p>
---	---

الحياة الإقتصادية، ٢٠١٠، ص ١١، الأنشطة والأليات الإقتصادية، ١٩٩٩، ص ٨، التنمية والسياسات الإقتصادية (٢٠١٤)، ص ٧-٩ .

٢ - التحليل

١٥٠ حصة (والحصة هي ٥٠ د)، بينما في المنهج الدولي فالحصص الدراسية المقررة لكل من دورتي الاقتصاد أو إدارة الأعمال هي ١٥٠ ساعة عند مستوى (SL)، و ٢٤٠ ساعة عند مستوى (HL)، ويمكن أن يختار المتعلم إحدى الدورتين أو الاثنتين معاً، أو يختار دورة أخرى من مجال الأفراد والمجتمعات، مع الإشارة إلى أن مستوى (HL) يدرس بعمق أكبر.

٤ - مقارنة التقييم في مادة الاقتصاد في كل من المنهجين اللبناني والدولي (IB):

يلاحظ من خلال الجدول رقم (٣) أن هناك عناوين عديدة مشتركة بين المنهجين اللبناني والدولي، في الوقت عينه يلاحظ مواكبة المنهج الدولي للتطورات الاقتصادية العالمية، من خلال ما ورد في محتوى بعضها بعض العناوين الحديثة (التجارة الإلكترونية، إدارة الأزمات، البحث والإنتاج..) وغيرها من المواضيع لم يتطرق إليها المنهج اللبناني، كما يلاحظ أن عدد الحصص الدراسية المحددة في السنوات الدراسية الثلاث في المنهج اللبناني هي

جدول رقم (٤): مقارنة التقييم في المنهجين اللبناني والدولي

المنهج الدولي	المنهج اللبناني	٤ - التقييم في مادة الاقتصاد
<p>مادتي الاجتماع والاقتصاد تجدر الإشارة إلى أن التقييم في برنامج البكالوريا الدولية يشمل محاور المنهج بنسب متوازنة. ويتم تقييم المتعلم في كل من مادتي إدارة الأعمال والاقتصاد بشكل منفصل.</p> <p>وهناك أيضاً أربعة أهداف للتقييم لدورة الاقتصاد (HL--SL)، حيث يتوقع من المتعلمين القيام بما يلي:</p> <p>١ - إظهار معرفة وفهم:</p> <p>- المنهج المشترك والقضايا الاقتصادية الحالية والبيانات. - الموضوعات التي تعتبر امتداداً في المستوى الأعلى (HL) فقط.</p> <p>٢ - إظهار تطبيق وتحليل:</p> <p>- المفاهيم والنظريات الاقتصادية، وتحديد وتفسير البيانات الاقتصادية ومدى استخدام المعلومات الاقتصادية بفعالية في سياقات معينة.</p> <p>- الموضوعات التي تعتبر امتداداً في المستوى الأعلى (HL) فقط.</p> <p>٣ - إظهار التوليف والتقييم</p> <p>- من خلال دراسة المفاهيم والنظريات الاقتصادية ومناقشتها وتقييمها واستخدامها لبناء واستخدامها لبناء الحجج.</p> <p>- إظهار التوليف الاقتصادي وتقييم بعض الموضوعات (HL) فقط.</p>	<p>مادتي الاجتماع والاقتصاد يتم تقييم المتعلم في الصفوف الثانوية في برنامج البكالوريا اللبنانية في المجالات الثلاثة، ومن الضروري أن تكون مجموعات المسابقة الثلاث مختلفة عن بعضها من حيث المضمون، وتغطي أكثرية محاور المنهج.</p> <p>ولكن هذه المجالات هي الزامية في الصفين الأول والثاني، ويعتبر المجال الأول إلزامياً في الصف الثانوي الثالث، وعلى المتعلم أن يختار ما بين المجالين الثاني والثالث.</p> <p>وتتضمن هذه المجالات ما يلي:</p> <p>- المجال الأول: استعمال مفاهيم وتقنيات اقتصادية:</p> <p>- طرح أسئلة بأفعال إجرائية لشرح واستعمال مفاهيم اقتصادية وتقنيات مالية واقتصادية، وتنفيذ رسوم بيانية وتحديد العلاقات والمهام الوظيفية بين مختلف أقسام بنية اقتصادية معينة، وتصنيف العناصر الاقتصادية.</p>	

<p>٤ - اختيار واستخدام وتطبيق مجموعة متنوعة من المهارات والتقنيات المناسبة</p> <p>- إنتاج مواد مكتوبة بشكل جيد، واستخدام المصطلحات الإقتصادية المناسبة، ضمن حدود زمنية محددة .</p> <p>- استخدام الرسوم البيانية بشكل صحيح للمساعدة في شرح المفاهيم والنظريات الإقتصادية .</p> <p>- اختيار وتفسير وتحليل مقتطفات وبيانات مناسبة من وسائل الإعلام .</p> <p>- استخدام التقنيات الكمية لتحديد وشرح وتحليل العلاقات الإقتصادية (HL) فقط .</p> <p>تتضمن أهداف التقويم في دورة إدارة الأعمال: ١ .</p> <p>إظهار معرفة وفهم:</p> <p>- أدوات إدارة الأعمال والتقنيات والنظريات المحددة في محتوى المنهج .</p> <p>- المفاهيم الستة التي تدعم هذا الموضوع (التغيير، الثقافة، الأخلاق، العولمة، الابتكار، الاستراتيجية)</p> <p>- مشاكل الأعمال في العالم، والقضايا والقرارات .</p> <p>- المواضيع التي تعتبر امتداداً عند مستوى HL . (HL فقط) .</p> <p>٢ - إظهار تطبيق وتحليل:</p> <p>- المعرفة والمهارات لمجموعة متنوعة من الحالات والمواقف التجارية .</p> <p>- القرارات التجارية من خلال شرح المسألة والقضايا المطروحة، وتفسير البيانات، وتطبيق الأدوات والتقنيات والنظريات والمفاهيم المناسبة .</p> <p>- المواضيع التي تعتبر امتداداً لمستوى HL . (HL فقط) .</p> <p>٣ - إظهار توليف وتقويم:</p> <p>- استراتيجيات وممارسات الأعمال، وذلك من خلال استخدام التفكير النقدي .</p> <p>- القرارات التجارية، وصياغة التوصيات .</p> <p>- المواضيع التي تعتبر امتداداً في المستوى الاعلى . (HL فقط) .</p> <p>٤ - إظهار مجموعة متنوعة من المهارات المناسبة</p> <p>بهدف:</p> <p>- إنتاج مواد مكتوبة بشكل جيد من خلال استخدام مصطلحات الأعمال .</p> <p>- اختيار واستخدام أدوات الأعمال الكمية والكيفية والتقنيات والأساليب المناسبة .</p> <p>- اختيار واستخدام المواد التجارية، من بين مجموعة من المصادر الأولية والثانوية .</p>	<p>٢ - المجال الثاني: تحليل مستندات إقتصادية:</p> <p>- طرح أسئلة حول كل مستند وحول الربط في ما بين هذه المستندات .</p> <p>- طرح أسئلة لتوليف الأفكار التي وردت في المستندات من خلال كتابة نص توليقي .</p> <p>- المجال الثالث: دراسة موضوع إقتصادي:</p> <p>معالجة موضوع يتضمّن مسألة أساسية للمعالجة وأسئلة تفصيلية .</p>
---	--

(guide, 2013, p7 Economics) - توصيف مسابقة مادة الإقتصاد للاقتصاد لشهادة الثانوية العامة، ٢٠١٦، (دليل التقييم، ٢٠٠٠، ص ١٠-٢٦) .

التحليل:

المجموعات الثلاث متنوعاً، بينما يلاحظ أن تقويم المتعلم في المنهج الدولي (IB) يتم في المستويات الآتية: المعرفة والفهم، التطبيق والتحليل، التوليف والتقويم، اختيار واستخدام وتطبيق مجموعة متنوعة من المهارات والتقنيات المناسبة (إنتاج مواد مكتوبة)، وهي تطرح بعمق وتوسيع أكبر في مستوى (HL).

٥ - مقارنة أسس التثقيف في مسابقات مادة علم الاقتصاد في كل من المنهجين اللبناني والدولي (IB):

يتبين من الجدول رقم (٤) أن هناك ثلاثة مجالات لتقويم المتعلم في المناهج اللبنانية وهي استعمال مفاهيم وتقنيات إقتصادية في المجال الأول وهذا المجال إلزامي في السنوات الدراسية الثلاث، أما المجالين الثاني تحليل مستندات إقتصادية، والثالث دراسة موضوع إقتصادي فهما إلزاميان في السنتين الأولى والثانية، ويمكن للمتعلم أن يختار بينهما في السنة الثالثة ومن الضروري أن يكون مضمون

جدول رقم (٥): أسس التثقيف الاختبار في كل من المنهجين اللبناني والدولي:

المنهج الدولي	المنهج اللبناني	٥ - أسس تثقيف الاختبار أو المسابقة
التقويم الخارجي لدورة الإقتصاد في المستوى HL : الوقت: ٤ ساعات العلامة: ١٤٠. الورقة الأولى: الوقت: ١.٣٠ ساعة العلامة: ٥٠ علامة تتضمن مجموعتين مناصفة بين الإقتصاد الجزئي والإقتصاد الكلي . (يختار الطالب من كل منها سؤالاً من أصل اثنين) الورقة الثانية: الوقت: ١.٣٠ ساعة العلامة: ٤٠ علامة تتضمن مجموعتين مناصفة بين الإقتصاد الدولي والتنمية الإقتصادية . (يختار الطالب من كل منها سؤالاً من أصل اثنين) الورقة الثالثة: الوقت: ساعة واحدة العلامة: ٥٠ علامة تتضمن مجموعة واحدة تناول الإقتصاد الدولي والتنمية الإقتصادية والإقتصاد الجزئي والإقتصاد الكلي . (يختار الطالب من كل منها سؤالين من أصل ثلاثة)	الصف الثانوي الأول: العلامة (٢٠ علامة) الوقت : ٦٠ دقيقة المجال الأول: استعمال مفاهيم وتقنيات إقتصادية (العلامة: ٧ علامات) المجال الثاني: تحليل مستندات إقتصادية (العلامة: ٧ علامات) المجال الثالث: معالجة موضوع اقتصادي (العلامة: ٦ علامات) الصف الثانوي الثاني - علوم: العلامة: ٢٠ الوقت: ٦٠ دقيقة المجال الأول: استعمال مفاهيم وتقنيات إقتصادية (العلامة: ٧ علامات) المجال الثاني: تحليل مستندات إقتصادية (العلامة: ٧ علامات) المجال الثالث: معالجة موضوع إقتصادي (العلامة: ٦ علامات) الصف الثانوي الثاني - انسانيات: العلامة: ٣٠ علامة المجال الأول: استعمال مفاهيم وتقنيات إقتصادية (العلامة: ١٠ علامات)	

<p>التقويم الداخلي في دورة الإقتصاد عند مستوى HL: ٢٠ ساعة تعليم العلامة: ٤٥ علامة يتم تقويم هذا الجزء داخلياً من قبل المعلم، وخارجياً من قبل الـ IB وذلك عند نهاية الدورة. يحضر المتعلم ٣ تقارير على ان لا يتعدى ٧٥٠ كلمة كل منها في مواضيع إقتصادية وهو موحد لدى كل من HL وSL.</p> <p>التقويم الخارجي لدورة الإقتصاد عند المستوى SL: الوقت: ٤ ساعات العلامة: ٩٠ علامة الورقة الأولى: الوقت: ١.٣٠ ساعة العلامة: ٥٠ علامة</p> <p>تتضمن مجموعتين مناصفة بين الإقتصاد الجزئي والإقتصاد الكلي المححدة لهذه الدورة. (يختار الطالب في كل منها سؤالاً من أصل اثنين) الورقة الثانية: الوقت: ١.٣٠ ساعة العلامة: ٤٠ علامة</p> <p>تتضمن مجموعتين مناصفة بين الإقتصاد الدولي والتنمية الإقتصادية. (يختار الطالب في كل منها سؤالاً من أصل اثنين)</p> <p>التقويم الخارجي في دورة الإقتصاد عند مستوى SL: ٢٠ ساعة تعليم العلامة: ٤٥ علامة</p> <p>يتم متابعة وتقويم هذا الجزء داخلياً من قبل المعلم، وخارجياً يتم تقويمها من قبل الـ IB وذلك عند نهاية الدورة.</p> <p>- يحضر المتعلم ٣ تقارير على أن لا يتعدى كل منها ٧٥٠ كلمة في مواضيع إقتصادية وهذا التقويم هو موحد عند كل من مستويي HL وSL.</p> <p>التقويم الخارجي لدورة إدارة الأعمال في المستوى HL: الوقت: ٤ ساعات ونصف العلامة: ١٣٠ الورقة الأولى: (٦٠ علامة) الوقت: ٢.١٥ ساعة</p> <p>القسم أ: اختيار سؤال من أصل اثنين (١٠ علامات) القسم ب - ج: يتضمن كل منهما سؤالاً واحداً إلزامياً (٢٠ علامة على كل سؤال)</p>	<p>المجال الثاني: تحليل مستندات إقتصادية (العلامة: ١٠ علامات) المجال الثالث: معالجة موضوع إقتصادي (العلامة: ١٠ علامات) الصف الثانوي الثالث - فرع الاجتماع والإقتصاد: العلامة: ٢٠ يتم تثقيفها لتصبح ٨٠ علامة الوقت: ٣ ساعات</p> <p>المجموعة الإلزامية: استعمال مفاهيم وتقنيات إقتصادية (العلامة: ٨ علامات) المجموعة الاختيارية الأولى: تحليل مستندات إقتصادية (العلامة: ١٢ علامة) المجموعة الاختيارية الثانية: معالجة موضوع إقتصادي (العلامة: ١٢ علامة)</p> <p>ينبغي أن تكون مجموعات المسابقة الثلاث مختلفة عن بعضها من حيث الموضوع وتغطي أكثرية المنهج.</p>	
--	--	--

<p>الورقة الثانية: (٧٠ علامة)</p> <p>القسم أ: الإجابة على سؤال من أصل اثنين (١٠ علامات)</p> <p>القسم ب: اختيار اثنين من أصل ثلاثة أسئلة. (٤٠ علامة)</p> <p>القسم ج: اختيار اثنين من أصل ثلاثة أسئلة. (٢٠ علامة)</p> <p>التقويم الداخلي في دورة إدارة الأعمال عند مستوى HL: الوقت: ٣٠ ساعة تعليم</p> <p>العلامة: ٢٥ علامة</p> <p>- يتم تقييم هذا الجزء داخلياً من قبل المعلم وخارجياً تحت إشراف المكتب الدولي (IB) في نهاية الدورة.</p> <p>مشروع البحث: يبحث الطلاب عن قضية تواجهها المنظمة أو عن قرار تتخذه منظمة (أو عدة منظمات). الحد الأقصى ٢٠٠٠ كلمة.</p> <p>التقويم الخارجي لدورة إدارة الأعمال عند المستوى SL:</p> <p>الوقت: ٣ ساعات</p> <p>العلامة: ٩٠</p> <p>الورقة الأولى: ٤٠ (علامة)</p> <p>الوقت: ١.١٥ ساعة القسم أ: اختيار سؤالين من أصل ثلاثة أسئلة (٢٠ علامة)</p> <p>القسم ب: سؤال واحد الزامي. (٢٠ علامة)</p> <p>الورقة الثانية: (٥٠ علامة)</p> <p>الوقت: ١.٤٥ ساعة</p> <p>القسم أ: اختيار سؤال من اثنين (١٠ علامات)</p> <p>القسم (ب-ج): اختيار سؤال من ثلاثة أسئلة في كل قسم. (٢٠ علامة لكل سؤال)</p> <p>التقويم الداخلي في دورة إدارة الأعمال عند مستوى SL:</p> <p>الوقت: ١٥ ساعة تعليم</p> <p>العلامة: ٢٥ علامة</p> <p>مشروع بحث: يبحث المتعلمون عن قضية تواجهها المنظمة أو قرار تتخذه. الحد الأقصى ١٥٠٠ كلمة.</p> <p>يتم تقييم هذا الجزء داخلياً من قبل المعلم وخارجياً تحت إشراف من قبل (IB) في نهاية الدورة.</p> <p>تعليق مكتوب: ينتج الطلاب تعليقات خطية تستند من ثلاثة إلى خمسة وثائق حول قضية حقيقية أو مشكلة تواجه منظمة معينة.</p> <p>الحد الأقصى ١٥٠٠ كلمة.</p>		
--	--	--

(Business management Business management guide, 2015, pp53-55), and Economics guide, 2013, pp76-78)
أسس التقييم، ١٩٩٩، توصيف مسابقة مادة الاقتصاد للاقتصاد لشهادة الثانوية العامة، ٢٠١٦.

يبين الجدول رقم (٥) أن معايير تثقيف المسابقة أو الاختبار تختلف في السنوات الدراسية الثلاث في المنهج اللبناني، وكذلك بينها وبين المنهج الدولي (IB). تقسم العلامة في المناهج اللبنانية على المجالات الثلاث الإلزامية في السنة الثانوية الأولى والسنة الثانوية الثانية (علوم) على عشرين علامة وعلى ثلاثين في السنة الثانوية الثانية (إنسانيات)، ولا تحتسب في المعدل النهائي للمتعلّم عندما ينهي المرحلة الثانوية، ويتم امتحان المتعلّم في السنة الثانوية الثالثة في امتحان رسمي حيث تكون العلامة على ثمانين علامة. أما في المنهج الدولي فيلاحظ اختلاف في العلامات ما بين المستويين (SL و HL)، فالعلامة تكون أعلى عند مستوى (HL) في كل من الدورتين الاقتصاد وإدارة الأعمال، كما تقسم العلامة بين التقويم الخارجي في الاختبارات النهائية والتقويم الداخلي خلال فترة الدراسة حيث يطلب من المتعلّم إعداد بحث تحت إشراف أساتذة، وتكون العلامة (140 + 45 = 185) في دورة الاقتصاد عند مستوى (HL)، وتكون عند مستوى (SL) (135 = 90 + 45)، ومن بينهما (45 علامة) تقويم داخلي في كلا المستويين، كذلك تكون العلامة (155 = 130 + 25) في دورة الاقتصاد عند مستوى (HL) و(115 = 90 + 25) عند

مستوى (SL) ومن بينهما أيضاً (25 علامة) تقويم داخلي.

خامساً: الاستنتاجات

يستنتج من خلال مقارنة منهجي البكالوريا اللبنانية والبكالوريا الدولية (IB) ما يلي:

١ - بالنسبة إلى الغايات والأهداف:

على الرغم من الإيجابيات التي تتضمنها أهداف برامج البكالوريا الدولية والتي تهدف إلى إعداد أفراد يفكرون بعقلية دولية ويسهمون في خلق عالم أفضل وأكثر سلاماً وإدراكهم أنهم يشتركون مع الآخرين في الطبيعة الإنسانية، هذا إضافة إلى إكسابهم مهارات ومعارف وقيم ومواقف، غير أنّها تختلف في بعض أهدافها عن غايات المناهج اللبنانية والتي تركز على الهوية اللبنانية والانتماءين الوطني والعربي، والمنظومة القيمية للمجتمع اللبناني ومحيطه العربي، لذا هناك اختلاف في ملامح المتعلّم في كل من المنهجين. كما تتقاطع الأهداف العامة في كلا المنهجين في بعض النقاط ولكن تختلف أهداف المنهجين في عدة نقاط حيث ركّز المنهج اللبناني في أهدافه العامة على المجتمع الوطني إضافة إلى تناوله بعض المواضيع العالميّة، بينما وسّع المنهج الدولي دائرة معارف المتعلّم من المجتمع المحلي إلى المجتمعات الدوليّة الأخرى

وعلى التحليل الناقد واختبار الفرضيات، ولم يتطرق إلى المجتمع اللبناني.

٢ - بالنسبة إلى الأهداف الخاصة:

فهي تتوزع في المناهج اللبنانية على السنوات الدراسية الثلاث، بينما تم فصل الأهداف التي تتعلق بالمواضع الاقتصادية عن المواضيع التي لها علاقة في إدارة الأعمال في مادتين مختلفتين في المنهج الدولي، وبالتالي من الممكن عدم تحقيق جميع هذه الأهداف، فالمتعلم ممكن أن يختار مادة واحدة من المجال الذي يضم المواد الاجتماعية والمستوى الذي يريد.

أما بالنسبة إلى مضمون تلك الأهداف فهناك تقاطع بعدد قليل منها، واختلاف في نقاط متعددة، حيث ركز منهج البكالوريا الدولية على التفكير النقدي الاستراتيجي والابتكار، واعتماد النظرة الشمولية في عالم الأعمال وتعزيز وعي المتعلمين بأهمية العوامل البيئية والاجتماعية والأخلاقية في أعمال الأفراد والمنظمات. بينما ركز المنهج اللبناني على اكتساب المفاهيم المختلفة ومقاربتها بالواقع المعاش، كما تطرقت إلى التجارب التنموية في بعض البلدان.

٣ - بالنسبة إلى المحتوى: هناك

تقاطع في العديد من المواضيع في المنهجين، ولكن يلاحظ مواكبة المنهج الدولي للتطورات الاقتصادية العالمية حيث ورد في المحتوى بعض العناوين الحديثة

(التجارة الإلكترونية، إدارة الازمات، البحث والإنماء. الخ)

٤ - السنوات الدراسية والساعات

التعليمية: كما أن الساعات التعليمية المقررة لكلا المنهجين مختلفة، فالحصص التعليمية المحددة في السنوات الدراسية الثلاث في المنهج اللبناني هي ١٥٠ حصة (والحصة تعادل ٥٠ دقيقة) بينما في المنهج الدولي فالساعات التعليمية المقررة لكل من دورتي الاقتصاد أو إدارة الأعمال هي ١٥٠ ساعة عند مستوى (SL) و(الساعة ٦٠ د)، و ٢٤٠ ساعة عند مستوى (HL)، مع الإشارة إلى أن مستوى (HL) يدرس بعمق أكبر، وهنا تبرز المشكلة لدى المتعلم في المنهج الدولي حيث يمكن أن يختار إحدى المادتين التي يتعلمها المتعلم في المناهج اللبنانية، أو لا يختار أي منها. **ثانياً من حيث السنوات الدراسية:** يلاحظ اختلاف في السنوات الدراسية في المرحلة الثانوية في كل من المنهجين كذلك الأمر بالنسبة إلى مجموع الحصص الدراسية حيث يبلغ مجموعها (١٥٠ حصة والحصة خمسون دقيقة) موزعة على ثلاث سنوات، بينما يبلغ عدد الساعات التي يدرسها المتعلم في برنامج البكالوريا الدولية في مادة الإقتصاد أو إدارة الأعمال (٢٤٠ ساعة عند مستوى SL، و ١٥٠ ساعة عند مستوى HL) موزعة على سنتين،

والتقويم، اختيار واستخدام وتطبيق مجموعة متنوعة من المهارات والتقنيات المناسبة (إنتاج مواد مكتوبة)، وهي تطرح بعمق وتوسع أكبر في مستوى (HL)، ويتم تقويم المتعلم بطريقتين تقويم خارجي (أي امتحانات رسمية)، وتقويم داخلي موزع على ساعات تعليمية محددة بإشراف الأساتذة يقدم على أساسها المتعلم مشروع بحث.

أما تثقيف العلامة فهي مختلفة في كلا المنهجين، فالعلامة هي على ثمانين في الصف الثانوي الثالث في المناهج اللبنانية وهي تتساوى مع مادة الاجتماع، بينما يتم تقويم المتعلم في المنهج الدولي بطريقتين (تقويم داخلي وتقويم خارجي)، وذلك خلال الفترة الدراسية الممتدة على سنتين، والعلامة أعلى في مستوى (HL) عنها في مستوى (SL)، والعلامة متساوية مع باقي المواد في جميع المجالات.

سادساً: توصيات واقتراحات

تبيّن من خلال مقارنة منهجي البكالوريا الدولية والبكالوريا اللبنانية أن هناك اختلافاً بين المنهجين من حيث الأهداف العامة، والغايات وملامح المتعلم في كل منهما وطرق وأساليب التقويم، لذا بعد عرض النتائج التي تم التوصل إليها هذا البحث تقترح الباحثة الأمور الآتية:

ولكن المطلوب من المتعلم في برنامج البكالوريا الدولية اختيار مادة اجتماعية واحدة (يعني ممكن أن يختار إدارة أعمال أو اقتصاد أو اجتماع أو تربية وممكن للمتخرج أن يتخرج وليس لديه أية فكرة عن مادة الاقتصاد أو إدارة الأعمال)، في حين أن كتاب الاقتصاد للصفوف الثانوية اللبنانية يتضمن اقتصاد وإدارة أعمال وحسابات مالية...، كما أن المتعلم في لبنان يتوجب عليه لزاماً دراسة جميع المواد الاجتماعية.

٥ - أساليب وطرق التقويم في مادة

الاقتصاد: تختلف طرق التقويم وأساليبه في كلا المنهجين، حيث يعتمد على المجالات الثلاثة في المناهج اللبنانية (المجال الأول استعمال مفاهيم وتقنيات، المجال الثاني تحليل مستندات اقتصادية والمجال الثالث دراسة موضوع اقتصادي)، وهذه المجالات إلزامية في السنتين الثانويتين الأولى والثانية ويختار المتعلم بين المجالين الثاني والثالث في السنة الثانوية الثالثة في الامتحانات الرسمية، ويخضع المتعلم إلى امتحانات رسمية في السنة الثالثة وبناءً عليه يتخذ قرار بنجاحه أو رسوبه أي تقويم خارجي فقط، بينما يتم تقويم المتعلم في المنهج الدولي (IB) وفق المستويات الآتية: المعرفة والفهم، التطبيق والتحليل، التوليف

١ - تعديل المناهج اللبنانية حيث تصبح أكثر ترابطاً، وتحديث بعض المعلومات (جعلها عصرية)، ضرورة تحديث وتنويع المواضيع الاقتصادية التي تتضمنها الكتب باستمرار، لتتماشى مع التطورات الحاصلة في العالم في شتى المجالات لاسيما في السياسات (المالية، الاقتصادية، النقدية...).

٢ - تعديل طرق التقويم في المناهج اللبنانية حيث لا تقتصر فقط على الامتحان الرسمي النهائي بل إضافة تقويم داخلي للمتعم يعلم مع علامة هذا الامتحان، مع إلزامية المجالات الثلاثة في الامتحانات الرسمية.

٣ - تعديل تثقيف العلامة لمادة الاقتصاد في الصفين الثانوي الأول والثانوي الثاني (علوم)، من علامة كحد أقصى إلى ٣٠ علامة، الأمر الذي يشكل حافزاً للطالب للاهتمام بهذه المادة في الصفين الأول والثاني الثانوي.

٤ - زيادة الحصص التعليمية لمادة الاقتصاد في الصفين الأول والثاني الثانوي (بفرعيه العلوم والإنسانيات) من حصة واحدة في الأسبوع الى حصتين، وفي الصف الثالث الثانوي من أربع حصص إلى خمس حصص في الأسبوع، ليتوفر الوقت الكافي للمتعلمين للقيام بالأنشطة والأبحاث اللازمة في هذه المادة.

٥ - إعادة النظر في تطبيق منهج البكالوريا الدولية على الرغم من المواضيع الهامة التي يحتوي عليها بانتظار تحديث المناهج وتطويرها، وذلك تجنباً لتطبيق ملامح المتعلم العالمي والتي تختلف في الكثير من مواصفاتها عن ملامح المتعلم اللبناني، إضافة إلى أن برنامج البكالوريا الدولية الذي ينتقي فيها المتعلم مادة واحدة من المواد الاجتماعية يواجه عقبة في التحاقه بالجامعات اللبنانية التي تشرط إلمامه بعدد من المواد الأمر الذي يلقي عليه أعباء إضافية.

الخاتمة

سعى هذا البحث إلى مقارنة المنهج اللبناني بمنهج البكالوريا الدولية في مادة الاقتصاد في المرحلة الثانوية، وتبيان أوجه الشبه والخلاف بينهما، ونقاط القوة والضعف، ومدى ملاءمة منهج البكالوريا الدولية لخطة النهوض التربوي، وذلك من خلال مقارنة المنهجين من حيث الغايات والأهداف العامة والخاصة في المادة، ومن حيث المحتوى والمواضيع التي تناولها كلا المنهجين فضلاً عن الساعات التعليمية المخصصة للمادة وأساليب وطرق التقويم المعتمدة.

وبعد المقارنة تبين ان هناك تقاطعاً في بعض الأهداف وفي محتوى المادة،

إدارة أعمال أو اقتصاد وليس الإثنين معاً أو أية مادة اجتماعية أخرى وبالمستوى الذي يريد (HL أو SL)، ويمكنه إستبدال مادة الاقتصاد بإحدى المواد الإجرائية (كومبيوتر) مثلاً، وينتسب بعدها إلى أية جامعة خاصة ضمن شروط معينه، هذا ما يشير إلى تفاوت في الفرص أمام المتخرج في المنهجين اللبناني والدولي، ولكن في المقابل سوف يواجه حامل شهادة البكالوريا الدولية صعوبة عند اختياره الاختصاص الجامعي في لبنان، حيث يخضع المتعلم إلى اختبار في مادة الاقتصاد والرياضيات واللغة عند تقدمه إلى بعض الجامعات ومنها الجامعة اللبنانية، مما يدفعه لمتابعة دورات إضافية للانتساب إلى الجامعات اللبنانية في إختصاص محدد، أو السفر إلى الخارج لمتابعة دراسته.

هذا البحث ألقى الضوء على مقارنة المنهج اللبناني مع منهج البكالوريا الدولية في مادة الاقتصاد في المرحلة الثانوية، وتم اعتماد الدراسة النظرية المدققة القائمة على المقارنة والتحليل، والمعلومات التي تم الحصول عليها صحيحة ودقيقة ومؤكدة ولكن غير ثابتة، حيث من الممكن تعديل المناهج اللبنانية وتطويرها لمواكبة التطور الحاصل في العالم، وبالتالي يظل ما تم التوصل إليه نسبياً وليس مطلقاً، لذا من المفيد جداً أن تُجرى دراسات أخرى

واختلافاً في عدة أمور، وخاصة في ملامح المتعلم في كلا المنهجين حيث ركز المنهج اللبناني على الهوية اللبنانية والانتماءين الوطني والعربي، والمنظومة القيمية للمجتمع اللبناني ومحيطه العربي، بينما ركز المنهج الدولي على إعداد أفراد يفكرون بعقلية دولية ويسهمون في خلق عالم أفضل وأكثر سلاماً، ووسّع المنهج الدولي دائرة معارف المتعلم من المجتمع المحلي إلى المجتمعات الدولية الأخرى والتحليل الناقد، كما ركّز على التحليل الناقد وهي نقاط قوة فيه غير أنها لا تنطبق مع ما تسعى إليه السياسة التربوية في لبنان، والمنبثقة من خطة النهوض التربوي.

إلى جانب ذلك ثمة اختلاف كبير في طرق التقويم وأساليبه، والساعات التعليمية والزامية المواد التعليمية في كلا المنهجين، فالمتخرج الذي اختار فرع الاجتماع والاقتصاد في المناهج اللبنانية يتم تأهيله لاختيار اختصاص جامعي يتناسب مع الفرع الذي اختاره ويتوجب عليه دراسة محاور تتعلق بالاقتصاد وإدارة الأعمال معاً ضمن المنهج المقرر لهذا الصف من ضمن اثنتي عشرة مادة إلزامية في هذا الفرع، أما المتخرج في البكالوريا الدولية فيتوجب عليه اختيار ست مواد من المجالات الستة وبإمكانه أن يختار مادة واحدة من كل من هذه المجالات، فمن الممكن مثلاً أن يختار

مشابهة في مادة الاقتصاد وفي المواد الاجتماعية الأخرى، لاسيما أن مادة الإقتصاد هي من المواد الجديدة التي أدخلت إلى حقل الاجتماعيات والدراسات السابقة في هذا المجال كانت شبه معدومة.

المصادر والمراجع

- ١ - الجمهورية اللبنانية، (١٩٩٧)، تحديد مناهج التعليم العام ما قبل الجامعي وأهدافها، مرسوم ١٠٢٢٧، ١٩٩٧/٥/، الجريدة الرسمية، ٢٦، بيروت، (ص ٦ - ص ٧٦٨).
٢. الجمهورية اللبنانية، وزارة التربية الوطنية والشباب والرياضة، ١٩٩٤، خطة النهوض التربوي في لبنان، بيروت، المركز التربوي للبحوث والإنماء.
٣. الأمين، عدنان وجرداق، مراد، (٢٠٠٢)، تقييم المناهج التعليمية الجديدة في لبنان، تقييم الكتب المدرسية، المركز التربوي للبحوث والإنماء، مكتب اليونسكو الإقليمي برنامج الأمم المتحدة الانمائي، الهيئة اللبنانية للعلوم التربوية، بيروت، لبنان.
٤. المركز التربوي للبحوث والإنماء، (٢٠١٠)، الحياة الاقتصادية، التعليم الثانوي السنة الأولى ف، ط ٨، دار لبنان للطباعة والنشر، سن الفيل.
٥. المركز التربوي للبحوث والإنماء، (١٩٩٩)، الأنشطة والأوليات الاقتصادية، التعليم الثانوي السنة الثانية فرعا العلوم والإنسانيات، ط ١، مكتبة لبنان، سن الفيل.
٦. المركز التربوي للبحوث والإنماء، (٢٠١٤)، التنمية والسياسات الاقتصادية، التعليم الثانوي السنة الثالثة فرع الاجتماع والاقتصاد، ط ١١، مكتبة لبنان، سن الفيل.

٧. المركز التربوي للبحوث والإنماء، (١٩٩٨)، الدليل التربوي، بيروت، مطبعة المركز التربوي.
٨. المركز التربوي للبحوث والإنماء، (٢٠٠٠)، دليل «التقييم» الاجتماع والاقتصاد، بيروت، مطبعة المركز التربوي.
٩. المركز التربوي للبحوث والإنماء، (١٩٩٩)، أسس «التقييم» ومبادئه، بيروت، مطبعة المركز التربوي.
١٠. المركز التربوي للبحوث والإنماء، (٢٠١٦)، توصيف مسابقة الاقتصاد في الامتحانات الرسمية.

عن الموقع الإلكتروني:

- ١ - استمرارية التعليم في البكالوريا الدولية، ٢٠١٥، منظمة البكالوريا الدولية. الموقع الإلكتروني <http://www.ibo.org>
- ٢ - ما هو تعليم البكالوريا الدولية، (٢٠١٥)، ترجمة مؤسسة الملك فيصل الخيرية، المملكة المتحدة، منظمة البكالوريا الدولية. الموقع الإلكتروني <http://www.ibo.org>

المصادر والمراجع باللغة الأجنبية

- 1 - International Baccalaureate Organization (UK) Ltd, 2016, Business management guide
Peterson House, Malthouse Avenue,
Cardiff Gate, Cardiff, Wales CF23
8GL United Kingdom
Website: www.ibo.org
- 2 - International Baccalaureate, 2013, Economics guide, Peterson House, Malthouse Avenue, Cardiff Gate Cardiff, Wales GB CF23 8GL, United Kingdom.
Website: <http://www.ibo.org>

دور الإعلام في توجيه استراتيجيات تمكين الشباب في دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية

أ. حورية عباس الديري

المجتمعية، التي تقوم عليها عملية التنمية الشاملة والمستدامة. كما أن الباحثين في العلوم الإنسانية والاجتماعية الإعلامية يهتمون بدراسة دور الإعلام في تطور المجتمع وتقدمه.

لقد دعت الأمم المتحدة إلى إطلاق مسمى العام الدولي للشباب على العام ١٩٨٥م؛ ودعت الحكومات إلى تنفيذ الدراسات والبحوث في مجال تمكين الشباب، ووضع الخطط من أجل تقديم حلول للمشكلات التي يعانون منها، واعتبار تاريخ الثاني عشر من شهر أغسطس من كل عام يوماً عالمياً لهذه الفئة العمرية (Secretary-General's Report to the General Assembly, 1981).

فقد أوصت دراسة (موسى حلس، وناصر مهدي ٢٠١٠م) بأهمية توجيه وسائل الإعلام لمعالجة القضايا الشبابية سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وتعليمياً، وإلى وضع استراتيجيات إعلامية لتمكين

المقدمة والإحساس بالمشكلة

يتميز العالم في الوقت الراهن، بسرعة التغيير والتطور في التكنولوجيا والمعرفة، والذي انعكس بدوره على سرعة التغيير في المجالات المختلفة، الأمر الذي حتم على الجميع الاستفادة من جميع الطاقات في عملية التنمية الشاملة والمستدامة، وهذا التقدم والتطور، أثر بدوره على تقدم وسائل الإعلام وتطورها.

ويهتم الباحثون في العلوم الإنسانية والاجتماعية بدراسة قضايا المجتمع، في مختلف الفئات العمرية؛ بهدف التعرف على اتجاه السلوك، والتنبؤ به، وكيفية تغييره، إضافة إلى تفسير الأسباب التي تؤدي إلى تبني نوع معين من السلوك في موقف ما، وتكراره في مواقف مختلفة، إضافة إلى تبني سلوكيات أخرى في مواقف مختلفة، وتعد الفئة العمرية من ١٥ إلى ٣٤ سنة، والتي تعرف بفئة الشباب، من أهم الفئات

الشباب، وتوجيه طاقاتهم نحو التنمية الشاملة والمستدامة.

إن النمو السكاني في الدول العربية يشهد تزايداً مستمراً، حيث بينت التقارير إلى وصوله ما يقارب ٢.٤٪ بين الأعوام من ١٩٨٠ إلى ٢٠١٠م، و٢.٠٦٪ في العام ٢٠١٣م، وبلغ عدد السكان في الدول العربية ٣٧٠ مليون نسمة في العام ٢٠١٢م، ويبلغ عدد من تتراوح أعمارهم بين ١٥ إلى ٢٤ سنة بين واحد من كل خمسة أفراد (برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، ومؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، ٢٠١٤م).

وقد صنف التقرير التحديات التي تواجه الشباب في البلدان العربية، إلى ثمانية تحديات رئيسية، وهي: ضعف مؤسسات التعليم والتدريب والبحث العلمي، تضخم القطاع الحكومي، ضعف القطاع الخاص، قلة فرص زيادة الأعمال، بطالة الشباب، هجرة الشباب، ضعف الحوكمة، وتحدي اللغة العربية (برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، ومؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، ٢٠١٤م).

وأوصت دراسة عيسى وفامب (Isa & Vambe, 2013) بمراجعة النظام التعليمي، ومواءمته مع متطلبات سوق العمل؛ حيث أن الشباب تنقصهم المهارات المطلوبة للالتحاق بسوق العمل. ويهدف تعزيز

مهارات الشباب أوصت دراسة أودوكوا (Edoko, 2014) بزيادة أعداد مراكز تأهيل الحرفيين في مختلف المدن، وتبسيط إجراءات الالتحاق بهذه المراكز.

لقد بينت نتائج دراسة نوسو وأكويرا (Nwosu & Ugwuera) أن برامج تمكين الشباب تقوم بدور مهم في تمكينهم، إلا أنها تحتاج إلى دفعة أقوى في مجال تأهيلهم للالتحاق بسوق العمل.

ويشير (وليد عبد مولا، ٢٠٠٩م) إلى أن البطالة في البلدان العربية تجاوزت ١٢٪ في العام ٢٠٠٦م، وهذا المعدل يعد ضعف المعدل العالمي، كما البطالة في الشرق الأوسط تبلغ ٩.٤٪، بينما تتراوح في شمال أفريقيا ما يقارب ١٠.٧٪ حسب إحصائية العام ٢٠٠٨م، وأن بطالة الإناث تفوق الذكور، حيث تتعدى ١٦٪ مقابل ٨.٥٪ في شمال أفريقيا، و١٣.٤٪ مقابل ٨.٢٪ في بلدان الشرق الأوسط.

يقدر (صندوق النقد الدولي، ٢٠١٥م) حجم القوة العاملة في البلدان العربية بحوالي ١٢٤ مليون نسمة، أي ٣٣٪ من إجمالي عدد السكان، ويعد هذا المعدل، من الأعلى عالمياً، ويرجع ذلك إلى زيادة في معدلات النمو السكاني، ومشاركة المرأة في قوة العمل، على الرغم من ضآلة مشاركتها مقارنة بالعدد العالمي، ويقدر متوسط نسبة البطالة في البلدان العربية ما يقارب

٢٠١١٪، وهي أحد أعلى معدلات البطالة في العالم (محمد إسماعيل، وهبة عبدالمنعم، ٢٠١٥م).

وبين تقرير التنمية البشرية أن جميع دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية حصلت على معدلات مرتفعة جداً في التنمية البشرية، ما عدا عمان التي حصلت على تقدير مرتفع؛ ومقارنة هذه المعدلات مع ما حصلت عليه بقية الدول العربية، يظهر التقدم الذي تعيشه هذه الدول، وأثر ذلك على مختلف مناحي الحياة من تعليم وصحة ووضع اقتصادي (برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، ٢٠١٤م).

إن ارتفاع نسب الفتوة في المجتمع العربي، يتطلب حاجة مجتمعية نحو وضع استراتيجية شاملة من أجل توفير فرص العمل اللائقة، وتوفير البنية التحتية لاستيعاب هذه الطاقات، والاستفادة منها في التنمية الشاملة والمستدامة.

وعلى الرغم من أن غالبية البلدان العربية وضعت استراتيجيات موجهة لتمكين الشباب في مجتمعاتهم، إلا أن دور الشباب لا يزال غائباً في المجتمع العربي بشكل عام، ذلك أن هذه الاستراتيجيات تصطدم بالعديد من التحديات، منها نظام التعليم، والوضع الاقتصادي، والحوكمة، ووضع المرأة، والأمن، ومقاومة بعض أصحاب القرار سواء أكانوا في الحكومة أم في

التنظيمات السياسية أم في مؤسسات المجتمع المدني، ما يحول دون إشراك الشباب في الشأن العام.

لذا توصي دراسة (نيفين عيسى، ٢٠١٥م) بأهمية تركيز المؤسسات الإعلامية على الأنشطة التي تحفز الإبداع والابتكار لدى الشباب، وغرس روح التعاون وقيم العمل الجماعي، وأن تعمل المؤسسات الإعلامية على إبراز صوت الشباب في المجتمع.

ويُعد دور دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية على الصعيد العربي والعالم، مهم جداً، فهي تسيطر على أغلبية احتياطات النفط حول العالم، ويتطور اقتصادها بشكل سريع جداً، ما يستلزم الاهتمام بجميع الفئات العمرية في عملية التنمية، ومنها فئة الشباب.

فقد بدأت نواة مجلس التعاون لدول الخليج العربي باقتراح أمير الكويت آنذاك الشيخ جابر الأحمد الصباح، في زيارته إلى حاكم الإمارات العربية المتحدة، الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، في السادس عشر من شهر مايو من العام ١٩٧٦م، فكرة إنشاء مجلس التعاون لدول الخليج العربي؛ وذلك بهدف سد الفراغ الذي تكوّن نتيجة انسحاب المملكة المتحدة من الخليج العربي، وفي أثناء قمة جامعة الدول العربية، التي انعقدت في الأردن في العام

١٩٨٠م، جدد القادة دعوتهم لإنشاء المجلس، وفي العام ١٩٨١م توصل قادة الدول الست لمجلس التعاون الخليجي (دولة الكويت، الإمارات العربية المتحدة، دولة قطر، المملكة العربية السعودية، مملكة البحرين، سلطنة عمان)، إلى صيغة التعاون، في اجتماع عقد بـ (أبوظبي).

تمتلك جميع دول مجلس التعاون استراتيجيات وطنية موجهة نحو تمكين الشباب، بهدف النهوض بهم، في المجالات كافة، إلا أن هذه الاستراتيجيات، تصطدم في الواقع المعاش، مع واقع مجتمعي، شديد التعقيد، حاله في ذلك، حال مختلف الدول النامية، وهو إفساح مجال حقيقي لهم، في المجتمع، مع بقية الفئات العمرية.

إضافة إلى ذلك، إن التحديات التي تواجهها دول مجلس التعاون تتطلب وجود استراتيجية شاملة لجميع الفئات، متكاملة، وشاملة، موجهة نحو جميع أبناء المجتمع، ولا يمكن النظر إلى هذه المسألة، بمعزل عن التحديات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية والتعليمية والصحية، التي تواجه هذه المنظومة مجتمعة، وتتطلب اندماجها بشكل حقيقي، للتغلب على الأخطار الخارجية، وانعكاسات هذه التحديات على بنیان المجتمع.

وبين تقرير التنمية البشرية للعام ٢٠١٤م أن جميع دول مجلس التعاون

لدول الخليج العربية حصلت على معدل مرتفع جداً في التنمية البشرية، ماعدا عمان، التي حصدت معدلاً مرتفعاً؛ وهذا الأمر يدل على اهتمام السلطات في هذه البلدان بموضوع التنمية البشرية، وهذا يعكس أيضاً، التوجه الذي تحاول فيه السلطات، الاستثمار برأس المال البشري.

تتطلب عملية تمكين الشباب تحولات عميقة في الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية، والتي تعمل على إقصائهم، وذلك عن طريق زيادة مشاركتهم في المجال السياسي، وإسهام الاقتصاد في خلق فرص عمل تتناسب مع مهاراتهم وقدراتهم، وذلك في زيادة قدرتهم على زيادة الأعمال، وترسيخ مفاهيم العدالة والمساواة وتكافؤ الفرص في المجتمع (برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، ٢٠١٦: ٦).

وترى الباحثة، أن الاستراتيجيات الموجهة نحو الشباب، تصطدم بمجموعة من العوامل المعيقة، أهمها عوامل الاضطرابات الاقتصادية والسياسية والمعوقات المجتمعية، فالاضطرابات في الأسواق المالية، وانخفاض أسعار النفط، ساهما بشكل مباشر وغير مباشر، في تغيير أولويات بعض الجهات المشرفة على الشباب، وتخفيض الميزانيات الموجهة لهم، والذي انعكس في النهاية على المشاريع والفعاليات الموجهة إليهم.

ويشير (مصطفى حجازي، ٢٠١١: ١٥-١٧) إلى أن غالبية الدراسات والملتقيات العلمية تنظر إلى الشباب ككتلة واحدة، وهذا خطأ، وصنّف حجازي الشباب إلى أربعة أنواع رئيسة، الأول: الشباب أبناء النخبة، والذين يحظون برعاية أسرية عالية، وتوجيه أفضل، والثاني: الشباب المرفه المنغمس في الملذات الحسية، والثالث: الشباب أبناء الطبقة الوسطى وما دون، ممن يكافحون من أجل بناء مستوى كريم في الحياة، والرابع: الشباب المحروم أو المهمش في مختلف نواحي الحياة.

وأكدت توصيات مؤسسة بيروت إنستيتيوت (Beirut Institute, 2015) على تمثيل الشباب في الخطط الاستراتيجية ووضع السياسات، بحيث ينبغي على البلدان العربية ضمان مشاركة شبابها في صنع القرار؛ حيث أن ذلك سيسهم في تعميق اللحمة الوطنية بين مكوناتها، ويسهم أيضاً في الاستفادة مما يملكونه من أفكار في التغيير المجتمعي.

وتشدد الباحثة على أن التحدي الذي يواجه الشباب في دول مجلس التعاون يتمثل في التحولات الديمغرافية، والمتمثلة في تأخر سن الزواج، وزيادة نسبة الطلاق، وانخفاض معدل الإنجاب؛ ويرجع ذلك إلى المتغيرات العالمية التي تعصف بدول

مجلس التعاون بشكل سريع، وخصوصاً أن هذا المجتمع يعد مجتمعاً فتيماً، ما قد يؤدي إلى بروز العديد من المشكلات والإشكاليات المجتمعية، وخصوصاً مع الانتشار التكنولوجي والإعلامي، التي تزخر به هذه البلدان.

يبلغ عدد سكان دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية حوالي (٥١.٧) مليون نسمة؛ تحتل المملكة العربية السعودية المرتبة الأولى بـ (٣١.٥) مليون نسمة، تتبعها دولة الإمارات العربية المتحدة بـ (٨.٣) مليون نسمة^(١)، فسلطنة عمان بـ (٤.٢) مليون نسمة، فدولة الكويت بـ (٤) مليون نسمة، فدولة قطر بـ (٢.٤) مليون نسمة، فمملكة البحرين بـ (١.٤) مليون نسمة (المركز الإحصائي لدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية، ٢٠١٦م).

ونشير هنا إلى أن عدد مؤسسات التعليم العالي في دول مجلس التعاون يبلغ حوالي (٨٦٠) مؤسسة بين جامعة وكلية ومعهد، حسب إحصائية العام ٢٠١١ / ٢٠١٢م، بينما كانت حسب إحصائية العام ٢٠١٠ / ٢٠١١م حوالي (١٩١) مؤسسة تعليم عال المركز الإحصائي لدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية، ٢٠١٦م)، هنا يتساءل المتتبع للشأن المجتمعي في دول المجلس، عن الحاجة الحقيقية لهذا العدد من

(١) يعود تعداد سكان دولة الإمارات العربية المتحدة إلى العام ٢٠١٠، لعدم وجود بيانات جديدة في هذا الشأن.

مملكة البحرين، ممن تتراوح أعمارهم ما بين الفئة العمرية (١٥) إلى (٣٤) عاماً، بهدف التحقق من الاتساق الداخلي (معامل ألفا كرونباخ) لعبارات أداة الدراسة، يوضح الجدول رقم (١) معاملات ألفا كرونباخ لمحاوَر أداة الدراسة (الاستبانة) والمجموع العام.

جدول (١) قيم معامل ألفا كرونباخ للاتساق الداخلي (ن=٣٠)

م	المحور	عدد البنود	القيم
١	دور الإعلام في التمكين السياسي	٦	٠.٩٠١
٢	دور الإعلام في التمكين الاقتصادي	٧	٠.٨٧٨
٣	دور الإعلام في التمكين الاجتماعي	٧	٠.٨٤٩
٤	دور الإعلام في التمكين التعليمي	٧	٠.٧٤١
	معامل الثبات العام	٣٥	٠.٨٨٧

يتضح من خلال ما تم عرضه في الجدول السابق، أن مجموع معامل ألفا كرونباخ العام، بلغ (٠.٨٨٧).

نتائج الدراسة الميدانية:

تستعرض الباحثة النتائج التي توصلت إليها أداة الدراسة (الاستبانة)، عن طريق عرض المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية والنسب المئوية لمحاوَر أداة الدراسة، ومن ثم عرض نتائج بنود محور تلو الآخر، وهي كما يلي:

المؤسسات، عند مقارنتها بعدد السكان، إضافة إلى مقارنة ذلك مع دول متقدمة أخرى كفرنسا أو بريطانيا، هذا يجعل المتتبع للشأن المحلي في دول مجلس التعاون، يشكك في نوعية برامج بعض هذه المؤسسات.

وتفترض الباحثة أن استراتيجيات تمكين الشباب في دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية، هدفها الأساس هو الترويج للاستهلاك الإعلامي خارجياً، أكثر من كونها موجهة للشباب، فالشباب يعاني من قلة الفرص التي أمامه، وهذا الأمر قد يؤدي مستقبلاً إلى خيارات صعبة، في ظل تنامي الشعور بالغبن والظلم.

الخصائص السكومترية لأداة الدراسة

الصدق الظاهر

عرضت الباحثة أداة الدراسة في صورتها الأولى على (٣) محكمين من ذوي الخبرة في مجال التخطيط والتربية واللغة، وتم الأخذ بجميع الملاحظات التي أبدتها محكمي أداة الدراسة (الاستبانة)، سواء بتعديل بعض البنود، أو حذفها، أو إضافة بنود أخرى، أو نقل بعض البنود إلى محاور أخرى.

ثبات الاتساق الداخلي

تم تطبيق الاستبيان على عينة قبلية، قوامها (٣٠) شاب وشابة، من مواطني

أولاً: النتائج العامة لمحاوَر أداة الدراسة (الاستبانة):

يعرض الجدول رقم (٢) المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية والنسب المئوية لاستجابات أفراد عينة الدراسة حول دور الإعلام في توجيه الاستراتيجيات تمكين نحو الشباب في دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية تبعاً للمحور، وهي كما يلي:

الجدول رقم (٢) المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية والنسب المئوية لاستجابات أفراد عينة الدراسة حول دور الإعلام في توجيه الاستراتيجيات نحو تمكين الشباب في دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية تبعاً للمحور (ن=١١٧)

م.	العبارة	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	النسبة المئوية
١	دور الإعلام في التمكين السياسي	٤.١١	٠.٦٧	٨٢.٣٠
٢	دور الإعلام في التمكين الاقتصادي	٤.١٦	٠.٦٠	٨٣.١٧
٣	دور الإعلام في التمكين الاجتماعي	٤.٠٨	٠.٨٢	٨١.٥٤
٤	دور الإعلام في التمكين التعليمي	٤.٠٩	٠.٧٥	٨١.٧٦
	المجموع العام	٤.١١	٠.٧١	٨٢.١٩

تمكين الشباب في دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية تبعاً لمحاوَر أداة الدراسة (الاستبانة) تراوحت ما بين (٠.٤) و(٤٠١٦)، بينما تراوحت النسب المئوية ما بين (٨٠.٠٧٪) و(٨٣.١٧٪)، حيث حل المحور «التمكين الاقتصادي» بالمرتبة الأولى، بينما حل المحور «التمكين الاجتماعي» بالمرتبة الأخيرة.

ترجع الباحثة ارتفاع هذه النتائج، إلى الدور الذي تقوم به وسائل الإعلام المحلية في مملكة البحرين، إضافة إلى المؤسسة الرسمية فيها، بفتح المجال أمام الشباب للاستثمار في المجال الاقتصادي، وتأهيل الخريجين والشباب لإنشاء مشاريعهم الخاصة، وتبلور ذلك بشكل جلي مع تأسيس مؤسسة صندوق العمل (تمكين)،

بهدف صقل مهارات الشباب، وإعدادهم لسوق العمل المحلي، إضافة إلى الدعم الذي يحصل عليه أصحاب المشاريع من الشباب، بهدف إنجاح مشاريعهم الخاصة،

بالتعاون مع بعض البنوك، والتي تقدم قروضاً ذات ربح بسيط، تتحمل تمكين جزء من هذه التكلفة. وترجع الباحثة حلول محور التمكين الاجتماعي بالمرتبة الأخيرة،

يتضح من خلال ما تم عرضه في الجدول رقم (٢) أن المتوسطات الحسابية لاستجابات أفراد عينة الدراسة حول دور الإعلام في توجيه الاستراتيجيات نحو

١ - نتائج محور دور الإعلام في

التمكين السياسي

يعرض الجدول رقم (٣) المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية والنسب المئوية لاستجابات أفراد عينة الدراسة حول دور الإعلام في توجيه الاستراتيجيات نحو تمكين الشباب سياسياً في دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية، وهي كما يلي:

الجدول رقم (٣) المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية والنسب المئوية لاستجابات أفراد عينة الدراسة حول دور الإعلام في توجيه الاستراتيجيات نحو تمكين الشباب سياسياً في دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية (ن=١١٧)

إلى أن عينة الدراسة قد ترى أن ما تقدمه وسائل الإعلام في مجال حصول الشباب على حضوره في المجتمع، لا يزال دون المطلوب، وهو حكراً على فئات الكبار أو فئات مجتمعية قليلة جداً، على الرغم من أن مملكة البحرين، عند مقارنتها بالعديد من البلدان العربية، تعد من الدول المتميزة في هذا المجال.

ثانياً: نتائج بنود محاور أداة الدراسة:

تستعرض الباحثة نتائج بنود أداة الدراسة والمعالجات الإحصائية المرتبطة بها، من متوسطات حسابية وانحرافات معيارية ونسب مئوية، ومن ثم مناقشة هذه النتائج، كما يلي:

م.	العبارة	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	النسبة المئوية
١	تعمل وسائل الإعلام على تمكين الشباب سياسياً .	٤.١٠	٠.٦٧	٨٢.٠٥
٢	تعرض وسائل الإعلام نماذج مشرفة لشباب بلادي المنخرطين في الشأن السياسي .	٣.٩٦	٠.٧٢	٧٩.١٥
٣	تتيح وسائل الإعلام الفرصة للشباب للتعبير عن آرائهم بحرية .	٤.١٥	٠.٧٧	٨٢.٩١
٤	تعمل وسائل الإعلام على غرس مفاهيم الولاء لدى أبناء بلادي من الشباب .	٤.١٩	٠.٦٩	٨٣.٧٦
٥	توعي وسائل الإعلام الشباب حول المؤسسات السياسية المرخصة .	٤.١٧	٠.٦٩	٨٣.٤٢
٦	تعمل وسائل الإعلام على توعية الشباب حول القضايا السياسية العامة .	٤.٢٣	٠.٤٢	٨٤.٦٢

يتضح من خلال ما تم عرضه في الجدول رقم (٣) أن المتوسطات الحسابية

تثقيفية كبيرة لفئة الشباب في مجال الإصلاح السياسي، وتقوم وسائل الإعلام المحلية بنشر هذه الجهود.

إلا أن عدداً لا يستهان به من الشباب البحريني يرى أن وسائل الإعلام المحلية تعمل على تحجيم دور الشباب مقابل القيادات، والتي غالباً ما تكون كبيرة في السن، وتملك خبرات في التعامل مع الشأن السياسي، وهذا يعود إلى أن الجمعيات السياسية في الأصل تعمل على الاستفادة من حماس الشباب وطاقتهم في الوصول إلى أهداف الجمعيات السياسية.

٢. نتائج محور دور الإعلام التمكين

الاقتصادي

يعرض الجدول رقم (٤) المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية والنسب المئوية لاستجابات أفراد عينة الدراسة حول دور الإعلام في توجيه الاستراتيجيات نحو تمكين الشباب اقتصادياً في دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية، وهي كما يلي:

الجدول رقم (٤) المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية والنسب المئوية لاستجابات أفراد عينة الدراسة حول دور الإعلام في توجيه الاستراتيجيات نحو تمكين الشباب اقتصادياً في دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية (ن=١١٧)

لاستجابات أفراد عينة الدراسة حول دور الإعلام في توجيه الاستراتيجيات نحو تمكين الشباب سياسياً في دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية تراوحت ما بين (٣,٩٦) و(٤,٢٣)، بينما تراوحت النسب المئوية ما بين (٧٩,١٥%) و(٨٤,٦٢%)، حيث حلت العبارة رقم (٦) «تعمل وسائل الإعلام على توعية الشباب حول القضايا السياسية العامة» بالمرتبة الأولى، بينما حلت العبارة رقم (٢) «تعرض وسائل الإعلام نماذج مشرفة لشباب بلادي المنخرطين في الشأن السياسي» بالمرتبة الأخيرة.

ترجع الباحثة هذه النتائج، إلى أن وسائل الإعلام في مملكة البحرين، تقدم العديد من البرامج لنشر الفكر السياسي والقانوني داخل البلاد، ذلك أنها في الغالب حكومية أو بعضها مدعوم من الأجهزة الحكومية، فهي تسلط الضوء على المفاهيم التي تحاول المؤسسات الرسمية مثل معهد البحرين للتنمية السياسية، والذي يقدم بدوره ورش ودورات تدريبية، إضافة إلى محاضرات وندوات ومؤتمرات لمختلف فئات المجتمع في الشأن السياسي والحقوقى، إضافة إلى الجهود التي يقوم بها من أجل نشر الفكر السياسي الواعي في المجتمع. كما أن كلاً من مجلسي النواب والشورى (المجلس الوطني) يقدم برامج

م.	العبرة	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	النسبة المئوية
١	تدعم وسائل الإعلام تأهيل الشباب للحصول على فرص عمل مناسبة لإمكانياتهم.	٣.٩٩	٠.٦٥	٧٩.٨٣
٢	تسعى المؤسسات الإعلامية بوسائلها المختلفة إيجاد حلول للقضاء على بطالة الشباب.	٤.٢٥	٠.٥١	٨٤.٩٦
٣	توعي وسائل الإعلام الشباب حول حاضنات أعمال ملاءمة لمشاريعهم.	٤.٢٥	٠.٦٦	٨٤.٩٦
٤	تقدم وسائل الإعلام برامج تأهيلية للخريجين لزيادة فرصهم	٤.٠٦	٠.٦١	٨١.٢٠
٥	تعمل وسائل الإعلام على توجيه الشباب إلى العمل الحر.	٤.١٠	٠.٦٣	٨٢.٠٥
٦	تعمل وسائل الإعلام على حث القطاع الخاص على تفضيل الشاب المواطن على الأجنبي.	٤.٠٩	٠.٥٧	٨١.٨٨
٧	تعمل وسائل الإعلام على توجيه المؤسسات إلى التمييز عند التوظيف بين الجنسين.	٤.٣٧	٠.٥٥	٨٧.٣٥
٨	تدعم وسائل الإعلام مشاريع الشباب في بلادي.	٤.٠١	٠.٧٣	٨٠.١٧

بالعديد من المشاريع من أجل تمكين الشباب في الجانب الاقتصادي، منها: تأسيس مؤسسة صندوق العمل (تمكين) في العام ٢٠٠٦م، وهي مؤسسة شبه حكومية، تقدم خدماتها للمواطنين البحرينيين، كأحد مشاريع الإصلاح الوطني، فقد قامت تمكين بتأهيل (١٣,٠٠٠ ألف مواطن بحريني) في مختلف الاختصاصات، وهي نسبة عالية عند مقارنتها بأعداد سكان مملكة البحرين من المواطنين، إضافة إلى دعم العديد من المشاريع الاقتصادية، وتشجيع الشباب إلى ريادة الأعمال، عن طريق توفير حاضنات أعمال لمشاريعهم.

إضافة إلى برنامج ولي العهد صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن حمد آل

يتضح من خلال ما تم عرضه في الجدول رقم (٤) أن المتوسطات الحسابية لاستجابات أفراد عينة الدراسة حول دور الإعلام في توجيه الاستراتيجيات نحو تمكين الشباب اقتصادياً في دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية تراوحت ما بين (٣,٩٩) و(٤,٣٧)، بينما تراوحت النسب المئوية ما بين (٧٩,٨٣٪) و(٨٧,٣٥٪)، حيث حلت العبارة رقم (٧) «تعمل وسائل الإعلام على توجيه المؤسسات إلى التمييز عند التوظيف بين الجنسين» بالمرتبة الأولى، بينما حلت العبارة رقم (١) «تدعم وسائل الإعلام تأهيل الشباب للحصول على فرص عمل مناسبة لإمكانياتهم» بالمرتبة الأخيرة.

إن ارتفاع هذه النتائج، يعود إلى أن السلطات الحكومية بمملكة البحرين، قامت

٣. نتائج محور دور الإعلام في التمكين الاجتماعي

يعرض الجدول رقم (٥) المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية والنسب المئوية لاستجابات أفراد عينة الدراسة حول دور الإعلام في توجيه الاستراتيجيات نحو تمكين الشباب اجتماعياً في دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية، وهي كما يلي:

الجدول رقم (٥) المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية والنسب المئوية لاستجابات أفراد عينة الدراسة حول دور الإعلام في توجيه الاستراتيجيات نحو تمكين الشباب اجتماعياً في دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية (ن=١١٧)

م.	العبرة	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	النسبة المئوية
١	تعمل وسائل الإعلام على تعزيز مكانة الشباب في المجتمع .	٤.٢٢	٠.٦٠	٨٤.٤٤
٢	تدعم وسائل الإعلام على إشراك الشباب في الشأن المجتمعي .	٣.٩٥	٠.٩٩	٧٨.٩٧
٣	تميز وسائل الإعلام بين الجنسين	٣.٧٤	١.٣٤	٧٤.٧٠
٤	تدعم وسائل الإعلام النماذج الناجحة من الشباب .	٤.٣٥	٠.٦١	٨٧.٠١
٥	يؤخذ رأي الشباب في القضايا المجتمعية في وسائل الإعلام المختلفة .	٣.٨٠	٠.٩٢	٧٦.٠٧
٦	للشباب صوت مسموع في وسائل الإعلام .	٤.١٢	٠.٧٤	٨٢.٣٩
٧	تنشر وسائل الإعلام ثقافة العمل التطوعي بين الشباب .	٤.٣٦	٠.٥٦	٨٧.١٨

خليفة للقيادات الحكومية الشابة، وهو برنامج واعد لإعداد قيادات في المؤسسات الحكومية. كما قامت الحكومة بإنشاء معهد بيبا البحرين للإدارة العامة، بهدف تهيئة العاملين في القطاع الحكومي، وإعدادهم في الوصول إلى المراكز القيادية.

وتعمل وسائل الإعلام المحلية على نشر الفعاليات والإعلانات الخاصة بهذه المؤسسات في مختلف الوسائل، بهدف إتاحة المجال لأكبر شريحة ممكنة المشاركة في هذه الأنشطة، وتلقي الدعم المباشر وغير المباشر.

إلا أن ذلك يصطدم بعض الأحيان - كما تراه الباحثة - مع توجهات بعض القيادات في المؤسسات الإعلامية، والتي ترى أن الشباب ينبغي أن يمروا بالطريق نفسها، التي سار فيها من قبلهم للوصول إلى ما

وصلوا إليه، ما قد يؤدي إلى عرقلة مشاريع التمكين الاقتصادي في المملكة.

فالمجتمع البحريني، على الرغم من انفتاحه، فهو مجتمع ذكوري، حاله حال بقية المجتمعات العربية، كما أن إشراك الشباب في القرار المجتمعي ضعيف جداً.

٤. نتائج محور دور الإعلام في التمكين التعليمي

يعرض الجدول رقم (٦) المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية والنسب المئوية لاستجابات أفراد عينة الدراسة حول دور الإعلام في توجيه الاستراتيجيات نحو تمكين الشباب تعليمياً في دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية، وهي كما يلي:

الجدول رقم (٦) المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية والنسب المئوية لاستجابات أفراد عينة الدراسة حول دور الإعلام في توجيه الاستراتيجيات نحو تمكين الشباب تعليمياً في دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية (ن=١١٧)

م.	العبارة	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	النسبة المئوية
١	تسلط وسائل الإعلام على دور المملكة في توفير التعليم المجاني أو المدعوم في المراحل التعليمية المختلفة.	٣.٧٥	٠.٨٧	٧٥.٠٤
٢	تسلط وسائل الإعلام على مدى تلاءم البرامج التعليمية المقدمة مع حاجات المجتمع ومتطلباته.	٣.٨٩	٠.٧٥	٧٧.٧٨
٣	تحاول وسائل الإعلام على دفع المؤسسات التعليمية على غرس المهارات الحياتية لدى المتعلم.	٤.٦٦	٠.٧٠	٩٣.١٦
٤	تطالب وسائل الإعلام المؤسسات التعليمية على تعزيز التفكير الناقد لدى الطلاب.	٣.٩٣	٠.٧٦	٧٨.٦٣
٥	تعزز وسائل الإعلام تمكين الشباب تعليمياً في المملكة.	٤.١٣	٠.٦٨	٨٢.٥٦
٦	تسلط وسائل الإعلام على دور المملكة في تقديم تعليم ملائم للجنسين.	٤.١٩	٠.٨٢	٨٣.٧٦
٧	تسلط وسائل الإعلام الدور على أهمية التعليم المهني والتقني.	٤.٠٧	٠.٦٥	٨١.٣٧

يتضح من خلال ما تم عرضه في الجدول رقم (٥) أن المتوسطات الحسابية لاستجابات أفراد عينة الدراسة حول دور الإعلام في توجيه الاستراتيجيات نحو تمكين الشباب اجتماعياً في دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية تراوحت ما بين (٣,٧٤) و(٤,٣٦)، بينما تراوحت النسب المئوية ما بين (٧٠,٧٠٪) و(٨٧,١٨٪)، حيث حلت العبارة رقم (٧) «تنشر الدولة ثقافة العمل التطوعي بين الشباب» بالمرتبة الأولى، بينما حلت العبارة رقم (٣) «تميز وسائل الإعلام بين الجنسين» بالمرتبة الأخيرة.

ترجع الباحثة هذه النتائج، إلى أن الشباب بشكل عام يرون أن دورهم في المجتمع، جيد، إلا أن وسائل الإعلام المحلية تقوم بالتمييز بين الجنسين سواء تسليط الضوء على المشاركات المجتمعية، أو الانضمام إلى الكيانات المجتمعية،

يتضح من خلال ما تم عرضه في الجدول رقم (٦) أن المتوسطات الحسابية لاستجابات أفراد عينة الدراسة حول دور الإعلام في توجيه الاستراتيجيات نحو تمكين الشباب تعليمياً في دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية تراوحت ما بين (٣,٧٥) و(٤,٦٦)، بينما تراوحت النسب المئوية ما بين (٣,٧٥%) و(٩٣,١٦%)، حيث حلت العبارة رقم (٣) «تداول وسائل الإعلام دفع المؤسسات التعليمية على غرس المهارات الحياتية لدى المتعلم» بالمرتبة الأولى، بينما حلت العبارة رقم (١) «تسلط وسائل الإعلام على دور المملكة في توفير التعليم المجاني أو المدعوم في المراحل التعليمية المختلفة» بالمرتبة الأخيرة.

ترجع الباحثة هذه النتائج، إلى أن القيادة السياسية بمملكة البحرين، دأبت على توفير التعليم المجاني في المراحل الأساسية الثلاث، وليس في جميع المراحل، إلا أن نسبة عالية من الخريجين يقعون ضحية البطالة، نتيجة الأوضاع الاقتصادية المضطربة.

توصيات الدراسة ومقترحاتها

خرجت الدراسة بالعديد من التوصيات، وهي:

١. الانتقال من مرحلة تمكين الشباب إلى مرحلة نهوض الشباب بأنفسهم، عن

طريق بناء استراتيجية جديدة تدعم هذا الاتجاه.

٢. توحيد جهود الوسائل الإعلامية بين دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية في مجال تمكين الشباب.

٣. إبراز النماذج الناجحة من الشباب في مختلف وسائل الإعلام.

كما خرجت الدراسة بالعديد من المقترحات، وهي:

١. دراسة مشكلات تمكين الشباب في دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية.

٢. دراسة تحليلية لواقع مشاريع تمكين الشباب في دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية.

٣. دراسة استطلاعية لتأثير وسائل الإعلام على استراتيجيات تمكين الشباب في دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية.

المراجع والمصادر

أولاً: المراجع والمصادر العربية:

- برنامج الأمم المتحدة الإنمائي. (٢٠١٦). تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام ٢٠١٦ الشباب وآفاق التنمية الإنسانية في واقع متغير. نيويورك، برنامج الأمم المتحدة الإنمائي.
- برنامج الأمم المتحدة الإنمائي. (٢٠١٤). تقرير التنمية البشرية. نيويورك، برنامج الأمم المتحدة الإنمائي.

- برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، ومؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم. (٢٠١٤). **تقرير المعرفة العربي للعام ٢٠١٤: الشباب وتوطين المعرفة (الملخصات)**. استرجع من file:///C:/Users/mfateel/Downloads/AKR2014_Summary_AR.pdf
- بيروت إنستيتوت. (٢٠١٥). **توصيات السياسة تموضع المنطقة العربية في الرقعة العالمية بما يتعدى الاقتصاد السياسي والتهديدات الأمنية**. أبو ظبي، بيروت إنستيتوت.
- الجمعية العامة للأمم المتحدة. (٢٠٠٩). **الدورة الرابعة والستون البند ٦١ (ب) من جدول الأعمال، قرار اتخذته الجمعية العامة في ١٨ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٩**. نيويورك، الجمعية العامة للأمم المتحدة.
- فوزي حسن الزبيدي. (٢٠١٥). **منهجية تقييم مخاطر الأمن القومي دراسة تحليلية لمنهجية تقييم مخاطر الأمن القومي NSRA. رؤى استراتيجية**، (١١): ٨-٤٧ - الإمارات، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية.
- محمد إسماعيل، وهبة عبدالمنعم. (٢٠١٥). **بطالة الشباب في الدول العربية**. القاهرة، صندوق النقد العربي.
- المركز الإحصائي لدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية. (٢٠١٦). **مؤشرات التعليم في دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية**. سلطنة عمان، المركز الإحصائي لدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية.
- المركز الإحصائي لدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية. (٢٠١٢). **مؤشرات التعليم في دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية**. سلطنة عمان، المركز الإحصائي لدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية.
- مصطفى حجازي. (٢٠١١). **الإعلام الاجتماعي وتأثيراته على الناشئة في دول مجلس التعاون**. **سلسلة الدراسات الاجتماعية**، (٦٣)، البحرين، مجلس وزراء الشؤون الاجتماعية بدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية.
- موسى عبدالرحيم حلس، وناصر علي مهدي. (٢٠١٠). **دور وسائل الإعلام في تشكيل الوعي الاجتماعي لدى الشباب الفلسطيني (دراسة ميدانية على عينة من طلاب كلية الآداب جامعة الأزهر)**. **مجلة جامعة الأزهر بغزة**، ١٢(٢): ١٣٥-١٨٠ - فلسطين، جامعة الأزهر بغزة.
- وليد عبد مولا. (٢٠٠٩). **واقع بطالة الشباب. سلسلة جسر التنمية**، (٨٧): ٢-١١ - الكويت، المعهد العربي للتخطيط ليفين محمد عيسى. (٢٠١٥). **دور الإعلام المرئي في تمكين الشباب للمشاركة المجتمعية «دراسة تحليلية تقييمية لبعض برامج القناة الفضائية السورية»**. أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة دمشق، سوريا.
- يوسف الصواني. (٢٠١٣). **التحديات الأمنية للربيع العربي: من إصلاح المؤسسات إلى مقاربة جديدة للأمن**. **المستقبل العربي**، ١٦-٤١ - ٢١-٣٣ - بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية.

ثانياً: المراجع والمصادر الأجنبية:

- Idoko, Cletus Usman. (2014). Skills Acquisition and Youth Empowerment in Nigeria. Global Institute for Research & Education, 3(1): 51-54.
- Isa, A. Muhammed, & Vambe, Jeremiah Tersure. (2013). Youth Empowerment and National Development In Nigeria. International Journal of Business and Mangement Invention. 2(10): 82-88.
- Nwosu, O. C. , & Ugwuera, E. (2014). Analysis of Subsidy and Reinvestment Programme (SURE-P) and Youth Empowerment in Nigeria 2012-2014. Journal of Humanities and Social Science, 19(12): 25-32.
- Secretary-General's Report to the General Assembly, A/36/215,1981.

المشكلة الغذائية في دول العالم الثالث ومسؤولية الدول المتقدمة

د. رفيق العزيز

الثالث، وهذه الاستراتيجية مارستها الولايات المتحدة لضعاف النفوذ السوفيياتي والتمدد الشيوعي في العالم انطلاقاً من المبدأ السائد «أن من يتحكم بغذاء الشعوب يتحكم بمصيرها».

ان تاريخ البشرية يزخر بالمجاعات التي ذهب ضحيتها الملايين وهذا ما دفع الكثيرين من المفكرين إلى تناول موضوع الغذاء في كتاباتهم بشكل موسع، محاولين ايجاد الحلول، فمنهم من اعتبرها جزءاً لا ينفصل عن المشكلة السكانية مشبها وجود المجتمعات بصراع مستمر بين الزيادة السكانية والإنتاج الغذائي، فبقدر ما تتزايد أعداد البشر بقدر ما تتزايد احتمالات النقص الغذائي والمجاعات.

أما آخرون فقد اعتبروا أن المشكلة لا تكمن في زيادة السكان، إنما في أنظمة سياسية واقتصادية تسعى بشكل جدي إلى استغلال الشعوب الفقيرة وبسط سيطرتها عليها بطرق لا إنسانية، من خلال التحكم

مقدمة

تعتبر مسألة الغذاء من أهم المسائل التي تمس بشكل مباشر وجود الإنسان واستمراره على هذه الأرض، وقد أثبتت أحداث التاريخ أن تأمين الغذاء شكل المسعى الرئيسي للإنسان منذ وجوده. كما برهنت الوقائع أن المستوى الاجتماعي والاقتصادي للدول هو في جزء كبير منه انعكاس لمدى توفر الغذاء فيها ونوعيته، بحيث لا يمكن الحديث عن تقدم لدولة ما في الوقت الذي يواجه شعبها خطر الجوع. إذن فالإنتاج الغذائي ما هو إلا صورة عن الواقع الاجتماعي والاقتصادي الذي تتميز به المجتمعات، وهو عملية تتشارك في صناعتها عوامل متعددة، سياسية، اقتصادية وعلمية. لقد اتخذت الدول الكبرى منذ بداية الاستعمار وتحديدا بريطانيا الغذاء أداة لممارسة هيمنتها وفرض سياستها الاقتصادية على دول العالم

بغذائها بهدف الربح والسعي إلى السلطة والنفوذ. إن ما تطرحه هذه الفئة ليس بعيداً عن المنطق بل هو الأقرب إلى الواقع من طرح الفئة الأولى، إذ لا يعقل في الربع الأول من القرن الواحد والعشرين أن يهدد الجوع مجتمعات بأكملها، ومن غير المقبول أيضاً في ظل التقدم العلمي الحاصل أن يبقى ٨٥٠ مليون من سكان العالم يعانون من نقص في الغذاء، وأن يذهب عشرات الأطفال سنوياً ضحية سوء التغذية والمجاعة.

لا يمكن القول إن زيادة البشر هي السبب؛ فالأرض لم تصل إلى حد التخمة السكانية بعد، وخير دليل على ذلك أنه في كل أزمة غذائية حادة وفي كل حالة مجاعة كبرى تسارع الدول الغربية إلى إرسال المساعدات الغذائية بكميات كبيرة إلى هذه الدول، إذن هناك فائض غذائي موجود يمكن من إعالة الأفواه الجائعة.

إن رعب الأرقام هذا يدل على أن هناك مشكلة كبرى تواجه العالم، وأن المعطيات الأولية تشير إلى أن مسألة الجوع هي في جزء كبير منها إما سياسية وإما ناتجة عن إهمال من قبل الدول الغربية، وأن مسألة الغذاء تبقى المشكلة الكبرى التي يجب على دول العالم مواجهتها. فإذا كانت مقولة «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان» هي الراسخة في الأذهان، فإن شعار «بغير

الخبز لا يحيا الإنسان» هو الراسخ اليوم في الضمائر الحية.

لقد أثارت صورة الفتاة اليمنية التي تداولتها صحف العالم في العام ٢٠١٦ سخط المجتمع الدولي، وهزت مشاعر ملايين البشر عبر العالم، ودلت على أنه من غير المقبول على الدول المتقدمة الحديث عن حقوق للإنسان طالما أن هناك ملايين يعانون ما عانتها هذه الفتاة.

إن الهدف من هذه المقالة إظهار حجم المشكلة الغذائية التي يواجهها العديد من مجتمعات الدول النامية، حيث بات من المؤكد عجز المجتمع الدولي والدول المتقدمة عن وضع حد لهذه المأساة التي تعود على الأقل إلى بداية استعمار الغرب لهذه الدول، وهي مستمرة حتى يومنا الحاضر بأساليب استعمارية مبطنة.

لقد تم تقسيم المقال على الشكل التالي:
١ - عودة سريعة إلى تاريخ المجاعات، الهدف منها:

أ - إظهار دور الدكتاتوريات في صنع المجاعات.

ب - دور الاستعمار.

٢ - دور الحروب والنزاعات في خلق الأزمات الغذائية.

٣ - أزمة العام ٢٠٠٧ - ٢٠٠٨ ومدى خطورتها

٤- حالة العالم في العام ٢٠١٧ والمخاطر المستقبلية.

٥- الخاتمة

١ - عودة إلى التاريخ

أ - الدكتاتوريات وصناعة المجاعات

ماو والقفزة الكبرى

بههدف إعطاء الصين حجماً مماثلاً للاتحاد السوفياتي وتحويلها إلى قوة عسكرية واقتصادية عظيمة، رفع ماو شعار ما سمي بـ «القفزة الكبرى إلى الأمام»، التي تمثلت بتحويل بنوي في الاقتصاد الصيني بنقله من اقتصاد مبني على الزراعة إلى اقتصاد صناعي. تركزت سياسة ماو على دعم الصناعة والتصنيع الزراعي، فاقامت من أجل ذلك حملات دعائية واسعة دعماً لهذا البرنامج الهادف إلى تغيير بنية الاقتصاد بشكل جذري. كما تم اللجوء إلى حملات اعتقال وتصفيات لعدد كبير من معارضي الثورة ومن معارضي طريقة الإصلاح المتبعة. فمن بين الإجراءات التي لجأت إليها الحكومة الصينية حينها، مصادرة الأراضي للمزارعين الصغار الذين أُجبروا على العمل بشكل جماعي في مشاريع كبيرة، حيث تم نقل أعداد كبيرة منهم بعيداً عن قراهم، ما أدى إلى إلحاق ضرر كبير بالبنية الاجتماعية والاقتصادية التي كانت منظمة بشكل عفوي على أسس

تتماشى مع واقع المجتمع الصيني، وتحديد المجتمع الريفي.

لقد سارع التحول البنيوي الذي طال الاقتصاد إلى تراجع الإنتاج الزراعي. إن المكائينات الزراعية المصنعة لم تكن بالمستوى المطلوب الذي يمكن من التعويض عن اليد العاملة الزراعية التي جبر قسم كبير منها نحو القطاع الصناعي، كما أن غياب آلية واضحة ومدروسة للمحافظة على مستوى الإنتاج الزراعي الذي كان قائماً قبل الثورة والذي كان إلى حد ما يغطي الحاجات المحلية للسكان الريفيين، إضافة إلى سياسة القمع المتبعة، كل ذلك أدى إلى تدهور سريع للحالة الاقتصادية وتحديد الإنتاج الزراعي.

لم تنجح «القفزة الكبرى إلى الأمام» في تحقيق ما كان يطمح إليه ماو، بل على العكس جاءت النتائج مأساوية حيث شهدت الصين أكبر مجاعة في تاريخها، وكانت الأرياف أكثر المناطق تضرراً جراء تدهور إنتاج المحاصيل الزراعية. تضاربت الإحصاءات حول عدد الموتى جراء هذه المجاعة. ولكن ما يؤكد العديد من المصادر أنها تجاوزت العشرة ملايين ضحية، وهناك أرقام أخرى حديثة تشير إلى أن ٣٠ مليوناً ماتوا بشكل مباشر وغير مباشر نتيجة الجوع. في وصف لهذه المأساة تحدث أحد المؤرخين عن قيام

السكان بتناول الحشرات، والحيوانات كما تم الحديث عن أكل جثث الموتى^(١).

ب - مجاعات البنغال^(٢)

اعتبرت مجاعة البنغال التي حصلت خلال الحرب العالمية الثانية (١٩٤٣-١٩٤٤) من أكبر المجاعات التي شهدتها القرن العشرين، وجاءت نتيجة للسياسة البريطانية التي عمدت بعد احتلال بورما من اليابانيين في العام ١٩٤٢، إلى السيطرة على إنتاج القمح في بنغلادش وإرساله إلى بريطانيا تعويضاً عن ١، ٢ مليون طن من الأرز التي كانت تصدر من بورما قبل الاحتلال الياباني. ولم تقف الإجراءات البريطانية عند هذا الحد حيث عمد ونستون تشرشل، رئيس الوزراء البريطاني إلى تحويل وجهة المساعدات الطبية والغذائية المقررة إلى بنغلادش لجنود أوروبا الذين كان لديهم ما يكفي من الإمدادات. فإضافة إلى حرص تشرشل على المصالح العليا لبريطانيا، هذه المصالح التي تسقط أمامها كل المحرمات، كان تشرشل يكن كرهاً

شديداً للهنود فقد صرح: «إنني أكره الهنود. إنهم قوم متوحشون ويتبعون ديانة متوحشة. كانت المجاعة خطأهم هم لأنهم يلدون مثل الأرانب»، وفي رد له على برقية كانت حكومة دلهي قد أرسلتها شارحة فيها الواقع المأساوي الفظيع وعدد الضحايا، أجاب: "لماذا لم يمت غاندي حتى الآن؟" وتعود أسباب المجاعات وأزمات النقص الغذائي التي أصابت بنغلادش في جزء كبير منها إلى السياسة المالية البريطانية حين فرضت تحت حكم المغول على المزارعين دفع إتاوة تراوحت قيمتها من ١٠-١٥٪ من عائد الحصاد، وكان من المتوقع أن تصب هذه في مصلحة الفلاحين ضامنة من جهة وفرة مالية للحكام ومن جهة أخرى أماناً للفلاحين في حال لم تسمح الظروف المناخية بجني المزيد من الحصاد في المستقبل. ولكن تبذلت الحالة بعد العام ١٧٦٥، عندما أخذت شركة الهند الشرقية مهمة جمع الجزية والإتاوات من الإمبراطور المغولي شاه علام الثاني.

(١) Yang Jisheng, Stèles, la grande famine en Chine, 1958-1961, Paris, Seuil, 2012, Zhou Xan, The

Great Famine in China, a Documentary History, Yale University Press, 2012.

(٢) يقول جواهر لال نهرو في كتابه الشهير «اكتشاف الهند»: كانت الهند تمتلك صناعات على درجة كبيرة من التطور. وكانت منتجاتها تصدر إلى دول أوروبا وغيرها من دول العالم. كما كانت تمتلك نظاماً للبنوك على درجة رفيعة من التنظيم الجيد والادارة المؤهلة. . . كما يقول روميس دات في كتابه «التاريخ الاقتصادي للهند»: «كانت الهند في القرن الثامن عشر عشر بلداً صناعياً كبيراً، بقدر ما كان بلداً زراعياً ضخماً. وكانت منتجات المغزل الهندي تمد آسيا وأوروبا». للمزيد حول دور الاستعمار في التخلف الاقتصادي للدول النامية راجع: زكي، رمزي. المشكلة السكانية وخرافة المalthusية الجديدة، عالم المعرفة، ١٩٩٠، ص ٢٦٩.

القوت في أي مكان آخر، وذلك للهرب من الجوع في وقت لاحق، أولئك الذين بقوا على الرغم من ذلك لقوا حتفهم، وتم التخلي عن آلاف الأفدنة من الأراضي الزراعية.

كانت هذه المناطق تتمكن إلى حد ما قبل دخول الاستعمار من تجنب المجاعات، أو على الأقل الحد من نتائجها، ففي الحالات السابقة التي كانت تدل على حدوث مجاعات، كان الحكام الهنود يتنازلون عن الضرائب ويقومون باتخاذ التدابير التعويضية، مثل الري الذي كان يستهدف منه توفير أكبر قدر ممكن من الإغاثة للمزارعين المنكوبين.

على الرغم من أن المجاعة قد حدثت في وقت مبكر من ١٧٧٠، تابع الحكام الاستعماريون تجاهل أي تحذيرات، وبدأت أعداد الوفيات ترتفع تدريجياً، وعلى الرغم من خطورة الوضع فقد قامت شركة الهند الشرقية برفع ضريبة الأراضي إلى ٦٠٪ من أجل تعويض العائدات التي فقدوها لموت الكثير من الفلاحين.

وفرض البريطانيون لاحقاً على نطاق واسع زراعة المحاصيل النقدية بهدف تصديرها في ما بعد، وهكذا فإن المزارعين الذين اعتادوا على زراعة الأرز والخضروات باتوا مجبرين على زراعة النيلي، الخشخاش والمحاصيل الأخرى التي حققت قيمة سوقية أعلى بالنسبة إليهم، ولكنها لم تكن

عمدت الشركة إلى رفع الإتاوات بنسبة ٥٠٪ التي لم تكن في الواقع الا ضرائب، إلا أن البريطانيين أصروا على تسميتها إتاوات وليس ضرائب وذلك لقمع التمرد، كما أن الفلاحين لم يكونوا على دراية بأن المال الذي يدفعونه يذهب إلى البريطانيين، بل كانوا يعتقدون أنه يذهب إلى الإمبراطور. قبل رفع الإتاوة كان فائض المخزون، الذي يبقى بعد دفع الجزية مهماً لمعيشة الفلاحين، ولكن مع زيادة الضرائب، تدهور هذا الفائض بسرعة ما أدى بعد خمس سنوات إلى حدوث مجاعة في العام ١٧٧٠. استمرت هذه المجاعة ثلاث سنوات وكانت على درجة عالية من الوحشية، ففي ووصف لجون فيسك في كتابه «عالم الغيب» قال إنها أشد فتكاً بكثير من الطاعون الأسود الذي روع أوروبا في القرن الرابع عشر. لم تأت هذه المجاعة بشكل مفاجئ، بل سبقتها مؤشرات في العام ١٧٦٩ أنذرت بضخامتها، وقد بلغ عدد ضحاياها ١٠ ملايين شخص وخلفت دماراً طال ثلث سكان البنغال. إن تأخر سقوط الأمطار في عام ١٧٦٩ ضاعف من احتمالات حدوثها بعد أن ظهرت علامات الجفاف التي أنذرت بتدهور المحاصيل وتأزم الوضع الغذائي. وكانت الولايات الحديثة في غرب البنغال وبيهار أكثر المناطق تضرراً. جرى إخلاء الآلاف من المنطقة على أمل العثور على

كان أهمها تلك التي واجهتها أثيوبيا في بداية العام ٢٠٠٣، حين هدد الجوع حوالي ١٢ مليون شخص الأمر الذي دفع بالحكومة مناشدة المجتمع الدولي للتدخل، فسارعت الدول المتقدمة إلى إرسال ١,٣ مليون طن من المساعدات الغذائية، مع الإشارة إلى أن العراق وكوريا الشمالية هما الدولتان الوحيدتان اللتان حصلتا على هذا الحجم من المساعدات الغذائية بين العام ١٩٩٢ والعام ٢٠٠٣. ويعود السبب الرئيسي لمجاعة ٢٠٠٣ في أثيوبيا النزاع الذي حصل بينها وبين أرتيريا، هذا النزاع الذي وضع قسماً حيوياً من الأراضي الاثيوبية تحت الخطر، معيقاً عمليات الرعي وملحقاً بالتالي الضرر بأعداد كبيرة من الماشية. وكانت أثيوبيا قد شهدت خلال فترة ١٩٨٤ - ١٩٨٥ مجاعة كبرى ذهب ضحيتها مليون شخص سببها الجفاف والنزاعات الداخلية. ولم تكن أوضاع السودان الغذائية أفضل بكثير، هذا البلد الذي يعتبر خزاناً لثروات طبيعية هائلة، بدأ منذ العام ١٩٨٣ معاناته مع الأزمات الغذائية، ويرجع السبب في ذلك بشكل رئيسي إلى النزاعات الداخلية التي اتخذت في ما بعد منحاً تصعيدياً آخر. لقد أشارت منظمة «العمل ضد الجوع» بعد دراسات

تضمن من جوع بالنسبة إلى سكان المحرومين من الغذاء. أدى ذلك إلى تراجع الفائض في المحاصيل المخصصة للأكل في حال حدثت مجاعة، وهو فائض كان يشكل وسيلة يواجه بها المزارعون حالات الجفاف الشائعة. إن ما قامت به شركة الهند الشرقية لم يكن يهدف إلا إلى الربح، فهي لم تقم بأية تدابير إغاثية للمتضررين بل على العكس فقد حققت بعد رفع الضرائب تعويضاً لخساراتها إيرادات أعلى في عام ١٧٧١ من تلك التي كانت تحصلها في العام ١٧٦٨^(١).

٢ - النزاعات والحروب ودورها في الأزمات الغذائية

تبقى النزاعات والحروب من العوامل الرئيسية التي تسبب المجاعات والأزمات الغذائية وتتفاوت نتائجها الاقتصادية بحسب مدتها وحجمها، فهناك من الحروب والنزاعات الداخلية ما يستمر لعدة عقود من الزمن، وأكبر مثال على ذلك النزاعات التي شهدتها العديد من الدول الأفريقية على امتداد عشرات السنين، والبعض منها لا يزال مستمراً حتى يومنا الحاضر.

في بداية القرن الواحد والعشرين شهدت دول افريقية حالات حادة من النقص الغذائي هددت الملايين من سكانها،

(١) <https://www.sasapost.com/translation/engineered-worst-genocide>.

أخرى) الحقت أضراراً كبيرة بالمنازل وبالمحاصيل الزراعية، وكان من إحدى نتائجها تراجع كبير في إنتاج الحبوب وتحديدًا في إنتاج الذرة، وكان من المتوقع أن يتم التعويض عن هذه الخسارة بامداد هذه المناطق، إلا ان إجراءات الدولة لمواجهة هذه الأزمة لم تكن بالمستوى المطلوب. ويؤكد الخبراء على أن هذا الوضع لم يأت فقط نتيجة الفيضانات والجفاف، وأن أسبابه لم تتكون خلال سنتين فقط، إنما جاء نتيجة عوامل متعددة تعود إلى سنين طويلة سابقة، يأتي في طليعتها الفساد، انعدام السياسات البناءة، المضاربات في الأسواق الغذائية واحتكار الغذاء من قبل فئات اقتصادية وسياسية محددة، وبالتالي كانت التقلبات المناخية والحروب عاملاً مساعداً في صناعة هذه الحالات المأساوية^(٢).

٣ - أزمة ٢٠٠٧-٢٠٠٨ الغذائية ومخاطرها^(٣)

تمهيد

خلال الفترة الممتدة بين عامي ٢٠٠٧ و٢٠٠٨ شهد العالم أول أزمة غذائية في القرن الواحد والعشرين، حين بدأت أسعار الحبوب وتحديدًا تلك التي تشكل المصدر

أجرتها بين عامي ٢٠٠٢-٢٠٠٣ في مناطق تتبع لـ «أعالي النيل» و«بحر الغزال» بأن ربع أطفال هذه المناطق (بين ١٢٠ و٣٠٠ الف) كانوا يعانون من نقص غذائي حاد، وكانت منطقة «بحر الغزال» قد شهدت خلال العام ١٩٩٨ مجاعة أودت بحياة ٧٠ الف شخص، وشمل النقص الغذائي الحاد ٨٠٪ من سكانها. وتعتبر الحرب التي اندلعت في أعالي النيل بعد اكتشاف النفط عام ١٩٧٨ السبب المباشر والرئيسي، فقد نزحت جرائها أعداد كبيرة من السكان باتجاه مناطق بحر الغزال ومناطق الوسط في أعالي النيل التي لم تكن مهيأة لاستقبال أعداد بهذا الحجم^(١).

من جهة أخرى كان تقرير في عام ٢٠٠٢ أعده عدد من الخبراء قد أشار إلى ان أكثر من ١٢ مليون شخص سوف يواجهون خطر المجاعة خلال العام ٢٠٠٣ في كل من: ملاوي، موزامبيق، زيمبابوي، زامبيا وليسوتو، وأنها ستكون الأقوى منذ الجفاف الذي أصاب هذه الدول خلال العام ١٩٩٢. فالتقلبات في هطول الأمطار التي حصلت بين العام ٢٠٠٠-٢٠٠١ (جفاف في بعض المناطق وفيضانات في مناطق

(١) Roger Fersichino, Soudan: pendant La Paix, la faim continue, dans Géopolitique de La faim, page 62-72.

(٢) Jérôme Frignet, Faim en Ethiopie, dans Géopolitique de La Faim 45-58.

(٣) أزمة الغذاء العالمية أسماها خبراء الأمم المتحدة «التسونامي الصامت».

والعشرين أن يبقى الملايين من سكان دول العالم النامية في مواجهة مع مخاطر المجاعات وحالات النقص الغذائي؟

أ - أسباب أزمة ٢٠٠٧-٢٠٠٨

خلال الفترة الممتدة بين عامي ٢٠٠٧ و٢٠٠٨ شهدت الأسواق العالمية ارتفاعاً كبيراً في أسعار المواد الأولية الزراعية، حيث تضاعف سعر القمح في أقل من عام، بينما تم شراء وبيع الذرة والصويا بأسعار أعلى بكثير من أسعار السوق التي تم التعامل بها خلال السنوات العشر السابقة. وكانت أسعار الأرز الذي يشكل مصدراً غذائياً رئيساً للعديد من دول العالم الآسيوية والأميركية قد بدأت بالارتفاع منذ العام ٢٠٠٠ مسجلة أرقاماً قياسية خلال فترة ٢٠٠٧-٢٠٠٨، ما دفع مدير عام صندوق النقد الدولي S. S. Khan إلى التصريح بأنه إذا ما استمر تصاعد الأسعار على هذا النحو فإن الأمور تتجه نحو الكارثة^(٢).

لقد ربطت منظمة الغذاء العالمية في

الغذائي الأول لمعظم سكان العالم، وبالأخص سكان الدول النامية تاخذ منحى تصاعدياً بشكل غير مسبوق، فأسعار القمح والأرز والذرة تضاعفت خلال هذه الفترة، وساهمت بدورها في رفع معظم أسعار المنتجات الغذائية. لقد طرحت هذه الأزمة من حيث حجمها وتوقيتها تساؤلات كثيرة حول العديد من المسائل، معيدة إلى الواجهة مسألة الأمن الغذائي على المستوى العالمي بشكل عام، وما ينتظر الدول النامية من مخاطر مستقبلية بشكل خاص^(١).

لقد أعادت الأزمة الغذائية في العام ٢٠٠٧-٢٠٠٨ إلى الأذهان صورة المجاعات التي حلت في دول العالم الثالث خلال القرن العشرين، وكان السؤال الأول الذي حملته هذه الأزمة هو:

ما هي الأسباب التي أدت إلى رفع أسعار المنتجات الغذائية بشكل مفاجئ؟ وهل من المقبول في ظل التقدم العلمي الذي تحقق مع بداية القرن الواحد

(١) على مستوى الحلول قصيرة الأمد، عمدت بعض الدول إلى شراء المزارع خارج حدودها، فدولة الإمارات التي تنفق ٤ مليارات دولار سنوياً لاستيراد الأغذية، فكرت بشراء مزارع في إفريقيا وتايلند. وبالمقابل قامت بالاتفاق مع الأسواق الكبرى على تحديد أسعار السلع الغذائية الأساسية، والحفاظ على أسعار السابقة لحوالي ٥٢ سلعة أساسية. السعودية اتخذت إجراءات مماثلة، فأعلنت عن نيتها شراء مزارع خارج حدودها، وخفّضت الرسوم الجمركية على ٢٨٠ سلعة أساسية، وألغت الرسوم على واردات القمح. أما حكومات مصر وسورية والأردن، فقد قررت زيادة رواتب موظفي القطاع العام، وهو ما ينظر إليه على أنه حل قصير المدى ومفعوله مؤقت، بسبب ما يتبعه من ارتفاع معدلات التضخم. وهو ما جرّ إلى اقتراح حلول أخرى، مثل زيادة الاستثمارات الزراعية على المدى المتوسط، وتقديم المعونات الاجتماعية للفئات الأكثر حاجة.

(٢) Assemblée parlementaire de la Francophonie, XXXVe SESSION, Paris, 3 au 6 juillet 2009.

تقريرها للعام ٢٠٠٨ سبب ما حصل إلى تغيير مفاجئ في طرق التداول داخل الأسواق الزراعية، كان من نتائجه ارتفاع غير مسبوق في أسعار المواد الغذائية الأساسية التي كانت قد حافظت على امتداد السنين الثلاثين الماضية على أسعار وسطية شبه منخفضة.

٢٠٠٧-٢٠٠٨، فعملية الإنتاج وتصنيع المواد الغذائية باتت على درجة عالية من التعقيد نتيجة تعدد العناصر المساهمة فيها، بدءاً من زراعتها حتى تصنيعها وعرضها في الأسواق أمام المستهلكين. في تحليلهم لهذه الأزمة، أشار عدد من الاقتصاديين إلى أن نوعين من الأسباب:

بدأت ملامح هذه الأزمة ترتسم مع بداية الألفية الجديدة لتبلغ أوجها خلال الفترة الممتدة بين شهر شباط ٢٠٠٧ وحتى شباط ٢٠٠٨، في هذه الفترة سجل مؤشر الأسعار المعتمد من قبل منظمة الغذاء العالمية ارتفاعاً من ١٣٩ إلى ٢١٩، وكانت الحبوب أكثر المواد الغذائية تضرراً بتقلب الأسعار بعد أن ارتفع مؤشر أسعارها من ١٥٢ إلى ٢٨١، بينما سجل مؤشر الحليب ومشتقاته ارتفاعاً من ١٧٦ إلى ٢٧٨، ما دل على أن حجم الخطر الذي واجهه الملايين من سكان دول العالم النامية مقلق جداً، بخاصة وأن أسعار الخبز والحليب قد تضاعفت في العديد من هذه الدول^(١).

➤ أسباب ناتجة عن ظروف طارئة كالكوارث الطبيعية والجفاف الذي أصاب بعض المناطق في العالم على مدى عدة سنوات متتالية والفيضانات المتكررة، يضاف إليها الخسارات الاقتصادية التي تحدثها الحروب والنزاعات الداخلية، وما يعكسه انعدام الأمن والاستقرار بشكل عام على عملية الإنتاج وعلى الحالة الاقتصادية داخل الدول المعنية.

● أسباب طبيعة واقتصادية

من المؤكد أن هناك جملة من العوامل والأسباب التي أدت إلى حصول أزمة

➤ أسباب اقتصادية ومالية، على علاقة بالنظام المالي العالمي وبأنظمة الحكم السائدة في الدول النامية التي تعاني معظمها من سوء في توزيع الثروات، ومن فساد مستشر في مؤسساتها وإداراتها، ومن غياب أية عملية تخطيط جديّة للمشاريع الاقتصادية المنتجة^(٢).

(١) https://fr.wikipedia.org/.../Crise_alimentaire_mondiale_de_2007-2008.

(٢) Sophia Murphy et Christina M. Schiavoni Dix ans apres la crise alimentaire mondiale: relever le defi du droit à l'alimentation dans Vaincre la crise alimentaire, 2017, Edition 10ème Anniversaire, L'observatoire Du Droit à L'Alimentation Et à La Nutrition, page 18.

International Food Policy Research
Insitute فان إنتاج الحبوب في العام
«٢٠٠٧» بلغ ١.٢ مليار طن خصص منها
١.٠١ مليار طن فقط للغذاء.

كما أدى العامل الديمغرافي دوراً محكراً
للأزمة، فقد تزامنت الزيادة السكانية التي
شهدتها بعض الدول النامية مع تراجع في
المحاصيل الزراعية. ومن الأمثلة على ذلك
تراجع الكم المنتج من الحبوب لكل فرد في
الهند حوالي ١٧ كيلوغراماً قبل حصول
الأزمة بعدة سنوات. إزاء هذا المناخ الذي
كان يدل بوضوح على قرب حصول أزمة
غذائية، شرعت بعض البلدان إلى تخزين
الغذاء وإلى تقييد صادراتها الغذائية^(١) وفي
بعض الحالات إلى إقامة حظر على تصدير
بعض المنتجات وإلى فرض ضرائب عليها.
وقد أدت هذه الإجراءات إلى زيادة اختلال
داخل الأسواق الغذائية الوطنية والإقليمية
وإلى تأزيم الوضع في البلدان التي كانت
تعتمد بشكل كبير على الاستيراد
الغذائي^(٢).

إضافة إلى هذه الأسباب، أدى اختلال
التوازن بين العرض والطلب إلى نشوء أزمة
إنتاج تزامنت مع تزايد الطلب على المواد
الغذائية من جهة، وإلى أزمة أسعار ناجمة
عن مضاربات وتلاعب في الأسواق، كانت
في جزء كبير منها نتيجة تدني المخزونات
الغذائية وتغير المناخ وحالات الجفاف التي
ضربت على امتداد سنوات عدة بلدان
منتجة مثل الصين وبنغلادش وأستراليا.
كما أدى النمو الاقتصادي وتحسن
المستوى المعيشي في عدد من دول شرق
آسيا، لا سيما الصين والهند إلى تغيير في
السلوكيات الغذائية لمجتمعاتها، ما جعلها
أكثر إقبالا على أكل اللحوم. وأدت العولمة
دوراً كبيراً في انتشار أنماط غذائية غربية
في كثير من الدول النامية، كالمأكولات
السريعة والمعدة مسبقاً، الأمر الذي زاد من
الحاجة إلى تخصيص كميات كبيرة من
الحبوب لإطعام الماشية، فإنتاج كيلو من
اللحم يتطلب ٨ كيلوغرام من الحبوب.
وبحسب تقرير أصدره المعهد الدولي
لأبحاث السياسات الغذائية (ايفيري)

(١) لقد سارعت كل من الصين واليابان إلى منع صادرات الأرز، أيضاً لجأت بعض الدول الإفريقية إلى نفس الاجراء
مانعة تصدير المواد الغذائية (نيجيريا، غينيا، بنين، مالي وبوركينا فاسو) وقد حذر على أثر ذلك امين عام الأمم
المتحدة من أن هذه الإجراءات لا تؤدي الا إلى زيادة حدة الأزمة. المصدر:

Rapport de L'assemblée Parlementaire, op.cit. page 7.

(٢) في كتابه «Le défi alimentaire» صنف Cornelius Walford الجوع ضمن فئتين:
- جوع بنيوي وهو الجوع الذي تواجهه مناطق عديدة من دول العالم الثالث منذ عقود من الزمن، وهو حالة دائمة تكون
أسبابها داخلية ناتجة عن النظام الاقتصادي والسياسي السائد داخل الدولة، وتكون أولى مظاهره سوء توزيع في

● أسباب المباشرة المستحدثة

لقد دلت الوقائع التاريخية على أن الأسباب المباشرة للمجاعات بقيت إلى حد ما هي نفسها منذ آلاف السنين وحتى اليوم، كارتفاع أسعار الغذاء والتغيرات المناخية والكوارث الطبيعية. فالمجاعات التي كانت تحصل في أوروبا خلال العصور الوسطى وفي الصين خلال العهود القديمة وتلك التي حصلت خلال القرن العشرين ومطلع الألفية الثالثة دلت على أن ارتفاع الأسعار والمضاربات والجفاف والنزاعات الداخلية والحروب هي من الأسباب المباشرة للأزمات الغذائية. إلا أن ما تغير اليوم هو طبيعة تشكل هذه العوامل، فارتفاع الأسعار في الماضي كانت له عوامله الخاصة به، كما أن الأسواق وطبيعة المضاربات فيها كانت تختلف كثيراً عن طبيعة الأسواق اليوم التي بات لها أنظمتها وقوانينها الخاصة بها. على سبيل المثال أدى ارتفاع أسعار الطاقة إلى زيادة تكلفة المدخلات الزراعية كالأسمدة ومبيدات الآفات واستخدام الآلات الزراعية

والري وكذلك تكاليف النقل وعمليات التصنيع، التي بدورها جعلت عمليات الإنتاج الزراعي وتجهيز الأغذية وتوزيعها أكثر كلفة. وما زاد من صعوبة الأمر في الدول النامية وهي الحلقة الأضعف في قائمة الأمن الغذائي، هو ارتفاع حصة الطاقة في تكلفة إنتاج المحاصيل، فبينما تصل إلى ٤٪ من كلفة الإنتاج في معظم الدول المتقدمة، فهذه النسبة تتراوح بين ٨ إلى ٢٠٪ في بعض البلدان النامية الأكبر حجماً كالبرازيل والصين والهند.

أيضاً من الأسباب المستحدثة التي تؤدي بشكل مباشر إلى رفع أسعار الحبوب وإلى تراجع الكميات المخصصة للاستهلاك الغذائي صناعة الوقود الحيوي. فهذه الصناعات الجديدة اضطلعت بدور كبير في تعقيد عمليات الإنتاج وزيادة احتمالات التحكم بأسعار الطاقة والسلع الزراعية، وساعد الارتفاع المتواصل لأسعار الطاقة إلى زيادة الطلب على هذا النوع من الوقود وإلى ارتفاع أسعاره. انعكس كل ذلك بشكل مباشر زيادة في

الدخل ما يؤدي إلى تكون طبقة فقيرة شبه معدمة تكون عاجزة عن تأمين الحد الأدنى من غذائها، وصنف المؤلف أسباب هذا الجوع بالأسباب الاجتماعية.

- الجوع الظرفي، وتكون مسبباته ظروف قاهرة طبيعية (جفاف، أعاصير، زلازل، براكين، فياضانات، جراد)، وأدرج المؤلف هذا أسباب هذا النوع من الجوع أو المجاعات ضمن فئة الأسباب الطبيعية، وغالبا تكون الأضرار كارثية وتؤدي في بضع ساعات إلى تدمير سنوات طويلة من التقدم والتنمية. وهنا لا بد من الإشارة إلى أن هذا النوع من المجاعات يصعب احتواء نتائجه في الدول النامية، بينما تكون الدول المتقدمة أكثر قدرة على احتواء هذا النوع من الأزمات.

وغير المسبوق لأسعار المواد الغذائية^(٢). لقد أدت الولايات المتحدة دوراً كبيراً في أحداث هذه الأزمة حيث قامت في العام ٢٠٠٧ بتخصيص حوالي ٢٠٪ من إجمالي إنتاجها للحبوب في إنتاج الإيثانول ومن المعروف أن تخصيص ٥٪ من إنتاج العالم من الحبوب لإنتاج الوقود الزراعي يؤدي بشكل مباشر إلى زيادة في أسعار الحبوب، وبقدر ما يتم زيادة كميات الحبوب مثل الذرة والقمح والصويا المخصصة لإنتاج الوقود العضوي والزراعي بقدر ما تنخفض نسبة الكميات المخصصة للغذاء في الأسواق ما يؤدي تلقائياً إلى رفع أسعار الغذاء. استناداً إلى وزارة الزراعة الأميركية فإن عمليات إنتاج الوقود العضوي قد أدت إلى زيادة أسعار الحبوب ما بين (٥ و ٢٠٪)، بينما كانت تقديرات المعهد الدولي لأبحاث السياسة الغذائية أعلى من ذلك (٣٠٪ تقريباً). في المقابل أشار البنك الدولي أن من شأن إنتاج الوقود الزراعي أن يؤدي إلى رفع أسعار الحبوب بنسبة ٧٥٪^(٣).

ب - استعمار من نوع آخر

منذ اكتشاف الزراعة وحتى يومنا

الطلب على المحاصيل المستحدثة كمواد أولية في إنتاج هذا النوع من الوقود وارتفاعاً في أسعارها. أيضاً أدى تخصيص مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية إلى تراجع المساحات المخصصة للغذاء، وبالتالي إلى تقليص كميات الحبوب المخصصة للغذاء وبالتالي إلى ارتفاع أسعار هذه المحاصيل وإلى ارتفاع أسعار المنتجات الغذائية الأخرى المشتراة كمواد بديلة. من هنا يمكن اعتبار هذا الوقود المستحدث عاملاً مؤثراً في المنحى التصاعدي لأسعار السلع الزراعية بخاصة وأن إنتاجه قد تضاعف خمس مرات ابتداء من العام ٢٠٠١ حيث ارتفع إنتاجه من ٢٠ مليار ليتر في إلى أكثر من ١٠٠ مليار ليتر في العام ٢٠١١، مسجلاً أعلى مستوى له خلال فترة ٢٠٠٧-٢٠٠٨^(١).

على الرغم من تعدد الأسباب التي تحدثت عنها دراسات كثيرة في تحليلها لأزمة ٢٠٠٧، إلا أن محللين كثيراً ومنظمات دولية بينها البنك الدولي وهيئات من المجتمع الدولي قدرت أن زيادة الطلب المتسارعة والكبيرة على الوقود الإحيائي كانت السبب الرئيسي في الارتفاع المفاجئ

(١) Démographie Climat et Alimentation mondiale, Rapport 2011, Académie des sciences, page.

(٢) Agro carburants et sécurité alimentaire, rapport du Groupe d'experts de haut niveau sur la sécurité alimentaire et la nutrition, juin 2013.

(٣) <http://www.fao.org/publications/sofa-2008/fr>.

فرضها عليهم زراعات محددة وتزويدهم بالبذور ضمن شروط قاهرة. ففي العشرين سنة الماضية لوحظ أن تجارة البذور انحصرت في يد فئات محددة، وتفاقم الوضع تدريجياً عندما قامت شركات كانت تتقاسم هذه التجارة، بالاتحاد وتقليص عددها ما سهل عليها كثيراً عملية التحكم بهذه التجارة وبمصرير ملايين المزارعين في دول العالم الثالث.

على سبيل المثال فإن هناك ثلاث شركات تقوم بتزويد الأسواق العالمية بما يقارب - ٩٠٪ من كمية بذور الشمندر السكري، و٥٧٪ للذرة و٥٥٪ من الصويا، وتؤدي هذه الشركات دوراً كبيراً في مجال المبيدات المستخدمة في زراعة البذور. وما يدعو إلى القلق في تطور هذه التجارة هو التقدم في ابتكار البذور المهجنة، الأمر الذي لا يشجع المزارعين على تخزين البذور المستخرجة من زراعاتهم لاستخدامها لاحقاً^(١). وما هو ملاحظ أن معظم دول العالم وتحديداً تلك التي تمثل ثقلًا اقتصادياً وديمغرافياً أصبحت خاضعة لهذه الشركات ولقوانينها، ففي سويسرا هناك ٩٠٪ من المزارعين يحصلون على بذور القمح من هذه الشركات، كما تسيطر شركات (Monsanto, DuPont Syngenta, BASF)

الحاضر تعتبر البذور العنصر الرئيسي الأول لإنتاج الغذاء، وقد اعتادت الشعوب والمجتمعات على تبادلها بشكل مستمر من دون أية عقبات، ما أدى إلى تنوع الزراعات وتأقلمها في كثير من الأحيان مع ظروف مناخية جديدة، وقد ساهم ذلك في تطوير الزراعة وفي زيادة الإنتاج وتنوع الغذاء. كما شكلت البذور الزراعية على امتداد مئات السنين عامل دعم للسكان الريفيين وسبباً في زيادة إمكانيات الصمود لديهم في مواجهة الظروف الصعبة (الطبيعية وغيرها)، وفي تعزيز درجة تحررهم من قيود المال والشركات العالمية الكبرى، التي اعتبرت وسيلة استعمار جديدة استخدمتها الدول المتقدمة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية من أجل التحكم بغذاء الدول النامية انطلاقاً من المبدأ القائل «من يتحكم بغذائك يتحكم بقرارك». والملاحظ أن سطوة هذه الشركات بدأت تقوى منذ ما سمي بالثورة الخضراء، حين عمدت إلى وضع برامج للدراسات والأبحاث الزراعية كان الهدف منها تغيير أنماط الزراعات في الدول الفقيرة بهدف إضعافها والتحكم بغذائها. ومن الاستراتيجيات المتبعة بهدف التحكم بغذاء هذه الدول هو احتكارها لتجارة البذور وتقييد حرية المزارعين من خلال

(١) Agropoly, Vers Un Développement Solidaire, Ces quelques multinationals qui contrôlent notre alimentation numéro spécial -2ème édition, Juin 2014.

الخصوص أشار الدكتور محمد دياب إلى ما يلي: «أن الدعم المباشر وغير المباشر، للأعمال الزراعية يطال ربع قيمة الإنتاج الزراعي في الولايات المتحدة و ٤٠٪ في الاتحاد الأوروبي. والمستفيد الرئيسي من هذه المساعدات في إسبانيا، مثلاً، هو الشركات الكبيرة التي تستفيد أكثر من السياسة الزراعية المشتركة للاتحاد الأوروبي. ويقدر أن ٢.٣٪ من المنتجين الرئيسيين في إسبانيا يتلقون ٤٠٪ من هذه المساعدات المباشرة، في حين أن المشاريع العائلية، التي تدعم المناطق الريفية في أوروبا والملايين من المزارعين في الجنوب، لا تملك فعلياً أي دعم وتعاني المنافسة غير العادلة لهذه المنتجات التي تحظى بدعم عالٍ»^(٢).

لقد أشار البنك الدولي إلى دور هذه الشركات في احتكار الأراضي الزراعية في العالم وتحدث عن شراء ٥٦، ٦ مليون هكتار في العام ٢٠١١، وسجل معهد «Land Matrix» شراء ٣٥، ٨ مليون هكتار في العام ٢٠١٢. وقد أصبحت مساحات زراعية شاسعة من بلدان آسيوية وأفريقية ملكاً لملاكين كبار في هذه الشركات، فعلى سبيل المثال أصبح ٨٣٪

et Bayer) على نصف براءات الاختراع للنبات، ويتعرض المزارعون الذين يستخدمون هذه البذور من دون إذن من هذه الشركات لعقوبة السجن قد تصل إلى خمس سنوات أو إلى عقوبة مالية عالية جداً (٦٥٠٠٠ يورو) وهو مبلغ لا يمكن أن يتحمله المزارعون في الدول الفقيرة^(١).

واضطلعت منظمة التجارة العالمية بدور رئيسي في تخفيض التعريفات الجمركية على الواردات المتجهة إلى الدول النامية وفي إجبار هذه الدول على فتح حدودها أمام منتجات الشركات العالمية التي استفادت من المعاهدات الإقليمية كاتفاقية التجارة (NAFTA) الخاصة بدول أميركا الشمالية واتفاقية (CAFTA) التي تتعلق بدول أميركا الوسطى. لقد أدى تحرر التجارة ضمن القوانين الجديدة إلى إفلاس المزارعين في البلدان الفقيرة وفي عدد من الدول النامية التي وجدت نفسها مضطرة إلى استيراد المواد الغذائية من بلدان الشمال. ولم تكتفِ هذه الشركات بهذا الحد من الهيمنة، بل عمدت بواسطة قوة النفوذ التي باتت تتمتع بها إلى تجيير المساعدات الزراعية الأميركية والأوروبية نحو الصناعات الزراعية الغذائية. وفي هذا

(١) Les lois semencières qui criminalisent les paysannes et les paysans, résistances et lutes, Mars 2015, page 35.

(٢) المشكلة الغذائية في العالم: جوهرها وأسبابها الحقيقية، مجلة الدفاع الوطني العدد ٨٥-تموز ٢٠١٣.

ج - تغير نمط استهلاك الغذاء في الدول النامية

من الأسباب المستحدثة والمباشرة لتفاقم أزمة الغذاء في العالم تغير العادات الاستهلاكية في عدد من دول العالم النامية وقد تم التطرق سريعاً في ما تقدم إلى هذه المشكلة المستجدة. لقد شهدت العديد من دول آسيا الصين ابتداء من العام ٢٠٠٠ نمواً اقتصادياً متسارعاً أدى إلى تغيير في نمط استهلاكها للمواد الغذائية، فبعد أن كانت تعتمد على الحبوب بشكل رئيسي خلال القرن العشرين، اتجهت بعد العام ٢٠٠٠ إلى نمط جديد من العادات الاستهلاكية الغذائية، حيث باتت اللحوم تشكل وجبات رئيسية لدى شريحة كبيرة من السكان. وقد تم تسجيل ارتفاع في إنتاج اللحوم بكل أنواعها منذ سنوات التسعين وحتى اليوم، حيث وصلت إلى ٢١٨ مليون طن في فترة ١٩٩٧-١٩٩٧ (أي ما يعادل ٣٦ كغ للفرد سنوياً، وهي تتراوح من ٥ كغ في جنوب آسيا إلى ٨٨ كغ في الدول المتقدمة). وقد أدى تزايد الطلب على اللحوم في القارة الآسيوية بسبب النمو الاقتصادي والزيادة السكانية

من أراضي جنوب أفريقيا بيد ٦٠، ٠٠٠ شخص من الأغنياء البيض، وتحولت هذه الدولة إلى أرض من دون مزارعين. فقد انشئت فيها مزارع يتم استخدامها لزراعات مخصصة في معظمها لغير الاستهلاك الغذائي، ويتم حراسة هذه المزارع بشكل مشدد من قبل مسلحين وكلاب مدربة تمنع دخول السكان المحليين إليها^(١).

في هذا الصدد كشفت القناة الخامسة في الإذاعة الفرنسية عن أن هناك خمس شركات عالمية غربية تسيطر على أكثر من ٥٠٪ من البذور المخصصة للزراعة في العالم، وهذه الشركات هي: Monsanto, Pioneer, Limagrain, Syngenta، وأخيراً Bayer، وهي موزعة بين كل من الولايات المتحدة، فرنسا، ألمانيا، وسويسرا. ولهذه الشركات من النفوذ ما يمكنها من إجبار الدول النامية وضع قوانين تتلاءم ومصالحها الخاصة. وقد جاء البرنامج الذي عرضته القناة الخامسة بعد كشف جمعيات زراعية عن وثائق هندية - فرنسية تتحدث عن امتلاك هذه الشركات الخمس ما يقارب ٧٥٪ من البذور الزراعية في العالم، وتحديث الوثائق عن مصرف للحبوب تم إنشاؤه في القطب الشمالي تحت اسم «سفالبارد»^(٢).

(١) multinationales.org/L-appropriation-des-terres

(٢) La guerre Des Graines, TV5, Mercredi 1 février, 15:50.

بحسب تقرير المنظمة خمس دول هي (هايتي، كوريا الشمالية، جمهورية وسط أفريقيا، ناميبيا، زامبيا).

فعلى الرغم من تشابه العوامل والأسباب المؤدية إلى حالات النقص الغذائي وإلى المجاعات التي حصلت خلال مراحل زمنية مختلفة، إلا أن هناك عوامل استجدت خلال القرن الواحد والعشرين جاءت نتيجة التقدم العلمي وفقدان التوازن السكاني الذي تشهده دول العالم اليوم، حيث تشهد الدول المتقدمة تراجعاً في أعداد سكانها، مقابل استمرار العديد من الدول الفقيرة في المحافظة على معدلات نمو سكاني مرتفعة. يضاف إلى ذلك تغير التوازن في الأمن العالمي وانهيار المنظومة الاشتراكية وبروز الصين كقوة اقتصادية منافسة إلى حد ما للولايات المتحدة الأميركية. من المؤكد أن هناك عوامل بقيت هي نفسها وأن تغير شكل حدوثها ووسائل استخدامها من قبل الشركات العالمية الكبرى، التي باتت اليوم تتحكم بالأمن الغذائي العالمي، وهذه الأسباب تتفاعل في ما بينها بحيث لا يمكن الحديث عن عامل واحد مسبب لأية أزمة غذائية، بل عن عوامل مشتركة تختلف في مستوى مساهمتها في صناعة الأزمات الغذائية

الحاصلة إلى مضاعفة أعداد الحيوانات والطيور المخصصة لإنتاج اللحوم خاصة الخنازير والدواجن، الأمر الذي انعكس بشكل مباشر على المستوى الغذائي لملايين السكان من الطبقات الاجتماعية ذات الدخل المحدودة. فإنتاج وحدة حرارية من اللحم يتطلب عشرات الوحدات الحرارية النباتية. وقد أشار تقرير صادر في العام ٢٠٠٩ عن منظمة Agrimonde إلى أن ٣٣٪ من الإنتاج النباتي الذي كان من المفترض استخدامه مباشرة كغذاء للإنسان تم تجييره في العام ٢٠٠٣ لإطعام الحيوانات من أجل إنتاج اللحوم، بينما تحدثت منظمة الفاو (٢٠٠٥) أن ٣٨٪ من إنتاج الحبوب قد استخدم لنفس الغاية^(١).

٤ - حالة العالم الغذائية في العام

٢٠١٧

تدل إحصاءات منظمة الغذاء العالمية «الفاو» للعام ٢٠١٥ على أن أكثر من ٥٪ من سكان الصين لا يزالون يعانون من نقص غذائي، بينما ترتفع هذه النسبة في الهند إلى أكثر من ١٥٪ أي حوالي ١٦٥ مليون شخص. وتعتبر الدول التي تصل فيها هذه النسبة إلى أكثر من ٣٥٪ دولا تواجه نقصاً حاداً في الغذاء، ويبلغ عددها

(١) www.academie-sciences.fr/archivage_site/.../rapport/rst32_rec

والنقص الغذائي العالمي^(١). على سبيل المثال فإن التغيرات المناخية هي حالات كانت تحصل بشكل دوري في الحضارات القديمة، كما أن ارتفاع الأسعار هو من الأسباب الشائعة التي كانت في كثير من الأحيان سبباً للمجاعات في أوروبا. ولكن هذه العوامل تزداد حدتها بفعل تدخل مباشر من الذين يسيطرون على مصادر الغذاء، وقد دلت مجاعات البنغال على ذلك، حيث كان بالامكان تجنبها أو على الأقل الحد من نتائجه لولا جشع التجار والسياسة البريطانية.

لقد حددت منظمة الغذاء العالمية حالات الجوع ونقص الغذاء بأنها الحالة التي لا يمكن فيها الحصول على الحد الأدنى من السعرات الحرارية وهي ٢١٠٠ سعرة حرارية في اليوم. وأشار تقرير المنظمة إلى أن هناك ٨٠٠ مليون شخص من أصل ٧، ٥ مليار حالياً هم في هذا الوضع حالياً

ويعانون من المجاعة، أي أن هناك واحداً من أصل عشرة أشخاص يعانون من الجوع ويواجهون نقصاً في الغذاء^(٢).

أ - الدول النامية وحالات نقص الغذاء

إن الغالبية الساحقة من الـ «٨٠٠» مليون تتجمع في دول العالم النامية، ويمكن توزيعها بحسب القارات على الشكل الآتي:

١ - في آسيا يتواجد ٤٢٦ مليون شخص يعيشون حالة نقص للغذاء، ويتركز معظمهم في دول جنوب آسيا حيث يعاني تقريباً واحد من أصل تسعة أشخاص من حالة جوع في هذه المنطقة.

٢ - في أفريقيا هناك ما يقارب ٢٢٤ مليون شخص يعانون من نقص في الغذاء أو من حالات سوء التغذية ويتجمع معظمهم في مناطق جنوب الصحراء

(١) تتعدد تعريفات الأمن الغذائي نتيجة لتباين وجهات النظر لهذا المفهوم، إلا أنها لا تختلف إختلافاً جوهرياً عن بعضها البعض ومن أهم هذه التعاريف نذكر: تعريف البنك الدولي سنة ١٩٨٦: «الأمن الغذائي هو قدرة كل الناس في كل الأوقات على الحصول على الطعام الكافي والذي يضمن لهم حياة صحية نشيطة. تعريف مؤتمر قمة الغذاء المنعقد بروما في سنة ١٩٩٦: الأمن الغذائي هو السلامة الغذائية والتوازن في المكونات الغذائية، ويتحقق عندما يكون لدى الجميع وفي كل الأوقات إمكانية الحصول المادي على حاجاتهم وتفضيلاتهم لممارسة حياة فاعلة وصحية». - يعرف الأمن الغذائي بأنه: «قدرة جهاز الإنتاج على تأمين حصة غذائية أساسية لجميع السكان مع الأخذ بعين الاعتبار مستوى التنمية الذي وصل إليه المجتمع». يعرف الأمن الغذائي بأنه: «قدرة الدولة على تأمين الغذاء لمواطنيها سواء كان ذلك بالإنتاج المحلي أو بتأمين الاستيراد الآمن غير المتعرض للتذبذب أو الأخطار من الخارج». مما سبق يمكن تعريف الأمن الغذائي على قدرة الدولة على ضمان توفير المواد الغذائية لمواطنيها وبشكل منتظم. المصدر: إشكالية الأمن الغذائي المستدام في الجزائر: واقع وآفاق د. رزيقة غراب جامعة سطيف ١.

(٢) https://www.youtube.com/watch?v=sxVFk7Ie_P0

و٢٠١٦ إلى ١١٪ أي ما يقارب ٧٩٥ مليون^(١).

ونشير هنا إلى أن عدد سكان العالم قد تزايد خلال هذه الفترة بمقدار ثلاثة مليارات نسمة، وهي زيادة تحمل مؤشراً واضحاً على أن التحسن الذي شهده العالم على المستوى الغذائي هو عملياً أفضل بكثير مما تدل عليه الأرقام.

ب - ماذا يحمل المستقبل على المستوى الغذائي؟

إن ما يحمله المستقبل لا يدعو إلى التفاؤل، فالأسباب التي تقف وراء الأزمات الغذائية لا تزال حاضرة وبقوة اليوم وهي مرشحة للتفاقم في المستقبل إذا لم تبادر الدول المتقدمة وعلى رأسها الولايات المتحدة إلى اتخاذ تدابير جديّة باتجاه تحصين الأمن الغذائي. فما يتوجب على الدول الغربية هو مراجعة سياساتها الاقتصادية وتخفيف الديون عن دول العالم الثالث، والسعي بشكل جدي إلى تغيير عاداتها الاستهلاكية من الغذاء وتحديداً تلك

التي يعاني وبحسب تقديرات الأمم ربع السكان فيها من مشاكل في تأمين الغذاء، ما يجعلها تحتل المرتبة الأولى في قائمة الدول التي تواجه هذا النوع من الأزمات.

أما على مستوى العالم فيمكن القول بأن حالات نقص الغذاء والمجاعات قد تراجعت خلال السنوات الأولى من القرن الحالي، ويعود سبب ذلك بشكل رئيسي إلى التقدم الذي حققته الصين وعدد من دول جنوب شرق آسيا في المجالات الاقتصادية ما انعكس على المستوى المعيشي فيها، وأدى بالتالي إلى الحد من حالات المجاعة ونقص الغذاء. كما يستدل من خلال بعض الأرقام أن مستوى الجوع قد تراجع بشكل ملحوظ منذ بداية التسعينات وحتى اليوم، ففي العام (١٩٩٠-١٩٩٢) بلغت نسبة الذين يعانون من نقص الغذاء (١٨، ٦٪) من سكان العالم أي ما يقارب حينها ١٠١١ مليون شخص، وقد تراجعت هذه النسبة في الفترة الممتدة بين عامي ٢٠١٤

(١) في تقييم لحالة الأمن الغذائي بحسب الأمم المتحدة يمكن ايجاز المشهد على الشكل التالي: على مستوى القارة الأفريقية تواجه كل من الدول التالية حالة غذائية حرجة (IPC/CH 3): أثيوبيا (٩.٧ مليون)، شمال نيجيريا (٨.١ مليون)، جمهورية الكونغو الديمقراطية (٥.٩ مليون)، جنوب السودان (٤.٩ مليون)، السودان (٤، ٤ مليون)، بروندي (٢.٣ مليون)، جمهورية وسط أفريقيا (٢ مليون)، موزامبيق (١.٩ مليون)، تشاد (١ مليون واحد) وجنوب مدغشقر (٨٠٠ ألف). أما في قارة آسيا فتواجه كل من اليمن (١٤.١ مليون) أفغانستان (٨.٥ مليون)، سوريا (٧ مليون)، ملاوي (٦.٧ مليون) والعراق (١.٥ مليون). المصدر:

Rapport mondiale sur les crises alimentaires 2017, FSIN, page, 5-6-7-8.

تؤدي إلى زيادة إنتاج اللحوم. كما عليها تغيير برامجها المتعلقة بإنتاج الوقود الحيوي، الذي يشكل استنزافاً لموارد الأرض. أما على مستوى الدول الفقيرة فيمكن إدراج الأسباب الرئيسية التالية التي تزيد من مخاطر حدوث أزمات غذائية في المستقبل:

● الفقر

في آذار من العام ٢٠١٧ كانت خمس عشرة دولة إفريقية في حاجة ماسة إلى مساعدات غذائية، أيضاً في قارة آسيا هناك كل من العراق، اليمن، أفغانستان، بنغلادش وكوريا الشمالية. وفي تقييم للوضع الغذائي، أشارت الفاو إلى أن هذه الدول وتحديداً الأفريقية منها تمر بالمرحلة الأولى من المراحل التي تسبق المجاعة وهي غياب الأمن الغذائي، وهي الحالة التي لا يتمكن خلالها الإنسان لسبب أو لآخر من الحصول على الحد الأدنى من الغذاء. وتعتبر نوعية الغذاء من بين المعايير التي تستخدمها المنظمة في وصفها للحالة الغذائية، فسوء التغذية هي حالة لا تقل خطورة عن حالة النقص الغذائي كونها تؤدي إلى نقص في المناعة

ينتج عنها أمراض كثيرة، وأول ما يتأثر بهذا الوضع هم الأطفال دون العشر سنوات، من هنا فإن الجوع لا يمثل إلا مرحلة أخيرة تسبقها حالات سوء أو نقص في الغذاء. ويزداد الموقف صعوبة نتيجة ارتفاع مستوى الفقر في العالم، فقد أشارت منظمة «غالوب» العالمية إلى أن أكثر من خمس سكان العالم يعيشون تحت خط الفقر المدقع. واستناداً لدراسة أجرتها المنظمة حديثاً شملت ١٣١ دولة حول العالم، تبين أن ٢٢٪ من سكان العالم يعيشون بـ ١.٢٥ دولاراً أو أقل في اليوم، وأن ١٦٪ من سكان الشرق الأوسط وشمال إفريقيا يعيشون على ١.٢٥ دولاراً أو أقل في اليوم، بينما يعيش ٢٨٪ من سكان المنطقة ذاتها على ٢ دولاراً أو أقل في اليوم^(١). وتصل نسبة الذين يعيشون بأقل من دولار يومياً إلى ٦٠٪ من سكان دول غرب أفريقيا^(٢) وفي هذا السياق لا بد من الإشارة إلى أن ٧٠٪ من ميزانية العائلات في الدول النامية تخصص للغذاء، في حين أنها تتراوح بين ١٠ إلى ٢٠٪ في الدول المتقدمة، ما يعني أن أي ارتفاع في أسعار المواد الغذائية سوف يتجاوز القدرة الشرائية لقسم كبير من شعوب الدول

(١) <https://www.noonpost.org/content>

(٢) Rapport de la CEDEAI-UEMOA: «l'intégration régionale au service de la croissance et de la réduction de la pauvreté en Afrique de l'Ouest», septembre 2006.

النامية ما يحول دون حصولها على الحد الأدنى من الطعام^(١).

● المناخ

إن التغيرات المناخية وتحديداً الجفاف والفيضانات تؤدي إلى إلحاق أضرار كبيرة بالمحاصيل الزراعية وتسبب أضراراً اقتصادية كبيرة تفوق قدرة الدول النامية على استيعابها. لقد أشارت التقديرات إلى تزايد الكوارث الطبيعية بعد منتصف الثمانينيات وحتى اليوم بسبب الاحتباس الحراري، وكانت خسائرها البشرية كبيرة جداً (حوالي ثلاثة ملايين قتيل ومليار شخص من دون مأوى أكثر من ٩٥٪ منهم هم من شعوب الدول النامية)، كما تحملت الدول النامية أعباء اقتصادية كبيرة جداً نتيجة هذه الكوارث إذ تأثر الناتج المحلي فيها عشرين مرة أكثر من تأثر الدول المتقدمة^(٢). وقد تم تسجيل تراجع في تساقط الأمطار في دول الساحل الإفريقي خلال الثلاثين السنة الماضية بنسبة ٢٥٪، وتزايد الفيضانات بعد العام ٢٠٠٠ بشكل

واضح. ففي الموزامبيق أدى أحد الفيضانات في العام ٢٠٠١ إلى مقتل حوالي ٧٠٠ شخص وتشريد نصف مليون آخر ملحقاً أضراراً كبيرة في الماشية والمحاصيل الزراعية، كذلك تضرر قسم كبير من البنية التحتية في المناطق التي حصل فيها الفيضان. وشهدت أثيوبيا في بداية العام ٢٠٠٦ جفافاً قوياً تلتته في آب من نفس السنة فيضانات كبيرة في شرق البلاد أدت إلى وفاة ٢٠٠ شخص واختفاء حوالي ٢٥٠. ويقدر الخبراء بأن ثلث السكان في أفريقيا يعيشون في مناطق تتعرض للجفاف وأن ٢٠٠ مليون يتعرضون سنوياً لتأثيرات هذا الجفاف التي تترجم بحالات مجاعة وانتشار في الأوبئة، ومن المتوقع في المستقبل أن ترتفع وتيرة حصول موجات الجفاف هذه وحالات الفيضانات الأمر يهدد الأمن الغذائي على مستوى القارة بشكل عام^(٣). وتؤدي ظاهرة النينو إلى زيادة حدة الجفاف ملحقه خسائر كبيرة في الزراعات ومن بين الدول التي تطالها هذه الظاهرة

(١) تبقى القارة الأفريقية محط الأنظار، حيث يعيش ٥٤٪ من سكان ٢٧ دولة فيها في فقر مدقع، ويتركز هؤلاء في مناطق جنوب الصحراء وإفريقيا السوداء - باستثناء دول الشمال الإفريقي وهي (الجزائر، ومصر، والمغرب، والسودان، وليبيا، وتونس). أما في الدول المتقدمة فلا تتجاوز نسبة الذين يعيشون على ١،٢٥ دولار في اليوم الـ ١٪ من مجموع السكان (أستراليا، نيوزيلندا، الولايات المتحدة، كندا وأوروبا ما عدا منطقة البلقان). المصدر Objectifs du

Millénaire pour le développement: rapport 2015, page: 15-16-18-

ecoledelemarmoutier.pagesperso-orange.fr/nos.../exposes/expose1 (٢)

Benhur.teluq.quebec.ca/SPIP/.../pdf/.../ENV6003-MOD7-afrique.pdf (٣)

الصومال، أثيوبيا، مدغشقر، ملاوي وزيمبابواي^(١).

● النزاعات والحروب

تأتي الحروب والنزاعات كعامل ثالث لا يقل تأثيره عن الفقر والتغيرات المناخية، فالقرن العشرون وتحديداً المدة الممتدة منذ بداية ما يسمى بالحرب الباردة وحتى تاريخ اليوم سجلت مئات الحروب والنزاعات الداخلية التي جاءت في معظمها انعكاساً للنزاع بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الأميركية.

إلا أن حالة الاستقرار في أفريقيا لم تكن أفضل بعد العام ١٩٩٠، فقد سجلت القارة الإفريقية حصول ما يقارب الـ ١٨ نزاعاً داخلياً في ١٧ دولة وحرباً واحدة بين دولتين (أثيوبيا واريتريا)، وبلغ هذا العدد ١١ نزاعاً بين عامي ١٩٩٨ والعام ٢٠٠٠، ليتراجع في العام ٢٠٠١ (خمسة نزاعات)^(٢). أدت هذه النزاعات إلى تدمير البنية التحتية وإعاقة الاستثمارات التي فقدت الثقة نتيجة عدم الاستقرار معيقة بذلك عملية التنمية التي تشكل حجر الزاوية لإخراج المجتمعات الإفريقية من حالة الفقر والجوع. لقد بينت التقارير أن هذه النزاعات

أدت إلى تراجع دخل الفرد بنسبة ١٥٪ وإلى هروب ٢٠٪ من إيداعات البنوك. ففي ساحل العاج يتم تخصيص جزء كبير من إنتاج الكاكاو والقطن في الجنوب والإلماس في الشمال لتمويل الحرب الداخلية التي تراجع بفعلها معدل نمو الناتج المحلي أربع نقاط منذ أيلول ٢٠٠٢^(٣) يذكر أخيراً أنه في نهاية ٢٠١٤ أجبرت الحروب حوالي ٦٠ مليون شخص لترك منازلهم، وهي أكبر نسبة تم تسجيلها منذ الحرب العالمية الثانية، يوماً هناك ما يقارب ٤٢٠٠٠ شخص ينزحون من مناطقهم ما يمثل زيادة أربعة أضعاف مقارنة مع العام ٢٠١٠، وأن كلفة سبع حروب حصلت بعد العام ١٩٩٠ كانت ٢٠٠ مليار دولار أي ثلاثة أضعاف ما هو مرصود لعملية التنمية في الدول النامية^(٤).

الخاتمة

إن موضوعاً بهذا الحجم يحتاج إلى مئات من الصفحات لتغطية جوانبه كافة، فالجوع والمجاعات وحالات نقص الغذاء وسوء التغذية مفردات لم تغب يوماً عن صفحات الجرائد والمجلات، وبقيت دائماً مادة غنية للتحليل والجدل في الأوساط

(١) Rapport Mondial Sur Les Crises Alimentaires 2017, Food Security Information Network, page4.

(٢) Conflits armés, insécurité et trappes à pauvreté en Afrique, par Philippe Hugon.

(٣) المصدر نفسه صفحة ٣٢.

(٤) المرجع السابق صفحة ٣٧.

العلمية، الاقتصادية والسياسية. ما هو مؤكد أنه من غير المقبول اليوم في ظل هذا التقدم العلمي الذي يشهده العالم منذ العام ١٩٩٠ بقاء ما يزيد عن عشر سكان العالم (حوالي ٨٥٠ مليون) مهددين بخطر المجاعة بسبب حالات مزمنة من نقص في الغذاء أو سوء في التغذية، خاصة وأن ما يحمله المستقبل لا يبعث على الاطمئنان أبداً.

لقد شكلت الأزمة الغذائية التي حصلت في العام ٢٠٠٧-٢٠٠٨ إنذاراً للمجتمع الدولي لضرورة التحرك من أجل مواجهة المخاطر التي تهدد الأمن الغذائي في العالم، وتحديداً الدول النامية. إن أزمة ٢٠٠٧ تختلف عن الأزمات الغذائية السابقة، فهي لم تكن محصورة بقارة معينة أو بمنطقة دون أخرى، بل شملت دولاً عديدة في مختلف القارات، ما يدل على أن أية أزمة مستقبلية سوف تكون أوسع بكثير، وأن أي ارتفاع في أسعار المنتجات الغذائية سوف تتأثر به دول العالم كافة.

وتتفاقم خطورة الوضع عندما ندرك أن الدول المتقدمة التي كانت تسارع في حالة الأزمات الكبرى إلى إرسال المساعدات إلى الدول الفقيرة، أصبحت اليوم في وضع اقتصادي حرج، فالأزمات المستقبلية المنتظرة في أوروبا لا تطمئن، تغيرات ديمغرافية ترتب أعباء مالية كبيرة على موازنات الدول، وتغيرات مناخية تخلف سنوياً أضراراً مادية كبيرة.

إن على مراكز القوى العالمية أن تعيد النظر في سياساتها المتبعة مع دول العالم النامية، وفي طريقة استغلالها لموارد العالم، وأن تجعل الغذاء على رأس أولوياتها، وعليها استعادة المبادرة في اتخاذ القرارات ووضع حد للنفوذ التي تمارسه الشركات الغذائية الكبرى على الدول النامية.

تطور القوانين والنظم الانتخابية في لبنان بين ١٩٢٢-٢٠٠٩

غازي زهرالدين

عضواً (١٢) من مختلف الطوائف اللبنانية، عُرف باسم «مجلس الإدارة».

وبعد إعلان الجنرال غورو بموجب القرار رقم ٣١٨ تاريخ ٢١/٨/١٩٢٠، حدود دولة لبنان الكبير ارتسمت الجغرافية السياسية للدولة اللبنانية الناشئة، فظهرت لجان ومجالس تمثيلية ونيابية (معينة أو منتخبة) على أساس التوزيع الطائفي بحسب حجم كل طائفة، ما دفع الجماعات الطائفية إلى السعي لتنظيم نفسها بغية تأمين موقع لها على مستوى المشاركة في السلطة والحكم، فتكرست طائفية النظام السياسي اللبناني حتى يومنا هذا.

ومنذ العام ١٩٢٠ وحتى آخر انتخابات نيابية جرت في العام ٢٠٠٩، عرّف لبنان عشرة قوانين انتخابية راعت بمعظمها مزاج الطوائف والزعامات والمرجعيات وأنتجت تسعة عشر مجلساً نيابياً.

فكيف ظهرت سياسة الانتداب الفرنسي؟ وماهي القوانين والنظم التي شرعت الانتخابات النيابية اللبنانية؟

القوانين والنظم الانتخابية في لبنان بين ١٩٢٢ - ٢٠٠٩

منذ أوائل القرن السابع عشر، مُنح «جبل لبنان» حكماً ذاتياً محدوداً ضمن كيان السلطنة العثمانية، وحظي بامتيازات خاصة تحت سلطة أمراءه المعنيين والشهابيين، وبعض المشايخ والمقدمين، مقابل دفع الضرائب المفروضة عليه، وتأدية واجب الطاعة للدولة العلية.

غير أنّ «الديموقراطية اللبنانية» بسياقاتها التطويرية المختلفة، اتصلت بكيان لبنان منذ أربعينات القرن التاسع عشر مع ولادة المجلس الإداري في عهد القائمقاميتين، وكان بمثابة «مجلس نيابي مصغر» ضم قضاةً ومستشارين عُينوا بالتساوي بين الطوائف، ومع صدور نظام المتصرفية في العام ١٨٦١، بضمانة خمس دول أوروبية وموافقة الدولة العثمانية، تشكل بموجب المادة الثانية من النظام المذكور، مجلس تمثيلي ضم اثني عشر

أولاً: سياسة الانتداب

وفي ٨ آذار ١٩٢٢، أعلن «روبير دو كيه» وكيل المفوض السامي للجمهورية الفرنسية في لبنان وسوريا، حلّ اللجنة الإدارية، ودعا إلى إنشاء هيئة منتخبة تلقب «بالمجلس التمثيلي للبنان الكبير»، وقد تضمن خمسين مادة (٥٠)، تناولت تنظيم المجلس وهيكلته كمؤسسة تشريعية وتعيين صلاحياته، وقد جاء في مادته الثالثة: ينشأ لدى دوائر السلطة المركزية هيئة منتخبة تسمى «المجلس التمثيلي للبنان الكبير» مدتها أربع سنوات ويعين أعضاؤها بالاقتراع العام.

وأوضحت المواد (٢٣-٤١) اختصاصات المجلس التمثيلي ومهامه لجهة دراسة الموازنة والضرائب، والنفقات الإجبارية وغيرها، وتنظيم صناديق التقاعد، والإعلانات، وقبول الهبات والأشياء الموصى بها للدولة، وتنظيم القضاء الأهلي، وتحديد الجرائم والعقوبات، وبيع أملاك الدولة، وتغيير المناطق الإدارية. وأما المادة السابعة والأربعون (٤٧)، فقد أعطت للمندوب السامي الفرنسي صلاحية حلّ المجلس المذكور، ودعوة الهيئات الانتخابية لانتخاب أعضاء المجلس خلال ستة أشهر.

ثانياً: القوانين الانتخابية

توزعت القوانين العشرة التي شرّعت الانتخابات النيابية في لبنان على ثلاث مراحل:

هدفت سياسة الانتداب الفرنسي إلى الإمساك بالتمثيل الشعبي والمجالس المنتخبة، بغية المحافظة على مصالحها الاقتصادية والسياسية والاستراتيجية في منطقة الشرق الأوسط، فلجأت إلى تقوية الزعماء اللبنانيين الموالين لها، وأقصت المعارضين ونفت بعضهم، وجعلت صلاحيات المجالس التمثيلية محدودة، مقابل صلاحيات مطلقة للمفوضية الفرنسية ولحكام دولة لبنان الكبير والمستشارين الفرنسيين.

وفي ٢٠ تموز ١٩٢٠ أقدم الجنرال غورو على حلّ مجلس الإدارة، وأعلن تشكيل لجنة إدارية مؤقتة، من خمسة عشر عضواً (١٥)، ثم أضاف إليها عضوين مراعاة للمناطق والطوائف، ضمت هذه اللجنة ستة أعضاء عن الموارد، وثلاثة عن الأرثوذكس، وواحداً عن الكاثوليك، وأربعة عن السنة، واثنين عن الشيعة، وعضواً واحداً عن الدرّوز، وكانت أول هيئة تشريعية في الدولة اللبنانية، ومُنحت ذات الصلاحيات التي كانت مُنطرة بمجلس الإدارة المُنحل، فكان لها رأي استشاري في المسائل المتعلقة بالأمور التشريعية، والنظامات، ووضع موازنة الدولة، وتقرير الضرائب الجديدة والرسوم والامتيازات.

أ - مرحلة الانتداب الفرنسي (قانونان)

١ - القانون التمثيلي التأسيسي الأول رقم ١٣٠٧ تاريخ ١٠ آذار ١٩٢٢

تشكّل من مائة وأربع مواد (١٠٤)، حدّدت المادة الأولى منه عدد المقاعد النيابية بثلاثين مقعداً (٣٠)، توزّعت على ست مناطق انتخابية. ولحظت المادة السادسة منه ضرورة الاقتراع على درجتين: الأولى، يُدعى فيها الناخبون في القرى والبلدات والأحياء لانتخاب مندوبين ثانويين بمعدل مندوب واحد لكل مئتين وخمسين شخصاً (٢٥٠)، والثانية ينتخب المندوبون الثانويون أعضاء المجلس التمثيلي.

جرت على أساس هذا القانون ثلاث دورات نيابية انتخب فيها ثلاثة مجالس هي:

- المجلس التمثيلي الأول سنة ١٩٢٢.
- المجلس التمثيلي الثاني سنة ١٩٢٥ الذي عُرف «بالمجلس النيابي الأول» بعد إعلان الدستور سنة ١٩٢٦ ثم أدمج سنة ١٩٢٧ مع مجلس الشيوخ ليشكّل معاً مجلساً نيابياً واحداً من ستة وأربعين عضواً (٤٦).

- المجلس النيابي الثاني سنة ١٩٢٩.

٢ - القانون الانتخابي الثاني الصادر بالقرار LR/2 تاريخ ٢ كانون الثاني ١٩٣٤

أصدر المفوض السامي «دو مارتيل» القانون الثاني وتضمن تسعين مادة (٩٠) استعادت معظمها أحكام القانون الأول، حدّدت المادة الأولى منه عدد النواب بخمسة وعشرين نائباً (٢٥)، منهم ثمانية عشر نائباً (١٨)، منتخبين وسبعة نواب معينين ٧، وعُدّت المحافظة دائرة انتخابية واحدة، وألغت المادة السادسة التصويت على درجتين وجعلته على درجة واحدة، وأجريت على أساسه أربع دورات نيابية في السنوات ١٩٣٤ و ١٩٣٧ و ١٩٤٣ و ١٩٤٧.

ب - مرحلة الاستقلال بين ١٩٤٣ وقانون الطائف ١٩٨٩ (أربعة قوانين)

٣ - قانون ١٠ آب ١٩٥٠

هو القانون الأوّل الصادر في عهد الاستقلال يتضمن ثلاث وستين مادة (٦٣)، نصّت المادة الثالثة والستون منه (٦٣)، على إلغاء القرار LR/2 الصادر زمن الانتداب، وحدّد عدد النواب بسبعة وسبعين نائباً (٧٧)، كما حدّد المحافظة دائرة انتخابية واحدة مع جواز تقسيمها إلى دوائر إذ بلغ عدد المقاعد فيها خمسة عشر مقعداً، وتمت بموجبه انتخابات سنة ١٩٥١.

٤ - المرسوم الاشتراعي رقم (٦) و(٧) تاريخ ١١/٤ و ١١/١٢ ١٩٥٢

أصدر الرئيس كميل شمعون بتاريخ ٤ تشرين الثاني المرسومين الاشتراعيين رقم

٦ و٧ تاريخ ١١/٤ و١١/١٢ و١٩٥٢، عدلت بموجبيهما بعض المواد في قانون الانتخاب الصادر في ١٠ آب ١٩٥٠ وحددت المادة الأولى عدد النواب بأربعة وأربعين نائباً (٤٤)، وقسمت الجمهورية إلى ثلاث وثلاثين (٣٣) دائرة انتخابية، وجرت على أساسهما انتخابات سنة ١٩٥٣.

٥ - قانون ٢٤ نيسان ١٩٥٧

تضمن هذا القانون أربعاً وستين مادة (٦٤)، حدّدت المادة الخامسة عشر منه (١٥) عدد النواب بستة وستين نائباً (٦٦)، وقسمت بموجبه الدوائر الانتخابية إلى سبع وعشرين (٢٧) دائرة.

٦ - قانون ٢٦ نيسان ١٩٦٠

والمعروف اليوم «بقانون الستين».

يقع القانون في ثلاث وسبعين مادة (٧٣)، رسمت المادة الأولى عدد النواب بتسعة وتسعين نائباً (٩٩)، وجعلت المادة الثانية القضاء دائرة انتخابية شرط الأيقل عدد النواب فيه عن نائبين وألاً يدمج بقضاء آخر، فقسمت الجغرافية الانتخابية إلى ست وعشرين دائرة (٢٦). اعتمدهذا القانون لأربع دورات نيابية (١٩٦٠-١٩٦٤-١٩٦٨-١٩٧٢)، واستمر بسبب ظروف الحرب الأهلية حتى العام ١٩٩١، حيث عدل بموجب القانون رقم ٥١ وقضى برفع عدد المجلس النيابي إلى مائة وثمانية نواب (١٠٨).

ج - قوانين ما بعد اتفاق الطائف،
(هي أربعة)
٧ - القانون رقم ١٥٤ تاريخ ٢٣ تموز ١٩٩٢.

هو أول قانون انتخابي بعد إقرار وثيقة الوفاق الوطني في الطائف، حدّدت مادته الأولى عدد النواب بمائة وثمانية وعشرين نائباً (١٢٨)، ينتخبون مناصفة بين المسلمين والمسيحيين، وقسمت المادة الثالثة منه لبنان إلى اثنتي عشرة دائرة انتخابية (١٢).

٨ - القانون رقم ٥٣٠ تاريخ ١١ تموز ١٩٩٦،

عدّل بالقانون رقم ٥٨٧ تاريخ ١٣ آب ١٩٩٦، حافظ على عدد النواب نفسه، ولكنّه خفّض عدد الدوائر الانتخابية إلى عشر دوائر (١٠).

٩ - القانون رقم ١٧١ تاريخ ٦ كانون الثاني ٢٠٠٠

جرت على أساسه انتخابات سنة ٢٠٠٠ و٢٠٠٥، أبقى المادة الأولى منه على عدد النواب ذاته، وقسمت المادة الثانية لبنان إلى أربع عشرة دائرة انتخابية (١٤).

١٠ - القانون رقم ٢٥ تاريخ ٢٥ تشرين الأول ٢٠٠٨

تألف القانون من مائة وسبع عشرة مادة (١١٧)، اعتمد القضاء كدائرة انتخابية

واحدة، وقسّم لبنان إلى ست وعشرين دائرة انتخابية، (٢٦) وحافظ على عدد النواب نفسه. و٢٠٠٩.

ويوضح الجدول التالي كيفية توزيع المقاعد النيابية على الطوائف بين ١٩٢٢ و٢٠٠٩.

السنة	١٩٢٢	١٩٢٥	١٩٢٩	١٩٣٤	١٩٣٧	١٩٤٣	١٩٤٧	١٩٥١	١٩٥٣	١٩٥٧	١٩٦٠	١٩٦٤	١٩٦٨	١٩٧٢	١٩٩١	١٩٩٢	١٩٩٦	٢٠٠٠	٢٠٠٥	٢٠٠٨
سنة	6	9	9	5	13	11	11	16	9	14	20	20	20	20	22	27	27	27	27	27
شعبة	5	8	8	4	11	10	10	14	8	12	19	19	19	19	22	27	27	27	27	27
فروز	2	3	3	2	4	4	4	5	3	4	6	6	6	6	8	8	8	8	8	8
علويون	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	2	2	2	2	2	2
موارنة	10	15	15	7	20	18	18	23	13	20	30	30	30	30	30	34	34	34	34	34
أرثوذكس	4	6	6	3	7	6	6	8	5	7	11	11	11	11	11	14	14	14	14	14
كاثوليك	2	3	3	2	4	3	3	5	3	4	6	6	6	6	6	8	8	8	8	8
أرمن/أذ	-	-	-	1	2	2	2	3	2	3	4	4	4	4	4	5	5	5	5	5
أبك	-	-	-	-	-	-	-	1	-	1	1	1	1	1	1	1	1	1	1	1
أقليات	1	2	1	1	2	1	1	1	1	1	1	1	1	1	1	1	1	1	1	1
أجنبيون	-	-	-	-	-	-	-	1	-	-	1	1	1	1	1	1	1	1	1	1
إجمالي	30	46	45	25	63	55	55	77	44	66	99	99	99	99	108	128	128	128	128	128

والطائفة، وهذا ما دفعه إلى نسج علاقات زبائنية تقوم على توزيع الخدمات لأبناء الطائفة ليكسب تأييدها في الانتخابات التالية، مع ما يستتبع ذلك من تبعية واستزلام.

إن هذا الواقع الضبابي يؤشر إلى إشكاليات ثلاث:

الأولى: الإشكالية الطائفية، وتكمن في نظرة الطوائف إلى الوطن وطبيعة نظامه السياسي.

الثانية: إشكالية الهوية؛ وطرحنا التساؤل التالي: هل المواطنون من رعايا الوطن؟ أم من رعايا الطوائف والمذاهب؟

الثالثة: إشكالية الديمقراطية الحقيقية في ظل استمرار مفهوم التبعية، والبيعة، والولاء الغرائزي لهذا وذاك.

وانطلاقاً من هذا التقديم نخلص إلى ما يلي:

إن القوانين الانتخابية المذكورة عكست صورة النظام السياسي القائم على تطبيق السلطة، وتكريس منطق المحاصصة، واستمرار الأزمات الوطنية، كما أنها حالت دون قيام مجتمع المواطن المتجانس والمتماسك، وعززت المصالح الطائفية على حساب المصالح الوطنية، وانعكست سلباً على العيش المشترك، وخاصة أن لبنان يشكل فسيفساء طائفية متنوعة وفريدة في هذا الشرق، إضافة إلى أن تلك القوانين لم تؤمن إطلاقاً عدالة في التمثيل، وبقيت

إن هذه السلسلة العشرية من القوانين الانتخابية ذات الطابع الطائفي، التي رفعت عدد النواب من ثلاثين (٣٠) إلى مائة وثمانية وعشرين نائباً (١٢٨)، وفصلت الجغرافيا الانتخابية بما يتلاءم مع مصلحة أهل السلطة الذين يبنون أمجادهم على صرح الطائفية السياسية واستمرارها، فشلت في إرساء استقرار سياسي واقتصادي واجتماعي دائم في لبنان، وجاءت موسومة باعتبارات المراحل التي صدرت خلالها، فراغت القوانين الانتخابية زمن الانتداب بمصالح فرنسا ومصالح الزعماء الاقطاعيين التقليديين.

وجاءت قوانين المرحلة الاستقلالية (١٩٤٣-١٩٧٢) التي أرسنها تسوية ميثاق سنة ١٩٤٣ على قياس الحكام، فانتخابات سنة ١٩٥١ أدت إلى ثورة بيضاء أقصت مفاعيل التمديد للرئيس بشارة الخوري. وانتخابات سنة ١٩٥٧ في عهد الرئيس كميل شمعون انتهت بثورة ١٩٥٨. ولم يُجَنَّب قانون سنة ١٩٦٠ بشعاره (لا غالب ولا مغلوب) تجرّع لبنان كأس الحرب الأهلية التي أنهكتها على مدى خمس عشرة سنة.

وأما قوانين ما بعد اتفاق الطائف فقد نقلت التمثيل النيابي من سيطرة زعماء الإقطاع السياسي إلى سيطرة أحزاب الطوائف، فتحول النائب من نائب عن الأمة جمعاء إلى نائب عن المنطقة والحزب

- أسيرة التقليد، وأظهرت محدودية في تجديد النخب السياسية اللبنانية.
- إن الشفاء من هذا الاعتلال الطائفي المزمّن، ومن ضبابية الإشكاليات المطروحة يكمن في إلغاء الطائفية السياسية من النصوص والنفوس، وقيام دولة مدنية ديمقراطية، يكون من أولى شروط نجاحها اعتماد قانون عادل للانتخابات، يقوم على أساس التمثيل النسبي بوصفه الأكثر ملاءمة لطبيعة المجتمع اللبناني المتعدد الطوائف والمذاهب والثقافات، والقانون النسبي:

مكتبة البحث

- ١ - الانتخابات النيابية في لبنان (الجوانب التاريخية والقانونية والاجتماعية)، انتخابات العام ١٩٩٦، إعداد أنطوان الناشف و خليل هندي، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس ١٩٩٨.
- ٢ - العملية الانتخابية والديموقراطية في لبنان، إشراف د. رياض الصمد ود. سمير صباغ، مجموعات أبحاث ومناقشات، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط ١، ١٩٧٨.
- ٣ - بشارة الخوري، حقائق لبنانية، ثلاثة أجزاء، الدار اللبنانية للنشر الجامعي، بيروت ١٩٨٣.
- ٤ - التمثيل الشعبي والانتخابات في لبنان، مجموعة مؤلفين، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت ٢٠٠٥.
- ٥ - ضاهر غندور، النظم الانتخابية دراسة مقارنة لأهم القوانين الانتخابية في العالم - الحياة النيابية والتشريعات الانتخابية في لبنان، ط ١، المركز الوطني للمعلومات والدراسات، ١٩٩٢.
- ٦ - عدنان ضاهر، رياض غنام، مجلس النواب في ذاكرة الإستقلال اللبناني، ط ١، بيروت ٢٠٠٢.
- ٧ - فارس سعادة، الموسوعة الانتخابية من حياتنا البرلمانية - خفايا ومواقف، ١٤ جزءاً، بيروت ١٩٩٥.
- ٨ - لحد خاطر، الانتخابات النيابية في تاريخ لبنان، قدم له وحققه د. عبد الله الملاح، دار لحد خاطر، ١٩٩٦.
- ٩ - محمد مراد، الانتخابات النيابية في لبنان ١٩٢٠-٢٠٠٩، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت ٢٠١٣.
- ١٠ - ويغان العلم، «المجالس التمثيلية في دولة لبنان الكبير ١٩٢٠-١٩٢٦»، تركيبها، أدواتها والتوازنات»، بحث منشور في كتاب دولة لبنان الكبير ١٩٢٠-١٩٩٦، مجموعة مؤلفين، منشورات الجامعة اللبنانية، ١٩٩٩.

يُنصَف جميع القوى السياسية والحزبية، ويسمح لها بالمشاركة في الحياة البرلمانية بحسب أحجامها وأوزانها، وهو أمر متعذر في قانون التمثيل الأكثر.

- يسمح بالتنوع والمشاركة الأوسع لكافة النخب، ويعزز دور المرأة في الاقتراع والترشح.
- يشجع على التنافس الديمقراطي على أساس البرامج الانتخابية الوطنية.
- يمنع الكتل الطائفية الكبيرة من التحكم بنتائج الانتخابات عند وجود أقليات طائفية أخرى في نفس الدائرة الانتخابية.
- يسهل عملية العبور التدريجي من التوزيع الطائفي للمقاعد النيابية إلى التوزيع الوطني.

الكناية في سور المثئين

رنا إبراهيم الحريري

من المتكلم وما يخفيه من أسرار على أن «التعبير الفني ثمرة من ثمرات الخيال الذي يبدع الصور الجميلة التي ترسخ المعنى في الازدهان، وتسمو بالواقع وتشيع اللذة الفنيّة بهذه الآثار... كما أنه يقوي من طاقة الإيحاء لدى الشاعر أو الأديب ويمنح كلاً منهما وسيلة التعبير التي تهزّ النفس وتثير إعجابها»^(١).

الكناية عند العرب:

عرف العرب الكناية وعدّوها جزءاً من البلاغة إلى جانب التشبيه والاستعارة، ومن أوائل الذين عرفوا الكناية الجاحظ الذي عدّها من علامات الإفصاح فقال: «ربّ كناية تربو الإفصاح»^(٢). وفي موضع آخر قال: «وربما كانت الكناية أبلغ من التعظيم وأدعى إلى التقديم»^(٣) أما المبرد فقد جاءت الكناية عنده على ثلاثة ضروب:

القرآن الكريم كتاب الحياة، وهو خطاب العقل والنفس معاً، معانيه متعددة مكثّفة تحمل الكثير من التآويل، ومن خلال أسلوب الكناية نحاول استخراج المعاني الجمالية، والقيمة الفنيّة للبعد الدلاليّ الواسع فيه، من خلال سور المثئين وهي السور التي تضم سور «يونس، هود، يوسف، الرعد، إبراهيم، الحجر، النحل، الاسراء، الكهف، مريم، طه، الأنبياء، الحج، المؤمنون، النور، الفرقان، الشعراء، النمل، القصص، والعنكبوت»، وهي السور التي تقع بعد السبع الطوال، وسميت بالمثئين لأن عدد آيات سورها مئة أو تزيد قليلاً أو تقل. فنلقي الضوء على ما في القرآن من عمق البلاغات وذخرها على أن بلاغة البيان القرآني على سعته تكاد لا تبلغ كماله. والكناية لون من ألوان البلاغة ونوع من التعبير الفنيّ الراقى يبرز المعنى ويزيده جمالاً، وقوة وتصوراً، فيكشف حالاً

(١) كريدية، سهام: البلاغة العربية (علم المعاني - علم البيان - علم البديع)، مكتبة النخبة، ص ١٤٢.

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين، ج ١، ص ٧.

(٣) الجاحظ: رسالة نفي التشبيه، رسائل الجاحظ، ج ١، ص ٣٠٧.

الأول: التعمية والتغطية كقول ذي الرمة:

أحبَّ المكان القفر من أجل أنني

به أتغنّي باسمها غير مُعجم^(١).

الثاني: الرغبة عن الألفاظ الوضيعة الخسيصة وإلى ما يدل على معناه من غيره..

الثالث: التفخيم والتعظيم ومنه اشتقت الكنية، وهو أن يعظم الرجل أن يدعي باسمه^(٢). وقدامة بن جعفر فقد سمي الكنية الإرداف والذي يعني «باللفظ الدال على معنى من المعاني، فلا يأتي باللفظ الدال على ذلك المعنى، بل بلفظ يدل على معنى هو ردفه وتابع له، فإذا دلّ على التابع منها أبان عن المتبوع»^(٣)

منها قول عمر بن أبي ربيعة:

بعيدة مهوى القرط إما لنوفل

أبوها وإما عبد شمس وهاشم^(٤)

أما عبد القاهر الجرجاني، فقد عرّف الإرداف كما عرّفها قدامة ولكن سماها كناية إذ قال عنها «أن يريد المتكلم اثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ

الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيومئ به إليه ويجعله دليلاً عليه»^(٥) أما الزمخشري، فهو أول من فرق بين الكناية والتعويض، إذ عرفها بقوله: «أن تذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له كقولك: طويل النجاد والحماثل لطول القامة، وكثير الرماد للمضياف»^(٦). وعرفها السكاكي فقال: «الكناية ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه لينتقل من المذكور إلى المتروك، كما تقول فلان طويل النجاد لينتقل منه إلى ما هو ملزومه وهو طول القامة»^(٧).

أقسام الكناية:

تقسم الكناية إلى أقسام ثلاثة:

كناية عن صفة: ركب على جناحي نعامة. وهي كناية عن السرعة والمقصود هو «صفة معنوية لم تذكر بلفظها»^(٨).

كناية عن موصوف: نزلت بلاد الفراغة وهي كناية عن مصر وقد «كني بها عن معنى واحد أريد به الموصوف»^(٩).

(٢) المبرد: الكامل، ج ٢، ص ٢٩٠.

(٤) عمر بن أبي ربيعة: الديوان، ص ٢٠٠.

(٦) الزمخشري: الكشاف، ج ١، ص ٢٧٩.

(١) ديوان ذي الرمة، ص ٧٠٦.

(٣) قدامة بن جعفر: نقد الشعر، ص ١٧٨.

(٥) الجرجاني: دلائل الاعجاز، ص ٥٢.

(٧) السكاكي: مفتاح العلوم، ص ٥١٢.

(٨) كريدية، سهام: البلاغة العربية (علم المعاني - علم البيان - علم البديع)، مكتبة النخبة ص ١٣٦.

(٩) المصدر نفسه، ص ١٣٦.

كناية عن نسبة: المجد في ثوبيه والجود بين برديه أي «انه لا ينسب المجد والجود إلى من يخاطبه مباشرة ولكنّه نسبهما إلى ما له اتصال به وهما: ثوباه وبرداه»^(١).

القيمة الفنية للكناية:

تعد الكناية ضرباً من ضروب البلاغة التي تكسب المعنى في العبارة سمواً قلّ ما يدركه الفرد إلا إذا تمعن عميقاً في المعنى المقصود المراد، فالأول قريب غير مقصود، والآخر خفي مقصود بعينه. فتُكشَف معانٍ أخرى لا تمت إلى الألفاظ بصلة فيتجنب المرء الإفصاح والتصريح متخفياً بألفاظ لا يدركها إلا كلّ متمعن مدرك للقصد المراد معرفته، فالزخم الدلالي في الكناية يختلف عن الاستعارة والتشبيه.

ويقول الجرجاني في ذلك: «أنك لمّا كنيت عن المعنى، زدت في ذاته، بل المعنى أنك زدت في إثباته فجعلته أبلغ وأكد وأشد... وادعيته دعوى أنت بها أنطق وبصحبتها أوثق... إن إثبات الصفة بإثبات دليلها وإيجابها بما هو شاهد في وجودها، أكد وأبلغ في الدعوى من أن تجيء إليها فتثبتها هكذا ساذجاً غفلاً، وذلك لا تدعي شاهد الصفة ودليلها إلا والأمر ظاهر ومعروف، وبحيث لا يشك فيه والايظن بالمخبر التجوّز والغلط»^(٢).

دلالة الكناية في السور القرآنية:

ونستعرض عدداً من آيات القرآن الكريم من سور المثني لنتبين الدلالة البيانية منها سورة هود: قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾^(٣). وردت في الآية الكريمة كنایتان الأولى تتمثل في: «جاء أمرنا» وهي كناية عن الطوفان، فقد أمر الله تعالى نوح بصنع سفينة، فامتثل النبي إلى أمره فصنعها، وحينما استكمل صنع الذي أمره به، جاء أمر الله وهو يوم الطوفان لكي يعم العذاب على المشركين. وتستزيد الآية ذاتها بكناية ثانية وهي: «وفاء التنور»، وهي كناية عن شدة غضب الله والتي تعد نقطة انطلاق العذاب على المشركين.

وجاء في معجم المعاني معنى الفعل فار: يفور فر فوراً وفوراناً فهو فائر. فارت القدر: غلت، ارتفع ما فيها. فار ما فيها: اشتد اشتعالها. وقد أتت الكناية بصيغة الجملة الفعلية البسيطة المؤلفة من المسند والمسند إليه، الفعل والفاعل، معطوفة على جملة فعلية بسيطة مما أكسب المعنى الكنائي كثافة دلالية وإيحائية تختزل معاني طوالاً فيها. وقال الله تعالى في موضع آخر

(٢) الجرجاني، دلائل الاعجاز، ص ٥٦-٥٧.

(١) المصدر نفسه، ص ١٣٦.

(٣) سورة هود، الآية: ٤٠.

التصريح، أكسب المعنى قوة وتصويراً أبلغ وأعمق، وأسهم في الوصول إلى مبتغى الفكرة عبر التحليل، وإعمال العقل وإدراكه من خلال تعابير جمالية فنية.

سورة التوبة:

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾^(٣). في هذه الآية الكريمة نعثر على الكناية في: «في قلوبهم مرض»، وهي كناية عن التكبر والحقد والضغينة التي يكنها الكافرون في قلوبهم، فهم بكفرهم يختبرون الكره كرهين، والحقد أحقاداً فيمتلئ القلب بالرجس ليصبح التكبر قراراً شخصياً يستمر معهم موقفاً يقوى ويقوى مع مرور الأيام وهم كافرون، ويحدث المرض النفسي نتيجة الشك فيؤدي إلى خلل في شخصية الانسان فيصبح غير سوي، وعلى العكس، فإن الانسان السوي المتزن نتلمس بعضاً من جوانب شخصيته الإيمانية وسمات تفكيره العقلاني المنفتح من خلال التدبر والفهم ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾^(٤). وأما المتكبر فينقلب عليه الحقد والكرهية مرتين وهو المقصود

من سورة هود: ﴿رَقِيلَ يَتَّارِضُ أْبَلَىٰ مَاءَكِ وَبَسْمَاءَ أَقْلَىٰ وَغِيصَ الْمَاءِ وَفُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(١). تظهر الكناية في: «واستوت على الجودي»، واستوت بمعنى استقرت كما ورد ذلك في معجم المعاني، والجودي هو جبل في الموصل. ويمكن إدراك المعنى الدلالي للكناية أنه بعدما جاء أمر الله وهلك من خالف الحق ونجا من أطاعه، كف الله الغضب عنهم وكف أيضاً المطر هطوله، وغارت المياه في أعماق الأرض، وتوقفت السفينة، واستقرت على جبل الجودي. وقيمة الكناية تظهر بالتضاد بين فار واستوت فكلا الفعلين كناية تخالف إحداهما الأخرى، وهذا التضاد يبرز دلالة الكناية في «جاء أمرنا». فالأولى إرادة القول، والثانية إرادة القيام بالفعل، والثالثة قضاء الفعل واتمامه. ونستنتج أن الكناية في سورة هود هي:

كناية مكثفة، تُظهر بعداً من السيطرة الإلهية وقدرتها في تغيير حال الحياة، بعقاب المفسدين ونجاة المؤمنين الثمانين ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾^(٢). جاعلاً من عهد نوح عهداً جديداً للبشرية عهد إصلاح وطمأنينة.

إذاً، فقد كان للكناية دورٌ أبلغ من

(١) سورة هود، الآية: ٤٤.

(٢) سورة يس، الآية: ٨٢.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١٢٥.

(٤) سورة التوبة، الآية: ١٢٤.

بالرجس. وفي سورة التوبة كناية ثانية: ﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّكَ الْمُنْفِقِينَ هُمْ الْفٰسِقُونَ﴾^(١). تظهر الكناية من الآية الكريمة في: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾، وتحدث الآية عن حال المنافقين الذين يقبلون الموازين فيأمرّون بالمنكر وينهون عن المعروف، ثم يقبضون أيديهم. ومعنى يقبضون أيديهم تحمل دلالات نسبة إلى انتماء المنافقين إلى مجتمع الفساد، فيحيا ضمن شبكة علاقات اجتماعية تسعى إلى قلب الأسس الأخلاقية والروحية، ليساهم بدوره في نشر الباطل ومحق الحق. ثم يقبضون أيديهم ويتصرفون وفق معتقدتهم المقلوب داخل مجتمعهم القومي، فيفشلون النمو الاجتماعي والثقافي، وتختل توازنات الحياة بين عملية التقدم والركود.

سورة النحل:

﴿حَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَلٰى عَمَّا يُشْرِكُوْنَ﴾^(٢) ﴿٦﴾ ﴿خَلَقَ الْاِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَاِذَا هُوَ خَصِيْمٌ مُّبِيْنٌ﴾^(٣) ﴿٤﴾. جاءت الكناية جملة اسمية، ﴿هُوَ خَصِيْمٌ مُّبِيْنٌ﴾، تدل على الزمن الحاضر وعلى ثبوت المعنى. فأشارت الآية إلى وقاحة بعض

البشر وتكبرهم، فإذا جادلوا جادلوا بالباطل، وإذا تكلموا تكلموا بتعالٍ ووقاحة. ومن هذا المنطلق، عادت الآية الكريمة بهم بالذاكرة إلى الورا، وذكرتهم بالسبب الذي جعل منهم ينمون ويكبرون حتى أصبح كل منهم إنساناً وهي النطفة: الخلية الذكرية الموجودة في المنى. فظهرت الآية لتردع جميع التصرفات الوقحة والتعاملات المتعالية التي تخالف أنه مخلوق ضعيف. ويقول عبد القاهر الجرجاني: «الكناية أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه، وردفه في الوجود، فيومئ به إليه، ويجعله دليلاً عليه»^(٣).

سورة الانبياء:

ونرصد كناية في سورة الأنبياء: ﴿يَسْحَبُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْقَهُوْنَ﴾^(٤)، تشير الكناية إلى حال البعض في المواظبة والاستمرارية على فعل التسبيح، إذ يشكّل هذا الفعل حال العزم والانسجام عندهم على ممارسة التسبيح في جميع أوقاتهم، ليشكل لهم مسيرة حياة راضية مطمئنة. وهذه الكناية التي تدل على صفة تلازم المعنى المخفي في الآية (كالصدق،

(١) سورة التوبة، الآية: ٦٧.

(٢) سورة النحل، الآيتان: ٣، ٤.

(٣) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: ٦٦.

(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٢٠.

والمتابعة، والاحترام، والتقدير، والاستئناس)، بمعنى تذكر العنصر الموصوف مع صفة ما، ولكنها ليست المقصودة فقط، وإنما المقصود صفات أخرى، تفهم من معنى الآية.

سورة طه:

﴿تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾ (٤)
 الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٦﴾ وَإِنْ يُجَهَرِ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٨﴾ (١)، جاءت الكناية في: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾، لتدل على السيطرة الالهية المطلقة على جميع البشر، بل على الكون بأكمله، صاحب المهابة الالهية والعظمة باستوائه وإحاطته بكل شيء، فله الحكم المطلق وسطوة الملك عليهم، يدرك كل ما يخفون. لتحمل الكناية إشراقات دلالية واسعة ومؤثرة في وجدان القارئ توجههم إلى محبته، ففي سيطرته رافة وفي سطوته رحمة.

سورة الإسراء:

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ (٢)،

تشكلت الصورة الكنائية من قسمين، الأولى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾، وهي كناية في النهي عن الإمساك والبخل، فيشبهون من يده مشدودة إلى عنقه مقيدة. فتدعو الكناية من خلال الوصف إلى الابتعاد عن فعل البخل. وفي الثانية: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾، وهي كناية تقابل الآية السابقة لها وتعاكسها في المعنى فتظهر الضد. والمعنى أن لا يهب كل ما لديه، فيفرط في الإسراف، ويخسر كل ما لديه. فجاءت المقابلة الكنائية متوازية بين العبارتين تخلق حالة توازن بين حدي البخل والعتاء.

سورة النمل:

﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآه مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ (٣)، دلت الكناية في: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾، على صفة الإسراع، «في اختصار المدة الزمنية التي يحتاجها نقل العرش على مستوى اللحظة، فلم ينته هذا الرجل من كلامه حتى كان العرش أمام سليمان» (٤). فتبين من خلال

(١) سورة طه، الآيات: ٤ - ٨.

(٢) سورة النمل، الآية: ٤٠.

(٣) العلامة محمد حسين فضل الله: من وحي القرآن، تفسير سورة النمل.

هذا التصرف العجيب، القدرة الخفية التي أمدها الله لأعوان سليمان كوسيلة للاقتناع بتعاليمه، عندما يعرفون أن مصدرها هي القوة الإلهية.

سورة مريم:

﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلْمٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ
وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾^(١)، تظهر الكناية التي وردت في الآية عفة مريم، والآية هي جملة استفهامية تعجبية (أنى)، وتتعجب من أنها ليست بذات زوج لكي تحمل وفق القوانين

المألوفة للحمل. ما يدل على أن المولود هو النبي عيسى المسيح، أكرمها الله به من خلال حملها به على خلاف الأسباب الاعتيادية للحمل، لتكون ولادته معجزة. فتظهر الكناية القدرة الالهية على الخلق والإبداع بتجاوز الأسباب الطبيعية. ومن خلال سور المئين، أظهرنا بعضاً من الكنايات القرآنية، فكشفت دلالات تكتسي ثوب البلاغة، ظهرت منطوية على مشاهد تذخر بالمعاني العميقة، والفكر المنطلقة في أفق الحياة رحبة، فتقنع القارئ وتؤثر به.

(١) سورة مريم، الآية: ٢٠.

المبحث الرابع:

مظاهر الخصخصة في الاقتصاد اللبناني (ج ٢)

حوراء علي سببتي

مشاكل كبيرة وعديدة يعاني منها الاقتصاد اللبناني.

وقد جاء واضحاً هذا الجدل من خلال الوضوح والشمول الذي عرفت فيه الخصخصة في القانون حيث جاء في الفقرة الثالثة من المادة الأولى ما يلي: "الخصخصة هي تحويل المشروع العام كلياً أو جزئياً أو تحويل إدارته كلياً أو جزئياً بأحد الطرق القانونية إلى القطاع الخاص، بما فيه نظام الامتياز أو الأنظمة الحديثة المشابهة له لإقامة وإدارة المشاريع الاقتصادية لمدة معينة^(١)."

المطلب الاول: واقع الخصخصة في لبنان

إنّ دراسة تجارب الخصخصة في دول العالم الثالث، تُظهر أنّ لا قيود فيها لحماية المال العام. إنّ موضوع التخصيص ليس موضوعاً جديداً في لبنان بل كان يُطرح عند

تمهيد

سوف يُقدّم هذا الفصل وباختصارٍ شديد عن مظاهر الخصخصة في الاقتصاد اللبناني من خلال المشاهدة والممارسة أو حتى الملاحظة الظاهرة في ميزة الاقتصاد في لبنان منذ إعلان لبنان الكبير، ولغاية اليوم، باعتبار أن الجمهورية اللبنانية كانت منفتحةً تجاه اقتصاد السوق أكثر من غيرها من دول منطقة الشرق الأوسط، ولذلك تُلمس مظاهر الخصخصة في الاقتصاد اللبناني منذ القدم حتى قبل أن يُعرف مفهومها الحديث، وعلى الرغم من ذلك فإن تطبيق مفاهيمها وأساليبها الحديثة لم يكن من السهل الممكن، وأخذ الجدل السياسي وقتاً طويلاً وكافياً لإقناع الرأي العام بأهمية وأهداف سياسة الخصخصة بالمفهوم الجديد والممكن اعتماده لمعالجة

(١) قانون تنظيم عمليات الخصخصة، مصدر سابق.

كلّ محاولة إصلاحٍ إداريٍّ قامت به الدولة^(١).

سركيس لكنّه بقي فكرةً من دون أن ينتقل إلى التطبيق العملي.

لقد جرّب لبنان التخصيص من دون أن يكون لهذا التخصيص هذا الاسم في حينه، وإنّ قطاع الاتصالات اللبناني هو أوّل من أشرك القطاع الخاص في إنشاء وتشغيل اتصالاته الدولية في منطقة الشرق الأوسط وذلك بموجب امتياز مع شركة راديو أوريان مؤرّخ في ١٢/١/١٩٢١ م، غايته السماح للشركة المذكورة بإنشاء واستثمار في سورية ولبنان، ضمن شروطٍ معينة، اتصالاتٍ لاسلكية لتبادل المخابرات مع محطات خارجية أكانت خاصة أم ملك إدارات عامة حُدّت بموجب هذا الاتفاق مدة الامتياز بخمسين سنة بحيث انتهت عام ١٩٧٢ م. ثمّ انتقلت ملكية هذه المنشآت إلى الدولة اللبنانية حيث عهد إلى مؤسسة أوجيرو متابعة إدارتها وتشغيلها، بواسطة موظفي الشركة الذين أصبحوا موظفي أوجيرو عملاً بأحكام القانون ٧٢/٢١ تاريخ ١٩٧٢/١٢/٢٧ م تحت وصاية وزير البريد والاتصالات.

وخلال سنوات الحرب الخمس عشرة، ونظراً لانعدام الخدمات الأساسية التي كانت تقدّمها الحكومة، حدث تحوّل عام، وبشكلٍ متزايد نحو القطاع الخاص للحصول على تلك الخدمات تلقائياً، مثل إقامة شبكات الاتصال الخاصة المستقلة تماماً عن الدولة وبمبادرات فردية أمّنت إلى حدٍ كبير خدمة الاتصالات إلى المواطنين ولو بشكلٍ بدائي، كما ظهرت مولدات الديزل لتوليد الطاقة وأمّنت أيضاً الكهرباء إلى المواطنين لمدة لا بأس بها من الزمن حتّى استعادت الدولة عافيتها وبدأت بالعمل على تصليح وبناء ما دمرته الحروب والتي تبين لاحقاً أن تكلفته غالية جداً وتحتاج إلى رؤوس أموالٍ كبيرة نظراً لضخامة الدمار الذي لحق في أغلب المرافق العامة والحيوية.

ونظراً لفداحة التكلفة وندرة الرساميل المتوفرة في القطاع العام، قرّرت الحكومة بالتفكير جدياً في زيادة مشاركة القطاع الخاص عن طريق تمويل البنية الأساسية وإدارتها وتشغيلها، وخاصةً في ظلّ عجز الموازنة وزيادة الدين العام وبشكلٍ كبيرٍ

وفي أوائل الثمانينيات طرح أكثر من وزير الأمر في عهد الرئيس الراحل إلياس

(١) غالب أبو مصلح، المخصصة في لبنان: انسحاب تدريجي في القطاع العام، جريدة الاخبار، العدد ١٠٨٩، نيسان ٢٠١٠.

الحكومة عام ١٩٩١ م لجنة وزارة للتخصيص، وقد ألفت تلك اللجنة لجاناً فرعية رفعت تقاريرها بشأن الاتصالات السلكية واللاسلكية والريجي وكازينو لبنان والكهرباء والبريد، وتضمنت بعض تلك التقارير ضرورة اعتماد الخصخصة في بعض هذه المرافق الأساسية^(١).

وعند تشكيل حكومة الرئيس الحريري الأولى أواخر عام ١٩٩٢م ورد في بيانها الوزاري: «إن الحكومة ستعمل على تنظيم المرافق العامة وتحديد طرق وأصول إدارتها وتشكيل وإنشاء شركات مختلطة». حيث قدمت حكومة الرئيس الحريري على بعض الخطوات التي يمكن اعتبارها مدخلاً إلى الخصخصة في قطاعات معينة ومنها على سبيل المثال تلزيم خدمات الخليوي إلى شركات خاصة عن طريق الـ BOT (بناء وتشغيل وتسليم) وأيضاً إنشاء الشركة العقارية لعمال الوسط التجاري لمدينة بيروت «سوليدير»، وكلفت مؤسسة أوجيرو بإدارة وصيانة شبكات وموزعات الهاتف كما أنشئت شركة للتنظيفات العامة «سوكلين». كما تم إنشاء الشركة اللبنانية لتطوير ساحل مدينة صيدا (SIDON) والشركة اللبنانية لتطوير

جداً ونتيجة لذلك أصبحت الأفكار والآراء مختلفة تجاه موضوع التخصيص فالبعض يعتبره مدخلاً إلى حلّ عدد كبير من المشاكل الاقتصادية ويستند في ذلك إلى تجربة عدد كبير من الدول التي يشابه وضعها الاقتصادي وضع لبنان وقد أخذت تلك الدول بالتخصيص مثل (الأرجنتين- المكسيك إنغولا) الأمر الذي ساهم في إعادة التوازن إلى اقتصادها وخفض عنها أعباء كبيرة وأدى إلى تحسّن مستوى الخدمات المتردية فيها. والبعض يبدو حذراً إزاء الفكرة لأنها قد تثير انقساماً حاداً في البلاد بغنى عنه.

البعض الآخر كان يعارضها لأسباب عدة منها فقدان الأمن في عدد من المناطق، وضرورة حصر الجهد بمسائل أخرى تبدو أكثر أهمية كتطبيق اللامركزية مثلاً.

لكن، ومع مطلع التسعينات بدأت الحكومة اللبنانية قبول هذا الواقع الجديد وأصبحت فكرة الخصخصة مطروحة وبشكل أوضح، خصوصاً في ظل التطورات التي تعصف بعدد كبير من البلدان وفي ظل المفاهيم الاقتصادية الحديثة السائدة، وقد مرّت بمراحل عدة وهي انتقلت من الإطار السياسي إلى الإطار الحكومي حيث شكّلت

(١) بلقيس عبد الرضا، هل الخصخصة حل سحري لازمة الاقتصاد اللبناني، نقلا عن الموقع الإلكتروني www.alaraby.co.uk، منشور بتاريخ ٢٦/١١/٢٠١٤، تاريخ الدخول للموقع: ١٥/١١/٢٠١٧.

الساحل الشمالي لمدينة بيروت (Linord)، كما تمّ تلزيم استثمار مرفق جعيتا السياحي إلى شركة (ماباس) عن طريق Bot، وكانت آخرُ عمليات الخصخصة في عهد حكومة الرئيس الحريري هو تخلي وزارة البريد والبرق والهاتف عن الخدمات البريدية والفاكس لمؤسسة بروفاك الكندية.

كما وفي سبيل تطوير الخصخصة وتشجيعها وانطلاقاً من أسلوب الخصخصة التلقائية اعتمدت حكومة الرئيس الحريري على سياسة تشجيع الاستثمارات الخاصة في مجال الخدمة العامة. وتطبيقاً لذلك فقد أنشأت في أواخر العام ١٩٩٤ م المؤسسة العامة لتشجيع الاستثمارات.

وعند انتخاب فخامة الرئيس العماد إميل لحود تمّ تشكيل حكومة العهد الأولى برئاسة الدكتور سليم الحص والتي تبنت فكرة الخصخصة وإمكانية اللجوء إليها حيث طُرحت من زاوية التخفيض من حجم الدين العام والمباشرة بحل مشكلة عجز الخزينة...^(١)، وإنها سوف تتم في إطار قانوني ومؤسساتي منظم وشفاف، وبالفعل أحالت هذه الحكومة إلى المجلس النيابي بتاريخ ٤/٦/١٩٩٩ م مشروع

قانونٍ يتعلّق بالخصخصة، وفي السابع من حزيران ١٩٩٩ م تمّت إحالته من قبل رئيس مجلس النواب الأستاذ نبيه بري إلى اللجان التالية: (الإدارة والعدل، المال والموازنة، الاقتصاد الوطني والصناعة والتجارة لمناقشته وإقراره لعرضه على المجلس النيابي في ما بعد).

وبالفعل تمّ عرضه على المجلس وأقرّ بموجب القانون رقم ٢٢٨ ونُشر في الجريدة الرسمية بتاريخ ٣١/٥/٢٠٠٠ م. وهكذا أصبح الجو والمناخ السياسي اللبناني مهياً للبدء الفعلي في تطبيق عمليات الخصخصة أكثر من أيّ وقت مضى.

ولم يبق أمام الحكومة غير إعداد المراسيم التطبيقية اللازم إقرارها للبدء في تنفيذ القانون المذكور^(٢). ويبقى السؤال المركزي، هل إنّ نقل الملكية من القطاع العام إلى القطاع الخاص سيؤدّي إلى تحسين أداء الشركات وكفاءتها وتقديم الخدمة الأفضل بالسعر الأنسب؟^(٣)

المطلب الثاني: واقع القطاعات الاقتصادية في لبنان

اتبعت الدولة اللبنانية وسائل عدة لإدارة المرافق العامة التي تؤمّن الخدمات الحياتية

(١) البيان الوزارة للحكومة في حينه.

(٢) الفقرة هـ من القانون رقم ٢٢٨ - تنظيم عمليات الخصخصة، مصدر سابق.

(٣) حسين خليل، السياسات العامة، بيروت، دار المنهل اللبناني، ٢٠٠٦.

اليومية للمواطنين ومن هذه الوسائل على سبيل المثال^(١):

١. الإدارة المباشرة: (الاتصالات السلوكية واللاسلكية).

٢. المؤسسة العامة: (المياه، الكهرباء).

٣. الامتياز: (شركة كهرباء قاديشا، شركة كهرباء زحلة وشركة سكك الحديد، علماً أنه استرد البعض منها).

٤. شركات الاقتصاد المختلطة: المؤسسات المصرفية المختلطة، شركة تلفزيون لبنان، شركة طيران الشرق الأوسط.

٥. شركات ذات منفعة وطنية: شركة الريجي.

إنّ معظم هذه الأساليب فشلت، ولا تزال الخزينة تتحمّل معظم الخدمات التي تؤدّيها تلك الإدارات عن طريق السُلْفِ التي تحوّلت إلى هباتٍ لأنّه لا يمكن تسديدها من هذه المرافق نظراً لعجزها المتراكم. إنّ هذا الواقع الاقتصادي يفترض إصلاحاً جذرياً على مستوى الأداء الاقتصادي برمته.

وعادةً الإصلاح يجب أن يأتي منسجماً مع المفاهيم الاقتصادية المعمول بها، واليوم أغلب دول العالم المتقدمة والنامية تحاول تطبيق المفاهيم الاقتصادية الحديثة

بعد فشل الأساليب السابقة في معالجة التردّي الاقتصادي والاجتماعي والمؤدّي إلى تحويل أغلب المرافق العامة إلى القطاع الخاص، باعتماد سياسة الخصخصة.

المطلب الثالث: أسباب الخصخصة في لبنان

إنّ التخصيص في لبنان إذا تمّ تنفيذه في الأطر القانونية والتنظيمية الصحيحة والمعمول بها عالمياً قد أصبح حاجة ملحة للاقتصاد اللبناني للأسباب الآتية:

أ - التقصير الهائل في تأمين كل الخدمات العامة مع الارتفاع في تعرفتها:

إنّ هذا التقصير ناتج عن عدم وجود الحوافز وإلى عقلية الاحتكار وعدم المسؤولية والمحاسبة في المرافق العامة التي تحوّل دون أيّة منافسة.

ب - عدم توفر الرساميل اللازمة للدولة والعجز الدائم في الموازنة:

إنّ تأثير السنوات الأخيرة من محنة الحرب اللبنانية، شلّ ودمّر أغلب قطاعات الخدمات العامة والبنية الأساسية لأغلب المرافق العامة. وقد سبّب تمويل هذه القطاعات من كهرباء وهاتف وماء وسواها تراكم الدين الداخلي والخارجي وتضخماً مريعاً انعكس سلباً على القدرة الشرائية لعمليتنا الوطنية ودفعا ثمنه غالياً من دون

(١) سمير الحلبي، التخصيصية في لبنان، جريدة النهار.

أن يؤدي ذلك التمويل في كثيرٍ من الأحوال إلى تحسُّنٍ كبيرٍ في تلك الخدمات.

ج - عدم توفُّر الطاقة البشرية الكفوءة اللازمة

د - قدرةُ الخصخصة على زيادة الانتاجية الاقتصادية

هـ - تجربة الخصخصة الناجحة في البلاد العربية والعالم:

حيث ارتفعت إيرادات الخصخصة على صعيدٍ عالمي من ٢٥ مليار دولار في سنة ١٩٩٠ م إلى ١٦٢ مليار دولار في سنة ١٩٩٧ م وبلغ معدل نموها السنوي المركب ٣،٣٪ وقد أصبحت الخصخصة بالفعل، في نطاق السياسة الاقتصادية أداةً رئيسيةً تُسهم في زيادة الفعالية الاقتصادية، وإعادة تشكيل القطاع العام، ودعم البرامج الرامية إلى ضبط أوضاع المالية العامة^(١).

و - المنظمات الدولية المانحة المساعدات والقروض للدولة:

والتي تشترطُ هذه المنظمات لمدِّ يدِ العون وتقديم المساعدة اللازمة من الحكومات الطالبة العمل على تطبيق سياسات الخصخصة في بلادها.

المبحث الرابع: أهداف الخصخصة في لبنان

ينطوي برنامج الخصخصة في لبنان على ثلاثة أهدافٍ رئيسية مترابطةٍ ترابطاً وثيقاً:

١. تحسُّنُ فعالية الاقتصاد اللبناني وخاصةً القطاع العام و رفع كفاءة الاقتصاد الوطني وزيادة فعالية الإنتاج^(٢).

٢. زيادة الاستثمارات في لبنان

٣. تخفيضُ نسبة الدين العام إلى الناتج المحلي الإجمالي

٤. زيادة الإنفاق الحكومي على البرامج الاجتماعية وتخصيص مزيد من الموارد لتنمية المناطق المنكوبة والمحرومة.

٥. توسيع قاعدة ضريبة الدخل بنقل مرافق عامة اقتصادية إلى القطاع الخاص لم تخضع سابقاً للضريبة.

٦. زيادة ملكية الأسهم من قبل الجمهور، بما ذلك ملكية الأسهم من قبل الموظفين لأنَّ برنامج الخصخصة سوف يتيح لجميع المواطنين اللبنانيين المشاركة بالاككتاب بها.

(١) محمد غادر، مصدر سابق.

(٢) حسين خليل، سياسات التخصيص، نقلاً عن الموقع الإلكتروني www.blogspot.com، منشور بتاريخ شباط ٢٠١١، تاريخ الدخول للموقع: ٢٠١٧/١/٢٠.

٧. تطوير وتنويع الأسواق المالية بسبب تشجيع المواطنين المقيمين والمغتربين كافة على إعادة مدخراتهم الخارجية إلى لبنان من أجل استثمارها في الاقتصاد الوطني، ما يؤدي إلى تحسين ميزان المدفوعات.

المطلب الخامس: عوائق وصعوبات تطبيق الخصخصة في لبنان

مما لا شك فيه بأن أي عمل قد يعترضه معوقات وصعوبات معينة عند القيام بتنفيذه، وعمليات الخصخصة هي أيضاً قد يعترض تطبيقها صعوبة معينة وهي:

١. وجود مصالح قوية تقف عقبة أمام نجاح الخصخصة بين مجموعة الأشخاص المرتبط دخلهم ومركزهم وسلطتهم في الأنظمة المعمول بها حالياً بهذه المؤسسات وخاصة موظفي ومديري هذه المؤسسات المنوي تخصيصها والنقابات العمالية وبعض السياسيين المعارضين للسياسة العامة للدولة.

٢. انخفاض حجم الادخار الخاص لدى طبقة كبيرة من المجتمع اللبناني الذي يؤدي إلى الافتقار لرأس المال الخاص اللازم لتملك مؤسسات القطاع العام التي يقع الاختيار عليها لتحويل ملكيتها، ولهذا يجب الحذر كي لا

تتحول عملية الخصخصة إلى تركيز للثروة في يد القلة، أو تخلق المجال لسيطرة الرأسمال الأجنبي على مؤسسات الدولة.

٣. الفساد والمحسوبية الممكن أن تؤثر على إرساء القطاعات العامة على من لديهم الدعم السياسي، وليس على أصحاب المؤهلات الأخلاقية والمالية والإدارية.

المطلب السادس: الرقابة على عمليات الخصخصة في لبنان

إن الرقابة على المال العام يمارسها ديوان المحاسبة باعتباره محكمة إدارية تتولى القضاء المالي مهمتها السهر على الأموال العمومية والأموال المودعة في الخزينة وذلك:

● بمراقبة استعمال هذه الأموال ومدى انطباق هذا الاستعمال على القوانين والأنظمة المرعية الإجراء.

● بالفصل في صحة وقانونية معاملاتها وحساباتها.

● بمحاكمة المسؤولين عن مخالفة القوانين والأنظمة المتعلقة بها.

ولكن تجربة ديوان المحاسبة اللبناني في الرقابة على عمليات الخصخصة لا تزال محدودة وقد تمارس هذه الرقابة طبقاً لنوع الخصخصة المعتمدة.

ففي حقْل الشركات المختلطة أوَلت المادة الثانية، الفقرة الخامسة من قانون تنظيم ديوان المحاسبة الصادر بالمرسوم الاشتراعي رقم ٨٢ تاريخ ١٦/٩/٨٣ وتعديلاته.

الديوان سلطة رقابية على الشركات التي للدولة أو البلديات أو المؤسسات التابعة للدولة أو للبلديات علاقة مالية بها عن طريق المساهمة أو المساعدة أو التسليف على أن يُحدّد مدى الرقابة وأصولها بمرسوم يُتخذ بمجلس الوزراء بناءً على اقتراح الوزير المختص وبعد استطلاع رأي ديوان المحاسبة، وتفيد المادة المذكورة أنه إلى أن يصدر هذا المرسوم تبقى أحكام المرسوم رقم ١٣٦١٥ تاريخ ٢١/٨/٦٣ سارية المفعول، وبمقتضى هذا المرسوم فإن سلطة الرقابة التي يمارسها الجهاز تقتصر على مراقبة المساهمة المعطاة من الدولة والتثبت من استعمالها وفقاً للغاية المخصصة لها.

أما في ما يعود للرقابة على الشركات الخاصة التي تدير مرافق عامة بطريقة الـ BOT فإن صلاحية ديوان المحاسبة بالرقابة عليها تستند لكونها مصدر لإيرادات تدخل في خزينة الدولة، وإن رقابة الديوان في مرحلة إبرام المشروع تستهدف وضع ضوابط تحفّز مشاركة القطاع الخاص والعمل على منع الاحتكار وتأمين

حقوق المواطنين بإقامة تناسب بين مستوى الخدمة وجودتها مع السعر الذي يتحمّله وتأمين حقوق الخزينة.

أما في المرحلة اللاحقة للرقابة على التخصصية فإنها تتمثل بمتابعة تنفيذ بنود العقد وتحديد مدى الالتزام به وذلك من خلال متابعة التقارير الواردة من الجهات الإدارية المعنية. وعند صدور القانون رقم ٢٢٨ (تنظيم عمليات الخصخصة) حدد في مادته الثانية هيئات رقابية مستقلة تنشأ لهذه الغاية وقد جاء في المادة المذكورة ما يلي:

يتم تحويل ملكية المشروع العام أو إدارته إلى القطاع الخاص بقانون تنظيم القطاع الاقتصادي المعني بعملية التحويل، ويحدد القانون أسس تحويل ومراقبة المشاريع المخصصة، عن طريق هيئات رقابية مستقلة تنشأ لهذه الغاية. ويحدد كذلك المدة القصوى للتراخيص الممنوحة للعمل في القطاع وفقاً لأحكام المادة ٨٩ من الدستور.

الخاتمة:

تحدّث هذا الفصل عن واقع الخصخصة في الاقتصاد اللبناني من خلال دراسة ميدانية مختصرة، حدّدت مظاهر الخصخصة في لبنان وواقع القطاعات الاقتصادية، والأسباب والدوافع والأهداف

التي تسعى إليها الحكومة اللبنانية لتنفيذ برامجها في هذا المجال، كما تكلم عن العوائق والصعوبات الممكن أن تعترضها بذلك، وحدد الأساليب الرقابية الممارسة في الرقابة على تنفيذ عمليات الخصخصة.

المبحث الخامس: المفاهيم الأساسية للبنية التحتية والتجربة اللبنانية في إنشاء وتنظيم شبكة الهاتف الخليوي - دراسة ميدانية:

بعد انتهاء الحروب المشؤومة في لبنان منذ عام ١٩٧٥ م وحتى عام ١٩٩٠ م، بدأت الحكومة اللبنانية معالجة التدمير الكبير والمركز للبنية التحتية، لمساعدة الاقتصاد الوطني على النهوض والنمو، وخاصة القطاعات الخدماتية التي تشرف عليها الدولة، كالكهرباء والماء والاتصالات السلكية واللاسلكية والطرق والصحة العامة والنقل، حتى أن التقديرات الأولية لأضرارها حددتها الدراسات الأولية إلى ما يفوق ٥ - ٨ مليارات دولار وفي ظل عدم إمكانية الدولة إعادة تأهيل واستصلاح وتحديث هذه القطاعات الحيوية، بفعل تضائل الموارد اللازمة لتمويلها، حاولت الدولة الاعتماد على المساعدات الدولية من عربية وأجنبية لتحقيق إعادة ترميم وإنشاء ما دمرته الحروب، لكن تبين أن الكلفة كبيرة جداً، وإن تلك المساعدات لا تكفي

لإعادة إعمار البنية التحتية الأساسية الأولية هذا من ناحية.

ومن ناحية ثانية يُلاحظ أن أداء المؤسسات العامة سواء من الناحية الإنتاجية أو من الناحية المالية غير ناجح، وإن الإحصاءات تدل على عجز القطاع العام المالي المستمر وبمعدلات متسارعة، حيث ازداد من حوالي ٩٦ مليون دولار في العام ١٩٧٥ م إلى أكثر من مليار دولار خلال فترة ١٩٨٢-١٩٨٥ م بينما أصبح حالياً يتجاوز الكثير، والسبب عائد أساساً إلى تضائل حجم الواردات العامة مقارنة مع حجم الإنفاق العام غير المجدي والذي هو في تزايد مستمر.

إن هذا الوضع المالي المتدهور للقطاع العام أدى إلى تزايد في معدلات نمو الدين العام الداخلي والخارجي للدولة، وتشير التقديرات الأولية إلى أن إعادة تأهيل وتفصيل القطاع العام قد يحتاج أيضاً إلى أكثر من خمسة ملايين دولار أميركي، وهي بلا شك كلفة كبيرة جداً، وبالتالي يُعتبر القطاع العام في لبنان وفي ظل هذه الظروف الراهنة، يعاني من ضعف كفاءته الإنتاجية وأدائه المالي غير الناجح وحاجته إلى محاولة وضع أية حلول ممكنة، ومن هنا جاء طرح موضوع تحويل القطاع العام إلى قطاع خاص كحل رئيسي يساعد الدولة على تحسين الكفاءة الإنتاجية، وبالتالي

تطوير الوضع المالي، وقد تحتاج عملية التحويل هذه إلى تأمين الموارد المالية اللازمة لإعادة إعمار القطاعات الخدمية العامة الأساسية ولا سيما البنية التحتية عن طريق الاعتماد على القطاع الخاص في تمويلها.

المطلب الأول: تعريف البنية التحتية وخصائصها

يُقصد بالبنية التحتية كل المنشآت والأجهزة في الأشغال العامة كالطرق والجسور والمطارات والخدمات العامة والكهرباء والماء والمواصلات السلكية واللاسلكية، وتُقدَّر الاستثمارات السنوية في البنى التحتية في مجموع الدول النامية بنحو مئتي مليار دولار أميركي⁽¹⁾، فخصصة تلك القطاعات في هذه الدول يحتاج إلى عملية مالية ضخمة تتطلب التحضير الجدي والعملية لإنجازها.

وعلى الرغم من وجود بنى أساسية جيدة نسبياً، إلا أنها لن تكفي الحاجات المستقبلية مع ازدياد انتشار عملية التنوع الاقتصادي وتوسع الرقعة الانتاجية، وعند التفكير الجدي في تحسين الوضع الاقتصادي والمالي لأي دولة من الدول عليها البدء في خلق الاستثمارات المجدية وفي الوقت المناسب، ولتعجيل عملية الإنقاذ المالي المتبعة حالياً، تُحبذ معظم

الدول الاستثمار في البنية التحتية أولاً أكثر من الاستثمار في القطاعات الاجتماعية لأن النتائج الأولى تظهر بسرعة في حين إن الاستثمارات في قطاعات التعليم والصحة مثلاً لا تظهر فوائدها إلا بعد أجيال عدة.

إن نقل عملية الاستثمارات في البنى التحتية إلى القطاع الخاص يُريح الدولة من مشاكل مهمة ويعطيها الوقت للاهتمام بالقطاعات الاجتماعية وتتابع مجرياتها من قرب.

ولعل ما تميّز به مشاريع البنية التحتية من غيرها من المشاريع في الماضي هو ملكيتها بالكامل للقطاع العام، ما يميّز هذه الملكية ببعض الخصائص الواجب أخذها في الاعتبار عند تناول موضوع مشاركة القطاع الخاص في تمويل وتنفيذ هذه المشاريع: نظراً لخصائص الاحتكار الطبيعي لمشاريع البنية التحتية، يجب على الدولة حماية المستهلكين من تجاوزات محتملة من طرق المحتكر.

بعض مشاريع البنية التحتية تُعتبر ذات أهمية استراتيجية.

بعض الشبكات الخاصة مثل شبكات الاتصالات أو شبكات الكهرباء قد تكون غير منسجمة، وتتسبب في ازدواجية العمل والمعدات وبالتالي زيادة في التكاليف.

(1) دراسة للأستاذ لويس حبيقة.

عادةً ما تكون هذه الخدمات غير قابلة للتصدير، وبالتالي تُحدد أسعارها بالسوق المحلي، وإيراداتها تكون بالعملية المحلية، ما قد يجعل من الصعب جذب مستثمرين أجانب نظراً لمخاطر السوق المحلي وسعر الصرف ومخاطر التحويل.

عادةً ما تكون شركات البنية التحتية كبيرة الحجم، تتطلب استثمارات أولية ضخمة وتكون إيراداتها ضئيلة في السنوات الأولى، كما أنها تتميز بفترات استرداد طويلة، لذلك يُجعل من الصعب تمويل هذه المشاريع ما يؤدي إلى طلب المستثمرين من الدولة تقديم ضمانات بالنسبة إلى الإيرادات المستقبلية.

يُعتبر توزيع المخاطر المتعلقة بهذه المشاريع بين الدولة والقطاع الخاص مسألة مهمة للمستثمرين للمشاركة في إنجازها مع ضمان تحقيق عائد كاف على رأسمالهم يسمح لهم بتغطية تكاليفهم وتحقيق ربح معقول.

وانطلاقاً من هذا الواقع تُعتبر خصصة البنية التحتية في لبنان في ظلّ الوضع الإداري المعروف أمراً يدعو إلى التفكير، ويجب التحضير له جدياً للحصول على فوائد تساعد في تحسين الأوضاع الاقتصادية المحلية وليس العكس.

المطلب الثاني: الطرق التي اعتمدت في تنظيم وإنشاء الهاتف الخليوي في لبنان

تنفيذاً لسياسة الحكومة الهادفة إلى تلبية حاجات لبنان في مختلف حقول الخدمات العامة، ومنها تحسين الأداء وتطويره في حقل المواصلات السلوكية واللاسلكية، وضعت خطة شاملة للنهوض بالمرفق الهاتفي وتعميمه على المناطق اللبنانية كافة⁽¹⁾. تركزت هذه الخطة على مشروعين رئيسيين:

الأول: يتعلق بتأهيل وتحديث وتطوير وتوسيع الشبكة الثابتة الحالية لتصل سعتها لغاية مليون خط هاتفي.

والثاني: يتعلق بإنشاء نظام راديو خليوي لسعة خمسمئة ألف خط.

المقصد الأول: بالنسبة لمشروع تأهيل وتوسيع وتعميم شبكات الهاتف

إنّ الوزارة بالتنسيق مع مجلس الإنماء والإعمار أعلنت تأهيل مسبق للمتعهدين الذين يرغبون في الاشتراك في المناقصة العالمية ولديهم الشروط والمؤهلات اللازمة فور الإنتهاء من عملية التصنيف، يُعلن المناقصة العالمية لتقديم العروض وفقاً للشروط الفنية والإدارية والمالية

(1) إيلي عيد، المدير العام للإنشاء والتجهيز السابق.

الموضوعة لهذه الغاية والتي أُنجزت في حينه.

المقصد الثاني: بالنسبة إلى مشروع النظام الراديو الخليوي المتطور

صدرَ المرسوم رقم ٣٠٥٨ تاريخ ٤ / ١٩٩٣ م يقضي بإحالة مشروع قانونٍ معجلٍ للمجلس النيابي، يتعلق بالإجازة لوزارة البريد والمواصلات السلكية واللاسلكية إجراء استدرجٍ عروض عالمي لتحقيق المشروع المذكور.

وبالفعل أجاز القانون رقم ٢١٨ تاريخ ١٣ / ٥ / ١٩٩٣ م لوزارة البريد والمواصلات السلكية واللاسلكية إجراء استدرج عروض عالمي لتحقيق نظام الراديو الخليوي المتطور الذي يعمل بنظام GSM Globale Systems for Mobile Communications.

وذلك باعتماد مبدأ التمويل الذاتي BOT تشييد، تشغيل، تسليم على أساس دفتر شروطٍ خاص يوضع لهذه الغاية، ويُحدد فيه الشروط الفنية والإدارية والمالية والاستثمارية، وقد فوّضَ مجلسُ الوزراء بقرار رقم ١٧ تاريخ ٢ / ٢ / ١٩٩٤ م^(١)، وزير البريد والمواصلات السلكية واللاسلكية اعتمادَ شركتين منافستين في

سوقٍ حرّةٍ لبنانية في خدمة الهاتف الخليوي شرط أن يتمّ تغطية البث كامل الأراضي اللبنانية بالشروط المفروضة في دفتر الشروط الخاص، بعد ذلك طرحت الإدارة دفترَ شروطٍ خاص وأجرت استدرج عروض عالمية لتنفيذ هذا المشروع على أساس التمويل الذاتي BOT، وتشكّلت لجنة خاصة لدرس العروض المُقدّمة، فوضعت تقريرها بالنتيجة، وأقرّ مجلسُ الوزراء نتيجة استدرج العروض، وأُسندَ التنفيذ إلى شركتين أجنبيتين هما شركة تليكوم فنلندا، وشركة فرانس تليكوم، وتمّ توقيع العقد بعد موافقة ديوان المحاسبة في نطاق الرقابة الإدارية المسبقة، وحُدّت مدة العقد بعشر سنوات قابلةً للتجديد سنتين بموافقة الشركتين. وإنّ نظام GSM مُعتمدٌ في بلدان أوروبا كافة وأغلب الدول العربية وكذلك عدة بلدان الشرق الأقصى وإفريقيا وأميركا الجنوبية، وله ميّزات خاصة وإمكانات متعددة والمحافظة على سرّيّة المخابرة والتخابر.

ولا تقتصرُ إمكانياته على التخابر الخليوي فقط، بل تتعدّى ذلك إلى التخابر الهاتفي الثابت، وتأمين مخابرات فاكسية وتبادل تلكس، بالإضافة إلى خدمات

(١) محضر جلسة مجلس الوزراء المنعقد في ٢ / ٢ / ١٩٩٤.

متعددة ناتجة عن تقديم خدمات أخرى مندمجة ومتطورة^(١).

الأراضي اللبنانية كافة في القسم الأول من التنفيذ.

ولقد نصَّ العقد على أن جميع نفقات التأسيس والتشغيل والصيانة ومختلف التكاليف اللازمة على عاتق الشركتين باعتبار العقد منظم على قاعدة مبدأ التمويل الذاتي BOT إنشاء استثمار وتحويل الملكية للدولة في ما بعد.

أما القسم الثاني فيتعلق بتوسيع رقعة الانتشار للشبكة الخليوية لتغطي كامل الأراضي اللبنانية لغاية ٩٥٪ كتغطية جغرافية و ١٠٠٪ كتغطية سكانية بالإضافة إلى زيادة عدد الخطوط إذا دعت الحاجة وفقاً للعرض والطلب، حيث نصَّ أحد شروط العقد أنه على كل شركة من الشركتين أن تغطي كل الطلبات مهما بلغ عددها وبعبارة أخرى أنه لا خوف من عدم توفر الخطوط الخليوية لمن يريد الإشتراك.

وبالتالي فإنَّ المشروع لا يرتب أية كلفة على الخزينة اللبنانية بل سوف يحقق لها مردوداً سنوياً صافياً بالإضافة إلى الضرائب والرسوم المعمول بها في الأنظمة اللبنانية.

ثم دفع الحد الأدنى الواجب أن تتقيد به الشركتين إلى مئة ألف خط لكل شركة على أن يتم تقديم أفضل الخدمة والتقييد بالشروط الآتية:

ولقد لحظت شروط العقد أنه على كل شركة التقيد بمهل محددة لإنجاز المرحلة الأولى للمشروع بحيث لا تتعدى بقسميها اثني عشر شهراً من تاريخه، وعلى كل شركة خلال فترة ستة أشهر أن تقوم بإنشاء الشبكة الخليوية لتغطي ٧٠٪ من الأراضي اللبنانية انطلاقاً من المدن الرئيسة ومراكز الاضطياف والقرى الكبرى في مختلف المناطق، وذلك بسعة ثلاثين ألف خط لكل شركة أي على الشركتين أن تؤمن خلال فترة ستة أشهر اعتباراً من تاريخ توقيع العقد ستين ألف خط موزعة على

- رسم اشتراك لوضع الخدمة لكل مشترك \$٥٠٠
- رسم اشتراك شهري \$٢٥
- المخابرة الداخلية بين هاتفين خليويين ٥ سنت
- المخابرة الداخلية بين هاتف خليوي وعادي وبالعكس ٥ سنت + ١٠ ل.ل.
- بالإضافة إلى المخابرة الخارجية بين هاتف خليوي وخارجي حسب ما تحدده

(١) مجلة البيان الاقتصادي، العدد ٢٧٤ تاريخ ٢٥/٩/١٩٩٤ ص ٣٢.

قيمة رسم الإشتراك لكل خط مئة \$ دولار أميركي.

كما حدّد العقد أيضاً على كل شركة خلال فترة تنفيذ المشروع أن تعمل على تدريب وتأهيل الموظفين والعاملين في الوزارة لتمكينهم من إدارة وتشغيل وصيانة منشآت وتجهيزات المشروع بعد تسليمه للوزارة في ما بعد من دون مقابل، ومن دون أي عبء مالي أو تعويض علماً أنّ الشركتين ملتزمين بتطور النظام تبعاً وتحديثه ليصار إلى تسليمه للوزارة صالحاً للعمل.

المطلب الثالث: المزايا التي تمّ تحقيقها من خلال إنجاز الهاتف الخليوي

إنّ تنفيذ مشروع الهاتف الخليوي قد حقق مجموعة من المزايا ولعلّ من أهمّها ما يلي:

المقصد الأول: المزايا المحققة في سبيل تقديم الخدمة

ما لا شكّ فيه أن خدمات الهاتف في لبنان تحسّنت وبشكل ملحوظ وكبير وملموس في الفترة الأخيرة، ويعود الفضل في تحسين هذا الأداء إلى عوامل عدّة منها إنجاز المشاريع التي أعادت تكوين البنية التحتية في قطاع الاتصالات، وخاصة تطوير وتصميم الشبكة الثابتة (PSTN)، إضافةً إلى تعزيز وسائل الاتصال الدولي

التسعيرة في وزارة المواصلات السككية واللاسلكية وكل هذا أيضاً عرضة للمنافسة. علماً أنّ التعرّف أو الرسوم التي فرضتها الوزارة كحدّ أقصى ترمي إلى توفير هذه الخدمة لكل مواطن من دون تمييز ولا مجال لحصرها بفتة معينة أو بطبقة من دون أخرى.

أما بخصوص حصّة الدولة من الإيرادات فإنّها سوف تتحقّق من حيث المبدأ من خلال مردود سنوي تدفّعه الشركتين كما حدّد في العقد على الشكل الآتي:

يتمّ دفع نسبة مئوية من قيمة رسم التأسيس ورسم الصيانة والخدمات وكذلك من قيمة المكالمات.

ويتمّ دفع أيضاً حصّة من الإيرادات غير الصافية طيلة مدة الاستثمار والتي لن تزيد عن إثني عشر وهي على النحو الآتي:

● ٢٠٪ من الفترة الممتدة من سنة إلى ثماني سنوات.

● ٤٠٪ من الفترة الممتدة من السنة التاسعة إلى السنة العاشرة.

● ٥٠٪ من الفترة الممتدة من السنة الحادية عشرة إلى السنة الثانية عشرة، وذلك إذا وافقت الشركتان على تجديد العقد لمدة سنتين إضافيتين.

كما نصّ العقد على دفع للوزارة من

عن طريق إنشاء كابل بالألياف البصرية، وفي الوقت نفسه إنشاء شبكة الهاتف النقال الخليوي وبالتالي لا يمكن أن يكون تحسين هذا الأداء في تقديم خدمات الاتصالات ناتج فقط عن إنشاء الهاتف الخليوي بل نتيجة للقيام بمجموع هذه العوامل مع بعضها البعض.

المقصد الثاني: المزايا المحققة في سبيل خلق فرص عمل

تشير الدراسات أن عدد الشركات المسوَّقة للنظام الخليوي الفرنسي قد بلغت حوالي أربعين شركة كما لم يذكر عن عدد الشركات المسوَّقة للنظام الخليوي الفنلندي، لكن لاحظ المواطنون وخاصة رجال الأعمال أن مسوَّقي الهاتف الخليوي لا يُحصى عددهم، ففي اليوم الواحد تستقبل الشركات عشرات الأشخاص والوسطاء، وقد جاؤوا يعرضون عليهم الاشتراك بالهاتف الخليوي، أما لدى مجموعة ميقاتي أو لدى مجموعة دلول^(١) علماً بأن تسويق الهاتف الخليوي أمرٌ مربح حيث عمولة بيع الخط الواحد حوالي ثلاثين دولار، وعمولة بيع آلة الهاتف الواحدة حوالي مئة دولار، وقيل إن بعضهم يتقاضى عمولة أكثر بكثير من الرقم المشار إليه أعلاه. هذا في المرحلة الأولى، أما في

المراحل اللاحقة، فقد ظهر العديد من المؤسسات والشركات التي تساهم في عملية بيع الأجهزة الخليوية وصيانتها وتقديم خدمات قطع الغيار الضرورية اللازمة لها.

المقصد الثالث: المزايا المحققة على خزينة الدولة

كما ورد سابقاً لقد نصَّ العقد على أن جميع نفقات التأسيس والتشغيل والصيانة ومختلف التكاليف اللازمة هي على عاتق الشركتين على اعتبار أن هذا المشروع سيُنْفَذُ باعتماد التمويل الذاتي BOT وبالتالي فإن المشروع لا يُرتب أيّة كلفة على الخزينة اللبنانية بل سوف يحقق من حيث المبدأ مردوداً سنوياً لا بأس به للخزينة^(٢).

المطلب الرابع: المشاكل التي اعترضت الهاتف الخليوي

الواقع بعد وضع مشروع الهاتف الخليوي موضع التنفيذ تبين أن الشركتين قد أخلتا ببنود العقد وفي أكثر من ناحية، الأمر الذي رتب خسائر على الخزينة:

- فبالنسبة إلى عدد المشتركين لوحظ أن هناك زيادة في عدد المشتركين في المرحلة الأولى عن العدد المحدد ممّا

(١) أصحاب الشركتين.

(٢) الخزينة هي عبارة عن مجموع النقد المالي للدولة.

- أدّى إلى ضياع فرص تخاير كثيرة بسبب عدم إمكانية التخابر نظراً لكثرة الاتصالات وعدم إمكانية استيعاب الشبكة ما رَبَّب ضياعاً في واردات الخزينة في الوقت المحدد لها.
- بالنسبة إلى التغطية الجغرافية فإنّ هذه التغطية حصل تأخير فيها في المرحلة الأولى وتذرعت الشركتان بوضع لبنان الجغرافي مع العلم أنّهم ومنذ البداية كانوا على علم بهذا الوضع والذي حصل هو وضع الهاتف الخليوي بالخدمة قبل إنجاز العمل الأساسي المحدد في دفتر الشروط، وتم تسويقه قبل أوانه وبشكل مبالغ فيه ما سبب هوة واسعة بين توقعات المشتركين وبين الواقع الفعلي، وقامت الشركتان بتوظيف أموال المشتركين وليس أموالهما الذاتية والتي بلغت بمعدل ثلاثين ألف مشترك لكل شركة، أي مبلغاً وقدره (٢٣٠ ألف + ٣٠ ألف) $\times ٥٠٠ = ٣٠٠٠٠٠٠٠$ دولار أميركي استعملته الشركتان في إتمام عملية المحطّات وتقوية الشبكات حتى شهر تموز والتي كانت من المفترض إنجازها قبل شهر شباط ومن مالهما الذاتي وليس من مال المشتركين.
- بالنسبة إلى دفع حصة الخزينة من رسوم الاشتراكات كان من المفترض دفعها في الشهر الذي يلي شهر تحصيل الإيرادات إلا أنّهما لم تقوما بتسديد هذه الحصة في الوقت المحدد شهر أيار، بل حصل ذلك في شهر حزيران، وبالتالي استثمرت الشركتان أموال الخزينة وأموال المشتركين معاً.
- بالنسبة إلى قيمة حصة الخزينة من رسم التأسيس حُدّت بنسبة ٢٠٪ من قيمة رسم الاشتراك والمحدد بـ ٥٠٠ \$ ممّا يُؤكّد أنّ حصة الدولة تبلغ ١٠٠ \$ من كلّ اشتراك، لكن ادعت الشركتان أنّهما كانتا تدفعان مبلغ ١٠٠ \$ للذين يقومون بتسويق الاشتراك بالهاتف الخليوي، وبالتالي هما لم يقبضا فعلياً سوي ٤٠٠ \$، وبالتالي حصة الخزينة هي فقط ٨٠ \$ بدلاً من ١٠٠ \$ وأدّى هذا الأمر إلى خسارة الخزينة بمبلغ ٢٠ \$ عن كلّ مشترك.
- إضافةً لذلك، فقد عمدت الدولة في الفترة الأخيرة إلى استخدام الهاتف الخليوي كوسيلة لتحصيل الضريبة عن طريق فرض رسم إضافي عليه^(١) يتحملها المشترك ما رفع كلفة التخابر إلى الضعف من قيمتها الأساسية عند تطبيق هذه

(١) بموجب مرسوم رقم ٥٠٢ تاريخ ٢١/٤/١٩٩٩ قيمة الرسم بمعدل ٦٪ من الدولار الواحد.

الخدمة بكلفةٍ يستطيعُ المستهلكُ تحمّلها وإلاّ سوف يتخلّى عنها.

كما لا يجوزُ استخدام الهاتف الخليوي كوعاءٍ من أوعية الضريبة الوفير، لأنّه سوف يعكسُ ذلك عدم استخدامه في التخابر، وبالتالي سوف يؤدي إلى تقليص الواردات الممكن أن تكون الوعاء الأفضل في الحصول على الضريبة عن طريق التصريح عنها بواسطة دائرة ضريبة الدخل وليس عن طريق المنبع مباشرة.

والحقيقة لكي يحقق الهاتف الخليوي الفعالية والغاية المرجوة منه لا بدّ من حصول بعض التعديلات في نظامه وإلغاء القيود المفروضة عليه ومنها مثلاً:

● إلغاء الضريبة المفروضة على قيمة التخابر والبقاء فقط على إخضاع الشركتين إلى التصريح عن ضريبة الدخل مع الرقابة اللازمة للتحقق من قيمة الواردات المصرح عنها فعلاً.

● العمل على تخفيض قيمة الاشتراك الشهري وجعله عشر \$ مثلاً بدلاً من خمسة وعشرين \$ وبالمقابل رفع بدل قيمة دقيقة التخابر إلى عشرين سنتاً، الأمر الذي سوف يؤدي بالتأكيد إلى تخفيض الضغوط على الشبكة نظراً لارتفاع سعر دقيقة التخابر ما يؤدي إلى نجاح مستوى المخابرات، وبالتالي تحسين أداء الشبكة، الأمر الذي يؤدي

الضريبة، أدّى إلى تهرب العديد من المشتركين من هذه الخدمة عن طريق تقليل التخابر باستخدام وسيلة الهاتف الخليوي أو حتى التهرب النهائي منها عن طريق بيع الخط أو إلغائه.

وفي الفترة الأخيرة أيضاً لجأت الشركتان إلى استخدام نظام البطاقة المدفوعة سلفاً ما ساهم في هروب الكثير من المشتركين إلى اعتماد هذا النظام للتهرب من رسم الإشتراك الذي يبلغ خمسمئة \$ عند الإشتراك وخمس وعشرين \$ لكل شهر كما ساهم في وضع خطوط كثيرة لا يمكن حصرها أو إحصائها بحجة أنّ الخط يباع إلى فترة محددة ثم يلغى، لكن مع هذا النظام تم استخدام نظام لاحق هو تعبئة هذه الخطوط بواسطة بطاقات متوفرة بالسوق، أو بواسطة المندوبين للشركة عن طريق التعبئة المباشرة.

المطلب الخامس: الحلول والمقترحات الممكنة لحل أزمة الهاتف الخليوي

من المفترض أن يكون مشروع الهاتف الخليوي مشروعاً يقدم خدمة عامة ولا يسعى إلى تحقيق الربح فقط، بغض النظر عن تقديم أفضل الخدمة لذلك يُفترض وضع قيود وضوابط لتقديم الخدمة الأفضل مع حرية المنافسة في الحصول على الأكثر من المشتركين، مقابل تقديم

في النهاية إلى زيادة الموارد المالية والأرباح من خلال تحسُّن الأداء الوظيفي للشبكة لا عن طريق زيادة عدد المشتركين بشكلٍ عشوائي (نظام الدفع المسبق) الأمر الذي يُعطل الأداء ويؤدي إلى تخفيض الإيرادات والموارد المالية للخرينة.

الخاتمة

حاولَ هذا المبحث تقديمَ الايضاحات الضرورية في اعتماد معظم الدول النامية والمتقدمة على مشاركة القطاع الخاص في إنشاء وتجديد البنية الأساسية والتحتية محاولاً توضيح الأطر الممكن استخدامها والتي يرغبُ القطاع الخاص المشاركة في تنفيذ هذه المشاريع من خلال وضع إجراءاتٍ لتنظيم منح امتيازات تقديم خدمات البنية الأساسية مع إقرار سياسة منسّقة في شأن تقديم المساندة الحكومية (ضمانات، إعانات، تحسينات في الإيرادات) الخ... ووضع ضوابط تحفظ حقَّ المستهلك نظراً للطبيعة الاحتكارية لهذه المشاريع.

ثم تناولَ تجربة الدولة اللبنانية في تشييد وبناء مرفق الهاتف الخليوي وحددَ الطرق التي اعتمدها عليها، وبينَ المزايا والعوائق التي واجهت إنجازَ هذا المشروع.

الإستنتاجات

تُعتبرُ الخصخصةُ في لبنان توزيعاً للموارد وفعاليةً لإدارة المؤسسات العامة

في ظلّ التطور الاقتصادي اللبناني حيث يتمُّ فرض الخصخصة بنطاقٍ واسعٍ لأنَّ الدولة رَوَّجت لمفهوم الخصخصة، بغية جَنِي المداخل الكبيرة والحدُّ من العجز في الموازنة، وهي تشكلُ اليوم توجُّهاً وتحدياً جديداً للبنان، الذي لا يزال يعاني نتائج الحرب الأهلية.

لا يمكنُ للقطاع العام الاستمرار في إدارة المرافق العامة، من دون تدخل القطاع الخاص. فالشراكة الحقيقية بين القطاعين ستساهم في تحسين الخدمات العامة، والارتقاء الى المستوى المطلوب.

وبالتالي يجب أن يتدخل القطاع الخاص بشكل فعال، حيث الموارد البشرية والطاقات العلمية. وعليه، فإنَّ التأخير، أو التردد في خصخصة بعض القطاعات الهامة في لبنان، سيحرِّمُ الخزانة اللبنانية من عائدات هامة، يمكن أن تساعد في ضبط الدين العام. كما أنَّها ستكونُ مفتاحاً لبدء عملية نموٍّ صحيحة في لبنان، حيث ستساهم في تشغيل المئات من الشباب، وخلق فرص عمل جديدة، للكفاءات العلمية والكوادر البشرية.

ومن خلال تحليل هذه الدراسة تبين وجود علاقة ذات دلالة مالية واقتصادية واجتماعية بين الخصخصة وإدارة المؤسسات العامة حيث تساهم الخصخصة برفع مستوى الكفاءة والتقنية والفعالية في

- أداء الخدمات وعلية تُعتبر هذه التقنية أحد أدوات الإصلاح الإداري و المالي والهيكلية وحلاً للعديد من المشكلات التي تعاني منها المؤسسات العامة اللبنانية بما تشمل الرتبة والبيروقراطية للوصول إلى جني الأموال الفائضة للخرينة وتقليص الأعباء وذلك كله يبقى رهناً لفعالية الشركات التي تتولى تقنية الخصخصة من دون تكبيد الخزينة عجزاً إضافياً ولكن على الرغم من الإصلاح الإداري المذكور تحت مفهوم الخصخصة لا بد من إعادة إصلاح السياسات المالية و بالتالي هندستها لإكمال صورة الإصلاح المرجو في المؤسسات العامة في لبنان.
- وجود القواعد الجيدة التي تحمي المستهلك من خلال ضمان التسعير العادل للسلع والخدمات المقدمة، وتعميق المنافسة في الأسواق، ومنع مظاهر الاحتكار كافة.
- الحصول على الدعم الدائم من المنظمات الدولية المشجعة لهذه السياسة ولاشك فيه، أن جميع هذه الخطوات قد تساهم في نجاح سياسات الخصخصة لكن هنالك موجة عالمية معادية للقطاع العام ودوره، بل وتحمله مسؤولية معظم الأزمات التي عصفت بالاقتصاد الدولي. وهناك شبه اقتناع بأن القطاع العام يسيء في معظم الأحيان استعمال الأدوات الاقتصادية المتوافرة لديه، وبالتالي يجب نقل هذه الأدوات إلى القطاع الخاص الذي أثبت جدارة كبيرة غير قابلة للجدل في إدارة مصالحه. من هنا نشأت فكرة الخصخصة بأشكالها كافة والتي تناولها البحث في التفصيل، وعلى الرغم من صحة العديد من هذه الاتهامات ومن اتساع كبير لدور القطاع الخاص في العقود القليلة الماضية لدى أغلب دول العالم، إلا أنه يبقى من دون شك للقطاع العام دور أساسي يستفيد منه القطاع الخاص كي يزدهر ويحقق أفضل النتائج المالية، ولا بد من الاعتراف بهذا الدور الكبير

الخاتمة والتوصيات

لقد ركز البحث على ظاهرة المفهوم الجديد لدور الدولة الحديثة في ظل النظام العالمي الجديد (العولمة) من خلال البحث والسعي للإصلاح الاقتصادي والسير في اتجاه سياسات الخصخصة، وحدد أن القيام بنجاح هذه السياسة، يجب أن يكون بشكل تدريجي على اعتبار أن العملية معقدة للغاية وتنطوي على خطوات عدة يجب أخذها بالحسبان ومنها:

- الطاقة الاستيعابية للسوق.
- حالة التنمية في مختلف الأسواق.
- توفر الإطار القانوني والتشريعي الجيد في البلاد.

الباقي على القطاع العام وأهميته كي يستطيع القطاع الخاص القيام بالدور الجديد الملقى عليه، ويُفترض أخذها بالحسبان عند القيام في برامج التخصيص كي يبقى للقطاع العام الدور الأساسي في ذهن الناس باعتباره شريكاً في هذا المفهوم الجديد، وإنّ إفساح المجال أمامه للقيام بذلك ضمن جوٍّ من القبول والتعاون المستمر سوف يساعد على المساهمة في نجاح هذا الدور، والممكن تحديده بالمهام الرئيسية الآتية:

أولاً: اقتصاد المعرفة والتحديات المستقبلية الكبيرة سيفرضان على كل أفراد المجتمع المساهمة أكثر في زيادة كمية ونوعية الإنتاج الوطني. وإنّ عمل المرأة أكثر فأكثر في الإنتاج، سيفرض على الدولة الجديدة المساهمة في إيجاد الحلول الواقعية والنوعية لرعاية المسنين والأطفال. من هنا أهمية زيادة الإنفاق العام على تعليم وتدريب وتأهيل أفراد المجتمع كافة لتفهم الواقع الجديد والملقى على القطاع العام للقيام بهذا الدور الواسع والكبير.

ثانياً: اقتصاد المعرفة يبني على ركيزة أساسية وهي المعرفة بحد ذاتها ومن هنا على كل دولة أن تؤمن الأموال العامة الكافية وتنفقها نوعياً لإيجاد الوسائل الضرورية لخلق وتطوير المعرفة بأشكالها كافة.

ثالثاً: من الضروري أن تحسن الدولة أكثر القيام بدور تشريعي رئيسي في تخفيف القيود على عمل القطاع الخاص، إنّ هذا الدور سيقوم به القطاع العام من خلال تحديث القوانين والقواعد اللازمة لمتطلبات الاقتصاد الجديد.

رابعاً: في ظلّ العولمة الجديدة وصعوبة الرقابة على انتقال الأموال والخدمات والأشخاص، يجب أن يتعدّل دور القطاع العام للقيام بدور المراقب على أعمال القطاع الخاص، لكي يتأكد من جودة السلع والخدمات التي يقدمها.

خامساً: خوفاً من الكوارث النقدية الممكن أن تحصل، كما حصلت في السنوات القليلة الماضية في آسيا وأميركا اللاتينية وروسيا وغيرها.

هنا لا بُدّ لنا أن نُشدّد على الدور الرقابي المالي الذي يقوم به القطاع العام على المصارف وشركات التأمين ومعظم المؤسسات المالية والتي تساعد على تقوية شفافية القطاع المالي من خلال المراقبة ونشر المعلومات الضرورية كافة.

ونستنتج ممّا سبق أنّه لا يزال دور القطاع العام أساسي وكبير يجب المحافظة عليه وخلق فرص التوازن بينه وبين القطاع الخاص وبشكل أساسي للحصول على أفضل الرفاهية الممكنة لأفراد المجتمع كافة.

المصادر والمراجع

لائحة المراجع العربية:

أ- الكتب:

- ١ - الناشف، أنطوان، الخصخصة، منشورات الحلبي الحقوقية، لبنان، ٢٠٠٠.
- ٢ - حسين، خليل، السياسات العامة، بيروت، دار المنهل اللبناني، ٢٠٠٦.

ب- الجرائد والمجلات العلمية:

- ١ - أبو مصلح، غالب، الخصخصة في لبنان: انسحاب تدريجي للقطاع العام، جريدة الاخبار، ٢٠١٠.
- ٢ - الخطيب، زاهر، الخصخصة وأثرها في التنمية وإعادة البناء في لبنان، مجلة العرب والعولمة، ٢٠٠٥.
- ٣ - الحلبي، سمير، التخصيصية في لبنان، جريدة النهار، ٢٠٠٠.
- ٤ - بسما، دلال، الخصخصة: اطرها القانونية واثارها الاقتصادية، مجلة الدفاع الوطني، ٢٠١٠.
- ٥ - حبيقة، لويس، فرص الخصخصة في لبنان، جريدة الأنوار، ١٩٩٦.
- ٦ - رحومة، عبد السلام مسعود، تجارب الخصخصة واثارها في رفع الكفاءة الاقتصادية، مجلة العلوم الإنسانية، ٢٠٠٧.

- ٧ - عبد الكريم محمد، العقيد منهل، الخصخصة: المفهوم والأهداف والمبررات الاقتصادية، جريدة التجارة، ٢٠٠٥.
- ٨ - تاريخ مشاكل الهاتف الخليوي، مجلة البيان الاقتصادي، ٢٠٠٤.
- ٩ - تنظيم عمليات الخصخصة في الجمهورية اللبنانية، قانون رقم ٢٢٨، الجريدة الرسمية ٢٠٠٠.

ج- المحاضر والدوريات:

- ١ - دهال، رياض، مجموعة محاضرات تم القاها في المعهد العربي للتخطيط - الكويت خلال برنامج سياسات الخصخصة.
- ٢ - غادر، محمد، سياسة الخصخصة وتجربة لبنان في

- خصخصة الهاتف الخليوي، مجموعة محاضرات وأبحاث أقيمت في الجامعة اللبنانية.
- ٣ - الحاج، محمد، بحث اعد في معهد الدروس القضائية - قسم القانون المالي.
 - ٤ - الأسباب الموجبة لمشروع قانون الخصخصة المحال على المجلس النيابي والمقر بموجب القانون رقم ٢٢٨ - تنظيم عمليات الخصخصة.
 - ٥ - قانون تنظيم ديوان المحاسبة وتعديلاته رقم ٨٢ / ١٩٨٣.
 - ٦ - قوانين موازنة الدولة اللبنانية خلال مرحلة ١٩٩٤ وما بعد.
 - ٧ - محضر جلسة مجلس الوزراء المنعقد في ٢/٢ / ١٩٩٤.
 - ٨ - مرسوم رقم ٥٠٢ تاريخ ٢١/٤/١٩٩٩ قيمة الرسم الإضافي على الهاتف الخليوي.

د- المواقع الالكترونية:

- ١ - خليل، حسين، سياسات التخصيص، نقلا عن الموقع الالكتروني: www.blogspot.com
- ٢ - عبد الرضا، بلقيس، هل الخصخصة حل سحري لازمة الاقتصاد اللبناني، نقلا عن الموقع الالكتروني www.alaraby.co.uk.
- ٣ - محمود، ريمي، ماهية الخصخصة، نقلا عن الموقع الالكتروني: www.dailyfx.com
- ٤ - الخصخصة أهدافها وأنواعها، نقلاً عن الموقع الالكتروني: www.start.com

لائحة المراجع الاجنبية:

- 1 - United Nations conference on trade and development, Final report of the Ad Hoc working Group on comparative experiences with privatization to the trade and development Board, 1994.
- 2 - United Nations Conference on Trade and Development Comparative experiences with privatization; policy in sights and lessons learned, 1995.
- 3 - Riad Dahel "Project financing and risk analysis' API working paper" 9702, 1992.
- 4 - Moore, john "why privatize? Privatization principles problems and priorities, 1989.

العنف ضد المرأة

لبنى صقر

المشكلات العالمية التي يكاد لا يخلو منها مجتمع سواء وصف بالتقدم أو بالتخلف، كونه يشكل انتهاكاً لحقوقها الإنسانية والحريات الأساسية التي يجب أن تتمتع بها، وهو يُمارس عبر التاريخ بأوجه وأشكال مختلفة وكمظهر لعلاقات قوى غير متكافئة بين الرجل والمرأة وممارسته ضدها.

فالعنف ضد المرأة أضحى من القواعد الاجتماعية الحاسمة التي تفرض عليها التبعية للرجل وما ينجم عن ذلك من تداعيات وانعكاسات خطيرة على الأسرة والمرأة معاً، فهي في كل بقاع الأرض، تعيش يوماً خطراً التعرض للعنف، ما ليس له مثيل للرجال، ففي كل دولة من الدول يشكل العنف أو التهديد بالعنف عائقاً أمام الخيارات المتاحة للفتيات والنساء في شتى مجالات الحياة، سواء العامة منها أو الخاصة، في المنزل وفي المدرسة وفي مكان العمل وفي جميع أرجاء المجتمع.

يحدد العنف الخيارات المتاحة للمرأة

المقدمة

المرأة انعكاس لرجلها، وستكون مدهشة، وعلاقتك معها مدهشة، أنظر إلى امرأتك وستفهم من أنت، على الرغم من التقدم الهائل الذي حققه الإنسان في مجالات الحياة كافة، ومع ما يعيشه إنسان اليوم من تطور وتقدم لم يستطيعوا أن يهدوا السلام والمحبة إلى البشرية. ولا تزال الهمجية عالقة ومرتسخة في النفس البشرية وكأنها تأبى أن تنفض عنا ذلك الغبار. وعلى الرغم من تأكيد الأديان جميعاً والمذاهب الإنسانية على الرحمة والرفق بين بني البشر، وحجم الأضرار التي تتكبدها الإنسانية من جراء اعتماد العنف أداة للتخاطب، وعلى الرغم من أي إنجاز بشري يتوقف على ركائز الاستقرار والإلفة والسلام..... إلا أن الإنسانية لا تزال تدفع ضريبة باهظة من أمنها واستقرارها جراء اعتمادها العنف وسيلة للحياة والتخاطب.

يعد العنف ضد المرأة من أبرز

مباشرة عن طريق تدمير صحتها وتشويش حياتها، وتضييق مجالات نشاطاتها وتحطيم ثقفتها بنفسها وتقديرها لذاتها بهذه الطرق جميعاً، يعيق العنف مشاركة المرأة الكاملة في مجتمعنا، وتمكينها ويحول من دون تنميتها وتطورها.

أولاً: تحديد مفهوم العنف

العنف بمعناه الشامل هو ممارسة السلطة بشكل غير إنساني ليصل إلى حد الإيذاء الكبير على المستوى الجسدي واللفظي معاً، وغالباً ما تكون المرأة هي الضحية، إذ نادراً ما تأتي حالات العنف تجاه الرجل، وفق ما تشير إليه الوقائع أو الدراسات العلمية. ويدخل مفهوم العنف ضمن النطاق المؤسسي حيث تبين مظاهر العنف غير المباشر تجاه المرأة على مستويات العمل والتميز في الأجور والمناصب الوظيفية والمهنية والسياسية وعلى الصعيد الاجتماعي والثقافي وغيره.

عرّف الإعلان العالمي العنف بهدف(*) القضاء على العنف ضد المرأة والذي وقعته الامم المتحدة سنة ١٩٩٣ م أنه: أي فعل عنيف قائم على أساس الجنس ينجم عنه أو يحتمل أن ينجم عنه أذى أو معاناة جسمية أو جسمية أو جنسية أو نفسية للمرأة، بما في ذلك التهديد باقتراف مثل هذا الفعل أو الإكراه أو الحرمان التعسفي من الحرية،

سواء أوقع ذلك في الحياة العامة أو الخاصة^(١).

فكلمة عنف مقتبسة اصطلاحياً من الكلمة اللاتينية violents التي تعني إظهار عفوي تلقائي للقوة كرد على استخدام القوة المعتمدة.

أما سوسيولوجيا فهي تشير إلى فعل إيذاء معنوي أو مادي، لساني، يدوي، يمارس فردياً أو جماعياً، منتظماً أم غير منتظم وهو بشكليته النفسي والاجتماعي وبهدفه المعنوي (النيل من سمعة الآخر) والمادي (النيل من وجود الآخر) يضعها في مواجهة فاعل (فرداً أو جماعة أو مؤسسة) يتقصد العنف. وعليه يشير البعض إلى أن العنف الاجتماعي هو أي فعل مقصود أو غير مقصود يسبب إيلاماً جسدياً أو نفسياً لشخص آخر.

وفي اللغة العربية كلمة عنف تقتصر على نوع واحد من أنواع العنف المتعارف عليها اليوم، وهو العنف الجسدي، فقد جاء في القاموس «إن لفظة عنف مشتقة من مادة عنف ويقال عنف ب هأو عليه أي أخذه بشدة وقسوة، فهو عنيف»^(٢).

في اللغة الإنكليزية فقد حدد قاموس webster ١٩٩٧ «سبعة معان على الأقل لمعنى العنف، تتراوح بين المعنى الدقيق نسبياً والعام المرتبط بالحرمان من الحقوق عن طريق الاستخدام غير العادل

للسلطة أو القوة، مروراً بمعان أخرى تشير جميعها إلى الهجوم أو العدوان استخدام الطاقة الجسدية ورفض الآخرين بصورة مختلفة»^(٣).

ثانياً: تحديد مفهوم العنف ضد المرأة

إن مفهوم العنف ضد المرأة violence against women عرّف دولياً من قبل هيئة الأمم المتحدة سنة ١٩٩٣م أنه أي فعل عنيف قائم على أساس الجنس ينجم عنه أذى أو معاناة جسمية أو جسدية أو نفسية للمرأة. بما في ذلك التهديد باقتراح مثل هذا الفعل أو الإكراه أو الحرمان التعسفي من الحرية سواء أوقع ذلك في الحياة العامة أو الخاصة.

كما وتشير الوثيقة الصادرة عن المؤتمر الرابع للمرأة في بكين عام ١٩٩٥م إلى أن العنف ضد النساء، هو أي عنف مرتبط بنوع الجنس، يؤدي على الأرجح إلى وقوع ضرر جسدي أو جنسي أو نفسي أو معاناة للمرأة.

والجدير بالذكر انطلاقاً من التعريفات الواردة أن العنف الذي يمارس ضد المرأة في مجتمعنا يتميز بأشكال متعددة قد يكون لفظياً كفعل منظور أو رمزي موجه ضد المرأة يؤثر أو يحتمل أن يؤثر سلباً عليها باستخدام السبّ والشتم أو السخرية، قد يكون نفسياً أو ذهنياً لفعل منظور أو رمزي

يؤثر سلباً على المرأة من خلال جعلها تشعر أنها كائن ضعيف مخطيء، ومعيب يحتاج للتقويم والعقوبة في حالة الخطأ. وذلك باستخدام الازدراء والأحكام الدونية والحرمان العاطفي والتمييز والجندر والتجريح. كما وقد يكون العنف جسدياً كفعل أو امتناع عن فعل موجه ضد المرأة يؤثر أو يحتمل أن يؤثر على سلامتها الجسدية متمثلاً بالضرب بأشكاله المختلفة وبأدواته المتنوعة بالإضافة إلى الاعتداءات الجنسية أو الاغتصاب والختان والقتل.

فالعنف ضد المرأة هو «سلوك أو فعل موجه إليها يقوم على القوة والشدة والإكراه، ويتمس بدرجات متفاوتة من التمييز والاضطهاد والقهر والعدوانية، ناجم عن علاقات القوة غير المتكافئة بين الرجل والمرأة في المجتمع والأسرة على السواء والذي يتخذ اشكالا نفسية وجسدية ومتنوعة في الاضرار»^(٤).

ثالثاً: واقع العنف ضد المرأة

يشير الواقع وفق إحصائيات أن حالة العنف الممارس ضد المرأة تعود جذوره إلى الأصول الإنسانية الأولى التي تخضع إلى ثقافة كونية كلية تحكم السلوكيات الخصوصية للمجتمعات كافة، وتصنفها على أساس الجنس والتركيبية الجسمانية البيولوجية التي تسم الرجل بصفة العدائية

والسلطوية، والمرأة بالحكمة والاحتواء مستمدة دعائمها وتبريراتها من الثقافة الذكورية كبيئة حاضنة وراعية للنظام التمايزي المعنف.

تخضع المرأة بدورها إلى نظام طبيعى بيولوجي يحتوي ويستوعب منظومة الخلايا المتفاعلة ليعيد إنتاجها بشكل صامت، من هنا سادت بعض المفاهيم الشعبية التي تعطي الدور الخفي الفاعل للمرأة، على غرار نابليون بونابرت، الأم التي تهز السرير بيمينها تهز العالم بيسارها، وتؤدي بالتالي الدور السالب والمتلقي لكل الأعراف والمنظومات، غير أنّ التطور وانتشار مسألة العنف ضد المرأة على نطاق واسع، وفرق علم الاجتماع بين مظاهر العنف المختلفة.

لقد تطورت الأبحاث الجندرية التي طالبت بحقوق المرأة المساوتية مع الرجل، وتناول الباحثون أيضاً مظاهر العنف ضدها ضمن إطار الجنس الواحد، وانتقدوا كيفية تعاطي المجتمع مع مظاهر العنف لجهة التدخلات السياسية والقوانين الرسمية التي تسهم في تطوير الواقع الأنثوي على المستوى المطلوب.

كذلك اهتم بعض الدارسين بواقع العنف ضد الأنثى خلال فترات الحرب وما يتم ممارسته من إجحاف بحقها وبالصرع السياسي، بهدف بناء أفكار وطروحات

عامة، حاولوا دمجها في نظريات اجتماعية متخصصة في العلوم المتفرعة.

لم تؤثر المطالبة بحقوق المرأة منذ منتصف القرن الماضي في تغيير واقعها الاجتماعي والمهني والسياسي في المجتمع المعاصر خاصة في ما يطال مظاهر العنف الممارس ضدها. وتشير الأرقام الإحصائية التي ذكرناها في سياق هذه الورقة البحثية إلى الواقع التمييزي وغير العادل، الذي لا تزال تعاني منه المرأة في مجتمع يعتبر من أكثر البلدان تطوراً.

إن المفاهيم المعاصرة لدور كل من الرجل والمرأة في الحياة الإنتاجية للأسرة، جعلت منزلة المرأة دون منزلة الرجل. وقد أخذت هذه المفاهيم التي تولدت منذ عهود الإقطاع في الشرق والغرب تسود في المجتمعات وكان من تبعاتها الضغط النفسي الجسدي الذي عانتها في المجتمعات المعاصرة، وغلبة السعي إلى الكسب المادي ووضع كل الإمكانيات الجسدية في سبيل تحصيله، لما له من دور في إنشاء الأسرة والعائلة جعل المرأة تستكين وتقبل، ولو على مضض بالتسلط الذكوري في مجتمعات تعتمد في بناها الاجتماعي على التفوق الجسدي عند الذكور، فغاب المنظور التكاملي بين الرجل والمرأة، وافقدها الكثير من مقومات استقلالها الشخصي. في الأول من نيسان ٢٠١٤م أقرت الهيئة العامة

للعقوبات أو المعاملات القاسية أو الوحشية أو الخاصة بالكرامة.

أما الاهتمام الخاص بقضايا العنف ضد المرأة فقد ترافق مع اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضدها فالعنف ضد المرأة من الأمور التي تجلب الانتباه كما أنها ظاهرة عامة لا تتمثل بفئة معينة أو ثقافة خاصة إنما تشمل الثقافات والدول والمجتمعات كافة، فالعنف يمارس على أساس نوع الجنس قائم على نطاق العالم ولا يختلف من مجتمع لآخر فالمشهد ذاته والصورة ذاتها إنما تتغير وتتبدل الأسماء والأمكنة عنف يرتكب من الأزواج والأبء والأبناء الذكور قدراً كبيراً من هذا العنف بحق النساء

ويعتبر العنف الوجه ضد المرأة من أبرز المشكلات التي لا يكاد يخلو منها مجتمع، كونه يشكل انتهاكاً لحقوقها الغنسانية والحريات الأساسية التي يجب أن تتمتع بها، وهو يمارس عبر التاريخ بأوجه وأشكال مختلفة.

وضعت اتفاقية سيداو قضية العنف ضد المرأة في قلب شرعة حقوق الإنسان وقد ساهمت في خلق إطار معياري تستند إليه الحكومات وقادتها في مكافحة العنف ضد النساء حيث هي مسؤولة وعرضة للمحاسبة في هذا المجال^(٦).

أما على الصعيد المباشر فقد بدأ

لمجلس النواب قانون حماية النساء وسائر أفراد الأسرة من العنف الأسري وقد صيغت بنوده بالاستناد إلى مشروع قانون حماية المرأة من العنف الأسري الذي يقوم به التحالف الوطني لتشريع حماية المرأة من العنف الأسري والذي خضع لدراسة امتدت سنين من قبل لجنة نيابية خاصة^(٥).

رابعاً: طرح مسألة العنف ضد المرأة في المجتمع الدولي

في القرن العشرين لا تزال مظاهر الهمجية والتسلط والظلم مترسخة في النفس البشرية وكأنها ترفض التنازل عن قيم القسوة والعنف فعلى الرغم من أن النساء يشكلن نصف سكان الأرض إلا أن المرأة عانت من التمييز في معظم المجتمعات منذ آلاف السنين ففي الماضي كانت النساء يعاملن بوصفهن ممتلكات للرجال ويتعرضن للعذاب والاعتداء من دون أن يفعلن شيئاً حيال ذلك وعلى مدى السنوات الماضية فقد قفدت المجتمعات في جميع أنحاء العالم قفزة نوعية في مجال حصول المرأة على حقوقها ولكن الكثيرات من النساء لا يزلن محرومات من أبسط حقوقهن.

لقد بدأ اهتمام المجتمع الدولي بقضية العنف منذ صدور الإعلان العالمي لحقوق الإنسان حيث دعت المادة الخامسة منه إلى عدم تعريض أي إنسان للتعذيب ولا

الاهتمام بقضية العنف ضد المرأة عام ١٩٨٥ في مؤتمر المرأة الذي أقيم في نيروبي بعد الإشارة إلى تلك الظاهرة في مؤتمر المكسيك ١٩٧٥م كونهماجن ١٩٨٠م وقد نتج عن وثيقة مؤتمر نيروبي وجود خطة عمل على المستويات المحلية والإقليمية والدولية. وقد اشارت الوثيقة إلى العنف ضد المرأة باعتباره من أهم المعوقات ضد السلام والتنمية والمساواة.

إضافة إلى وثيقة قمة الأرض التي تضمنت في ري ودي جينزو ١٩٩٢م إشارة واحدة للعنف ضد المرأة في الفقرة ٢٥٢/هـ في أجندة للعنف والتي تقترح أنه على الحكومات اتخاذ إجراءات قوية ومشددة تنص على منع العنف ضد المرأة واتخاذ الإجراءات الإدارية والتعليمية كافة لمكافحة العنف ضد المرأة بشتى صورته. كما وأكد مؤتمر فينينا ١٩٩٣م على ضرورة العمل من أجل إزالة العنف ضد المرأة في الحياة الخاصة والعامة و«قد تم تعيين مقرررة خاصة في أعقاب المؤتمر لتبحث في طرق ومسببات العنف والوسائل للقضاء عليه»^(٧) إضافة لما نص عليه الإعلان العالمي للقضاء على العنف ضد المرأة «الذي تبنته الجمعية العامة للأمم المتحدة ١٩٩٣م»^(٨).

كما وأدان مؤتمر السكان والتنمية العنف الموجه ضد المرأة وبشكل خاص

حدوث الاغتصاب وتجارة الرقيق وتجارة الأطفال من أجل الدعارة والعنف الجنسي، ونص مؤتمر القمة الاجتماعية في كوبنهاجن على إدانة للعنف ضد المرأة وتبنى استراتيجيات مستقبلية.

خامساً: أسباب العنف ضد المرأة

أ - المرأة نفسها: المرأة نفسها من أحد العوامل الرئيسية لبعض أشكال العنف وذلك لتقبلها وتسامحها والخضوع والسكوت عليه ما يجعل الآخر يتمادى أكثر. وغالباً ما يكون هذا السبب مفعلاً عندما لا تجد المرأة المعنفة من تلجأ إليه ومن يقوم بحمايتها. كما أن ضعف المرأة نفسها في المطالبة حقوقها الإنسانية والعمل لتفعيل وتنامي دورها الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والثقافي.

ب - الأسباب الثقافية: التي تكمن في عدم معرفة كيفية التعامل مع الآخر وعدم احترامه وما يتمتع به من حقوق وواجبات تعد عاملاً أساسياً للعنف.

وهذا الجهل قد يكون من الطرفين المرأة والشخص الذي يمارس العنف ضدها. فجهل امرأة لحقوقها وواجباتها من جهة، وجهل الآخر لهذه الحقوق من جهة أخرى قد يؤدي إلى التجاوز وتعدي الحدود. إضافة إلى تدني المستوى الثقافي للأسر وللأفراد والاختلاف الثقافي الكبير بين

الزوجين بالأخص إذا كانت الزوجة هي الأعلى مستوى ثقافياً، ما يولد التوتر وعدم التوازن لدى الزوج كردة فعل له فيحاول تعويض هذا النص باحثاً عن المناسبات التي يمكن انتقاصها واستصغارها بالشتم والإهانة أو الضرب.

ج - الأسباب التربوية: قد تكون أسس التربية العنيفة التي نشأ عليها الفرد هي التي تولد لديه العنف وتجعله ضحية له، حيث تشكل لديه شخصية تائهة وغير واثقة ما يؤدي إلى جبر هذا الضعف في المستقبل بالعنف، حيث يستقوي على الأضعف منه، وهي المرأة. فالعنف يولد العنف.

د - العادات والتقاليد: هناك أفكار وتقاليد متجذرة في ثقافات الكثيرين والتي تحمل في طياتها الرؤية الجاهلية لتمييز الذكر على الأنثى، ما يؤدي إلى تصغيرها وتضئيل ودورها، وفي المقابل تكبير دور الذكر حيث يعطي الحق دائماً للمجتمع الذكوري لهيمنة والسلطنة وممارسة العنف عليها منذ الصغر، وتعويدها على تقبل ذلك وتحمله، والرضوخ له إذ إنها لا تحمل ذنباً سوى إنها ولدت أنثى.

ولا يخفى ما لوسائل الإعلام من دور يسهم في تدعيم هذا التمييز وتقبل أنماط من العنف ضد المرأة في البرامج التي تبث، والاستفادة منها بشكل سليم. إن النظرة

الخاطئة التي لا ترى أهلية حقيقية وكاملة للمرأة كإنسان كامل الإنسانية حقاً وواجباً، هو ما يؤسس لحياة تقوم على التهميش والاحتقار للمرأة وبالتالي للعنف ضدها.

هـ - الأسباب البيئية: إن المشكلات البيئية التي تضغط على الإنسان كالازدحام وضعف الخدمات ومشكلة السكن وزيادة عدد السكان. فضلاً عما تسببه البيئة من احباطات للفرد إذ لا تساعده على تحقيق ذاته والنجاح فيها كتوفير العمل المناسب للشباب، كل ذلك يدفعه دفعاً نحو العنف ليؤدي إلى انفجاره على من هو أضعف منه ألا وهي المرأة.

و - الأسباب الاقتصادية: الخلل المادي الذي تواجهه الأسرة والتضخم الاقتصادي الذي ينعكس على المستوى المعيشي لكل من الفرد أو الجماعة حيث من الصعب الحصول على لقمة العيش والحياة الكريمة التي تحفظ للفرد كرامته إنسانية تعد من المشكلات الاقتصادية التي تضغط على الآخر لأن يكون عنيفاً ويصب جام غضبه على المرأة. فضلاً عن ذلك فإن مفهوم النفقة الاقتصادية التي تكون للرجل على المرأة وأنه يعول لذا فإنه يعطي لنفسه الحق بتصنيفها وذلك في إذلالها وتصغيرها من هذه الناحية ومن جهة أخرى تقبل المرأة ذاتها لهذا العنف لأنها لا تتمكن من إعالة نفسها أو إعالة أولادها، أن ثقل

التفاوت في توزيع القوى بين الرجل والمرأة.

سادساً: أنواع العنف

أ - العنف الجسدي: وهو من أشد وأبرز أنواع العنف حيث يتعلق بالأذى الجسدي واستخدام القوة، و«يتراوح من أبسط الأشكال إلى أخطرها واشدها الضرب، الخنق، الدهس»^(١١).

وبحسب التقارير والإحصاءات حول مدى انتشار هذا النوع من العنف بين النساء منها التقرير الذي أصدرته الأمم المتحدة عام ٢٠٠١م حيث تبين فيه أن واحدة من بين كل ثلاث نساء في العالم تعرضت للضرب أو الإكراه على ممارسة الجنس أو إساءة المعاملة بصورة أو بأخرى وغالباً ما تتم هذه الانتهاكات لحقوق المرأة بواسطة إنسان يعرفه جيداً. كما ويشير برنامج الأمم المتحدة للتنمية «إن ثلثي النساء على الأقل تعرضن خلال حياتهن بصورة من صور العنف المنزلي»^(١٢).

خامساً: مظاهر العنف

إن العنف ضد النساء يعد مصدراً لمعاناة الآلاف من النساء اللواتي تتم إهانتهم بقوانين تمييزية وممارسات تعسفية مؤسسة على استضعافهن كجنس، كأن يتم ضربهن أو اغتصابهن والتحرش الجنسي بهن وهتك عرضهن.

الأزمات الاقتصادية الخانقة وما تفرزه من عنف عام بسبب التضخم والفقر والبطالة والحاجة جعلت من العامل الاقتصادي يحتل ٤٥ بالمئة من حالات العنف ضد المرأة^(٩).

ز - عنف الحكومات والسلطات: عندما تقوم السلطات العليا الحاكمة بسن قوانين تعنف المرأة أو تأييد القوانين وحماتها أو من يقوم بالعنف ضدها أو عدم نصرتها عندما تمد يدها لطلب العون منهم وإنصافها ضد من يمارس العنف ضدها^(١٠).

ح - الاستبداد السياسي: إن الاستبداد السياسي الذي يدعو إلى تطور المجتمع ككل والذي يقف حجر عثرة، أمام البناء العصري للدولة والسلطة. فضلاً عن انتقاء الديمقراطية بما تعينه من حكم القانون والمؤسسات والتعددية واحترام وقبول الآخر.

ط - تداعيات الحروب الكارثية: تولد الحروب الكارثية من ثقافة عنف وشيوع القتل والسبي وكل مظاهر العنف الموجه ضد المرأة.

* إن العنف ضد المرأة انتهاك لحقوق الإنسان للمرأة ويمنعها من التمتع بحقوقها الإنسانية وحرقاتها الأساسية مثل الحق في الحياة والأمن الشخصي والحق في التعليم والحق في الصحة والسكن والمشاركة في الحياة العامة. هذا الانتهاك يبقي المرأة في وضع التبعية ويساعد على استمرار

وصحية، ويصيبها أو يحتمل ان يصيبها بسببه ضرر نفسي وصحي أو جنسي^(١٦) وتشير المعلومات التي جمعها المكتب الإحصائي للأمم المتحدة حول العنف الأسري إن امرأة واحدة من بين كل أربع نساء في البلدان الصناعية قد تعرضت للضرب من قبل شريك حياتها^(١٧).

ب - العنف الاجتماعي: يتجسد هذا النوع من العنف بفرض حصار على الفتاة وتضييق الخناق على فرص تواصلها وتفاعلها مع العالم الاجتماعي الخارجي، وهو أيضاً محاولة الحد من انخراطها في المجتمع، وممارستها لأدوارها، تقييد الحركة، التدخل في الشؤون الخاصة، تحديد أدوارها وعدم السماح لها بزيارة الأصدقاء، وبإتخاذ القرارات، عدم تحقيق أهدافها في الحياة. ويتجلى هذا العنف ب:

- عدم إتاحة فرصة العمل للمرأة، انخفاض نسبة مساهمتها بقوة العمل، وعدم توفير البدائل لممارسة دورها كربة منزل وكأم.

- انتشار الأمية عند النساء وتدني نسبة الملتحقات بالتعليم العالي.

- سوء التغذية واعتلال الصحة والنقص الموجود في الخدمات الصحية في حسابها الوقائي.

- عدم إتاحة الفرص أمامها كي تحرك جماهير النساء للقيام بحركة اجتماعية

أ - العنف الأسري: هو أحد أنماط السلوك العدوانية الناتج عن وجود علاقات قوة غير متكافئة بين الرجل والمرأة داخل الأسرة، سواء في إطار العائلة، أم الشارع، أم في مكان العمل أو توجيه الإهانة والسب والشتم وحتى الاختطاف، وما يرافق ذلك من تحديد الأدوار والمكانة لكل فرد من أفراد الأسرة «وفقاً لما يمليه النظام الاقتصادي والاجتماعي السائد في المجتمع»^(١٢).

وقد أشار الإعلان العالمي للقضاء على العنف الأسري تفسيراً مفصلاً حيث إن «العنف الجسدي والنفسي الذي يقع في إطار الأسرة، بما في ذلك الضرب المبرح والإساءة الجنسية للأطفال الإناث في الأسرة، والعنف المتصل بالمهر والاعتصاب في إطار الحياة الزوجية، وبتر الأعضاء التناسلية للإناث.... والعنف خارج نطاق الحياة الزوجية والعنف المتصل بالاستغلال»^(١٤).

وهذا العنف يمارس أيضاً على «الطفلة التي تعاني من مشاكل نفسية وجسدية وتشويه الأعضاء التناسلية التي تتعرض لها بين ٨٥ و ١١٤ مليون فتاة وامرأة»^(١٥) كما ويشمل الفتاة التي تتزوج باكراً أو ما يعرف بتزويج القاصرات باعتبار أن: الإكراه على الزواج يحرم الطفلة من حقوقها في التعليم ويحملها أعباء نفسية واجتماعية

حقيقية كتغيير جذري للدور الذي تؤديه، ولتحررها من الحذف والتبعية المطلقة للمعتقدات الموروثة لمفهومها المشوه.

- تحجيم قدرات المرأة وإبعادها عن المشاركة في صنع المستقبل.

لقد ضمن الإعلان العالمي للقضاء على التمييز ضد المرأة هذا النوع كل عنف جنسي وجنسي ونفسي «يقع في الإطار العام للمجتمع بما ذلك الاغتصاب والإساءة الجنسية والتحرش والترهيب الجنسي في العمل وفي المؤسسات التعليمية وسواها الاتجار بالمرأة والبيعاء القسري»^(١٨).

ج - العنف القانوني: يشمل هذا النوع من العنف، العنف المدني والجنسي والنفسي الذي ترتكبه الدولة أو تتغاضى عنه إنما وقع ذلك لأن للمرأة الحق في التمتع على قدم المساواة مع الرجل، بكل حوق الإنسان وحرياته الأساسية، وفي حماية هذه الحقوق والحرريات وذلك في الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والمدنية أو أي ميدان آخر.

ومن بين القوانين التي تدعو الأمم المتحدة إلى إقرارها في هذا المجال، قانون لعلاج ظاهرة العنف المنزلي، قانون يجيز للمرأة حق إعطاء جنسيتها لأطفالها في حالات الزواج من شخص يحمل جنسية أخرى، قانون يحرم الختان، إيجاد قانون

الأحوال الشخصية جديد، يؤدي إلى إعطاء حق الطلاق للمرأة، ورفع الولاية عن المال والنفس عند بلوغ الرشد. إضافة إلى رفع سن الحضانة، ومنع تعدد الزوجات، وإنشاء محكمة واحدة وخاصة بجميع قضايا الأسرة، وتطبيق الشراكة بين الزوجين في ثروة الأسرة وضمان وصول النفقة.... إيجاد قانون يحمي النساء المعتقلات في السجون وما تتعرض له من الاغتصاب، إدخال أدوات في الجسم، الضرب بأدوات صلبة، الإجبار على التعري.... عبارات تنطوي على إيذاء جنسي، التعذيب النفسي....

د - العنف الجنسي: هو إجبار المرأة على ممارسة جنسية ضد رغبتها ويشمل هذا النوع الاغتصاب، حتى ولو كان في حالة الزواج والتحرش الجنسي، سواء اقترن باستخدام القوة أو التهديد بها والمضايقات الجنسية، خاصة أثناء العمل. وحسب الإحصاءات إن نسبة التعرض لاغتصاب متقاربة جداً في كل البلدان الصناعية والنامية وقد بينت أن امرأة واحدة من بين كل خمس أو سبع نساء تتعرض للاغتصاب في حياتها. وأشارت الإحصاءات التي جمعت من ثماني دول «تمثل الدول الصناعية والنامية إلى أن مرتكبي حوادث الاغتصاب معروفون لدى الضحايا في أغلب الأحيان»^(١٩) وفي لبنان يشير التقرير

إطار الأسرة، بما في ذلك الضرب المبرح والإساءة الجنسية للأطفال الإناث في الأسرة، والعنف المتصل بالمهر والاعتصاب في إطار الحيلة الزوجية، وبترا الأعضاء التناسلية للإناث.... والعنف خارج نطاق الحياة الزوجية والعنف المتصل بالاستغلال»^(٢٥).

وهذا العنف يمارس أيضاً على «الطفلة التي تعاني من مشاكل نفسية وجسدية وتشويه الأعضاء التناسلية التي تتعرض لها بين ٨٥ و ١١٤ مليون فتاة وامرأة»^(٢٦).

كما ويشمل الفتاة التي تتزوج باكراً أو ما يعرف بتزويج القاصرات باعتبار أن: الإكراه على الزواج يحرم الطفلة من حقوقها في التعليم ويحملها أعباء نفسية واجتماعية وصحية ويصيبها أو يحتمل أن يصيبها بسببه ضرر نفسي وصحي أو جنسي^(٢٧) وتشير المعلومات التي جمعها المكتب الإحصائي للأمم المتحدة حول العنف الأسري «أن امرأة واحدة من بين كل أربع نساء في البلدان الصناعية قد تعرضت للضرب من قبل شريك حياتها»^(٢٧).

ب - العنف الاجتماعي: يتجسد هذا النوع من العنف بفرض حصار على الفتاة وتضييق الخناق عليها وتفاعلها مع العالم الاجتماعي الخارجي، وهو أيضاً محاولة الحد من انخراطها في المجتمع وممارستها لأدوارها، تقييد الحركة، التدخل في

الوطني الموحد في تنفيذ منهاج عمل بيكين للعام ١٩٩٩م وبناء على إحصائيات قوى الأمن الداخلي للعام ١٩٩٧م أن وقوع ١٣٠٢ فعل عنف ضد النساء. كما ذكرت الهيئة الوطنية لشؤون المرأة ٢٠٠٠م بأن هناك ١١٤ حالة اغتصاب و ٢٨١ حالة اعتداء ومضايقات جنسية تم إبلاغ قوى الأمن الداخلي عنها.

سابعاً: مظاهر العنف

إن العنف ضد النساء يعد مصدراً لمعاناة الآلاف من النساء اللواتي تتم إهانتهن بقوانين تمييزية وممارسات تعسفية مؤسسة على استضعافهن كجنس، كأن يتم ضربهن أو اغتصابهن والتحرش الجنسي بهن وهتك عرضهن.

أ - العنف الأسري: هو أحد أنماط السلوك العدواني الناتج عن وجود علاقات قوة غير متكافئة بين الرجل والمرأة داخل الأسرة، سواء في إطار العائلة، أم الشارع، أم في مكان العمل أو توجيه الإهانة والسب والشتم وحتى الاختطاف، وما يرافق ذلك من تحديد الأدوار والمكانة لكل فرد من أفراد الأسرة «وفقاً لما يمليه النظام الاقتصادي والاجتماعي السائد في المجتمع»^(٢٤).

وقد أشار الإعلان العالمي للقضاء على العنف الأسري تفسيراً مفصلاً حيث إن «العنف الجسدي والنفسي الذي يقع في

ج - العنف القانوني:يشمل هذا النوع من العنف، العنف المدني والجنسي والنفسي الذي ترتكبه الدولة أو تتغاضى عنه انما وقع وذلك لأن للمرأة الحق في التمتع على دم المساواة مع الرجل، بكل حقوق الانسان وحرياته الاساسية وفي حماية هذه الحقوق والحريات وذلك في الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والمدنية أو أي ميدان اخر.

ومن بين القوانين التي تدعو الأمم المتحدة إلى إقرارها في هذا المجال، قانون لعلاج ظاهرة العنف المنزلي، قانون يجيز للمرأة حق إعطاء جنسيتها لأطفالها في حالات الزواج من شخص يحمل جنسية أخرى، قانون يحرم الختان، إيجاد قانون الأحوال الشخصية جديد يؤدي إلى إعطاء حق الطلاق للمرأة ورفع الولاية عن المال والنفس عند بلوغ الرشد إضافة إلى رفع سن الحضانة ومنع تعدد الزوجات وإنشاء محكمة واحدة وخاصة بجميع قضايا الأسرة وتطبيق الشراكة بين الزوجين في ثروة الأسرة وضمان وصول النفقة.... إيجاد قانون يحمي النساء المعتقلات في السجون وما تتعرض له من الاغتصاب، إدخال أدوات في الجسم، الضرب بأدوات صلبة، الإجبار على التعري.... عبارات تنطوي على إيذاء جنسي، التعذيب النفسي.....

الشؤون الخاصة، تحديد أدوار المرأة، عدم السماح لها بزيارة الأصدقاء، باتخاذ القرارات، عدم تحقيق أهدافها في الحياة. ويتجلى هذا العنف بـ:

- عدم إتاحة فرصة العمل للمرأة، انخفاض نسبة مساهمتها بقوة العمل وعدم توفير البدائل لممارسة دورها كربة منزل وكأم.

- انتشار الأمية عند النساء وتدني نسبة الملتحقات بالتعليم العالي.

- سوء التغذية واعتلال الصحة والنقص الموجود في الخدمات الصحية في حسابها الوقائي.

- عدم إتاحة الفرص أمامها لكي تحرك جماهير النساء وللقيام بحركة اجتماعية حقيقية كتغيير جري للدور الذي تلعبه، ولتحررها من الحذف والتبعية المطلقة للمعتقدات الموروثة لمفهومها المشوه.

- تحجيم قدرات المرأة وإبعادها عن المشاركة في صنع المستقبل. لقد ضمن الإعلان العالمي للقضاء على التمييز ضد المرأة هذا النوع كل عنف جدي وجنسي ونفسي «يقع في الإطار العام للمجتمع بما ذلك الاغتصاب والإساءة الجنسية والتحرش والترهيب الجنسي في العمل وفي المؤسسات التعليمية وسواها الاتجار بالمرأة والبغاء القسري».

ثامناً: دور الجمعيات المناهضة للعنف ضد المرأة

تهدف الجمعيات إلى إقامة حملات مناصرة لتحقيق التغيير الإيجابي المستدام وإلى وضع برامج للمساواة بين الجنسين. وقد أدى تنوع برنامج عمل هذه الجمعيات إلى وجود جمعيات متخصصة بشؤون المرأة، وقد أحصت وزارة الداخلية ٧٨ جمعية من هذا النوع. أما التقرير الرسمي الأول حول اتفاقية الغاء كافة أشكال التمييز ضد المرأة عام ٢٠٠٠ «فقد قدم تقريراً مقتضباً عن الهيئات النسائية الأهم والتي تصدرها المجلس النسائي اللبناني، اللجنة الأهلية لقضايا المرأة، الجمعية اللبنانية لحقوق الإنسان، اللقاء الوطني من أجل قانون مدني اختياري للأحوال الشخصية، وبعض هذه الجمعيات غير متخصصة بالمرأة حصراً، لكنها تنفذ برنامجاً يهدف إلى تمكين المرأة»^(١).

وفي لبنان العديد من الجمعيات التي تهتم بقضايا المرأة وهذه الجمعيات سعت مؤخراً إلى توحيد عملها والاتئلاف في إطار شبكة عامة أطلق عليها اسم الشبكة النسائية تضم هيئات نسائية، ومنظمات حقوقية ومراكز أبحاث، وقطاعات نقابية نسائية تؤمن بالمساواة بين الجنسين.

ومن أبرز وأهم هذه الجمعيات والتي تتعلق ببحثنا هذا هي الهيئة اللبنانية

لمناهضة العنف ضد المرأة التي انشئت في آذار عام ١٩٩٧ على ضوء ما عرف بمحكمة النساء العربية التي عقدت في بيروت عام ١٩٩٥ تحضيراً لمؤتمر بيجين، وقد تكونت هذه الهيئة من جمعيات نسائية ومختلطة وشخصيات اجتماعية من الجنسين.

وقد تهدف هذه الهيئة إلى التوعية الاجتماعية حول هذه الظاهرة والضغط من أجل أحداث اصلاحات قانونية والإرشاد لضحايا العنف، والتنسيق مع الجمعيات الأهلية والفئات المتوافقة مع اهداف الهيئة.

اضافة إلى جمعية «كفى» التي تسعى إلى القضاء على جميع اشكال العنف والاستغلال الممارسة على النساء وإحقاق المساواة الفعلية بين الجنسين عبر اعتماد وسائل عدة، منها المدافعة لتعديل واستحداث القوانين وتغيير السياسات والتأثير على الرأي العام وتغيير الممارسات والذهنيات والمفاهيم الذكورية السائدة، وإعداد البحوث والتدريب وتمكين النساء والأطفال ضحايا العنف وتقديم الدعم النفسي والاجتماعي والقانوني لهم. ويتركز عمل «كفى» في مكافحة العنف والاستغلال في ٣ مجالات: العنف الاسري، استغلال النساء والإتجار بهن، تحديد عاملات المنازل، حماة الأطفال من العنف.

إضافة إلى التمكين والدعم النفسي

تكون دولة قانون يتمتع أفرادها بالمساواة والعدالة.

تاسعاً: الصعوبات التي تعيق عمل المنظمات غير الحكومية العاملة على مناهضة العنف ضد المرأة:

أ - النظام الثقافي الاجتماعي: يتمثل بالقواعد الطائفية التي تحكم أحوالهم الشخصية تقوض الركن الأساسي لمواطنيهم وللمساواة المكفولة في دستور الجمهورية اللبنانية. وقد أعرض رجال الدين ومن مؤسسات دينية أهمها دار الافتاء للتشريع الرامي إلى حماية المرأة من العنف الأسري بحجة أنه يقوض أسس العائلة اللبنانية، هذه المنظمات تبدو وكأنها تمد التيار الديني بمشروعية نسائية.

ب - صعوبات عملية: تتلخص بالوضع الأمني في بعض المناطق، الروتين الإداري في مؤسسات الدولة المعيق للعمل معها، قصور الإعلام في تبني قضايا المرأة، عدم وجود ملاجيء، النقص في الدعم المادي لتسديد كافة الاحتياجات، تفاوت مستوى المستفيدات في التحصيل العلمي وتباين مشكلاتهن مما يعيق تنفيذ برامج مشتركة.

ج - الدينامية الداخلية للمنظمات: حيث تتصف هذه المنظمات دعاوية لا خيرية إنسانية، وخدمانية بدرجة لاحقة، فلا تأخذ الخدمات التي تقدمها الحيز الأساسي من نشاطها. وإن المهمات الملقة على عاتق

والاجتماعي والقانوني للنساء والأطفال ضحايا العنف من خلال مركز الاستماع والإرشاد الذي يؤمن المساندة اللازمة للضحية من العنف.

إن العنف الموجه ضد المرأة ليس على مستوى واحد في جميع البلدان وان هناك اختلافاً في أشكال العنف الجسدي ضد المرأة باختلاف المجتمع والبيئة والعادات والتقاليد وحتى في اختلاف القوانين، ومن أنواع العنف يمكن ذكر ما يلي:

العنف الناتج عن العادات والتقاليد كما سائد في الهند، العنف الناتج عن القوانين وخاصة في الدول التي تعاني من تزايد السكان كالصين والهند، حيث تمارس عادة «وأد البنات وهي لا تزال جنينا في بطن أمها»^٩، والعنف الناتج عن العرق أو الجنس أو الوضع الاجتماعي أو السن (الخادمت، النساء اللاتي يقتلن بجرائم الشرف، النساء اللاتي تجبرن على العمل في مجال الدعارة، «النساء المستهدفات في الصراعات المسلحة لدورهن التعليمي أو لكونهن رموزاً لمجتمعاتهن»^(١٠).

إن القوانين وجدت أصلاً لحماية حقوق أفراد المجتمع والنساء مواطنات في هذا المجتمع، ولكن مما يؤسف له أن القانون بدلاً من أن يكون منصفاً للحقوق وحامياً لها، نجده منتهك لها وهو ما يعتمد في الدول التي تنتهج الديمقراطية بدلاً من أن

المنظمات لا توفر خيراً كافياً للتأمل المنهجي في الديناميات التي تسير نشاطها الداخلي.

عاشراً: التوصيات

لا يمكن حماية المرأة من دون وضع قانون يحمي المرأة من العنف، ويضع عقاباً مناسباً لكل من يرتكب بحقها أي عنف، فلن يكون هناك أي قيمة لأي تدبير ما لم يكن مقترناً بقانون يحمي حقوقها. وانطلاقاً مما ورد في هذه السطور لا بد من وضع بعض التوصيات ومنها:

١ - ضمان احترام حقوق الإنسان وحياته الأساسية كافة وحمايتها، وهذا يقودنا إلى دعوة التصديق ومن دون تحفظات على المواثيق الخاصة بحقوق الإنسان كافة لاسيما المتعلقة بحقوق المرأة.

٢ - العمل الهادف والجاد على ضمان معرفة النساء كافة حقوقهن وتمكينهن من المطالبة بتوفيرها وتعزيزها وممارستها لها، ومن هذا المنطلق يجب تثقيف الجميع على موضوع حقوق المرأة وحقوق الإنسان.

٣ - تعزيز ونشر ثقافة الجندر على كافة المستويات وفي مؤسسات الدولة كافة لكي لا تؤدي السياسات الاجتماعية والاقتصادية ولاسيما التخطيط الانمائي إلى إدامة العنف ضد المرأة وزيادة حدته.

٤ - وضع خطط إنمائية للنهوض بالمرأة وتنميتها وتطويرها.

٥ - التوعية والتثقيف بحقوق الإنسان عامة وحقوق المرأة خاصة، لهدف معرفة المرأة لحقوقها وكيفية الدفاع عنها وإيصال صوتها وشكواها إلى الجهات المختصة، وعدم السكوت أو التساهل عن حقوقها والهدف من كل ذلك هو صنع كيان مستقل وواع لوجودها في المجتمع وليس مجرد تابع.

٦ - توفير مؤسسات تأهيل وإيواء للنساء المعنفات وتقديم خدمات طبية ونفسية وقانونية مجاناً.

٧-الدعوة إلى تشريع القوانين التي تحمي المرأة المعنفة وتحفظ حقوقها وتشجيع الضحية على الإبلاغ عن الجرم والاهتمام بها ومحاولة إعادة تأهيلها في الحياة الاجتماعية بعد حدوث الجرم وتخفيف المعاناة عنها، والرقابة على الإعلام الذي يبث مشاهد العنف مما يساهم في انتشاره وتطبيقه.

أخيراً، إن المرأة اليوم قد حققت انجازات مهمة على مستوى الأدوار التي تقوم بها وأصبحت تشكل نصف المجتمع كقوة عاملة ويتجلى دورها في كافة مجالات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية وإن كانت تعاني من إجحاف في دورها السياسي. إلا أننا لا نستطيع أن

- ١٠ - المصدر السابق.
- ١١ - أبو شامة عبد المحمود، عباس، جرائم العنف، اساليب مواجهتها في الدول العربية - أكاديمية نايف العربية - الرياض ط ٢٠١٣ ص ٣٩.
- ١٢ - عبد الغني غانم، ص ١٨.
- ١٣ - المنصوري، زينات، العنف ضد المرأة، البحرين حالة تطبيقية موقع امان على الشبكة العنكبوتية.
- ١٤ - محمود هادي، العنف ضد النساء، موقع الحزب الشيوعي، على الشبكة العنكبوتية.
- ١٥ - المصدر نفسه.
- ١٦ - تادريس مارلين، مصدر سابق، ص ٤.
- ١٧ - ضرب النساء حول العالم، ارقام واحصاءات دولية، موقع امان على الانترنت.
- ١٨ - اتفاقية القضاء على التمييز ضد المرأة... م. س.
- ١٨ - إدماج قضايا المرأة... م. س. ص ١٦.
- ١٩ - تادريس، مارلين. م. س - ص ٧.
- ٢٠ - الحامدي، ورود، مظاهر العنف ضد المرأة، مواقف حول قضايا المرأة في لبنان، توثيق لبعض المداخلات والانشطة تنظيم الأسرة، بيروت لبنان ١٩٩٦-ص ٤٧.
- ٢١ - النشرة حول لجندر. برنامج الامم المتحدة الانمائي، مكتب الرباط المغرب ٢، ٢٠٠١ عدد خاص كاليوم العالمي للقاء ضد المرأة ٢٥ ص ٤.
- ٢٢ - قاموس مصطلحات حول العنف ضد المرأة. موقع امان على الشبكة العنكبوتية.
- ٢٣ - تادريس، مارلين. م. س. ص ٧.
- ٢٤ - الاعلان العالمي لحقوق الانسان.
- ٢٥ - شرارة عزة بيضون. نساء وجمعيات. م. س ص ١٢٠-١٢١.
- ٢٦ - شعبان، بثينة المرأة العربية في القرن العشرين / م. س ص ٢٠٤.
- ٢٧ - العوجي، مصطفى. دروس في العلم الجنائي ج ٢، الجريمة والمجرم مؤسسة نوفل، بيروت لبنان ط ١٩٨٧ ص ١٢٦.

نخفي بأن مجتمعنا ينظر إليها كمواطنة درجة ثانية ويبرر حالات العنف الموجه ضدها من جهة ويعجز السلطة وعدم جديتها في الوقوف إلى جانب قضاياها من جهة أخرى.

إن المرأة بحاجة إلى عمل دؤوب وجهد كبير ووعي بذاتها وقدراتها للحصول على حقوقها بالتعاون مع الجهات المحلية والدولية في هذا الشأن.

المراجع والمصادر

- ١ - الفاطري، نهى، المرأة في منظومة الأمم المتحدة، العنف ضد المرأة، الفصل الرابع. ص ٣٦٦.
- ٢ - ابراهيم أنيس، الصوالحي عطية واخرون، المعجم الوسيط ج ٢، مجمع اللغة العربية، القاهرة، مصر، بدون تاريخ ص ٦٣١.
- ٣ - نصر سميحة، العنف والمشقة، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، القاهرة مصر ١٩٩٦ ص ٤٣
- ٤ - بلهوي ابراهيم، العنف ضد المرأة، مظاهره ونتائجه، منشور على موقع [www > alnoor. se/](http://www.alnoor.se/) article
- ٥ - بيضون، عزة شرارة مواطنة لا انثى. دار الساقى ٢٠١٥ ص ٢١٥.
- ٦ - اتفاقية القضاء على جميع اشكال التمييز ضد المرأة، موقع اليونيفيم على الشبكة العنكبوتية.
- ٧ - تادريس مارلين، نساء بلا حقوق. رجال بلا قلوب. العنف ضد المرأة في مصر، مركز الدراسات والمعلومات القانونية لحقوق الانسان. القاهرة مصر، ص ٤.
- ٨ - مغيزل لور، حقوق المرأة الانسان في لبنان ص ٣٣.
- ٩ - راشد، أسماء جميل، الصورة الاجتماعية وصورة الذات للمرأة في المجتمع العراقي. اطروحة بحث ٢٠٠٦ ص ٣١.

المرأة بين العادات والحريّة المفرطة نموذج (حكايّتي شرح يطول «حنان الشّيخ»)

ملاك حاتم الطفيلي

٢ - المرأة والزّواج المبكر في
الإسلام:

يعتبر زواجاً مبكراً، كلّ زواج في عمر أقل من ١٨ سنة بالنّسبة إلى الفتاة التي لم تبلغ بعد النّضج الكامل لأعضائها في هذه المرحلة. وبما أنّ الفتاة في هذا العمر لا تملك القدرة على إعطاء أيّة موافقة، لذلك من المهم أن نشرك لفظيّ الزواج المبكر والإجباريّ. وبسبب عمر الفتاة الصّغير، يمكن استبدال لفظ الزواج المبكر بزواج الطّفّل. «كنت ألعبُ على السّطح عندما نادتنّي أمّي وزوجة شقيقي العابس...حيث أقول كلمتين: «أنت وكيلي». ثمّ أخرج وأكمل لعبي^(١).

ثم إن اختيار زوج لفتاة غير ناضجة من دون موافقة، أي بمعنى آخر، التّصرّف في حياة فتاة من دون علمها، يمثّل عنفاً يرتكز

المبحث الأوّل: الزّواج والتّكامل الإنسانيّ

القسم الأوّل: ماهيّة الزّواج

١ - تعريف الزّواج:

الزّواج هو رباط مقدّس يربط اثنين جمع بينهما الحبّ، ولكنّ قرار الزّواج من أصعب القرارات المصيريّة، والزّواج في اللّغة العربيّة يعني الاقتران والازدواج، وبالتالي الزّواج عقد شرعيّ بين رجل وامرأة تحلّ له شرعاً، أساسه رضا الطرفين؛ حيث يهدفان عن طريقه إلى بناء الأسرة التي تُشكّل أساس كلّ مُجتمع، ويجب أن يكون شرط هذا العقد الرّضا المُتبادل، من أجل تحديد الحقوق والمسؤوليّات على كلا الطرفين، لذلك أكّدت مُعظم الاتّفاقيات الدوليّة ضرورة توفّر الوعي، والنّضج، والإرادة السّليمة لدى الطرفين، وأساس ذلك السنّ القانونيّ^(١).

(١) الرواية ص ٥٣.

حَكِيمٌ ﴿٥﴾، وعليه فإنَّ الإسلام لم يُشجّع الرّوَّاج المُبكر، لكنّه سمح به إذا بلغ الطفل أشدّه، وأمّا عكس ذلك فهو لا يزال طفلاً في نظر الشريعة الإسلاميّة.

٣ - أسباب الرّوَّاج المُبكر:

يوجد الرّوَّاج المُبكر أو الإجمالي في العديد من المجتمعات وهو يمارس لأسباب تقليديّة، ثقافيّة، دينيّة واقتصاديّة. وهو أيضاً ظاهرة ضارة تستمدّ مبرراتها منها حجج خاطئة؛ وهذا بعضها:

- استمرار علاقة بين العائلات: ينتج الزواج المُبكر في أحيان كثيرة عن توفيق بين الآباء الذين التزموا بتزويج أبنائهم من أجل تمديد صداقتهم أي، «خائفتان من أن يتزوَّج زوج شقيقتي بسواي، فتأتي زوجة أب قاسية تسقي أولاد شقيقتي المرّ والحنظل»^(٦)، ومن المستحيل تقبل التضحية بحياة من أجل إرضاء وجود الآباء. ولنبيين في موضع آخر أن الآباء وإن كانوا مسؤولين عن حياة أبنائهم، فإنهم لا يملكونها.

- الحفاظ على شرف العائلة: لا تقبل العديد من المجتمعات نظام المرأة العازبة

على النّوع، يعتبر من إحدى انتهاكات حقوق الإنسان الأكثر خطورة.^(١) يسأل الرّجل ذو العمامة عن عمري، فيجيبه شقيقي: «عشر سنوات»^(٢).

وقد حثّت الشريعة الإسلاميّة الشّباب المقندين على الرّوَّاج وتكوين الأسرة؛ فقد قال الرّسول ﷺ: «يا معشر الشّباب! من استطاع منكم الباءة فليتزوَّج؛ فإنّه أغضُّ للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصّوم، فإنّه له وجاء»^(٣). وللشريعة الإسلاميّة مقاصد متعدّدة في ذلك، منها: عفة النّفس، ونأيها عن الوقوع في الحرام، وحفظ النّوع الإنساني، وحفظ النّسب والنّسل ورعايته، وارتياح النفس وسعادتها واستقرارها^(٤). يُفرّق الإسلام بين مسألتي: جواز العقد، وجواز الوطء؛ إذ يجوز العقد على من لم تبلغ السنّ القانوني، لكن لا يجوز الوطء أي الرّوَّاج أو النّكاح إلا إذا كانت تتحمّل ذلك، وقد جعل الله تعالى الرّوَّاج مُستنداً على البلوغ، وورد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

(١) الرّوَّاج المُبكر، التجمع النسائي الديمقراطي اللبناني.

(٢) الرواية ص ٥٤.

(٣) حنان الطيبي (١٢-٤-٢٠١١)، ماذا يقول الدين والقانون والعلم في الرّوَّاج المُبكر.

(٤) عبد الملك التاج (٢٣-٣-٢٠١٠)، «الرّوَّاج المُبكر حكمه في الشريعة الإسلاميّة - خلفيات ودوافع الحرب عليه».

(٥) سورة النور، الآية: ٥٩.

(٦) الرواية ص ٤١.

لأن الفتيات غير المتزوجات يعتبرن عاراً على العائلة. وتكون أول فرصة من أجل التخلّص من الفتيات جيّدة.

- الذهنيّة التقليديّة التي ترسم معايير مُحدّدة للفتاة، وتُعزّز فكرة الزّواج المُبكر، وحصّر الزّواج على صغيرات السنّ، واعتباره الإنجاز الأهمّ لها.

- المتواليّة المسماة منطقيّة لسير التّطوّر التّقليديّ للفتاة، التي في بعض المجتمعات يجب أن تنتقل من منزل الأب إلى منزل الرّوج.

- انتشار مفاهيم، مثل: السُّترة، والعنوسة، والشُّرف، وإلصاقها بالفتاة، واعتبار الزّواج هو الإطار الحامي لشرف العائلة، وضمان سلامة الفتاة من أيّ انحرافٍ أخلاقيّ قد يُسيء إلى سُمعة العائلة، ووضعيتها الاجتماعيّة.

- اجتناب الحمل خارج إطار الزواج، لأنّ الفتاة الحامل خارج إطار الزواج لا تستطيع أبداً أن تتزوج.

- الحلّ الودّي للاغتصاب: في كثير من المجتمعات، يفرض على المغتصب أن يتزوَّج ضحيّته، وهكذا تخضع الفتاة المغتصبة لعذاب نفسي و جسدي طول حياتها. «أهجم على نافذة المطبخ أريد أن أرمي نفسي منها عندما دفشوني من جديد

إلى الغرفة، وعندما رأيت زوج شقيقتي ينتظرني على الفراش ولولت»^(١)...

- الوضع الاقتصاديّ والفقر أيضاً في أغلب الأحيان، أساس الزواج المبكر الإجمالي لأنّ في بعض المجتمعات، يفرض آباء الفتاة مهراً هاماً. وفي مواجهة كبر سن بناتهم، يوافق بعض الآباء على تنظيم اختطاف بناتهم. لهدف المطلوب هو التخلص منهن بسرعة. ومن البديهي أن كل هذه المبررات غير منطقيّة ولا تقاوم الخرق الواضح لحقوق الفتيات ضحايا الزواج المبكر الإجمالي. إذ يرمي الزواج المبكر الأطفال في الضيق، وسيطلب عدد لا يحصى منهم المساعدة إذا كانوا يعتقدون أنهم يستطيعون إيجادها.

٤ - إيجابيّات وسلبيّات الزّواج المبكر

يرى البعض أنّ هناك أموراً تُعدّ إيجابيّة في الزّواج المبكر، أو ما تُسمّيه بعض الدول زواج الأطفال، أبرزها ما يأتي: إزالة الخوف من العنوسة، زيادة فرص الخصوبة والإنجاب؛ إذ كلّما زاد سنّ الفتاة قلّت خصوبتها، وبذلك تقلّ فرصها في الحمل والإنجاب. تقليل الزّواج المبكر فرق العمر بين الآباء والأبناء، وقد يزيد ذلك نسبة التفاهم والانسجام بينهم، ورؤية الأهل

(١) الرواية ص ٨٥.

- صغر سن الزوجين أو أحدهما قد يحد من قدرتهما على التعامل مع الطرف الآخر وعائلته ومجتمعه، وفهم تقاليده وعاداته.

- حرمان الفتاة في كثير من الحالات من فرصة استكمال تعليمها، وبهذا لن تكون قادرة على تكوين شخصيتها المستقلة نفسياً واقتصادياً. «اسأل كل من في البيت، لماذا لا ألتحق بالمدرسة حتى أتعلّم القراءة والكتابة؟»^(٢).

- الزواج المبكر قد يعرض الفتاة إلى العديد من المشاكل الصحية؛ بسبب ضعف جسدها قبل الحمل وأثناءه، وقد يكون من الصعب عليها أن تحتل هذه التجربة في سن صغير.

- **المشكلات النفسية:** يتسبب الزواج المبكر في كثير من المشكلات النفسية لدى الفتاة، نتيجة حرمانها من أن تعيش المراحل الطبيعية في حياتها وتحملها لمسؤوليات قد لا تحتملها في هذا السن المبكر، وبالتالي تفقد أجمل سنوات حياتها ما يتسبب لها في خلل نفسي والكثير من الأمراض النفسية مثل الاكتئاب.

- **مشكلات صحية:** يتسبب الزواج المبكر في كثير من الأمراض الجسدية

أطفالهم وهم يُكوّنون أسراً وينجبون أطفالاً، الحد من تفشي حالات المعاشرة قبل الزواج في المجتمع، الحفاظ على النسل البشري، الحفاظ على النفس من الانجراف نحو العلاقات المحرّمة التي تفسد المجتمعات البشرية، الحفاظ على المرأة من الضياع والاستغلال من قبل ضعاف النفوس، وإلزام الزوج بصيانة الزوجة ورعايتها والإنفاق عليها، تحقيق الراحة النفسية والسكن والطمأنينة بين الرجل والمرأة (الزوجين)، حفظ الأنساب من الاختلاط نتيجة العلاقات المحرّمة، وتربط القرابة والأرحام مع بعضها البعض، وتكوين أسر شريفة يسودها الرحمة والمحبة والألفة، تكريم الإنسان والتّرفع به عن الحياة البهيمية إلى العلاقة الزوجية الراقية في ظلّ شريعة الله.

وهناك العديد من السلبيات للزواج المبكر، ولا يمكن تلخيصها في مجموعة نقاط، لكن أبرزها هو الآتي:

عدم نضج الزوجين؛ فمن الممكن أن يكونا غير قادرين على تحمل المسؤولية، وبناء أسرة، وتربية الأطفال، وتحمل كامل الأعباء النفسية والاقتصادية المترتبة على ذلك «... أوكدّ لمحمد أنّي لست مخطوبة إلى زوج شقيقتي المرحومة»^(١).

(٢) إيجابيات وسلبيات الزواج المبكر.

(١) الرواية ص ٦١.

المبحث الثاني: آثار الزواج المبكر ومعالجته عبر التشريع

١ - المرأة بين التبعية والنضج

إنَّ وضع المرأة في مجتمعنا يتَّسم بالازدواجية والتناقض؛ فهي من جهة أولى بنت تحمل شرف العائلة وتمثّل عرض الأب والأخ، وهي أيضاً أمّ تصل إلى مرتبة القداسة من حيث إنّها مصدر للحنان والحب والعطاء، ورمز العفة والشرف والطهر، ومن جهة ثانية هي كائن ينقصه العقل والإدراك، كما أنّها رمز للعيب والضعف والعورة، لذلك لا بدّ أن تظلّ تحت حراسة مشدّدة، وإلاّ فإنّها ستغدو موضوعاً للغواية والشرّ والخداع.

٢ - التّأثيرات الصحيّة

تزويج الأطفال في سنّ المراهقة يساهم في استمرار تراجع مكانة المرأة، لما له من اسقاطات وتأثيرات خطيرة على مختلف الأصعدة. فالزواج المبكر يحدّ الفتاة ويمنعها من متابعة تحصيلها العلمي الذي يعدّ سلاحها الأوّل للاستقلال والنضوج. أضف إلى ذلك، التّبعات الصحيّة الخطيرة التي يحملها الزواج المبكر على الفتيات، نتيجة الحمل والإنجاب في جيل مبكر، منها عدم اكتمال نموها ما يجعلها عرضة للاجهاض المتكرّر وتسمّم الحمل، وعدم اكتمال نمو الحوض، وبالتالي التّعرّض لمخاطر الولادة القيصرية، الترهّل المبكر للجسم والهرم المبكر، إضافة إلى

نتيجة عدم الفهم الكامل لمفهوم العلاقات الزوجية، ما يتسبّب في الكثير من الأمراض الناجمة عن العلاقات الزوجية الخاطئة أو الحمل والإنجاب المبكر، قبل اكتمال الجهاز التناسلي للفتاة ما ينتج عنه مشكلات جسمانية كبيرة أهمّها الإجهاض.

- مشكلات اجتماعية: يتسبّب الزواج

المبكر في كثير من المشكلات الاجتماعية، نتيجة عدم خبرة الفتاة الصغيرة في تربية الطّفل وتنشأته تنشأة صحيّة، ما يؤدي إلى الكثير من الخلل المجتمعيّ نتيجة صغر سنّ الأم، وعدم معرفتها بالضروريّات اللاّزمة للتربية، كما ينتج عن هذا الأمر أطفال الشوارع والأطفال بلا مأوى نتيجة عدم قدرة الأم على تربية أطفالها لأنّها لاتزال صغيرة، وتحتاج لمن يدعمها أوّلاً.

- مشكلات قانونية: تنتج من خلال

عدم تسجيل الزواج لعدم سماح القانون للفتاة في عمر صغير من الزواج، وبالتالي تلجأ الأسر إلى الزواج العرفي، ما يؤدّي إلى هدر حقوق الفتاة وحقوق أبنائها مستقبلاً.

لا شكّ أنّ الزواج أمر ضروريّ ومهم وله الكثير من الفوائد، ولكنّ الزواج المبكر هو الوجه السلبيّ لمفهوم الزواج الذي ينتج عنه الكثير من الكوارث النّفسيّة والمجتمعيّة والصّحيّة.

الانعكاسات الصحيّة على الجنين والرّضيع لأنّ لم يكتمل نموّها الجسديّ والعاطفيّ والنّفسيّ والاجتماعيّ بعد، كما وأنّ تزويج الطفلات يزيد من احتمالات تعرضهنّ لحالات نفسيّة صعبة، ناجمة عن ضغوط الحياة الزوجيّة والمسؤوليّات الجمّة التي تلقى على عاتقها دونما اعتبار لصغر سنّها، وقلة خبرتها وبالتالي الصّعوبة في التّعاطي مع الأزمات.

٣ - طرق الحدّ من الزّواج المبكر

العوامل الاجتماعيّة والاقتصاديّة، هي من أهمّ المؤشّرات الدافعة بشكل كبير لتزويج الفتاة المراهقة، وهذه العوامل لا يمكن القضاء عليها جملة، بل يمكن العمل على الحدّ منها، عن طريق الضّغط على المشرع لاتخاذ سياسات وقوانين، لحماية المرأة، وإعداد خطة تنمويّة شاملة تهدف إلى القضاء على عوامل ومسبّبات الزّواج المبكر، لما له من انعكاسات سيئة وخطيرة على صحّة المرأة وسلامتها في المجتمع، ويقف حائلاً في وجه تنفيذ الخطط الوطنيّة، بالحلم في إيجاد مجتمع لبنانيّ متطوّر، ومتقدّم يحترم حقوق الإنسان ويحافظ عليها في التّعليم والتّطوّر. ولعلّ أهمّ التوصيات الناتجة من هذه الورقة تكون بالحرص على:

● رفع سنّ الزّواج إلى ١٨ سنة.

● جعل التّعليم إلزاميّ حتّى المرحلة الثّانويّة.

● اتخاذ إجراءات قانونيّة للحدّ من التسرّب من المدارس، ومعاقبة كلّ من يخالف القوانين.

● غطاء قانوني يضمن مشاركة للإناث في جميع نواحي الحياة الاجتماعيّة والاقتصاديّة، والسياسيّة.

● تضمين النّوع الاجتماعيّ في المناهج المدرسيّة، وتغيير الصّورة النّمطيّة للدور الذي تقوم به المرأة، والتّشجيع على التّعليم المهنيّ والتقنيّ.

● التّركيز على دعم برامج التّوعيّة المجتمعيّة للأسر، لتوضيح أهميّة تعليم الفتيات، وخاصة المهن غير التّقليديّة.

٤ - مشروع قانون حماية المرأة

وبتاريخ ٢٧/١/٢٠١٧، أُحيل مشروع قانون حماية النّساء من العنف الأسريّ بالمرسوم رقم ٤١١٢ إلى مجلس الأمن لإقراره.

وقد جاء في مقدمة الدستور اللّبنانيّ أن «لبنان عضو مؤسس وعامل في منظّمة الأمم المتّحدة، وملتزم موثيقها والإعلان العالمي لحقوق الإنسان، وتجسّد الدولة هذه المبادئ في الحقوق والمجالات جميعها من دون استثناء»^(١) ما يحفّز

(١) مقدّمة الدستور اللّبناني، الباب الأول، رقم ١٧ تاريخ ١٩٩٧، ٢١/٩.

مكان فيها، وترفض حقيقة وجود تمايز في الخصائص والوظائف بين الرجل والمرأة.

وعلى الدولة اتخاذ خطوات احترام حقوق الإنسان، وحمايتها والعمل على تنفيذها للوصول إلى الهدف. وبذلك تتحرك مطالبات الدولة باتخاذ كل التدابير الملائمة للرد على العنف ضد المرأة من مجال حسن التقدير، فتصبح حقوقاً شرعية، إذ لا يمكن القضاء على العنف ضد المرأة من دون الإرادة السياسية والالتزام على أعلى المستويات، وجعلها أولوية على الصعيد المحلي، والإقليمي، والدولي.

قد تقف الإرادة السياسية ضد العنف بطرق مختلفة، من بينها التشريع، وتخصيص الموارد الكافية، ووضع الآليات لمعالجة العنف ضد المرأة، وبذل الجهد للتغلب على الإفلات من العقاب.

كما أنّ للحركات النسائية دور مهم تؤديه كمبادرة لمعالجة العنف ضد المرأة. وقد برز بعض التقدم لإنهاء حالة العنف ضد المرأة، إذ يجب استنهاض مؤسسات المجتمع المدني لفضح جرائم العنف المرتكبة ضد النساء، ومعاقبة مرتكبيها قانونياً.

يجب وضع استراتيجيات وطنية تتضمن حملات توعية للرأي العام لنبذ

مطالبته الدولة بإقرار قانون حماية المرأة ضد العنف، وهي غاية نفعية للمجتمع لتنظيم العيش، وتحديد واجبات وحقوق أفرادها، وفق معتقدات وقيم ومبادئ أي مجتمع إنساني نبيل.

فالقانون يجب أن ينطلق من خصوصية أي مجتمع وحاجاته وتقاليده وأعرافه. وقد نصّ الدستور «كلّ اللبنانيين سواء لدى القانون، وهم يتمتعون بالسواء بالحقوق المدنية والسياسية ويتحملون الفرائض والواجبات العامة دون فرق بينهم»⁽¹⁾.

وقد انضم لبنان لاحقاً لاتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة (CEDAW) عام ١٩٩٢م، وتعهد بإقرار الحماية القانونية لحقوق المرأة على قدم المساواة مع الرجل وضمان الحماية الفعالة لها عن طريق المحاكم الوطنية ذات الاختصاص والمؤسسات العامة الأخرى من أي عمل (تمييزي) وتدعو هذه الاتفاقية إلى المساواة الكاملة والمطلقة بين الرجل والمرأة في الميادين السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، والمدنية كافة. كما تنظر هذه الاتفاقية نظرة واحدة للإنسان، والكون، والحياة، وهي النظرة الغربية للحقوق والواجبات التي ليس للقيم الدينية أو الخصوصيات الحضارية

(1) المادة السابعة من الدستور اللبناني.

العنف ضد المرأة، وتثقيفها فتعيد مكانة المرأة اجتماعياً، باعتبارها الشريك الحقيقي للرجل، ومتساوية معه في الحقوق والواجبات.

وكذلك إن الإرشاد التربوي للأطفال وتعليمهم لأنهم أمناء على المستقبل، وذلك لإنشائهم على محبة واحترام الأم والأخت، وعدم التعرض لهن، كي لا ينشأ على مبدأ العنف واستخدام القوة في معاملتهن. إذ إن العنف ضد المرأة مشكلة عميقة ومؤثرة على المجتمع والفرد، لأن التعاون بينهما يسهم في بناء مستقبل أفضل يحتذى به.

خاتمة الدراسة والاستنتاج

كانت هذه الرواية مدخلاً للمرأة ووسيلة لتحقيق الأمان المفقود، لتغيير واقع شفهي في مجتمع لا يزال يحتفظ بالعادات والتقاليد البالية، فقدّمت حقائق ألفتها لكن لن نعمل على ترميمها وهدم الهوية المقابلة لزماننا هذا، فقد خلّفت مشاكل أمة بحالها. هذه المشاكل التي تواجه المرأة الطفلة - إن صحّ التعبير - غالباً ما تؤدي إلى فشل الحياة الزوجية، أو استحالتها، فتكون النهاية إما بالطلاق، أو بتقديم تنازلات غير ملائمة، وفي كلتا الحالتين تزداد معاناة المرأة. ولكن السؤال يبقى، هل يتيح الزواج المبكر إنشاء علاقات غير شرعية؟ وكيف كانت تدعي الكاتبة أن «كاملة» لا تعني

الحب ولا تفهم بالزواج، علماً أنّها كانت تعشق وتقابل وتشعر بعدة أشخاص غير زوجها في الوقت عينه؟

بناء على النتائج السابقة، توصي الدراسة بما يلي:

١ - وضع الحلول الناجحة لمعالجة المشكلات الاقتصادية التي تعاني منها بعض الأسر والتي تلجأ لتزويج بناتها زواجاً مبكراً كحل لمشاكلها الاقتصادية، وذلك بالتعاون مع وزارة التنمية الاجتماعية.

٢ - ضرورة توفير أخصائي اجتماعي مؤهل في المدارس للتعريف بالزواج المبكر ومخاطره، وما يسببه من عنف ضد المرأة والطفل في ما بعد، وبيان مساهمته بنشر الفقر والجهل والبطالة في المجتمع.

٣ - الاستفادة من خبرات وتجارب من سبق لهنّ الزواج المبكر للتعريف به وبيان مخاطره.

٤ - أهمية عمل برامج ولقاءات وجلسات حوار، وعمل اتصالات مع المؤسسات الحكومية والخاصة كافة لإطلاعهم على أوضاع الفتيات ممن تزوج زواجاً مبكراً للمساعدة على تجاوز المشاكل الاجتماعية والصحية والاقتصادية التي يعاني منها من يقدم على الزواج المبكر.

٧ - يقوم الاخصائيون النفسيون والاجتماعيون بدورهم في توعية الآباء، والأمهات، والشباب حول مخاطر الزواج المبكر على المرأة والطفل.

٨ - اتخاذ إجراء رسمي في المحاكم الشرعية، والتأكد من السن القانونية للزواج.

٥ - العمل على إجراء البحوث والدراسات حول أسباب ومخاطر الزواج المبكر وسلبياته وآثاره على المجتمع وعلى تأخير تقدم المجتمع، وإعاقة تقدم المرأة وعدم حصولها على حقوقها، وتعاني اضطهاداً اجتماعياً نتيجة لعدم وعيها ووعي أسرتها بجوانب عدة من الزواج المبكر.

٦ - يجب على الإعلام اللبناني أن يقوم بدوره في التوعية من مخاطر الزواج المبكر على المجتمع.

النفايات في لبنان بين المواطن والبلديات منطقة بنت جبيل أنموذجاً

زينب حمادة شعيتو & جوسلين أدجيزيان جيرارد^(١)

الملخص

البلديات واستماراتنا التي وُجّهت إلى شريحة من سكان المنطقة كافية لتوضيح الصعوبات على المستوى الإداري والاجتماعي والثقافي لتطبيق إدارة جيدة للنفايات في المنطقة.

النفايات وإدارتها هي من أكثر المواضيع تعقيداً في لبنان، هذا البلد الذي عجز عن حلّ أزمة النفايات فيه منذ عام ٢٠١٥، فكان الحلّ بالنسبة إلى الدولة تطبيق اللامركزية في قطاع النفايات. حيث أصبحت البلديات مناطة بشكل أساسي بإدارة نفاياتها على حساب صناديقها البلدية. وفي حين أنّ منطقة بنت جبيل الواقعة في جنوب لبنان تضمّ بلديات ذات دخل محدود تعجز من خلاله عن تغطية الكلفة الكاملة لإدارة نفاياتها، اخترناها كنموذج لتقييم الوضع الحالي للنفايات فيها من ناحية الإدارة كبلديات ومن ناحية تصرفات السكان ومعرفتهم في هذا المجال. فكانت مقابلتنا مع عدد من رؤساء

المقدمة

تُعرّف إدارة النفايات (الشكل ١) بأنها عملية تشمل: الجمع، التخزين، الفرز، النقل، الطمر، المعالجة، الاستعادة، إعادة التدوير والتخلّص من النفايات بما في ذلك مراقبة مواقع طمرها خلال فترة استخدامها أو بعد إغلاقها^(٢).

من ناحية أخرى، أفصح Medina (2002) أنّ «الإدارة المتكاملة للنفايات تهدف إلى أن تكون مرغوبة اجتماعياً، ذات منفعة اقتصادية وصديقة للبيئة». فالإدارة الفعّالة

(١) قسم الجغرافيا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية (جامعة القديس يوسف - بيروت).

(٢) <http://www.mofa.go.jp/mofaj/gaiko/oda/files/000151394.pdf>.

هذه المنطقة من إهمال الدولة اللبنانية لها ومن ضعف بلدياتها مما ينعكس سلباً على معالجتها للمشاكل البيئية وأهمها إدارة النفايات والتخلص منها دون تلوث للبيئة أو أي إضرار بصحة المواطنين (Ahsan et al. 2014).

في هذا الوضع الحالي والمُعقد، كيف تقيم إدارة النفايات في منطقة اتحاد بلديات بنت جبيل، بناءً على سلوك البلديات والسكان فيها؟ وما هي المشاكل والقيود التي تواجهها البلديات في هذا الإطار؟

على حد علمنا، لم يتم إجراء أي دراسة في منطقة بنت جبيل حول الأوضاع الحالية لإدارة النفايات، وبالأخص من وجهة نظر اجتماعية. لذا كان من الضروري اعتماد المنهجية التالية لتحقيق المعرفة في هذا المجال.

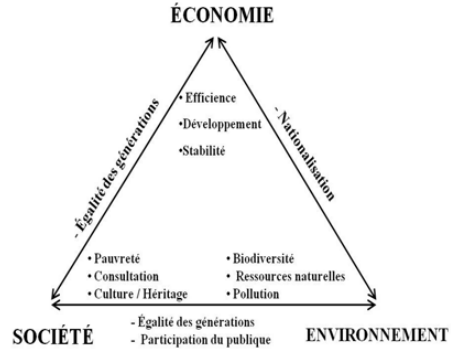
منهج البحث

في هذا النطاق قمنا بإجراء عدد من المقابلات:

كانت المقابلة الأولى موجّهة إلى رئيس اتحاد بلديات بنت جبيل بهدف الحصول على معلومات حول دور الاتحاد والمشاكل التي يواجهها فيما يتعلق بإدارة النفايات.

من ثم أجرينا مقابلات مع البلديات الخمس عشرة في المنطقة للاطلاع على الوضع الحالي لإدارة النفايات في كل قرية.

للنفايات تقوم على تطبيق مبادئ التنمية المستدامة (الشكل ١):



الشكل ١: مبادئ التنمية المستدامة Munasinghe (2001)

عندما نتكلم عن نظام إدارة النفايات في منطقة ما، لا يمكننا أن نتجاهل دور المواطنين. فالمسؤولية لا تقتصر فقط على صانعي القرار من بلديات أو غيرها بل إنّ المواطن يقع في صلب هذا النظام لأنّه المسؤول الأوّل عن إنتاج النفايات (Blaise, 2014). نتيجة لذلك، أدرجنا سلوك البلديات في إدارة نفايات منطقة اتحاد بلديات بنت جبيل الواقعة في جنوب لبنان.

هذه المنطقة الحدودية تضم خمس عشرة قرية هي: بنت جبيل، عيترون، عيناثا، الطيري، كونين، مارون الراس، يارون، عيتا الشعب، برعشيت، شقرا، حداثا، بيت ياحون، حانين، صربين ورشاف.

يقدر مجموع سكانها بـ ٣٦ ألف نسمة شتاءً وأكثر من ٦٠ ألف نسمة صيفاً. تعاني

أما على صعيد السّكان فقد وجّهنا لهم عدد من الاستثمارات (٥٠٠ استثمارة)، بهدف:

- تقدير كمية النفايات الناتجة عن الفرد يومياً.
- تقييم عادات المواطنين المتعلقة بالنفايات.
- تقييم مدى رضا المواطنين بالإدارة الحالية للنفايات في منطقتهم.
- تقييم معرفة وثقافة المواطنين بمشاكل النفايات وأمور إدارتها.
- البحث في إمكانية مشاركة المواطنين في خطط جديدة لإدارة النفايات.
- ميدانياً اعتمدنا لملء الاستثمارات الانتقاء العشوائي للبيوت، بسبب مساحة منطقة الدراسة الواسعة وخلوّ عدد كبير من البيوت من السكان عدا عن رفض الكثير من السكان الإجابة على أسئلتنا.
- تألّفت الاستثمارة من أربعة أقسام:
- الأوّل اختصّ بالمعلومات الشخصية كعدد أفراد الأسرة والدخل الشهري...
- الثاني هدف إلى تقييم معرفة السكان بأمور النفايات.
- الثالث حوى على أسئلة متنوعة لتبيان تصرفات المواطنين التي تتعلق برمي النفايات وفرزها.
- الرابع ركّز على إمكانية مشاركة المواطنين في إدارة النفايات.

النتائج

في الواقع، ونتيجة لنظام اللامركزية الذي تفرضه الدولة كحلّ بالنسبة لها، للتخلي عن مسؤولياتها تجاه مشكلة النفايات في لبنان، أصبحت البلديات هي المسؤول المباشر والوحيد عن إدارة النفايات في منطقة بنت جبيل كما في المناطق الأخرى. بالإضافة إلى ذلك فإنّ اتحادها لم يحمل على عاتقه هذه المسؤولية إذ أفادنا رئيسه بأن لا علاقة مباشرة للاتحاد بإدارة النفايات في المنطقة، فهو بحسب ما قال فقط يعمل على تحقيق المشاركة والتعاون بين بلدياته للتوصل إلى حلّ ما على صعيد المنطقة ككل.

أما بالنسبة إلى البلديات فقد أجمع أغلب الرؤساء على أنّ سوء إدارة النفايات في قراهم يرجع إلى النقص في التمويل، إذ أنّ كلفة عمليات إدارة النفايات تتحملها الصناديق البلديّة العاجزة عن معالجة النفايات بشكل كامل وصحيح.

في ظل هذه الصعوبات الاقتصادية، تعتمد أغلب البلديات في منطقة اتحاد بلديات بنت جبيل إلى جمع النفايات ورميها في مكبات عشوائية دون فرز أو معالجة. من بين هذه البلديات الخمس عشرة استطاعت فقط بلديتا بنت جبيل وعيترون إنشاء

ينتهي عمل المعمل عند العوادم (النفايات غير المعالجة) إذ يعجز عن معالجتها فيعمد معمل عيترون إلى إرسالها إلى مكب عيترون العشوائي أما معمل بنت جبيل فيرسلها إلى مطمر خارج منطقة الاتحاد. كشف لنا رئيس بلدية بنت جبيل أنّ معمل بنت جبيل قادر على معالجة نفايات قرى أخرى بشرط إيجاد طريقة جيدة للتخلص من العوادم ولكن حتى الآن لم يستطيعوا التوصل إلى طريقة مثالية للتخلص منها.

عملياً، تقتصر إدارة النفايات في منطقة دراستنا على الجمع والرمي العشوائي، ما ينعكس بشكل أكيد على البيئة وبالتالي على الصحة العامة لأنّ وجود أحد عشر مكباً عشوائياً تُحرق فيه النفايات من وقت إلى آخر (الشكل ٤) لا بدّ وأن يعارض كل مبادئ حماية البيئة.



الشكل ٤: مكب برعشيت العشوائي

حالياً، لا توجد معلومات أكيدة حول

معامل فرز وتسبيخ بتمويل من جهات أجنبية.

تعمل المعامل الحالية على فرز النفايات الناتجة عن بلدي بنت جبيل وعيترون ومن ثم تسبيخ النفايات العضوية القابلة للتسبيخ وتحويلها الى كومبوست (الشكل ٢) يوزع مجاناً على مزارعي المنطقة لاستخدامه كسماد لمزروعاتهم.



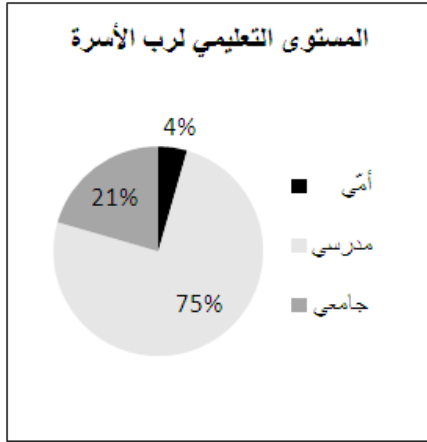
الشكل ٢: كومبوست (معمل بنت جبيل)

أما النفايات المفروزة (الشكل ٣) فتباع لتغطي كلفة قليلة من كلفة تشغيل المعمل.



الشكل ٣: النفايات المفروزة (معمل عيترون)

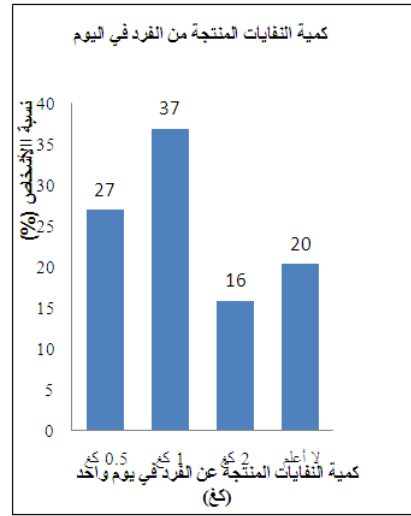
بتعلّم القراءة والكتابة، بل يتعلّق أيضاً بالحصول على الأدوات والوسائل للتفكير في أي سياق اجتماعي بيئي وتحليله والمشاركة بطريقة انتقادية وملتزمة في المجتمع (Madrane,2014). ومن هنا تأتي أهمية هذا العامل في نظام إدارة النفايات. أظهرت استمارتنا التي وجهناها إلى شريحة من السكان أنّ ٧٥٪ منهم لم يتخطوا المرحلة الثانوية من التعليم بينما ٢١٪ قد وصلوا إلى المستوى الجامعي و٤٪ هم أميون لا يعرفون القراءة والكتابة (الشكل ٦).



الشكل ٦: المستوى التعليمي لرب الأسرة

في حين أنّ الدخل الشهري يعكس القدرة الشرائية للأسرة، ومستوى الاستهلاك (Julian,2005). لذا كان من الضروري أن نهتم بهذا العامل. يوضح الشكل (٧) المستويات المختلفة لمتوسط الدخل الشهري للأسر التي شملتها دراستنا

وزن النفايات المنتجة فيمنطقة الدراسة. لذلك ولنا تقدير هذه الكمية من خلال استطلاعنا لعدد من منازل المنطقة (الشكل ٥):



الشكل ٥: كمية النفايات المنتجة عن الفرد في اليوم

يقدر ٢٧٪ من السكان أنهم ينتجون حوالي ١ كيلوغرام من النفايات للشخص الواحد في اليوم. وهذا القيمة قريبة من المتوسط العالمي المقدر من قبل البنك الدولي (١,٢ كجم لكل شخص)، بينما يقدر ٢٠٪ من السكان إنهم ينتجون ٢ كجم/شخص/يوم، وهي كمية عالية جداً يجب أخذها في الاعتبار. واعتقد ٢٧٪ منهم أنهم ينتجون ٠,٥ كجم/شخص/يوم و ٢٠٪ لم يستطيعوا تقدير كمية النفايات التي ينتجونها.

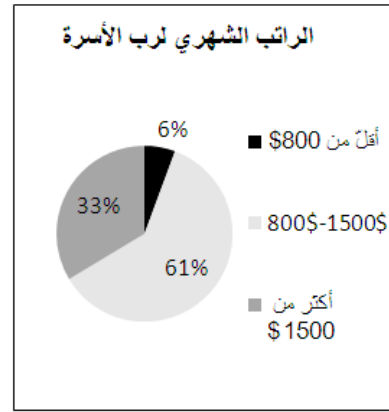
من ناحية أخرى، إنّ التعلم لا يتعلّق فقط

فكانت نتيجة اختبار χ^2 (إنتاج النفايات - متوسط دخل الأسرة): $P = 0.003$ ، وهي أصغر بكثير من a ، يمكننا أن نستنتج من خلاله أن متوسط دخل الأسرة يؤثر على إنتاج النفايات (هناك فرق كبير في المتغيرات). تُرافق الزيادة في الدخل بقوة زيادة في إنتاج النفايات. هذا إعادة ما يرجع إلى زيادة القوة الشرائية، وزيادة المساحة السكنية، وزيادة استهلاك المنتجات والخدمات والمتطلبات.

أما اختبار χ^2 بين (إنتاج النفايات - المستوى التعليمي لرب الأسرة) فقد أعطى: $P = 0.034$ ، وهي أصغر من قيمة a . إننا فإن المستوى التعليمي لرب الأسرة يؤثر بشكل قوي على إنتاج النفايات. يمكن تفسير هذه العلاقة من خلال حقيقة أن المستوى التعليمي العالي للشخص يجعله حريصاً على البيئة من مخاطر النفايات، وبالتالي يسعى إلى تقليل الكميات المنتجة منها.

وقد احتوت استمارتنا الموجهة للسكان على العديد من الأسئلة حول طرق تخلصهم من بعض أنواع النفايات، تبين لنا من خلالها أن ٢٩٪ من السكان يقومون بحرق النفايات والمخلفات الزراعية (أغصان مشدبة، نباتات مصابة، أكياس السماد...) بجانب بيوتهم لأن البلديات لم توفر لهم حتى الآن نظام جمع خاص بهذا النوع من

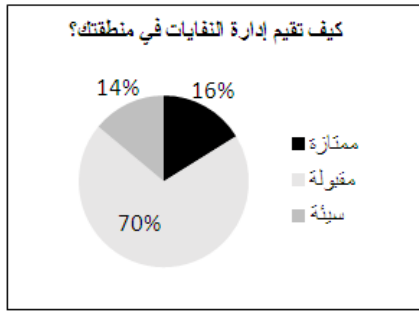
الاستقصائية. فكانت غالبية الأسر (٦١٪) التي شملتها الدراسة ذات دخل متوسط (بين ٨٠٠ دولار و١٥٠٠ دولار). وتبين أن ٣١٪ يحظون بدخل مرتفع وبالتالي قوة شرائية كبيرة. و فقط ٦٪ من الأسر هي ذات متوسط دخل شهري أقل من ٨٠٠ دولار.



الشكل ٧: الراتب الشهري لرب الأسرة

بهدف تحليل الفرق في كمية النفايات المنتجة بين الأسر، قمنا باختبار العلاقة بين متوسط كمية النفايات الناتجة ومستوى الدخل لكل أسرة من ناحية والمستوى التعليمي لرب الأسرة من ناحية أخرى من خلال اختبار (" χ^2 -square") هذا الاختبار الإحصائي يوضح العلاقة بين متغيرين عشوائيين. مع وجود فاصل ثقة ٩٥٪ ($a=0.05$)، يكون هناك فارق مهم (الفرق المحتمل بسبب المصادفة) إذا كانت القيمة P -value أقل من ألف (Bosson, 2008).

والمفاجأة الأكبر كانت في تعليقاتهم فكانت نظافة الشوارع هي حجتهم الأكبر لحسن سير عمليات إدارة النفايات في منطقتهم، فهم لم يلتفتوا ربما عن جهل إلى كارثة المكبات العشوائية التي تفتك بهم دون أن يدروا.



الشكل ٨: كيف تقيم إدارة النفايات في منطقتك؟

كما ورفض ٤٢٪ من السكان المستجوبين المشاركة المباشرة بإدارة النفايات بينما وافق ٤١٪ آخرون على المشاركة من خلال دفع رسم شهري قدره بتسعة آلاف ليرة لبنانية.

الخلاصة

عكست استمارتنا والتي لم يتسنّ لنا هنا الخوض في كل أسئلتها، قلة ثقافة السكان والمعرفة الضعيفة حول شؤون النفايات ورفض نسبة لا يستهان بها الأخذ على عاتقها مسؤولية تسوية وضع النفايات في المنطقة.

ويتطلب تغيير عادات المواطنين المتعلقة بالنفايات، الكثير من الوقت. كما ويجب عدم

النفايات بل على العكس فإنّها تحاسب كل من يرمي هذه النفايات بالقرب من الحاويات.

أمّا عن سؤالنا عن طريقة التخلص من زيت القلي المستخدم فقد أقرّ ٥١٪ من السكان أنهم يرمون الزيت على الأرض المجاورة لبيوتهم و٢٩٪ يرمونه في المراض.

كما أجاب ٣١٪ من المستجوبين بأنهم يرمون الأدوات الكهربائية والالكترونية الصغيرة مع النفايات المنزلية العادية، وبالتالي فهي تُجمع بشكل عادي وتُرسل إلى المكبات العشوائية ثمّ تحرق مع سواها من النفايات.

فهل يمكن أن نتغاضى عن التلوث البيئي الذي ينتج عن هكذا تصرفات؟

مع العلم أنّ السكان المستجوبين كلّهم أفادوا بأنّهم لا يطبقون أي فرز منزلي. عدّ البعض أنّ الفرز هو مسؤولية المعمل وعزا البعض الآخر تقصيرهم في هذا المجال إلى عدم وجود نظام جمع منفصل للنفايات وأنهم ولو طبقوا الفرز المنزلي فالنفايات ستعود وتجمع بكل أنواعها في المكبات.

في ظلّ ما سبق أردنا أن نستطلع تقييم السكان لإدارة النفايات الحالية (الشكل ٨) فكانت المفاجأة بأن ١٦٪ منهم اعتبروها ممتازة و١٤٪ آخرون اعتبروها مقبولة.

المراجع

- Ahsan A., M Alamgir M., El-Sergany M.M, Shams S., Rowshon M.K., Daud N.N., (2014): Assessment of Municipal Solid Waste Management System in a Developing Country, Chinese Journal of Engineering, vol.2014, 11 p.
- Bosson J.L., (2008): Principe d'un test statistique, cours en Biostatistiques, Université Joseph Fourier, 21p.
- Blaise L., (2014): Les citoyens et leurs ordures: Quelle responsabilité, éInkyfada, 1-9-2014.
- Julian R., (2005): Typologie et analyse de la gestion des déchets municipaux (ordures ménagères et déchets de marché) de la ville des Cayes à Haâti, mémoire pour l'obtention du diplôme d'ingénieur agronome, Université d'état d'Haâti, 53p.
- Madrane R., (2014): Gestion des déchets dans une approche d'éducation permanente Études & démarches pédagogiques, Lire et Écrire Bruxelles, vol.14(9), 139p.
- Medina M., (2002): Globalization, Development, and Municipal Solid Waste Management in Third World Cities. 17p.
- http://www.gdnet.org/pdf/2002AwardsMedalsWinners/OutstandingResearchDevelopment/martin_medina_martinez_paper.pdf.
- Munasinghe M., (2001): "Exploring the linkages between climate change and sustainable development: A challenge for transdisciplinary research". Conservation Ecology vol.5(1), 14p.

إهمال الشقّ الاجتماعي من قبل صنّاع القرار للتوصل إلى حلول للوضع الحالي للنفايات. فقد تتمكن حملات التوعية العامة من تقوية حسّ المشاركة والمسؤولية عند المواطنين في حل مشكلة نفاياتهم.

في هذا الوضع الشائك، ومع تشعّب المشاكل التي تحيط بإدارة النفايات في منطقة بنت جبيل بسبب الضعف الاقتصادي أولاً وجهل المواطنين ثانياً، يظلّ نظام الإدارة المتكاملة للنفايات، الذي يركز على تخفيض الكميات الناتجة عن النفايات، مرجعاً أساسياً للإدارة السليمة والمستدامة للنفايات مع حماية مُثلى للبيئة. لذا يبدو من الضروري تحسين نظام الجمع، وتطبيق الفرز من المصدر، والسعي إلى معالجة النفايات والتخلّص من المكبات العشوائية بإنشاء مطامر صحية.

المقاومة الأهلية في سوريا ضد الانتداب الفرنسي (ثورتا الشيخ صالح العلي وإبراهيم هنانو ١٩١٨ - ١٩٢١ نموذجاً)

رمضان أحمد العمر

القدس، التي يتبعها أفضية بئر السبع، الخليل، غزة، يافا، بيت لحم، أريحا^(١).

ولم تسفر الحرب العالمية الأولى وجلاء العثمانيين عن البلاد العربية عام ١٩١٨، عن تحقيق طموحات الحركة العربية في الاستقلال والوحدة ونيل الحرية وتقرير المصير، حيث وقعت البلاد في أيدي دول الحلفاء، بعد أن وثق العرب بوعودهم وبالتحديد انكلترا التي خذلتهم بالاتفاق مع فرنسا حسب اتفاقية سايكس بيكو ١٩١٦^(٢)، وجاء في التقرير الذي رفعه سايكس إلى حكومته في كانون الأول ١٩١٥، يقول: إذا ما قامت انكلترا باحتلال فلسطين وسورية فإن هذا الأمر سيؤدي

تألفت بلاد الشام في آخر التقسيمات الإدارية التي قامت بها السلطات العثمانية من ثلاث ولايات وثلاث متصرفيات، أما الولايات فكانت كما يلي: ولاية دمشق وتشمل أربعة ألوية (الشام، حماه، حوران، الكرك)، وولاية بيروت وتشمل خمسة ألوية (بيروت، طرابلس، اللاذقية، عكا، نابلس)، وولاية حلب وتضم ثلاثة ألوية (حلب، أورفة، مرعش)، أما المتصرفيات فكانت متصرفية دير الزور، وضمت أفضية رأس العين، عشاره، البوكمال، عربان، ومتصرفية جبل لبنان، تشكلت من ثمانية أفضية هي الشوف، المتن، كسروان، البترون، جزين، الكوره، زحلة، دير القمر، ومتصرفية

(١) الفكر الاستراتيجي العربي، تشرين الأول ١٩٩٢، العدد ٤٢، مقال للأستاذ الدكتور محمد مراد، بعنوان: العلاقات اللبنانية - السورية في عهد الانتداب الفرنسي، ص ٧٧ - ٧٨.

(٢) أثناء الحرب العالمية الأولى وبعد دخول تركيا الحرب إلى جانب ألمانيا، توصلت بريطانيا وفرنسا إلى اتفاق لتقاسم أراضي الإمبراطورية العثمانية فيما بينهما. وفي نيسان ١٩١٦ وقع مارك سايكس ممثلاً بريطانياً وجورج بيكو ممثلاً فرنسياً على اتفاقية عرفت باسميهما. وفي أيار ١٩١٦ وقعت عليها أيضاً إيطاليا وروسيا، أنظر، كمال ديب: تاريخ سورية المعاصر من الانتداب الفرنسي إلى صيف ٢٠١١، دار النهار، بيروت لبنان، ص ٣٨.

فقد طالبت تعديل اتفاقية سايكس بيكو^(٣)، وأيضاً حققت بريطانيا مكاسب من إعلان وعد بلفور وإعطاء اليهود وطن في أراضي فلسطين التي تعتبر جارة مصر وبوابة العرب نحو الغرب ومن خلال مصر تستطيع بريطانيا تأمين طريقها إلى إمبراطوريتها في آسيا وأفريقيا^(٤).

دخل فيصل دمشق في ٢ تشرين الأول ١٩١٨، وأعلن عبر بلاغ تشكيل حكومة سورية دستورية عربية مستقلة استقلالاً مطلقاً^(٥)، واعترض قيام الحكومة العربية بدمشق الحلفاء، ورفضوا إجراءاتها الإدارية، وقام الجنرال اللنبي بتقسيم بلاد الشام إلى ثلاث مناطق عسكرية، هي المنطقة الغربية وتشمل ألية بيروت، جبل لبنان، اللاذقية، وطرابلس، وقضائي أنطاكية والأسكندرونة، وتكون تحت إدارة فرنسية، والمنطقة الجنوبية وتضم فلسطين وتكون تحت إدارة إنكليزية، والمنطقة الداخلية تشمل شرقي الأردن ودمشق وحماه وحلب

إلى قيام ثورة يكون الجنود العرب والولايات العربية الخاضعة للدولة العثمانية إلى جانب الحلفاء، وبالمقابل فإن سايكس أثار مسألة تردد الشريف حسين في وقوفه إلى جانب الحلفاء خوفاً من أطماع فرنسا في البلاد العربية، حيث قال إن الحل يكمن في المفاوضات مع فرنسا، ويكون الهدف منها حل المشاكل^(١).

وبتاريخ ٢٣ تشرين الثاني ١٩١٥ بدأت المفاوضات في لندن بحضور المندوب الفرنسي فرانسوا جورج بيكو، ومع انتهاء المفاوضات بعث سفير فرنسا في لندن كتاب إلى وزير الخارجية البريطاني يعلن فيه قبول فرنسا بالحدود التي رسمت على الخرائط الموقعة من جانب مارك سايكس وجورج بيكون...^(٢). وهكذا فإن الرابط الذي يجمع بريطانيا مع فرنسا، اتفاقية سايكس بيكو ومع هذا لم ترض بريطانيا بالاتفاقية لأنها كانت ترغب بالحصول على بترول الموصل وكذلك أرادت بريطانيا إرضاء العرب الغاضبين من الاتفاقية لهذا

(١) Roger Adeison, «Mark Sykes: portrait of amateur», London: jonathan, Cape, 1975, p. 196 - 197.

(٢) Antoine Hokayem, et Marie Claude - Bittar, «L'emploi ottoman Les Arabes et Les Grandes puissances 1914 - 1920», collection L' Histoire par Les Documents, vol vl, les Editions universitaires Du Liban, Beirut, 1981, p. 52.

(٣) Colonel House et Charles Seymour, «ce qui passa reellement a Paris en 1918 - 1919», Paris 1923, p.186.

(٤) Stephen Hemsley Longrigg: «Syria and Lebanon under french mandate», New York 1972, p.22.

(٥) حسن الحكيم، الوثائق التاريخية المتعلقة بالقضية السورية في العهدين العربي والفيصلي والانتداب الفرنسي ١٩١٥ - ١٩٤٦، دار صادر، بيروت، بدون طبعة، ص، ٣٥.

وتكون تحت إدارة عسكرية تابعة للأمير فيصل^(١).

وبعد معركة ميسلون ٢٤ تموز ١٩٢٠، استغلت فرنسا التركيبة الاجتماعية بتنوعاتها السكانية والدينية في سوريا وجبل لبنان «وعمدت إلى تجسيم الخصوصيات الاثنية والقومية، حيث وجدت فيها منفذاً لسياستها التجزئية»^(٢).

والجدير بالذكر أن الخارطة الجغرافية - السياسية موضع اهتمام ودراسة من قبل مختصين ومسؤولين سياسيين فرنسيين، واعتمدوا مبدأ الإضعاف الاجتماعي السكاني الداخلي، من خلال إنشاء سلسلة من الدويلات الصغيرة الضعيفة، وهذا ما يزيد من توتر العلاقات وصعوبة توحيدها وانصهارها الوطني والاجتماعي إذ صح التعبير^(٣).

استلم الفرنسيين زمام الأمور في كامل

منطقة الشرق العربي، وتذرّعوا بالنيات الحسنة على انجاز شروط الانتداب الذي عهد به إليها مؤتمر الصلح وبالعامل على توحيد كل ما هو صالح ومفيد لسورية وإنماء ثروتها مع ضمانة استقلال شعوبها، ووعدوا ببذل الجهود وتقديم فنيين لتنظيم المصالح العامة^(٤)، وفي الواقع كان العكس فأصدر غورو في آب ١٩٢٠ تقسيم سورية إلى دويلات على أساس طائفي (دولة العلويين، دولة حلب، دولة دمشق، دولة جبل الدروز)^(٥)، وبهذا تكون فرنسا قد نجحت في تحقيق القسم الأكبر من مصالحها وأهدافها في تقسيم وأضعاف المنطقة العربية^(٦). واجهت فرنسا في بدايات احتلالها للأراضي السورية أساليب المعارضة الوطنية في مختلف أنواعها وأتباع الطرق السياسية والمظاهرات ورفع مذكرات احتجاج إلى الهيئات الدولية، بالمقابل تحولت في الكثير من الأراضي

(١) أمين سعيد، سيرتي ومذكراتي السياسية، (عدد المجلدات ٢)، المجلد الأول، تبويب وتوثيق وتحقيب عبد الكريم إبراهيم السمك، ٢٠٠٤، الطبعة الأولى، بدون دار نشر، ص ١٨٦.

(٢) الفكر الاستراتيجي العربي، مقال للأستاذ الدكتور محمد مراد، بعنوان: العلاقات اللبنانية - السورية في عهد الانتداب الفرنسي، مرجع سابق، ص ٨١.

(٣) الفكر الاستراتيجي العربي، مرجع سابق، ص ٨١.

(٤) جريدة العاصمة، بتاريخ ٢ آب ١٩٢٠، العدد ١٤٦، ص ١ - ٢.

(٥) لمعرفة المزيد عن تقسيم سورية إلى دويلات راجع: الفكر الاستراتيجي العربي، كانون الثاني ١٩٩٢، العدد، ٣٩، مقال للأستاذ الدكتور محمد مراد، بعنوان، السياسة الانتدابية الفرنسية في سوريا ولبنان بين التفكك السياسي والتوحيد الاقتصادي، ص ١٧٥ - ١٧٦ - ١٧٧.

(٦) وجيه كوثراني، التاريخ الاجتماعي للوطن العربي، بلاد الشام، السكان، الاقتصاد، والسياسة الفرنسية في مطلع القرن العشرين، قراءة في الوثائق، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٠، ص ٢١٧.

السورية إلى مقاومة شعبية ثورية، وانطلقت المواجهات المسلحة ضد الفرنسيين على الرغم من قلّة المال والسلاح والذخائر، وكانت هذه الطريقة الأفضل والخيار الوحيد للدفاع عن قلب العروبة النابض سورية، وأبرز تلك المواجهات كانت من خلال ثورتي الشيخ صالح العلي^(١)، التي انطلقت في المنطقة الساحلية بشهر كانون الأول ١٩١٨، وهو من مواليد عام ١٨٨٣ في قرية المريقب

منطقة طرطوس، ناحية الشيخ بدر^(٢) و ثورة إبراهيم هنانو^(٣)، التي انطلقت من المنطقة الشمالية الغربية (كفرتخاريم) في ١٠ نيسان ١٩١٩^(٤)، وهاتان الثورتان خير دليل على تصميم الشعب السوري على مقاومة الاحتلال الفرنسي ونيل الاستقلال، وإرسال رسالة للفرنسيين بأن مهمتهم شائكة وصعبة في تثبيت احتلالهم، وتظهر تلك المقاومة والتعاون والتنسيق الذي حدث بين الثورتين تضامناً وتلاحماً طوائف

(١) ينحدر الشيخ صالح العلي من أسرة توارثت المواقع الدينية وكان والده الشيخ علي سلمان رجل علم ودين وعلى سعة في العيش يملك مساحات واسعة من الأرض في منطقة الشيخ بدر وما حولها، وهو مقيم مع أسرته وأولاده في مزرعة الرستي المحاذية للشيخ بدر وأنجب من الأولاد أربعة وهم: الشيخ محمد كامل والشيخ صالح والشيخ عباس والشيخ محمود، وكان الشيخ صالح في العشرين من عمره تقريباً عندما توفي والده، وتبين للأسرة بأنه رغم سنه المبكرة يكاد يكون لأهله من بين أشقائه الآخرين ليحمل إرث الوالد ومكانته الدينية، وتم الاتفاق على مبايعته بالمشيخة وزعامة العائلة، وبلغ شأنه كبيراً من النجاح ولاسيما في تعامله مع الفلاحين في أراضيه الواسعة. فقد كان ملاكاً كبيراً لكنه لم يتصف بخلق وعادات كبار الملاك الإقطاعيين، لذلك تجاوزت القاعدة الفلاحية مع ثورته. راجع: منذر الموصللي، البحث عن الذات والجذور، مطابع الداية، الطبعة الأولى، دمشق ٢٠٠٧، ص، ١٥٣ - ١٩٤.

(٢) عزيز نصار، الثائر صالح العلي، وزارة الثقافة، الهيئة العامة للكتاب، منشورات الطفل، سلسلة أعلام للناشئة العدد (٢٤)، دمشق، ٢٠١٣، ص، ٥.

(٣) ولد إبراهيم بن سليمان بن محمد بن هنانو في بلدة كفر تخاريم، بمحافظة إدلب سنة ١٨٦٩، ودرس فيها حتى الإعدادية ثم أكمل دراسته الثانوية في حلب، وسافر إلى استانبول بعد إنهاء خدمته العسكرية لإتمام دراسته دون موافقة والده الذي لم يكن يرغب بدراسة ولده كونه ملاكاً كبيراً ولا يريد له أن يكون موظفاً، درس في تركيا ونال شهادة الحقوق وعين مديراً لمدرسة في حلب، ثم مديراً لناحية في احد نواحي استانبول وبقي هناك ثلاث سنوات، وعين بعد أربع سنوات من الغربية مستنطقاً في كفر تخاريم حيث أمضى ثلاث سنوات، وانتخب بعدها عضواً في مجلس إدارة حلب، وبقي أربع سنوات في وظيفته هذه، وكان آخر وظيفة له رئيساً لديوان الولاية، وفي عهد فيصل انتخب مندوباً عن قضاء حام للمؤتمر السوري، وبعد أن احتل الفرنسيون الساحل السوري ترك المؤتمر وعاد إلى حلب سنة ١٩١٩، وكان إبراهيم هنانو على صلة وثيقة بالثائر البطل الشيخ صالح العلي قائد ثورة الجبال والساحل في اللاذقية وطرطوس، راجع: محمد علي حلوم، أبطال النهضة العربية، المجاهد الكبير إبراهيم هنانو، دار كرم للطباعة والنشر، دمشق، ص، ٦ - ٧.

(٤) صلاح الدين كيالي، كفر تخاريم ماضياً وحاضراً عاداتها وتقاليدها، دراسة تاريخية اجتماعية، تقديم عبد المجيد همو، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ص، ٤٣.

الشعب السوري ضد الاحتلال الأجنبي كافة.

تنظيم المقاومة وتمويلها بالمال والسلاح

عمل الشيخ صالح العلي على تنظيم رجال الثورة تنظيماً عسكرياً وإدارياً ناجحاً، ولم يترك أي ناحية تنظيمية لم يعرها اهتمامه الكامل، وكانت تلك التنظيمات شاملة النواحي جميعها وقد أنشأ لجهازه ديواناً للبريد يربطه بمناطق انتشار الثورة وكذلك بالحكومة العربية بدمشق، من أجل تسجيل الواردات والنفقات التي قدمت للثورة على اختلاف أنواعها، وأقام إدارة للتموين، وأنشأ ديواناً لبيت المال، وهيئة للتفتيش، وهيئة للأمن، وفرقة من الدعاة لضبط الثورة من الجوانب كافة^(١)، وأبرز ما تميزت به ثورة الشيخ صالح العلي أنها دعمت من مختلف المدن السورية وفي مقدمتها اللاذقية وحماه وتلكمخ وكذلك لم تبخل الزعامات العلوية بالدعم المادي والعسكري^(٢)، وعمل الشيخ على تعيين القادة وإعفائهم من مناصبهم^(٣)، وشكّل

مجموعة سمّاها هيئة أركان حرب الثورة، وتضم الضباط الذين كانت الحكومة العربية بدمشق قد بعثتهم كمستشارين، وكان يوجد العقداً ممن تطوعوا للثورة من الضباط القدامى. وفيما يتعلّق بالرؤساء فقد كانوا أدنى مرتبة من العقداً وعينهم الشيخ صالح العلي من الوجهاء المحليين أو من الشيوخ الذين لمعوا في الثورة، وتلا مرتبة الرؤساء مراتب عدة كملازم وغيره ولكل شخصية عمل خاص^(٤). وهؤلاء جميعهم يرتبطون بالقائد الرئيسي صالح العلي وأركان حربه، وعمل الشيخ صالح العلي تقسيم القوات إلى كتائب أو عشائر، وعيّن على رأس كلّ منها عقيداً من شيوخها، وقسم الكتائب إلى وحدات أصغر، ولكلّ وحدة قائد، وألحق بها مفارز من الخيالة للاستطلاع وكشف خطوط العدو^(٥).

أما ثورة إبراهيم هنانو، تشكّلت جمعية الدفاع الوطني في حلب بعد عقد جلسات المؤتمر السوري بدمشق، وذلك بحضور يوسف العظمة وزير الحربية السورية، وكلف إبراهيم هنانو ورفيقه السيد محمد

(١) عبد الرحمن باشا، الراية الثالثة، منشورات وزارة الثقافة السورية - ١٩٦٣، ص، ٧٩.

(٢) منذر الموصلي، البحث عن الذات والجذور، ص، ١٥٤.

(٣) عبد الرحمن باشا، الراية الثالثة، مرجع سابق، ص، ٧٩.

(٤) إحسان الهندي، كفاح الشعب العربي السوري ١٩٠٨ - ١٩٤٨ دراسة عسكرية تاريخية، منشورات إدارة الشؤون العامة والتوجيه المعنوي، دمشق، ١٩٦٢، ص، ٦٢.

(٥) جميل العلواني، نضال شعب وسجل خلود ١٩١٩ - ١٩٤٦، مطبعة الآداب والعلوم، دمشق، ١٩٧٣، الطبعة الأولى، ص، ١٢٧.

زين العابدين، على أن يجمع الرجال والأموال لحماية البلد ودعم نضاله لتحقيق الاستقلال ونيل الحرية ودحر الفرنسيين^(١).

ومن جهة ثانية فقد جمع الحاج نجيب باقي، والحاج شاهين الختام، والشيخ صادق الرفاعي (٢٠٠٠) ليرة ذهبية و(١٧٠٠) بندقية من تجار مدينة حلب استعداداً لمعركة الدفاع عن الوطن، وتطوع الحاج أحمد المصري الملقب بأبي كدرو، وجهاز (٦٨٠) مسلحاً من رجاله^(٢).

وشكّل أول مجموعة لقتال الفرنسيين تألفت من سبع رجال وهم: عبد الرحمن الأفندي، وجميل عباس، ومصطفى عويد، وصالح الشغوري، ومصطفى أبو درويش، ومحمد علي جمعة، وعلي المغربي، وسلّحوا بالبنادق والقنابل وأطلقت يدهم في إقلاق راحة الفرنسيين ونشروا الخوف والاضطرابات بين صفوفهم^(٣).

وهذا ما دفع هنانو لتقوية هذا الجهاز وتوسيع رقعة أعماله العسكرية، حيث تشكّلت لهذه الغاية النبيلة لجنة تشريعية

رباعية مركزها بلدة كفرتخاريم، وأعضاؤها أصحاب سمعة طيبة وأخلاقه عالية وهم: عزة هنانو، إبراهيم الصرما، محمد درويش كيالي، نجيب عويد، ومهمة اللجنة جمع المال لتزويد المجاهدين بالرواتب والسلاح والذخائر وبلغ عددهم الأربعين رجلاً^(٤).

وتمّ تقسمهم إلى أربع مجموعات يقود كل مجموعة رقيب وهم: الحاج درغام درة، محمد علي جمعة، محمد حسين زهراء، عبدو حسن زنوب، وجميعهم تحت قيادة مباشرة برئاسة عبد الرحيم الأفندي^(٥).

وانضم إلى الثورة أهالي البلدات المجاورة مع العلم أن لهذه البلدات ثوارها الخاصون، والذين يشار لهم بكلمة أبناء كأبناء سلقين أو أبناء ارمناز^(٦). فقد أكدت وثائق وزارة الخارجية الفرنسية أن تنظيم العصابات وتسليحها واستخدامها ضد الفرنسيين جاء بدعم من السلطات العسكرية الشريفة بدمشق، وتعتبر البرقية المرسلة بتاريخ ١٠ كانون الأول ١٩١٩ من قبل رائد كتيبة حلب إلى رائد سرية الفرسان أنها واحد من أهم البرقيات وأتت

(١) أدهم ال جندبي، تاريخ الثورات السورية في عهد الانتداب الفرنسي، مطبعة الاتحاد، ١٩٦٢، ص، ٦٢.

(٢) عبد الكريم عبد الحي، الثورات الثلاث الكبرى في سورية، رجال خالدون، حلب، ١٩٨٠، ص، ٧٠.

(٣) مذكرات إبراهيم شغوري عن ثورة هنانو، مديرية الوثائق التاريخية بدمشق، القسم الخاص، الوثيقة رقم ٢٠، الملف رقم ١٢٨، أوراق غير منشورة، ص، ٢.

(٤) مذكرات إبراهيم شغوري عن ثورة هنانو، مصدر سابق، ص، ٣.

(٥) مصدر سابق، ص، ٣. (٦) مصدر سابق، ص، ١٧-٣٢.

وعلى خمس رشاشات فقام هنانو بتشكيل تنظيم عسكري جديد وهو عبارة عن أربع فرق ضمت ما يقرب ألف ثائر وهي على الشكل التالي^(٥):

الفرقة الأولى: منطقة القصير (قصير أنطاكيا) وتضم ٤٠٠ ثائر، بقيادة يوسف السعدون.

الفرقة الثانية: منطقة كفر تخاريم وتضم ٢٥٠ ثائر، بقيادة نجيب عويد.

الفرقة الثالثة: منطقة جبل الزاوية وتضم حوالي ٢٠٠ ثائر، بقيادة مصطفى الحاج حسين.

الفرقة الرابعة: منطقة جبل صهيون وتضم قرابة ١٥٠ ثائر، بقيادة السيد عمر البيطار.

حرص كل من الشيخ صالح العلي وإبراهيم هنانو على تحقيق العدالة بين أتباعهم في المناطق التي تحت إشرافهم، وعمدوا إلى تنقية الثورة من المستغلين والمستهترين وغير المنضبطين لتحافظ

على الشكل التالي: «لقد اعتبرنا أنه من المفيد أن نرسل ١٥٠ جندياً مع ثلاثة ضباط من سریتکم تحت رئاسة القائد صادق باي من أجل العمل على شكل لصوص. وبما أنه يوجد بينهم جنود عاديون، يجدر بنا إعطاؤهم لباساً وطنياً وتقسيمهم إلى ثلاثة مجموعات...^(١). وكشفت الوثيقة الفرنسية مسؤولية الأمير فيصل عن الاضطرابات والفوضى الحاصلة في البلاد حيث قال إنها حصلت لتلبية لأوامره وقال فيصل بالتحديد «كل الأمور كانت مجهزة لهذه الغاية»^(٢)، ويشير التقرير أن الحكومة الشريفة لم تفعل شيئاً لتهدئة الأوضاع بل إن الاضطرابات ازدادت وأغرقت البلاد بالعصابات وتطوع الضباط والجنود الشريفيون مع تلك العصابات بدعم من الحكومة العربية بدمشق^(٣).

وبعد توقيع اتفاقية مع الأتراك بتاريخ ٦ أيلول ١٩٢٠ واتسع نطاق الثورة، حصل على دعم واستلم هنانو كدفعة أولى^(٤)، مدفع جبلي وعشرين صندوق من الذخيرة

(١) Actes d'hostilité caractérisée Contre Notre Corps d'Occupation

وثائق وزارة الخارجية الفرنسية المجلد رقم ٣١، ص، ١١٢.

(٢) La même source. p.113.

(٣) La même source. p113.

(٤) لم تكن هذه المساعدات حياً بمساعدة الثورة بل لكي يتم فتح جبهة ثانية ضد القوات الفرنسية التي كانت تحارب الأتراك في كيليكيا فتتخفف بذلك الضغط عن القوات التركية هناك.

(٥) إحسان الهندي، كفاح الشعب العربي السوري ١٩٠٨-١٩٤٨ دراسة عسكرية تاريخية، مرجع سابق، ص، ٧٢، أيضاً: علي رضا: «قصة الكفاح الوطني في سورية عسكرياً وسياسياً حتى الجلاء ١٩١٨ - ١٩٤٦»، بدون طبعة، المطبعة الحديثة بحلب، أيار ١٩٧٩، ص، ٦٠.

وهنانو في مدّ المقاومة الأهلية بالمال والسلام بالإضافة إلى ما قدمه الثوار من خلال الهجوم على مؤن القوات الفرنسية^(٤).

انطلاقة العمليات العسكرية لثورتي الشيخ صالح العلي وإبراهيم هنانو ١٩١٨ - ١٩٢١ على مرحلتين:

المرحلة الأولى: من كانون الأول ١٩١٨ - حتى تموز ١٩٢٠

ثورة الشيخ صالح العلي

بدأت ثورة الشيخ صالح العلي بتاريخ ١٥ كانون الأول ١٩١٨^(٥)، حين احتلت القوات الفرنسية الشريط الساحلي وتحركوا نحو الداخل^(٦)، ووجه الشيخ صالح العلي دعوة إلى بعض زعماء الجبل ووجهائه ومشايخه للاجتماع في قرية الشيخ بدر^(٧)، وقد لبى الدعوة عدد كبير منهم^(٨)، وبدأ

الثورة على مصداقيتها، وكانوا حريصين على عدم السماح بحدوث أي سلب أو نهب أو تخريب أو اعتداء، وطلب من الرجال الثائرين البطش بكل ما يستحل أموال الناس أو يستغل الظروف لمصلحته الخاصة، وأن تكون مصلحة الوطن هي العليا وأن تذوب فيها المصالح الفردية كلّها والمنافع الخاصة، وحتى لو امتدت أيدي البعض إلى أملاك الناس بالسرقة كانت قيادة الثورة تخصّص دوريات خاصة لتلاحق وتضرب على أيدي الناهبين وإعادة المنهوبات^(١)، والتعويض عما لحقهم من أضرار^(٢). وكانت قيادة الثورة يقظة لأعمال العملاء وأتباعهم وتصرفت بحزم مع الذين تعاونوا مع الاحتلال الفرنسي، وأوقعت بهم أقسى العقوبات^(٣)، وساهم الشيخ صالح العلي

(١) موسوعة السياسة والحرب في بلاد الشام، إبراهيم مصطفى محمود، تقديم العماد علي حبيب، الجزء الأول، دمشق، وزارة الثقافة، الهيئة العامة السورية للكتاب، ص، ٤٨٢.

(٢) عبد اللطيف اليونس، ثورة الشيخ صالح العلي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، سلسلة رواد التحرير العربي (١)، دار البيقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، ص، ٨١.

(٣) موسوعة السياسة والحرب في بلاد الشام، مرجع سابق، ص، ٤٨٣.

(٤) مرجع سابق، ص، ٤٨٤، أيضاً، عبد اللطيف اليونس، ثورة الشيخ صالح العلي، مرجع سابق، ص، ٨٣.

(٥) عزيز نصار، الثائر صالح العلي، مرجع سابق، ص، ١٣.

(٦) جميل العلواني، نضال شعب وسجل خلود ١٩١٩ - ١٩٤٦، مرجع سابق، ص، ٨٩. أيضاً، مجلة العمران، عدد خاص عن مدينة حماه، السنة الرابعة، العدد ٢٩ - ٣٠، حزيران ١٩٦٩، مقال بقلم ادهم الجندي، بعنوان: النضال القومي في حماه، ص، ٤٧.

(٧) إحدى نواحي قضاء طرطوس.

(٨) أحمد المحمود عدرة، محمد إسماعيل، الشيخ علي أحمد ميهوب، الشيخ معلا أحمد غانم، الشيخ يونس محمد رمضان، الشيخ أحمد محمد رمضان، الشيخ علي عباس، عبد الكريم الخيّر، أسبر زغبيني، علي زاهر، إسماعيل إحسان، محي الدين عدبا، انظر: عزيز نصار، الثائر صالح العلي، مرجع سابق، ص، ١٤.

وجهزت القيادة الفرنسية في القدموس حملة سريعة مؤلفة من كتيبة مشاة مدعوة بالمدفعية لاحتلال قرية الشيخ بدر واعتقال الشيخ صالح العلي والخلص من الثورة قبل أن تتسع رقعتها الجغرافية^(٤).

ولم يكن للشيخ إلا بعض الرجال، وكميات قليلة من الذخيرة والسلاح، فتصدى هو ورجاله للحملة وتمركزوا في مكان تحيط به الغابات والصخور من الجهات كلها عند قرية تدعى النيجا الواقعة غربي وادي العيون^(٥)، وأطلق الثوار النار على القوات الفرنسية الموجودة في أرض منبسطة ومكشوفة، بينما كان الثوار في مواقعهم المحصنة التي يصعب الوصول إليها، ولم تستمر المعركة لمدة طويلة رغم عدم التكافؤ بين الجانبين، فانسحبت القوات الفرنسية ووراءها قتلى جنودها التي بلغت ٣٥ قتيلاً أي ما يقارب ثلث عدد السرية، وغنم الثوار العشرات من البنادق والذخائر والمعدات وكانت هذه المعركة وأولى

الاجتماع بالحديث عن احتلال الفرنسيين للساحل السوري، وتمزيقهم أعلام الثورة العربيّة، ودوسها بالإقدام، وانتقامهم من الذين يرفعونها، وأوضح نوايا الفرنسيين وسعيهم لفصل الساحل السوري عن سوريا، وإبقائه مستعمرة لهم، وتكلم عن خيانة الحلفاء والنوايا الخبيثة التي يضمورها الفرنسيين وأعلن الشيخ صالح العلي رغبته في أشغال نار الثورة في وجه الفرنسيين وفي ضمّ المنطقة الساحلية إلى الشام. واستجاب الحاضرون له واتفقوا على القيام بالثورة والاتصال بالحكومة العربيّة بدمشق لمساعدتهم وبايعوا الشيخ بالقيادة العامة للثورة^(١)، وفي المقابل تسرّبت أخبار الاجتماع للفرنسيين، فقامت بالقبض على بعض الزعماء الذين حضروا الاجتماع ووضعتهم في سجن بانياس^(٢)، وأرسلوا دعوة للشيخ صالح العلي للاجتماع معهم، لكنّه يعرف عظم المهمة الملقاة على عاتقه، ويدرك بشكل جيد خبث نوايا الفرنسيين^(٣)،

(١) عبد اللطيف اليونس، ثورة الشيخ صالح العلي، مرجع سابق، ص، ٦٧ - ٦٨، أيضاً، عزيز نصار، الثائر صالح العلي، مرجع سابق، ص، ١٤ - ١٥.

(٢) من بين الذين تم اعتقالهم: أحمد المحمود، محمد إسماعيل، أسبر زغبيني، أنظر: جميل العلواني، نضال شعب وسجل خلود ١٩١٩ - ١٩٤٦، مرجع سابق، ص، ٩٠.

(٣) جميل العلواني، نضال شعب وسجل خلود ١٩١٩ - ١٩٤٦، مرجع سابق، ص، ٩٠.

(٤) فارس زرزور، معارك الحرية في سورية، قصة الكفاح الشعبي من أجل جلاء القوات الأجنبية، (الكتاب الفائز بجائزة قائد الجيش العربي السوري للبحوث العسكرية القوميّة لعام ١٩٦٢) دار الشرق للنشر والتوزيع، دمشق، ص، ٥٦.

(٥) عزيز نصار، الثائر صالح العلي، مرجع سابق، ص، ١٥، أيضاً: عبد اللطيف اليونس، ثورة الشيخ صالح العلي، مرجع سابق، ص، ١٠٧.

المعارك وسميت بمعركة الشيخ بدر الأولى^(١).

وانتشر خبر هذه المعركة في أنحاء جبل العلويين كافة، وانضم متطوعو الثورة للدفاع عن تراب الوطن الغالي، وبتاريخ ٢ شباط ١٩١٩ أعاد الفرنسيين الهجوم على قرية الشيخ بدر مرة ثانية، ومعهم قوات كبيرة، وجرت معركة ضارية ومع حلول المساء تمت هزيمة الفرنسيين، ونتج عن هذه المعركة مقتل ٢٠ قتيلاً للفرنسيين، ووقع أسرى في أيدي الثوار واغتتم الثوار المعدات والذخيرة، وتجدر الإشارة هنا إلى دور الشيخ صالح العلي في إدارة المعركة وتنظيم الثوار وتوجههم^(٢). وفي أوائل عام ١٩١٩ كانت الثورة قد امتدت لتشمل منطقة جبل صهيون^(٣)، وكان على رأس الثائرين هناك السيد عمر البيطار ومصطفى إسماعيل، فعدوا اجتماعاً، كان فيه إبراهيم أبو سليمان الجندي، وشحادة زكريا، وعبد الرؤوف طيبة، والحاج مصطفى المجبور، ومحمد عبد الجليل، ومحمود عطور، وأحمد كليه، وغيرهم وأصدروا قرار التصدي

للاحتلال الفرنسي، وأرسلوا وفداً إلى حلب للاجتماع بأركان الحكومة العربية فيها، ولكن واجه هذا الوفد قوات فرنسية أوقفته وإعادته إلى (بابنا) ووقعت خسائر بين الطرفين^(٤).

اعترضت قوة فرنسية قافلة تجارية كانت تتجه من منطقة (بابنا) إلى حلب وسيطرت عليها، ووصل الخبر إلى أهالي المنطقة فثار قرابة ٢٠٠ رجل مسلحين بالبنادق الحربية وبنادق الصيد ولحقوا بالقوة الفرنسية، ونصبوا لها كميناً في قرية خان عطا الله قرب النهر الكبير على بعد ١٠ كم شرق مدينة اللاذقية، ووقعت معركة عنيفة استمرت نحو ست ساعات انتهت بهزيمة الفرنسيين وقتل منهم الكثير، وغنم الثوار السلاح والعتاد والذخيرة واستردوا القافلة المسروقة وعادوا إلى جبل صهيون ومعهم شهدائهم والغنائم، وكانت هذه المعركة نذيراً بإشعال نار الثورة في جبل صهيون^(٥). ولكن لم ينتظر الفرنسيين الكثير للانتقام من الأهالي والثوار فأرسلوا كتبتين احتلتا الحفة وبابنا وعززوا قوتهم في تلك المناطق^(٦).

(١) عبد اللطيف اليونس، ثورة الشيخ صالح العلي، مرجع سابق، ص، ١٠٧ - ١٠٨.

(٢) المرجع نفسه، ص، ١٠٩.

(٣) يقع جبل صهيون في الشمال الغربي من الجبال الساحلية.

(٤) علي رضا: «قصة الكفاح الوطني في سورية عسكرياً وسياسياً حتى الجلاء ١٩١٨ - ١٩٤٦»، مرجع سابق، ص، ٢٧.

(٥) جميل العلواني، نضال شعب وسجل خلود ١٩١٩ - ١٩٤٦، مرجع سابق، ص، ٩٤.

(٦) علي رضا: «قصة الكفاح الوطني في سورية عسكرياً وسياسياً حتى الجلاء ١٩١٨ - ١٩٤٦»، مرجع سابق، ص، ٢٩.

ونتيجة لذلك قام الثوار بالهجوم على الفرنسيين في اللاذقية بقيادة الشيخ عز الدين القسام وهو من أهالي مدينة جبلة، حيث شكّل مجموعة من ٢٧ ثائراً، وأمرهم بمهاجمة الثكنة الفرنسية، ولكن الحرس شعروا بالثوار، وحدثت معركة حامية وكان من الصعب اقتحام الثكنة، فقرّر الثائرون العودة إلى الجبال المشرفة على اللاذقية^(١). ورداً على هذا العمل قامت فرنسا بحملة انتقامية لاسترداد هيبتهم فهاجموا (الحفة) وبعض المناطق المجاورة لها، وفرضوا على الأهالي غرامات مالية تقدر ب ٥٠٠ ليرة ذهبية، وعادوا إلى مدينة اللاذقية ومعهم أربعة من زعماء المنطقة وهم: إبراهيم أبو سليمان، احمد مصطفى البيطار، علي احمد كليه، شحادة زكريا، وتم سجنهم أيام عدة، ومن ثم أطلق سراحهم خوفاً من أن تستفحل الثورة وتنتشر في مناطق الجبل كافة^(٢).

وبتاريخ ١٥ نيسان ١٩١٩ اعتدت القوات الفرنسية على الأهالي في (بابنا) الخروج، وهاجمت الأهالي وسقط ٢٠

وقبضت على ثلاثة شباب^(٣)، وأخذتهم إلى الثكنة وقام الحاكم العسكري الفرنسي (الكابتن ماغران) بإعدام الشباب شنقاً في ساحة الثكنة، ليرهب الأهالي^(٤)، وأثر هذه الجريمة اجتمع الأهالي وقرروا الانتقام للشهداء، ووفدت جموع الثائرين من المناطق المجاورة واحتشدت في (بابنا)^(٥)، وهاجموا الحامية الفرنسية واستمرت المعركة أيام عدة، قُتل من الفرنسيين ١٥ جندياً وضابطان^(٦). وكان الشهيد حسن طه رمزاً للبطولة الذي هاجم منزل الحاكم العسكري المجرم (الكابتن ماغران) وفتح فيه ثغرة ليدخله على الرغم من الرصاص المنصب عليه ولكنه لم يصل إلى ذاك المجرم^(٧)، واستمر الثائرون في محاصرة الثكنة وكادت تسقط لولا وصول تعزيزات عسكرية ضخمة تقدر بلواء كامل ٧٠٠٠ جندي ومعهم مدفعية وطائرات إلى حامية (بابنا)، وبدأت تقصف القرية حتى استطاعت الحامية المحاصرة في الثكنة

(١) علي رضا: «قصة الكفاح الوطني في سورية عسكرياً وسياسياً حتى الجلاء ١٩١٨ - ١٩٤٦»، مرجع سابق، ص ٢٩.

(٢) مرجع سابق، ص ٢٩.

(٣) هم: محمد بن شريف الصباغة، حميد بن عبد الوهاب البدوي، سالم بن عابد مدينة، انظر: علي رضا، «قصة الكفاح الوطني في سورية عسكرياً وسياسياً حتى الجلاء ١٩١٨ - ١٩٤٦»، مرجع سابق، ص ٣٠.

(٤) جميل العلواني، نضال شعب وسجل خلود ١٩١٩ - ١٩٤٦، مرجع سابق، ص ٩٦.

(٥) علي رضا: «قصة الكفاح الوطني في سورية عسكرياً وسياسياً حتى الجلاء ١٩١٨ - ١٩٤٦»، مرجع سابق، ص ٣٠.

(٦) إحسان الهندي، كفاح الشعب العربي السوري ١٩٠٨ - ١٩٤٨ دراسة عسكرية تاريخية، مرجع سابق، ص ٥٩.

(٧) جميل العلواني، نضال شعب وسجل خلود ١٩١٩ - ١٩٤٦، مرجع سابق، ص ٩٦.

شهيداً، وانتقم الفرنسيون بحرق (القصبة) وقتل من وجده من أهلها حوالي ٦٠ - ٧٠ شهيداً. وكان أهالي بابناً قد هربوا تاركين الأموال والمتاع مكتفين بنقل أطفالهم وشيوخهم خوفاً من فظاعة الفرنسيين واتجه النازحون إلى جسر الشغور لترتيب صفوفهم لمواجهة الفرنسيين^(١).

ثورة إبراهيم هنانو

في شهر نيسان ١٩١٩ كانت قد انطلقت ثورة إبراهيم هنانو في المنطقة الشمالية الغربية (من بلدة كفر تخاريم)، وهناك محطتان لإعلان الثورة، الأولى هي معركة المرد^(٢) في نيسان ١٩١٩، جرت هذه المعركة الأولى بعد ثمانية أيام أو عشرة أيام من إعلان الثورة أي بين ١٨ - ٢٠ نيسان ١٩١٩، ولها أهمية كبرى كونها المواجهة الأولى بين الثوار والاحتلال الفرنسي، ووصلت أخبار للزعيم بأن القوات الفرنسية تريد شنّ هجوم على بلدة سلقين وكفر تخاريم وجهاز الرجال لهذه المواجهة، وكان الفرنسيون قد جهّزوا خدعة للثوار، وسيروا امرأة ترتدي حلياً ذهبية للإغراء لتكشف الكمين والثوار كانوا

مدركين الأمر وعرفوا خط سير الحملة، وفي الصباح وصلت الحملة وكان الثوار قد قسموا أنفسهم إلى ثلاثة حظائر واتفقوا على عدم إطلاق النار حتى تتوسطهم الحملة ويحكمون عليها الحصار، وكانت هذه المعركة فتحاً مباشراً ونصراً كبيراً للثوار وتكبد الفرنسيين ٣٢ قتيلاً وربح الثوار الأحصنة وعتاداً كبيراً^(٣).

أما المحطة الثانية، كانت بحق الولادة القوية للثورة وكانت في خريف ١٩١٩، حيث اجتمع قادة الشمال والفصائل في إدلب، وأعلنوا انضمامهم للثورة تحت قيادة الزعيم ومن هذا المنطلق يقع اللبس بين موعد انطلاق الثورة في شهر نيسان الذي أعلن فيه هنانو انطلاقها من بلدة كفر تخاريم وحصلت المواجهة الأولى مع الفرنسيين وبين خريف ١٩١٩ الذي يعتبر الشهر الحقيقي لاتساع رقعة الثورة وإشهارها وبالإضافة لعقد اجتماعاً في إدلب ترأسه الزعيم هنانو^(٤).

والجدير بالقول إن إبراهيم هنانو حدّد مركزين للثورة، الأول في قرية كلبي الواقعة شمالي معرتمصرين، التابعة لقضاء

(١) أدهم آل الجندى، تاريخ الثورات السورية في عهد الانتداب الفرنسي، مرجع سابق، ص، ١٧.

(٢) المرد موقع بين حارم وعلقين ويكثر فيه الزيتون.

(٣) محمد خالد عمر: «الزعيم إبراهيم هنانو سيرة ومسيرة» سلسلة الدراسات (١٧)، مرجع سابق، صفحة، ٥١ - ٨٠.

(٤) مرجع سابق، ص ٥٢ - ٥٣.

ادلب كونها نقطة متوسطة بين جبل باريشا والوسطاني وقربها من الحدود مع تركيا، والمركز الثاني في جبل الزاوية لاتصاله جنوباً بقلعة المضيق وحماه، وغرباً بجبل العلويين^(١).

العودة إلى ثورة الشيخ صالح العلي

ففي شهر أيار ١٩١٩ أدرك الفرنسيين أنهم أمام ثورة قوية ومنظمة فلجأوا إلى الإنكليز طالبين الوساطة بينهم وبين الشيخ صالح العلي، وبتاريخ ٢٥ من الشهر نفسه بعث الجنرال اللنبي قائد جيوش الحلفاء في الشرق كتاباً إلى صالح العلي مع بريطانيين وجاء في هذا الكتاب «أن الحلفاء جاؤوا لتحرير سورية من ظلم الدولة العثمانية، وإعطائها الحرية والاستقلال. وكان موقف الشيخ صالح العلي ورجاله من القوات الفرنسية موضع استغراب الحلفاء جميعاً. وهذا يدل على عدم تقدير المساعدات القيمة التي قدمتها الجيوش الحليفة لتحرير سورية من الأتراك» وطالب الرسولان بعدم التعرّض للقوات الفرنسية المتواجدة في القدموس حينما تسلك طريق الشيخ بدر متجهاً إلى طرطوس، ورفض القائد الشيخ صالح العلي هذا الطلب لأنه يدرك أنّ القوات الفرنسية تريد احتلال الشيخ بدر عن طريق

الخدیعة والمكر، وتعهد الرسولان البريطانيان بأن لا تتوقف القوات الفرنسية في الشيخ بدر إلا ساعة واحدة، ورأى الشيخ بأن لا يكثر من خصومه وخصوصاً بأن الثورة ورجالها غير مستعدين لذلك فاستجاب لطلب الرسولين، وانسحب رجال الثورة من موقع الشيخ بدر إلى مناطق التلال المحيطة به من ناحية الجنوب والغرب، ومع دخول الفرنسيين الشيخ بدر اخذوا ينصبون المدافع ويقيمون المتاريس وباشروا في إطلاق النار على الشيخ بدر، وأدرك رجال الثورة بالمؤامرة، وشارت الحمية في رؤوسهم فانقضوا على الفرنسيين وهاجموهم ونتج عن ذلك اضطرابات بين صفوف القوات الفرنسية وظلت المعركة مشتتة من الظهيرة حتى منتصف الليل وكان من نتائجها، سقوط الكثير من الجنود الفرنسيين بين قتيل وجريح، وغنم الثوار الأسلحة والعتاد والذخيرة، واستشهد عدد لا بأس فيه من رجال الثورة^(٢).

وبعد الخسائر الفادحة التي تكبدها الفرنسيون في موقع الشيخ بدر، وتزايد عدد رجال الثورة عملت فرنسية على استقدام قوات من لبنان لشن هجوم قوي

(١) أدهم آل الجندبي: «تاريخ الثورات السورية في عهد الانتداب الفرنسي»، مرجع سابق، صفحة، ٧٠.

(٢) عبد اللطيف اليونس، ثورة الشيخ صالح العلي، مرجع سابق، ص، ١٠٩ - ١١٢.

ونظراً لهزيمة الفرنسيين في مواقع عدة وعجزهم في السيطرة على مناطق انتشار الثورة، أُجبروا على طلب الصلح مع الشيخ صالح العلي، قبل الشيخ في الدخول بمفاوضات مع الفرنسيين ولكن بشروط وهي (٤):

أولاً: الموافقة على ضمّ الساحل السوري إلى الدولة السورية، وجلاء القوات الفرنسية عنه.

ثانياً: إطلاق سراح الأسرى.

ثالثاً: منح تعويضات إلى الأهالي عن الأضرار التي ألحقها الجيش الفرنسي بقراهم.

نقلت هذه المطالب إلى الفرنسيين، فوافقت عليها بشكل مبدئي، وطلبت بتحديد موعد الاجتماع وبدء المفاوضات من أجل التفاهم على التفاصيل، واشترط الشيخ أن يكون الاجتماع في موقع الشيخ بدر وأن لا يصطحب القائد الفرنسي إلا ثلاثة رجال معه وأن يكون الجميع من دون سلاح، وافق الفرنسيون على طلبات الشيخ صالح العلي (٥).

على الشيخ بدر، وعندما وصلت القوات الفرنسية لوادي ورور بتاريخ ١٥ حزيران ١٩١٩، كان الثوار وراء الصخور في أعالي الجبال وأحاطوا الوادي من الجهات كافة، وأخذوا يطلقون الرصاص على القوات الفرنسية وظلت المعركة مستمرة حتى منتصف الليل وقتل وجرح من الفرنسيين ٨٠٠ جندي وتم أسر ١٦ جندياً، وغنم الثوار السلاح والذخيرة واستشهد وجرح عدد قليل من الثوار (١). وشاركت النساء في المعركة وقدمت الماء والطعام والعتاد للثوار وجرح عدد من النسوة (٢).

تقدّمت قوة فرنسية بأعداد كبيرة من طرطوس في تاريخ ١٥ تموز ١٩١٩، عن طريق نهر الاسماعيلية، واستقرت في قرية عقر زيتي والقرى القريبة منها، وكان تمركز هذه القوات يشكّل خطر على تحركات رجال الثورة، وقامت القوات الفرنسية بحرق قلعة الخوابي، وهاجم الثوار تلك القوات في قرى الاسماعيليين واستمرت المعارك لأيام عدة وانتهت المواجهات بانسحاب الفرنسيين إلى طرطوس (٣).

(١) عبد اللطيف اليونس، ثورة الشيخ صالح العلي، مرجع سابق، ص، ١١٣.

(٢) جميل العلواني، نضال شعب وسجل خلود ١٩١٩ - ١٩٤٦، مرجع سابق، ص، ١٠٢.

(٣) عبد اللطيف اليونس، ثورة الشيخ صالح العلي، مرجع سابق، ص، ١١٧ - ١١٨.

(٤) عزيز نصار، الثائر صالح العلي، مرجع سابق، ص، ٢٠.

(٥) مرجع سابق، ص، ٢٠ - ٢١.

الثوار بتهيئة الحملة إلى حارم لتعقيبهم فوشى به الخونة إلى الفرنسيين فأعدموه فيما بعد في ادلب بتاريخ ٢٠ كانون الثاني ١٩٢٠، حيث اتجهت الوحدات العسكرية نحو الغرب وما كاد يصل القسم الأعظم منها إلى وادي العقبية، منطقة من كروم ادلب الغربية، الذي يبعد عن المدينة قرابة نصف كيلو متر حتى فاجأهم الثوار بالرصاص ولا بدّ من الإشارة إلى أن الثوار جاؤوا إلى مدينة ادلب ليلاً بالخفاء، وتمركزوا في كروم غربي المدينة، لمنع القوات الفرنسية من الاتجاه إلى الشمال، ولما شعر الفرنسيون بإطلاق الرصاص عليهم ظنوا أن الرصاص موجه إليهم من أهالي إدلب فقصفوا ادلب لمدة ثلاثة ساعات بالمدافع، ونتج عن ذلك القصف وقوع ضحايا من الأهالي وعندما انسحب الثوار شقت الحملة الفرنسية طريقها نحو الضواحي الغربية، وعندما ابتعدوا كثيراً عاد رجال الثورة ودخلوها^(٤).

وبتاريخ ٢٨ كانون الثاني ١٩٢٠ وقعت معركة الرامي^(٥)، ووصلت فرقة من

وردت أخبار بأن الفرنسيين يتجمعون في وادي الاسماعيلين بعدما أخلاها الثوار بعد جلاء الفرنسيين عنه، وتحركت القوات الفرنسية المتواجدة في القدموس باتجاه قرية كاف الجاع جنوب شرق القدموس^(١)، وتم اعتقال سكانها وأشعلوا النار فيها وقطعوا أشجارها، وتبين فيما بعد أن حشد القوات الفرنسية في وادي الاسماعيلية ما هو إلا تغطية للهجوم على قرية كاف الجاع^(٢). ولهذا فقد قرر الشيخ صالح العلي استرداد القدموس من الفرنسيين وبدأ الاتصال مع الحكومة العربية بدمشق لطلب الإمدادات من سلاح وذخيرة فوصل رسول الشيخ إلى الأمير فيصل بتاريخ ١٥ تشرين الأول ١٩١٩ واستجابت الحكومة العربية في دمشق لطلبه، وبدأت رقعة الثورة تتسع يوماً بعد يوم^(٣).

المقاومة الأهلية من خلال ثورة إبراهيم هنانو في بداية عام ١٩٢٠

حدثت معركة في ادلب وتم قصفها بالمدافع عندما قررت القوات الفرنسية المتواجدة في إدلب السير، إلى قضاء حارم وكفر تخاريم قام عبد القادر النجار بإعلام

(١) أدهم آل الجندبي: «تاريخ الثورات السورية في عهد الانتداب الفرنسي»، مرجع سابق، صفحة، ٣٥.

(٢) جميل العلواني، نضال شعب وسجل خلود ١٩١٩ - ١٩٤٦، مرجع سابق، ص، ١٠٦.

(٣) عبد اللطيف اليونس، ثورة الشيخ صالح العلي، مرجع سابق، ص، ١٢٣ - ١٢٥.

(٤) عبد الحميد مشلح، إدلب التاريخ والحضارة، الطبعة الأولى، مطبعة عكرمة، دمشق، ١٩٩٨، ص، ٩٧ - ٩٨.

(٥) قرية الرامي، تقع الى الغرب الجنوبي من أريحا.

دركياً، ولاذ الباقون بالفرار، وسيطرت المقاومة الأهلية بقيادة هنانو على مراكز حصينة ومهمة في جسر الشغور وجبل الزاوية وكفر تخاريم ومنطقة الروج، وصهيون، وباريشا^(٣).

المقاومة على الجهة الساحلية مع بدايات عام ١٩٢٠

أكمل الشيخ صالح العلي استعدادة العسكري حيث قرّر الهجوم على مدينة طرطوس بتاريخ ٢٠ شباط ١٩٢٠، فحاصر القوات الفرنسية من ثلاث جهات، ودارت المعركة حول الثكنات العسكرية، وحدث قتال بالأسلحة الأبيض بين الفريقين، وكان الأسطول الفرنسي الموجود في البحر يقذف مدينة طرطوس بالقنابل^(٤). وتراجع الثوار إلى الجبال القريبة ونتج عن المعركة وقوع العديد من الشهداء وبقاء القوات الفرنسية في الساحل وزرع الثوار الخوف والقلق في نفوس الفرنسيين^(٥). وفي ٣ آذار ١٩٢٠ تقدم الشيخ صالح العلي وقواته التي بلغت ٤٠٠٠ مقاتل باتجاه القدموس، مستغل فرصة الخوف

المتطوعين^(١)، مؤلفة من ٥٠٠ جندي مع وحدة فرنسية مجهزة بالأسلحة والعتاد، كان يرأسهم محاسن محمود من اللاذقية والملازم محمد إسماعيل جانان من مدينة حلب، والدليل الجاسوس محمد البوم وهو من أهالي أريحا، نزلت في أريحا أولاً ثم أورم الجوز فقرية الرامي، فنصب الثوار كمائن ومع اقتراب الفرنسيين وقعت المعركة واستمرت حوالي ساعتين وأوقعوا بالقوات الفرنسية الخسائر الكبرى بالإفراد وقتل الضابطيين السوريين، وأما الجاسوس محمد البوم هرب أثناء المعركة إلى آل الخربوطلي في قرية أورم الجوز محاولاً الالتجاء عندهم، وقد تعقبه المجاهدون الإيطالي وأعدموه رمياً بالرصاص^(٢).

وفي شباط ١٩٢٠ وصلت أخبار انضمام ثورة جبل الزاوية إلى ثورة إبراهيم هنانو، فأصيب الفرنسيون بالخوف والارتباك، فسيروا فرقة من الدرك بلغت ٣٠٠ دركياً، فكمن لهم ثوار جبل الزاوية في موقع الشيخ خطاب في الروج، وانقضوا عليهم فصرعوا منهم أربعين

(١) كان الفرنسيون يقبلون المتطوعين من السوريين بين جندهم وبراتب غري، حتى يوقعوا بين المواطنين أنفسهم.
(٢) فايز قوصرة، من إبلا إلى إدلب، الطبعة الأولى، دار العلم للتصميم والطباعة، حلب ٢٠٠٤، ص، ٣٢٤.
(٣) عبد الحميد مشلح، إدلب التاريخ والحضارة، مرجع سابق، ص، ٩٦.
(٤) عبد اللطيف اليونس، ثورة الشيخ صالح العلي، مرجع سابق، ص، ١٢٧.
(٥) فارس زرزور، معارك الحرية في سورية، قصة الكفاح الشعبي من أجل جلاء القوات الأجنبية، مرجع سابق، ص، ٧٤ - ٧٥.

ثانياً: المرحلة الثانية من تموز ١٩٢٠ حتى تموز ١٩٢١

المقاومة الأهلية في الجبهتين الساحلية والشمالية الغربية بعد معركة ميسلون ٢٤ تموز ١٩٢٠

وردت أخبار أن الفرنسيين احتلوا دمشق في ٢٤ تموز ١٩٢٤ وأخذوا يتقدمون نحو المدن الكبرى لاحتلالها، اغتنم الانهزاميون والمتعاونون مع الفرنسيين الفرصة لنشر فكرة الاستسلام بين أوساط الأهالي ورجال المقاومة، وخلف جواً من البلبلّة والذعر والتشويش، وارتفعت بعض الأصوات تطالب بالتسليم للفرنسيين وإلقاء السلاح وصرح الشيخ صالح العلي «من أراد الدفاع عن الوطن فليتبعني، ومن أراد الالتحاق بالأجنبي، وأذنا به، فليذهب مع الشيطان. إنني لن اترك السلاح حتى يستقل هذا الوطن أو أموت»، تم إلغاء فكرة الاستسلام وحلّ محلها شعور المقاومة والنقمة، واخذ الثأر، والانتصار على الفرنسيين. قام الكابتن «رساك» بالهجوم على موقع الشيخ بدر من الجهة الجنوبية عن طريق صافيتا، وفوجئ أهالي قرية المريقب بقنابل المدفعية تصبّ عليهم من جبل القليعات وهو جبل شاهق

والذعر التي تركها بين صفوف الفرنسيين أثناء هجومه المفاجئ على طرطوس، وكان الفرنسيون قد حولوا القدموس إلى قلعة حصينة بالاعتماد على طبيعة أرضها وموقعها الجغرافي، وأحاطتها بالأودية من ثلاث جهات، ووجه الشيخ إنذاراً للفرنسيين بتسليم القدموس ولكنهم رفضوا فأحكم الشيخ الحصار على البلدة ومنع كل شيء عنها وظلت المناوشات مستمرة لأيام عدّة، اضطرت الحامية بعدها للتسليم والى قبول شرط الجلاء، والنزوح إلى مصيف^(١).

ومع بداية شهر تموز ١٩٢٠ حشد الفرنسيين قواتهم حول بانياس بهدف الهجوم على القلعة واحتلالها، وحرمان الثورة من أهم نقطة للمراقبة على طول الخط الساحلي، مما دفع الثوار لمهاجمة القوات الفرنسية في بانياس وتقدمت قوات الثوار إليها في ٣ - ٤ تموز ١٩٢٠ وتم حصار بانياس من ثلاث جهات ودارت معركة عنيفة، ونتج عنها السيطرة على المدنية وانسحاب الفرنسيين إلى الشاطئ تحت حماية الأسطول الموجود في البحر، الذي اخذ يقصف أهالي بانياس ويدمر بيوتهم، وقد اجبر الثوار على الانسحاب من بانياس خوفاً من تهدم المدينة^(٢).

(١) عبد اللطيف اليونس، ثورة الشيخ صالح العلي، مرجع سابق، ص، ١٢٨.

(٢) جميل العلواني، نضال شعب وسجل خلود ١٩١٩ - ١٩٤٦، مرجع سابق، ص، ١١٩ - ١٢٠.

وكان قد استقبل رجال المقامة الزعيم أنيس العمر، وقدم لهم الزاد الكافي طوال إقامتهم في بلدته، وبالاشتراك مع ابن عمه رشاد العمر^(٤)، ووجوه آل شمسين^(٥).

أما المقاومة على الجبهة الشمالية الغربية، فيقول إبراهيم الشغوري في مذكراته «أن هنانو ورفاقه الثوار وعلى رأسهم نجيب عويد، بعد العودة إلى كفر تخاريم، قد عمد إلى القضاء على التردد والتخاذل ورفع معنويات الثوار وإثارة حماسهم» وعمل هنانو على الاتصال في المناطق القريبة من أجل جمع المال والسلاح والذخيرة^(٦).

ويقول يوسف السعدون في مذكراته «وقعت معركة إسقاط في آخر شهر آب أو أول شهر أيلول ١٩٢٠» جاء إبراهيم هنانو بعدد من المتطوعين الأهالي إلى قرية إسقاط التي تبعد عن كفر تخاريم عشر كيلو متر، وتبعد عن سلقين كيلو متر، وعن حارم مركز القضاء ثمانية كيلو مترات، ووصل إلى القرية في آخر النهار فقرر أن

منيع، وكان رساك وكتيبته قد نصبوا مدفعيتهم على رأس جبل القليعات، وبدأت تقذف حممها المسعورة على قرية المريقب، ومعامل المقاومة حول الشيخ بدر والرسطن وتصدى الأهالي لهذه الكتيبة برصاص ولم يكن قائد الكتيبة يحسب حساب هذه المقاومة العنيفة وسقط بين صفوف الفرنسيين قتلى وجرحى، بينما كان رجال المقاومة قد تحصنوا في مواقع حصينة بين الصخور^(١). وهربت الكتيبة وتركت وراءها المدافع بعد أن عطلوها، وانسحبوا باتجاه صافيتا^(٢)، ولحقهم رجال المقاومة إلى قرية جورة الجاوميس، ثم تبعوهم إلى قرب صافيتا، وقتل أكثر من نصف الكتيبة^(٣). واغتمت المقاومة انسحاب رساك وكتيبته الذين كانوا يتخذون من دريكيش مركزاً لشن هجماتهم على الأهالي ولقطع المواصلات بينهم وبين صافيتا، توجه الأهالي ورجال المقاومة لاحتلال دريكيش وكانوا تحت قيادة العقدهاء: سليم صالح، جابر الحطانية، واسبر زغبى، فاحتلوا السراي، وأسروا حاميتها وأخذوا الأسلحة،

(١) عبد اللطيف اليونس، ثورة الشيخ صالح العلي، مرجع سابق، ص، ١٦١ - ١٦٢.

(٢) جميل العلواني، نضال شعب وسجل خلود ١٩١٩ - ١٩٤٦، مرجع سابق، ص، ١٢١.

(٣) عبد اللطيف اليونس، ثورة الشيخ صالح العلي، مرجع سابق، ص، ١٦٢.

(٤) مرجع سابق، ص، ١٦٣.

(٥) آل شمسين من أقدم الأسر العلوية، وأكثر الأوقاف الخيرة في الاقضية الجنوبية من الجبل وقفها آل شمسين من أملاكهم لأعمال البر والإحسان، وأكثر هذه الأملاك قد أصبحت بعدئذ ملكيات خاصة.

(٦) مذكرات إبراهيم الشغوري، مصدر سابق، ص، ٥ - ٦.

ثورتا الشيخ صالح العلي وهنانو في نضال مشترك ضد الفرنسيين في أواخر شهر ت ١٩٢٠

وصل رسول من الشيخ صالح العلي إلى مقر إبراهيم هنانو وهو السيد أنيس أبو فرد وعرض عليه باسم الشيخ التعاون بين الثورتين، فرحب هنانو كل الترحيب بالفكرة واتفق مع رسول الشيخ على أن تقوم قوات المنطقة الشمالية باحتلال جسر الشغور لكي تستند بذلك كل ثورة على أماكن نفوذ الثورة الأخرى^(٣).

وكان ذلك حيث تقدّم الأهالي بقيادة هنانو في أواخر شهر تشرين الثاني ١٩٢٠ باتجاه جسر الشغور ومعه ثلاث سرايا من الأبطال وهي^(٤).

١ - سرية أهالي منطقة حلب بقيادته الخاصة.

٢ - سرية أهالي منطقة القصير بقيادة الشيخ يوسف السعدون.

٣ - سرية أهالي جبل صهيون بقيادة البطل عمر البيطار.

وفي مساء ٢٧ تشرين الثاني ١٩٢٠ تواجدت هذه السرايا في أماكنها المحددة

يبقى في القرية حتى الليل^(١). وفي تلك الليلة وقع حادث إسقاط، فقد وشى مختار إسقاط حسين حميدي بالمتطوعين وهنانو وبعث إلى قائد القوات الفرنسية في حارم برسالة يطلب منه إرسال قوة للقبض على هنانو ومجموعته فأتته قوة فطوّقت قرية إسقاط وشاء القدر أن ترى امرأة كانت خارج القرية القوة الفرنسية فأسرعت وأعلمت هنانو ومن معه، ووصلت القوة الفرنسية وهي بملابس مدينة تشبه ملابس الأهالي الثائرين ضد الفرنسيين ووقع الصدام بين الفرقين وأشرف الزعيم إبراهيم هنانو بنفسه على سير المعركة والتي وقعت عند بزوغ الفجر وانجلت المعركة عن فوز الأهالي واندحرت القوة الفرنسية وقتل منها ٤٣ جندياً وكان منهم خيرو كجان رئيس القوة الفرنسية وقد وجدت في جيبه الرسالة التي بعث بها مختار قرية إسقاط إلى قائد الحملة الفرنسية وتم إعدام المختار رمياً بالرصاص واستشهد من الأهالي مصطفى عويد ومحمد وهبي وعبدو الهندي^(٢).

(١) مذكرات يوسف السعدون، ثورة هنانو، مديرية الوثائق التاريخية بدمشق، القسم الخاص، الوثيقة رقم ٢٣، ص ١١.

(٢) مذكرات يوسف السعدون، ثورة هنانو، مصدر سابق، ص ١١. أيضاً، عبد الكريم عبد الحي، الثورات الثلاث الكبرى في سورية، رجال خالدون، مرجع سابق، ١٠١ - ١٠٢.

(٣) إحسان الهندي، كفاح الشعب العربي السوري ١٩٠٨ - ١٩٤٨ دراسة عسكرية تاريخية، مرجع سابق، ص ٧٢.

(٤) إحسان الهندي، كفاح الشعب العربي...، مرجع سابق، ص ٧٣.

طريق توجيه حملات عدة من ادلب حملة وحملة من بلدة حارم وثالثة من أنطاكية أو من الاسكندرون، وحملة رابعة من مدينة حلب^(٤). وكانت القوات الموجودة في قرية التلول احتلت جسر الحديد لتمنع أهل القصير من مساعدة بلدة كفر تخاريم وهب لمساعدة أهالي كفر تخاريم، بلدة سلقين والقرى المحيطة بها وأهل القصير وجرت المعركة حول كفر تخاريم المحاصرة من الجهات كافة.

وبعد ١١ يوماً دخلت القوات الفرنسية للبلدة وكان ذلك بتاريخ ١٨ كانون الأول ١٩٢٠^(٥)، وقد نزح أهالي البلدة إلى الجبال والوديان، فظهرت فظائع الفرنسيين الوحشة وقاموا بارتكاب كل أنواع العنف والمجازر، وكان المجاهدون يرابطون في مغارة حصينة من مغارة جبل الدويلة، وقام نجيب عويد على رأس ثلاثين من الأبطال متعهدين أن يثاروا وانقسموا إلى ثلاثة فئات تولى هو والحاج درغام دره ومحمد علي جمعة قيادة هذه الفئات واتجهوا إلى كفر تخاريم وتمركزوا كل فئة من جهة من

وفي موعدها الموقوت على بعد بضعة كيلو مترات عن جسر الشغور وفي قرية عمود اجتمع هنانو مع القادة ونسق وإياهم خطة الهجوم. وأرسل دورية استطلاعية لتكشف الطريق أمام الأبطال^(١). وحصلت تلك الدورية على معلومات بأن سرية فرنسية ترابط في مزرعة السيجري وصمم هنانو على تطويقها بين فكي كماشة لإرغامها على الاستسلام، فأوعز ليوسف السعدون بأن يلتف مع عناصر سرية ويأتي من الورا مما أجبر السرية الفرنسية على التسليم^(٢). وكان عدد أفرادها ٢٥ جندياً فرنسياً وعلى رأسهم ملازم و٧٠ جندياً من جنود المرتزقة، واستولى الأهالي على كميات من الأسلحة منها رشاشان ثقيلان وكميات من الذخيرة، وبعد المعركة استسلمت حامية جسر الشغور وعددها ٦٠٠ جندي دون قتال وفر معظم جنود الحامية، وتم إرسال الجنود الأسرى الفرنسيين إلى كفر تخاريم للاحتفاظ بهم^(٣).

وضع الفرنسيون خطة حربية لاحتلال بلدة كفر تخاريم وهي تطويق البلدة وعن

(١) فارس زرزور، معارك الحرية في سورية، قصة الكفاح الشعبي من أجل جلاء القوات الأجنبية، مرجع سابق، ص، ٩٧ - ٩٨.

(٢) إحسان الهندي، كفاح الشعب العربي...، مرجع سابق، ص، ٧٣.

(٣) جميل العلواني، نضال شعب وسجل خلود ١٩١٩ - ١٩٤٦، مرجع سابق، ص، ٥١ - ٥٢، أيضاً، إحسان الهندي، كفاح الشعب العربي...، مرجع سابق، ص، ٧٣.

(٤) محمد خالد عمر، الزعيم إبراهيم هنانو سيرة ومسيرة مرجع سابق، ص، ٨٩.

(٥) محمد خالد عمر، الزعيم إبراهيم هنانو سيرة ومسيرة، مرجع سابق، ص، ٨٩.

وقع الفرنسيين في كمين نصبوه الأهالي، فأزرت القوات الفرنسية مدافعها ورشاشاتها لصد هجمات الأهالي، وبهذا تكون الحملة قد فشلت^(٢).

عودة للتعاون بين الثورتين في شهر شباط ١٩٢١

بتاريخ ٢٠ شباط ١٩٢١^(٣)، أوفد الشيخ صالح العلي هزاع أيوب إلى إبراهيم هنانو يحمل رسالة، يطلب فيها توحيد الجهود الثورية في المناطق الثائرة والعمل على تزويد ثورة الساحل بالسلاح من تركيا أسوة بثورة الشمال والتعاون على زيادة الضغط على القوات الفرنسية المحتلة للأراضي السورية، ووافق الزعيم هنانو على رغبة الشيخ صالح العلي، وعده بتزويده بما أمكن من العتاد والسلاح، والعمل على توثيق الروابط بين الأهالي ومؤازرة بعضهم بعضاً في مواجهة الفرنسيين، وفعلاً تم التعاون بين الثورتين وتبادل الاتصالات والمساعدات^(٤)، وكانت خطة الفرنسيين القضاء على ثورة الشيخ صالح العلي وبعدها يتفرغون لثورة إبراهيم هنانو، فقام الفرنسيون بحرق

جهات البلدة، وبوقت أذان الصباح هاجموا الفرنسيين فطار صوابهم، ومع سماع أصوات الرصاص والقنابل هبَّ أهالي القرى لمساعدة الثوار الأبطال وطوّقوا القوات الفرنسية من ثلاثة محاور، أجبرت القوات الفرنسية للانسحاب نحو بلدة حارم وراح ٢٠٠ قتيل واستشهد من الأبطال سبعة^(١).

فشل حملة الجنرال غوبو في القضاء على المقاومة في الشمال الغربي أواخر سنة ١٩٢٠

أثر الهزائم التي نكب بها الجيش الفرنسي في المنطقة الشمالية الغربية حشدت قوات كبيرة تحت قيادة الجنرال غوبو من أجل القضاء على المقاومة الأهلية وإنهاء ثورتهم، حيث قدمت من حلب وقطعت جسر الشغور من دون أية مقاومة تطبيقاً للخطة المرسومة من قبل الأهالي، وكان رجال هنانو قد تمركزوا في الجبال، فنظموا خطة للهجوم ليلاً، ونصبوا الكمائن في المواقع الحصينة، ولم تستطع القوة الفرنسية التقدم ولا خطوة، واستمرت المعركة لمدة يومين كاملين، وازداد عدد المتطوعين من الأهالي، وفي اليوم الثالث

(١) عبد الكريم عبد الحي، الثورات الثلاثة الكبرى في سورية رجال خالدون، مرجع سابق، ص، ١٠٦ - ١٠٧.

(٢) أدهم آل الجندى، تاريخ الثورات السورية في عهد الانتداب الفرنسي، مطبعة الاتحاد، ١٩٦٢، ص، ٨١.

(٣) بعض المراجع تذكر أن التعاون بين الثورتين تم في ١٠ شباط ١٩٢١، راجع: عبد الكريم رافق، محطات في تاريخ الشام الحديث، منشورات جامعة البلمند، ٢٠٠٦، ص، ١٤٩.

(٤) جميل العلواني، نضال شعب وسجل خلود ١٩١٩ - ١٩٤٦، مرجع سابق، ص، ٦٤.

القرى التابعة للشيخ صالح العلي، والذي ساعد في تبادل المساعدات بين الثورتين هو انضمام منطقة جبل الزاوية بقيادة السيد مصطفى الحاج حسين، إلى ثورة هنانو بتاريخ ٢٧ شباط ١٩٢١^(١).

وفي الأول من آذار ١٩٢١، تقدمت قوة فرنسية قوية عن طريق عرب الملك والبرجان لاحتلال جبل قرفيص والقرية التي تقع على سفوحه والمطل على نهر السن ودارت معركة عنيفة ضلت يومين وانتهت بانتصار القوات الفرنسية واستشهد عدد من الأهالي وجرح آخرون وفي ١٥ آذار ١٩٢١ زحفت قوة فرنسية على قرية جور البقر لاحتلالها ولكنهم فشلوا وتكبدوا خسائر فادحة^(٢).

الخطة الفرنسية للتخلص من المقاومة الأهلية على الجبهة الشمالية الغربية في نيسان ١٩٢١

عوّّل الفرنسيون على احتلال جبل الزاوية والقضاء على ثورته في مهدها، فجهزوا حملة تكونت من ١٠٠٠ جندي وتقدمت إلى جبل الأربعين، وفي أطراف بلدة أريحا التي تقوم على سفوحه دارت المعركة وبتاريخ ٣٠ نيسان ١٩٢١، زحفت

قوات من الأهالي، وكمنوا للحملة في أعالي جبل الأربعين، فقد كانت الحملة قد تحصنت في إطراف بلدة أريحا، وجرى الالتحام بين القوتين، وخشي أهالي أريحا من المدفعية والطائرات التي شاركت في المعركة، فرفعوا الأعلام البيضاء على أسطحه المنازل، فظن رجال الثورة أن الحملة قد استسلمت فتوقفوا عن إطلاق الرصاص وكذلك فإن الفرنسيين ظنّوا أنّ الأهالي قد استسلموا فأوقفوا إطلاق النار، فنزل رجال الثورة إلى جبل الأربعين والتحموا مع القوات الفرنسية بالأسلحة البيضاء وتم أسر عدد من الجنود والضباط الفرنسيين وبالمقابل تم أسراً من رجال الثورة، وشاركت النساء في هذه المعركة وخسر الفرنسيون قرابة ٧٠ جندياً، وبعد هذا المعركة طالب الفرنسيون التفاوض مع إبراهيم هنانو^(٣)، وباليوم الثاني جاء كتاب من الكولونيل فوان يقترح فيه أن تعقد مفاوضات بين الزعيم والفرنسيين لعلهم يصلان إلى حل يقبله الطرفان وينتهي هذا الصراع بينهما، وافق الزعيم على عقد مقابلة بينهما وتمت في قرية كفرنجل حيث استمرت لمدة ساعة ونصف واعترف الكولونيل بأنّ الثورة على حق لأنهم

(١) عبد الكريم رافق، محطات في تاريخ الشام الحديث، مرجع سابق، ص، ١٤٩.

(٢) عبد اللطيف اليونس، ثورة الشيخ صالح العلي، مرجع سابق، ص، ٢٠٤ - ٢٠٥.

(٣) أدهم آل الجندي: «تاريخ الثورات السورية في عهد الانتداب الفرنسي»، مرجع سابق، صفحة، ٨٥ - ٨٦.

مناطق الثورة حيث يساعدون على عملية نزع السلاح وإدخال الطمأنينة إلى نفوس الأهالي، ويُمنح عفو عام عن الجرائم المرتكبة ضد الفرنسيين باستثناء حادث دركوش، وتمدد الهدنة المعقودة بين الكولونيل فوان والزعيم هنانو يومين، ريثما يتصل الزعيم هنانو ببقيّة الرؤساء ويتشاور معهم، وبعد أن تنفذ هذه الشروط تشكل حكومة في كل من حارم، وإدلب وجسر الشغور، والمعرة، وقسم من إنطاكية وقسم آخر من جبل سمعان، وتسند رئاستها إلى إبراهيم هنانو^(٢). واستمر الجنرال يهدد هنانو ورجاله وشاءت العناية الإلهية للتدخل وإنقاذ هنانو من غدر الفرنسيين، حيث أتى خبر بوجود مجموعة من الأهالي ومعهم سلاحهم ومعدات حربية محملة على البغال تتمركز على سفح الجبل الغربي، فاعتدل غوبو عن موقفه وانتهز هنانو الفرصة، فاحتج بكلمات شديدة وقال أننا لن نستطيع الوصول إلى نتيجة علينا أن نذهب^(٣).

الخطة الفرنسية للتخلص من المقاومة على الجبهة الساحلية في أيار - حزيران ١٩٢١
وضع الشيخ صالح العلي خطة للهجوم

يدافعون عن أرضهم وكرامتهم، فتشكره الزعيم على كرمه وصدقه، وتم الاتفاق على هدنة يومين، واتصل الكولونيل فوان بالجنرال ده لاموت في حلب، رفض الجنرال دو لاموت المبادرة التي وصفت بالسليمة وأمر غوبو بالتحرك للقضاء على الثورة وزوده بقوة عسكرية، وعدد كبير من جنود المستعمرات بالإضافة إلى عدد من المرتزقة، تقدم الجنرال غوبو ووصل إلى قرية كورين التي تقع بين ادلب وأريحا والتي جعلها مركز قيادته، وبذل الكولونيل فوان جهداً كبيراً لا قناع الجنرال غوبو بقبول المفاوضات، وكان الجنرال فظاً قاسياً حيث قتل ابنه على يد رجال الثورة في إحدى المعارك ومع ذلك فقد استطاع الكولونيل إقناعه بالتفاوض مع الزعيم، وأرسل للزعيم يقترح عليه عقد اجتماع في مقر الجنرال غوبو في قرية كورين وتم تحديد موعد للاجتماع بتاريخ ١٧ نيسان ١٩٢١^(١). وحدد غوبو شروطه وهي، تسليم سلاح الأهالي بالكامل، وتسليم الرجال الذين باغتوا الحملة في دركوش وقتلوا قائدها (وهو ابن الجنرال) وبعض الجنود وسلبوا عتادها وسلاحها، وأن يرافق الزعيم ورفاقه الجنرال وجنوده إلى

(١) علي رضا، قصة الكفاح الوطني في سورية عسكرياً وسياسياً حتى الجلاء ١٩١٨ - ١٩٤٦، مرجع سابق، ص ٨٣-٨٤.

(٢) مرجع سابق، ص، ٥٨.

(٣) أدهم آل الجندبي: «تاريخ الثورات السورية في عهد الانتداب الفرنسي»، مرجع سابق، ص ٨٨.

العسكرية بمثابة رهائن، وبتاريخ ١٥ حزيران ١٩٢١، هاجم نيجر بجيوشه الجرارة، وقذف بها في مختلف الاتجاهات جاعلاً هدفها جميعاً معقل الشيخ صالح في قرية بشراغي، وتقدمت الجيوش الفرنسية من سائر المسارب والمنعطفات، وابتدأت هذه القوات بالتدفق من قرفيص إلى الدراب إلى شراغي إلى بمسالخ إلى الحيلونة إلى جبل النبي صالح إلى جبل النبي متى على جبهة واسعة طولها عشرات الكيلو مترات، وبالمقابل فقد فقدت قيادة الثورة أشرفها على سير المعارك وأصبحت كل مجموعة تعمل بشكل مستقل عن الأخرى، وعمل الانهزاميون على نشر الفوضى والأخبار الكاذبة بين أوساط الثائرين، وهكذا فالثورة على الجبهة الساحلية لم تنتهِ دفعة واحدة في جميع المناطق، بل ظلّت هناك مجموعات تقاتل الفرنسيين^(٣).

توقف المقاومة الأهلية على الجبهة الشمالية الغربية في حزيران - تموز ١٩٢١

ضاق الخناق على ثورة هنانو بعد التعزيزات العسكرية التي وصلت لملاحقة أماكن الثورة وتطويقها، وعقد الزعيم

على جبلة وبعض القرى الساحلية وعلى مراكز القوات الفرنسية^(١). ويذكر عبد اللطيف اليونس «كانت المخابرات قد جرت بين الشيخ صالح العلي وهنانو على أن يكون الهجوم مشتركاً، حيث تقوم قوات هنانو المرابطة في جسر الشغور بالهجوم على اللاذقية يعاضدها المجاهدون في قضاء الحفة يقودهم عمر البيطار، بالوقت نفسه الذي يبدأ فيه هجوم قوات الشيخ صالح على جبلة والمعسكرات المحيطة بها» وتم تحديد موعد..... للهجوم فكان في منتصف الليل ولكن القوات الفرنسية عن طريق جواسيسها كانت مستعدة للدفاع، ووقع رجال الثورة في كمائن الفرنسيين وانتشرت الفوضى والذعر بين صفوف المجاهدين ووقع عدد منهم في قبضة الفرنسيين واستشهد ١٥ رجلاً^(٢).

حشدت القوات الفرنسية قواتها الهائلة وأحاطت بمناطق الثورة من جميع الجهات من جسر الشغور، إلى اللاذقية، إلى جبلة، إلى بانياس، فطرطوس، فصافيتا، فتكلتخ، فمصيايف، عدا عن الأماكن التي كان يحتلها الجيش الفرنسي في قلب الجبل، وعملوا على اعتقال الأهالي ووضعهم في ثكناتهم

(١) أدهم آل الجندي: «تاريخ الثورات السورية في عهد الانتداب الفرنسي»، مرجع سابق، ٤٩.

(٢) عبد اللطيف اليونس، ثورة الشيخ صالح العلي، مرجع سابق، ص، ٢٠٦ - ٢٠٨.

(٣) مرجع سابق، ٢١١ - ٢١٦.

اجتماعاً وتداول فيه الأوضاع العامة للمنطقة، فقرر أنه لا فائدة من المقاومة والنضال والصمود أمام الفرنسيين^(١)، خصوصاً وأن الإمدادات قد قطعت من الجانب التركي بسبب الاتفاق الموقع بين الفرنسيين والأتراك وبموجبه سحبت فرنسا قواتها المتواجدة بالأراضي التركية وأرسلتها لمقاتلة الأهالي الثائرين في جبل الزاوية^(٢).

وتعود أسباب توقف المقاومة الأهلية لعدة أسباب أبرزها^(٣):
أولاً: نقص الأسلحة والذخيرة وعدم إمكانية تأمينها.
ثانياً: ضعف تمويل الثورة لاعتمادها على التبرعات والجبايات الداخلية.
ثالثاً: تجنيد فرنسا كل إمكاناتها العسكرية والسياسية للقضاء عليه.

(١) عبد الكريم عبد الحي، الثورات الثلاثة الكبرى في سورية رجال خالدون، مرجع سابق، ص، ١٣٣.
(٢) الندوة التكريمية للزعيم إبراهيم هنانو التي أقيمت في إدلب يومي ١٩ - ٢٠ / ١١ / ٢٠٠٨، إعداد وتقديم، محمد خالد عمر، رئيس اللجنة الوطنية لذاكرة الشمال السوري، تنسيق الأستاذة نزيه خوري، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٩، ص، ٢١٦.
(٣) إحسان الهندي، كفاح الشعب العربي السوري ١٩٠٨ - ١٩٤٨ دراسة عسكرية تاريخية، مرجع سابق، ص، ٨٣.

تحليل قصيدة الضمان من الأدب الألماني

قاسم بزون

لعلّي أعرفه أو أزيد من معرفته ببعض
منارات ذلك الأدب.

في هذه المقالة سأقدم إحدى أشهر
قصائد الأديب الألماني العالمي فريدريش
شيلر^(١)، وهي قصيدة الضمان أو
الضمانة^(٢)، مسلطاً الضوء على أهم ما
فيها من مضامين وأفكار، وما لها من
أهداف تربوية وسلوكية وسياسية وغيرها،
وعلاقة ذلك برؤية الشاعر إلى دور الأدب
والأديب في السياسة والتربية وحركة
المجتمع سلوكياً وأخلاقياً. وقبل البدء
بعرض القصيدة - وإكمالاً للفائدة - أقدم
تعريفاً موجزاً بالشاعر.

II - التعريف بالشاعر:

يُعدُّ شيلر أحد أركان الأدب العالمي،
وثاني أهم قُطْبٍ في الأدب الألماني إلى
جانب رفيق دربه وصديقه غوته^(٣). هو
رجلٌ مبدعٌ متعدّد المواهب؛ فهو الشّاعر
المشهور، والمسرحي الأوّل في ألمانيا في
عصره، والمؤرّخ، والقاصّ، وصاحب الرّؤى

I - تمهيد:

لم تستفد ألمانيا من الأوضاع التي
أتاحت للدول الاستعمارية الفاعلة نشر
ثقافتها وتقاليدها وغرسها في عقول أبناء
البلاد المستعمرة؛ إذ لم تكن ألمانيا دولةً
استعماريةً كبريطانيا وفرنسا اللتين احتلتا
معظم بلاد العالم العربي. لهذا، ولأسباب
أخرى لم يتعرّف العرب الثقافة والأدب
الألمانيين مبكراً، كما فعلوا مع الأدبين
الفرنسي والانكليزي. ونظراً لضعف
التواصل الثقافي العربي الألماني
- وبالخصوص قبل منتصف القرن
العشرين - ندرت ترجمة الأعمال الأدبية
الألمانية بالعربية، ولا سيّما عن لغتها
الأصلية.

من هنا، ارتأيت أن أقوم بمساهمة
متواضعة في هذا المجال، من خلال ترجمة
إحدى القصائد المهمة في الأدب الألماني
وتحليلها، ثم تقديمها للقارئ العربي،
محاولاً إيداء دلوي الأوّل في هذا المجال،

الفلسفية، والنقاد. وقد تميّز بعشقه للتاريخ والشعر، وبهما كشف الكثير عن شخصه وبؤر تفكيره وطاقاته.

١ - ولادته ونشأته^(٤):

ولد شيلر في العاشر من شهر تشرين الثاني سنة ١٧٥٩ في قرية ماربُخ^(٥) الواقعة على ضفة نهر (النِكر) في مقاطعة فيرتمبرغ^(٦) وسط الجنوب الغربي لألمانيا، قرب مدينة شتوتغارت^(٧) عاصمة ولاية بادن - فيرتمبرغ^(٨)، لأبوين رقيقي الحال، ففضى طفولته بينهما في جو فقير.

التحق شيلر في طفولته وصباه بمدرسة مدينة لورش^(٩)، وفيها تعلّم اليونانية. لاحقاً تلقى اللاتينية في مدرسة مدينة لودفيكسبورج^(١٠)، كما تعلّم بعض العبرية.

لاحظ أمير المقاطعة الدوق كارل أوغين جده ذكائه وبوادر تفتح عبقريته، فألحقه بأكاديميته العسكرية سنة ١٧٧٣، خلافاً لرغبته وأهله بأن يغدو كاهناً. لكن قهر الإرادة ولد في نفس شيلر - وفي وقت مبكر - مشاعر الرّفص، وكراهية الظلم، وحب الحرية.

تنوّعت مجالات دراسته؛ ففي الأكاديمية درّس الحقوق وحمس لغات، ثم الطب. وقد لاحظ أصدقائه في المدرسة موهبته

الشعرية، وشاطروه اهتماماته الأدبية بالشعر، والمسرح، والموسيقى، والرسم.

٢ - بداية مشواره الأدبي وهربه:

بدأ في العام ١٧٧٧ بكتابة أولى مسرحياته (اللصوص) سرّاً، ثم نشرها سنة ١٧٨١^(١١)، وعرضها في العام التالي من دون إذن من أحد، فأثارت موجة من النقد، ونالت إعجاب الأدباء والجماهير الشديد. ولما علم الأمير الإقطاعي كارل أوغين^(١٢) بنشاطه الأدبي ذي الطابع السياسي والنقدي، غضب غضباً شديداً وفيد حرّيته، وحظر عليه الكتابة الأدبية ثانية. أبت نفسه الأبيّة الرُضوخ، فهرب سنة ١٧٨٢، ليكمل رحلته الأدبية الغنية.

٣ - زواجه ومرضه:

تزوج شيلر في العام ١٧٩٠ من السيدة النبيلة شارلوت فون لينغيفيلد^(١٣). لكنّ حالته الصحية سرعان ما ازدادت سوءاً؛ إذ اكتشف مرضان لديه، لم يتعاف منهما حتى مماته. إلا أنّ مرضه لم يحل دون عطائه الغزير ومتابعته الكتابة من دون ملل.

٤ - وضعه الاقتصادي:

مرّ في أزمة ضيق شديد، فتراكمت عليه الديون؛ عمل في العام ١٧٨٤ كاتباً ومُشرفاً درامياً في مسرح مدينة مانهايم، ثم ما لبث أن غادرها سنة ١٧٨٥ إلى مدينتي لايبزيغ ودريسدن^(١٤). وفي العام ١٧٩٩ انتقل إلى

مقاطعة فايمار^(١٥)، عاصمة الفكر والأدب آنذاك، لِيَقْضِي بَقِيَّةَ عُمُرِهِ إلى جوار صديقه غوته.

٥ - علاقته بغوته:

كان تَعَرَّفُ شِيلِرَ إلى غوته عن كثبِ الحدثِ الأكبر في حياته^(١)؛ فقد بَنِيَا معاً علاقةً مميّزةً وصدائقةً وثيقةً، قال عنها: «إنَّ صداقته لـ غوته هي أهمُّ حدثٍ في حياته»^(٢)، وكانت من أشهر الصداقات الأدبية وأكثرها غنىً وتحفيزاً وفائدةً وآثاراً إيجابيةً لهما ولأعمالهما وللأدب الألماني في عصرهما. وقد وفي غوته لصاحبه، وحزن حزناً شديداً لرحيله، وقال: «لقد فقدت نصف حياتي».

٦ - وفاته:

تُوُفِّي شِيلِرَ في ٩ - ٥ - ١٨٠٥^(١٦)، في مدينة فايمار، ولمَّا يتجاوز السادسة والأربعين من عمره، ولمَّا ينقطعُ خلاله عن الكتابة، مُخَلِّفاً وراءه عشرات المؤلفات الشعرية، والنثرية الفكرية والأدبية، والمسرحية الخالدة، ذات المقام المحمود في الأدبين الألماني والعالمي.

٧ - نتاجه:

عَزُرَتْ عطاءاته وتنوّعت أجناسها؛ فقد خَلَّفَ أكثر من ألفي رسالة، وإحدى عشرة مسرحية، ما بين تاريخية واجتماعية وسياسية وفكرية؛ مسرحياته هي: قطاع الطرق - فالنشتاين - ماريًا ستيوارت - عذراء أورليان - عروس ميسينا أو الإخوة الأعداء - فيلهلم تل - مؤامرة فييسكو في جنوة - دسياسة وحب - دون كارلوس - توراندوت - ابن الأخ بصفته عمًا. يضاف إليها شعرٌ تجاوز تسع مائة قصيدة.

٨ - تكريمه وتخليد ذكراه:

نال شِيلِرَ حَظًّا وافياً من التَّكْرِيمِ والتَّخْلِيدِ في حياته، ومنذ رحيله إلى الآن؛ ففي العام ١٧٩٢ مُنِحَ لَقَبَ «مواطن شرفٍ في الجمهورية الفرنسية»، تقديراً لتأييده للنُّورَةِ الفرنسيَّة، وكتاباته وجهوده الداعية إلى التَّحَرُّرِ والحُرِّيَّةِ^(١٧)، كما ضُمَّ في العام ١٨٠٢ إلى طبقة النُّبَلَاءِ بسببِ عمله الأكاديمي بجامعة يينا Jena ومؤلَّفاته التاريخية والأدبية. وجامعة يينا Jena التي

(١) Goethe. Rüdiger Safranski: *Goethe und Schiller. Geschichte einer Freundschaft.* Hanser, München 2009.

S. 17. يذكر سفرانسكي - ص ١٧ من كتابه هذا - أنَّهما التقيا لأول مرّة سنة ١٧٧٩ في مدرسة «كارل» في شتوتغارت عندما كان شِيلِرَ لا يزال طالباً.

(٢) عندما توفي شِيلِرَ انزعَلَ غوته في بيته عن النَّاسِ، وكتب بعد ثلاثة أسابيع: «أفقد الآن صديقاً... كَأني أفقد نصف وجودي». للمزيد من المعلومات عن علاقتهما وصدائتهما يمكن مراجعة: Staiger, Emil: *Goethe, Bd.2.* Zuerich, Atlantis Verlag، وهو مرجعٌ مهمٌّ عن غوته.

درّس فيها مادّة التّاريخ طوال عشر سنواتٍ، ما زالت تحمل اسمه حتّى الآن.

وبين الحين والآخر تُقام في ألمانيا احتفالاتٌ أو مؤتمراتٌ من وحي تراثه، تكرّمه وتذكّر العالم به؛ فقد احتفى الألمان به سنة ١٨٥٩، بمناسبة مرور مئة عامٍ على ولادته، وعُدّ رمزَ الدّعوة إلى توحيد ألمانيا. وبعد مرور عامٍ على بناء جدار الفصل، افتتِحَ مسرحُ برلينَ بمشهدٍ من إحدى مسرحياته (فيلهم تل). كما احتفت ألمانيا بأوساطها الثقافيّة والأدبيّة بمرور مائتي عامٍ على رحيله بتخصيص سنة ٢٠٠٥ سنةً احتفاليّةً به تحت عنوان «الحُرّيّة»^(١٨). ويكاد لا يمرّ عامٌ إلا وتقام احتفالاتٌ ولقاءاتٌ تكرّم الشّاعر، وتعيد قراءة كتاباته ونقدها وعرضها بأقلامٍ وعقولٍ وأفكارٍ جديدة. ومن الأمور التي خلّدت ذكر الشّاعر وعرّفت اسمه إلى معظم الأوروبيين نشيدُه المشهور (إلى السّعادة)^(١٩) الذي نظّمه في العام ١٧٨٥ ليغدو نشيداً وطنياً لأوروبا الموحّدة منذ العام ١٩٧٢.

وتأكيداً على أهميّة الشّاعر أسّست في مسقط رأسه، مارْبَاخ، مؤسّسة شِيلِر وأرشيّفه ومتحفه^(٢٠).

٩ - شِيلِر وأعمالُه عربيّاً:

تأخّرت ترجمة كتب شِيلِر بالعربيّة أكثر من قرنٍ بعد وفاة الشّاعر؛ وكانت مسرّجيّة «حبّ ودسيّسة» أوّل تَلَقُّ عربيٍّ للأدب الألمانيّ^(٢١). ويعدّ الدكتور عبد الرّحمن بدوي المصري أوّل من ترجم العديد من أعمال شِيلِر من الألمانيّة إلى العربيّة ضمن سلسلة كتب «من المسرح العالمي».

III - قصيدة الضّمانة^(٢٢):

نظراً لعدم توقّف أشعار شِيلِر بالعربيّة - ما خلا بضع قصائد - كان لا بدّ من المبادرة الذاتيّة على الرّغم من صعوباتٍ جمّة تعترض هذا الطّريق؛ فقامت بترجمة أوّليّة للقصيدة المختارة (الضّمانة)، مركزاً على ترجمة المعاني والأفكار التي ذكرها الشّاعر كاملةً، مع الإشارة إلى حاجة القصيدة إلى إعادة صياغة بالعربيّة تُولي الوزن، والموسيقى، والإيقاع اهتماماً كافياً لتمنح القصيدة الغنائيّة والحيويّة الشعريّة اللائقتين.

نصّ ترجمة قصيدة الضّمان (Die Buergschaft) للشّاعر الألمانيّ فريدريش شِيلِر (Friedrich Schiller)

السَّجْنِ مَهْمُومًا كِي لَا يَتَجَاوَزُ الْمَهْلَةَ
المعلومة.

٦ - في ذا الوقت، تمطر أمطارًا بِنَهْرٍ،
وتجري الينابيع من الجبال، وتفيض الأنهار
والجداول، فيصل الضَّفَّةُ بِعُودٍ راقصٍ،

٤٠ - عندها يهوي الجسر إلى الأسافل،
وتصخب الأمواج عاليًا بأقواسها المزمجرة
العاتية.

٧ - تائهاً من دون أَمَلٍ، يتسمَّر على
ضَفَّةِ النَّهْرِ، ينظر، يحدِّق، يبحث، يصرخ
بأصواتٍ مستنجدًا، لكن لا مركب في
الجوار، ولا على شاطئ القرار^(٢٧)، يحطُّ به
في البلد المنشود، ولا بَحَّارٍ يحرك أشرعتَه،
ويقود سفينته، والنَّيَّار العاتي يتحوَّل إلى
بحر.

٨ - الآن ينحدر إلى الضَّفَّةِ باكيًا راجياً،
٥١ رافعاً يديه إلى زيوس متوسلاً: «أوقف
بكاء السَّمَاءِ (انهمار الأنهار!) تتسارع
السَّاعات، تنتصب شمس الظَّهيرة، وما إنْ
تَنَحَّرُ، وَلَمَّا أبلَغُ المدينة»، «فإنَّ صديقي
سيغدو لأجلي قتيلاً».

٩ - لكن غضب الإعصار يعود أكثر
عتوًّا، وتصخب الموجة فوق الموجة،
وتهرب السَّاعة خلف السَّاعة.

٦٠ - عندئذٍ، تقوده المخاوف، شجاعاً
يقفز في النَّهْرِ الجارف، يكسر النَّيَّارِ بساعدٍ
صَلِيبٍ، وعونِ رَبِّ رَحِيمٍ.

١ - تسلَّل دامون إلى ديونيس الطَّاغية،
وخنجره تحت رداثه تناوله الحرَّاس،
وبالأصْفَادِ كَبَلُوهُ: «ماذا تريد الفعلَ
بالخنجر؟ تكلم!». بقسوةٍ واجهه الظَّالم:
«أتريدُ تحريراً المدينة من الحاكم؟! ستغدو
لهذا على الصَّلِيبِ نادماً^(٢٣)».

٢ - أجابهم ذاك: «للموتِ أنا جاهز، ومن
أجل حياتي، لا أتوسَّلُ لكن، إن كنت رحمةً
ستمحنني، فأرجوك ثلاثة أيَّامٍ أمهلني، حتَّى
تتزوَّج الأخت^(٢٤) وأودعك صديقي
ضمانةً^(٢٥)، وإنْ أَخْلَفْتُ بوعدِي، فلك قتلُ
الأمانة. (فَلْكَ قَتْلُهُ).

٣ - هنا، ضحك الملك بخبثٍ ماكر -
وأقصى بعد تأملٍ قصير - «ثلاثة أيَّامٍ
سأهديك». لكن اعلم! عندما ينقضي الأمد،
وأنت لَمَّا تَعُدُّ، عليه إذاً أن يشحب بدلاً منك،
أما أنت، فَيُمحى عقابُك.

٤ - ويعود إلى الصِّديق: «الملك يطلب،
دفع حياتي على الصَّلِيبِ ثمن الطَّموح
الجامح،

٢٥ لكنَّه، يريد منحني أيَّاماً ثلاثة، حتى
أزوِّج أختي، هكذا، إبقَ كفالةً في عهدته،
حتَّى أعود، فيحلَّ أصفادك».

٥ - ويعانقه الصديق الوفي مماطلاً،
يحرِّره من قبضة الطَّاغية، أما هو، فيسحبه
الطَّاغية بدلاً منه. ويحلَّ فجر اليوم الثالث،
فَيَوُجُّ في تزويج أخته^(٢٦)، وَيَعْدُّ نحو

يسمعهما يتفوّهان بكلماتٍ: «الآن يوضع على الصليب».

١٥ - ويستحثُّ الخوفُ الخطي المسرعة،

١٠٠ - تصطاده الكروب من الهمّ هناك عند الغروب تتلألاً من بعيدٍ أنوار رأس سيراكوس، ويلتقي راعي بيته المخلص، فيلوستراتوس، الذي بالكاد يتعرف إلى الشَّيخ: (مندهشاً).

١٦ - «ارجع! لن تنقذ الصديق أبداً، أنقذ نفسك إذاً! هو يلفظ أنفاسه الآن. من ساعة لساعة، بروح آملةٍ واثقةٍ انتظر الرجوع، ولم تستطع أنفة الطاغية، انتزاع عقيدته الشُّجاعة».

١٧ - تأخّر الوقتُ، ولم أعد قادراً أن أظهر كمخلصٍ له،

١١٥ - فليوحّد الموت بيننا. لن يمدح الطاغيةُ الدّموي، أن الصديق يخون واجبه تجاه صديقه، سيسفك دم ضحيتين، ويعتقد بالحبِّ والوفاء.

١٨ - وعند مغيب الشمس، يصل إلى البوابة، (حيث ساحة الإعدام) ويرى الصليب مرفوعاً، إذ الجموع تنتصب بأفواهٍ فاغرة، ويرفع أحدهم الصديق على الحبل عالياً، عندها، يشقّ الدائرة المكتظة بعنفٍ، ويصرخ: «أيها الجلاد! اشنقني أنا! فما أنا هنا، لأجل الكفيل!».

١٩ - مذهولاً أمسك الشعب بالمكان،

١٠ - (أخيراً) يصل الضفّة، ويمضي مسرعاً، شاكرًا الربَّ المخلص، فجأةً، من عتمة الغابة، ينحدر اللّصوص كالسيل يوقفونه، ويزمجر الموت، ويوقف سرعة الرّاحل، بتهديد هراوةٍ راجفةٍ.

١١ - «ماذا تريدون؟»، يصرخ شاحباً من البَغْتِ، (البغته) «ليس عندي سوى حياتي، وتلك يجب تقديمها للملك!» فوراً ينتزع العصا من اللصّ الثّاني: «لأجل إرادة الصديق كونوا رحيمين!». يضرب ثلاثة بضرباتٍ قويّة، (يطلق النار -.. فيفرّ الآخرون.

١٢ - وترسل الشمس أشعةً محرقةً، وبعد جهودٍ مضنية، تنحني الرّكبتان منهكةً. «آه، برحمتك من أيدي اللّصوص خلّصتني، ومن خضمّ التّيّار إلى البلد المقدّس أنقذتني، وعليّ هنا أن أهزل لشدة غيظي (حزيناً) وعلى الصديق الحبيب أن يموت لأجلي!»

١٣ - ويصغي! إنّه يفيض ككُجَيْنِ فضّة، كصوتٍ متسرّبٍ، قريباً جداً، وينصت صامتاً، فيرى نبعاً حيويّاً ثرثاراً سريعاً يقفز خارجاً من بين الصّخور مدمماً، بشوشاً يمشي منحنيّاً، ويجدد أعضائه الملتهبة. ١٤ وتحّدق الشمس من بين خضرة الأغصان، راسمةً على بسطِ الأنوار، ظلالاً هائلةً للأشجار.

٩٥ - ويرى سائحين يعبران الطّريق، فيعدو يريد تجاوز مشيهما السّريع، فجأةً

والاثنتان مرميان في الأحضان، من الألم
والسعادة معاً يبكيان.

١٣٠ - ولا ترى عينان بلا دموع،
وتحضر أروع قصّة للملك، الذي يشعر
بتراجع إنساني (تزعزع عن رأيه)، يدعه
يحدث أمام العرش سريعاً.

٢٠ - والعين بدهشة طويلاً تحدّق، على
ذاك يعلّق^(٢٨): «نحتما، وعلى قلبي تغلّبتما،
فالتّقّة، إذًا، ليست هذياناً فارغاً والوفاء، إذًا،
ليس هذياناً فارغاً، ضمّاني إلى
صداقتكما»^(٢٩).

١٤٠ - سأكون، إن منحتماني رجائي،
الثالث في باقتكما»^(٣٠).

IV - تحليل القصيدة:

في ما يلي، سأقدّم تحليلاً تفصيلياً لكل
مقطع من مقاطع القصيدة على حدة، مع
تسليط الضوء على أهمّ ما فيه، أتبعه
بتحليل عام للقصيدة من حيث المواقف التي
أخذها أشخاصها، والقضايا والأفكار
الأساسية المعروضة، والرّسائل والأهداف
التربوية والثّقافية التي أراد الشاعر إيصالها
وتحقيقها من خلال قصيدته، التي تعكس
فكر صاحبها وفلسفته، خاتماً بخلاصة
تتناول أهمّ النتائج التي حققتها القصيدة.

١ - تحليل تفصيلي لمقاطع القصيدة

وقراءة أهمّ ما فيها:

سنتطرق الآن إلى مضامين المقاطع
بشيء من التفصيل:

المقطع الأوّل:

حركة المشهد: يتسلّل المواطنُ التائر
دامون مخبّباً خنجره تحت رداثه، ما يوحي
بصعوبة الوصول إلى الطّاغية، بسبب
الإجراءات الأمنيّة والحراسة المشدّدة
ووجود الحاشية.... تفشل المحاولة، يُلقى
القبض عليه ويُحال بينه وبين بلوغ إربه.

ردّة فعل دامون: أجابهم بكلّ هدوءٍ
وبرودة أعصابٍ وشجاعة: "أنا جاهزٌ
للموت، ولا أتوسّل من أجل حياتي"؛ فهو
يعرف ما يفعل، وليس نادماً، بل مستعدّ
لأسوأ الاحتمالات وأقساها. لكنّه ثائرٌ واعٍ
وذكويّ، يحرّج الحاكم حول آخر أمنيّة: "إن
كنت سترحمني فأمهني ثلاثة أيّام...". إنّه
طلّب خدمة، لكن ليس من دون مقابل، بل
بمقابل غالٍ وثمين هو رأس أعزّ صديقٍ
وحبیب. إنّه يطلب طلباً عزيزاً غير مُتوسّلٍ
بل بكلّ عزّة وشموخٍ وإباء، ويقدم الثمن
مسبقاً قبل أن يسأله بل إنّه لم يحوجهم
لأن يسألوه!

ولهذا الطّلب والعرض المقابل دلالة
أخرى، هي أهميّة الأخت بالنسبة إلى الأخ؛
فهو يشعر بأنّ عليه أن يسعدها حتّى آخر
لحظة في حياته، بأن يتمّم مسألة زواجها.

الدّلالة السلوكيّة: لجوء النّاس إلى
العنف والسّلاح والقتل أساليب تغيير من
جهة، وللتعبير عن السّخط والغضب من
الحاكم وطريقة حكمه من جهةٍ أخرى.

حرّيتهم وكرامتهم، من أجل تحرير المجتمع من السّلطة الغاشمة.

في هذا المقطع تبدو بعض ملامح شخصيّة دامون؛ فهو الثائر العقلاني، الجدّي ذو النّفس الأبويّة العريضة. وقد بيّن في الوقت نفسه دليل الإقناع، إذ عرض عليهم إيداع صديقه الغالي ضمانةً وكفالةً لديهم، مقدّماً إغراءً دافعاً لقبولهم السّريع العرض الأقصى والأقصى الذي يمكن تقديمه، ألا وهو عرض قتل أعزّ صديق إن أخلف بوعده.

إنّ دامون ليس إنساناً فاشلاً في الحياة، دفعه يأسه إلى الانتحار المتسرّع بمحاولة قتل الحاكم، بل هو إنسان واع مهتمّ بالمجتمع والعائلة؛ فمضافاً إلى رعايته لأخته ومتابعته لأموالها حتّى آخر لحظة من حياته، فإنّه إنسان فاعل قد نسج علاقات اجتماعيّة ناجحة مبنية على أسس الاحترام والصدق والأخلاق الحسنة، فولدت له هذه الصّدقة التي لا مثيل لها، وهذا الرّباط الوثيق الذي لا يفكّ عرى وثاقه حتّى الموت والسيف.

هنا يمكن استخراج دلالات كثيرة وملاحظتها:

– الاهتمام بالعائلة: نتوقّع أنّ أهله قد ماتوا، أو أنّهم ليسوا موجودين في المنطقة نفسها حيث تعيش أخته، ممّا ربّ عليه مسؤوليّة مضاعفة تجاه أخته التي يحبّ

دلالة الأفعال الحركيّة: «تناوله الحراس وكبلوه بالأصفاد»: الفعلان (تناول) و(كبل) فعلان حركيان يدلّان على الحركة السريعة العنيفة والحازمة هنا. والجملتان تدلّان على وجود فريق حراسة حازم ومتيقظ من جهة، وعلى هلع الحاكم وخوفه من الشعب من جهة أخرى.

مواجهة الحاكم: «أتريد تحرير المدينة من الحاكم؟». إنّ منطوق هذا الكلام يمكننا من افتراض أنّ جزءاً من الحوار يظهر إرادة دامون، أو يسمح لنا بافتراض آخر، وهو أنّ الحاكم يعلم علم اليقين بأنّه مكروه ومستهدف من قبل الشعب! ويستعمل الحاكم عبارة «تحرير المدينة»؛ فهو عبء كبير وجمل ثقيل بالنسبة لأهلها. لكنّه يصرّ على سياسته، وسيكمل حاكماً مهّاب الخطي، مرهوب الجانب. لذا، سيعاقبه تربيّة وعبرة لغيره، وردعاً لأيّ محاولة تمرّد أخرى: «هذا ما ستندم عليه على الصليب».

المقطع الثّاني: العرض المثير: فكرة الضمانة:

أشرنا إلى لطافة دامون ولباقته في طلب الاستمهال. وقد استخدم الفعل المناسب للظرف والجو المحيطين به (أرجو)، وهو طلب لطيف لإلحاح، لكنّه طلب غير أناني؛ فهو لم يطلب لأجل نفسه، بل فقط من أجل الأخت العريضة. فحركته وتعريض نفسه للموت هي من أجل الآخرين، من أجل

كثيراً، فلم يرض لنفسه أن يفارق الدنيا قبل أن يراها سعيدة بزواجها.

- **وجود الصديق والثقة الكبرى به:**
إنه سيضحّي من أجل صديقه، مثبتاً وفاءً لصديقه لا نظير له، بتقديم نفسه رهناً، معرضاً حياته للموت الزوّام، إذ لا مزاح في الأمر مع الملك الطاغية.

- **نية دامون الصافية والصداقة**
واستعداده للوفاء بكفالة ضمانة صديقه بتسليم نفسه - كما وعد - قبل نهاية المهلة المحددة (الأيام الثلاثة).

المقطع الثالث: ضحك الملك وسخريته:

إنّ ضحك الملك وسخريته يدلان على عدم تصديقه للعرض المقدم من قبل دامون، أو شكّه بجديته أو بمصداقية العارض، ولعدم توقّعه أن يقبل صديقه الأمر ويتقبّله بصدقٍ رحبٍ. وربّما ظنّ الحاكم وتمنّى أن يهرب دامون مضحياً بصديقه مستغلاً صدقه وبساطته وعفويته، فيخسر بذلك ماء وجهه وشرفه وكرامته في مجتمعه، ويثبّط بذلك روح التعاون والتكافل والتضحية من أجل الآخر، فتستتبّ أموره أكثر فأكثر بموت الحسّ الجماعي في مملكته. ولعلّ الملك لا يعرف هذا النوع من الصداقات والعلاقات القائمة على الوفاء والإيثار والصدق، ولا يتوقّع وجودها الحقيقي والواقعي بين محكوميه.

وهنا أمرٌ لافتٌ يمسّ (عدالة الملك) أو سلوكه العقابي الجزائي؛ فهو سيقتل شخصاً واحداً فقط، الجاني الذي حاول قتله أو صديقه الكفيل خلال المدّة الممنوحة، ثمّ سيطلق الآخر حرّاً. فهدفه تربية الآخرين من خلال العقاب، وليس قتل أكبر عددٍ من الناس.

ولا أظنّ أنّ شيلر أراد إظهار ميزة إيجابية للحاكم. لكنّ الأخير وقع في الإحراج، ولا يجوز لحاكم قويّ مطلق الصلاحيات أن يظهر ضعيفاً أمام الناس، فلبّى رغبة دامون التي لا تحرمه من سلاحه الردعيّ في مواجهة المتمردين، والتي تخرجه إن أخلف بوعده وتسبّب فقدانه لمصداقيته فلا يعود يصدّقه أحدٌ من شعبه بل ومن حاشيته أيضاً. وفي العرض تبدو حنكة دامون ووعيه ودقّة تخطيطه وسرعة إيجاده للحلول.

المقطع الرابع: لقاء الصديقين وامتحان الصداقة:

يطلب دامون من صديقه الطلب الصعب المستحيل. لكنه يعرض الموضوع عليه عرض الواثق من قبوله وموافقته، من دون توسّلٍ أو رجاءٍ.

المقطع الخامس: عناق الصديقين وإسراع دامون في إنجاز أموره:

وصف الشاعراً الصديق بالوفّي، وهو كذلك! فالعناق الطويل بمماطلة ليس فيه

دلالةً على الخوف، بل لهول المشهد
وللتوديع والتأمل. لعلّه يخشى أن يحصل
أيّ طارئٍ فلا يريان بعضهما بعد تلك
اللحظات الحرجة الصعبة. بعد الوداع يشرع
الواعد في إنجاز مهمّته أو رغبته، وهي
تزييح أخته، ويُسرّع خطى عودته في اليوم
الثالث مهموماً خائفاً من التأخر وتعريض
صاحبه للخطر.

المقطع السابع: يأس دامون:

وللدلالة على صدقه في وعده استخدم
الشاعر جملاً خبريةً وصفيةً ونعوتاً، مثل:
«يسرع - روح قلقة - مهموم...». فهو مهتمٌّ
ومضطربٌ لا جزعاً من الموت بل خوفاً من
عدم قدرته على الوفاء بالوعد المقطوع. فهو
حازمٌ وجادٌ في مسير العودة. نشير إلى
عدم بدوّ إيّ إشارة تردّد أو شكّ أو خوفٍ
وقلق لديهما؛ فكلاهما واثقٌ من صاحبه،
مطمئنٌ لما يفعله، ومستعدٌّ للتّضحية من
أجله، والوفاء بوعده، وإظهار صدقه.

المقطع السادس: العراقل الجمّة:

يبدو من خلال مشاهد هذا المقطع أنّ
أحداث المقطع السابق قد أثرت في نفسية
دامون؛ فقد اعتراه خوفٌ مرعبٌ من عدم
قدرته على الوفاء بوعده، ممّا دفعه إلى حافة
اليأس. وهذا من براعة الشاعر في حيك
العقد؛ فهنا استنفذ دامون كلّ الطّرق، وعلا
صراخه، وكثرت استغاثاته، لكن بلا جدوى.
وقد نجح الشاعر في تركيب لوحات
المشهد وضمّها إلى بعض، وسخر الأفعال
الحركية والإيحاءات النفسيّة الدّالة على ما
ذكرناه من مشهد اليأس قبيل الاستسلام:
(تائهاً - دون أمل - يتسمّر - ينظر -
يحدّق - يبحث - يصرخ - أصوات -
مستنجد - لا مركب - لا بحار - التّيار
العاتي - بحر).

ففي هذا المقطع تكاد تدلّ كلّ كلمة على
أمرٍ أو حدثٍ أو تفصيلٍ مهمٍّ من تفاصيل
لوحات فقدان الأمل. إنّ شيلر يظهر براعة
الحبك والنّسج وقوّة الخيال في ابتداع
الصّور والمشاهد المناسبة.

المقطع الثامن: الرجاء والتوسل بعد اليأس:

بعد شعوره بالضعف وفقدان الفرص لمتابعة طريقه لجأ إلى القوة الخفية التي يلجأ إليها كل مؤمن في مثل هذه الحالات؛ فوقف حائراً باكياً متوسلاً، ورجا الله (زيوس) أن يُوقف انهماك أنهار السماء، واصفاً الله الذي يعلم كل شيء، ذاكرةً سبب رجائه وتوسله، لعله يثير المزيد من الاهتمام لدى زيوس فيشفق عليه وينقذه بسرعة من خضم هذا الموقف الصعب. وهناك تأكيداً في آخر المقطع على الصداقة والوفاء؛ فهو يكافح من أجل إنقاذ صديقه الذي قبل بوضع سيف المقصلة المشحون على رقبتة من أجله، وهو لا يريد له الشرّ البتة بل إنقاذه وشكره بصدق على صنعه الجميل الذي لا يفعله أحدٌ لأحدٍ. إنه يكرّر خوفه على صديقه الذي سيقضي من أجله. وربما لاحظ لحظة أمل عند انتصاب شمس الظهيرة.

نلاحظ استخدام الشاعر لأفعال الهيجان والتوتر (تنسارع - تنتصب - تنحدر - سيقضي). وهذا ما يتوافق والأجواء المحيطة بالإنسان اليأس ما يدفعه إلى الاحتماء بالغيب والقوى الخفية والتوسل إلى الله ورجاء عونه ورحمته.

المقطع التاسع: زهاب الأمل بتصاعد العقبات وعودة الأعاصير:

إن عودة الأعاصير الغاضبة والأمواج

العاتية وتسارع مرور الزمن تُفقد الإنسان الأمل، لكن دامون هو ذلك الشجاع الذي عليه أن يُضحّي بنفسه من أجل صديقه أيضاً، والتأثر الأبّي الحرّ الذي عليه أن يحافظ على شرفه وإبائه وكرامته، وعلى جهده في التغيير كي لا يذهب سدىً بذهاب ماء وجهه، إن أثبتت الحاكم وذبانيته أنه غادر كذاباً.

أمام كل هذه الواجبات والمسؤولية الكبرى يستجمع قواه وتعود عزيمته، فيقفز محاولاً اجتياز النهر الجارف. يقاوم بعزمه ومساعدة الربّ الرحيم (الله)، وينتصر مجتازاً التيار إلى الضفة الأخرى، فيرتفع منسوب الأمل والأمان لديه.

ف شينر يؤكد إيمانه بالله ورعايته ورحمته، وبالغيب، بالقوة الخفية، يُبرّر ذلك من خلال بطله الأوّل في هذه القصيدة، في البيت الأخير من هذا المقطع " يكسر التيار بساعدٍ صلب، ومساعدة ربّ رحيم"، وفي المقطع الذي سبقه أيضاً.

الأفعال والمفردات المستخدمة: (غضب - إعصار - عتوّ - تصخب - الموجة فوق الموجة - تهرب - الخوف - الشجاعة - يرمي - النهر الرّاعد - الجارف - يكسر - التيار - ساعدٍ صلب). ههنا نكاد نجد في كل كلمة دلالة على التوتر ونمو الانفعال والخوف، ونجد صيغ المبالغة من خلال صيغة (أكثر) في «أكثر عتوّاً»، والتكرار في

«الموجة فوق الموجة»، و«الساعة خلف الساعة».

فالمقاطع السَّابع والثَّامن والتَّاسع تمثِّل سلسلةً جبالٍ شاهقةٍ وهادٍٍ سحيقةٍ من العقبات والعوائق، يتخلَّلها بعض بُعِّ الضَّوء والنُّور وفسحات الأمل الصَّغيرة والضَّيِّقة.

المقطع العاشر: اجتياز العقبات وعودة الأمل، ظهور عقدة جديدة:

في هذا المقطع نشعر بنوع من الارتياح وهدوء الأعصاب وانخفاض التوتُّر النَّفسيِّ الدَّاخليِّ؛ فقد نجح دامون في اجتياز النَّهر بسلام، ووصل إلى الضَّفة الأخرى، فشكر الله المخلِّص على ذلك. لكن الشَّاعر لم يكتفِ بهذا القَدْرِ من النَّازيم، بل أبدعَ عقدةً جديدةً تتمثِّل في ظهور اللُّصوص المباغت تحت جنح ظلام الغابة الكثيفة بالأشجار والأخطار، فيؤخِّرونه عن بلوغ هدفه، بل ربَّما قتلوه فيضيع دمه ودم صاحبه أيضاً.

حركة المفردات: المضيِّ والسرعة، الشُّكر، الحركة المباغتة «فجأة»، انحدار اللصوص، تشبيه حركتهم المسرعة نحوه بالسَّيل، ظلمة الغابة (خوف ورعب)، اقتراب الموت منه، إيقاف، تهديد، هراوة.

المقطع الحادي عشر: عدم خشية اللصوص - مجابتهم:

إنَّ دامون الشَّجاع لا يخشى الموت ولا الطَّاغية وحاشيته، فكيف يخشى الآن مجموعةً لصوصٍ كخفافيش الليل؟ لا

يهابهم، يذكِّرهم بواجبه ووعده للملك، فلعلَّهم ما زالوا يحملون بذور خيرٍ في نفوسهم فتصغي أرواحهم إلى نداء حقٍّ أو سلوك شرفٍ ومناقبيَّةٍ كما في مسألة دامون وصاحبه ووعده... يحاول استرحامهم «كونوا رحيمين».

هنا، في هذا الموقف التَّفصيليِّ، يكرِّر الشَّاعر - من جهةٍ - رفضه استخدام العنف فوراً، إلا إذا كان الخيار الأوحَد للمسيرة وللإنسان، ومن جهةٍ أخرى يؤكِّد على عدم التَّلَهِّي بأيِّ شيءٍ عن بلوغ الهدف الأسمى، فلا يجوز الانجراف إلى المعارك الجانبيَّة التي تمنع الوصول إلى الهدف أو تؤخِّره على الأقلِّ.

وفي توسِّله إليهم لم يطلب الرِّحمة لنفسه، بل لصديقه الوفيِّ، لكن يبدو أنَّهم بلا عقلٍ وبلا قلبٍ، ولم يجدِ الحوازُّ معهم أيَّ نفعٍ، وقد ضاق الوقت فعلاً، فلم يبق له إلا أن يواجههم، فيقاتلهم مقداماً، فيهربون.

لم يجعل شَيْئاً المشهد دموياً، فلعلَّ دامون اكتفى بتخويفهم ببضع ضرباتٍ ليهربوا. فهدفه ليس قتلهم بل إنقاذ صاحبه. والتَّخفيف من حدَّة العنف والدمويَّة يتناسب ورؤية شَيْئاً كما سنرى بشكلٍ أكثر وضوحاً.

المقطع الثَّاني عشر: النَّجاة وعودة الأمل الممزوج بالخوف من فوات الآوان:
تشرق الشَّمس من جديدٍ في اليوم

الثَّالِث، وينجو دامون من شرور الطَّبِيعَةِ
واللُّصُوص، فينحني منهكاً من شدَّةِ الجهد
والتَّعب، شاكرًا الرَّبَّ الرَّحِيمِ على نجاته
(الإيمان - الله - الدَّعاء...)، لكنَّه ما زال
مضطرباً قلقاً وخائفاً أن يكون الوقتُ قد
فات، والأوانُ قد زال، وأن لا يصل في
الوقت الموعود، فيموت صديقه من أجله،
وهذا ما لا يريده.

في هذا المقطع تتوزع المفردات بين
حقلين معجميين متقابلين: حقل الأمل
(الشَّمْس - الأشعة - بعد جهود - آه -
خلصتني - برحمتك - أنقذتني - البلد
المقدس - الصديق الحبيب)، وحقل الخوف
والخطر والتَّعب: (مضنية - منهكة -
اللصوص - خضمَّ التَّيار - أهزل - شدَّة
غيظي - يموت أو يقضي). وهذان الحقلان
المتقابلان المتداخلان يشيران إلى الصِّراع
ويؤكِّدان وجوده.

إنَّه يقدِّس بلده وموطنه: «ومن خضمَّ
التَّيار إلى البلد المقدَّس أنقذتني». ولو لم
يكن بلده بأرضه وناسه وحياته مقدَّساً
بالنسبة إليه، فلم يُعرِّض نفسه للخطر
بمحاولة تخليص المدينة من الطَّاغية؟

**المقطع الثالث عشر: استمرار الأمل
والجوَّ الإيجابي:**

هذا المقطع ليس فيه انعطافٌ أو تحوُّلٌ
في مسار الأحداث، كأنَّه تنفَّسٌ أو استراحةٌ
لدامون، وهدوءٌ للجوِّ عموماً؛ ففيه يسمع

خريراً نبع يتدفَّق من بين الصَّخُور، فيفرح
وينعش نفسه بمائه العذب، ويخفَّف من
حرارة جسمه المتعب ممَّا عاناه قبيل ذلك.

المفردات: بروز حقل معجمي حيوي
إيجابي، حقل حياةٍ وأملٍ (نبع - حيوي -
بشوش - يجدد - الملتهبة).

**المقطع الرَّابِع عشر: عودة الخوف
وانقطاع الأمل:**

لقد بدأت الشَّمْس تميل نحو الغروب، إذ
كبرت ظلال الأشياء «راسمةً... ظللاً هائلةً
للأشجار»، واقترب الوقت الحاسم للوفاء،
فإذ به يسمع فجأةً حديث سائحين مارَّين
بأنَّ صاحبه «الآن يوضع على الصَّليب». فتبدَّل
أحواله كما سنرى في المقطع التَّالي.
هنا، يمهد الشَّاعر لعقدهِ جديدةٍ.

**المقطع الخامس عشر: خوفٌ ورعبٌ
شديدان على الصديق:**

يُسرعُ خطاه خائفاً مهموماً أن لا يصل
في الوقت المناسب؛ الغروب يقترب،
والوقت ينفد. مفاجأةً أخرى، كالعادة، إذ
يلتقي براعيه المخلص، فيلوستراتوس، الذي
يتعرَّف إليه بصعوبةٍ، بسببِ تغيُّر أحواله
من شدَّة ما عاناه في طريقه الوعر، الحافل
بالأشواك والإبر.

الحقل المعجمي المهيمن: حقل الخوف
والقلق: (الخوف - استحثَّ الخطى -
المسرع - الكروب - الهم - الغروب «نهاية

الوقت! - أنوار أسوار المدينة «أي يحلّ الظلام رويداً رويداً فيشعلون القناديل وأضواء الإنارة» - دهشة أو ارتعاد).

المقطع السادس عشر: نصيحة بالفرار ووصف واقع الحال:

في هذا المقطع أمران إيجابيان: أولهما نصيحة راعيه المخلصة والصّادقة، بالهروب وإنقاذ نفسه، لأنّ الأوان قد فات «لن تنقذ الصّديق أبداً»، «يلفظ أنفاسه الآن». فوفاً لما رآه وعائنه من أمورٍ في ساحة الإعدام، لم تعد تنفع متابعة المسير وتسليم النّفس للموت. الأمر الثّاني والأهمّ، هو الإشارة إلى ثبات الصّديق وشجاعته وثقته بصاحبه؛ فهو من جهةٍ ينتظر عودة صديقه الوفيّ الذي لم يشك لحظةً في صدقه، ومن جهةٍ ثانيةٍ يثبت ثباته وصلابة موقفه، إذ لم يستطع جبروت الطّاغية أن يمسّ روحه أو أن يزعزع شجاعته: «ولم تستطع أنفة الطّاغية انتزاع عقيدته الشّجاعة».

الحقل المعجمي المهيمن: حقل النّجاة والأمل: (ارجع - أنقذ نفسك - العودة - انتظر - روح أمله - واثقة)، وحقل فوات الأوان (لن تنقذ - أنقذ نفسك - يلفظ أنفاسه).

المقطع السابع عشر: تمنّي الموت والتّوحد بصديقه:

لَمَّا فَقَدَ دَامُونَ الأملَ بِإنقازِ صديقِهِ

تَمَنَّى أَنْ يُوحَدَ الموتَ بينهما، وأن لا يُعْطِيَ فرصةً للطّاغية بأن يثبت للعالم غدر الصّديق بصديقه، بل سيفضح أمره بأن يدعه يسفك دم ضحيّتين، خلافاً لوعده.

المقطع الثّامن عشر: وصول المتعهّد الضّامن قبيل فوات الأوان:

بعد كلّ تلك العقديّ والعقبات والتأخّر، واقتراب المشهد من حصول أمرٍ فظيعٍ برفع الصّديق على أعواد المشنقة، وقبيل تنفيذ حكم الإعدام بلحظاتٍ يصل دامونٌ مقطّع الأنفاس خائر القوى، لكنّ نافذة البصيرة قويّ العزيمة، فيصرخ في وجه الجالدين ويوقفهم، طالباً شنقه بدل رفيقه، كما هو الاتّفاق والتّعهّد.

هذا المقطع ذو أهميّة زائدة؛ لأنّه يثبت وفاء الصّديقين وشجاعتهم، فلم يصدر أيّ تذمّر أو شكوى أو تراجعٍ من الصّديق الضّامن طيلة الأيّام الثّلاثة، وفي الوقت نفسه لم يبدُ من دامونٍ أيّ وهنٍ أو خوفٍ أو تراجعٍ أو تفكيرٍ في الهرب، بل على العكس من ذلك، أظهر قوّة صبرٍ وشكيمة عزيمةٍ لا تُضاهى من أجل إنقاذ صديقه من جهةٍ، ومن أجل الوفاء بعهدٍ قطعه أمام كبار القوم من جهةٍ أخرى.

الحقل المعجمي المهيمن: حقل التّوتّر واليأس (مغيب الشّمس - الصّليب مرفوع - الصّديق على الحبل عالياً)، وحقل

الانفراج والأمل (يصل - يشقّ الجموع - صارخاً - اشنقني أنا - فما أنا هنا).

المقطع التاسع عشر: فرح الجموع وتحقق أسطورة الوفاء:

احتشدت الجماهير الفرحة بهذا المشهد، مشهد لقاء الصديقين الوفيين الصادقين المتعانقين، حيث دموع الجميع تنهمر، دموع الفرحة والسعادة، والملك يشعر بحسّ إنسانيّ افتقده منذ زمنٍ طويلٍ وبعيد.

الحقول المعجميّة: حقل الذّهول:
(مذهولاً - أمسك الشعب بالمكان - من ألم وسعادة يبكيان - لا تُرى عينان بلا دموع - الملك... تراجع إنسانيّ).

المقطع العشرون: الخاتمة: السلوك المثاليّ يغيّر الطّغاة:

لقد تغيّر الملك! يتعجّب الملك منبهراً من هول ما رأى وروعته، ويعلن انتصار الخليين على قلبه، بل تأثيرهما الكبير فيه، ويعترف بوجود التّقة والوفاء والإخلاص؛ فمضافاً إلى الصّفح عن دامون رجاهما أن يضمّاه إلى رابطة صداقتهما ليكون وإياهما ثالث اثنين، لا فريد لهما في العالم.

الحقول المعجميّة: حقل النّجاح والانتصار: (مندهشة - نجحتما - تغلبتما - التّقة ليست هدياناً - الوفاء ليس هدياناً - ضمّاني إلى صداقتكما)، وحقل الصّداقة (التّقة - الوفاء - رفيقاً - الثّالث في باقتكما).

٢ - تحليل عامّ للقصيدة:

أ - مرجعيّة النّصّ التّاريخيّة:

نظم شيلر قصيدة الضّمان صيف سنة ١٧٩٨، ثمّ نشرها في مجلة (موزن ألمناخ) Musenalmanach سنة ١٧٩٩. وقد استوحى أفكارها من كتاب قصص خرافيّة لهيجينوس Mythographus Hyginus، يركز على قصّة ميروس وصديقه فينتياس^(٣١)، والطّاغية ديونيس (ديونيسيوس)، استعاره من غوته، هادفاً إلى الانشغال بالقضايا المأساويّة والحزينة فيه. وبالفعل، وجد شيلر ضالّته فيه، فأخذ منه ما يحتاجه لقصيدته.

ب - مضمون القصّة الأصليّ وبصمات شيلر:

في كتابه الخرافيّ يتحدّث هيجينوس عن رجال ارتبطوا بصداقة متينة وثيقة. وكان ديكتاتور سيسيليا ديونيس يقتل خصومه بوحشيّة. ذات يوم أعدم أحدهم، فقرر ميروس^(٣٢) قتل الحاكم. لكنّه قبض عليه متلبساً بسلاحه، فاقتيد إلى الحاكم بالجرم المشهود.

خلال التّحقيق معه أقرّ بنيته قتله، فأمر الحاكم بصلبه. بيد أنّ ميروس توسّل ليمهلوه ثلاثة أيّام حتّى يقوم بواجبه العائليّ تجاه أخته بتزويجها، وأودع عندهم صديقه سيلينانتيوس Selinantius كضمانة. أنجز تزويج أخته بسرعة، وفي

صديقه، وصرخ في وجوه الجلّادين: «قفوا! ها أنا ذا هنا من أجل كفيلى». قَبِلَ الملكُ، واستدعى الاثنين إليه، وبتأثيرٍ مما رأى، مندهشاً ومعجباً بالوفاء الذي لا حدود له، عفى عن ميروس و«أهداه حياته»، وترجى منهما أن يضمّاه إلى رابطة صداقتهما، كما ورد في السّطر الأخير للقصة.

التزم شيلر مسار القصة عموماً، لكنّه غير بعض الأسماء؛ فقد بدّل اسم البطل ميروس إلى دامون، ولم يذكر اسم صديقه، وأضاف عُقدًا جديدةً وصعوباتٍ أخرى، ولا سيّما في المقطع الثّاني من قصيدته، في الأبيات (٦-١٧)، حيث وضع المزيد من العقبات في طريق دامون: الطّقس، اللّصوص، العَطَش، والمستشار فيلوستراتوس Phylostratus، مظهرًا قوّة روحه وثباته وصبره في خضمّ ما واجهه من تعقيدات، في الوقت نفسه أهمل أو اختصر ما لم يره أساسياً في موضوع الصّداقة.

لكنّ الأمر اللافت هو تخفيفه من حدّة العنف ودمويّة المشاهد؛ ففي صراع دامون مع اللّصوص لم يتحدّث عن قطع الرّقاب، ولا عن قتل أحدٍ، بل استبدل فظاعة المشاهد بصورة هَرَبِهِم، مُلَطِّفًا من جوّ القتال، مخفّفًا من منسوب العنف ومسيل الدّماء. وهذا ما يتوافق وفلسفته في التّغيير السّيّاسيّ والحضاريّ، وهو الذي لا يؤمن

اليوم الثّالث أراد العودة ليفي بوعدِهِ ويحرّر صديقه، لكنّ غزارة الأمطار وسوء الطّقس والرّعد رفعت منسوب مياه النّهر؛ فلم يتمكّن ميروس من عبوره بمركبٍ أو سباحةٍ، جلس على ضفّة النّهر يبكي وينتحب، ظنًّا منه بأنّ صاحبه سيقتل بسببه ومن أجله.

وكان الملك قد قال لصديقه: إذا لم يعد صاحبك في الوقت المناسب، عليك أن تنال عقابه، وينجو هو بذلك... وبعد مرور تسع ساعاتٍ من اليوم الثّالث أمر الملك بقيادة سيلينانتوس إلى الصّليب. في هذه الأثناء تمكّن ميروس بصعوبةٍ بالغّة من عبور النّهر. في الغابة، حصل ما ليس بالحسبان؛ إذ اعترضه لصوصٌ مجرمون قتلّة في الطّريق، قاومهم، قطع رقبة أحدهم، وأردى ثلاثة أرضاً، وفرّ الباقيون. نجا منهم وحثّ الخطى نحو صاحبه. قبل مغيب الشّمس يعرف من سائحين في الغابة أنّ إعدام صديقه صار قاب قوسين أو أدنى، فيجدّ السّير مسرعاً كالبرق.

ولمّا لاحت المدينة أمام ناظره، التقى بمدير حدائقه، الذي نصحه بالعودة والهرب والنّجاة بنفسه، لأنّ الوقت تأخّر، وقد سبق السيفُ العَدْلَ. لكنّه رأى أنّ الوفاء لصداقتهما أهمّ من حياته، فأكمل باتّجاه المنصّة، وتمكّن من العودة قبيل غروب الشّمس بوقتٍ كافٍ لإنقاذ الصّديق. وقف في ساحة الإعدام حيث الجموع الوالهة المنتظرة موت

بالعُنْفِ طريقاً للتغيير، بل بالتربية والتعليم والسلوك الحسن كما سنرى في مواطن أخرى من هذا البحث.

ج - الأشخاص (أبطال القصة) وإطارها الزماني والمكاني:

تتعدد الشخصيات ويتنوع دورها ما بين دور رئيس فاعل أو مؤثر، ودور ثانوي. وعدد هذه الشخصيات قليل، يرسم الشاعر بها ملامح القصيدة، ويشقّ بأدوارها المتنوعة مجرى أحداث القصة.

- الشخصيات الرئيسية:

البطل الرئيس: دامون (المواطن الشريف الغاضب).

الشخصية الرئيسة الثانية: الحاكم الطاغية ديونيس.

- الأشخاص الثانويون: صديق دامون (الضمانة) - أخت دامون - الحراس - قطاع الطرق - الراعي فيلوستراتوس (راعي بيت دامون المخلص) - الجمهور المتفرج في ساحة الإعدام عند المقصلة.

- إطارها الزماني: يمتد ثلاثة أيام فقط، منذ لحظة محاولة الاغتيال الفاشلة حتى غروب اليوم الثالث من المهلة الممنوحة من قبل الحاكم لدامون.

- إطارها المكاني: يشمل قصر الحاكم، وساحة المدينة العامة (ساحة الإعدام)، والغابة وأنهاها حيث الطريق

التي سلكها دامون من وإلى قرية أخته التي لم يشر إلى ذكرها أصلاً.

د - بناء القصيدة:

يبلغ مجموع أبيات القصيدة مئةً وأربعين بيتاً باللغة الألمانية، وهي موزعة على عشرين مقطعاً شعرياً، يتألف كلُّ منها من سبعة أبيات (أسطر).

المطلع: الحدث الأساس: تسلل دامون محاولاً اغتيال الطاغية - دلالتة: محاولة التغيير باستخدام العنف - نتيجته: فشل المحاولة.

الخاتمة: الحدث الأساس: وصول دامون في اللحظة المناسبة - دلالتة: وفاء الصديقين لبعضهما - نتيجته: تغيير الطاغية من خلال سلوك الصديقين (التغيير بالأخلاق والمثل العليا).

دلالة البيتين الأول والأخير:

البيت الأول: «تسلل دامون إلى ديونيس الطاغية». البيت الأخير: «(سأكون)... الثالث في باقتكما».

في البيت الأول يظهر الثائر عدوً للطاغية مريداً قتله، وفي البيت الأخير تنقلب الأمور، ويصبح العدوان صديقين لأوفى إنسان. واستمرت الثنائيات بين ظالم ومظلوم، بين قاتل ومقتول (مشروع قتل) إلى آخر القصيدة؛ فقد حلّ صديق دامون محله، لينال عقابه. لكن البيت الأخير يصل

و - تقويم القصيدة: الكاتب والعالم:

إنَّ خلاصة قصيدة الضَّمان الأهمَّ تكمن في فشل التَّغيير بالوسائل العنفيَّة في مقابل نجاحه بواسطة السُّلوك الحسن المثالي والأخلاق السَّامية والمثل العليا. كما أنَّ شيلرَ عرضَ فيها قوَّة الصِّداقة والثِّقة بين الأصدقاء ومتانتها وقداستها، وبينَ عظَمَة التُّضحية من أجلها، وخلودَ ذكر المضحِّين عبر التَّاريخ.

لقد حبَّكَ شيلرَ قصَّته جيِّداً، وأكثرَ من عُقْدها؛ فقد أوصلَ حبْلَ العُقْدِ إلى الإنقاذ في اللَّحظة الأخيرة الأخيرة، وأنهاها بخاتمة سعيدةٍ حيث يُعْلي من قيمة الصِّداقة والوفاء ودورهما. ف دامون وديونيس، كلاهما وفي بوعِدٍ قَطَعَهُ، من حيث العفو عن الضَّمانة إن عاد الضَّامن في الوقت المناسب.

لكن، ما قيمة أن يفِي طاغية بوعده؟ وهل على الطَّاغية أن يصدق؟ ربَّما توجَّب عليه تنفيذ وعوده ليستقيم أمره، وإلا فإنَّه سيفقد سيطرته على شعبه... ولا يتوقَّف الأمر على هذه المسألة وحدها؛ فلو كانت نهاية القصة غير ذلك، مأساويَّة مثلاً، لصار لهذه القضية معنى وموضوع يستحقَّان النَّقاش، أمَّا وقد انتهت بما انتهت به، فإنَّ في ذلك إشارةً إلى بقايا الرُّوح الإيجابيَّة لدى الحاكم الطَّاغية، والتي تسمح بالبناء عليها وبالأمل بحصول تغييرٍ. يضاف إلى ذلك، الحوار الذي جرى مع الطَّاغية في بداية القصة؛ فإنَّ مجرد

بين البداية والنَّهاية، وفيه تحوُّل التُّلاثة إلى باقة صداقة، فكانت خلاصته انتصار صداقة الأوفياء ووفاء الأصدقاء على الطُّغيان.

ه - تعليق عن أسلوب القصيدة:

يدرس الأسلوب تفصيلاً عادةً بلغة النَّصِّ الأصليَّة (الألمانيَّة)، لكننا سنشير لمحا إلى ظاهرة تطوُّر الأحداث في النَّصِّ؛ فالنَّصُّ مركَّزٌ على حدثٍ أساسٍ وأحداثٍ فرعيَّةٍ مرتبطةٍ به، وما نراه من خصائص الشَّخصيَّات النَّفسية والاجتماعية والثقافية لا نحصل عليه من خلال واقع المدينة وطبيعة حياة النَّاس فيها، وفي بيوتها وأسواقها وبلاطها، ولا من خلال السُّرد والحوار الذي تغنى به النَّصوص القصصية على أنواعها. بخلاف ذلك، فإنَّنا نحكم على الأشخاص من خلال تصرُّفهم ومواقفهم العمليَّة، نلاحظها ونحلُّلها ثمَّ نكوِّن صورةً عن الأشخاص.

فقد تميَّز السُّرد بِضَعْفِ الحوار فيه، وبدأت الأحداث من دون مقدِّماتٍ وتهيئةٍ كافيةٍ للظُّروف التي تنتج تلك التصرُّفات والمواقف. وهذا ما ميَّز أسلوب شيلر في قصص مسرحياته وقصائده الطويلة، حيث ركز على خلاصة الأمور لينتقل بنا إلى المواقف الأخلاقيَّة والتَّعليمية باستخراج العبر والفوائد والغايات بعيداً من الغوص في التَّفاصيل وصياغة الحبكات الغنيَّة المتكاملة.

وللقصيدة دلالةً تاريخيةً؛ فقصةٌ تعود إلى ٤٣٠ سنة أو أكثر ما قبل الميلاد، يُعيدُ صياغتها شاعرٌ عظيمٌ كـ **شيلر**، تؤكدُ أنّ الشّاعر يعكس إعجابه بالأدب القديم وتراث القدامى من جهةٍ، وبمثاليّاتِ عهودٍ تصرّمت؛ فقد كان بعض الأقدمين مثلاً، وهكذا يمكن لنا بل ينبغي لنا أن نكون، مثاليين لمجتمعاتنا، وللأجيال الآتية، نغيّر التاريخ بالفضائل والقيم والمثل العليا.

VI - المصادر والمراجع:

(١) مواقع موثوقة من الإنترنت:

- <http://www.friedrich-schiller-archiv.de>.
<http://www.zeno.org/Literatur/M/Schiller,+friedrich/Gedichte>.
<http://gutenberg.spiegel.de/buch/friedrich-schiller-gedichte>: وهو موقع تابع لمشروع غوتنبرغ

(٢) كتب ومقالات:

- Friedrich Schiller 1879 publisher J. G. Cotta'sche Buchhandlung Stuttgart.
- Rüdiger Safranski, «Schiller: oder Die Erfindung des Deutschen Idealismus» Taschenbuch - 10. Dezember 2015.
- Rüdiger Safranski: Goethe und Schiller: Geschichte einer Freundschaft, 2009, Carl Hanser Verlag GmbH & Co. KG.
- Rüdiger Safranski: Goethe und Schiller: Geschichte einer Freundschaft, Verlag: FISCHER Taschenbuch; Auflage: 3 (September 2011).
 Manfred Mai: "Was macht den Mensch zum Menschen?": Friedrich Schiller - Eine Biografie. (Reihe Hanser), Taschenbuch - 1. Mai 2009, Deutscher Taschenbuch Verlag (dtv)

قابليّة الحاكم للاستماع أو قبول الأخذ والرّد والحوار، فإنّ على الإنسان العاقل، وعقلاء المجتمع أن لا يفوتوا هذه الفرصة، فينبغي الحديث مع الحاكم ومحاولة الحوار معه، فربّما نفع ذلك في انتزاع شيءٍ مفيدٍ منه، كما حصل بطلب ايستمهالٍ لثلاثة أيّامٍ بُعيدَ إلقاء القبض على الثائر متلبساً بسلاحه. وهذا ما أثمر أكبر من ذلك بكثيرٍ في نهاية المطاف، وأدّى إلى تغييرٍ جذريٍّ لمسار الأمور. إنّ روح **شيلر** طاقةٌ بالأمل، وهو يريد أن ينثر من رحيقه في عقولنا وأرواحنا، لكي نتمكّن من إحداث التّغيير المنشود بأقلّ التّكاليف، وأنجع الطّرق، وأجمل الأساليب.

V - خاتمة:

إنّ قصيدة الضّمان تتوافق ومبادئ **شيلر** في التّربية الجماليّة ودور الجمال والفنّ في التّربية والتّغيير؛ فالذي غير الطّاغية ليس **خنجر دامون**، بل صدقته وإخلاص صديقه ووفائهما لبعضهما البعض. وهذا يؤكّد مسعاه السّلمي في التّغيير بالسّلك، والأخلاق، والمثل العليا من دون اللّجوء إلى الثّورة والعنف. وقد حلّم **شيلر** كما حلّم **أفلاطون** بمدينةٍ فاضلةٍ أو أفضل، وهذا ما تعكسه قصيدته. فالحلّ في نهاية القصّة مثاليّ (طلب الطّاغية الانضمام إلى حبل صداقتهما) يتناسب ومثاليّة الشّاعر التي أظهرها في الكثير من قصائده وكتاباتهِ^(٣٣).

VII - ملحق: نصّ القصيدة الأصليّ بالألمانيّة
مع صور تمثيليّة^(١):

1 Zu Dionys, dem Tyrannen, schlich Damon, den Dolch im Gewande; Ihn schlugen die Häscher in Bande. Was wolltest du mit dem Dolche, sprich!“ Entgegnet ihm finster der Wüterich. Die Stadt vom Tyrannen befreien!“ Das sollst du am Kreuze bereuen.“



2 Ich bin“, spricht jener, zu sterben bereit Und bitte nicht um mein Leben, (;)

Doch willst du Gnade mir geben, Ich flehe dich um drei Tage Zeit, Bis ich die Schwester dem Gatten gefreit, (;) Ich lasse den Freund dir als **Bürgen**, Ihn magst du, entrinn ich, erwürgen.“ 3 Da lächelt der König mit arger **List** Und spricht nach kurzem Bedenken: Drei Tage will ich dir schenken. Doch wisse! Wenn sie verstrichen, die Frist, Eh‘ du zurück mir gegeben bist, 20 So muss er statt deiner erblassen, Doch dir ist die Strafe erlassen.“ 4 Und er kommt zum Freunde: "Der König gebet, Dass ich am **Kreuz** mit dem Leben Bezahle das frevelnde Streben, 25 Doch will er mir gönnen drei Tage Zeit, Bis ich die Schwester dem Gatten gefreit, So bleib du dem König zum Pfande, Bis ich komme, zu lösen die Bande.“ 5 Und schweigend umarmt ihn der treue Freund 30 Und liefert sich aus dem Tyrannen, (;) Der andere ziehet von dannen. Und ehe das dritte Morgenrot scheint, Hat er schnell mit dem Gatten die Schwester vereint, Eilt heim mit sorgender Seele, 35 Damit er die Frist nicht verfehle. 6 Da gießt unendlicher Regen herab, Von den Bergen stürzen die Quellen, Und die Bäche, die Ströme schwellen. Und er kommt ans Ufer mit wanderndem Stab, 40 Da reißet die Brücke der Strudel hinab, Und donnernd sprengen die Wogen Des Gewölbes krachenden **Bogen**. 7 Und trostlos irrt er an Ufers Rand, Wie weit er auch spähet und

(١) انظر: نصّ القصيدة الألمانيّ في: Markus Kuhnigk, Alexandra Hornung, H. Weiss: Inhaltsangabe: Ballade: Friedrich Schiller, Die Bürgschaft - Friedrich Schiller, Klippert-Medien, Donauwoerth, 2016, S2-7
Gedichte (1789-1805) Michael Holzinger, Berlin, 2013, S100-103
فموجودة على موقع: <http://www.goethezeitportal.de/wissen/illustrationen/friedrich-schiller/die-buergschaft/die-buergschaft-lithographiert-und-verlag-von-joseph-trentsensky.html>

blicket 45 Und die Stimme, die rufende,
schicket, Da stößet kein Nachen vom si-
chern Strand, Der ihn setze an das ge-
wünschte Land, Kein Schiffer lenket die
Fähre, Und der wilde Strom wird zum
Meere. 8 Da sinkt er ans Ufer und weint
und fleht, 51 Die Hände zum Zeus⁽³⁴⁾ er-
hoben: O hemme des Stromes Toben! Es
eilen die Stunden, im Mittag steht Die
Sonne, und wenn sie niedergeht 55 Und
ich kann die Stadt nicht erreichen, So
muss der Freund mir erleichen.“



9 Doch wachsend erneut sich des
Stromes Wut, Und Welle auf Welle zer-
rinnet, Und Stunde an Stunde entrinnet.
60 Da treibt ihn die Angst, da fasst er
sich Mut Und wirft sich hinein in die
brausende Flut Und teilt mit gewaltigen
Armen Den Strom, und ein Gott hat Er-
barmen. 10 Und gewinnt das Ufer und
eilet fort 65 Und danket dem rettenden
Gotte, Da stürzt die raubende Rotte
Hervor aus des Waldes nächtlichem
Ort, Den Pfad ihm sperrend, und
schnaubet Mord Und hemmet des Wan-
derers Eile 70 Mit drohend geschwunge-
ner Keule. 11 Was wollt ihr?“, ruft er für
Schrecken bleich, Ich habe nichts als
mein Leben, Das muss ich dem Könige
geben!“ Und entreißt die Keule dem
nächsten gleich: Um des Freundes willen
erbarmet euch!“ Und drei mit gewaltigen

Streichen⁽³⁵⁾ Erlegt er, die andern entwei-
chen. 12 Und die Sonne versendet glu-
henden Brand, Und von der unendlichen
Mühe Ermattet sinken die Kniee. O hast
du mich gnädig aus Räubershand, Aus
dem Strom mich gerettet ans heilige
Land⁽³⁶⁾,



Und soll hier **verschmachtend** verderben,
Und der Freund mir, der liebende, ster-
ben!“² Und horch! da **sprudelt** es silber-
hell, 86 Ganz nahe, wie **rieselndes**
Rauschen Und stille hält er zu **lauschen**,
Und sieh, aus dem Felsen, geschwätzig,
schnell, Springt **murmeln**d hervor ein le-
bendiger Quell, Und freudig bückt er
sich nieder Und **erfrischet** die brennen-
den Glieder.



14 Und die Sonne blickt durch der
Zweige Grün Und malt auf den glänzen-

den Matten Der Bäume gigantische Schatten; 95 Und zwei Wanderer sieht er die Straße ziehn, Will eilenden Laufes vorüberfliehn, Da hört er die Worte sie sagen: Jetzt wird er ans Kreuz geschlagen.“ 15 Und die Angst **beflügelt** den eilenden Fuß,



100 Ihn jagen der Sorge Qualen, Da schimmern in Abendrots Strahlen Von ferne die **Zinnen**⁽³⁷⁾ von Syrakus, Und entgegen kommt ihm Philostratus⁽³⁸⁾, Des Hauses redlicher Hüter, 105 Der erkennt entsetzt den Gebieter: 16 Zurück! du rettetest den Freund nicht mehr, So rette das eigene Leben! Den Tod erleidet er eben. Von Stunde zu Stunde gewartet‘ er

110 Mit hoffender Seele der Wiederkehr, Ihm konnte den mutigen Glauben Der **Hohn** des Tyrannen nicht rauben.“ 17 Und ist es zu spät, und kann ich ihm nicht Ein Retter willkommen erscheinen, 115 So soll mich der Tod ihm vereinen. Des **rühme** der blutige Tyrann sich nicht, Dass der Freund dem Freunde gebrochen die Pflicht, Er schlachte der Opfer zweie Und glaube an Liebe und Treue.“ Gaffend: to gawk; to gawp: **يفغر فاه** . 18 Und die Sonne geht unter, da steht er am Tor⁽³⁹⁾ 121 Und sieht das Kreuz schon erhöht, Das die Menge gaffend umstehet, An dem Seile schon zieht man den Freund empor, Da zertrennt er gewaltig den dichten Chor⁽⁴⁰⁾: 125 Mich, Henker“, ruft er, erwürget! Da bin ich, für den er gebürget!“

19 Und Erstaunen ergreift das Volk umher, In den Armen liegen sich beide Und weinen vor Schmerzen und Freude. 130 Da sieht man kein Auge tränenleer, Und zum Könige bringt man die Wundermär⁽⁴¹⁾, Der fühlt ein menschliches Rühren, Lässt schnell vor den Thron sie führen. 20 Und blicket sie lange verwundert an. 135 Drauf spricht er: Es ist euch gelungen, Ihr habt das Herz mir bezwungen, Und die Treue, sie ist doch kein leerer Wahn, So nehmet auch mich zum Genossen an Ich sei, gewährt mir die Bitte, 140 In eurem Bunde der Dritte.



Matthias und Joseph Trentsensky - Illustration zu „Die Bürgschaft“ (ca. 1825)

- (١) اسمه الكامل يوهان كريستوف فريدريش شيلر
Johann Christoph Friedrich Schiller. في بقية
المقالة سأكتفي بتقديمه بشهرته شيلر.
- (٢) قصيدة الضمان أو الضمانة: Die Bürgschaft.
- (٣) يوهان فولفغانغ فون غوته (١٧٤٩-١٨٣٢)
Goethe.
- (٤) لتوثيق سيرته الذاتية اعتمدنا عدداً من المراجع
الألمانية، منها: Andreas Streicher: Schillers
Flucht. Neu hrsg. von Paul Raabe. Stuttgart:
Holzinger, Michael: و J. F. Steinkopf, 1959.
(Friedrich Schiller: Theoretische Schriften),
Berlin, 2003؛ هذا الكتاب يضم سيرة ذاتية
للشاعر، كتبها ميشيل هولتسينغر، و
Sigrid: Das Leben des Friedrich Schiller. Eine
Wanderung. Frankfurt am Main, Insel Verlag
Helmut و 2006، ISBN: 978-3458349327
Koopmann: Schiller und die Folgen, J.B.
Metzler, 2006, S13. لخص هذا المصدر أهم
محطات حياة شيلر، وغيرها.
- (٥) Marbach am Neckar. في كتاب باومان، باربارا،
وأوبرله، بريجيتة Barbara Baumann und Brigitte
Upperle: عصور الأدب الألماني (Deutsche
Literatur in Epochen)، ترجمة: هبة شريف،
سلسلة عالم المعرفة، العدد ٢٧٨، الكويت، شباط
٢٠٠٢، يوجد ملخص لسيرته الذاتية وتسلسل
تاريخي لأهم نتاجه ص ١٨٣-١٨٤.
- (٦) Würthemberg.
- (٧) Stuttgart.
- (٨) Baden Würthemberg.
- (٩) Lorch.
- (١٠) Ludwigsburg.
- (١١) عصور الأدب الألماني، ص ١٤٩.
- (١٢) Karl Eugen.
- (١٣) اسمها الكامل: فينيجينا شارلوتة فون لينغفيلد.
Wenigenjena Charlotte von Lengefeld.
- (١٤) Dresden و Leipzig.
- (١٥) Weimar.
- (١٦) تعدّ سنة وفاته نهاية العصر الكلاسيكي. وقد دفن في
مقبرة يعقوب Jakobsfriedhof ليل ١٢-٥-١٨٠٥.
يقول غوته: «إنّ فكرة الشعر الكلاسيكي والشعر
الرّومنتيكي قد صدرت في الأصل عني وعن شيلر».
انظر: مكاوي: البلد البعيد، م.س، ص ٢٨، وباومان:
عصور الأدب الألماني، م.س، ص ٢٥.
- (١٧) Ingo von Münch: Die deutsche
Staatsangehörigkeit: Vergangenheit-
Gegenwart - Zukunft. De Gruyter Berlin W
de G, Rechtswissenschaften, 2007, S.187.
انظر: http://www.faz.net/aktuell/rhein-main/
wirtschaft/denkmalpflege-schiller-verehrung-
http://www.in-frankfurt-1229739A.html و
www.dw.com/de/was-uns-schiller-heute-noch-
zu-sagen-hat/a-4660451
- (١٨) أو «نشيد الفرح» An die Freude. في العام ١٨٢٣
أدخل بيتهوفن هذا النشيد في سمفونيته التاسعة بعد
تعديل فيه زيادة وحذفاً وترتيباً. وفي العام ١٩٧٢
اختار البرلمان الأوروبي في شتراسبورغ هذه
المقطوعة الخالدة نشيداً وطنياً لأوروبا الموحدة،
ثمّ جدّد التأكيد على هذا النشيد في العام ١٩٨٥،
وكأنه تأكيد على خلود ذكر الشاعر أيضاً.
- (١٩) Marbach، وهي مدينة جميلة تضم أكبر مركز توثيقي
للأدب الألماني، تأسس سنة ١٨٩٥ جمعته هدفها
إنشاء متحف لشيلر وأرشيف يضم تراثه في مسقط
رأسه مارباخ، وقد تمّ افتتاح مبنى الأرشيف سنة
١٩٠٣، ليضمّ تراث معاصريه وغيرهم من أدباء منطقة
الشفابن بدايةً، ثمّ توسّع مدى اهتمامه ليغدو (أرشيف
الأدب الألماني) منذ سنة ١٩٥٥. عنوان المركز
الإلكتروني: http://www.friedrich-schiller-
archiv.de، و https://www.dla-marbach.de
- (٢٠) Kabale und Liebe. مرجعي في هذه المعلومات
مقالة د. عبده عبود المنشورة على موقع: https://
ar.qantara.de، بعنوان تلقّي الأديب الألماني
فريدريش شيلر في العالم العربيّ).
- (٢١) عدنا إلى عددٍ من المراجع الألمانية لاعتماد النصّ
الألمانيّ للقصيدة؛ انظر: Markus Kuhnigk،
Alexandra Hornung، H. Weiss: Inhaltsangabe:

- (١٠) Móros. (١١) أشير إلى عملي على تقديم قصائد أخرى للشاعر وتحليلها بعد إكمال ترجمتها، وسأُنشرها في وقتٍ لاحقٍ.
- (١٢) Zeus: ist in der griechischen Mythologie der Herrscher des Olymp und gebietet über alle anderen Götter.
- (١٣) Streichen: Schläge.
- (١٤) heilige: gemeint ist das Heil bringende Land, das rettende Land.
- (١٥) Zinnen: Auf den Wehrmauern von Burgen sind oft gemauerte Aufsätze zu finden, die etwa mannshoch waren und sich mit Schießscharten abwechselten. Diese Aufsätze werden als Zinnen bezeichnet. Soldaten konnten sich hier vor Schüssen der Feinde sicher verbergen.
- (١٦) am Tor: Hier befand sich auch im Allgemeinen die Hinrichtungsstätten. Am Stadttor wurden öffentliche Angelegenheiten verhandelt.
- (١٧) Chor: auch Kreis, Reigen.
- (١٨) Wundermär: Wundergeschichte.
- Ballade: Die Buergschaft - Friedrich Schiller, Klippert-Medien, Donauwoerth, 2016, S2-7
Friedrich Schiller Gedichte (1789-1805) und Michael Holzinger, Berlin, 2013 S100-103
وغيرها من المصادر.
- (١) على المقصلة.
- (٢) يقصد أخته.
- (٣) من هنا جاءت تسمية القصيدة بالضمان أو الضمانة.
- (٤) (يسرع) (ينبعث) (يندلث) (ينقث) يُوَجُّ يَكْعَبُ يَدِجُّ.
- (٥) القرار بمعنى الأمان والاستقرار والثبات.
- (٦) وتحذق (العين) مندهشةً طويلاً. يعلّق على ذلك: «نحجتها،»
- (٧) أو: اتّخذاني رفيقاً لكما.
- (٨) أو: سأكون ثالثَ ثلاثةٍ.
- (٩) اقتبسها من القصة رقم ٢٥٧ من كتاب Hyginus Mythographus (٢٠٠ سنة قبل الميلاد). هناك يُدعى الصديقان ميروس (Mros) وسيلينونتوس (Selinuntius).

أبعاد مجزرة قانا في الشعر العربي دراسة في التحليل النفسي للأدب

كاتيا أبو هوش

ظل صمت العالم أجمع، من دون تحريك ساكن واحد لإدانته وإدانة هذه الصورة التي تناقلتها وسائل الإعلام.

لذا، رسم الشعراء صوراً موحية عن مجزرة قانا التي ظهر فيها حب الوطن، واهتم الشعراء بالمشاعر الوطنية التي تنم عن الرغبة في الحرية؛ فالوطن في دلالاته النفسية، يشير إلى الأمان، والدمج بينه وبين شعر مجزرة قانا يدل على توسع دائرة الحزن والألم، فعندما دُيس الوطن/ الأم، نتيجة مجزرة قانا، تعالت صيحات الشعراء حزناً ونحيباً ولا سيما من خلال صور مفعمة بالحزن والمعاناة في شعر علي عز الدين:

أُمّاه أُمّاه

قومي اجمعيني

جسمي هنا

ويديّ هناك

قبضة يدي ما زالت

حظيت مجزرة قانا باهتمام العالم أجمع، وتركت بصمتها الواضحة على الفنون الأدبية باختلاف أنواعها، وكان الشعر أسرع الفنون استجابة للتعبير عن هذه المأساة، كيف لا وقد بات الشعر فناً للحياة، وسلاحاً في المعركة، وتصويراً للواقع، ورباطاً يربط الشاعر بأمتة؟

فجّرت مجزرة قانا/ الجريمة كوامن الإبداع عند بعض الشعراء العرب... وأبناء الوطن على حد سواء؛ لأن صورة الدماء والأشلاء التي تناقلتها وسائل الإعلام، وجدت صداها في مخيلة الشعراء العرب الذين عانوا مرارة الجريمة، واستطاعوا إحالتها ورموزها إلى وسائل فنية ثرية بالعطاء.

والواقع أنّ ظروف مجزرة قانا بحد ذاتها، تقدم دافعاً جوهرياً للغوص في أعماق هذا الموضوع؛ لا سيما أنّها وقعت في مقر الأمم المتحدة، وتحت رايتها، في

تحوي لؤلؤة

وردة حمراء

خرجت من صلب قانا^(١)

توحي عناصر الصورة الشعيرية هنا، بالألم والمكابدة نتيجة الدم والقتل والأشلاء، وفيها طلب الاستغاثة من الأم، ونداؤها مرات عدة، فالشهيد في هذه الصورة لا يود الانفصال عن أمه، بدليل أنه يقول لها: «اجمعيني»؛ أي ضميني مثل الطفل الرضيع؛ فالأم تجمع أبناءها في أثناء الرضاعة، وتؤمن لهم الرعاية؛ فالتشبيث الطفلي العنيف هنا بالأم، يدل على شخصية تواكلية، لا تود الفطام، وتتصف علاقتها بالأم بتبعية لاواعية تنم عن التخلص من النفس الفردية في سبيل الخضوع لشخص يتراءى كأن في يده حلاً سحرياً بمعاصل الحياة^(٢)، ففي هذه الصورة توق إلى حب غير مشروط، وعدوانية جراء معاناة المجزرة، ويلفت نظرنا في الأسطر الشعيرية الحديث عن قبضة اليد؛ وهذه إشارة إلى النزعة الطفولية؛ لأن الرضيع والطفل هو الذي يقبض يده، ويشد عليها، بغية تأمين الغذاء.

وعند الحديث عن صور شعر مجزرة

قانا، يلاحظ ظهور إشارات جنسية تعود إلى اللاوعي؛ من خلال الكلام المتواري وراء الشعر الوطني. وكأني بقانا أصبحت رمزاً للوطن المدنس الذي تفوح منه رائحة العطر والياسمين، لم لا وقد أضحت قانا في نظر سعيد عقل «كل السما»؟ يقول في قصيدة له بعنوان: قانا، حيثُ أعلنت المسيحية:

تحكي القرى... قال... قانا تلك أحلانا؟

بعضُ السّما... قال... بل كلُّ السّما قانا

وكانَ عرسٌ غلا بالورد ألوانا^(٣)

جليّ أن قانا ترسم عند عقل صورة الكون والوجود (بل كل السما قانا)، وكأني بتلك القرية الهائلة المقدسة، تتسع لتشمل الجمال كلّ، وفي ذلك شعور بالعظمة والتفوق يشع من هذه الصورة.

ويبرز البعد القومي في الصور التي تناولت المجزرة بشكل قوي؛ ولا سيما التي مزجت الشعور القومي والوحدوي بالشعور بالمرارة، نظراً إلى المأسى والشعور بالفاجعة والألم؛ فكان الحزن بوساطة الصورة الشعيرية، أشبه ما يكون بالجزء من الكل؛ أي أنّ الشاعر ترجم أحاسيسه في

(١) علي عز الدين، قانا الحبر والدم، ص ١٣٣.

(٢) إريك، فروم: «الخوف من الحرية»، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٢، ص ١٣٠.

(٣) سعيد عقل، قانا الحبر والدم، ص ١٠٨.

الصور طبقاً لإحساس الوطن العربي أجمع. واتخذ البعد القومي منحنيين؛ منحى يدعو إلى الاعتزاز والافتخار بالأمجاد العربية، وآخر يُظهر النقمة على القيادات التي تخاذلت عن نصرته لبنان وأبنائه؛ ولعلّ هذا ما عبرت عنه صورة الشاعر العراقي نبيل ياسين:

ذهب الطفلُ إلى الشرق

دخانُ الشرق، من بغداد يمتدُّ إلى الماضي
ومن بيروت للحاضر
من قانا إلى المستقبل المبهم مثل الرّوح
ذهب الطفلُ إلى مريم
أعطاهما فُتاتُ الفجر في قانا
بقايا الحلم للأطفال،
أعطاهما دُمى مُبتلّةً بالدموع^(١)

حاول الشاعر تشبيه بيروت ببغداد ووطنه الأم؛ فالبعد القومي يطغى على هذه الصورة الشعرية، ولا تغيب صورة الألم والدمع والإحساس بالضعف، إنّها النزعة الطفلية التي تُعبّر عن نكوص إلى المرحلة الجنينية الممزوجة بحزن عميق؛ ومن المحتمل أن يكون الطفل في هذه الصورة

هنا تفتحت عيناه على شيء مؤلم أثر فيه، كصدمة تعود به إلى مواقع الطفولة «فالتعرض لصدّات عاطفية شديدة في الطفولة، مثل فقدان المفجع لأحد الوالدين، أو التعرض المتكرر لحالات العنف الزوجي بين الوالدين، وما يحيط بها من تهديد لأمن الطفل وطمأنينته النفسية، يتخذ أشكالاً من السادية والعجز»^(٢).

كما يُظهر منحى النقمة على القيادات التي تخاذلت، وتركت أطفال قانا فريسة سهلة في مخالب القتلة، يكتفون بالمراقبة عن بعد، بعبارات الشجب والاستنكار والإدانة، وتسجل صور الشاعر مالك عابد سخطاً على الدول العربية، فيقول:

لو أنّ حكام شعبي في تضامنهم
لم يجرؤ الغربُ بالأمعان بالخلل
واليوم زاد المكرُّ عنجبهة
عن انسحاب بشرط تاه في الدّجل
لبنانُ أضحي ضليعاً في تعنتهم
لا للشروط التي في قمة الهزل
هذي مؤامرةً حيكتُ على وطن
حتى تعيد رحي التقتيل والشلل^(٣)
تشعُ الصورة هنا بالغضب على

(١) نبيل ياسين، قانا الحبر والدم، ص ١٨٦.

(٢) مصطفى حجازي، الصحة النفسية (منظور دينا في تكاملي للنمو في البيت والمدرسة)، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط ٣، ٢٠٠٦، ص ١٧٨.

(٣) مالك عابد، قانا الحبر والدم، ص ١٥١.

من الذات، ونسبتها إلى موضوع آخر في العالم الخارجي»^(٢).

في هذا السياق؛ لا يمكن تحديد السلوك الإنساني في مراحل الحياة كافة، بعيداً من تأثيرات الخبرات في مرحلة الطفولة، إذ تبرز نواتج هذه الخبرات في إبداعات الفنانين والأدباء، ويكون اكتشاف صور هذه الخبرة التي تظهر رموزها في العمل الإبداعي واسطة لتحليل العمل وفهمه، ويترجم هذا الكلام في صور شعراء قانا، ولا سيما شعر نبيه شमित:

أطفئي قناديل الصمت يا أمي

وأغلقي النوافذ والأبواب

فقد تسمّعنا جرائم الخيانة

وديدان العلق

أطلقني حرية رحمك الحنطي

أغسيليني بقوارير العطر النبوي

وبخور التربة الطرية^(٣)

في هذه الصورة محاولة للاستغاثة بالأم، ومطالبة بإغلاق النوافذ والأبواب، أي أبواب الحياة، والواقع الأليم، وفيها هرب بعيداً من الأذى، وإشارة إلى الخلاص في إطلاق رحم الأم بحرية، لتنتفتح على حياة

الشعوب التي تركت لبنان فريسة سهلة في مخالب العدو، وتؤكد أن الشروط التي يطلبها العدو للكف عن الحرب، والمجازر هي مؤامرة؛ سكت عنها العالم أجمع، بل وشارك فيها، ويلاحظ أن الكبت واضح في هذه الصورة، حيث يظهر إلقاء اللوم والعتاب على المجتمع بأسره، من خلال الدفاع عن قلق الاضطهاد، للتخفيف من الشعور بالإحباط والذل، فيسقط المرء كامل دونيته وعجزه على الآخر؛ وهذا ما يسمى «بالإسقاط»؛ وهو «إضفاء صفات الأنا الحاقدة على الآخر»^(١).

إنّ الصمت والسكوت العربي على جرائم الأعداء، يؤرقان الطفل / الشاعر، وهذا الشعور بالجبروت وتوجيه أصابع الاتهام، ينطويان ضمناً على ضعف بالغ، فيتسلح المواطن بأواليات الدفاع عن الذات؛ وهي حيلة أو ردة فعل تستهدف الحفاظ على توازن الأنا؛ أي الدفاع عن التكامل النفسي، (وهو) شعور بالدونية يدفعه للبحث عن تعويض، وإلقاء اللوم على الآخرين؛ ومعلوم أن الإسقاط هو «إحدى الحيل اللاشعورية التي ترمي إلى طرد الأفكار غير المقبولة

(١) سيغموند، فرويد، أنا، النا وأواليات الدفاع، ترجمة جورج طرابيشي، بيروت، دار الطليعة، الطبعة الرابعة، ١٩٩٣، ص ٨٩.

(٢) ابراهيم وجيه: «صحة النفس»، دار المعارف، القاهرة، لاط، لات، ص ٣١.

(٣) نبيه شमित، قانا الحبر والدم، جمع قصائده يوسف ديب، ص ١٧٢.

وشتلة تبغهم
ويقبلون الأرض في
شوق وحب كالجنون
وعشية، نلقاهم
كزهور نيسان الحميمه
كالمواسم يقبلون ويرجعون^(٢)

ينفي الشاعر هنا مقولة إن الشهيد ميت، بل على العكس، إنه لم يرحل، يأتي إلى قانا باستمرار يتفقد أرزاقه، ويقبل الأرض بجنون، وهو ما يدل على اتصال بين الفم والأرض وترابها، فالخلق الفني يرتبط هنا بلذة الألم والموت، «فالفم منطقة ليبيدية بامتيان»^(٣).

ولا شك في أن الشعراء أبدعوا في تصوير الحكام العرب الذين ناموا نوماً عميقاً، وكأن مجزرة قانا لم تكن، وتخلوا عن الإنسانية، وهذا ما صوره الشاعر محمد كامل سليمان في قوله:

نامَ الجميعُ على أنغام نكبتنا
جفَّ الضميرُ، فما الإنسانُ إنسانا
نعيش في أرخبيل الرعب تنهشنا
رقت الأفاعي شعيرات وشرياننا^(٤)

جديدة مليئة بالحب والحنان، تغمره بعالم آخر، بعيداً من كل الألم والعنف؛ وهناك في العالم الجيني الفردوس الذي يحلم به الإنسان.

الحديث عن جسد الأم أو جزء منه، لا يدل على العدوانية فقط، بل يدل على جملة الأم الموعودة، والحنان الذي لا ينضب له معين، وفي هذا المقام تؤكد ميلاني كلاين «أنَّ الحنين إلى عالم ما قبل الولادة- الرحم- يقوم جزئياً على مثلثة العلاقة بالأم؛ حيث تبدو مثلاً كلة طيبة، ونبعاً غزيراً من الحنان»^(١).

أيضاً حاول الشعراء في صورهم تصوير مشاهد من وحي المأساة؛ كسيلان الدماء على الأرض من الأبرياء والضحايا، والشهداء الذين قبّلوا تراب الأرض بأرواحهم وأجسادهم ودمائهم الزكية؛ من هؤلاء الشعراء بدر غزاوي الذي نقل صورة الشهيد بإحساس عال، وبأسلوب راق، فيقول:

رحلوا، وما رحلوا عنا
كما نتوهم
نرحوا وحسب

(١) عبد الحليم سمعان: «المال والتحليل النفسي»، دار الحداثة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٨، ص ٨٠.

(٢) بدر غزاوي، قانا القيامة والبيشارة، ص ٦٠.

(٣) سيغموند فرويد: «ثلاث مقالات في نظرية الجنس»، ترجمة سامي محمود علي، دار المعارف بمصر، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٦٩، ص ٥٦.

(٤) محمد كامل سليمان، قانا القيامة والبيشارة، ص ١٨١.

الجميع نام على أنغام مجزرة قانا، ولا يود الاستيقاظ؛ هكذا كانت حالة العرب في رأي الشاعر الذي يرى نفسه وحيداً والجميع تخلى عنه... من الواضح أن في الصورة عدوانية عنيفة، واضطراب يعود إلى الشعور بالنقص والعار، لذلك نجد محاولة لدفع هذا الشعور بلوم الآخرين، والتشكيك بهم^(١).

وهناك العديد من القصائد المفعمة بالمواقف والصور الإنسانية، فقتل طفل صغير يدل على انعدام الشعور الإنساني عند المعتدين، كما هي الحال في قصيدة الشاعر علي يوسف نور الدين:

هذي الطفولة في قانا معمدة

بحقد صهيون، أشلاء ومنتها

يا ثار أمي ويا ثار الأباة ويا

أمجاد يعرب من للثار إذ طلبا

هذا «ابن ديب» كما الأطفال تشهده شبلاً
يزمجر في الأنقاض إذ غضبا^(٢)

تهز هذه الصورة المأساوية المشاعر؛ فهي لوحة معبرة عن قتل المعاني الإنسانية، من خلال إراقة دماء الطفل محمد ديب ظلاماً وعدواناً؛ ومن الحقائق المسلم

بها أن الشعور بالألم، قد يجيء انعكاساً لنزاع الإنسان والنفس الإنسانية التي تحس بالانفعالات، وتتولد عنها الآلام واللذات؛ وهذا ما يؤكد المازوشية التي ظهرت نتيجة للمعاناة، واكتسب شعوراً دافقاً باليأس والتفجع والمرارة التي تولد الانفعال؛ «وللأنفعال صلة وثيقة باللذة والألم، وبالتالي بشتى الدوافع التي تصدر عن أعمالنا، وما من انفعال إلا ويكون مصحوباً بلذة وألم»^(٣).

وهكذا، غابت كل معالم الحق والكرامة والضمير الإنساني في مجزرة قانا، وكانت الصور الشعرية خير دليل على تلك المأساة الإنسانية...

فالشاعر يغرق بحالة سوداوية، تعكس نفسيته المليئة بالمشاعر المؤلمة، نتيجة النزعة الافتراضية العدوانية عند المجرمين، هكذا يتراءى لنا الفنان المبدع شخصية راضية بالألم، غارقة في حالة من الشجن العميق، يتخللها إحساس بالإثم، فالسوداوي «لا يعمل على التملص من هذه الحالة، بل يجد لذة بالتمرغ فيها؛ غير أن العدوانية لا تنفصل عن عقدة ذنب لا واعية»^(٤).

(١) علي كمال: «فصام العقل والشيزوفرنيا»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٦، ص ٢٢٤.

(٢) علي يوسف نور الدين، قانا القيامة والبشارة، ص ١٦٧.

(٣) يوسف مراد، مبادئ علم النفس، دار المعارف، ١٩٥٥، ص ١١٤.

(٤) يعقوب، غسان، «معرفة الذات والآخر»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٨، ص ٥٦.

مراد، يوسف، مبادئ علم النفس، دار المعارف،
١٩٥٥.

- يعقوب، غسان، «معرفة الذات والآخر»، المؤسسة
العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى،
١٩٧٨.

المراجع العربية

- إريك فروم: «الخوف من الحرية»، ترجمة مجاهد
عبد المنعم مجاهد، المؤسسة العربية للدراسات
والنشر، بيروت الطبعة الأولى، ١٩٧٢.

- فرويد، سيغموند: «علم ما وراء النفس»، ترجمة
جورج طرابيشي، بيروت، دار الطليعة، الطبعة
الرابعة، ١٩٩٨.

- فرويد، سيغموند: ثلاث مقالات في نظرية الجنس،
ترجمة سامي محمود علي، دار المعارف بمصر،
القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٦٩.

- فرويد، أنا، الأنا وأوالبات الدفاع، ترجمة جورج
طرابيشي، بيروت، دار الطليعة، ١٩٣٣.

- ماي رولو، «البحث عن الذات»، تعريب عبد علي
الجسماني، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،
بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٣.

- يوجين، برنارد، لوبين، سيكولوجية الاكتئاب،
ترجمة ونص محمد عبد العليم، دار المعارف
بالإسكندرية، ١٩٩٧.

اهتم الشعراء اللبنانيون والعرب
بمجزرة قانا، وأفاضوا فيها، وحاول
الشعراء ترجمة الأشعار إلى غاية إبداعية
بواسطة التسامي، وتحويل العقدة إلى إبداع
فني، فاكتشفنا من خلال تحليل الأشعار
وجود كبت ومازوشية مقترنان بالألم،
فالطابع المازوشي وتعذيب الذات سيطر
على الصور بسبب ما تركت مجزرة قانا من
مأس ودمار.

لائحة المصادر والمراجع

أ- مراجع المدونة

١ - قانا الحبر والدم، جمع قصائده وأشعاره يوسف
ديب، اللجنة الوطنية لإحياء ١٤ آذار و٨ نيسان،
طبعة أولى.

٢ - قانا القيامة والبشارة، جمع قصائده وأشعاره يوسف
ديب، اللجنة الوطنية لإحياء ١٤ آذار و٨ نيسان،
طبعة أولى.

المراجع العربية

- إبراهيم وجيه، «صحة النفس»، دار المعارف،
القاهرة، لاط، لات.

- علي كمال: «فصام العقل أو الشيزوفرنيا»،
المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،
الطبعة الأولى، ١٩٨٦.

- مصطفى حجازي، الصحة النفسية (منظور دينا في
تكاملية للنمو في البيت والمدرسة)، الدار البيضاء
وبيروت، المركز الثقافي العربي، ط٣، ٢٠٠٦.

دعوة ميّت إلى العشاء

زنوبيا ظاهر

يقبلُ دعوة الفقراءِ إلى الموائدِ الأخيرة التي
تعوي من الجوع
وترتشفُ الفقرَ الفاحشَ من فرطِ يباسِ
النبيد
كأسٌ فارغٌ من النورِ
ووردٌ مهجورٌ
وشمّعٌ في طورِ اختفائه
والموتُ هنا
يتلمّسُ آخرَ منحنياتِ الأحلامِ في الشرود
ينبعثُ في آخرِ زوايا المرايا
طلاسمةٌ في أذنينِ اعتادتَا سماعِ الرعشة
التالية للولادة
والخصرُ مثقلٌ بأظافره
والعتمة
غرق/ غرق/ غرق
تطرق جارتني العجوز بابي في الصباح
لتقول لي:
أعدّي له موائدك كلَّ ليلةٍ، لينساني..

كتفانٍ
عاريانٍ من الليل
مضيئانٍ/ بهيَّانٍ/
يليقانِ بانكسارِهِما
والصوتُ وجهُ ماءٍ
يليق بالرتابة التي تعقبُ الحياة
أو تطعنها
حرّاسُ الليلِ عميَّانٌ
ولا شيءٌ لتلتقطهُ البصيرة
في فراغين
لا سَفَرٌ يُحصي عددَ الشّاماتِ في جسدٍ يعدُّ
الفراغَ للبكاء
فالمجراتُ الهائلة الخائفة التي تحمل
احتراقها على كَفِّها
تُهَابٌ ولا تُحصى
ولا دربٌ يطأ سِياجَ الصدى
بعد انتحابِ النشوة
والموتُ لطيفٌ جداً
بسيطٌ جداً

منتصف ليل الملاك التائه

فيديل سببتي

وأكفّ عن تذكرك رغم أن صوتك يضجّها
هنا في الغرفة
وأقطع أصابع ذاك الولد الذاهب إلى حتفه
كي لا يمدّ يده إلى رقبتك
يطلب حنجرتك ليفقشها
ويضحك الأرنب متقافزاً حولي
رافعاً أذنيه مبهوراً
راكلاً الوحدة كطابة في سهل من الصخور
المروسة.

* * *

كان عليّ أن أسألك بماذا تشعرين
وأندم على السؤال الغبي
وأرتمي على الكنبة
أفتعل التفكير العميق
أتذكر ما ارتكبناه سوية من مضاجعة
وألم ورحلات وصور تذكارية
وكلّ ما جمعناه في باقة وسميناها حباً.
ويضحك الأرنب الذي في الزاوية
ويسخر من وحدتي العائدة منتصرة
وأفكر أنّي أمشي وأمشي وأمشي
حتّى تدمن عضلاتي أسيد العضلات
والأدرينالين

ناي القتيل

علي شمس الدين

١- وجهي
كلّ مافي الأمر
يصرخ في الطيور... / فلنضرب الناي
على القتيل / ولتسيلي على خده / مثل
جمارك الرب
٢- صرخة
إذا تدفق قلبي في الكتاب / وقدمي في
الصفحات / ويدي على الأرقام /
وأصابعي على الكلمات / ودمي على وجهك
فكل
والقتيل / يده لاتستطيع محو القمر /
ولاالجلوس على الكرسي / في جدول أو
مافي الأمر
فبيجر
أن القتيل مات
كلّ ما في الأمر
مات.
٣- طوفان
حانة في البرد
يغني الديك على البلبل / يجري الليل /
كالخدين
الشمس كومة قش / ياهذا ناولني الغراب
أجمل ما في الدم / الخنجر
فرع في الحقل / من وردة / قد تصير
وأجمل مافي الأمر
امرأة في أي لحظة
أن القتيل
في الينابيع / يدفق الدمع / ...
مات.
ويدفق الدم

قالت الأرض

سعيد الصقلاوي

تنادينني محبة أم قيس
وفي اليرموك منغرس لوايا
فكبر في قلوب الناس حق
تجلى في مواكبه عطايا
وتنبتني الكرامة من أباة
عزائمها انتصار في سمايا
يقلدها الزمان على زمان
ويشعلها نجوما في رجايا
ويطلقها على التاريخ سربا
يطوف بها على الدنيا سجايا
أنا ابن الدهر هذي الأرض أمي
رضعت لبانها وبها سنايا
هنا النهر المقدس فيه روح
تعمد فيه من زكى هدايا
يساقيني أذينة كاس عز
فيشرق من ضيا البترا ضحايا
وفي جرش تجرش كل كبر

إلى الأردنّ يحملني هوايا
وتسبقني على ثقة خطايا
فمن خصب وسمحان ونزوى
إلى عجلون والكرك التحايا
صروح عانقت فيها صروحا
ومجد صافح الأمجاد آيا
لنا وطن عروبتنا وأرض
لنا الأخلاق دين لا الرزايا
فلا نكر يبعثرنا شظايا
ولا مكر يسيرنا رعايا
ولا فكر يفجرنا ضحايا
ولا كبر يصفدنا عرايا
تساءلني القصيدة عن عراي
ولكن العرار لظى دمايا
تحاورني واسألها علاما
فتكشف لي على قلق خفايا
وتنبئنا الحقيقة وهي ثكلى
خيول طماحها تبدو سبايا

فيا وطني تناهشك الخطايا
صمودك يطعم العادي بلايا
ويَا وطني شروقك مستديم
وحقك لن يضيع مع البرايا
يا بلادي يا بلادي يا بلاد
ترتل حبك الغالي الحنايا
وتعصمك الكنائس شامخات
وتحرسك المآذن والزوايا

مخالبه تناهت في حشايا
دمائي الشمس تسطع في يقين
وموطنها عيوني والطوايا
أشاعت حرقها نورا وحسنى
وأشربت المياه علا منايا
وطرزت التراب بنبض قلبي
وأسمعت الليالي من غنايا
أنا ابن الأرض طول الدهر عمري
وجودي جلدها وبها أبايا
فؤادي سقفها ويدي ذراها
وحلمي أفقها ولها مضايا
أنا ابن الماء كل الناس اهلي
وهذي الشمس مسراها مدايا
ونفسي طينها ضوء وحب
وروحى الأرض تمنحني قوايا

* * *

قرأت في العدد الثاني والعشرين

بقلم حكمت حسن

«يحصل تفاعل بين القارئ والنصّ والسيّاق» والذي يتوقّف على النّضج الجسمي والعقلي والانفعالي والاجتماعي للقارئ (ص ٣٠-٣١)، وقد أوضحت د. مايا العمليّات التّسلسليّة التي تؤدّي إلى تحقيق الهدف موضوع الدّراسة. كما أشارت إلى المشكلات التي تؤدّي إلى الضّعف في القراءة التّحليليّة. وخلصت الكاتبة إلى «أنّ كلّ خلل في الفهم القرائي يؤثّر سلباً على مهارات المتعلّم وكفاياته وبالتالي على الانتاج الكتابي» وهنا تكون قد أوضحت سريعاً بعض المؤثّرات التي تعيق الكتابة الأدبيّة عند الأجيال بشكل عام.

والمقال الثّاني «أدب الأطفال» لمايا

شاهين: تنبع أهمّيّته من كونه يشكّل أداة تأثير أساسيّة في الطّفل (رجل المستقبل) فهو يساهم في تكوين الوعي المعرفي، وبالتالي ما يعدّل سلوكه وبناءه القيميّ أو يبدّله تماماً (ص ٢٢)، تضمّن المقال تعريفاً بـ «فنون أدب الأطفال»: القصّة - المسرحيّة - الأناشيد والمحفوظات وتعداد الأهداف.

«لا يجوز أن يقود الماضي الحاضر مهما كان الماضي رائعاً، فلكل زمن مكونات روعته» عمر شبلي (ص ٨)، هدف معرفي يسلّط الضّوء على كثير من المقالات المعالجة في العدد الثاني والعشرين من المنافذ الثقافيّة، والتي تتنوّع بين بحوث تتناول المجتمع، التّاريخ، السّياسة، الاقتصاد، البيئّة، الأدب والشّعر. وما أركّز عليه من مجالات مطروحة تحديداً في النّقد الأدبيّ ويتناول مواضيع تربويّة أكاديميّة، لا ينفى أهميّة المقالات الأخرى ذات الموضوعات العلميّة بمقاربتها، والتي توسّع من معارفنا وإدراكنا لما يحيط بنا، بمستوى ثقافيّ عالٍ.

سأتناول بداية مقال «الفهم القرائي للنصوص مراحل واستراتيجيات تعليميّة وتعلّميّة» للدكتورة مايا بطرس من حيث قيمته في إظهار كفيّة اكتساب المتعلّم للمهارات التي تخوّله فهم المقروء، فينتقل من مرحلة تعلّم القراءة إلى القراءة من أجل التّعلّم، ولكي يتمّ الفهم يجب أن

كما أُلقت الضَّوء على تطوُّر أدب الأطفال في العالم العربي وختمت بضرورة تشجيع البحث العلميِّ الجادِّ والدِّراسات الهادفة التي تعبّد طريق المستقبل وتحوّل الأُمَّة إلى أُمَّة مبتكرة لا يعتاد رجالها على تكرار ما صنعه الذين سبقوهم فقط (ص ٢٣٠). وهذا ما يتفق مع رؤية رئيس التَّحرير الشَّاعر عمر شبلي.

نصل إلى مقال «الفصحى والعامية» لزهراء دخيل: وبما أنَّ مستهلَّ الكلام يبدأ بأنَّ «اللغة هي المنفذ الأساسي الأوَّل لحياة الانسان بكل أسرارها وتفاصيلها» (ص ٤٣١)، فيجب علينا الإقرار بالدور الأهمِّ للغة في إرساء الهوية العربيَّة، خاصَّة ما غيَّرت الحضارة الحديثة في هذه اللغة وأصبحت المحافظة عليها مسؤوليَّة، وتطرَّقت الباحثة إلى اللغة المستخدمة في الحوارات التي تنتشر على وسائل التَّواصل الاجتماعي، والتي تملك خصائص تختلف عن قواعد اللغة العربيَّة الفصيحة، بالإضافة إلى الخلط بين الحرف العربي والحرف اللاتيني «الانكليزي». وممَّا يراكم الابتعاد عن اللغة الفصحى قول بعض الدَّاعين إلى العاميَّة أنَّ هناك انفصالاً بين اللغة والمجتمع بينما يعارض المدافعون عنها بحجَّة أن العاميَّة عمرها قصير (ص ٤٣٣). وبعد عرض مفصَّل لآراء الباحثين وإعطاء

توصيات لتدعيم اللغة الفصحى، تختتم الباحثة زهراء بقول الشَّاعر الفرنسي اندريه سينيه: «فلنكتب أفكاراً جديدة بلغة قديمة» (ص ٤٣٥).

وفي مقال «الماء كشخصية رئيسة في قصَّة «عالم الماء» لميخائيل مسعود المقتبسة عن موباسان الفرنسيَّة، تناول مهدي شمس عمليَّة الاقتباس، وحركة التَّبادل بين الشَّرق والغرب، ثمَّ عرَّف القصَّة والخرافة، وتناول كمثال «عنصر الماء وعرض أهميَّة الماء» عند الشُّعوب القديمة، المسيحيين والمسلمين. والماء يختصر أو يختزن في داخله كلَّ المعاني الإنسانيَّة (ص ٢١٥). وختتم بقضيَّة الصِّراع القديم بين اليابس والماء، وما يرتبط منه خاصَّة بالنَّاس وأحوالهم. الماء عالم الحقيقة (ص ٢١٦).

وعدَّ د. مازن سليمان شلق في مقاله: «أنَّ ابن الرُّومي شاعر الرُّومنيقيَّة الأوَّل»، فهو كمعظم العباقرة الموهوبين، يعاني عقدة الوجود، إنَّ السَّعادة ومضات زائلة (ص ٨٦)، وفي استنتاجه الأخير قال: أنَّ ثمة تلاقٍ بين ما رسمه ابن الرُّومي، وبين رومنيقيي الغرب لا سيَّما في معاناة الوجود.

وجاء مقال «الصُّعلكة في شعر محمد

وتناولت جوماننا أسعد عباس «دراسة العلاقات الاجتماعية بين العالم الواقعي والعالم الافتراضي»، في بحثٍ موسّع شامل لكلّ المفاهيم المتعلقة بموضوع الدراسة، وما وجدته مشتركاً بين الأبواب كلّها، أنّ عملية الإزاحة ليست هامشيّة والتأثير سلبي في حال وقف هذه العلاقات، كما لم تنس الباحثة ذكر إيجابيات هذه الوسائل والتي تتمثّل في توفير إمكانيّة التّواصل بين الأقارب والأصدقاء.

ولتكتمل حلقة الحديث نعود إلى المقدّمة حيث قال عمر شبلي «إنّ أبناءنا هم أبناء الحياة أكثر من كونهم أبناءنا، وقد خلقوا لزمانٍ غير زمننا، وما تنتجه الثّورة المعلوماتيّة الجديدة لا يمكن الوقوف أمامه منكرين ورافضين» (ص ٨)، فهل نحكم على المستقبل تبعاً لزماننا الماضي؟

زينو شومان، لـ خلود عبد النّبي ياسين واضح المعالم، فقد عرّفت الصّعلكة في دائرتها اللّغويّة والاجتماعيّة. ومما قالته «القصيدة الصّعلوكيّة، نصّ الأنا، لكنّها أنا قلقة تبحث لا من أجل أنويّتها بل من أجل تغيير العالم» (ص ٣٤٧)، وهكذا فإنّ الصّعلكة تتصدّر قصائد محمد زينو شومان وهي تنبع من وجعه وألمه وتذكّره وحاجته.

فنّ جديد ممتع في مقال «قولٌ على قول، بلاغة على بلاغة، زيت على زيتون» أ. د. محمد السيّد وهو أن «يسمع أديب قولاً لأديب أو شعر لشاعر فيعلّق عليه بقولٍ آخر وقد يكون أكثر بلاغة ويختم «أنّ القدر المعلىّ في هذا الباب هو للعرب لأنّ اللّغة العربيّة هي لغة البيان والبديهة والصّنع».

نشاطات ثقافية

د. درية فرحات / أ. حكمت حسن

ندوة ثقافية حول ديوان أذان الحكام لها
حيطان:

في حشد ثقافي من مختلف المناطق اللبناية أقيمت بتاريخ ٢٨ آذار ٢٠١٨، في ديوان القصر برعاية معالي النائب عبدالرحيم مراد ندوة ثقافية حول ديوان «أذان الحكام لها حيطان» المجموعة الشعرية الأخيرة للشاعر عمر شبلي، وبمناسبة الذكرى المئوية لولادة القائد جمال عبد الناصر. تحدّث في الندوة الأستاذ سليمان زين الدين، والدكتور جمال زعيتر، والأستاذ رفعت فارس، ومعالي النائب عبد الرحيم مراد، وفي ختام الندوة ألقى الشاعر عمر شبلي قصيدة بعنوان الحياة في الموت تخليداً لذكرى الرئيس الخالد جمال عبد الناصر، وقد قدّمت الندوة الأستاذة فاطمة حجازي.

أمسيات ملتقى الأدب الوجيز:

يقيم ملتقى الأدب الوجيز أمسياته الشهرية كلّ خميس حول الأدب الوجيز،

لقاء مع المخرجة نغم إياد وهبة:

دعت بلدية البنية والرّابطة الثقافية الاجتماعية إلى عقد لقاء مع ابنة البنية المخرجة «نغم إياد وهبة» بمناسبة عودتها من أميركا بعد عشر سنوات قضتها في جامعات أميركا وبعض شركات صناعة الأفلام حيث عملت. ونقلت «نغم وهبة» في اللقاء خبرتها في عالم الاغتراب، وفهمها للمجتمع الأميركي، وتمسّكها وحبّها للبنان. وقد كتبت مسرحية مقتبسة عن كتاب جمانة حدّاد «هكذا قتلت شهرزاد» وأخرجتها وعرضتها على المسرح لمدة شهر ومن ثمّ تمّ عرض المسرحية في هوليوود بطلب من مدير المسرح، ترشّحت المسرحية لثلاث جوائز، نالت جائزة منها، كما وقد مدّ عرض المسرحية على مسرح هوليوود لعروض إضافية. ركّزت المسرحية على الدور الإيجابي الذي يظهر شخصية المرأة العربية القوية القادرة على اتّخاذ القرارات، والتي تسعى إلى تحقيق ما يشبهها ويحقّق طموحها من دون عقبات.

فكانت الأمسية الرابعة في ٢٢ آذار ٢٠١٨، وقد شارك فيها الدكتورة درية فرحات فألقت مجموعة من القصص القصيرة جداً، والشاعر هانيبعل كرم ألقى نماذج من شعر الومضة، وتلا ذلك مداخلة نقدية من قبل الدكتورة مها خير بك، ومداخلة من الأستاذ أمين ديب، واختتمت الأمسية بنقاش من الحاضرين. أما الأمسية الخامسة فكانت في ١٩ نيسان بمشاركة الكاتبة زينب رمال عن القصة القصيرة، والشاعر ناصر الحجاج عن شعر الومضة.

وفي الأمسية السادسة بتاريخ ١٠ أيار ٢٠١٨ ألقى الشاعر الدكتور ربيع الأتات نماذج من شعر الومضة وقد لاقت استحسان الجمهور، وكانت هناك مشاركة مميزة من قبل المستشرق الألماني الدكتور سيباستيان هاينه فقدّم مداخلة مهمة حول مفهوم الأدب الوجيه من وجهة النظر الغربية، مع مداخلة نقدية من الدكتورة مها خير بك والأستاذ أمين ديب رئيس ملتقى الأدب الوجيه.

tion/livres-clefs/2013/11/12/histoire-des-voyages-en-train-wolfgang-schivelbusch-1811 (Consulté le 20 janvier 2017)

CASTILLO-BERCHENKO Adriana, «L'image du train dans la littérature latino-américaine. Étude de trois cas: J. L. Borges, A. Roa Bastos et J. Cortázar narrateurs du Río de la Plata», *Cahiers d'études romanes* [En ligne], 10 | 2004, mis en ligne le 15 janvier 2013, URL: www.journals.openedition.org/etudesromanes/2894; DOI: 10.4000/etudesromanes.2894, p. 10. (Consulté le 25 janvier 2017)

ESCCOLA Marc, appels à contribution, *La brièveté*, colloque international, Sfax, Tunisie, 4 décembre 2016, www.fabula.org/actualites/la-brievete_77049.php (Consulté le 20 janvier 2017)

Genette Gérard, *Figures III*, Paris, Seuil, 1972, p. 138-139.

LA FONTAINE Jean de, Fable, *Les Lapins, Discours à M. Le Duc de la Rochefoucauld*

M'henni Mansour, *Le Retour de Socrate, ou l'introduction à la nouvelle brachylogie*, Université de Tunis Al-Manar, Ed. Brachylogia, 2015, p. 98-101.

MONTANDON Alain, «Formes brèves et microrécits», *Les Cahiers de Framespa* [En ligne], 14 | 2013, mis en ligne le 06 mars 2016, URL: www.journals.openedition.org/framespa/2481; DOI:10.4000/framespa.2481 (Consulté le 4 février 2017)

de ses critères véritables, qui ne peuvent être des normes de longueur définies de manière externe. D'ailleurs, les deux adversaires ne cessent, sans jamais pouvoir conclure victorieusement, d'alterner, selon les besoins, dialectique et rhétorique, brachylogie et macrologie.

Les théoriciens latins, comme Cicéron et Quintilien, semblent bien distinguer deux champs principaux d'application de la brièveté: stylistiquement, elle serait à inclure dans les effets de figures comme l'ellipse et l'asyndète, et, rhétoriquement, conjointe à la clarté, à l'absence de répétitions inutiles, elle impliquerait une justesse, une autosuffisance de la narration. De ce fait, la brièveté ne relève exactement ni du court ni du long, dont les excès respectifs produisent une obscurité que la littérature est, de son côté, en droit de revendiquer.

La forme brève relève donc d'une rhétorique, d'une stylistique et d'une poétique particulières. La brièveté réside dans le rien de plus que nécessaire. L'usage des brièvetés fait partie de l'art d'abrégé, tout en respectant l'exigence de clarté et de plausibilité. La brièveté est au cœur d'un débat entre clarté et obscurité. C'est le plaisir de découvrir en un corps si petit, une âme si grande. Autrement dit, la brièveté exige une grande imagination. Plus l'énonciation est concise et plus l'effort demandé est grand, comme le dit La Fontaine⁽¹⁾ pour qui «les ouvrages les plus courts sont toujours les meilleurs», puisqu'il faut laisser «dans les plus beaux sujets quelque chose à penser».

L'espace et le temps de la forme brève importent quant à la réception du lecteur. La notion de brièveté concerne à la fois le fait d'écourter, de condenser, et contient celle de la courte durée. Si la brièveté plaît dans la narration ramassée, apte à captiver l'attention du lecteur sans le lasser, elle exclut de fait les longs développements, l'art de l'analyse, l'expansion romanesque, etc. D'un certain point de vue, l'économie est une perte, mais de l'autre, elle est nécessaire à la psychologie du lecteur.

Conclusion

Enfin, pour bien évoquer l'insertion des pensées fugaces du voyageur dans un ensemble romanesque (comme parabole), nous pouvons parler d'un micro-récit dans un macro-récit: le voyageur attend des heures interminables, emprisonné dans son compartiment; une «sentinelle» surveillant la porte et lui interdisant de sortir. Ce n'est cependant pas une interdiction absolue: la sentinelle lui affirme que, dans quelque temps, il pourra franchir cette porte (la porte de la réalité, du retour au quotidien). Ici le micro (l'intérieur) est en quelque sorte une anamorphose du macro (l'extérieur) et cette brusque condensation dans la trame romanesque fait du petit récit une cristallisation signifiant la tragédie de l'ensemble: le ponctuel se trouve lié au général, le fragment à l'ensemble, le micro au macro.

Bibliographie

ALTENBERG Peter, *Esquisses et nouvelles esquisses viennoises*, Arles, Actes Sud, 1989, cité par Florence Delay, *Petites formes en prose après Edison*, Paris, Hachette, 1987, p. 111, www.framespa.revues.org (Consulté le 20 janvier 2017)

Caletrio Javier, «Histoire des voyages en train - de Wolfgang Schivelbusch», Forum Vies Mobiles - Préparer la transition mobilitaire, 12 novembre 2013, www.fr.forumviesmobiles.org/publica-

(1) Jean de La Fontaine, Fable, *Les Lapins, Discours à M. Le Duc de la Rochefoucauld*, Livre X, Fable 14.

sans lendemain. C'est dans le train, dans le huis clos du compartiment, singulièrement la nuit, face à des inconnus, que l'on peut, comme au confessionnal, se soulager en parlant de soi, ou tenter de le faire en sollicitant des réponses grâce à l'intercommunication «diégétique» qui représente ces dialogues avec autrui et ces communications avec des destinataires inconnus dans un compartiment qui romance le réel.

Un monde dans une coquille de noix

On peut s'interroger sur le discontinu, la bigarrure, ces jets de l'émotion, ces télégrammes de l'âme, ces esquisses de rêve. C'est qu'il y a là la séduction irrésistible qu'exerce le petit, le minuscule, le plaisir du microcosme, celui de trouver un monde dans une coquille de noix. Peter Altenberg déclare dans ses *Esquisses et nouvelles esquisses viennoises* : «Je voudrais représenter un être humain en une phrase, un événement de l'âme en une page, un paysage en un mot!»⁽¹⁾. Quelle ambition! Quel art difficile et impeccable.

La forme brève ne supprime rien: c'est «comme une ombre, une esquisse, une silhouette, avec un plein et un vide, avec une densité maximale, mais un bord de dentelle, une marge d'indéfinissable. Elle est entourée d'espace, comme une île s'entoure d'horizons marins»⁽²⁾. En effet, la forme brève existe à la fois en soi, dans la rigueur de son contenu, et dans l'entre-suite qui la lie à une vaste indétermination environnante. La forme concise, elliptique, compacte et intense des microfictions, pose la question de la dose minimale de narrativité (comment raconter ou ébaucher le changement d'un état vers un autre avec le moins de mots possibles?). L'histoire du voyageur dans son train est apparemment simple, encore que fort complexe et chargée dans ses intrications, ses enchevêtrements et ses détails. Les «micro-pensées» du voyageur fragmentaires, fractales et fugaces, s'accumulent sous forme de séries ouvertes à l'infini, établissant ainsi une connexion entre le minuscule et l'immense ou l'infini.

Quelques réflexions comparatives sur le court et le bref s'imposent. Le court est relatif à ce qui est plus long, il est mesurable, alors que le bref appartient au champ notionnel du langage et la brièveté concerne un rapport interne à la parole. La différence est aussi d'ordre lexical, dans la mesure où *court* ne possède pas, à la différence de *bref*, de substantif spécifique, et qualifierait davantage un espace d'écriture, quand *bref* s'appliquerait à un temps de parole. Dans cette perspective, la notion même de «forme brève» comme norme, se trouve contestée et confrontée, d'une part, aux genres (maxime, aphorisme, fragment...) qu'elle ne prend plus en compte, d'autre part, à sa non coïncidence avec différentes formes brèves d'énonciation dont la nécessité interne ne serait pas la quantité discursive, mais la «justesse»⁽³⁾. Les dialogues de type socratique situent la brièveté dans des enjeux agonistiques: à Socrate cherchant à imposer le discours «bref», la «brachylogie», Protagoras pose la question, comme M. Dessons le fait observer⁽⁴⁾, de la juste mesure de cette brièveté et

(1) Peter Altenberg, *Esquisses et nouvelles esquisses viennoises*, Arles, Actes Sud, 1989. cité par Florence Delay, *Petites formes en prose après Edison*, Paris, Hachette, 1987, p. 111.

(2) Georges Poulet, *Études sur le temps humain 2*, Paris, Éditions du Rocher, Plon, 1952, p. 81-121.

(3) Gérard Genette, *Figures III*, Paris, Seuil, 1972, p. 138-139.

(4) Marc Escola, appels à contribution, *La brièveté*, colloque international, Sfax, Tunisie, 4 décembre 2016, www.fabula.org/actualites/labrievete_77049.php.

passager, toujours dans son silence de mort, ne regardait jamais par la fenêtre. L'art résiderait d'abord dans l'art de voir, de découper dans le réel la part intéressante, un art de l'invention, quasiment photographique: celui de choisir le bon angle et le bon moment.

Le resserrement de l'espace et du temps engendre des parcours imaginaires nouveaux. On ne peut vivre l'histoire dans un train comme on le fait dans un roman. Le voyageur peut se promener au hasard et vagabonder parmi ses souvenirs de façon arbitraire. En fait, son imagination, ses rêves, ses pensées... peuvent être soit enchâssés dans une histoire plus longue, soit autonomes, constituant alors une mosaïque faite d'éléments juxtaposés mais discontinus. Face à ces micro-souvenirs, ces micro-rêves, le voyageur n'a pas en tête des pensées continues, mais des idées qu'il butine. Ce qui retient l'attention, c'est la complexité, la non systématité et la diversité. Ce désordre, ou cette compilation d'unités distinctes, n'exclut cependant pas un ordre intérieur qui peut s'établir, non par succession, mais par renvois implicites à l'intérieur de soi. Cette situation exprime des moments de la réalité de soi, de manière évidente, exacte dans leur configuration.

Le compartiment qui ressemble à un cabinet d'analyse dont les banquettes seraient le «divan», est le lieu du récit de soi, de la révélation, de l'épreuve de vérité, grâce à la garantie du huis clos qu'il offre, parmi des inconnus curieux et attentifs qu'on ne reverra plus. Ce retour chez soi en quelques heures est effectué sur la route de la mémoire, au rythme du cheminement du train, ponctué de rencontres et de péripéties, dans un segment limité dans le temps et dans l'espace, mais illimité en soi-même. Trajet et monde ferroviaire constituent, en conséquence, les retrouvailles du voyageur avec son être authentique. Ainsi, le périple en train, le train lui-même et l'espace ferroviaire qu'il engendre ne sont, en fin de compte, que les éléments d'une riche constellation symbolique englobant, en son sein, le voyage d'un être.

Le voyageur est donc un être brachylogique par excellence parce que l'esprit de conversation (dialogues, monologues autarciques, silence) est au centre de tout fonctionnement brachylogique. C'est cet esprit de conversation en intercommunication qui s'impose au voyageur⁽¹⁾. Le dialogue intérieur représenté par les pensées, l'imagination, les rêves, les souvenirs, la recherche de soi est au centre de ce champ conversationnel de la pensée. Une seule vérité est reconnue, celle de l'interrogation ininterrompue sur la vérité, celle aussi de sa remise en question inévitable qui donne sens à l'existence⁽²⁾.

Le voyage en train: un lieu social par excellence

Le train est aussi paradoxalement un lieu de parole, de rencontres fortuites: le voyageur ne reste jamais seul dans le compartiment, lieu social par excellence.

Cette situation permet de réunir, pendant un laps de temps limité et bien déterminé, à l'intérieur d'un espace fermé, clos, des personnes provenant des milieux les plus divers, contraints à communiquer et à interagir. L'effusion verbale prend ainsi le dessus. C'est donc non seulement partir, peut-être, à l'aventure de soi-même dans un mutisme obligé, mais aussi, à l'intérieur de la clôture et de l'exiguïté chaude du compartiment, communiquer et vivre une possible aventure rassurante, car

(1) Mansour M'henni, *Le Retour de Socrate, ou l'introduction à la nouvelle brachylogie*, Université de Tunis Al-Manar, Ed. Brachylogia, 2015, p.98.

(2) *Ibid.*, p. 101.

à regarder par la fenêtre, un moyen de transport relativement sûr et calme, que la personne n'éprouve pas le besoin de s'entretenir avec les autres et qu'elle se conçoive comme une passagère, une consommatrice, une citoyenne qui peut et souhaite se déplacer librement. Cela peut également impliquer la certitude que le train arrivera à destination et à l'heure prévue. De manière plus élémentaire, cela suppose que les rails sont bien en place et que l'infrastructure est gérée selon des critères sociaux, économiques et politiques durables. Cet ensemble comprend donc des dispositions esthétiques, des conventions sociales, des doctrines économiques, des structures juridiques, des inventions technologiques et des accords politiques. Certains aspects paraissent fortuits; savoir, par exemple, s'il est préférable que le chemin de fer soit un monopole d'État ou qu'il soit ouvert à la concurrence et à la privatisation. Toujours est-il que le fait de voyager en train semble assez naturel, c'est quelque chose de profondément ancré dans nos vies quotidiennes⁽¹⁾.

Le train est un lieu où les gens ne parlent pas, ne communiquent pas, s'isolent dans leur monde et font ainsi de ce trajet en collectivité un parcours solitaire où les mini-salons murent chaque individu dans une alvéole: mini-salons à la fois immobiles et mobiles, figés dans leur décor et figeant leurs voyageurs dans une immobilité contraignante, huis clos traversant l'espace à vive allure donnant l'illusion que c'est l'espace qui fuit. Et, en effet, il s'agit d'un espace d'une autre dimension, où l'on est emporté dans un univers différent, un espace où l'on pourra effectuer un autre voyage intérieur, un voyage en soi-même, et parcourir à nouveau le chemin de sa vie. Car dans le même temps que le train nous transporte, immobiles, silencieux, d'un espace à un autre, l'être humain, dans la clôture du compartiment, parcourt le temps de sa propre existence, dans un mouvement d'introspection et de réflexion. Tout se passe dans un espace ferroviaire réduit, bondé, étouffant, et dans un temps limité. Dans le wagon, hommes et femmes, serrés les uns contre les autres, deviennent une foule animalisée et composite. La représentation de l'espace ferroviaire donne au voyageur l'image d'un être cyclothymique, alternant des périodes d'excitation et de dépression.

Cette représentation, caractérisée par la présence du corps matériel de la gare (les escaliers, les grilles des entrées, le quai, les voies), du train (le wagon, les portes, les fenêtres, les sièges, le couloir, la sonnette d'alarme, le bruit des roues sur les rails), des passagers (une foule en perte d'humanité et quelque peu animalisée)⁽²⁾, n'est que l'image lourde d'un espace oppressant donnant l'impression d'un voyage vers l'inconnu.

Si l'exiguïté du compartiment de train ne peut permettre, donc, que des gestes strictement limités, elle démontre la richesse de l'espace de la mémoire et de l'imagination, quand son étroitesse spatiale en fait une sorte de boîte de Pandore. Dans ce huis clos resserré, les rêves infinis se situent à l'intérieur d'un compartiment de train, comme si la petitesse de ce compartiment offrait par excellence une vue sur le monde extérieur, ou une vue sur soi qui s'effectue par la médiation des paysages extérieurs et par le spectacle des terres et des villes traversées par le train, comme si le

(1) Javier Caletrio (2013, 12 Novembre), "Histoire des voyages en train - de Wolfgang Schivelbusch ", Forum Vies Mobiles - Préparer la transition mobile. Consulté le 20 Janvier 2017, URL: <http://fr.forumviesmobiles.org/publication/livres-clefs/2013/11/12/histoire-des-voyages-en-train-wolfgang-schivelbusch-1811>.

(2) Adriana Castillo-berchenko, "L'image du train dans la littérature latino-américaine. Étude de trois cas: J. L. Borges, A. Roa Bastos et J. Cortázar narrateurs du Río de la Plata", *Cahiers d'études romanes*[En ligne], 10 | 2004, mis en ligne le 15 janvier 2013, URL: (Consulté le 25 janvier 2017); DOI: 10.4000/etudesromanes.2894, p. 10.

Le voyage en train: pour une poétique brachylogique

MAYA KHALED⁽¹⁾

Résumé - Le train est un espace où l'on pourra effectuer un voyage intérieur, un voyage en soi-même, et parcourir à nouveau le chemin de sa vie. Car, dans le même temps que le train nous transporte, immobiles, silencieux, d'un espace à un autre, défiant les lois de la locomotion et les lois des rapports humains espace/temps, l'être humain, dans la clôture du compartiment, parcourt le temps de sa propre existence, dans un mouvement d'introspection et de réflexion. L'esprit de conversation (dialogues, monologues autarciques, silence) rend le voyageur un être brachylogique par excellence.

Introduction

Si le train peut être la structure portante d'un roman, d'une nouvelle, d'une pièce de théâtre ou d'un film, s'il peut avoir, du fait des multiples éléments qui le composent, des différentes catégories de personnel qu'il emploie, des lieux qu'il parcourt ou auxquels sa nature est liée (gares, dépôts, quartiers de la ville) une fonction narrative de premier plan (comme dans le roman ferroviaire *La Bête humaine* de Zola), chacun de ses éléments peut aussi offrir l'espace narratif d'une histoire, dont l'originalité dérivera précisément du fait qu'elle se déroule dans ce lieu ouvert (la gare par exemple) ou fermé (le train en marche). Et si, *a priori*, l'exiguïté du compartiment de train ne peut donner matière à beaucoup d'actions qui y soient strictement limitées, la littérature en a démontré la richesse en tant qu'espace du récit, de la mémoire, de l'imagination, de l'introspection, du fait même de son étroitesse spatiale.

Le train offre une vision à la fois réelle et rêvée, construite à partir de jeux métonymiques et synesthésiques, où les effets sonores, olfactifs et visuels, engendrent l'image. La dimension sociale du train s'ajoute donc la vision humanisée, affective, de l'espace ferroviaire. L'univers ferroviaire dans son ensemble devient, au sein de ce processus, un motif à part entière et confère au train une constellation sémantique et une dimension poétique et symbolique.

Le voyage en train: un moment de réflexion et d'introspection

L'image d'une passagère assise à la fenêtre, le regard errant sur le paysage qui défile, est une scène urbaine assez ordinaire, illustration banale de nos vies mobiles qui se répètent avec la régularité des horaires de trains. Cette attitude, apparemment toute simple, n'est envisageable qu'en pré-supposant certains éléments. En Europe occidentale, cela implique qu'il existe un plaisir esthétique

(1) Maya KHALED est Maître de conférences à la Faculté des Lettres et Sciences Humaines, à l'Université Libanaise et membre du Laboratoire Babel, Université de Toulon, France. Auteure de l'ouvrage *L'Écriture d'Amin Maalouf à la lisière de deux langues* (Paris, L'Harmattan, 2017) et docteure en sociolinguistique, elle travaille sur l'interculturalité. Ses recherches portent, prioritairement, sur le plurilinguisme dans les romans des écrivains francophones.

- Inspection findings 1994 - 1995. London: HMSO.
- Pajares, M. F. (1992). Teachers' beliefs and educational research. *Review of Educational Research*, 62 (3), 307 - 332.
- Richards JC, Lockhart C. (1994) *Reflective Teaching in Second Language Classrooms*. New York: Cambridge University Press.
- Richardson, V. (1996). The role of attitudes and beliefs in learning to teach. In J. Sikula (Ed.), *Handbook of research on teacher education* (2nd Edition ed., pp. 102 - 119). New York: Macmillan.
- Rokeach, M. (1968). *Beliefs, attitudes and values: A theory of organization and change*. San Francisco: Jossey - Bass.
- Stern, L. A. and Solomon, A. (2006). Effective faculty feedback: The road less traveled. *Assessing Writing* II, 22 - 41.
- Thompson, A. G. (1992). Teachers' beliefs and conceptions: A synthesis of the research. In D. A. Grouws (Ed.), *Handbook of research on mathematics teaching and learning: A project of the National Council of Teachers of Mathematics* (pp. 127 - 146). New York: Macmillan.
- Truscott, J. (1996). The case against grammar correction in L2 writing classes. *Language Learning*, 46, 327 - 369.

- composition classrooms. *TESOL Quarterly*, 29, 33 - 51.
- Ferris, D.R. *et al.* (1997). Teacher commentary on student writing: Descriptions and implications. *ELT Journal* 44 (4), 279 - 285.
- Ferris, D.R. (1999). The Case of Grammar Correction in L2 Writing Classes: A Response to Truscott (1996). *Journal of Second Language writing*, 8 (1), 1 - 11.
- Gatbonton, E. (2000). Investigating experienced ESL teachers' pedagogical knowledge. *Canadian Modern Language Review*, 56, 585 - 616.
- Golombek, P. R. (1998). A study of language teachers' personal practical knowledge. *TESOL Quarterly*, 32(3), 447 - 464.
- Hendrickson, J.M. (1980). The treatment of error in written work. *Modern Language Journal*, 64, 216 - 221.
- Hyland, K. (1990). Providing effective feedback. *ELT Journal*.
- Hairston, M. (1986). 'On not being a composition slave' in C. W. Bridges (ed.). *Training the New Teacher of College Composition*. Urbana, Ill.: NCTE, 117 - 24.
- Jackson, P.W. (1992). Helping teachers develop. In A. Hargreaves and M.G. Fullan (eds.), *Understanding teacher development*. New York: Teachers Colleague Press, pp. 62 - 74.
- Johnson, K. (1994). The emerging beliefs and instructional practices of preservice English as a second language teachers. *Teaching and Teacher Education*, 10, 439 - 452.
- Kagan, D. M. (1992). Implications of research on teacher belief. *Educational Psychologist*, 27(1), 65 - 90.
- Lalande, J.F.(1982). Reducing composition errors: An experiment. *Modern Language Journal*, 64, 216 - 221.
- Lortie, D.C. (1975). *Schoolteacher. A sociological study*. Chicago: University of Chicago Press.
- Lee, I. (1997). ESL learners' performance in error correction in writing: Some implications for teaching. *System*, 25(4), 465 - 477.
- Lee, I. (1999). Ten mismatches between teachers' beliefs and written feedback practice. *ELT Journal*, 63 (1), 13 - 22.
- Leki I. (1991). The performances of ESL students for error correction in college level writing classes. *Foreign Language Annals*, 24 (3), 203 - 218.
- Mantello, M. (1997). Error correction in the L2 classroom. *Canadian Modern Language Review*, 54 (1), 127 - 131.
- Nespor, J. (1987). The role of beliefs in the practice of teaching. *Journal of Curriculum Studies*, 19(4), 317 - 328.
- Nisbett, R., & Ross, L. (1980). *Human inferences: Strategies and shortcomings of social judgment*. Englewood Cliffs, NJ: Prentice - Hall
- OFSTED, (1996). *Subjects and standards: Issues for School development arising from OFSTED*

THANK YOU FOR YOUR TIME AND COOPERATION

REFERENCES

- Bandura, A. (1986). Social foundations of thought and action: A social cognitive theory. Englewood Cliffs, N. J.: Prentice Hall.
- Basturkmen, H., Loewen, S., & Ellis, R. (2004). Teachers' stated beliefs about incidental focus on form and their classroom practices. *Applied Linguistics*, 25(2), 243 - 272.
- Borg, S. (1999). Studying teacher cognition in second language grammar teaching. *System*, 27(1), 19 - 31.
- Borg, S. (2001). Self - perception and practice in teaching grammar. *ELT Journal*, 55(1), 21 - 29.
- Borg, S. (2003). Teacher cognition in language teaching: a review of research on what language teachers think, believe, know, and do. *Language Teaching*, 36, 81 - 39.
- Burns, A. (1992). Teacher beliefs and their influence on classroom practice. *Prospect*, 7, 56 - 60.
- Calderhead, J. (1987). Introduction. In J. Calderhead (Ed.), *Exploring teachers' thinking*. London: Cassell Education.
- Calderhead, J. (1996). Teachers: Beliefs and knowledge. In D. C. Berliner & R. C. Calfee (Eds.), *Handbook of educational psychology* (pp. 709 - 725). New York: Macmillan Library Reference USA.
- Chandler, J. (2003). The efficacy of various kinds of error feedback for improvement in the accuracy and fluency of L2 student writing. *Journal of second Language Writing*, 12, 267 - 296.
- Clandinin, D. J. and Connelly, F. M. (1988). Studying teachers' Knowledge of classrooms: Collaborative Research, Ethics, and the Negotiation of narrative. *The Journal of Educational Thought (JET) / Revue de la Pensee Educative*, 22, 269 - 282.
- Clark, C.M., & Peterson, P.L. (1986). Teachers' thought processes. In M.C. Wittrock (Ed.), *Handbook of research on teaching* (pp. 255 - 296). New York: Macmillan.
- Cortazzi, M. & Jin, L. (1996a). English Teaching and Learning in China, *Language Teaching*, vol 29, no2, pp.61 - 80
- Cuban, L. (1990). Reforming again, again, and again. *Educational Researcher*, 19(1), 3, 13.
- Diab, R.L. (2005). EFL university students' preferences for error correction and teacher feedback to writing. *TESL Reporter*, 38, 27 - 51.
- Ekeblad, Eva, and Bond, Carol. (1994). The nature of a conception: questions of context. In *Phenomenography: philosophy and practice*, edited by R. & Ballantyne, 343 - 353. Australia: Center for Applied Environmental and Social Education Research.
- Fang, Z. (1996). A review of research on teacher beliefs and practices. *Educational research*, 38(1), 47 - 65.
- Ferris, D.R. (1995). Student reactions to teacher response in multiple - draft

- 1 - Dear sir,
- 2 - I am writing to inform you about the three problems that are causing damage to the
- 3 - Environment on Abu Dhabi beach.
- 4 - The first problem was rubbish problem on the beach, on the beach, we could see
- 5 - Some glasses, some cans and some other things.
- 6 - The second problem was whether pollution on the sea, on Abu Dhabi beach, I had seen some
- 7 - Rubbish on the sea. Ex: The sea had some cans and bottles. And there have many dirty
- 8 - Things on the sea too.
- 9 - The third problem was about the toilet, because on Abu Dhabi beach the toilet were very dirty.
- 10 - On that day, when he had gone into a toilet, I saw the floor had some water and had
- 11 - Many dirty things. So next time, although I wanted to go to toilet, I had not go.
- 12 - *I would be grateful if you would let me know what you can do about these problems.*
- 13 - Abu Dhabi beach is a good place for swimming and playing, so we must use some idea to take
- 14 - it become clean.
- 15 - Thank you very much!
- 16 - Yours faithfully,
- 17 - X X X

Appendix C:

Teacher interview guide

- 1 - What error correction strategies do you use? Why do you choose these strategies?
- 2 - Do you use errors codes? Why or why not? What problems, if any, can you see in using error codes? How can the problems be solved?
- 3 - Are you in favor of comprehensive or selective error feedback? Why?
- 4 - What areas do you focus on in your written feedback? Why?
- 5 - Are your error correction strategies linked to grammar instruction?
- 6 - Do you think it is a good idea to provide corrections for student errors in writing?
- 7 - Is it the teacher's job to locate and correct errors for students?
- 8 - Who should be responsible for error correction? Why?
- 9 - In your opinion, what is the best way to go about error correction?
- 10 - What happens after students have received your feedback? What do you ask them to do?
- 11 - How would you assess the effectiveness of your feedback practice?
- 12 - In your opinion, what is the main purpose of providing feedback on students' errors in writing?

7. Students should learn to locate their own errors.	1	2	3	4
8. Students should learn to locate and correct their own errors.	1	2	3	4
9. Students should learn to analyze their own errors.	1	2	3	4
10. Teachers should focus mainly on grammar in their error correction.	1	2	3	4
11. Teachers should focus mainly on spelling in their error correction.	1	2	3	4
12. Teachers should focus mainly on vocabulary in their error correction.	1	2	3	4
13. Teachers should focus mainly on pronunciation in their error correction.	1	2	3	4
14. Teachers focus on students' written errors but they know that these mistakes will recur.	1	2	3	4

8 - Which of the following best describes the major principle for error selection?

- a - The selected errors are directly linked to grammar instruction in class (e.g. after I have taught subject verb agreement, I provide feedback on subject verb agreement errors).
- b - The selected errors are related to students' specific needs (e.g. knowing that students are particularly weak in articles, I provide feedback on article errors).
- c - The selected errors are suggested by the English panel.
- d - The errors are selected on an ad hoc basis (i.e., I decide what errors to provide feedback on while I am marking).
- e - Others (Please specify)

9 - Who designed the marking code? Please circle the letter of the most appropriate answer.

The marking code I use

- a - Was designed by another English teacher. (e.g., panel chair or form coordinator).
- b - Was designed by another English teacher (e.g., panel chair or form coordinator) and adapted by me.
- c - Was designed by me.
- d - Was taken from an external source (e.g., books, the internet, etc.).

Appendix B:

Error correction task

Composition topic

Try to find out the environmental problems on Abu Dhabi beach on a picnic day. Then write a letter of complaint about these problems to the director of the Environmental Protection Department.

Questions	Never or Rarely (1)	S o m e - times (2)	Always or Often (3)
How often do you use the following feedback techniques?	1	2	3
1. I indicate (underline/circle) errors and correct them, e.g., has <u>went</u> (gone).	1	2	3
2. I indicate (underline/circle) error, correct them and categorize them (with the help of a marking code), e.g., has <u>went</u> (gone) (verb form).	1	2	3
3. I indicate (underline/circle) errors, but I don't correct them, e.g., has <u>went</u> .	1	2	3
4. I indicate (underline/circle) errors and categorize them (with the help of a marking code), but I don't correct them, e.g., has <u>went</u> (verb form).	1	2	3
5. I hint at the location of errors, e.g., by putting a mark in the margin to indicate an error on a specific line.	1	2	3
6. I hint at the location of errors and categorize them (with the help of a marking code), e.g. by writing "Prep" in the margin to indicate a preposition error on a specific line.	1	2	3

7- Indicate the extent to which you agree with the following statements according to the scale below. Please circle the most appropriate box for each statement.

Questions	Strongly disagree (1)	Disagree (2)	Agree (3)	Strongly agree (4)
To what extent do you agree with the following statements	1	2	3	4
1. There is no need for teachers to provide feedback on student errors in writing.	1	2	3	4
2. Teachers should provide feedback on student errors selectively.	1	2	3	4
3. It is the teacher's job to locate errors and provide corrections for students.	1	2	3	4
4. Teachers should vary their error feedback techniques according to the type of error.	1	2	3	4
5. Coding errors with the help of a marking code is a useful means of helping students correct errors for themselves.	1	2	3	4
6. Marking codes should be easy for students to follow and understand.	1	2	3	4

own feedback practices, yet they have to be patient and they should realize that correcting errors will eventually be fruitful on the long run.

It is advised that teachers do not depend only on error feedback practices if they want to see their students improving. Based on the results of this research, teachers are advised to devote a portion of their time for individual meetings and personal conferences where they can do the correction in front of the students and ask them questions about their mistakes. Teachers can elicit responses and students can think out loud about the reasons that caused them to write in a certain way. These might be topics for further research especially in this particular context. However, the most important point is that teachers need to be aware of their beliefs. They should have them voiced in an education program and have the chance to think critically and to reflect about them in order to pave the way for a gradual change in these beliefs the thing that will be eventually reflected in their practices.

TEACHER QUESTIONNAIRE

Appendix A:

1. Gender: (Please choose one) Male Female
2. Nationality: (Please fill in the space) _____
3. Qualification: (Please choose one)

4. Which of the statements below best describes your existing error feedback practice? Please circle the most appropriate answer.

- A. I don't indicate students' errors in writing.
- B. I indicate ALL students' errors.
- C. I indicate students' errors selectively.

5- Do you use a marking code for providing error feedback on student writing? Yes / No

6- Rate the frequency with which you use each of the following error feedback techniques according to the scale below. Please circle (1) if you believe the answer is **Never or Rarely**, (2) if you believe the answer is **Sometimes**, and (3) if you believe the answer is **Always or Often**. Please be as honest as possible.

educational reform can be identified and remedied. The results of this study suggest that in order to initiate better change in teachers' behaviors and practices, teachers need to have the chance to reflect on their own belief systems, to know what their beliefs are, and to have their awareness raised.

Based on the results of this study, it can be realized that second language writing teachers in the Lebanese context at AUST need to reach a consensus regarding error feedback in order to arrive at better results with their students. They can perhaps agree to correct errors selectively with lower level students and use only a certain number of codes for that purpose while they can use comprehensive error feedback with higher level students. This way, students will always be motivated because the amount of error correction on their papers will be reduced.

Teachers should make sure from the beginning of the academic year not to use error codes before they are fully aware that students are able to understand them. Teachers should give their students as many examples as possible about error codes until they are sure that they are able to decipher them by themselves. Only then should teachers be allowed to start using these codes in their error correction. The use of codes before preparing the students in advance to understand them is a futile activity that is time consuming not only for teachers but also for students.

Teachers should know that they do not always have to be consistent in their choice of error feedback techniques. They may use both direct and indirect feedback techniques on the same writing paper. It is true that there are some errors that teachers feel that students will not be able to correct on their own, and in this case direct feedback is preferable; however, teachers should know that they have to give a chance to the student writers to be responsible for their own learning. For example, teachers may use indirect error correction codes such as SP for *spelling* or CAP for *capital letter* in order to allow students little room to take control and to do the correction themselves. This will enhance students' critical thinking and analytical abilities and give them the chance to correct their own errors so that they will not do the same mistakes again.

Teachers should come to the realization that writing is something and grammar is something else. When they correct writing essays, they must not focus only on grammatical mistakes because they will be distracted from the real purpose of teaching writing. Grammar is very essential to make the communication of the message clear, yet it is only one part of writing. Teachers should meet and develop a writing assessment strategy that includes in addition to grammar, a large portion of attention to content, style, and form.

Teachers should realize that students always need to be positively motivated. It is true that students like to have their errors corrected and their weaknesses highlighted, yet students also like to receive positive feedback on their work. Positive comments mean a lot to students. They not only help in showing them that they can succeed in the task they are doing, but they also urge them to do their best. This is why teachers should positively reinforce their students and leave good comments on their writings because the writings they are correcting will surely involve some strengths that are worth mentioning.

Writing is perhaps the most complex English skill and teachers should be aware that their students are not expected to be excellent writers in one term. Thus, they should be ready to see students' same mistakes recurring again and again. They might have doubts about the efficacy of their

them. Also, teachers might believe that grammar forms a hindrance that students have to overcome to be able to focus on content.

Mismatch 5: Although teachers claimed that feedback should cover both strengths and weaknesses, they respond mainly to weaknesses in student writing.

When asked in the interview whether they focus on the strengths, all teachers claimed that they do so. They said they are aware of the importance to offer a good balance of positive and negative comments. One teacher said, "Of course, I motivate them [students] by stressing their points of strengths. They need to know these points because they need to feel they can do it. Denoting only students' errors on the paper will put students down." Another teacher said, "It is their [students'] right to know the strengths and weaknesses not only concerning grammar, but also content." However, the feedback analysis shows that 95.5% of the written feedback is in the form of error feedback marked in students' texts, with 4.5% addressing different areas including praise and criticism. However, not more than 1.5% of the 4.5% comprise praise leaving around 3% for criticism which means that the predominant focus of teacher feedback is on students' weaknesses pertaining to language form. The reason for such a mismatch can be related to the error-focused approach to written feedback, which certainly draws teachers' attention to students' weaknesses rather than strengths in student writing.

Mismatch 6: Teachers keep focusing on students' written errors although they are aware that mistakes will recur.

The feedback analysis of the error correction task showed that teachers' written feedback is error-focused. However, this doesn't necessarily mean that teachers believe in the efficacy of this practice. In the interview, nearly all the teachers admitted that they still see the same errors recurring in their students' writings. One teacher said, "I hope I could find a better method to improve my students' awareness of language structures because I am not satisfied with the effectiveness of marking written errors." Another teacher said desperately and pessimistically, "It seems to me that students, and especially the weaker ones, don't learn from their mistakes. You ask them to use the past tense for example but they insist on doing the same mistake again and again." Even though teachers are aware of this, yet we realize that they put heavy emphasis on their students' written errors. The results of the questionnaire came to support these results. When they were asked in question 7, number 1 whether there is a need for teachers to provide feedback on student errors in writing, 13 (72.2%) of the teachers said that they agree, 3 (16.6%) of them said they strongly agree while only 2 (11.2%) said they disagree. Teachers may put the blame on the English panel for that practice, but in reality it might be more complex than that and probably related to the way they were themselves treated as young writers.

Implications

Based on the results of this study, it was clear that teachers' beliefs and teachers' practices do not always go hand in hand. Teachers need to be aware of this incongruity in order to initiate change, or else teaching will become limited to the boundaries of some rigid beliefs that might have been formed as a result of a person's education and experience. Since teachers possess beliefs regarding professional practices and these beliefs impact their actions, Cuban (1990) suggests that careful examination be given to the role of teacher beliefs so that the problems and past failures in

dents. One teacher said, “Error codes are generally difficult for students. They need a lot of training on how to use them. Students might understand the codes, but this doesn’t mean they know how to use them, and when it comes to weaker students it’s a bigger problem.” Perhaps the reason for such a discrepancy is that teachers believe that error codes provide opportunities for students to think critically and to self correct their errors, which creates more chances for them to learn from their mistakes. The results suggest that teachers have mixed attitudes to error codes. They do utilize them in their feedback despite having doubts about their students’ ability to interpret them correctly.

Mismatch 3: Teachers believe that students should be responsible for learning; however, a great deal of their written feedback practice allows students little room to take control.

More than 70% of the teachers’ actual correction on the error correction task was direct feedback correction, which means that teachers provided the correct form to the student writer, leaving the student with no room for critical and analytical thinking. One teacher said, “I do use error codes, but most of the time I give them [students] the correct form, and all they have to do is just rewrite the essay.” However, when asked about their beliefs about student role in the questionnaire survey (Question 6 number 9), 16 (88.9%) out of 18 teachers believed that students should learn to analyze their own errors. Also, in the interviews almost all of the teachers stressed that students should learn to take responsibility for their learning. This mismatch can be attributed to the habit of using direct error feedback in correction or because teachers might find it easier and quicker for them to give the correct form than to choose the suitable error code, or maybe teachers don’t trust their students’ abilities to self correct their errors so they provide the corrections themselves.

Mismatch 4 Teachers claimed that writing involves more than just grammar, but in their actual practice, they showed they pay most attention to grammar.

The number of errors indicated by the teacher participants on all the error correction tasks is 526 errors. Out of these errors, 489 (93%) are related to grammar. The rest addressed content and organization and included different areas like praise and criticism. However, in the questionnaire, (Question 7, Number 10), when asked whether teachers should focus mainly on grammar in their error correction, 16 (88.9%) of the 18 teachers answered that they don’t agree; with 12 answering that they *strongly disagree* and 4 answering that they *disagree*. Moreover, in question number 8, when teachers were asked to choose the major principle that describes their error correction, only 2 teachers chose answer (a) which is that their selected errors are directly linked to grammar instruction in class. Also, when asked in the interview whether their error correction strategies are linked to grammar correction, all participant teachers said that good writing depends not only on accuracy, but also on content, organization, and development of ideas. One teacher said, “Writing is perhaps the most complicated skill. It should be treated as a process. It involves much more than grammar. Grammar is a part of it but not everything. Teachers should also focus on topic sentences, supporting points, and on generating ideas.” Another teacher said, “There is more to writing than accuracy. Fluency to me is more important. I want my students to write a certain number of words in a limited time. Correct grammar for me comes with practice and time.” This shows that writing teachers don’t always practice what they believe in, and the reason why teachers focus on grammar is perhaps because students expect to see all their grammatical errors corrected for

Data analysis and findings

Eighteen questionnaires were distributed and collected. All the items were answered by all the respondents. The analysis yielded mainly descriptive data (frequencies and percentages). Meanwhile, qualitative data from interviews were transcribed, unitized, and categorized. The follow-up interview section provided rich, deep, and interesting information from the respondents to further illuminate the findings.

Mismatches between teachers' beliefs and practices in L2 error feedback

Mismatch 1: Teachers claimed in the interview to prefer selective error correction, but in the questionnaire and in the feedback analysis, they showed they preferred comprehensive marking of errors.

TABLE 1

Frequencies and Percentages of Teachers' Error Feedback Practice

Responses	Frequency	Valid Percent
Indicating no errors at all		
Indicating ALL errors	14	77.8%
Indicating errors selectively	4	22.2%

In the questionnaire survey 14 of the 18 teachers (77.8%) said they usually mark errors comprehensively (Table 1). Also, the feedback analysis of the error correction task indicates that there is an average of one error feedback in every seven words in the student texts, which means the feedback on errors is very intensive. However, such practice does not seem to be in line with

teachers' beliefs, since 7 out of the 8 teachers (87.5%) who were interviewed said that they prefer selective marking. They also expressed their worry that when comprehensive error feedback is practiced, weak writers will lose the motivation. One teacher said, "Students expect to see all their errors marked for them. They might think the teacher is not doing his job if he doesn't correct all their errors. I find myself obliged to do so to satisfy their needs even though I am not convinced with it. The large number of errors on students' papers discourage them. I still believe selective error correction is more fruitful." It is worth noting also that none of the interviewed teachers said that he or she is forced by the college policy to use comprehensive feedback.

Mismatch 2: Teachers use error codes although they believe that students find difficulties deciphering those codes.

TABLE 2

Frequencies and Percentages of Teachers' Responses of Their Use Marking Codes

	YES	NO
A - Do you use marking codes for providing error feedback on student writing?	16 (88.9%)	2 (11.1%)

The majority 16 of the 18 teachers (88.9%) in the questionnaire survey claimed they use error codes in marking students' errors (Table 2). However, in the interview, teachers revealed their belief that students' ability to decipher error codes is limited, especially when it comes to weaker stu-

- 2 - How far are these beliefs compatible with the teachers' practices in second language writing?
- 3 - What implications can be drawn from the mismatches of teachers' beliefs and practices in second language writing?

Methodology

In this research, a questionnaire an error correction task, and an interview were used in order to obtain and triangulate quantitative and qualitative data.

Context

This study was conducted in the three campuses of American University of Science and Technology (AUST). AUST is a system of three campuses located in three main cities in Lebanon. The main campus is located in Beirut, while the two other campuses are located in Sidon in the south and in Zahle in the center.

Subjects

Eighteen English language teachers of both genders and of various nationalities and academic qualifications were invited to take part in this research. The teachers were from the USA, England, Australia, Canada, and Lebanon. Three of the teachers are PhD candidates, and the rest are either masters degree holders or working on their masters degrees. The teachers were selected based on convenience sampling.

Questionnaire

The study employed a questionnaire survey (Appendix A) which was adapted from (Lee, 2004) and modified to suit the purposes of this study. The questionnaire survey consists of 2 sections: The first section consists of a 3-item background questionnaire designed by the researcher in order to obtain background information about the teachers' gender, nationality, and qualifications. The second section comprises the rest of the questionnaire and aims at investigating teachers' beliefs, problems, and self-reported practices regarding error correction in writing. The items on the questionnaire were given to subject experts who checked their relevance and suitability. Then, they were subjected to a pilot study to decrease their ambiguity and raise their validity.

Error Correction Task

The error correction task was used to investigate how teachers actually corrected errors in student writing (see Appendix B). Teachers were asked to mark a student essay in the way they normally did in their own teaching situation. The rationale behind using the error correction task is to examine the extent to which teachers practice what they believe in.

Interviews

After gathering data from questionnaires and from the error correction task, face to face digitally-recorded interviews with 8 teachers were carried out (see Appendix C). The rationale behind the interview questions is to emphasize teachers' beliefs about certain points, to check if their beliefs are compatible with their actual practices and to give the participants the chance to express additional beliefs not reflected in the questionnaire.

It was hoped that these sources of data (teacher survey, error correction task, and follow-up interviews) would yield useful information about teachers' beliefs and practices regarding error feedback in writing.

all. In between these two extremes one finds corrections sensitive to particular pedagogical criteria and corrections with successful communication in mind.

One distinction that has been made in the literature is between direct and indirect teacher feedback (Ferris, 1995; Hendrickson, 1980; Lalande, 1982) as mentioned by Ferris and Roberts (2001). Direct feedback is given when the teacher provides the correct form for the student writer; if the student revises the text, he or she only needs to transcribe the correction into the final version. Indirect feedback occurs when the teacher indicates in some way that an error exists but does not provide the correction, thus letting the writer know that there is a problem but leaving it to the student to solve it. Second language acquisition theorists and ESL writing specialists alike argue that indirect feedback is preferable for most student writers because it engages them in "guided learning and problem solving" leading to reflection about linguistic forms that may foster long-term acquisition (Lalande, 1982). Error correction researchers who have examined the effects of these two contrasting types of feedback have reported that indirect feedback helps students make progress in accuracy over time more than direct feedback does or at least equally as well (Ferris & Roberts, 2001). It is crucial however to understand the belief systems that makes a teacher choose one type of error feedback and not the other especially that error feedback, whether direct or indirect, has in many cases been referred to as frustrating, exhausting, and demanding. A great deal of time is consumed on correcting errors, and despite students' insisting about teachers correcting their same errors over and over again, teachers often see the errors recurring in student writing which makes them wonder whether the time and effort they spend on error correction are translated into learning. Despite their efforts, teachers are described as composition slaves (Hairston, 1986) and as paternalistic figures who appropriate student writing (Brannon and Knoblauch, 1982).

The most important contributions of research in education propose that teachers' beliefs relate to their classroom practice (Thompson, 1992; Fang, 1996; Kagan, 1992). To understand teaching from teachers' perspectives, we have to understand the beliefs with which they define their work (Nespor, 1987, p.223). Beliefs are masked by judgments, values, theories, perceptions, opinions, and ideologies (Pajares, 1992). It is essential to understand the belief structures of educators in order to improve teaching practices because beliefs ultimately affect the behavior of the teacher in the classroom. According to Brophy and Good (1974) as cited in Fang (1996), if we understand the teachers' belief system better, we will be contributing to enhancing educational effectiveness. Thus, investigating teachers' beliefs in error correction in second language writing clarifies the true intentions behind practicing error correction the way they do.

Research Questions

Much research has been conducted on how error feedback in second language writing affects the accuracy and fluency of second language writers, but the focus of these studies was mainly related to teachers' practice of error feedback in writing. The research attempts to examine the mismatches between teachers' beliefs and practices in L2 error feedback in writing in three branches of American University of Science and Technology in the Lebanese context to show that there is a large degree of incongruity between what teachers believe in and what they practice. The research aims at answering the following questions:

- 1- What are teachers beliefs regarding error feedback in second language writing?

p. 88). Richards (1996) defined teachers' maxims as a set of rational principles that function as "rules for best behavior" (p. 286) that evolve as teachers' belief system develop. These maxims are related to all the domains of their teaching, including maintaining discipline, planning, motivating and encouraging learners. Richards maintains that maxims are the results of the theories that teachers have developed through their experience of teaching and learning and "from their personal beliefs and value systems" (p.293).

When they enter teacher professional development programs, both pre-service and in-service teachers bring with them an accumulation of experiences that manifest themselves in beliefs that are resistant to change. These beliefs "have a filtering effect on everything that teachers think about, say, and do in classrooms" (Johnson, 1999. P. 30). However, past experience is not the only source from which beliefs are derived. There are other sources such as teachers' personality factors, education principles, research-based evidence, and principles derived from an approach or method (Richards and Lockhart, 1994). Pajares (1992, p. 324) claims that the filtering effect of beliefs "ultimately screens, redefines, distorts, or reshapes subsequent thinking and information processing." Cabaroglu & Roberts (2000) argue that teachers' beliefs are viewed as inflexible and resistant to change, and they operate as a filter on formal pre-service program interventions. Since teachers possess beliefs regarding professional practices and these beliefs impact their actions, Cuban (1990) suggests that careful examination be given to the role of teacher beliefs so that the problems and past failures in educational reform can be identified and remedied.

Beliefs and practices on error feedback in writing

Teachers' beliefs have an important impact on teachers' practices. If one can have access to teachers' beliefs, he or she can gain important insights into the knowledge behind them. Bandura (1986) asserts that behavior is better predicted from an individual's beliefs, and that beliefs are believed to be the best indicators of the decisions individuals make throughout their lives. This is further supported by Nespor (1987, p.223) when he stressed that in order to understand teaching from teachers' perspectives, we have to understand the beliefs with which they define their work. In the context of this study, it is hoped that we can have access to teachers' beliefs regarding error feedback in writing in order to know the true reasons behind the usage of these feedback practices. It has to be pointed that the debate about the efficacy of error feedback in writing was fired by Truscott (1996) who claimed that error feedback on students' writing is useless and has to be abandoned because it is not worth the instructor's effort and time and because it might be harmful to students' writing. Since then, the topic of written corrective feedback has received increasing attention from researchers in different parts of the world. Ferris (1999), on the other hand, commented on Truscott's argument concerning grammar correction and considered it premature and overly strong.

Definitions of feedback

Kulhavy (1977) broadly defined feedback as "any of the numerous procedures that are used to tell a learner if an instructional response is right or wrong." (p.211). MacDonald (1991) defined feedback as the process of providing some commentary on students' work in which a teacher reacts to the ideas in print, assesses a student's strengths and weaknesses, and suggests directions for improvement. Levels of intensity of correction vary from meticulous corrections to no corrections at

(1992) explains that the main confusion revolves around the distinction between knowledge and belief. Knowledge on one hand can be equated with facts while beliefs are contestable. Nespor (1987) argues that even though the two constructs often conflict with each other and differ in many ways, beliefs can be considered to be a form of knowledge, but while knowledge may change, beliefs are often tacit and resistant to change. Beliefs shape people's representation of reality and guide both their thoughts and behaviors (Johnson, 1999). They play a critical role in defining behavior and organizing knowledge and information. Their structure is not consistent or simple. They affect both behavior and perception and appear to be interconnected and multi-faceted. Beliefs affect human perception and influence the way we understand events and the way we know, feel, and do.

Clark & Peterson (1986) believe that teachers' beliefs form a rich store of knowledge. They maintain that teachers respond to their world and make sense of it by establishing a complex system of professional knowledge. Kagan (1992) argues that much of a teacher's professional knowledge can be more accurately regarded as belief. She adds that as the teacher's experience increases, this knowledge grows richer and more coherent and forms a belief system that limits the teacher's perception, judgment, and behavior. Richards & Lockhart (1994) too argue that beliefs consist of both subjective and objective dimensions and form the background to much of the teachers' decisions and classroom actions. They also emphasize that beliefs are built up gradually over time. This is also reflected by Pajares (1992) who emphasizes the superiority of beliefs over knowledge in determining how individuals organize and define problems and how they are stronger predictors of behavior (p. 311).

In language teaching, it has become an accepted idea that teachers' beliefs play an important role in forming teachers' characteristic patterns of instructional behavior (Thompson, 1992). As Borg (2003) pointed out, it is only since the mid 1990s that studies of teacher cognition have begun to appear. Since then, beliefs became increasingly significant in teacher education. One of the broad definitions of beliefs is that they are implicit, often unconsciously held assumptions about students, classrooms, and the academic material to be taught (Kagan, 1992. P. 66). Another definition is that they are personal constructs that can provide an understanding of a teacher's practice (Nespor, 1987; Pajares, 1992; Richardson, 1996). Teachers' beliefs, which can be thought of as a belief substructure that interrelates with all other beliefs, has a filtering effect on everything that teachers think about, say, and do in the classroom. Studies about teacher beliefs show that teachers have beliefs about all aspects of their work. As argued by Calderhead (1996), there are five main areas in which teachers were found to hold major beliefs about teaching, learners and learning, learning to teach, the self and the nature of teaching, and about subjects or curriculum. He notes that these five domains are closely connected to each other.

Beliefs are formed early in life as a result of a person's education and experience (Johnson, 1994), and they are always accepted as true by the individual and are "imbued by emotive commitment" (Borg, 2001, p. 186). Student teachers begin their professional education with deeply grounded beliefs about teaching and learning (Kagan, 1992; Pajares, 1992), formed on their socialization into the educational aspects of their culture (Lortie, 1975; Cortazzi and Lixian Jin, 1996). Teachers' prior language learning experiences establish "cognitions about learning and language learning which form the basis of their initial conceptualizations of L2 teaching during teacher education and which may continue to be influential throughout their professional lives" (Borg, 2003,

frustration and confusion (Mantello, 1997), and student under-achievement and under-expectation through unfocused marking (OFSTED, 1996).

In order to understand teaching from teachers' perspective, it is essential to understand the system of beliefs with which these teachers define their work. Therefore, to understand the way the EFL teachers in American University of Science and Technology in the Lebanese context practice error correction in writing, it is important to understand the beliefs that lead to these error correction practices because teacher practice and teacher cognition exist in a "symbiotic relationship" (Foss & Kleinnsasser, 1996, as cited by Borg, 2003, p. 91).

Rationale

Research studies about teachers' beliefs show that beliefs have a significant impact on teachers' practices (Borg, 2001; Burns, 1992). Pajares (1992) pointed out that teachers' beliefs influence their perceptions and judgments as teachers are thinking human beings who "construct their own personal and workable theories of teaching" (See Basturkmen, Loewen, and Ellis, 2004. P. 244). In the domain of error feedback, most of the studies about the issue of error feedback addressed the act of teacher feedback *per se*, (Chandler, 2003; Ferris, 1999; Lee, 1997). For example, researchers examined the various types of error feedback (Ferris, 1995; Hendrickson, 1980; Lalande, 1982), the explicitness of error feedback (Ferris & Roberts, 2001), teachers and students' preferences of certain types of error feedback, and the degree of accuracy resulting from error feedback (Truscott, 1996; Ferris 1999). However, little research has been conducted about the issue of teachers' beliefs in error feedback and the impact these beliefs have on teachers' practices (See: Lee, 2009). In the Lebanese context in specific, there has been only little research about error feedback in L2 writing (See Diab, 2005), and no research about the issue of teachers' beliefs and practices in error feedback in second language (L2) writing.

The significance of this study is to make the EFL teachers in the Lebanese context more aware of the impact that their beliefs have on their practices. This will pave the way for a change in the beliefs of these teachers, and as a result for a positive change in their practices. In addition, by presenting both teachers' beliefs and practices, the researcher of this study will be examining the issue of error feedback in L2 writing from a different angle and will be giving a holistic picture about the way feedback in writing is practised in American University of Science and Technology (AUST) in Lebanon.

Literature Review

Beliefs have been known to be the most valuable psychological construct to teacher education (Pintrich, 1990); however, they have always been acknowledged as being very difficult to define. Broadly defined, our beliefs form our visualization of reality and guide both our thoughts and behaviors. Pajares (1992, p.2) labeled them a "messy construct [that] travels in disguise and often under alias." These aliases include "perceptions" (Schulz, 2001), "images" (Golombek, 1998), "explicit propositions" (Nisbett and Ross, 1980), "conceptions" (Ekeblad and Bond, 1994), and "personal theories" (Borg, 1999). This confusion has arisen as a result of defining identical terms in different ways (Clandinin and Connelly, 1986). Rokeach describes a belief system "as having represented within it, in some organized psychological, but not necessarily logical form, each and every one of a person's countless beliefs about physical and social reality" (1968, p.2). Pajares

Six Mismatches between Teachers' Beliefs and Written Feedback Practice: A study conducted at American University of Science and Technology (AUST) in the Lebanese Context

Dr. Ziad Hadla

Abstract

Research has shown that teachers' practices are directly affected by teachers' beliefs. However, in teacher feedback research, not much is known about teachers' beliefs and the extent to which they influence practice. This article reports on the results from a study that investigated teachers' beliefs and practice in written feedback from two sources: (1) a survey comprising a questionnaire administered to 18 English language university teachers. (2) feedback analysis based on 18 texts collected from the 18 participant teachers and follow-up interviews with 8 of them. While the first data source focused on teachers' beliefs, the second data source investigated teachers' actual written feedback followed up by interviews that probed teachers' beliefs and practice. The article presents the salient findings in terms of six mismatches between teacher beliefs and practice in written feedback and concludes with implications arising from the study.

Introduction

Beliefs are becoming increasingly significant in teacher education due to the critical role they play in defining behavior and organizing knowledge and information. In order to understand how teachers make sense of, and respond to particular educational situations, it is essential to understand their beliefs. This view is based on the supposition that beliefs are the best indicators of the decisions individuals make throughout their lives (Fang, 1996; Richardson, 1996; Pajares, 1992; Bandura, 1986). What teachers do in the classrooms "has its origins in thoughts or mental acts, which have been shaped by attitudes, values, knowledge, and beliefs gathered through years of being a student and being (or becoming) a teacher (Borg, 1999, 2003; Calderhead, 1987; Gatbonton, 2000).

This study is hoping to explore the degree of congruity between teachers' beliefs and practices regarding error feedback in L2 writing in American University of Science and Technology (AUST) in Lebanon. Truscott (1996) started an intense argument on the efficiency of error correction by proposing its elimination, and since then the issue of error feedback in writing has received increasing attention from researchers worldwide. Responding to student writing is known to be an important area of teachers' work; however, it is often described in negative terms and referred to as frustrating (Ferris, Pezone, Tade, and Tinti, 1997), demanding, (Stern & Solomon, 2006), boring and difficult (Hyland, 1990), and teachers are at many times referred to as composition slaves despite their efforts (Hairston, 1986). It is true that there has been a lot of research studies that revealed how much students value feedback and find it useful to help them improve their writing (Leki, 1991); however, many teachers have reported negative effects of teacher feedback, such as

- Merriam-Webster: Dictionary. (2017). Retrieved from Merriam-Webster, Incorporate: <https://www.merriam-webster.com/dictionary/magazine>
- Murray, S. (2009). *The Library an Illustrated History*. New York: Skyhorse Publishing.
- Notre Dame University Libraries. (2017). Retrieved from Notre Dame University: <http://www.ndu.edu.lb/research/libraries>
- Rubin, R. E. (2010). *Foundations of Library and Information Science* (Third ed.). New York: Neal-Schuman Publishers.
- Scientific Method. (2016, May 28). Oxford Dictionaries: British and World English. Oxford, England.
- Shields, P., & Rangarajan, N. (2013). *A Playbook for Research Methods: Integrating Conceptual Frameworks and Project Management*. Stillwater: Stillwater, OK: New Forums Press.
- SOAS Library: What is an Electronic Journal?. (2017). Retrieved from SOAS Unniversity of London: <https://www.soas.ac.uk/library/resources/ejournals/about/>
- Solent Online Learning. (2017). Retrieved from Southampton Solent Univerity: <https://learn.solent.ac.uk/mod/book/view.php?id=116227&chapterid=15177#Books>
- Types of Libraries. (2017). Retrieved from Cornell University Library: <http://guides.library.cornell.edu/c.php?g=30898&p=198569>
- University of Balamand Libraries. (2017). Retrieved from University of Balamand: <http://www.balamand.edu.lb/Library/AboutUs/Pages/HistoryMission.aspx>
- University of Balamand Libraries. (2017). Retrieved from University of Balamand: <http://www.balamand.edu.lb/Library/FindIt/Pages/Databases.aspx>
- University, B.-B. Y. (2017). What is a conference paper? Retrieved from English Symposium: http://englishsymposium.byu.edu/?page_id=24
- University, M. (2007). Use of Acronyms and Abbreviations. Retrieved from Monash University: <http://www.monash.edu.au/lis/online/writing/general/academic/3.4.xml>
- University, M. (2017). Acknowledging sources. Retrieved from Monash University: <http://www.monash.edu.au/lis/online/writing/general/reference/1.xml>
- Usek Library. (2017). Retrieved from USEK Homepage: <http://www.usek.edu.lb/UsekLibraryEn/Default.aspx?pageid=11825>
- Virkus, S., & Metsar, S. (2004). General Introduction to the Role of the Library for University Education. *LIBER Quarterly*, 14(3/4). Retrieved from *Liber Quarterly*.
- Virkus, S., & Metsar, S. (2014). General Introduction to the Role of the Library for University Education. *LIBER Quarterly*, 14, 3-4. Retrieved from <http://doi.org/10.18352/lq.7780>
- Vocabulary.com Dictionary. (2017). Retrieved from Vocabulary.com: <https://www.vocabulary.com/dictionary/television%20program>
- Yearley, J. (2013). Media Tech Connection. (A Chicago Tribune website) Retrieved from ChicagoNow: <http://www.chicagonow.com/media-tech-connection/2013/03/what-is-ux-design-and-whats-it-mean-for-chicago-tech-do-you-want-to-learn-it/>
- York University Libraries. (2017). Retrieved from York University: <https://www.library.yorku.ca/web/research-learn/reference-materials/>
- Zarah, L. (2017). Owlcation Academia. Retrieved from Owlcation.

III. Purpose

Researcher ought to know the author's intention and decide whether the information consists of facts, opinions, or propaganda. Moreover, they should realize if the author's point of view is objective and impartial and whether the language is free of emotion-arousing words or bias. In addition, one should question the logical organization of the publication, clarity of main points' presentation, easy readability, and the author's repetitiveness.

Bibliography

Abdul Raheem, W. (2014, October 5). The Advantages and Disadvantages of the LMD. (A. Majbour, Interviewer)

Abdulraheem, W. (2014, October 18 at 08:30 PM). The New Educational System at the Lebanese University. NBN. Beirut. Retrieved October 18, 2014

American University of Beirut: University Libraries. (2017). Retrieved from <https://www.aub.edu.lb/ulibraries/Pages/hours.aspx>

B, M. (2004). Administering the school library media center. Westport, Westport, CT: Libraries Unlimited.

Badran, A. (2015, June). The New Education System at the Lebanese University: Concept and Significance. Beirut, Lebanon: Lebanese University.

Bell, S. (2013, February 18). Operations and Efficiency. Retrieved from The evolution A Destiny Solutions Illumination: <https://evollution.com/opinions/five-ways-academic-libraries-support-higher-educations-reboot/>

Black, A. (2006). Information History. Annual Review of Information Science and Technology(40), 441-473.

Briney, A. (2017). Geography. Retrieved from ThoughtCo.: <https://www.thoughtco.com/what-is-an-atlas-1435685>

Buchanan, A. L., & Herubel, J.-P. V. (2011). Subject and Historiographic Characteristics of Library History: Disciplinary Considerations and Scholarship. Journal of Scholarly Publishing, 4(42), 503-522.

Curzon, S. C., & Quiñónez-Skinner, J. (2009). Academic Libraries. Encyclopedia of Library and Information Sciences, Third Edition, 11-22. California, U.S.A.

Eckel, P. D., & Kezal, A. (2003). Taking The Reins: Institutional Transformation in Higher Education. Westport: Praeger Publishers.

Facts and Figures. (2017). Retrieved from AMERICAN UNIVERSITY OF SCIENCE & TECHNOLOGY: https://www.aust.edu.lb/About_UsFacts_and_Figures

Hale, J. (2017). The World of Psychology. Retrieved from PsychCentral: <https://psychcentral.com/blog/archives/2011/09/27/the-3-basic-types-of-descriptive-research-methods/>

Koubaissi, H., Antoine, T., Shalouhi, E., Kahwagi, M., Shawoul, M., Mansour, S.,... Ibraheem, M. (2004, September 29). The Guidance Document Regarding the new Education System Intended to Apply at the Lebanese University Based on the LMD System. The Guidance Document Regarding the new Education System. Beirut, Lebanon: Lebanese University.

Lebanese University. (2017). Retrieved from Lebanese University: <https://www.ul.edu.lb/default.aspx>

peer review process, read online at any time, search for specific articles online, and receive email alerts of new issues. Yet, they do not cover as much scope as books and may require username and password off-campus (Successful Research, 2017).

24. Television programs: they are programs broadcast by television (Television Program, 2017). They present information in diverse presentations that can include facts and opinions and can be an up-to-date source of information. However, they can be prejudiced and may not give further references to follow up, may not always give a fair representation of a subject, and are often created for entertainment purposes (Successful Research, 2017).

Methodology and Limitations

I have chosen the descriptive research method because it is used to describe features of a population or phenomenon being studied. It does not answer questions about how/when/why the characteristics occurred. Rather, it addresses the "What" question. These characteristics are usually some kind of clear-cut outline or structure also known as descriptive categories. Descriptive research methods are pretty much as they sound; they describe the state of affairs rather than make precise guesses, and they do not determine cause and effect. There are three main types of descriptive methods: observational methods, case-study methods and survey methods (Hale, 2017). However, it is important to emphasize that descriptive research methods can only describe a set of observations or the data collected. It cannot draw deductions or conclusions from that data about which way the relationship goes - Does A cause B, or does B cause A (Shields & Rangarajan, 2013)?

Discussion

Evaluating Research Resources

Since not all information is produced the same. Just for the reason that a researcher comes across information at the library does not warrant that it is an accurate or good resource. Therefore, academically speaking, a researcher should be qualified enough to seriously evaluate information. Such skill is, in fact, crucial in order to conduct quality research. Each item he/she finds has to be evaluated to establish its quality and credibility in order to best support the research at hand.

Hence, in order to evaluate a source, a researcher should take into account the following:

I. Authority

Firstly, any researcher should take into consideration the publisher; he/she had better identify whether it was published by a university press, a large reputable publisher, a government agency, or self-published, as well as the purpose of the publication. Secondly, the source of resource information in order to be able to judge if the information appears to be valid and well-researched, or questionable and unsupported by evidence such as a list of resources or works cited and their quality. Thirdly, the author's educational background, experience in this area, past writing, and whether his/her name had been cited in other sources or bibliographies. Fourthly, researchers have to decide if the resource is a primary source or a secondary resource keeping in mind that secondary sources are based on primary sources.

II. Currency

It is crucial to know the publication date in order to decide whether it is current or out of date on the topic at hand.

fault mode is a succession of committees in which two to four researchers convey presentations and then respond to comments and questions. (University B.-B. Y., 2017). They can be up to date, show areas of contemporary research interest, and are quality checked. Yet, they don't always offer a synopsis of a subject (Successful Research, 2017).

16. Magazines: they are periodicals containing various items such as articles, stories, and poems and similar to a newspaper usually appearing on Sunday (Merriam-Webster: Dictionary, 2017). They indicate topics of specialized interest, they are up to date about reporting of news and opinion, provide the chance for people to participate, and include new services. Yet, they are not as at length quality reviewed as journals (Successful Research, 2017).

17. Newspapers: a paper that is printed and distributed usually daily or weekly and that covers news, articles of opinion, features, and marketing (Merriam-Webster: Dictionary, 2017). They make accessible for researchers an up to date coverage of events, news, and opinion together with images, and can include dependable information as well as some facts and figures. Yet, they may be biased and unreliable and may be prejudiced by political loyalties (Successful Research, 2017).

18. Films: Films provide a realistic representation of a topic and can be based on facts or real events. However, they are often fashioned for entertainment goals and may not truthfully represent a topic or event (Successful Research, 2017).

19. Statistics: it is a branch of mathematics dealing with the collection, analysis, interpretation, and presentation of masses of numerical data or collection of quantitative data (Merriam-Webster: Dictionary, 2017). They can make available evidence to support an argument. Yet, they can be manipulated and confusing (Successful Research, 2017).

20. Websites: they are "A group of World Wide Web pages usually containing hyperlinks to each other and made available online by an individual, company, educational institution, government, or organization" (Merriam-Webster: Dictionary, 2017). Websites provide quick access to information and they can be kept up to date easily. Nevertheless, websites are not quality checked because anyone can create a website and they are not always dependable or of an academic standard (Successful Research, 2017).

21. eBooks (electronic book): it is "A book composed in or converted to digital format for display on a computer screen or handheld device" (Merriam-Webster: Dictionary, 2017). eBooks provide researchers with a detailed and methodical summary of a subject; they are quality checked by the publisher, usually well-researched, include references to other sources you can use, read online anytime and allow for search across book's content. Yet, eBooks take a long time to be published; they might become out of date (Successful Research, 2017).

22. Reports: they are usually "... A detailed description or a statement such as a news report that is an account or statement of a judicial opinion or decision, a usually formal record of the proceedings of a meeting or session" (Merriam-Webster: Dictionary, 2017). Reports look at a topic in detail and often involve statistics or research findings. However, they can be biased and do not always give an overview of a subject (Successful Research, 2017).

23. eJournals (electronic journal): An electronic journal is a periodical publication which is published in electronic format, usually on the internet (SOAS Library: What is an Electronic Journal?, 2017). eJournals include up-to-date research and cover very specific topics, quality checked during

6. Encyclopedias: they pass on related information and synopses of a definite subject person or incident. They can be subject specific or general in scope. The subject-specific encyclopedias provide background information on a particular subject. They are usually edited by a distinguished academic in the field of study and the articles are often written by experts, who give an in-depth overview of a topic. They include facts about a topic, they are quality checked and provide a brief overview of a topic, yet print copies may go out of date, short of details (Successful Research, 2017; York University Libraries, 2017).

7. Events/Timelines: if a researcher needs a map of historical events or wants to identify when a particular event took place, these resources are a respectable place to commence (Successful Research, 2017; York University Libraries, 2017).

8. Indexes for Books/Journals: they are arranged lists, usually alphabetically or subject related, of information sources such as books and periodicals (York University Libraries, 2017).

9. Books have advantages and disadvantages; before deciding which books to pick as resources, researchers should have an in-depth précis of the subject they are intending to study. Moreover, it is recommended that they consider if the book quality has been well-researched, checked by the publisher, include references to other sources they can use. Nevertheless, researchers have to make sure whether the books they have chosen are out of date or not, author biased, have literature surveys or reviews; because academic publications regularly involve literature surveys or reviews, part of the research process is to detect key works of literature that have already been produced before launching into new research (Successful Research, 2017).

10. Quotations/Aphorisms/Lyrics: the quotations/aphorisms/lyrics section covers sources that let researchers to either search for quotes by person /artists or by reverse look-up (York University Libraries, 2017).

11. Reviews: they include lists of several sources for finding both critical and popular review articles for books, performing arts, and movies (Merriam-Webster: Dictionary, 2017).

12. Style/Writers' Manuals: these guides will show researchers how to format their paper and references according to the specific recognized style such as APA and MLA. Although these sources are excellent tools for reference, the websites may not contain their most recent changes (Merriam-Webster: Dictionary, 2017).

13. Journals: they are collections of articles relating to a certain topic published regularly (e.g. once a month, quarterly, annually). They cover the up-to-date research; and cover very specific topics (Merriam-Webster: Dictionary, 2017). Their quality is checked during colleague assessment-process and contains references used which provide researchers with an acceptable source for further research. However, their only drawback is that they are not as comprehensive as books (Successful Research, 2017).

14. Atlases and maps: An atlas is a collection of various maps of the earth or a specific region of the earth, such as the U.S. or Europe. They show geographic features, the topography of an area's landscape and political boundaries, climatic, social, religious and economic statistics of an area (Briney, 2017). Many are found online and provide a good source of visual information. Yet, they lack thorough data on a topic (Successful Research, 2017).

15. Conference papers: Academic conferences have a range of designs, but in English, the de-

and understanding because their resources are a free service in higher education for the reason that the channel of information is always there, just waiting to be turned on (Yearley, 2013).

Resource Materials

Referencing supports the production of a map of information, a web of paths in knowledge whereby each researcher facilitates multiply and develop that knowledge. Thus, referencing boosts knowledge exponentially. But learning depends not only on the sharing of knowledge but also on the questioning of knowledge. It depends on both the recognition, acceptance and evaluation and revision of the work of other academics. (University M., Use of Acronyms and Abbreviations, 2007).

Classifying Major Resource Sources

Resource sources are used to acquire a definite answer to an investigation or to choose other sources to use during the research process. Although there are quite a few categories of reference sources, they all are categorized as either general or specific in scope. General reference sources contain a wide-ranging collection of subject areas whereas subject-specific sources have content that is centered on one specific area of study (York University Libraries, 2017). To share knowledge efficiently and successfully, researchers need to be open about the knowledge gained from other sources. Moreover, when researchers link their hard work to the work of others, they put their own work in context and allow discrepancies and contrasts to be made. The good referencing technique also reveals researchers' skills as a researcher (University M., Acknowledging sources, 2017).

Categories advantages and disadvantages of reference material and resources include the following (York University Libraries, 2017):

1. Acronyms and abbreviations: an acronym or an abbreviation is a word formed from the initial letters or syllables of other words to create a short form for a longer name, for example, NATO is a short form for North Atlantic Treaty Organization. However, it is appropriate to use standard abbreviations sometimes in scientific writing. For the first reference to a term in the text, the term should be used in full with the abbreviation included in brackets. For the remainder of the text, the abbreviation should be used. However, abbreviations should not be used in the abstract or in the title (University M., Use of Acronyms and Abbreviations, 2007).

2. Biographies: if you need material about the life of a certain individual, his/her accomplishments, and achievements, a biographical resource is a valuable choice (York University Libraries, 2017).

3. Country Profiles: if you need a quick overview of a country and its development yearbooks or country reports are a good choice (York University Libraries, 2017).

4. Dictionaries and thesauruses: a dictionary contains an abundant number of words in alphabetical order with their meanings clarified, described, or written in another language. They also include material about the form and proper pronunciation of the word. Subject-specific dictionaries define terminology and concepts specific to the subject in question. However, they do not give comprehensive information on topics (Successful Research, 2017). Thesauri: a thesaurus is a reference tool used to look up words with similar meanings (Merriam-Webster: Dictionary, 2017).

5. Directories: they cover an organized list of names and addresses (Successful Research, 2017).

Literature Review

The History of Libraries

The Merriam-Webster: Dictionary (2017) defines a library as "... a collection of sources of information made accessible to a specified public for reference or borrowing. It makes available physical or digital access to material and may be a physical building or room, or a virtual space, or both (Buchanan & Herubel, 2011; Black, 2006).

Library history starts in early societies through current problems challenging libraries nowadays (Murray, 2009). Topics comprise recording mediums, cataloging systems, academics, copyists, library sponsors and librarians (Bell, 2013). The history of libraries began with the first works to organize collections of documents. Topics of interest include accessibility and availability of the collection, acquiring of resources, arrangement and finding tools, the book industry, the impact of the physical properties of the different writing materials, language distribution, role in education, extents of literacy, budgets, employment, libraries for specially targeted audiences, architectural value, models of usage, and the role of libraries in a nation's cultural heritage, and the role of government, church or private sponsorship. Since the 1960s issues of computerization and digitization come to the front (Virkus & Metsar, General Introduction to the Role of the Library for University Education, 2014).

Libraries are much more than a place to read books and journals; they also house advanced electronic resources, including the internet, digital library collections, remote access to a wide range of technology and instruction. Most library functions focus on connecting people to the information they need, technical facilities (ordering, cataloging, and preparing materials), computer facilities (maintain library databases, software programming, web page design), and administrative services (manage the library and services, negotiate contracts with vendors, supervise library employees, prepare budgets). (Books & Bytes: Librarians as Information Managers: Types of Libraries, 2017):

Library Types

There are four major types of libraries. Firstly, there are the academic libraries that serve colleges and universities. They are attached to a higher education institution which serves two complementary goals to support the school's curriculum and to support the research of the university faculty and students (Curzon & Quiñónez-Skinner, 2009). Secondly, there are public libraries that serve cities and towns. They are libraries open to the general public and are generally financed by public sources, such as taxes (Rubin, 2010). Thirdly, there are school libraries or a school library media center that serve students from Kindergarten to grade twelve. They are libraries within a school where students, staff, and often, parents of a public or private school have access to a variety of resources (B, 2004). Fourthly, there are special libraries in specialized environments, such as hospitals, corporations, museums, the military, private business, and the government (B, 2004). Moreover, one should mention that nowadays, all those types of libraries, include digital and online services.

Such digital university libraries support the transformation of online education and provide access to immense numbers of digital content. They are open to all campus constituents no matter where they may do their learning. Such libraries support the transformation to broad-mindedness

The Significance of Academic Resources in University Libraries

BY - Amenah Majbour - M.A. Ph.D. - 2018

Introduction

This article covers a specialized assessment regarding the importance of research in learning and critical description of the of the academic resources found in university libraries.

While I was working on my Masters and Doctorate theses, I encountered several obstacles that motivated me to choose this topic. Firstly, there was the problem of finding resources; I had to visit several university libraries and borrow from friends. Secondly, I encountered the limitation of those resources' reliability and credibility regarding whether they were current, acceptable or not. Thirdly, some observers pointed out that during the last decade, technology, globalization, and competition caused the ground to shift under higher education worldwide, defying national borders and calling into question esteemed traditions, valued myths, and previously undisputed traditional teaching methods (Successful Research, 2017; Eckel & Kezal, 2003; Virkus & Metsar, General Introduction to the Role of the Library for University Education, 2004). Fourthly, since the launch of modern educational systems such as the License, Master, and Doctorate (LMD) to universities in Lebanon, a system that makes students partners in the teaching process whereby teaching of theory programs walk hand in hand with those of applied and practical properties, a state of affairs that reinforces students' vocational proficiencies and facilitates their assimilation in the labor market (Abdul Raheem, 2014; Badran, 2015; Koubaissi, et al., 2004). It is an education-based method of an effective partnership between teacher and student through reinforcing guided and applied activities and practical personal production, using multimedia for goals of exchange of ideas and information, fostering the use of sources of information from libraries and internet (Badran, 2015; Abdulraheem, 2014). It adopts students' focus on the learning process; universities should give students the keys and skills to acquiring knowledge on the one hand and research methods and self-learning on the other. Those universities had to give up the lecturing and learning by rote systems and orient themselves as well as their students towards the formation system. Thus, they are required to update teaching and assessment methods (Koubaissi, et al., 2004). Fifthly, since contemporary society is distinguished by the growing and ever-increasing use of Information and Communication Technologies (ICT) that constitute the core driver of this change (Virkus & Metsar, General Introduction to the Role of the Library for University Education, 2014). Education is passing through a fundamental transformation, rationalization, restructure, and redefinition in order to become able to respond to many socio-economic developments and educational needs of the contemporary society. Subsequently, research has become an indispensable tool in education and student assessment.

Accordingly, I thought that tackling this topic in a descriptive method that uncovers the significance of research and the categories of resources, their credibility, reliability, advantages, and disadvantages and transferring my experience to other students and colleagues would help them better work on their research and studies.

Bibliography

- Bowles, Paul. *The Sheltering Sky*. New York: Vintage, 1977.
- Dillon, Millicent. *You are Not I*. California: California UP, 1998.
- Edwards, Brian. T. "Sheltering Screens: Paul Bowles and Foreign Relations." *American Literary History* 17.2 (2005): 307-334.
- Freud, Sigmund. *Civilization and Its Discontents*. Trans. and ed. James Strachey. New York: Norton, 1961.
- Gilbert, Sandra M., and Susan Gubar. *The Madwoman in the Attic: The Woman Writer and the Nineteenth-Century Literary Imagination*. New Haven: Yale U P, 1979.
- Gordimer, Nadine. *The Pickup*. London: Bloomsbury, 2001.
- Green, Keith, and Jill LeBihan. *Critical Theory and Practice: A Coursebook*. London: Routledge, 1996.
- Grossman, Lev, and Richard Lacayo. "The 100 Best-English Language Novels from 1923 to 2005." *Time Magazine* (2005).
- Guerin, Wilfred, et al. *A Handbook of Critical Approaches to Literature*. 5th ed. New York: Oxford, 2005.
- Heidegger, Martin. *Poetry, Language, Thought*. New York: Harper, 1971.
- Hernandez, Lorena Perez. "A Cognitive Analysis of Paul Bowles's *The Sheltering Sky*." *Cuadernos de Filología Inglesa* 6.2 (1997): 259-278.
- Hibbard, Allen. "Paul Bowles: A Biographical Essay." *PaulBowles.org* (2003). Web. 25 Oct 2013. < <http://www.paulbowles.org/bowlesbiography.html> > .
- Homer, Sean. *Jacque Lacan*. London: Routledge, 2005.
- Klages, Mary. "Jacque Lacan." *University of Idaho*. n.d. Web. 28 Aug 2013. < <http://www.webpages.uidaho.edu/~sflores/KlagesLacan.html> > .
- Lacan, Jacques. *Anxiety*. 1962-1963. TS. France. *Gobookee*. Web. 15 Aug 2013.
- Martino, Andrew. "The Vanishing Point: The Dis-integration of Female Identity in Paul Bowles's *The Sheltering Sky*." *South Atlantic Review* 71.2 (2006): 24-52.
- Menninger, Karl. *Man Against Himself*. New York: Harcourt, 1938.
- Rivkin, Julie, and Michael Ryan, eds. *Literary Theory: An Anthology*. Malden: Blackwell, 1998.
- Root Deborah. "Misadventures in the Desert: *The Sheltering Sky* as Colonialist Nightmare." *Center for Cultural Studies*. University of California. 7 Dec. 1998.
- Selden, Raman, Peter Widdowson, and Peter Brooker. *A Reader's Guide to Contemporary Literary Theory*. 4th ed. London: Prentice Hall, 1997.
- Tyson, Lois. *Critical Theory Today: A User-Friendly Guide*. 2nd ed. New York: Routledge, 2006.

leaves the readers to contemplate the Kit's "self". *The Sheltering Sky* ends with "the end of the line" (Bowles 335), which may mean a return to self-consciousness (Martino 30). Although that self-consciousness is rejected and "there is nothing more to tell" (30), there is the possibility that Kit's madness may not necessarily be permanent. With her return to the desert, she would regain her self-consciousness. She would either go back under patriarchal domination, or would find a partner who would treat her as an equal to himself.

Whatever the future life of the Kit will be, her dwelling in the desert is the final solution to live without patriarchal dominance and is her first step to achieve self-autonomy. Although, she will be dwelling in a nowhere, she will be the decision-maker inhabiting space (Root 6), free of domination. In this sense we can look at the desert as a kind of feminist utopia where she can live beyond the boundaries of patriarchal dominance. The absence of patriarchy in the desert is due to the absence of binarism. Like Derrida, she dissolves oppositions by refusing "to allow either pole in a system [...] to become the centre and guarantor of presence" (Selden et al. 171). The desert also serves as a metaphor of the Kit's created Symbolic in that it has no oppositions. In the desert, there is no civilization and no center; hence there is no binarism or language/patriarchal control.

Without the concept of the center, the concept of oppositions fades out. Unlike the Symbolic, which has language and patriarchy as its center, the Kit's Symbolic has no center. In the desert, it is nearly impossible for the individual/nomad to specify a center, "a district leads to another district" (Gordimer 131) in an endless manner. The landscape is nearly unchangeable; "unvaried" (Bowles 282). The sameness of the landscape makes the desert a "nowhere" (282), where the individual's identity/center self comes to an end, thus all oppositions merge to generate a sense of a nihilistic nothingness. The Sahara becomes as a nowhere, a representative of the unconscious (13), a "boundless [...] linguistically barren world" (Martino 29), where one has "no feeling of being anywhere, of being anyone" (Bowles 315) to the extent of wondering whether one is still alive or is dead. The lack of the ontological center is accompanied by the loss of the whole idea of the center, thus all oppositions; "Everything is lost" (Bowles 332) and there are no "questions to be asked of oneself or answered" (Gordimer 198). All oppositions end up in the openness and limitless desert. Thus, it becomes as "eternity" (Gordimer 172).

Conclusion

Basically, mental/psychological development is not exclusive to babies, but also to adults who are psychologically and/or culturally immature. The holes in the three realms: Real, Imaginary and Symbolic, are necessarily caused by childhood experiences, and may continue to exist as long as one is unable to confront his/her repressions and experiences. Those holes are likely to cause conscious and unconscious disturbances such as anxiety, escapism and self-destruction. In their turn, those problems can be solved only with a direct or indirect questioning of their initial cause, patriarchy in the case of Kit. Thus, hysterical behavior and abnormal actions do not assign a person as neurotic or psychotic; rather, they reveal his/her past suffering during the mental/psychological development. The self-formation process is not merely a usage of the subject "I" and the ability to follow social categorization. Instead, it is a way to become an autonomous thinking being who is able to recognize and to question any ideology that might be faulty or biased.

fear of seeing herself in the mirror is a fear of imprisonment. In their *The Madwoman in the Attic*, Gilbert and Gubar study Mary Elizabeth Coleridge's poem "The Other Side of the Mirror". They state that the woman, "the prisoner of the mirror" (16), is unable to speak, or to have control over herself. Kit's fear of the mirror is similar to the woman in Coleridge's poem. However, for Kit, it is the enlightened abyss of language and oppositions that will imprison her femininity.

Kit chooses to give up language in favor of silence and stillness. For her, the sky and language are one, since both shelter nothing. In his study of the novel, Martino states that the sky, "a barrier that holds the nothing at bay, can be read as a metaphor for language. Language is the barrier that keeps anxiety at bay, at a safe distance. With language we are able to turn the nothing into a something" (30). As the sky shelters the patriarchal earth, language shelters the western/patriarchal ideologies. Port once tells Kit that the sky shelters chaos; however, Kit later reaches the conclusion that the sky shelters nothing. Similarly, patriarchal ideologies convince people that oppositions and language protect us from chaos, while in reality they shelter us from nothing. Kit becomes silent when she becomes aware that oppositions are built on misrecognitions.

Kit overcomes the barrier of language by going back to the language of the Semiotic. Although she "CANNOT GET BACK" (320) to the Real, she is able to live in unity with nature/desert. There all oppositions are unified. Thus, Kit's silence resembles that of the Real, where words are not needed. The novel ends with "the end of the line" (335). As if this expression shows that "Kit has vanished into the language of desert" (Martino 27), which resembles her Symbolic: with no oppositions or centers. The stillness, the motionless state of the desert "is neither limited to sounding by being its suspension, nor is it itself already something genuinely tranquil. The motionless always remains, as it were, merely the other side of that which rests. The motionless itself still rests on rest" (Heidegger 204). Kit does not need language because there is nothing to be expressed.

Kit seems to believe in the deconstructionist idea that the "stable identity that many of us have is really just a comforting self-delusion" (Tyson 257), while in reality there is no center for the identity. Western ideologies have invented oppositions as a way to give fixation to our unstable being. Kit searches for the truth behind binary oppositions and her development is a way to show that one can exist without binary oppositions. Being "a live presence", (Gordimer 18) is enough proof of one's existence. As Port states, "I don't have to justify my existence by any such primitive means. The fact that I breathe is my justification" (Bowles 94). Although Kit exists, she need to develop into the Symbolic. However, she does not submit to the patriarchal Symbolic, which initiates oppositions. Instead, she invents a Symbolic that mingles the Symbolic with the Semiotic. Her final dwelling place is a metaphor of her created Symbolic in that it has no binary oppositions: it is the center of nothingness.

The Symbolic: The Desert

Kit deliberately dwell in the desert not only to forget her past and destroy her Western self, but also because it is the most suitable place where they can mingle binary oppositions. In the desert, she experiences different poles of oppositions and seemingly forget her past life experiences. Although her choice to stay in the desert is self-destructive since the desert "swats" people, the heroine aims to destroy their male-built self and to create a self of her own. Her new self is complexed, for it seems to be mad to the reader, but can have other implications. The open-ending of the novel

However, Kit also takes the role of the dominated poor colonized. She is dominated by Belqassim who assigns her as a mad young man. He is free to do whatever he wants to her. He rapes her, orders her to stay under the disguise of a man, marries her and imprisons her. In all these cases, she willingly welcomes him. Her escape from his house is an escape from the wives and not from him. Kit is also dominated by Ammar. She accepts making a relation with him as a way to urge him to help her. Even after she knows that he has stolen her valise, she still closes her eyes and imagines him. This strange attachment to the native men resembles the attachment of the colonized to his colonizer. They welcome the colonizer in the hope of getting help, even at the expense of their dignity and freedom. Kit also resembles the colonized in that she is ignorant of the language and culture of the colonizer. Her disguise as a boy and her tanned face, makes the French believe that she is native, thus colonized.

Kit also mixes man/woman opposition when she becomes Kit and Ali at the same time. She is locked up by Belqassim in a small room on the roof. There she "lived solely for those few fiery hours spent each day beside Belqassim" (Bowles 297). The discovery of her disguise makes her "not know anything-neither where nor what she was" (299). It is after this incident that she becomes a woman with self-autonomy. Kit's joining Belqassim's caravan has not been an autonomous decision but an attempt to belong to a male (Martino 15). However, after she returns to her reality as a woman, she mixes the feminine and the masculine. The first action she does is biting one of the women and tasting "the warm salt blood on her tongue" (302). Immediately after that she is wed to Belqassim. As if marriage for her is accompanied by violence. Her relation with Belqassim becomes painful unlike when she is disguised as a male, as if her feminine feelings are born again with the discovery of her true gender. Later on, Kit preserves her femininity but mingles it with masculine traits as independence, travelling and language control. She is no more able to submit to the patriarch for in Belqassim's house she discovers that man/woman opposition is but a faulty misrecognition because it is built on appearances. Although Kit goes mad, she adopts male traits and activities as independence and traveling. Indeed, she shows that a female can have masculine traits in her personality and vice-versa.

Such dualities, and many others, not only enable Kit to dissolve binary oppositions, but to overcome the concept of binarism. For her, "Everything's lost" (332): oppositions, language, reason and civilization. Kit's discoveries may not be recognized by humanity, so she decides to send the message "CANNOT GET BACK" (320). The message is to be sent to humanity to show that once one gets freed from oppositions, he/she would never be able to get back into the patriarchal/Western prison. However, Kit seems to be aware of the impossibility to change the patriarchal dominance expressed by language and binary oppositions.

Kit's hysterical fear of the mirror reveals her fear of patriarchy. She has lived on categorization and when she mingles oppositions, she herself becomes as ambiguous as texts, as language. She is afraid of losing herself and sees that her end will be looking at the light of terror in a mirror: this light is the assumed enlightenment of civilization. Kit is afraid of being imprisoned again as a female under the laws of civilization and ideologies. Her end is the time when "They would stand her up before a great mirror, saying to her: "Look!" And she would be obliged to look, and then it would be all over. The dark dream would be shattered; the light of terror would be constant; a merciless beam would be turned upon her; the pain would be unendurable and endless" (323). Kit's

the dream he tells to Tunner. Her initial sense of guilt for making a relation with Tunner and losing her fidelity to Port comes as a result of her omen about cars. If she had accepted to accompany Port to Boussif she wouldn't have made a relation with Tunner, thus she wouldn't have been overwhelmed by the guilt of losing fidelity. Throughout the novel Kit depends on Port blindly; however, her omens have urged her to take decisions and to end up losing her fidelity, husband and mind. Kit feels that her development leads to Port's journey into the abyss of mind, thus she is responsible for the blurring of his identity. She goes through a Guilt Complex because his confusion, which is caused by her, leads to his death.

Language Use and Merging Binary Oppositions

In *The Sheltering Sky*, Kit mingles oppositions in her own self for she takes the role of both sides of the polar opposites self/other, colonizer/colonized, male/female, free/imprisoned, and many others. Throughout the novel, Kit becomes aware of the fact that neither half of a binary opposition is superior to the other. She realizes that one accompanies himself/herself to one half of an opposition, while everybody sees him/her as the other half. Kit formulates this idea throughout her development. An example of this can be her belief that she is guilty for leaving her patriarch, however innocent, because she is imprisoned. Thus, the relationship between the opposites turns out to be ambiguous because the halves are different and complementary, viewed by the world as opposite. Kit discovers that she cannot belong to only one side of an opposition. She merges the opposites self/other. Primarily, Kit is both self and other. She is seen superficially as normal self with desires, wishes and decisions. She is seemingly in the Symbolic realm for she speaks the language, follows the laws of civilization and the rules of her patriarch. Hence, she is a self seen by the Arabs as the other. However, as discussed in chapter one of this thesis, Kit is a reflection of her patriarch. She is unable to see her own self in the mirror. She is both self and other; both Kit and Port. She can be compared to a schizophrenic for she is split into two. By the end, she disintegrates herself by disappearing in the desert. There she becomes a nobody dwelling in a nowhere. Thus, she dissolves the opposition self/other.

In the desert Kit is seen as the colonizer for she is a white, educated, enlightened person from the West. She herself acts as a colonizer more than once. The most prominent example can be her first encounter with Belqassim's caravan. Kit, although not an Arabic speaker, is able to impose her authority over Belqassim. She has a sense of power and "her gestures were authoritative" (281). She uses the English language rather than French with the people in the caravan as a way to reveal her position as the colonizer. In Belqassim's house, Kit is seen as a white, educated, civilized woman. She is seen by everyone as the dominating colonizer. For Belqassim's wives she is the white favorite wife, while they are inferior to her. Her last encounter with them can also be interpreted to show that Kit is seen as the civilized colonizer. She is an owner of modernity when "she took up a lipstick and a small mirror, and turning toward a light, ostentatiously made up. There were cries of admiration" (312). She is the knowledgeable colonizer, the one who offers the colonized advanced objects or information. In addition to the wives, Ammar and Atallah see her as the colonizer. Amar's decision to steal her valise is based on his belief that Kit is a rich French woman. He states, "I know. Because you are rich. Because you have a bag full of money. Rich people are always afraid" (323).

(224). She blames herself because she feels "no sense of duty toward him" (223) and convinces herself that she should act as if she really cares about him. She is content to think that she is not responsible for him and is at peace when he is asleep. Her wish of being not responsible for Port or anything that might happen to him reveals her intense sense of guilt. She imagines how relieved she would be if "it was impossible to be at fault in any way, and thus impossible to feel regret, or, above all, guilt" (241). When she meets Tunner before Port's death, she sobs and "she hated the salt sting of the tears" (241) which may be emotional rather than physical. The sting of salt can refer to the pain of a metaphorical wound in her conscience. Her sobbing is followed by blaming herself and Tunner for being hypocrites and repeats while sobbing "I love him so much" (245). Whenever she feels conscious of her guilt, she sobs or becomes fatigued. She is "disgusted with herself" (218) for losing fidelity and for hating Port whose care "had awakened the sense of guilt, and it swept over her now in a great wave that made her dizzy and ill" (101).

Color changes of the room in Sbâ where Port dies can hint at Kit's sense of guilt. Initially, the room has white walls, arched ceiling and windows with "sheets to keep out the light" (250). It is described as an unchanging "shell of [...] existence" (250) because it is empty. However, with Port's death the room changes from white to pink and then to red. The three colors symbolically stand for purity, ambiguity and passion/sacrifice (Guerin et al. 185). In the room Port and Kit are left alone. The whiteness of the room reveals the timelessness and purity of their relationship. The death of Port turns the room into pink, the color of ambiguity. The final loss brings Kit to the initial loss in the Real and Imaginary registers and the color pink shows that Kit is confused about the ambiguity of her relationship with Port. The pinkness of the room turns into red when Kit places her lips on Port's brow. Thus, her lips/sexuality with Port leads to Kit's sacrifice and to her own destruction. Her lips in addition to the redness of the room can also reveal her sexual frustration and her guilt of making a relation with Tunner. The flies on Port's lips can serve as evidence of Kit's guilt because, as the yellow louse, they are accompanied with disgust. The "frantic love" (250) of the flies on the lips of Port's corpse can hint at Kit's guilt for making a relation with Tunner at the expense of Port's passivity. Flies find his lips as a place of love because he is dead/passive. If Kit's relation to Tunner is compared to that of the flies, then it is due to Port's passivity and coldness.

Kit's guilt is also evident in her message "CANNOT GET BACK" (320). Martino states that the message is superficially interpreted as a message for Tunner. However he suggests "that Kit is attempting to return to the [world's reality]" (23). She feels that she should do something in order not to lose the love of the other. Her message can be an apology message for Tunner, Belqassim and Port. Although she has lost the three of them, she still wants to erase her guilt of leaving them, especially Port, behind by telling them that she will not be back. Kit is unconsciously terrified by the fact that she has lost Port forever and her guilt burdens her to the degree of madness. Her message can be sent to her mind as an attempt to awaken herself to the fact that Port will never come back. However, by this she would be unable to efface her guilt because she has caused the loss.

After all Kit suffers a sense of guilt because she is aware that she has initiated her psychological development, thus she is the cause of the separation from her parent figure. She is aware that she is "incapable of rationalizing and freeing herself from this irrational, unjustified fear of omens" (Hernandez 266), at the same time she is aware of their effect on her life and development. Kit's fear of dreams separates her from Port at the beginning of the novel where she argues with him about

feeling is unconscious, it causes an unavoidable distress, which functions as a "response to the most original danger" (122): "the internal danger of the ego" (138). The separation in the Mirror Stage and the laws of the Symbolic threaten the ego, thus it initiates anxiety because of loss. The fear of loss of ego is accompanied with the "fear of loss of love" (Freud, 85) which makes a person avoid any action that goes against the rules of the Symbolic, even if they are pleasurable to his ego. In the novel studied, the heroine suffer anxiety due to the loss of her parent figure and her created sense of "self".

Sense of loss develops alongside with Kit's ego development. After she discovers that Port is an "other" the fear of losing him arises in her unconscious. The "fears she had been holding at bay for so many days" (189) are unleashed when Port gets sick in the bus. Kit now is aware that she is his reflection and that his loss will lead to her own destruction. She tries to hold back her fear of loss and to keep Port alive, emotionally and physically. She urges him to sleep addressing him by "darling" (189), a word not said by her for "at least a year" (189). At this moment she sees herself as a prisoner, "there's no escape now. I'm here" (189). She knows that she will lose him and will be left alone. The "other" she was once attached to, separates himself from her at the beginning of the novel. With his death the unity with him will be lost entirely and there will be no way to escape. Even though Kit wants "to become whatever he wanted her to become" (99), she is unable to get rid of the terror or "to shake off the dread that was always with her"(99). She is anxious about his inability "to break out of the cage into which he had shut himself Ü...ï to save himself from love" (99). This dread, which Kit suffers from, reveals her anxiety of not having Port anymore. The impossibility of their reunion brings her back to the initial loss of the Real stage. Kit states that she is afraid and protests: "It's impossible" (220) to change that fear/anxiety.

Kit's anxiety is not only a fear of loss of the other, but also a loss of the self she has created. She experiences a similar anxiety to that of a child who unconsciously is afraid of losing his "self" and the love of its mother, the reminder of wholeness and unity. Kit tries "to keep from thinking" (203) of the horror she awoke with and struggles with herself in order not to come "into contact with the idea" (203) that Port has meningitis. She is afraid of contamination with meningitis, which is characterized by inflammation of the tissues around the brain. The disease can serve as a metaphor that reflects the causes of Port's death. The metaphoric inflammation of the mind can be either going into the unconscious or going mad. Thus, Kit's anxiety shows that she is aware of Port's loss of self-consciousness and identity and of his detachment from the world. She believes that he is "gone inside himself to stay there, and he never would be conscious of her again" (248). Port's death/loss is due to his turn into unconsciousness. Kit's anxiety throughout the novel is due to her fear of taking in his infectious metaphoric disease: losing self-consciousness.

In addition to sense of loss, Kit suffers a confused sense of guilt towards Port. She is unconsciously aware that he is the initial cause of her pain. She is angry with him but at the same time does not want to lose him. She treats him as a lover and as an enemy at the same time. She thinks of him as if he is "identical with" (Menninger 149) the ones she hates. The awareness of the fact that she loves and hates him at the same time makes her feel terribly guilty. In more than one incident she is seen fully aware of her detachment from Port. For example when Port is sick he searches for her hand but she does not come closer to him to let him touch it, "At the same moment she became aware of her refusal, and the tears came into her eyes-tears of pity for Port. Still she did not move"

satisfied just as the pastry cakes in the dream are not consumed and are kept "intact on their paper-covered shelf" (242). They are seen and known, but they can never be reached or touched.

Another aspect of Kit's being a version of Port is that she attempts to go back to the Real order, which is symbolized by the desert. As "the debris had pinned him [Port] to the earth" (242), Kit is pinned to the desert. Their pain is a result of their existence in such a Symbolic world. It is the fight for existence, for the formation of the self, which has led to her destruction. The hole in Port's abdomen is the Imaginary hole in Kit's. The pain is due to physical and emotional emptiness due to the separation of the Real stage. An indication of this emptiness can be symbolized by the wells of mud in Port's dream, which hint at the sexuality of Kit. The wells hint at the emptiness of Kit's womb, and the mud hints at her guilt due to her encounter with the sexuality of the other/black.

The suffering of Kit ends in the sky, the symbol of the mind. The sky can hint at the unconscious because it shelters "Just darkness. Absolute night" (101). Kit believes that beyond the sky there is a meaningless chaos, which resembles the unconscious. Since the sky and the desert are reflections of each other, Kit's escape into the desert can be a way to reach the sky that shelters nothing. She aims to reach a nowhere. Only in the desert she will feel that she is in the sky. Instead of committing suicide she will imagine that she is in the sky taking repose. The sky shelters Port and Kit, but the moment they realize the merging of two things they will be absorbed by the sky. The mingling of blood and excrement in Port's dream can be interpreted as the merging of binary oppositions. When the opposition is dissolved the sky, which is the mind, will be lost. Repose is only taken by piercing "the fine fabric of the sky"(245). For Kit and Port relaxation is to go into their unconscious mind and to question the notion of the other.

The ego of the heroine, hence, is formed by the misrecognition of a self, which is of a male creation where Kit sees that her man is the ideal. Feeling so, she unconsciously suffer gender repression. She has questioned the self/other binary opposition, and by seeing that the self is built on a male background, she will attempt to question other oppositions as male/female and Real/Symbolic. This questioning will show her that the woman has been put as an equal to the inferior part of an opposition. Thus, she will try to dissolve binary oppositions, by mingling them. Such experience, in addition to the Mirror Stage confusion, leads to anxiety and the release of self-destructive instincts. She tries to escape through flight, starvation and madness in order to fully develop as child.

Anxiety and Sense of Guilt

The holes in the Real, Imaginary and Symbolic can cause anxiety, which is "a particular state of expecting the danger or preparing for it, even though it may be an unknown [or unconscious] one" (Freud, *Beyond* 11). According to Lacan, anxiety "is an effect" (*Anxiety* 11) and "is the cause of doubt" (68). It is not repressed, rather "what is repressed are the signifiers which moor it" (11) thus it is caused by unconscious repressions. And since it is a "signal of the real" (144), it can reveal the repressions of the three registers, including the separation from the object of desire. The entrance into the Imaginary realm, and the separation from the mother/Other initiates "an anxiety, a sense of loss" (Klages, par. 16) and "feelings of doubleness that consists of a sense that something strange coexists with what is most familiar inside ourselves" (Rivkin and Ryan 119). Although this

in his unconscious he becomes detached from consciousness. He becomes two selves; the whole Other and the distorted self. The unconscious is related to the person himself, it is a private part of the mind because "No one could ever get there [into the unconscious of the other]. It's too far" (224), so it is a private journey into a distant unknown place. Thus there, one would be "far away and all alone" (224). The journey into the mind, is a traumatic experience, for Port becomes "two things at once" (225). He feels split between two persons: the person lying on the floor in Sbâ, and the Other who is tortured in a nowhere. Similarly, Kit becomes two persons: the avatar of Port, and the Other Kit she dreams to be. She becomes the conscious Kit who is able to think of escape; and the Other Kit who acts unconsciously and insanely. Kit's two selves can be described through Port's two centers. The first "was everywhere" (231) while the second which is the "true one [...]" would be there in its place, unmoving" (232). Port "knew that the one which was only *there* was the true one, while the other was wrong" (232). Such a duality is "an existence of exile from the world" (232). One cannot tell one center from the other. Similarly, Kit has two identities; the self which is the true center, and the Other which is the wrong one. Like Port, Kit is unable to differentiate between the two. When she is a reflection of Port she is unable to remember her own self, just as Port can "remember being there" (225), but is unable to remember his real life when he is there.

Kit suffers Port's split into two beings, his detachment from place and time, and his self-destruction, which can be interpreted and summarized through the last scene of Port's hallucinations. Port sees a street leading up to a hill with travelers on both sidewalks looking in the shop windows. They have dark shadows. A huge automobile appears and a scream is heard from within the crowd. Port tries to escape seeking a doorway. He sees a pastry shop, "its windows full of cakes and meringues" (242). Suddenly, he notices a "metal pinning him to the stone" (242). He hears his "own ridiculous cry, and [... feels] his bowels pierced through"(242). As he loses consciousness, he finds "his face a few inches from a row of pastries, still intact on their paper-covered shelf" (242). Around him he can see a "row of mud wells" and his "bleeding entrails open to the sky" (242). With all this pain he imagines an enemy stepping into his open belly. He escapes to reach an endless black wall and a staircase. On its top someone throws on him a stone, heavy as "the entire world" (243). He tries to protect the hole in his abdomen while lying on the floor. The sky shelters him. His cry arises and its echo fills the desert. Finally, he sees spots of raw blood mingling with excrement. The moment they mingle, "A black star appears, a point of darkness in the night's sky's clarity. Point of darkness and gateway to repose. Reach out, pierce the fine fabric of the sheltering sky, take repose" (245).

The suffering of Kit throughout the novel is a reflection of Port's last dream. First, the car is the initial cause of her pain. Kit suffers initially because she does not accompany Port in the Lyles' car. She meets terrible people, and makes a relation with Tunner, on the train. In addition, when Port falls ill she goes to seek a car that would take them to Sbâ. Thus, all her suffering, including the going into the unconscious, takes place because of and in a means of transportation. Second, Kit ends up being a "pedestrian" in the desert as in Port's dream. Port is defined as a traveler at the beginning of the dream, and by the end he dies. Thus, being a traveler is accompanied by fright, anxiety and destruction. Similarly, Kit goes from a place to another, carrying her valise just as any traveler. She tries to escape but is to be destroyed by the end. Third, Port and Kit's needs are not

the Real realm. The Real is the stage of fullness and wholeness, where the child's needs are satisfied immediately. However, this same Real turns out to be gapped because it is built on a wrong belief that the child is a whole with the mother. Thus the Real is full and empty at the same time. What happens to the characters is that when they lose the notion of authority and narcissism in the Symbolic realm they go back to the Real. The loss will be doubled. The characters will seek emptiness and fullness in order to feel that they are still in the Real. As in Hamlet's case "what is rejected from the symbolic register reappears in the real" (Lacan 38).

Not only does Kit adopt Port's will to reach a center, but also his feelings towards her center, the desert. Throughout the journey into her dwelling place, Kit feels exactly like Port does. In the desert, Port feels that

The night went by slowly [...], watching the road was hypnotic rather than monotonous [...]. The idea that at each successive moment he was deeper into the Sahara than he had been the moment before, that he was leaving behind all familiar things, this constant consideration kept him in a state of pleasurable agitation. (109)

Port wants to forget everything that is familiar, including himself. Similarly, Kit feels content by going deeper into the desert, "she was content to be relaxed and to see the soft unvaried landscape going by" (282). Kit does achieve Port's nihilistic aim, because in the desert she asks herself "Am I dead?" (282). The fact that she feels dead hints at her forgetting of every past incident. Kit even forgets who she is. She "had no feeling of being anywhere, of being anyone" (315).

Kit also embraces Port's view of language in relation to the unconscious. "We can only know the unconscious through speech and language" (Homer 69), and when language fails to express, the unconscious becomes forever hidden. Port suffers due to his entry into the Symbolic world where the "unconscious comes into being [...] in the *gap* between signifier and signified, through the sliding of the signified beneath the signifier and the failure of meaning to be fixed" (Homer 69). Port tries to stick to the Real stage, to the stage of the mother where language is not needed. Kit in her turn, indirectly, tries to avoid reaching the Symbolic in which she will be tortured like Port. Thus, she escapes into the desert, and leaves language behind in order to refuse the presence of her unconscious, thus the Symbolic realm. Speaking, for Kit, would be reflected through Port's experience of the language. Speaking is "not satisfying; it seemed rather to hold back the natural development of the ideas" (231). Ideas seem to flow without knowing "whether they had been resolved in the right words" (231), words in their turn slip into the "head like the wind blowing into a room, and extinguished the frail flame of an idea forming there in the dark" (231). Port and Kit both attempt to return to the chaotic realm of the Real, and their failure, leads to their destruction. The endless chain of signifiers can be seen in Port's witnessing of "two different dimensions [... having] deliberately, spitefully, merged their identities, as if to say to him: "Try and tell which is which." (232). Signifiers only lead to more signifiers all interrelated and interdependent. This causes the characters to fall under confusion when they encounter the merging of two things, or the merging of their self with their imagined whole self.

Kit goes into her unconscious just as Port has done. When Port tries to discover what is found

Kit is unable to create a self by her own, thus she wants Port to form her "self". She will be his text, and he will be her "father, a progenitor, a procreator" (Gilbert and Gubar 6). Kit thinks that if she becomes as Port, he will be able to "find his way back to love" (99). Therefore, she becomes his reflection as a way to reunite with him.

Thus, Port becomes her creator and she is transformed to be the blind dancer Port has admired before. Port has imagined Kit to be in the place of a blind dancer, whose expressions and mind are "strangely detached" (141), all fixed "upon some object so remote that only she knew of its existence" (141). Port contemplates Kit as blind and is content to think that "without eyes to see beyond the bed, she would have been completely there, a prisoner. He thought of the little games he would have played with her, pretending to have disappeared when he was really still there" (145). Port succeeds in making Kit a picture of the blind prisoner because after his death Kit lives as his creation believing that all memories of him have disappeared, while in reality he is still at the back of her mind. Port makes of Kit a prisoner by making her a reflection of him, and of his thoughts and beliefs.

Before his death, Port indirectly summons Kit to be his reflection and to suffer exactly like him. He asks her, unconsciously, to go into her unconscious and to discover her true "self". He makes it clear that she should understand him: "You understand how awful it is? You've got to" (225). Kit herself is aware of all his suffering and it seems that she knows well what she should become after Port's death. Kit learns somehow that Port is getting into his own self, into his chaotic unconscious; "she shouted, even louder, trying to imagine how her voice sounded to him, whirling down his own dark halls toward chaos" (225). Even though she knows what is going on, she still insists on reaching Port, in being present in the well of his unconscious, later in being a picture of him.

Kit becomes the avatar of Port by adopting all his ideas and beliefs. One of Port's most prominent ideas in the novel is his view of humanity: One is "never humanity [... but only a] poor hopelessly isolated self" (94). Kit isolates herself completely after Port's death, by staying alone in the desert. In a later part of the novel, her isolation and hopelessness takes the form of madness where she isolates herself from the whole world. She also tries to form an identity that does not need justification. Her justification is the same as that of Port, "The fact that I breathe is my justification" (94). By the end of the novel her passport is lost, but she does not need it to prove her existence. She is "not going to carry a passport to existence around with [... her], to prove [... she has] the right to be here" (94).

Kit's journey into the Sahara is an attempt to achieve Port's wish to find a center and "to penetrate the interior of somewhere" (172) where time and landscape are unchangeable. Port strives to reach a place where his "existence of exile from the world" (232) can be achieved. The place he reaches in his dreams is similar to the desert, which Kit decides to dwell. In his hallucinations he feels that he is in a place where there is no "human face or figure, nor even an animal; there were no familiar objects along the way, there was no ground below, nor sky above, yet the space was full of things" (232). Like this place, the desert is empty of everything; still it is full of sand and sky. In the desert, one can see no human face or animal. The desert is empty and full as the center Port has been striving in. The sky and the sand in the desert form an endless space of emptiness. Thus, one would feel that there is "no ground below, nor sky above" (232). The desert can be a symbol of

father, a killer, and a winner in the battle between her and him. She thus, hates and loves him at the same time and is aware that he will never understand that he is a father for her.

Kit in the Real Stage

The relationship between Kit and her father figure reveals that she is still in the Real order; a realm however, that is not exactly similar to the child's Real because in the child's case it "precedes language" and "enters discourse as a sign" (Homer 82). There are two major indicators, which reveal that she is still in the Real phase: She does not have a sense of self, and she believes that she forms a unified whole with her parent-figure.

The absence of the notion of a self, or an ego, shows that Kit is in the Real stage. Her name and her physical appearance are not mentioned immediately at the beginning of the novel. Her name is only mentioned after the occurrence of the main incident that will lead to her self-discovery. Kit is first addressed as the "girl" (7) and her name is mentioned after the occurrence of two small incidents that will initiate her psychological development. Kit is seen "recognizing the gesture, [she has made] but not understanding why she was making it" (7) and her husband's paying no attention to it. Then she "hastens to agree" (8) with his hatred to postwar situations and she regrets annoying him by showing her hatred for maps, which he uses all the time. This may be an indication that her attachment to her husband will be lost or questioned and that she will separate from him.

In addition to her name, Kit believes that she and the other together form her own destiny. She says in her mind that her life is controlled and ruled by other people. She accepts their interference because "they have magical importance regarding her own destiny" (39). On personal and emotional levels, she believes that she is a part of her husband, "she still belonged to Port, even though he did not come to claim her" (40). Thus, she does not see him as an "other" and herself as a "self"; rather, they are one whole. At an early stage of the novel, Port tells a dream to Tunner and Kit feels annoyed. First she claims that dreams are dull, then she bursts into tears when Port finishes speaking. Unconsciously her disappointment is a result of her belief that she and Port form a unified whole. When Port tells the dream, he reveals what is in her unconscious of repressions and fears. It is worthy to mention that the dream can be interpreted in terms of childhood. The dream shows Port willing to "smell the spring the way it used to smell when [... he] was a kid" (10) and suddenly snapping his incisors while a train stops in front of him. The wish to be a child again, the taking off of teeth and the stopping of the train all can hint at the wish to go back into the Real and to re-unify with the mother or with the subject of loss; the Other. The train, which has been previously interpreted as a hint of Kit's sad childhood and her traumatic marriage to Port, has a similar meaning in this dream. Kit's annoyance at the telling of the dream makes her burst into tears. Port's dream reflects her own repressions. Thus, she and Port can be seen to form a whole of shared emotions, fears and repressions.

Mirror Stage Confusion: Kit as Port's Avatar

The heroine of *The Sheltering Sky* is willing "to become whatever [... Port] wanted her to become" (99); she unconsciously wants to be the creation of Port and the daughter of his thoughts. She labels him as an author by telling the natives "Monsieur is a writer, but he is modest" (206). The reason of her claim is derived from her unconscious need to be defined, "created by, from, and for" (Gilbert and Gubar 12) Port and to be the child of his brain, rib and ingenuity (12).

The terrible male figures Kit encounters on the train may reveal her traumatic childhood and the need to have a father. First, Kit sees "a man with a white beard, who stared at her sternly. Under his gaze she felt like a badly behaved child" (81). This man is an archetype of the wise old man, who is clever and moral, and usually gives the protagonist a solution for his/her spiritual suffering (Guerin et al. 188). He is the wise religious man leading the sinners into redemption. He is responsible for punishing the sinners and putting them under the gaze of shame. He unconsciously makes Kit feel that she is a sinful child. For her even the act of breathing scandalizes her "almost as much as if she were suddenly to remove all her clothing" (Bowles 81). As a child, Kit's punishment may be to lean on a windowless wall. There she would be ashamed, and would try to cleanse her sin, or at least hide it. On the train, Kit "worked her way to one side of the windowless wall and leaned against it while she took out a small bottle of perfume [...] hoping it would counteract, or at least blend with, whatever alcoholic odor there might be about her" (81). On that wall, a yellow louse crawls on Kit's neck, which may symbolize her feeling towards herself as a dirty sinner.

The second man Kit encounters is "holding a severed sheep's head" (81) against which her skirt is rubbed. He is the vigorous fearless man, representing "the fire of her nature" (Gilbert and Gubar 366). He keeps holding a wounded innocent sheep for no reason; symbolizing the innocence of Kit's childhood and the severe punishments she may have received. Maybe she was seen a mad or rebellious girl who needs punishment. The rain sweeping against the car during the presence of this man hints at the attempt to cleanse her sin.

The last man Kit meets has "the most hideous human face she had ever seen" (Bowles 82). He can stand for a man who saved Kit when she was a child; since with him, the rain stopped and she is cleansed. The hideous man may be the one who killed the sheep of the second man. Thus, he also causes Kit the pain of regret. The man stays in front of her until the train stops and disappears without her noticing. Later, "she remembered that he had stepped aside like any normal man, to let her pass. She began to laugh to herself, quietly" (Bowles 83). This hysterical attitude and her great fright of him hints at the man as one who shared with her punishment.

The three men Kit encounters on the train can refer aggregately to the same person, Port. As a father figure, Port sees her as a "badly behaved child" (80). He punishes her as the man with the injured sheep. Then, his face becomes terrifying. It resembles the lion because he is able to win over Kit. He stays in front of her till the stopping of rain. The stoppage of rain is not necessarily a symbol of being cleansed but a symbol of aridity and death: This terrible man will accompany her till death. The old man is the first impression we take of Port. He is the father, the leader, and the creator of Kit's life. Being with him is an act of incest for her. Living with him normally as a wife would scandalize everyone because he is a father for her. The second man is a "wild-faced man holding a severed sheep's head, its eyes like agate marbles staring from their sockets" (82). For her, Port has killed her by making a relation to her. Her innocence is symbolized by the sheep's eyes and her sacrifice is symbolized by blood. The skirt smudged with blood is a further implication of sexual complexes Kit suffers from. Port is portrayed later as a man with a "hideous human face" (82). The view of him as a lion hints at the previous scene of the bloody sheep, which is possibly killed by him. Although Kit is terrorized by this man, she laughs hysterically when she remembers that he passed by as any other human. Kit's attitude shows that she unconsciously sees Port as a

The Symbolic is "the realm of language" (Green and LeBihan 165) and it is where the child recognizes that it is completely separate from the other. The child enters civilization by entering to the Symbolic, the realm of language and rules. The child not only learns laws and language, but also becomes aware of binary oppositions and categorization.

The three mental registers should always be in balance, and any hole in one or more of them would lead to mental or psychological disturbances. Anxiety is one of the problems that may occur in any individual due to a sense of loss of the initial unity with the mother. Anxiety is not only due to loss, but also to the trauma of the Real which "gives us only the realization that the reality hidden beneath the ideologies society [Law of the Father] has created is a reality beyond our capacity to know and explain, and therefore certainly beyond our capacity to control" (Tyson 32). This trauma can be interpreted as the inability to explain or understand patriarchal ideologies that assign and impose binary oppositions on humanity.

The heroine of *The Sheltering Sky* can be compared to a child with her husband as her parent figure. The novel begins while Kit is still in the Real realm of completeness: unable to recognize the other, and perceive herself to form a whole with Port. She is unaware of the binary opposition self/other. When she looks in the mirror she sees her partner/patriarch and becomes his reflection. This Mirror Stage confusion, along with the loss of the patriarch/father figure, postpones her entrance into the Symbolic realm. Kit suffers anxiety due to loss, along with a conscious and unconscious sense of guilt, believing that she has caused the separation from her husband/parent figure. Her guilt, nevertheless, enables her to realize that she has been suffering because of patriarchal dominance. Kit resolves to escape patriarchy at the end through self-destructive ways: flight, starvation and finally madness. She chooses to dwell in the desert, which is a metaphor of her Symbolic realm: without a center, without oppositions, thus without patriarchal dominance.

Port as Kit's Parent Figure

According to Martino's explanation, the relation between Port and Kit is "based upon a psychological need similar to the parent-child relationship" (19). Indeed Kit's "self" is created by the Other. However, this creation turns out to be miserable since Kit confuses her own self with the ideal father figure. She faces Mirror Stage confusion and becomes a reflection or an avatar of her creator; Port. There are several indicators, which show Port as Kit's father figure; one of these is her journey by the train and the people she sees there.

The train in *The Sheltering Sky* can hint at Kit's suffering during her childhood and her need to have a parent figure to care about her. Kit suffers phobic symptoms towards cars and trains considering them "two tortures"(58). Her unexplainable fear may be due to a past memory of a traumatic incident that either occurred on or is symbolized by the train. The train is a savage who shrieked at her and took her to a foreign place where she was tortured psychologically. Kit knew no one outside her familiar family and the world for her is ambiguous and dark because she is unable to look through the windows which were "coated with dust and fingermarks" (80). As a child, it seems that Kit was not allowed to go outside her familiar environment. However, it may be an interpretation that she lived in a family with broken ties; because the train with all those inside it are terrifying for her. Her feeling that she will "be hysterical" (79) may hint at her hysterical screams during childhood which left the members of the family "helpless"(79). As a child, her needs had not been satisfied.

Mirror Stage Confusion and Female Self-destruction in Paul Bowles's *The Sheltering Sky*

noura jazzar

Introduction

Paul Bowles's post-colonial novel, *The Sheltering Sky*, deals with psychological issues including escapism, self-destruction and madness. It is an international best-seller (Dillon 3) and was included in the Time's list of All-Time 100 Novels (Grossman). Indeed, it is a masterpiece of Bowles, an "international legend" (Dillon 2), whose place in the American canon is stressed with the putting of his books in The Library of America. *The Sheltering Sky* is "a visionary work [... that portrays] the contemporary world, harsh, hostile, and unforgiving" (Dillon 49). It is one of Bowles's novels that reflect his personal experiences and insights, and the Arab/Islamic culture in which he was immersed (Hibbard, par. 21). The novel's relation with his life and experiences is mostly referred to in Dillon's book, in which she relates the death of Port to one of Bowles's childhood experiences and reveals the fact that he has taken drugs to write the death scene, leaving it to his subconscious (Dillon 47). Dillon demonstrates Bowles's narration of the difficulties he faced during the writing of the novel, and states that Bowles's wife "would keep saying to Paul that he had prophesied her terrible end in Kit's end" (48). The mentioning of such details, reveal the fact that Jane (Bowles's wife)/Kit was dominated by Paul/Port, thus, drawing our attention to the psychoanalytic analysis of the female protagonist.

In order to better understand this paper, it is worthy to mention Jacques Lacan's theory of the child development. For him, language/unconscious is an endless chain of signifiers, thus one would need an anchor on which to build his life upon. The sliding chain of signifiers is anchored by the development into a self (Homer 54), which is achieved by going through the three registers: Real, Imaginary and Symbolic. Thus, it is only through passing in those stages that the child enters civilization. This happens on three levels.

Initially, the child "has no awareness of the physical boundaries of its body" (Green and LeBihan 164). It does not recognize itself as a separate entity but perceives itself as "an inseparable part" (Tyson 27) of the mother. In this stage, the Real, it does not need language because its needs are satisfied. The child then starts to see that its mother is an other and it experiences "an anxiety, a sense of loss" (Klages, par. 16) due to the awareness of the separation from the mother. The child starts to have demands, which may not be satisfied. The realization of the separation from the mother indicates the child's entrance into the Imaginary realm, where it goes through the Mirror Stage in which it will see itself in the mirror for the first time. The child compares its reflection to the mother and expects to be as the mother, a whole entity. However, it will not be able to perceive itself as "a complete or whole being" (Homer 25), hence it confuses itself with the image in the mirror (25). The child lives on the misrecognition of a self for a period of time. However, the father "breaks the mother/child couple and introduces the child into the symbolic order" (Homer 51).

Covey, S.R. (1989) The 7 Habits of Highly Effective People. Simon & Schuster, New York: Fireside Book.

Goleman, D., Boyantzis, R., R & Mckee, A. (2002). Primal leadership: Realizing the power of EI. Boston, MA: Harvard Business School Press.

Greenleaf, R. K (1998). The power of servant leadership. Berkley, CA: Berret-Kochler Publishers.

Greenleaf, R. K (1996). The servant as leader. On becoming a servant leader. San Francisco: Jossey-Bass, Inc.

Greenleaf, R. K (1991). The servant as leader. Westfield, IN: The Robert K. Greenleaf Center.

ders are future oriented, looking forward in a visionary manner to predict what could, and should be. These leaders recognize that they serve as a team with other leaders throughout the organization who also are looking toward the future. They encourage accountability to communal goals for themselves and for others.

Inclusive environment

Servant leaders create an inclusive environment by recruiting people of diverse populations, through students, faculty, and staff. Leaders believe that increased diversity within organization will lead to increased creativity of output. This authentic environment encourages people to share a variety of cultural perspectives openly for the good of the whole. Therefore, an inclusive environment plays a critical role in a servant leaders ability to reach institutional goals.

Summary

In review, servant leadership is a critical philosophy for this new direction in community college leadership. This open and inclusive philosophy is imperative in the 21st century because it does three main things; empowers people, protects individual rights and protects cultural rights to promote quality of output and to maximize potential growth of participants. Therefore, this style of leadership has the most value-added potential to benefit both the institution and the community it serves.

References

- Reenleaf, R. K. (1998). The power of servant leadership. Berkeley, CA: Berrett-Kochler Publishers.
- Greenleaf, R. K. (1991). The servant as leader. Westfield, IN: The Robert K. Greenleaf Center.
- Greenleaf, R. K. (1996). On becoming a servant leader. San Francisco: Jossey-Bass, Inc
- reenleaf, R. K. (1998). The power of servant leadership. Berkeley, CA: Berrett-Kochler Publishers.
- Greenleaf, R. K. (1991). The servant as leader. Westfield, IN: The Robert K. Greenleaf Center.
- Greenleaf, R. K. (1996). On becoming a servant leader. San Francisco: Jossey-Bass, Inc
- reenleaf, R. K. (1998). The power of servant leadership. Berkeley, CA: Berrett-Kochler Publishers.
- Greenleaf, R. K. (1991). The servant as leader. Westfield, IN: The Robert K. Greenleaf Center.
- Greenleaf, R. K. (1996). On becoming a servant leader. San Francisco: Jossey-Bass, Inc
- Bennis, W. (1994) On Becoming A Leader. New York: Addison Wesley.
- Church, A.H., Waclawski, J (1999) Influence Behaviors and Managerial Effectiveness in Lateral Relations. Human Resource Development Quarterly, 10 (1), Jossey-Bass Publishers.

judgmentally. In other words, they listen with a true desire to learn and to understand. Listening is essential because it is known to be one of the best ways to show people are valued. Good Leaders see it as their responsibility to help others grow toward full aptitude as both servants and leaders. Growth toward this end is accomplished by creating a dynamic learning environment that encourages growth and development. These types of leaders perceive the mistakes of others as opportunities to learn. Successful servant leaders foresee and accept the responsibility of helping people realize this otherwise hidden potential. These leaders help people to develop by working with them in a collaborative environment, so participants can learn from their example. Leaders seek to catch others doing “it” right. Leaders recognize accomplishments and celebrate creativity, speaking words of encouragement and intentionally affirming their charges.

Share leadership

Servant leaders do have power and must continually make choices as to how that power will be used. One choice related to the use of this power is to share it. By sharing the power, they have with others, each is empowered to lead in his/her individual area, thus increasing the potential influence and impact of the total organization. To share this power, servant leaders must have a clear vision of the future, and this vision must be shared by the entire group. This shared vision becomes a powerful benefit, encouraging equitable distribution of resources, skills and abilities in a manner than benefits the entire team. Servant leaders see power as the ability to do, act, make important decisions, allocate resources, move people and projects forward and to make things happen. Shared leadership empowers all people to act, for the good of the group and the mission of the organization.

Protecting Cultural Rights

Servant leaders seek to create a safe environment for the development and inclusion of a variety of cultures. They provide this through building community, utilizing a shared leadership model, and creating an authentically inclusive environment.

Build Community

In healthy organizations, leaders encourage people to work together. They desire to build a community exemplified by a sense that all are part of a collaborative, caring team with a compelling shared vision to accomplish a shared goal. Leaders know that people will be more impacted by the quality of relationships than they will be by the accomplishment of tasks. Therefore, they intentionally work to build a community that works together and learns to serve one another in the process. Good leaders work alongside the team to model a dynamic partnership of collaborative work. They value differences, respecting and celebrating various facets of ethnicity, gender, age and culture. They are aware of their own biases and their own privileges.

Provide leadership

Servant leadership is good for those being led. This form of leadership is exemplified through initiative, influence and impact. Leaders are willing to make decisions for the good of the whole and do not neglect to take appropriate action. This initiative-taking comes not from being driven to personal ambition, but by being called to serve the highest needs of others. Exemplary servant lea-

Servant Leadership is an understanding and practice of leadership that places the good of those led over the self-interest of the leader. Servant leadership promotes valuing and development of people, building of community and practice of authenticity. It also encourages providing leadership for the good of those led and the sharing of power and status for the common good of all individuals, the total organization and those served by the organization.

The Healthy Organization is an organization in which the characteristics of servant leadership are displayed through the organizational culture, and are valued and practiced by the

leadership and workforce. This exemplifies a healthy, servant organization. Servant leaders put the needs of others first and through that, gain incredible strength and power within the organization. Creating a healthy organization includes protecting individual and cultural rights.

Protecting Individuals' Rights

Servant leaders work on making everyone around them grow as persons, and become healthier. To do this it is necessary to first ensure the protection of individual rights. These empowering leaders develop people, share leadership, and value others as part of their core operating philosophy. This philosophy would not come to fruition if individual rights were not initially guaranteed.

Develop people

Servant leadership is about empowering people. Their intention is to show other people how "big" the individual participants can be. They teach people how huge their own potential is and how great they can become, by being an example and demonstrating servant-hood in their own lives. This opportunity for individual growth is amplified due to their ability to empower people to express their needs in a traditionally closed environment.

Servant leaders see it as their responsibility to help others grow toward full potential as both servants and leaders in their own environments. They seek to create a dynamic learning environment that encourages growth and development. For example, an instructor not only teaches but serves and leads his/her students. Leaders believe that people have both present value and future potential. Servant leaders accept the responsibility of helping people realize that capacity.

Not only do these leaders encourage individual development, they also provide a safe atmosphere where mistakes can lead to new insights. These leaders join staff in learning and are never satisfied with the status quo. Leaders don't just tell others what to do, they model it for them and do it with them. They help people to develop by working alongside them so that can learn by example.

Value people

Good leaders tend to value diversity. People are to be valued and developed, not used, for the purposes of the leader or the institution. These exemplary leaders accept the fact that people have present value not just future potential. People seem to have an innate ability to know whether they are being valued, or they are trusted. Effective leaders accept a person's value up front. They give them the gift of trust without requiring that they earn it first. Servant leaders tend to put ones whom they lead before themselves. They focus on individual needs and how to best meet those needs. These leaders tend to trust and believe that others can do the job and have positive intentions. They work to foresee the potential of people, while looking beyond the immediate externals to find the true value others. This is encouraged through listening to others and trying to hear non-

RUNNING HEAD: Servant Leadership Servant Leadership Philosophy

Yousra Mazeh

Servant Leadership Philosophy

Even though we are living in the twenty first century, educators are still using traditional techniques, rooted in old models and beliefs. For example, hierarchical, or top down leadership, is a model that has been adopted from the industrial age when managers directed and workers followed directions.

Seeing the benefit of this system of leadership and yet opposing the traditional manner of implementation, I believe in adapting a hierarchical servant leadership style in any organization settings. The idea of adapting this type of leadership model stems from a desire to participate in a productive and yet collaborative system. This model, known as a servant leader model, occurs when a leader models the desired outcome by serving others instead of leading them by force using the power of his/her position. The central definition of servant-leadership, as defined by Greenleaf in *The Servant as Leader*, is, as follows: "It begins with the natural feeling that one wants to serve, to serve first. Then conscious choice brings one to aspire to lead. The difference manifests itself in the care taken by the servant first to make sure that other people's highest priority needs are being served." (Greenleaf, 1991)

Through this paper I will discuss the meaning of the servant leadership model and its characteristics such as: role modeling, collaboration and visioning. I will also discuss how this model protects individuals' rights such as opportunities for; growth and improvement, team work, and shared decision making. In addition to individual rights I will share how it protects cultural rights by providing a safe environment, insuring voices are heard, and promoting quality of output. Finally, I will share my beliefs about the importance of servant leadership and why I chose this model for implementation in the community college environment.

I believe in creating a servant leadership hierarchal design because I think individuals feel secure when they have a leader who mentors with not just words but by example. This leader must have the qualifications and the ability to create a safe environment for everyone.

The Meaning of Servant-Leadership

Servant leadership is not looking for blind obedience. It is a practical philosophy that is adopted by people who want to serve others, a style that benefits both individuals and institutions. This type of leadership encourages collaboration, trust, effective listening, foresight, and the ethical use of power. It is for People who, on their own initiative, want to be doing what they are doing to benefit everyone around them. I have always believed that the best leader is the best server. It is not about controlling, it is as Ghandi would say, about having the courage to become the change they wish to see in the world.

5. Factors Influencing Job Satisfaction and Anticipated Turnover among Nurses in Sidama Zone Public Health Facilities, South Ethiopia [Internet]. [cited 2018 Jan 17]. Available from: <https://www.hindawi.com/journals/nrp/2014/909768/>
6. MODELING JOB PERFORMANCE IN A POPULATION OF JOBS - CAMPBELL - 1990 - Personnel Psychology - Wiley Online Library [Internet]. [cited 2018 Jan 29]. Available from: <http://onlinelibrary.wiley.com/doi/10.1111/j.1744-6570.1990.tb01561.x/abstract>
7. Aziri B. Job Satisfaction: A Literature Review. 2011.
8. Classics in the History of Psychology -- A. H. Maslow (1943) A Theory of Human Motivation [Internet]. [cited 2018 Jan 17]. Available from: <http://psychclassics.yorku.ca/Maslow/motivation.htm>
9. Ali R, Ahmed MS. The Impact Of Reward And Recognition Programs On Employee's Motivation And Satisfaction: An Empirical Study.
10. Katou AA. Measuring the impact of HRM on organizational performance. *J Ind Eng Manag.* 2008 Dec 23;1(2):119-42.
11. Sargent T, Hannum E. Keeping Teachers Happy: Job Satisfaction among Primary School Teachers in Rural Northwest China. *Gansu Surv Child Fam Pap* [Internet]. 2005 May 1; Available from: https://repository.upenn.edu/gansu_papers/1
12. Fisher RJ, Ackerman D. The Effects of Recognition and Group Need on Volunteerism: A Social Norm Perspective. *J Consum Res.* 1998;25(3):262-75.
13. Prendergast C. Uncertainty and Incentives. *J Labor Econ.* 2002 Apr 1;20(S2):S115-37.
14. Herzberg F, Mausner B, Snyderman BB. The motivation to work. New York: John Wiley & Sons; 1959.
15. Ingersoll RM. Teacher Turnover and Teacher Shortages: An Organizational Analysis. *Am Educ Res J.* 2001 Jan 1;38(3):499-534.
16. Fagbamiye, E.O. Condition of services, teachers job satisfaction qualification and students' academic performance of Nigeria universities in Fagbamiye E.O. & Durosaro, D.O. Education and National productivity. 2000;
17. Durosaro, D.O. Motivation: concepts and issues in durosaro O.D & ogunsaju.S. (eds). The craft of educational management Ilorin: Haytees. 2000;
18. Ogundele, M.O. Teachers' morale: A veritable tool for effective realization of U.B.E objectives in Nigeria. Informants. 2002;
19. Ogundele, M.O. Funding teachers job satisfaction and students academic performance of private secondary schools in Kwara State. Unpublished PhD thesis, University of Ilorin, Ilorin. 2008;
20. B.A I. Relationship among teachers variables, job satisfaction and job performance of Kogi State Secondary School. Unpublished PhD thesis University of Ibadan Ilorin. 1999;
21. Martin AJ, Dowson M. Interpersonal Relationships, Motivation, Engagement, and Achievement: Yields for Theory, Current Issues, and Educational Practice. *Rev Educ Res.* 2009;79(1):327-65.
22. Frase LE. Effects of Teacher Rewards on Recognition and Job Enrichment. *J Educ Res.* 1989 Sep 1;83(1):52-7.

Discussion and Conclusion:

Limitations of the study

- a. This study was conducted on few private educational schools in Lebanon. The sampling frame was limited to private educational institutions. Therefore, the results can not be generalized to the entire Lebanese educational institutions.
- b. Convenience sampling method was used. This has inherent disadvantage of representativeness.
- c. The method used was questionnaire. The study could have been supported with focus group discussion, panel discussion, and interviews to come with more accurate findings.

Recommendations for future studies

- a. Same study may be conducted on the public educational institutions in Lebanon.
- b. Comparative studies may be held for private and public institutions.
- c. Longitudinal data may be endeavored to know any change with the passage of time.
- d. The ministry of education must make it a deliberate task to improve the status of teachers by having a critical look at the main issues encountering teachers.

The goal of the study was to examine the impact of the independent variables of reward and recognition, supervision and the work itself on the dependent variable of job satisfaction of teachers in Lebanese private schools. In addition to that, the study aimed to examine the influence of job satisfaction on the teachers' intrinsic motivation. The results showed that the highest correlation was between supervision and job satisfaction. Reward and recognition showed high significance as well. As for the third variable, work itself, the teachers were not found satisfied with the work itself in comparison to reward and recognition and supervision. Based on the data analyzed and the results, the study revealed that the job satisfaction and the intrinsic motivation of teachers are influenced by specific instructional variables. The stronger the education system is, the stronger the human resource management will be. The study established that for effective teachers' job performance and motivation, the teachers' needs should be adequately met to attain the educational goals of the institution.

1. Work Motivation and Performance: A Social Identity Perspective - Van Knippenberg - 2000 - Applied Psychology - Wiley Online Library [Internet]. [cited 2018 Jan 17]. Available from: <http://onlinelibrary.wiley.com/doi/10.1111/1464-0597.00020/full>
2. Dessler G. Human Resource Management. 12 edition. Boston: Prentice Hall; 2010. 784 p.
3. Zheng WeiBo, Sharan Kaur and Tao Zhi. A critical review of employee turnover model (1938- 2009) and development in perspective of performance [Internet]. <http://www.academicjournals.org/AJBM>. 2010 [cited 2018 Jan 21]. Available from: https://www.google.com.lb/url?sa=t&rct=j&q=&esrc=s&source=web&cd=1&cad=rja&uact=8&ved=0ahUKEwjW8OrSoOnYAhXkDMAKHXD9A6sQFggnMAA&url=http%3A%2F%2Fwww.academicjournals.org%2Farticle%2Farticle1380553719_Zheng%2520et%2520al.pdf&usg=AOvVaw0ryCiPtfCJ3ayXdS7FIonk
4. PsycNET Record Display - PsycNET [Internet]. [cited 2018 Jan 17]. Available from: <http://psycnet.apa.org/record/1964-09377-001>

Results and discussion

In the Likert scale, the values 1, 2, 3, 4, and 5 are taken as 'Strongly disagree', 'Disagree', 'Neutral', 'Agree', and 'Strongly agree' respectively. The value 3 is neutral. This means that the mean score of value 3 indicates no effect of variable. The mean score more than 3 means a positive effect of the variable. But the mean score less than 3 means a negative effect of the variable.

Reliability test

As primary data in the survey, the reliabilities of work motivation and job satisfaction of teachers are tested with twelve scale items each separately. The variables and their values of Cronbach's alpha are given in Table 1.

Table One:

Variables	Cronbach's Alpha (α)
Work Motivation	0.805
Job Satisfaction	0.833

According to George and Mallery (2009), the Cronbach's alpha value of work motivation and job satisfaction are 0.805 and 0.833 respectively. The result shows that the reliabilities of these variables are good.

Teachers' work motivation

The descriptive analysis of teachers' work motivation factors. It revealed the significance of work motivation factors on teachers' perception. Among the 12 work motivation factors, p-values of all factors except "Job security condition" is 0.000 (i.e., $0.000 < 0.01$) which are significant at 1 percent level of significance. The mean score of "Job is life and not to fail" is 4.339 (i.e., $4.339 > 3$) which is the highest and ranked first. This means that the teachers are highly motivated with job life and do not want to fail. The mean score of "Make a lot of money" is 2.036 (i.e., $2.036 < 3$) which is the lowest and ranked last. It indicates that the teachers are de-motivated with that factor. The mean score of "Job security condition" and "Pay scale and fringe benefits" are 3.125 and 2.866 respectively which are not significant. This means that these factors do not affect the teachers' work motivation.

Teachers' job satisfaction

The descriptive analysis of teachers' job satisfaction factors reveals the significance of job satisfaction factors on teachers' perception. Since, p-values of all job satisfaction factors are less than 0.05, the mean scores of all factors are significant at 5 percent level of significance. The mean score of "Positive attitude" is 4.080 ($4.080 > 3$) which is the highest and ranked first. This means that the teachers are highly satisfied with that factor. The mean score of "Receive pay scale" is 2.634 (i.e., $2.634 < 3$) which is the lowest and ranked last. It indicates that the teachers are dissatisfied with that factor.

Work motivation and job satisfaction of teachers

The mean score of work motivation and job satisfaction of teachers are 3.564 (i.e., $3.564 > 3$) and 3.595 (i.e., $3.595 > 3$) respectively. The p-values of them are 0.000 (i.e. $0.000 < 0.01$) each which are significant at 1 percent level of significance. This means that teachers are motivated with their work and also satisfied with their job.

- To investigate the relationship between independent variables (reward and recognition, satisfaction with supervision) with dependent variables (job satisfaction) and further assess the impact of job satisfaction on individual outcome and motivation.
- To recognize the degree of association between independent variables and the dependent variables.

Subjects of the Study

Population;

The population of the study targets instructors teaching in both public and private educational institutions in the Lebanese country. Educational institutions divide the employees into two categories: (1) teaching staff (2) non-teaching. Only the teaching staff was considered as the population of this study.

Sample;

For this study, non-probability convenience sampling technique was used to record the responses. Total 300 responses were intended to obtain based on a previous studies that enrolled around 287 patients. Employees, who could be easily and randomly approached, were targeted as subjects of the study.

Procedure

The study intended to collect data from teaching staff in different Lebanese private and public educational institutions through questionnaire survey. In total 500 questionnaires were distributed to target respondents to collect back around 300. However initially the response rate was low either the instructors were not informed about the objectives of the study or questionnaires were not quite encouraging, therefore respondents were personally approached through face to face interview with the principal investigator and briefed about the purpose and the significance of the study. This adequately increased the response rate and in total 294 questionnaires was collected back. Among them 287 met the inclusion criteria and were enrolled in the study. Ultimately 287 questionnaires (75.73% of distributed questionnaires) were analyzed using SPSS 23.0.

Instrument/Measure

Job Satisfaction

Job Satisfaction was evaluated through five items taken from previous studies Camp (1993) and Miller & Medalia (1955). The responses ranged from 1 (strongly disagree) to 5 (strongly agree) that question the individuals about their overall assessment of their job. Items included “If I have a chance, I will not change to some other job at the same rate of pay at this facility.”

Intrinsic Motivation

This was evaluated by five items using descriptive adjectives which are normally used to evaluate intrinsic work motivation for example Cameron & Pierce (1994) five-item scale. The responses ranged from 1 (strongly disagree) to 5 (strongly agree). Example items include My job is so interesting that it is a motivation in itself and The tasks that I do at work are enjoyable”.

Reward and Recognition

This was measured using the Allen and Meyer (1990) five- item scale. The responses ranged from 1 (strongly disagree) to 5 (strongly agree). Items included “The procedures and criteria of the pay plan are fair for all employees in my Institution”.

son, 2009) (21). When the wanted psychological needs are provided to the teachers, work motivation and work satisfaction are achieved (Frase, LE(1998) (22).

Discussion of the findings:

The aim of the study was to examine the impact of recognition, gratification with supervisors and work itself on job satisfaction of teachers in Lebanese private schools and that of job satisfaction on the innate motivation of the teachers. The findings of the study agree with the hypothesis. Recognition, gratification with supervisors, and work itself have influential positive results on job satisfaction, which in its turn has positive effect on the teacher's intrinsic motivation.

Descriptive analysis of the results showed that every independent variable is influential. The teachers working in the Lebanese private schools feel that the work itself gives them the opportunity to explore their ultimate abilities. The recognition factor is externally challenging and externally equitable. Furthermore, the gratification with supervisors fosters the teacher's feelings of satisfaction, dissatisfaction in their working places.

The descriptive analysis of our study showed that the highest correlative is observed between gratification with supervisors and job satisfaction claiming that where supervisors treat their subordinates well and take care of them well, the job satisfaction of teachers will be enhanced. The finding of our result go with those of Prendergast(2002) (13). Once the supervisors try to promote the teacher's professional development and provide a professional learning community, they will influence their subordinate's attitude in a way that they start to enjoy their time and work hard to achieve the ultimate goals of the academic institution they are working for. Our study shows similar results with those of Pierwart. Moreover, our results revealed the high association between reward and recognition and job satisfaction of teachers. If the recognition and reward policies were adopted by the academic institution, then teachers would be more loyal. Our finding, go in agreement with Katou(2008) (10) and Ali and Ahmad (2009) (9). Our study reflected that, reward and recognition of teachers could influence them intrinsically and extrinsically. The teachers would be more motivated to perform their jobs better. The results of our study agree with the findings of Sargent and Hannum (2005) (11).

As for the work, itself factor, it was found that highly related to job satisfaction as well. Once the teacher's needs are fulfilled, they will be more satisfied and motivated. The results of our study are similar to the Herzberg et al, (1959,1971) (14); Schdoderbeket et al, and Ingersoll (2003) (15) who claim that working conditions and environment are the pillars to determine the effectiveness of the quality of teaching.

In addition, the study has shown us the independence of the dependent variable of the intrinsic motivation on job satisfaction among the teachers in Lebanese's private schools. The results of our study have clearly shown that when the teachers are satisfied with the variables of recognition, supervisors, and work itself, they are intrinsically motivated to carry out the tasks of their teaching careers. Our findings are similar to those of Luthans (1998) and Sargent and Hunnum (2005) (11)

Research Methodology

Objectives / Aims of the research study:

It was an attempt to identify the job satisfaction and motivation of teaching staff of Lebanese private and public institutions. The main objectives were;

work more productively and efficiently in order to enhance their professional development Purwanto. Hence, supervision comes from external factors to influence the performance of the teachers. The research has shown, however, that supervisors are not always just and fair with their subordinates, and there are proofs that they impose their personal opinion regarding the teachers' rewards and punishments (Prendergart, 2002) (13). Thus, the personal character traits of the supervisors influence the working environment of the school (Sargent and Hannum, 2005)(11).

2.3 Work itself

The Two factor Theory of Herzberg et al (1959) (14) claims that the employees satisfaction highly depends on their needs' fulfillment. Herzberg et al (1959) (14) conducted many studies to know the factors that contribute to both satisfaction and dissatisfaction. In their research, Herzberg et al (1959) concluded the factors that enhance satisfaction are different from those that cause dissatisfaction. The two factor theory stated that hygiene factors are a must, yet these hygiene factors do not necessarily lead to satisfaction. Hence, employees should focus on other working place motivating factors such as, achievements, recognition, work itself, responsibility, and advancement Herzberg. The theory of Herzberg et al, (1959) (14) has wide implications. For instance, school performance heavily relies upon the effective and quality performance of teachers which is closely connected to the intrinsic motivation and innate qualities of teachers. The finding of Herzberg et al. (1959) is consistent in agreement with Assgid, et al (2014) (5), who states that when teachers are satisfied with their mission this motivates them to achieve their goals. Motivation helps in creating a healthy academic atmosphere. According to Ingersoll (2003)(15), working conditions are the backbones that contribute to the effectiveness and prosperity of the teaching profession.

Job satisfaction

There has been extensive research on how working settings can become more productive and effective. Part of that research focused on the field of education. In this concern, improving the teacher's morale, conducting training sessions, promoting interpersonal skills, and providing suitable working conditions all factors that contribute that contribute to the enhancement of the teacher's job satisfaction. The finding of (Fagbamije, 2000) (16) agree with the finding of Durasoro (2000) (17), who states the influential factors of job satisfaction of teachers as follows: constant attainment of academic outcomes, reward and recognition, accountability, enhancement of interpersonal skills, decision making and incomes. He claims that if these factors are provided, the teaching/ learning cycle will be productive and effective. Ogundele (2002,2008)(18) (19) pictured the performance of the teachers as the level at which the teachers perform their jobs based on their satisfaction with their teaching career. Ibrahim (1999) (20) states that a dissatisfied teacher is an unhappy worker. He says that once the teachers are suitably motivated and satisfied, they will perform their jobs properly and effectively. According to Ibrahim ((1999) (20), among 2.5 Innate motivation.

Motivation and job satisfaction are pillars to attain the ultimate goal of the working place. Employees work to fulfill their needs and if fulfilled, they tend to be satisfied and motivated. Similarities and differences between Rowanda and chia. In this regard; once the teachers are motivated and satisfied, they will be more committed and dedicated to their job's mission (sargent and hannum,2005) (11). However, job stress, unfriendly atmosphere, and unsuitable working conditions could hinder the enhancement of the teacher's motivation and job satisfaction (Martin and Dow-

preciation, gratification with supervisors, work itself of teachers' in Lebanese private schools on their job satisfaction. The study as well studied the impact of job satisfaction on the intrinsic motivation of these teachers as an outcome.

The objectives of the study:

To analyze the influence of recognition, gratification with supervisors, and the work itself on job satisfaction of Lebanese private schools.

To examine the impact of job satisfaction on motivation of teachers in Lebanese private schools.

The significance of the study is that it evaluates the factors that can have significant positive influence on teachers teaching in Lebanese private schools in the light of their job satisfaction and motivation.

1.1 Theoretical Background

Various factors impact a person's attitude, action, and productivity. Different theories have been provided to give insight into how people behave and how they are motivated to attain the demanded tasks of their work. The most influential theory provided among these is Maslow's Theory (1943-1970) (8) named as "Need-Based Theory of Motivation". Maslow's theory arrayed the person's needs in a hierarchical manner. These needs/ factors are the ones that motivate the worker, such as physiological needs, sense of belonging, safety, self-realization, and self-appreciation. In the body of any organization, the first factor to motivate the employee is payment to meet his physiological basic needs. Then, the employee needs to give the feeling of being safe, secure, and protected in the working place provided that all working conditions should be met. Later, the employee needs to require a sense of belonging to the workplace. Afterwards, respect, appreciation, and recognition requirements are to be fulfilled. When all of the above needs are met, the employee seeks for self-esteem, self-worth, and self-realization. Once the employee recognizes his personal worth, the organization's potentials are met.

Review of literature

2. Recognition, gratification with supervisors, work itself, job satisfaction, and motivation are reviewed as under.

2.1 Recognition

In educational institutions, like other organizations, recognition is one of the important factors that can positively influence job satisfaction and motivation (Ali and Ahmed, 2009) (9). This finding is in agreement with the findings of other researches. Katou (2008) (10) states that job satisfaction and motivation of teachers can be enhanced if more focus is given to the employees' reward and recognition. Teachers are judged according to their professional competence. In the teaching career, the teachers' position gives them recognition for their abilities, yet recognition alone may not be effective (Sargent and Hunnum, 2005) (11). This finding is supported by Fisher and Ackerman (1998) (12) who claim that recognition might motivate employees to accomplish their tasks, but its effects may not be measurable without paying something.

2.2 Gratification with supervisors

Effective supervision is said to be the other factor to influence teacher's job satisfaction. Sagala states that supervisors are the ones that aim to generate instructional improvement and develop the teaching/ learning process. In education, supervision is responsible for guiding teachers to

The impact of job satisfaction and motivation on Lebanese English school teachers performance

Joumana Obeid, Diana Malaeb, Bouchra Mouhtadi, Rola Yazigi

Abstract:

The factors that contribute to job satisfaction of teachers, and the factors that motivate them to accomplish their career tasks remained an area of concern and interest to the researchers and the experts in the field of education. Knippenberg (2000)(1) estimates that job satisfaction and motivation influence the performance and the productivity of teachers. In this regard, this study was conducted to examine the influence of reward and appreciation, gratification with supervision, and the job itself as independent variables on the teacher's job satisfaction as a dependent variable. In addition, the study explored the association between job satisfaction of teachers and their intrinsic motivation. The study was done with the help of responses collected from teachers teaching in Lebanese private schools. A research questionnaire was used and distributed to 500 school teachers of different levels. In total, 350 responses were collected and analyzed. The results of the study showed significant and positive association between the teachers' appreciation and recognition, gratification with supervisors, and the job itself with the job satisfaction. The study further tested the relationship between the teachers' job satisfaction and their intrinsic motivation, and the results showed a positive association between both of these as well.

Keywords: (Reward and Recognition), Gratification with Supervisors, Work Itself, Job Satisfaction, Intrinsic Motivation.

1. Introduction

The most valuable assets of any institution are the human resources, for they are the bed rock of any working place. (1) (Dessler,2011) (2). The quality management is the one that recognizes the effectiveness and contributions of each employee to maintain a quality team of individuals (ZhengW, Kaur S, Zhit (2010))(3). As workers, our productivity and performance are influenced by motivation that acts as a driving force for job outcome (Ng & Feldman, 2009) (4). Eventually, the goals of any institution are accomplished and achieved with the help of a highly motivated team of workers. In this regard, there has been an increasing interest in job satisfaction of teachers in their working environment during the last two decades. Asagrid, Belachew, and Yimam (2014) (5) estimated that the ability to produce, the quality of the work itself, the opportunity to express creativity and promote, the ability to be a team member, the satisfaction with gaining social relationships, the chance to get some personal growth, the support given by the supervisors and coordinators, the recognition and reward addressed are all variables that influence the job satisfaction of teachers.

According to Campell (1990)(6), workers are employed to perform with efficiency and effectiveness (Aziri, 2011)(7).

The aim of the study was to examine the influence of the following incentives of reward and ap-